الآثار الأندلسية الباقية

في إسبانيا والبرتغال

تأليف

محمد عبد الله عنان

دراسة تاريخية أثرية

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة



محمد عبد الله عنان

الآثار الأندلسية الباقية

في اسبانيا والبرتغال

دراسة تاريخية أثرية

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة

الطبعة الثانية

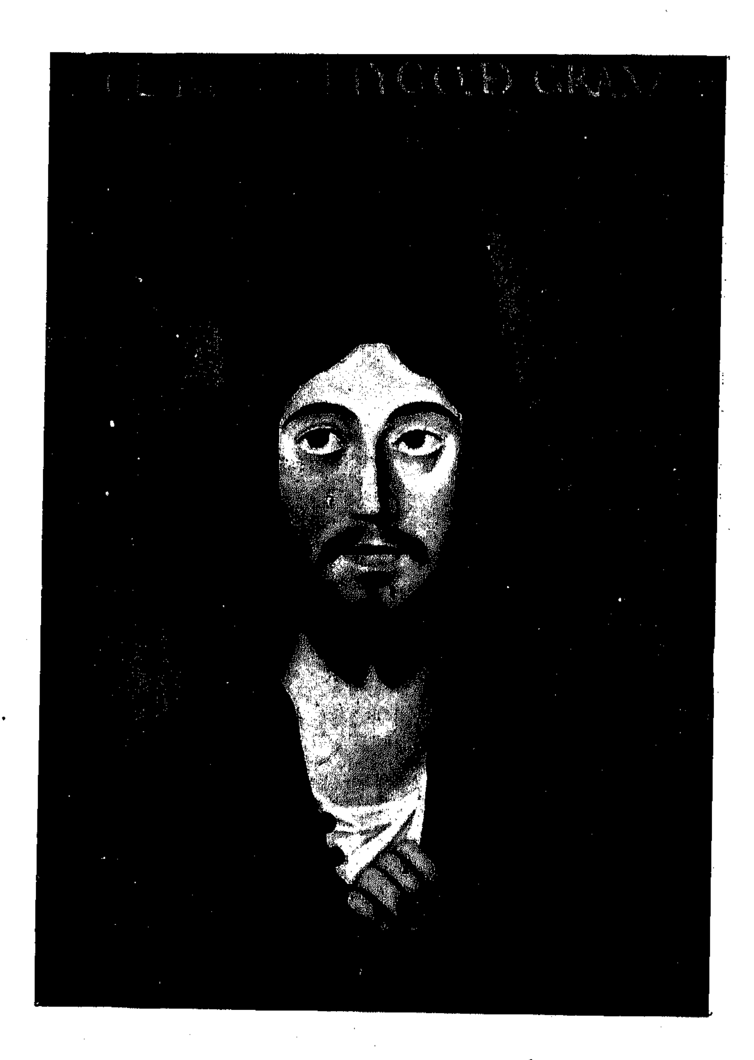
١٤١٧هـ = ١٩٩٧م

رقم الإيداع : ٩٧/٣/٢٩

الترقيم الدولى I.S.B.N

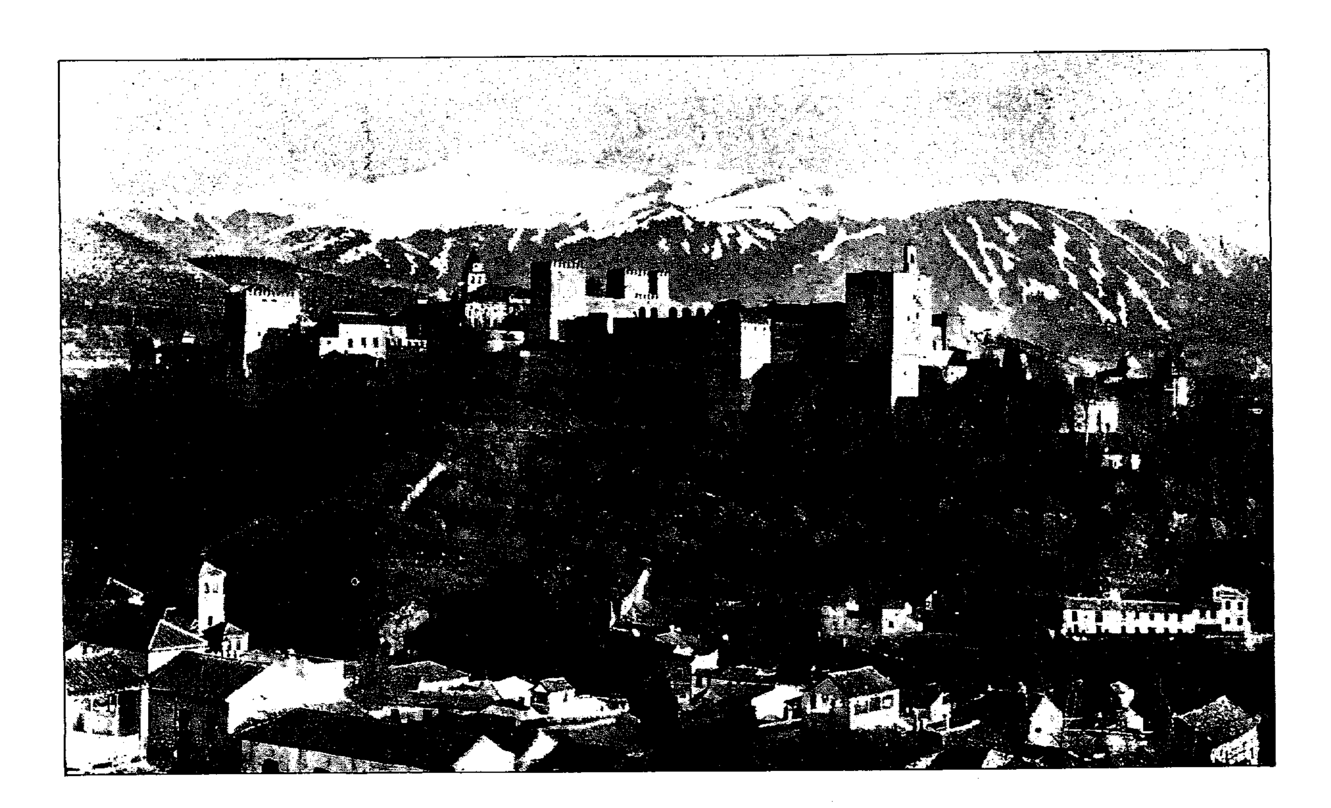
977-5046-33-5

مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة، ت : ٤٨٢٧٨٥١

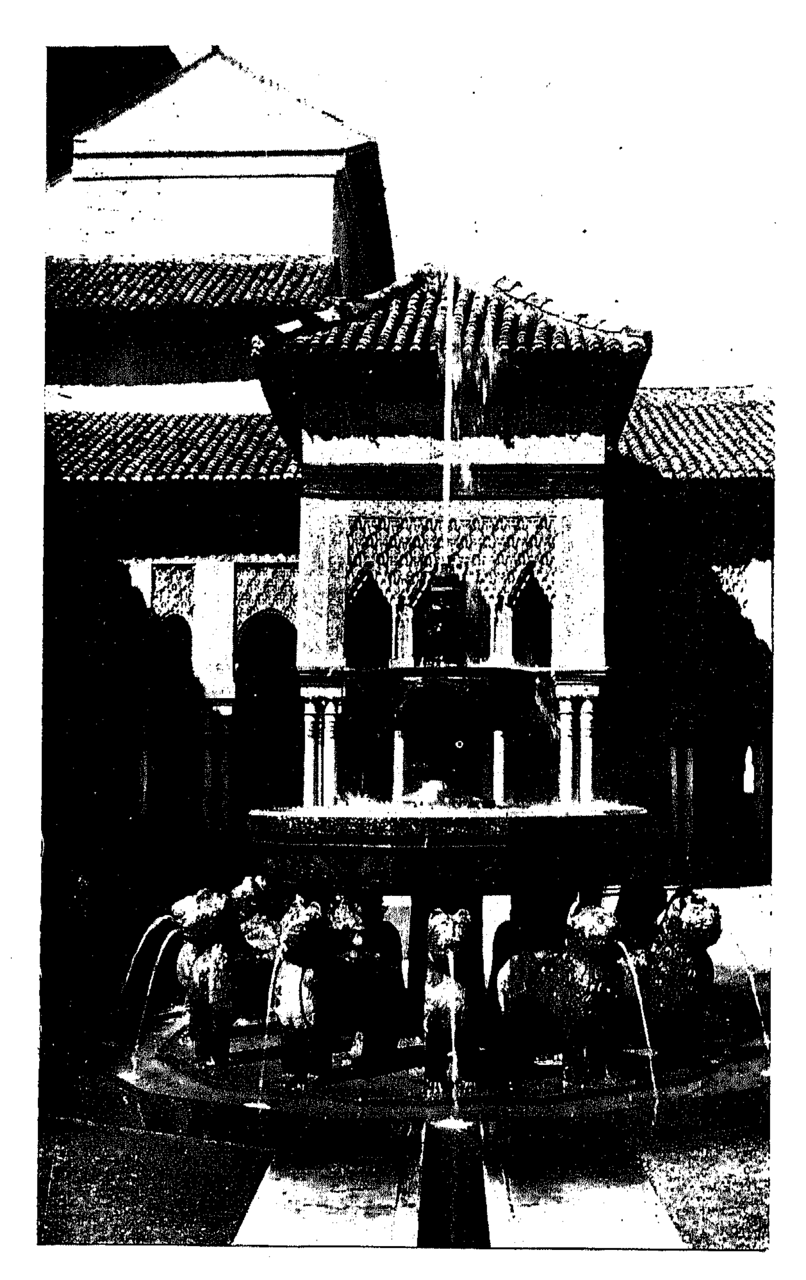


أبو عبد الله محمد آخر ملوك الأندلس

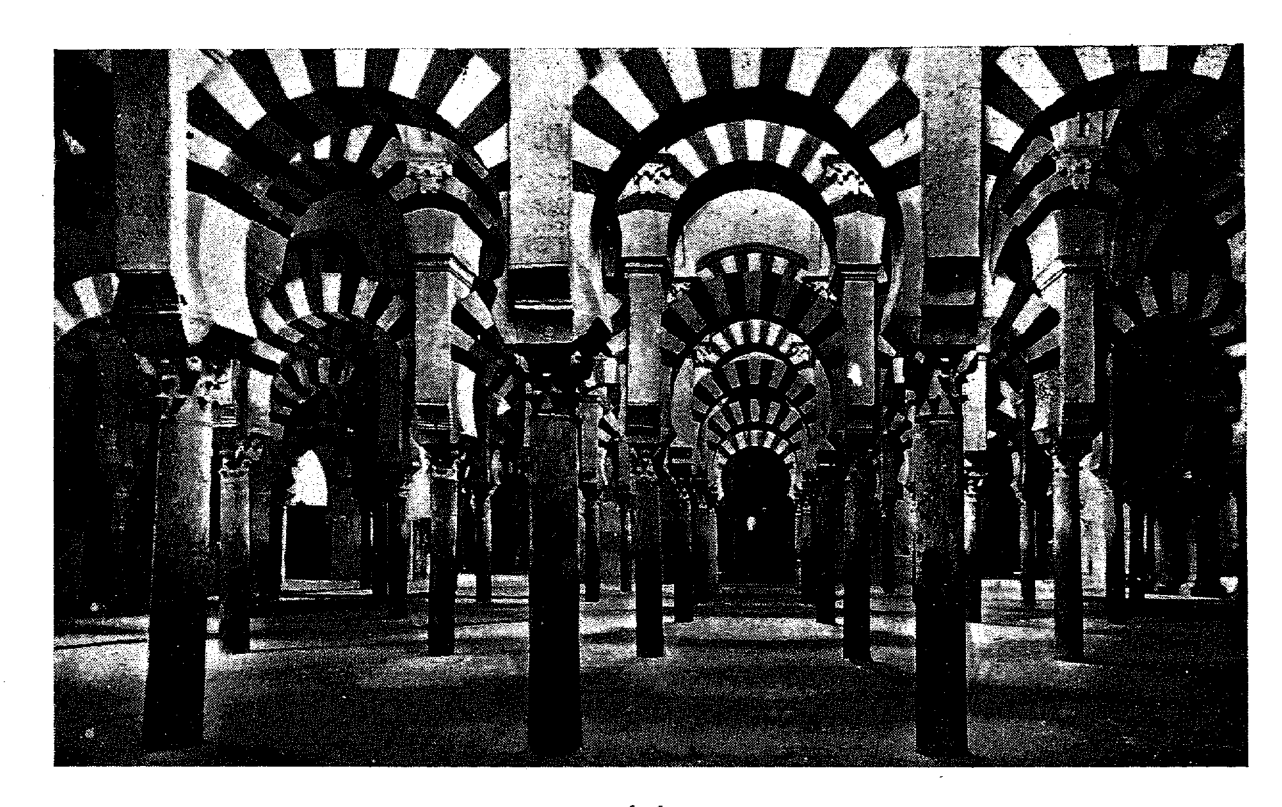
عن الصورة التى كانت محفوظة من قبل بمتحف جنة العريف بغرناطة



غرناطة . منظر عام لمدينة الحمراء وقد ظهرت من ورائها جبال سييرا نفادا مجللة بالثلوج

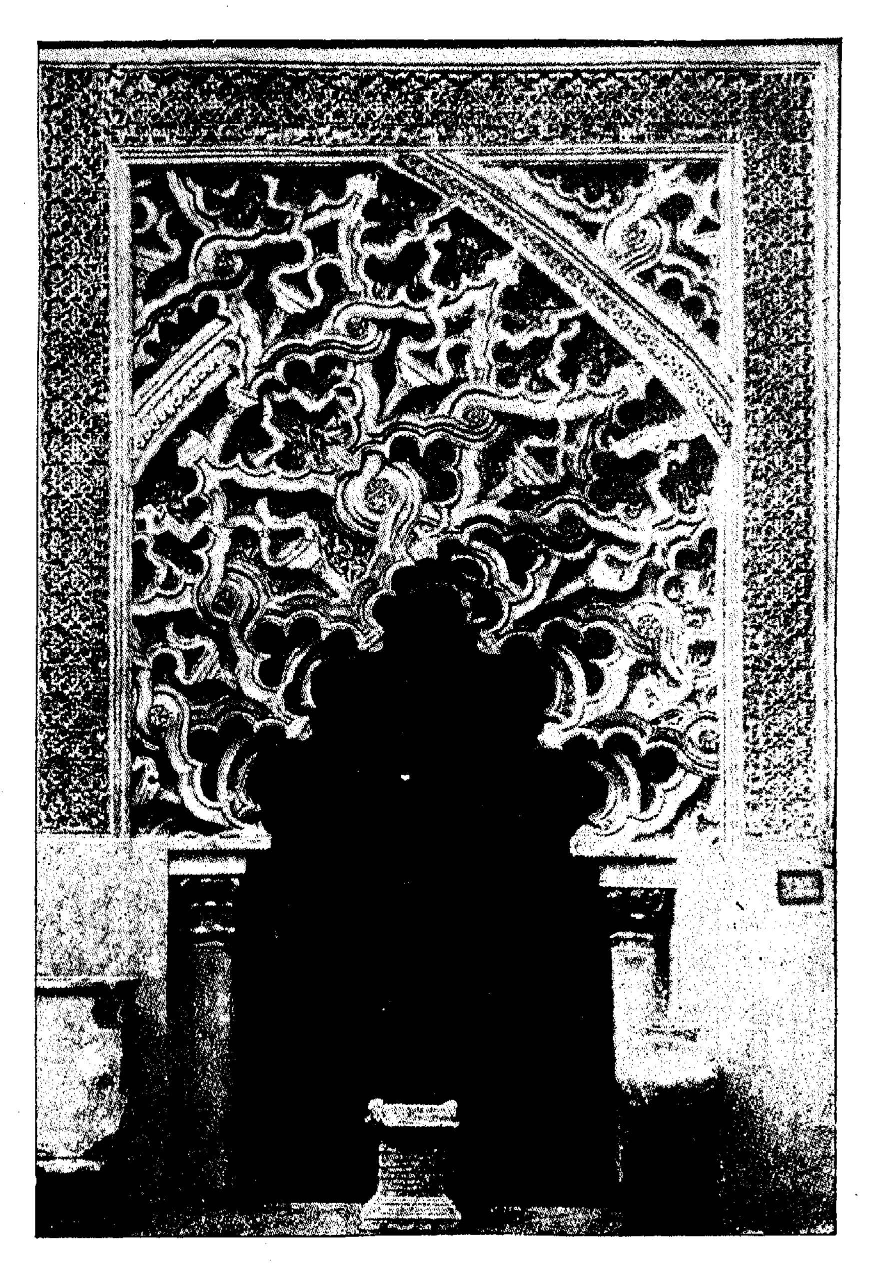


قصر الحمراء . نافورة فناء الأسود ومن ورائها الشرفة الوسطى



جامع قرطبة . الجناح القديم الذى أنشأه عبد الرحمن الداخل وولده هشام
(سنة ١٧٠ – ١٧٧ ﻫ) (٧٨٦ – ٧٩٣ م)





سرقسطة . عقد من عقود قصر الجعفرية (قصر بنى هود) محفوظة بمتحف مدريد الوطنى

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

كان من عناية الله أن أتيح لى ، أن أحقق أمنية قديمة طالما جاشت بها نفسى ، وأنا أكتب تاريخ الأندلس ، هى أن أزور هذه الربوع القديمة ، التى لبثت قروناً مثوى دولة إسلامية عظيمة ، وحضارة إسلامية زاهرة ، وأن أشهد ما تبقى فيها من الآثار الأندلسية الباقية ، وأتقصى بنفسى ، ما تبقى منها منطبعاً من العادات والتقاليد الأندلسية ، وأعيش حيناً فى هذا الجو ، الذى عاش فيه من قبل ملايين من المسلمين ، فى عز وسؤدد ورخاء .

واليوم وقد زرت هـــذه الربوع العزيزة مراراً ، وتجولت فى سائر مدنها ونواحيها ، وشهدت خواصها الطبيعية ، واستطعت أن أستشف كثيراً من طبائع أهلها ، وتقاليدهم وعاداتهم ، يجدر بى أن أقدم نتيجة هذه الدراسة ، وهى ما تزال حية فى نفسى ، ماثلة فى مشاعرى .

إن الأندلس القديمة ، تبدو اليوم بلاداً إسبانية نصرانية محضة ، لاتكاد تشعر وأنت تتجول فيها ، أن هذه البلاد ، كانت يوماً منزل أمة عربية إسلامية ، اللهم إلا ما يصادفك من آثار قليلة ، تذكرك بهذا الماضى البعيد . وحتى هذه الآثار ، فيما خلا بضعة صروح عظيمة ، مثل حمراء غرناطة ، وجامع قرطبة ، وبعض الحصون والقصبات الأندلسية القديمة ، تكاد تختفى تحت أثوابها النصرانية ، التى خلعتها عليها الأمة الغالبة ، منذ عصر « الإسترداد » La Reconquista .

إن قرطبة ، وإشبيلية ، وطليطلة ، وسرقسطة ، وبلنسية ، ومرسية ، وشاطبة ، وجيّان ، وغرناطة ، ووادى آش ، ومالقة ، ورندة ، وشريش ، وبطليوس ، وماردة ، وباجة ، ويابرة ، وأشبونة ، وغيرها وغيرها ، من القواعد الأندلسية القديمة ، لاتكاد فيما خلا غرناطة وإشبيلية وقرطبة ، تبدى شيئاً من مظاهرها الإسلامية القديمة ، ولا نستطيع إلا بالبحث المجهد ، أن نظفر فى

بعض أحيائها أو أطلالها الدارسة ، بلمحات ضئيلة من طابعها الأندلسى . فالمساجد كلها قد هدمت ، أو حولت إلى كنائس ، أو بنيت الكنائس فوق أنقاضها ، والأحياء الأندلسية القديمة ، قد اختفت فى معظم المدن أو غاضت معالمها ، ولم تبق منها إلا بقايا متناثرة ، هنا وهنالك فى سفوح القصبات والحصون الأندلسية القديمة ؛ وحتى هذه الأحياء الأندلسية التى مازالت تقوم فى أعماق بعض المدن القديمة ، تبدو فى أثواب متواضعة رثة ، وقد أسلم معظمها لغمر النسيان والعفاء .

على أنه توجد مع ذلك طائفة هامة من الصروح والآثار الأندلسية ، التى شاءت العناية أن تنجو من أحداث الزمن وعادية المحو والفناء ، فى عدة من القواعد الأندلسية الذاهبة . وإذا تركنا حمراء غرناطة وجامع قرطبة جانباً ، فإن معظم هذه الصروح والآثار ، يتمثل فى طائفة من القلاع (القصبات) الأندلسية القديمة ، والقصور التى كانت ملحقة بها ، وفى بعض القناطر العربية ، التى أبقت عليها يد الدهر ، وبقايا الأسوار والأبواب والحمامات الأندلسية القديمة ، ثم فى بعض الأطلال التى تركت إلى جانب بعض الكنائس ، التى أقيمت فوق أنقاض المساجد ، من منارات حولت إلى أبراج للأجراس ، ومن عقود أو أسوار أو مشارف دارسة ، وأخيراً فى عدد عديد من الذخائر والتحف واللوحات الأندلسية ، المبعثرة هنا وهنالك فى بعض الكنائس والمتاحف الإسبانية . وهذا كله إلى ماخلفه الفن الأندلسى من أثر خالد ، فى طراز كثير من الصروح الإسبانية التاريخية ، من كنائس وقصور وأبواب وعقود وغيرها ، وفى زخارفها ونقوشها ، وما خلفه فن المدجنين الذى اشتق من الفن الأندلسى ، من الآثار الظاهرة فى طراز كثير من الصروح ، التى أنشئت فى مختلف المدن الإسبانية ، منذ القرن الثالث عشر إلى القرن السادس عشر .

* * *

ولقد تجولت فى سائر القواعد الأندلسية الذاهبة ، التى أضحت اليوم مدناً نصرانية إسبانية أو برتغالية ، أشاهد وأتقصى هذه الآثار والأطلال ، والذخائر الأندلسية الباقية ، هنا وهنالك ، وأستوعب لمحاتها المندثرة . وقد استغرق منى هذا التجوال خمس رحلات متوالية ما بين سنتى ١٩٥٠ و ١٩٥٤ ؛ ولم يكن دائماً سهلا ولا هيناً فى ظروف المواصلات الإسبانية المعروفة ، ومع ذلك فقد استطعت أن أزور نيفا وستين مدينة أندلسية ونصرانية لها علاقة بتاريخ الأندلس ، واستطعت

أن أقيد خلال تجوالى ومشاهداتى ، كثيراً من المعلومات والملاحظات القيمة. وكنت أقيد مذكراتى على الفور ، فوق الصروح والأطلال الدارسة ، وفى ثنايا الكنائس الجامعة ، وفى أروقة المتاحف العديدة ، حتى اجتمعت لدى منها طائفة كبيرة ، رأيتها جديرة بالتدوين والتنسيق والإخراج .

وقد لفتت نظرى أثناء هذا التجوال الشامل ظاهرة تبعث إلى كثير من التأمل . ذلك أنى شاهدت فى كثير من المدن الإسبانية والبرتغالية ، التى كانت من قبل قواعد أندلسية إسلامية ، كثيراً من الآثار الرومانية والقرطاجنية والإيبيرية ، ومنها معابد ومسارح ، وهياكل أخرى كاملة . ودعك من القناطر والحصون والعقود والأسوار الرومانية ، التى كانت قائمة فى كثير من مدن شبه الجزيرة الإسبانية حينما فتحها المسلمون ، والتى مازال معظمها قائماً حتى اليوم فى حالة جيدة ، مثل أسوار آبلة وطّركونة العظيمة ، والقناطر المائية الضخمة فى شَقوبية ، وماردة ، وغيرهما ، ومن الحصون والعقود والقناطر النهرية عدد عديد ، فهذه كلها أبقى عليها المسلمون طوال عهدهم ، وعملوا على تجديدها وإصلاحها والانتفاع بها . ودعك من الكنائس القوطية التى كانت قائمة وقت الفتح ، وأبقى المسلمون على معظمها لعبادة رعاياهم النصارى . ولكن المدهش حقاً هو أن المسلمين قد أبقوا فى نفس الوقت على المعابد الوثنية والنصرانية الرومانية وغيرها ، لم يقوموا بهدمها ، ولم يمسوها بسوء . وإليك بعض أمثلة بارزة لهذه الآثار الوثنية والنصرانية ، التى كانت قائمة أيام المسلمين ، وما زالت قائمة إلى يومنا :

(١) فى مدينة يابرة البرتغالية ، يوجد معبد رومانى كامل ، هو المعروف بمعبد ديانا ، وهو من أجمل وأكمل المعابد الرومانية فى شبه الجزيرة .

(٢) فى مدينة ماردة يوجد معبد رومانى ، ومسرح رومانى عظيم ، يقابله «أمفتياتر» رومانى ، يضارعه فى الروعة والفخامة . كما يوجد قوس تراجان الشهير .

(٣) فى مدينة ساجنتو (مربيطر) وهى ضاحية بلنسية ، يوجد مسرح رومانى كامل .

وقد لبث المسلمون قروناً سادة فى هذه القواعد الأندلسية ، ولم يفكروا فى هدم هذه الآثار القديمة ، من رومانية أو غيرها ، مع كونها وثنية أو نصرانية . والسر فى ذلك بسيط واضح ، هو أن المسلمين كانوا بعقليتهم المستنيرة ، ودينهم السمح ، يرون أن هذه الآثار إنما هى ذخائر فنية من تراث العصور الغابرة يجب الإبقاء عليها ، وكانوا بذلك يرتفعون بالقيم الفنية إلى مستوى لاتصدع منه

الإعتبارات الدينية الضيقة . وهذه الإعتبارات الدينية الضيقة هى التى حملت السياسة الإسبانية فى عصور التزمت والتعصب ، على أن تقصد بالمحو والإفناء الشامل ، كل ما خلفته الأمة الأندلسية من مساجد وصروح وآثار جليلة . وربما كان ثمة إلى جانب الإعتبارات الدينية ، اعتبار معنوى آخر هو أن لاتبقى الأمة الغالبة على شىء أو على كثير من روائع الفن الأندلسى ، حتى لاتكون شاهداً أمام الأجيال اللاحقة ، بما كانت عليه حضارة الأمة المغلوبة من مستوى رفيع باهر . وقد يرجع إفلات بعض الصروح والآثار الأندلسية القليلة ، التى نجت من سياسة المحو والإفناء ، إلى كفاح بعض الأذهان الإسبانية المستنيرة ، كما حدث بالنسبة لجامع قرطبة ومنارة إشبيلية ، وحمراء غرناطة ، والتى اقتصر ظفر التعصب على بترها أوتشويهها .

* * *

وقد تحدثت وأنا بمدريد فى هذا الموضوع مع العلامة والمؤرخ الإسبانى الكبير الأستاذ مننديث بيدال . فحاول أن يشرح موقف السياسة الإسبانية من هذه المسألة على النحو الآتى :

« إنه من المستحيل أن يطلب إلى عقلية القرن الثالث عشر والرابع عشر ، أن تحترم مساجد مخصصة لعبادة أخرى . ولم يكن من المعقول أن تترك المساجد ، إذ لم يكن لوجودها محل ، فهدمت لتقوم الكنائس . وإنه ليكون سبقاً للتاريخ أن يطلب احترامها . وقد كانت إسبانيا فى عصر البروتستانتية (الإصلاح الدينى) بلداً لايدين بالتسامح .

ولكن اسبانيا كانت قبل سقوط غرناطة ، تحتفظ بالأديان الثلاثة : النصرانية والإسلام واليهودية ، وكان سان فرناندو (الملك فرناندو الثالث) ملك الأديان الثلاثة ، وشعار قبره مكتوب باللاتينية والعربية والعبرية .

وكذلك كانت اسبانيا تبدو فى هذه العصور أحياناً أكثر تسامحاً من غيرها . مثال ذلك أن الصليبيين الفرنسيين فى موقعة العُقاب (١٢١٢ م) نكلوا عن متابعة الحرب ، حينما رأوا زملاءهم الإسبان يأبون قتل الأسرى المسلمين . وقبل ذلك فى موقعة باب الشزرى Roncesvalles (٧٧٨ م) ، أمر شارلمان أن يقتل من لم يعتنق النصرانية من الأسرى المسلمين » .

ولا بأس بهذه التعليلات والمقارنات التاريخية . بيد أنها لايمكن أن تكفى لتبرير سياسة الأمة الغالبة فى القضاء على الآثار الأندلسية ، وقد كان من هذه الآثار غير

المساجد ، مدارس وقصور وحمامات وصروح مختلفة أخرى ، تناولتها جميعاً سياسة الهدم والإفناء الشامل . وهذا اللوم لموقف السياسة الإسبانية من تراث الأمة المغلوبة ، يردده كثير من العلماء الإسبان أنفسهم حسبما يجيء خلال الكتاب .

وكذلك لا يمكن أن تصدع هذه التعليلات والمقارنات التاريخية ، من قدر السياسة المستنيرة السمحاء ، التي أملت على الفاتحين المسلمين ، احترام تراث الأجيال الغابرة الفني ، المدني والديني ، في اسبانيا وفي غيرها .

* * *

وانى لأضع اليوم بين أيدي قراء العربية هذه الدراسة الشاملة ، وهذه الصور المختلفة للآثار الأندلسية الباقية ، في سائر القواعد الأندلسية الذاهبة ، مليئة بالعبر التاريخية المؤلمة . وأود أن أنوه بأني لم أقصد بما كتبت تدوين رحلة أو مشاهدات شائقة عابرة ، ولكني أردت أن أقدم قبل كل شيء دراسة تاريخية أثرية لهذا التراث الأندلسي ، الذي مازال ماثلا أمام أعيننا ، ينبئنا بكثير من عظمة الماضي وروعته .

وقد عنيت عناية خاصة بمسألة الخرائط والصور ، فحصلت على مجموعة كبيرة من الخرائط الإسبانية التفصيلية ، وخطط المدن الأندلسية ، كما حصلت على مجموعة كبيرة من صور الآثار الأندلسية في مختلف البلاد التي زرتها ، ومنها ماصورته بنفسي ، وقد أوردت منها في هذا السفر طائفة كبيرة ، تستبين منها عظمة هذه الآثار وروعتها .

وإني أنتهز هذه الفرصة لأقدم جزيل الشكر إلى مختلف السلطات الإسبانية ، ولا سيما دور البلديات ، ومكاتب السياحة ، والمتاحف ، والكنائس والأديار ، ودور المحفوظات ، في مختلف البلاد التي زرتها ؛ وكذلك إلى العلماء والأصدقاء الإسبان الذين لقيتهم ، واتصلت بهم خلال رحلاتي المتوالية ، لما لقيت منهم جميعاً من ضروب المعاونة والمجاملة . وأخص بالذكر منهم الأساتذة لويس سيكو دى لوثينا وسبستيان لومبريرو بغرناطة ، وفيلكس هرناندث بقرطبة ، والدكتور بايري بطرطوشة ، والأستاذ كادينا بقسطلونة ، والدكتور سارتاوو كاريرس بشاطبة ، والدكتور بوسكيتس مولت بميورقة ، والأب رمباوو برندة ، والسنيور خوان تمبوري ألفاريث بمالقة ، وغيرهم ممن لم تحضرني أسماؤهم .

كما أقدم جزيل الشكر إلى معهدنا المصري بمدريد لما أسدى إلى من معاونات قيمة لدى مختلف الهيئات العلمية .

القاهرة في يوليه سنة ١٩٥٦ — محمد عبد الله عنان

خطاب إلى المؤلف

من العلامة المؤرخ الأستاذ پيدال

ثارثال ، رقم ٢٣ (شامرتين) مدريد — فى ٩ أكتوبر سنة ١٩٥٧

الأستاذ م . ع . عنان — مدريد

صديقى المحترم

لك خالص الشكر لإرسالك إلى كتابك «الآثار الأندلسية فى اسبانيا والبرتغال» وهو الذى تعرض فيه نتائج رحلاتك ودراساتك فى هذه الأعوام الأخيرة فى الجزيرة الإسبانية ؛ وإنه لما يستحق جزيل الشكر ، أن تقوم بالتعريف بهذه الأشياء باللغة العربية ، لأنى أعتقد أنه من الضرورى جداً ، أن تقع المعرفة المتبادلة ، والإدراك المتبادل ، والتقدير المتبادل .

بيد أنى أود فقط آن أبدى بعض إيضاحات صغيرة حول التأكيدات التى أبديتها بالنسبة للمعاملة المختلفة التى قام بها كل من المسلمين والإسبان تجاه الآثار التى لقوها عند فتوحهم ؛ وعند استردادهم لهذه الفتوح . واعتقادى أن الآثار الرومانية ، وما قبل الرومانية ، قد بقيت مصونة لمتانتها الفائقة ، فى حين أن العمارة العربية هى أقل بكثير فى المتانة ، وأكثر اهتماماً بزخارفها الجصية الجميلة ، ولم يقم الإسبان بهدم المساجد الإسلامية ، ولكن الذى حدث هو أنهم — وهو ما يطابق المنطق — حولوها إلى كنائس نصرانية ، مثلما فعل العرب حينما استخدموا لمزاولة شعائرهم الكنائس النصرانية القديمة . وثمة أمر آخر ، وهو أنه عند ذكر التعبيرات الخاصة بالمناصب العسكرية والقضائية المشتقة من العربية ، تسرب سهو صغير حيث ذكرت كلمة Alvarez ، وهى لقب عائلى ، ويجب أن يذكر بدلا منها Alférez ، وهى منصب عسكرى .

وأما فيما يتعلق بما تبقى ، فإنى متفق معك . ذلك أن ما كاد ينتهى العصر الوسيط ، عصر التعايش المشترك ، حيثما كان يقوم فى القرى حى إسلامى بمساجده وحى يهودى بمعابده ، حتى جاء عصر التزمت وعدم التسامح .

وإنى مع أخلص تحياتى ، ما زلت أحتفظ عن محادثاتنا بأطيب الذكريات .

ر . مننديث پيدال

* * *

تلقيت هذا الخطاب من صديقي العلامة المؤرخ الكبير الأستاذ مننديث پيدال ، رئيس الأكاديمية الملكية الإسبانية ، وذلك على أثر ظهور الطبعة الأولى من هذا الكتاب ، واطلاعه على ترجمة ما ورد فى مقدمته خاصاً بموقف المسلمين من ... القديمة ، وموقف الإسبان من الآثار الأندلسية .

وإنى مع تقديرى لما جاء فى خطاب العلامة الكبير من الملاحظات ، أود أن أسجل هنا فقط نقطتين :

الأولى — ان الصروح الأندلسية من مساجد وقصور ومدارس وغيرها ، لم تندثر ، لأن العمارة الإسلامية أقل متانة من العمارة الرومانية ، ولكن لأنها قوضت وهدم معظمها تباعاً بأيدى الإسبان ، عقب « الإسترداد » . وأما فيما يتعلق بمدى متانة المعمارة الإسلامية فإنى أود أن أذكر هنا فقط صرحاً إسلامياً واحداً ، هو جامع قرطبة ، الذى حول إلى كنيسة جامعة ، والذى ما زال قائماً بعقوده وسواريه ، وسائر أبنيته فى أجود حالة من الحفظ ، وذلك بالرغم من أن أقدم أجنحته ، وهو الجناح الذى أنشأه عبد الرحمن الداخل الأموى ، قد مضى على بنائه زهاء ألف ومائتى عام .

الثانية — أن العرب عند الفتح لم يقوموا بهدم جميع الكنائس التى كانت قائمة بالمدن المفتوحة ، أو تحويلها جميعاً إلى كنائس ؛ وإنما الذى حدث وتؤيده جميع الروايات ، هو أنهم حولوا بعض الكنائس الرئيسية إلى مساجد ، وبنوا مكانها المساجد ، كما حدث فى قرطبة وطايطلة ، وبعض قواعد أخرى ، ولكن الثابت المحقق إلى جانب ذلك ، هو أنهم تركوا فى نفس الوقت فى سائر المدن الأندلسية كثيراً من الكنائس ، لكى يزاول فيها النصارى شعائرهم أحراراً كإخوانهم المسلمين . وقد كان المستعربون أو النصارى المعاهدون يكونون فى مختلف القواعد الأندلسية أقليات كبيرة ، وكانوا إلى جانب كنائسهم القديمة ، يقيمون كنائس من وقت إلى آخر . وكانت هذه الكنائس فى أحيان كثيرة ، تقوم إلى جانب المساجد . فأين هـــذا كله من سياسة الهدم الشامل التى اتبعتها اسبانيا النصرانية عقب « الإسترداد » نحو سائر المساجد والصروح الأندلسية الأخرى ؟ أنه لاشىء سوى التباين الواضح بين التسامح المستنير ، والتزمت المطبق .

محمد عبد الله عنان

تصـــــدير

للطبعـــة الثانية

منذ ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب ، استطعت أن أقوم برحلات جديدة لطائفة من المدن والأماكن الأندلسية التى لم يتح لى زيارتها من قبل مثل جيّان وأبّدة وبيّاسة فى شرقى الأندلس ، وإستجة وقرمونة ولبلة فى غربها ، وأرشدونة ومربلة والمنكب وشلوبانية ومتريل فى جنوبها ،وهذا فضلاعن زياراتى الجديدة المتكررة للقواعد الأندلسية الكبرى ، مثل قرطبة وإشبيلية وغرناطة ، ومالقة وغيرها ، وقد استطعت خلال هذه الرحلات الجديدة ، أن أقوم بدراسة طائفة كبيرة أخرى من الآثار الأندلسية الباقية ، وأن أجمع كثيراً من المعلومات الأثرية المفيدة .

ومن ثم فقد رأيت أن أصدر هذه الطبعة الجديدة من الكتاب ، متضمنة لتلك الدراسات الجديدة ، متضمنة فى نفس الوقت لكثير من الزيادات والتصحيحات ، الإصطلاحية والأثرية ، التى اجتمعت لى خلال المراجعات العديدة التى قمت بها فى الأعوام الأخيرة ، ومنها مراجعات لمصادر مخطوطة هامة .

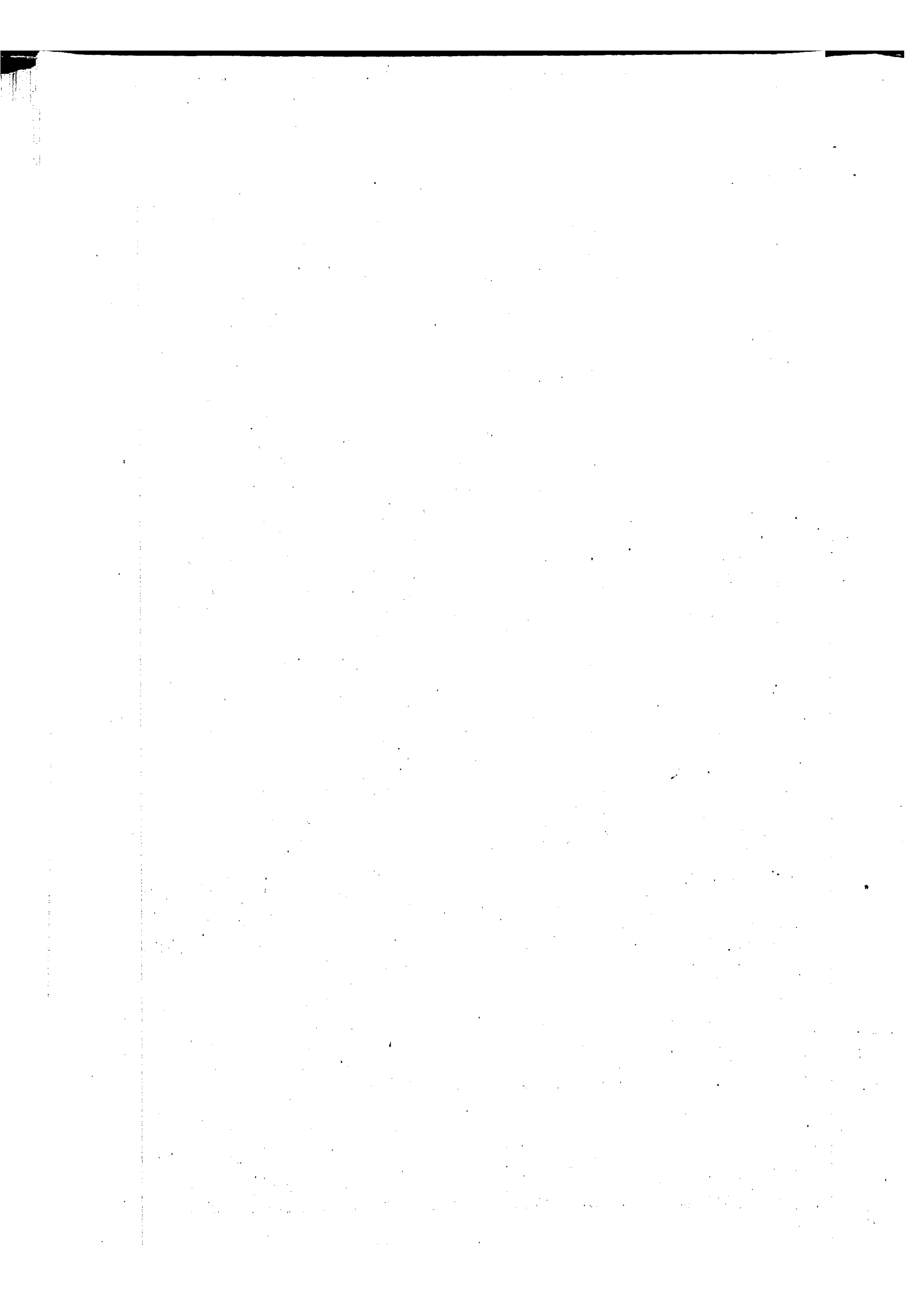
وقد أضيفت إلى الكتاب طائفة كبيرة جديدة من الصور الأثرية لمختلف المدن والأماكن الجديدة التى زيدت فى هذه الطبعة ، هذا إلى ما أضيف إليه من الصور الجديدة ، لبعض المدن والأماكن السابقة .

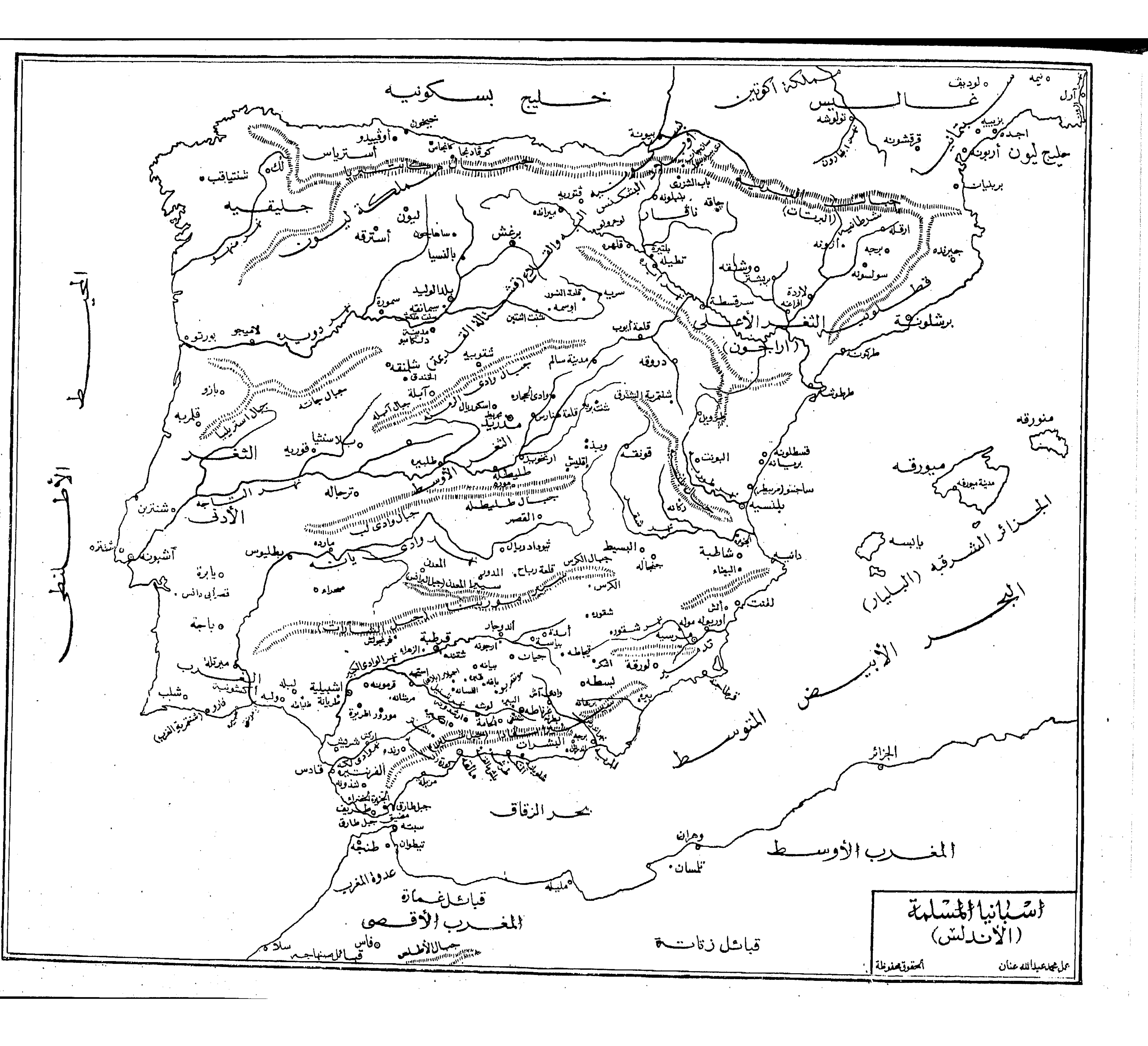
وكذلك أجريت فى تنظيم الكتاب بعض التعديلات ، من تقديم وتأخير اقتضاه تنسيق المواد القديمة والجديدة .

وإنى إذ أضع هذه الطبعة الجديدة من الآثار الأندلسية الباقية ، بين أيدى القراء ، أرجو أن أكون قد استطعت أن أنقل إليهم صورة جامعة لذلك التراث الأثرى المؤثر — تراث الأمة الأندلسية المجيدة .

القاهرة فى ربيع الثانى سنة ١٣٨١
سبتمبر سـنة ١٩٦١

محمد عبد الله عنان





تصـــــدير

للطبعـــة الثانية

من هذا الكتاب ، استطعت أن أقوم برحلات
كن الأندلسية التى لم يتح لى زيارتها من قبل مثل
الأندلس ، وإستجة وقرمونة ولبلة فى غربها ،
وبانية ومتريل فى جنوبها ،وهذا فضلاعن زياراتى
لسية الكبرى ، مثل قرطبة وإشبيلية وغرناطة ،
خلال هذه الرحلات الجديدة ، أن أقوم بدراسة
الأندلسية الباقية ، وأن أجمع كثيراً من المعلومات

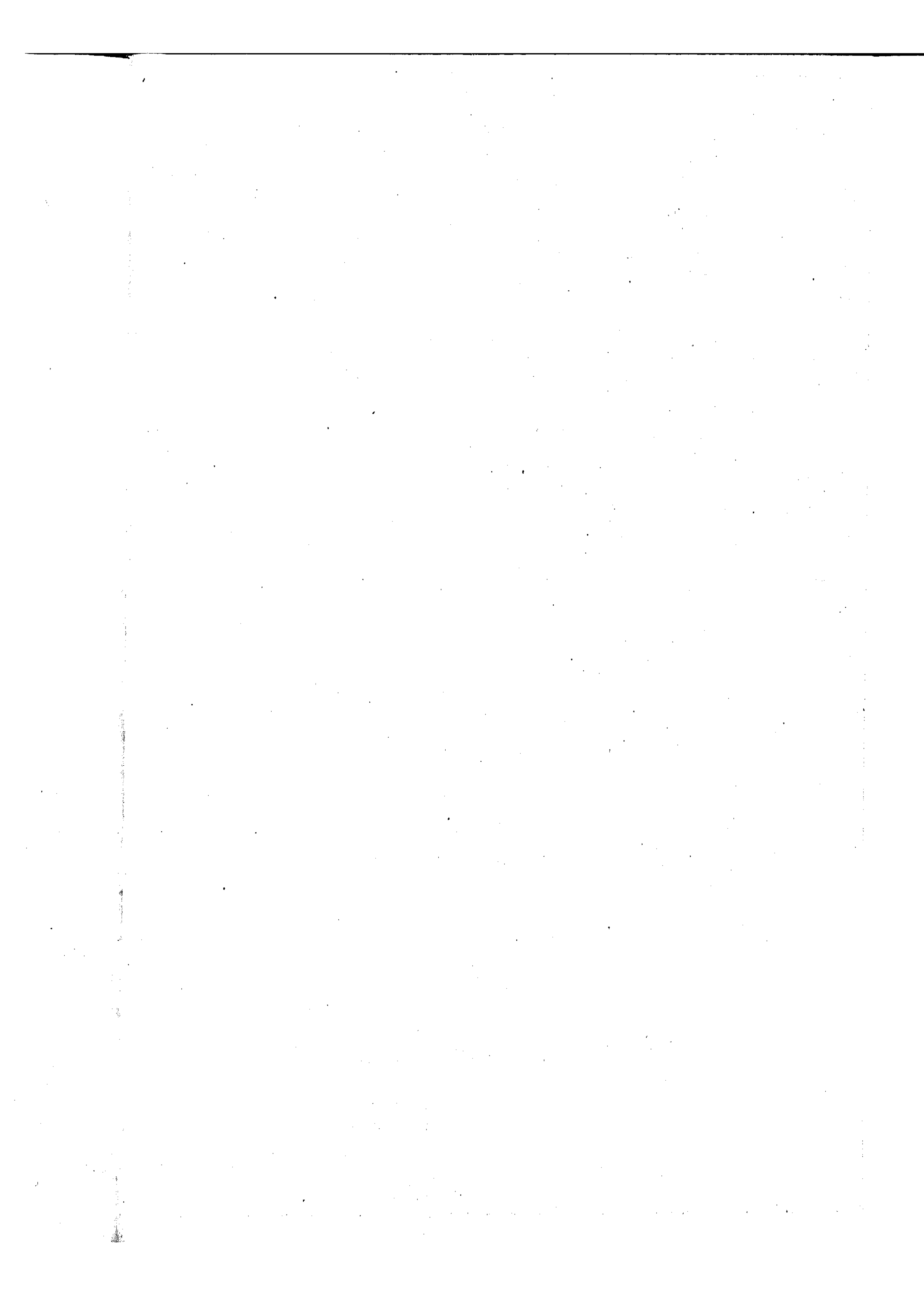
ر هذه الطبعة الجديدة من الكتاب، متضمنة لتلك
نفس الوقت لكثير من الزيادات والتصحيحات ،
تمعت لى خلال المراجعات العديدة التى قمت بها
جعات لمصادر مخطوطة هامة .

ائفة كبيرة جديدة من الصور الأثرية لمختلف المدن
ى هذه الطبعة ، هذا إلى ما أضيف إليه من الصور
كن السابقة .

كتاب بعض التعديلات ، من تقديم وتأخير اقتضاه

الجديدة من الآثار الأندلسية الباقية ، بين أيدى
طعت أن أنقل إليهم صورة جامعة لذلك التراث
لأندلسية المجيدة .

محمد عبد الله عنان



الكتاب الأول

القواعد الأندلسيّة الكبرى

١ – قرطبـــــة

Córdoba

لبثت قرطبة زهاء ثلاثة قرون ، قاعدة الدولة الإسلامية بالأندلس ،ومركز الفتوح والغزوات المختلفة ، ومثوى الحركة العقلية الأندلسية . ولبثت حتى بعد انهيار الخلافة ، تحتفظ فى ظل الطوائف ، ثم المرابطين والموحدين ، بكثير من هيبتها التالدة ، كقاعدة رئيسية من قواعد الإسلام فى اسبانيا . وكان لسقوطها فى أيدى القشتاليين فى سنة ١٢٣٦ م (٦٣٣ ﻫ) أعظم وقع فى الأندلس ، وفيما وراء البحر. ومع أن مجتمعها الإسلامى التالد ، أخذ ينهار منذ سقوطها بسرعة ، وقد غادرها أكثر سكانها المسلمين ، ولاسيما الأشراف وأبناء الطبقات الممتازة ، فراراً إلى القواعد الإسلامية الأخرى ، فقد بقى بها فى ظل حكم القشتاليين كثير من المسلمين الذين تدجّنوا[1] ، ثم فقدوا بمضى الزمن ، وحكم الاندماج فى المجتمع الجديد ، خواصهم ودينهم ولغتهم ؛ ولم يمض زهاء قرن أو قرنين ، حتى كان المجتمع الإسلامى فى قرطبة ، قد غاضت آثاره الأخيرة .

وقرطبة مدينة أندلسية إسبانية عريقة ، ترجع إلى العصر الرومانى . وهى تقع على سفح جبال قرطبة الجنوبى ، على منحنى الضفة الشمالية لنهر الوادى الكبير ، وهى عاصمة الولاية الأندلسية المسماة بهذا الاسم . وتربتها مزيج بين البسائط الخضراء ، حيث تزرع الحبوب والكروم ، وغابات الزيتون وحدائق البرتقال والليمون ، وبين السفوح المنحدرة من جبال سييرا مورينا[2] حيث توجد المراعى الطيبة . وهى فى الوقت نفسه ، مدينة صناعية ، بها مناجم الفحم والرصاص والنحاس ، وأهم صادراتها الفواكه والنبيذ والزيت .

ولاتعدّ قرطبة اليوم ، من المدن الإسبانية الكبيرة ، وهى ليست فى مرتبة بلنسية أو إشبيلية من حيث اتساع الرقعة ، أو كثافة السكان ، ولايعدو سكانها

---

(١) من تدجن أى ألف واستأنس ، ومنها مدجن ومدجنون ، وبالإسبانية **Mudéjares** وهم المسلمون الذين كانوا يعيشون تحت حكم الإسبان .

(٢) جبال سييرا مورينا **Sierra Morena** هى بالعربية « جبل الشارات » .

اليوم مائة وثمانين ألف نفس ، وقد بلغوا فى عهد ازدهارها أيام الدولة الإسلامية زهاء خمسمائة ألف .

واليوم تبدو عاصمة الخلافة الأندلسية القديمة ، مدينة أوربية بكل معانى الكلمة . وهى تكاد تكون مربعة الرقعة . وأعظم شوارعها « متنزه القبطان الأعظم » "Paseo del Gran Capitán" ، وهو شارع عريض جداً تقوم على جانبيه طائفة من المبانى الفخمة المحدثة ، والقبطان الأعظم الذى سمى باسمه هو « جونثالڤو دى كوردبا » وهو من أعظم قواد اسبانيا أيام الملكين الكاثوليكيين فرديناند وإيسابيلا ، فاتحى غرناطة ؛ ويقاطع هذا الشارع . شارع عظيم آخر هو شارع « كناليخاس » ، "Avenida de Canalejas" ، وعند تقاطعهما يقع « ميدان الثيران » ، حيث توجد ساحة مصارعة الثيران . وأهم ميادينها التجارية « ميدان كانوڤاس» "P. de Cánovas"[1] ، وعلى مقربة منه يقع « ميدان إشبيلية» ، ويتفرع من كليهما بعض الشوارع الضيقة التى تؤدى إلى المسجد الجامع . ومن أهم شوارعها الوسطى « شارع سان پاپلو» وشارع « سان لورنسو » وشارع « سان فرناندو» . وتقوم المدينة كلها فى شمال النهر ، ما عدا ضاحيتها الصغيرة المسماة « حى الروح القدس » "Barrio del Espíritu Santo" ، وهى تقع على الضفة الجنوبية من النهر تجاه المسجد الجامع . ومما يجدر ذكره أنه ما زالت توجد بقرطبة اليوم شوارع صغيرة تحمل أسماء « المنصور » « وابن رشد » « وابن ميمون » وهى تقع متجاورة على مقربة من المسجد الجامع .

وقد نزعت قرطبة الحديثة كل معالمها القديمة ، فلم يبق بها اليوم — إذا استثنينا مسجدها الجامع القديم — ما يذكرنا بماضيها الإسلامى المجيد . وتكاد قرطبة — إذا استثنينا أيضاً بعض الدروب المحيطة بالجامع — تخلو حتى من الأحياء الأندلسية القديمة ، ذات الدروب الضيقة والطابع الخاص . وقد غاض من مبانيها الحديثة كل أثر للطراز الأندلسى القديم ، الذى مازال يمثل فى كثير من مدن الأندلس الأخرى ، ولا سيما إشبيلية وغرناطة ، وهى تبدو على الجملة بشوارعها الشاسعة المحدثة ، وعماراتها العالية ، مدينة أوربية محضة ، لاتذكرك لأول وهلة بشىء من ماضيها القديم .

---

(١) كناليخاس وكانوڤاس من أعلام الساسة الإسبان فى القرن التاسع عشر.

ولكن قرطبة الأوربية النصرانية ، ما زالت حتى اليوم تحتفظ بأثر من أعظم الآثار الأندلسية ، وهو مسجدها الجامع القديم ، الذى عاصر أيام عظمتها الذاهبة ، منذ بداية الدولة الأموية ، وأيام محنتها خلال الفتنة والثورات المتعاقبة ، وأيام المرابطين والموحدين ، حتى سقوطها فى يد فرناندو الثالث ملك قشتالة الملقب بالقديس فرناندو وذلك فى ٢٣ شوال سنة ٦٣٣ هـ الموافق ٢٩ يونيه سنة ١٢٣٦ م.

ويقوم هذا الأثر الإسلامى العظيم — مسجد قرطبة الجامع أو "La Mezquita Aljama" كما يسميه الإسبان — فوق بقعة صخرية ، تقع فى نهاية جنوب غربى قرطبة ، على مقربة من القنطرة العربية القديمة ، المقامة على نهر الوادى الكبير ، وتحيط به الدروب الضيقة من جوانبه الأربعة ، وتبدو على جدرانه وواجهاته الخارجية آثار العفاء والقدم . ولكنك متى جزت إلى داخل فنائه الشاسع ، وتأملت مدخله الرئيسى ، أدركت لأول وهلة أنك تواجه أثراً من أجل وأبدع الآثار الإسلامية الباقية .

وفى قصة المساجد الأندلسية الجامعة ، تمثل عبرة التاريخ الخالدة . فقد حولت — أو حولت مواقعها — جميعاً إلى كنائس جامعة (كاتدرائيات) . وفى أمثلة كثيرة ، كانت تبنى الكنيسة الجامعة كلها أو بعضها من أنقاض المسجد المهدوم ، كما هو الشأن فى كنيسة طليطلة الجامعة ، وأحياناً تستبقى منارة الجامع لتغدو برجاً لأجراس الكنيسة ، كما هو الشأن فى كنيسة إشبيلية الجامعة . وذلك كله إشادة بظفر النصرانية على الإسلام فى اسبانيا . ولم يشذ مسجد قرطبة عن هذه القاعدة ، فهو اليوم بالرغم من محاريبه وعقوده الإسلامية ، كنيسة قرطبة الجامعة (كاتدرائية) . وقد بدىء بإنشاء مسجد قرطبة ، فى سنة ١٧٠ هـ (٧٨٦ م) ، على يد عبد الرحمن الداخل الأموى . وكان موضعه كنيسة قوطية . وأراد عبد الرحمن أن يكون مسجد قرطبة أعظم مساجد الأندلس وأفخمها ، فجلب إليه الأعمدة الفخمة والرخام المموه ، من أربونة ونيمة وإشبيلية وقسطنطينية . ولكنه توفى قبل إتمامه . فأتمه ولده هشام ، وأنشأ به منارته الأولى . وزاد فيه عبد الرحمن بن الحكم بهوين جديدين من ناحية القبلة ، أعنى من الناحية الجنوبية المواجهة للنهر (٢١٨ هـ — ٨٣٣ م) . وجدده الأمير محمد بن عبد الرحمن ، وأنشأ به مقصورة فخمة كانت الأولى من نوعها بمساجد الأندلس . وفى عهد ولده الأمير عبد الله أنشىء « الساباط » الموصل من القصر إلى الجامع ، وهو عبارة عن ممر مسقوف مبنى فوق عقد كبير ، يفضى من

القصر إلى مقربة من المحراب . وجدد عبد الرحمن الناصر واجهة الجامع وهدم منارته القديمة ، وأنشأ مكانها منارة أخرى أرفع وأفخم (سنة ٣٤٠هـ — ٩٥١م). وكانت منارة الناصر مربعة الواجهات ، لها أربعة عشر شباكاً ذات عقود ، وتحتوى على سلمين أحدهما للصعود والآخر للنزول ، وفى أعلاها ثلاث تفاحات ، اثنتان من الذهب ، والثالثة من الفضة . وكانت إذا أرسلت الشمس أشعتها عليها ، تكاد تخطف الأبصار ببريقها[1] .

ثم زاد فيه ولده الحكم المستنصر زيادات كبيرة ، فابتنى المحراب الثالث ، واستغرق بناؤه أربعة أعوام ، وعملت له قبة فخمة ، زخرفت بفسيفساء بديعة ، واستقدم الحكم من قسطنيطينية خبيراً بأعمال الفسيفساء ، وأرسل إليه قيصر منها قدراً كبيراً ؛ وأنشأ الحكم أيضاً مقصورة جديدة بها قبة على الطراز البيزنطى ، وابتنى إلى جانب المسجد داراً للصدقة ، وأخرى للوعاظ وعمال المسجد . وتشغل زيادة الحكم فى الجامع قسمه الأوسط ، الذى يلى جناحه القديم الذى أنشأه عبدالرحمن الداخل وهو يبلغ نحو ثلث الجامع[2]. وأخيراً جاء المنصور بن أبى عامر (الحاجب المنصور) فزاد فيه من ناحيته الشرقية ، زيادة كبيرة ، فأقام بحذاء الجامع القديم ، من شماله إلى جنوبه ، على رقعة شاسعة ، تكاد تعدل مساحته الأصلية ، جناحاً أو جامعاً جديداً ، روعى فى إنشائه التماثل والمطابقة للصرح القديم (٣٧٧ هـ —٩٨٧م) وبذلك تضاعف حجم الجامع تقريباً ، وبلغ عدد سواريه ما بين صغيرة وكبيرة ألفاً وأربعمائة وسبعة عشرة ، وبلغت ثرياته مائتين وثمانين .

وهكذا لبث الأمراء والخلفاء عصوراً يتعاقبون فى توسيع جامع قرطبة وتجميله ، حتى غدا برقعته الشاسعة ، وسواريه الألف وأربعمائة ، وأبوابه البرونزية العديدة ، ومحاريبه الفخمة ، وزخارفه البديعة ، من أعظم المساجد الجامعة فى العالم الإسلامى ، إن لم يكن أعظمها جميعاً .

وقد كان جامع قرطبة ، فضلا عن وظيفته الدينية الرئيسية كمسجد الإمارة ثم الخلافة الرسمى ، يتخذ مركزاً لبعض المهام الكبرى ، فقد كانت تؤخذ فيه بيعة الأمير أو الخليفة الجديد ، وكانت تعلن من فوق منبره عظائم الحوادث ،

(١) أعمال الأعلام لابن الخطيب (بيروت) ص ٣٨ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٩ ، وأعمال الأعلام ص ٤٨ .

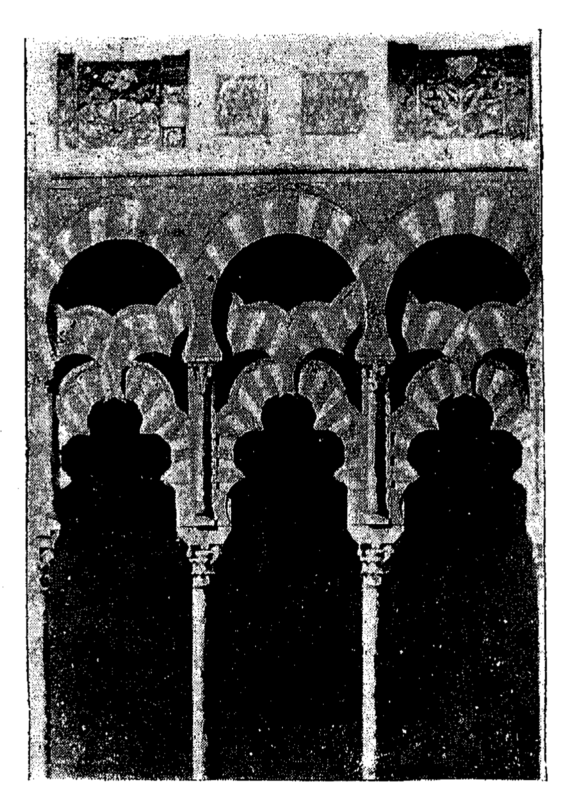
وتقرأ الأوامر والأحكام الخلافية الهامة ؛ وكان يعقد به مجلس قاضي القضاة . وفضلا عن ذلك كله ، فقد كان جامع قرطبة ، مركزاً لجامعة قرطبة الشهيرة ، التي ازدهرت أيام الخلافة ، وكانت تنظم بين أروقته حلقات الدراسات الرفيعة المختلفة ، التي جعلت من قرطبة ، خلال العصور الوسطى ، أعظم مركز للدراسات العلمية الممتازة في الغرب .

ويشغل جامع قرطبة مسطحاً كبيراً يبلغ طوله مائة وثمانين متراً ، وعرضه مائة وخمسة وثلاثين ، وبذا تبلغ مساحته ٢٤٣٠٠ متراً مربعاً ، ويدخل في ذلك صحنه المكشوف الواقع في شماله والذي يعرف اليوم بفناء النارنج أو البرتقال "Patio de los Naranjos" ، وهو فناء شاسع مستطيل يكاد يبلغ ثلث رقعته ، وهو أندلسي الطراز والمظهر ، بمعالمه وأوضاعه ونوافيره وأشجاره ؛ ويحيط به من الشمال والغرب عدد من الأديار ، ذات أعمدة وعقود على الطراز القوطي ، ويدخل إليه من الباب الرئيسي المجاور للمنارة ، وهو الباب المسمى باب الغفران "Puerta del Perdón" ، وكان للجامع من قبل تسعة عشر باباً فخمة ، تؤدي كلها إلى فنائه الشاسع . ويبلغ ارتفاع « باب الغفران » سبعة أمتار ، وعقده كحدوة الجواد ، وقد زين بزخارف عربية جميلة . بيد أنه ليس هو باب المسجد القديم ، ولكنه أنشىء بعد سقوط قرطبة سنة ١٣٧٧م ، وروعي في إنشائه أن يكون تقليداً للطراز العربي . وفي فناء البرتقال توجد عدة من النوافير ، وقد غرست في جنباته وفي وسطه أشجار البرتقال ، وهو تقليد إسباني قديم متبع في سائر المساجد الجامعة ، التي حولت إلى كنائس ، ومنها صحن جامع إشبيلية الذي يعرف أيضاً « بفناء البرتقال » .

ويقع بناء الجامع في جنوبي الصحن بينه وبين النهر ، وتشرف أجمل واجهاته وهي الشمالية على الفناء ، وهي ترجع إلى عصر عبد الرحمن الداخل وولده هشام . وفي هذا الجناح يوجد أقدم أبواب الجامع ، وهو يقع في وسط الجدار الواقع في الناحية الغربية ، ويطلق عليه الإسبان اسم باب « شنت إشتيبن » "San Esteban" . أما الجناح الكبير الذي أنشأه المنصور فيقع إلى اليسار ، ومدخله الرئيسي باب برونزي هائل رائع الزخرف ، ويعرف بباب النخيل "Puerta de las Palmas" وهو مواجه لباب الغفران . وله ثمانية عشر باباً أخرى ، في جوانبه الأربعة ،



جامع قرطبة . صحن الجامع وقد ظهرت به أشجار النارنج وبرج الأجراس
الذى أقيم مكان المنارة القديمة



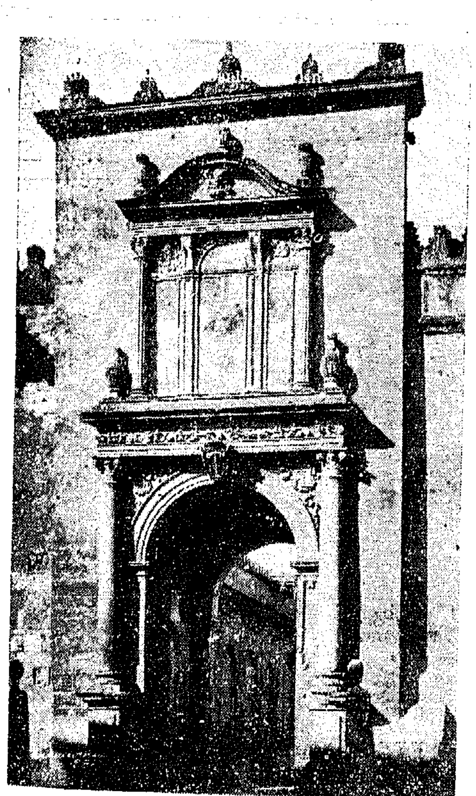
جامع قرطبة . عقود مدخل المحراب

سد معظمها اليوم . وتبدو روعة هذا الأثر الإسلامى العظيم للداخل من أول نظرة ، ويحار البصر فى تأمل عقوده ، وأعمدته العديدة المتقاطعة ، التى لاتكاد تدرك العين نهايتها . وتبلغ عقوده فى الطول تسعة وعشرين ، وفى العرض تسعة عشر ، ويبلغ ارتفاع سقفه نحو اثنى عشر متراً . ولأول وهلة ، ولمدى قصير فقط ، يشعر المتأمل أنه فى قلب مسجد إسلامى . ولكنه متى دقق البصر قليلا ، أدرك فى الحال أن المسجد قد استحال إلى كنيسة ، بل إلى كنائس لانهاية لها . والواقع أن الجامع يبدو من الخارج ، فى مجموعه ، كأنه كنيسة أكثر منه جامعاً . وقد عدلت أسقفه على الطراز الكنسى ، وأزيلت القباب القديمة ما عدا القبة الرئيسية الوسطى ، وهى التى تظلل الهيكل الرئيسى الذى أنشىء فى وسطه ، وحلت محل القباب سقوف مضلعة ، تزينها من الداخل نقوش نصرانية ، وأنشئت على طول جوانب الجامع الأربعة من الداخل ، هياكل لانهاية لها ، ونصبت فوقها الصلبان ، وتماثيل القديسين وصورهم ، وجعل من كل عقد أو اثنين هيكل قائم بذاته . ولم يترك من جوانبه سوى مكان المحرابين . وأحد المحرابين قديم مخرب ، ويقع على مقربة من الزاوية اليمنى للجامع ، والمرجح أنه المحراب الأول قبل توسعة الجامع . والمحراب الثانى قريب منه ، ويقع فى نحو الثلث من الناحية الجنوبية . وهو فخم مزين بالنقوش والآيات القرآنية ، وفى داخله مخدع صغير ، وسقفه عقد رخامى مزين بالزخارف المذهبة ، وهو مغلق يفتح للزائرين بتذكرة خاصة .

ومتى سرحت البصر فى هذه التفاصيل مدى لحظة ، أدركت أنك تجوس خلال أثر إسلامى شوهت معالمه الإسلامية بطريقة منظمة ، ولكن ساذجة فجة . وأشد ما يؤذى النظر خلال هذا الجلال المشوه ، ما يسود وسط الجامع وجوانبه من الظلام . فالضوء قليل ينفذ إلى بضعة أركان ونواح متفرقه . والسبب فى ذلك هو أن معظم القباب القديمة قد أزيل وبنيت مكانها أسقف مستوية ، وبنى ما بين كثير من الأعمدة ، ويكاد ينعدم الضوء حول الهيكل الكبير القائم فى وسط الجامع . وقد بنى هذا الهيكل بشكل مغصوب مفتعل ، تحت القبة الرئيسية وبين القباب الأربع التى تحيط بها ، على شكل صليب "Crucero" ، وقد سد فيها ما بين الأعمدة ، وزينت الجدران من الداخل ، وكذلك سقوف هذه القباب بزخارف نصرانية ، وأزيلت جميع الزخارف الإسلامية القديمة ، ورسمت صور القديسين

بين الزخارف . ونصب فى كل من الناحيتين اليمنى واليسرى هيكل ، علقت فوقه صور كبيرة للقديسين . وصفت كراسى المرتلين عند الهيكل الأيمن ، كما وضعت هنالك عدة أناجيل تاريخية . وبنى فى كل من الناحيتين الأخريين فى أعلى الوسط مخدع فخم ، والظاهر أنهما مخدعان ملكيان ، كانا أيام ازدهار الملوكية ، يخصصان لجلوس الملك وأسرته عند إقامة القداس .

وترجع قصة تشويه مسجد قرطبة الجامع على هذا النحو المؤلم ، إلى أوائل القرن السادس عشر . ذلك أنه لما سقطت المدينة فى أيدى النصارى ، ودخلها فاتحها سان فرناندو ملك قشتالة ، أقيم فى المسجد الجامع قداس شكر ، ثم أنشىء به هيكل موقت ، واستمر الجامع بحالته الأصلية حيناً . واقتصر الملوك الإسبان على إجراء تغييرات جزئية فى أوضاع الجامع ، وإنشاء المصليات والهياكل الصغيرة .



باب القديسة كاتالينا أحد أبواب الجامع

وفى عصر الملك ألفونسو العالم ، فى أواخر القرن الثالث عشر ، أزيلت المقصورة الخليفية ، وأقيم مكانها المصلى الكبير "Capilla Mayor" ، وكان يستخدم فى ذلك صناع من المدجنين ، الذين يعرفون الطراز والزخارف العربية ، وذلك حرصاً على شكل المسجد وطرازه ؛ ولكن الفن الأندلسى كان يومئذ قد فقد كثيراً من قوته وروعته ، ومن ثم فإن أعمال المدجنين فى المسجد ، لم تكن تضارع الأوضاع والزخارف الأندلسية الأصلية ، فى براعة التنسيق وجمال الابتكار ، وجاءت هذه التغييرات فى معظمها أقرب إلى الفن القوطى منهـا إلى الفن الإسلامى .

وقد كانت إقامة الهيكل الكبير فى وسط الجامع على هذا النحو ، مثار نقد شديد من العلماء الأثريين الغربيين من إسبان وغيرهم . وقد وصفه بعضهم بأنه « أشنع عمل همجى» [١] ارتكب لتشويهه . وكان ذلك أيام الإمبراطور شارلكان . ففى سنة ١٥٢١ ، استأذن أسقف قرطبة دون ألونسو مانريكى الإمبراطور ، فى إقامة هيكل رئيسى ، يسبغ على الجامع صفته النصرانية بصورة حاسمة ، فأذن الإمبراطور ، وأقيم الهيكل القوطى الكبير الذى يتوسط الجامع "Crucero" ، واقتضى بناء قبته العالية ، أن يزال السقف الأندلسى . وكانت إقامة هذا الهيكل الضخم ، وما أحدثه فى الجامع من تشويه مؤلم ، أثراً من آثار التعصب الكنسى العميق الذى طبع السياسة الإسبانية خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، والذى قضى على كثير من الآثار الأندلسية الفخمة . ومما هو جدير بالذكر أن الإمبراطور حينما رأى هذا الصرح الفضولى الضخم داخل الجامع بعد ذلك ، أبدى سخطه ، وندم لما صرح به ، واحتج على إقامة الهيكل على هذا النحو فى وسط هذا الفراغ الرائع ، الذى تبدو فيه ملامح الفن الإسلامى ، وصرح بأن عمل النصارى يبدو بالنسبة له ضئيلا باهتاً ، ويروى أنه قال للمشرفين على الجامع : «لقد بنيتم هنا ما كان تمكن بناؤه فى أى مكان آخر ، وقد قضيتم بذلك على ما كان أثراً وحيداً فى العالم ».

والغريب فى ذلك أن الإمبراطور شارلكان نفسه ، هو الذى أمر بإزالة جزء كبير من قصر الحمراء فى غرناطة ، ليبنى عليه قصره الرومانى ، إلى جانب قصر الملوك المسلمين ، وهو الذى أمر بإزالة مسجد الحمراء ليبنى مكانه كنيسة سانتاماريا .

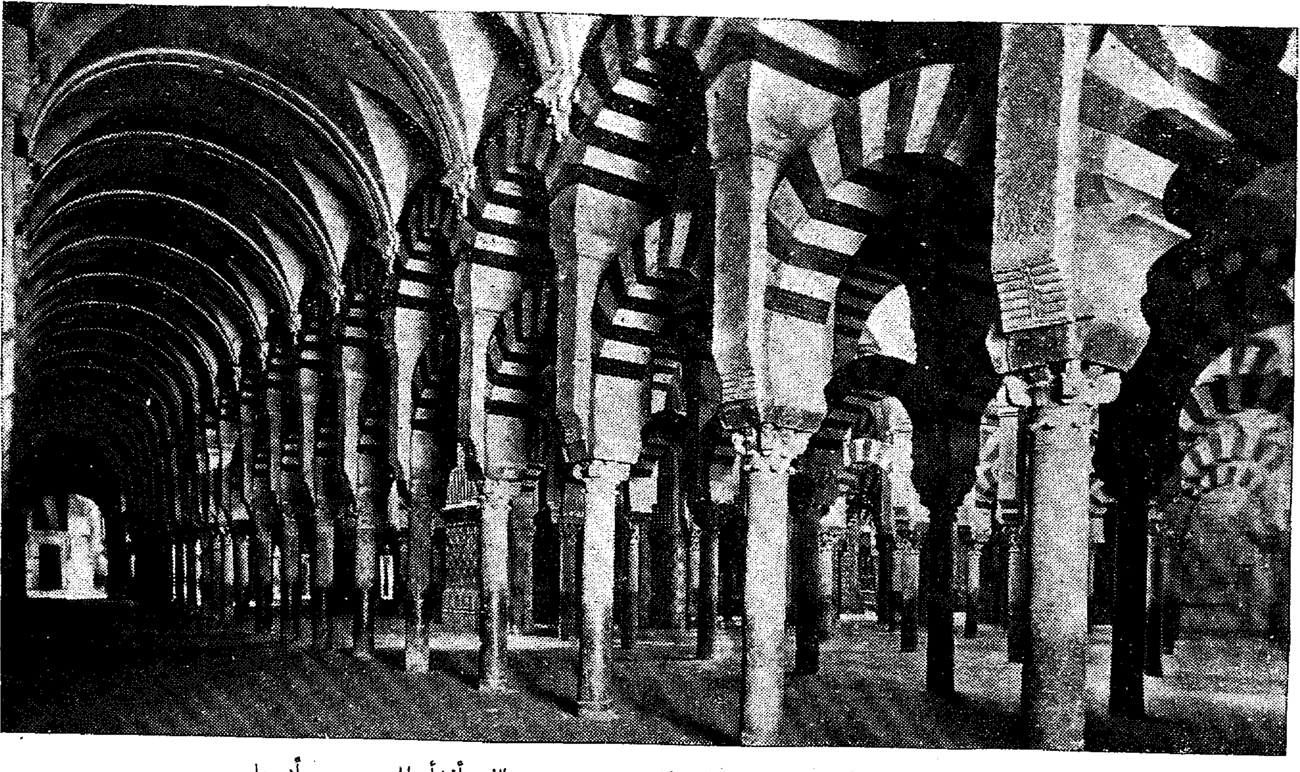
وقد تم بناء هذا الهيكل الكبير فى أواخر القرن السادس عشر . ويقول العلامة الأثرى الإسبانى كونتريراس ، متولى إصلاح قصر الحمراء ، « إن إقامة هذا المصلى الجديد ، فى قلب القديم ، قد زاد فى انحطاط الفن » وإنه فى رأيه « هو الذى أسبغ على الجامع ملامحه المظلمة الموحشة »[٢] .

وقد استمر الصناع المدجنون ، واليهود والنصارى الذين تتلمذوا عليهم ، فى القيام بأعمال الترميم والزخارف فى المسجد الجامع عصوراً . وأولئك المدجنون هم الذين خلقوا هذا المزيج من الفن الإسلامى النصرانى ، وهو الفن المدجنى ،

---

(١) **A.F. Calvert & W.M. Gallichan** : Cordova, a city of the Moors, p. 76.

(٢) **R. Contreras** : Estudio descriptivo de los Monumentos Arabes de **Granada,** Sevilla y Córdoba. (Madrid 1878) p. 66.



جامع قرطبة . الجناح الأيسر المسمى « جامع المنصور » ، وهو الذى أنشأه المنصور بن أبى عامر سنة ٣٧٧ — ٣٨٠ هـ (٩٨٧ — ٩٩٠ م) وما يزال قائماً على حاله حتى اليوم .

وهو الذى غلب على كثير من الصروح الأثرية الإسبانية ، منذ القرن الثالث عشر ، وحتى سقوط غرناطة كان المدجنون هم الذين يقومون فى قرطبة وغيرها ، من المدن الأندلسية القديمة ، بالإصلاحات والزخارف الأثرية الأندلسية .

وفى سنة ١٥٩٣ ، أزيلت منارة الجامع القديمة ، وأقيم فوق أنقاضها برج الأجراس الحالى ، على نمط يشبه المنارة ، وقد جاء أعلى منها ، وارتفاعه الحالى ثلاثون متراً . وفى داخله سلم حجرى سميك . وقد ظهرت عليه آثار البلى والقدم. وفى جنباته غرف ومخادع تسكنها بعض الأسر الفقيرة . وقد أقيم فوقه تمثال للقديس رافائيل حامى المدينة .

وقد حمل العلماء الأثريون جميعاً ، وفى مقدمتهم العلماء الإسبان على هذا التشويه ، لأثر من أجل الآثار الإسلامية ، ووصفه العلامة كونتريراس بأنه « تدنيس للفن »[١] . بيد أن هذا السخط وهذا التأسى لمسخ مسجد قرطبة الجامع ، يبدو بنوع خاص فى هذه الكلمة البليغة المؤثرة التى يستهل بها المستشرق والعلامة الأثرى الإسبانى أمادور دى لوس ريوس ، كلامه عن تاريخ المسجد الجامع ، وهى فى الواقع أبلغ رثاء لهذا الأثر الإسلامى العظيم :

« إنه لا الأوضاع النصرانية الفخمة التى تقوم اليوم ، فى وسط هذه العمد التى لا تحصى ، ولا ذخائر الفن التى أغدقه عليها أكابر الفنانين الذين أقاموها فى القرن السادس عشر ، ولا تلك السلسلة التى لا نهاية لها من المصليات التى ترجع إلى كل عصر ، والتى حشرت بجدران المسجد وشوهتها ، ولا الصور التى تغطى عقوده فى الجزء المخصص للمحراب ، ولا أولئك الملائكة الثقال الذين كأنهم يؤخرون طيرانهم لكى ينيروا العبادات المقدسة ، ولا الكلمات الإنجيلية التى تدوى من كرسى الروح القدس ، فى هذه العقود ذات البناء المحدث ، يمكن أن تبدد أو تمحو ذرة من جلال هذه الأشباح المتجولة ، التى تبحث عبثاً فى زاوية المحراب عن ذلك الكتاب المقدس ، الذى غمست صحفه ، حسبما تقول الرواية المتوارثة ، بدم عثمان الزكى شهيد الإيمان . إن ثمة عالماً من الذكريات يملأ مخيلة السائح ، حينما يسرح البصر بشعور من الأسى خلال هذه التشويهات : تلك الأعمال التى أملاها إيمان أجدادنا المغرق المخلص معاً . فدفعتهم الرغبة ، فى أن يمحوا إلى الأبد ، من

(١) R. Contreras ; ibid ; p. 66

البقعة التى خصصت لكتاب عيسى ، روح محمد ، وأشباح أوليائه الذين يغشونها ، والذين سوف يغشونها دائماً مابقيت فى الوجود . ذلك أنه بالرغم من كل التشويهات التى عملت ، وكل التغييرات التى أحدثت بها ، فإنه قد ختم عليها ، وفقاً لقانون محتوم ، بخاتم الفن الذى أوحى بها ، وروح الأمة التى وضعت خطتها وأقامتها»[1] .

وقد زار قرطبة فى أواخر القرن السابع عشر (سنة ١١٠٢ هـ — ١٦٩١ م) الوزير المغربى محمد بن عبد الوهاب الغسانى وزير مولاى اسماعيل سلطان المغرب وسفيره إلى كارلوس الثانى ملك اسبانيا ، ووصف لنا مسجدها الجامع فيما يأتى :

« وهو مسجد كبير جداً فى غاية الإتقان وحسن البناء ، وبداخله ألف وثلاث مائة وستون سارية ، كلها من الرخام الأبيض ، بين كل سارية قوس فوق قوس آخر ، وله من الأبواب الآن أربعة عشر باباً ، وقد سد كثير من الأبواب وغيرها . ومحرابه الإسلامى باق على حاله لم يتغير ، ولم يحدث فيه شيء ، إلا أنهم جعلوا عليه شباكاً من نحاس ، وطرحوا أمامه صليباً فلم يدخل عليه أحد إلا قبّل ذلك الصليب ، ولم يزد بداخله ولا بحائطه ، شيء قليل ولا كثير . ولهذا المسجد صحن كبير جداً مشتمل على خصة ماء فى وسطه ، ويدور بها فى سائر الصحن من أشجار النارنج مائة وسبعة عشرة شجرة ؛ ويقابل موضع المحراب من الصحن منار المسجد ، وهو منار كبير مبنى بالحجارة ، إلا أنه ليس بغاية الارتفاع كمنار طليطلة وإشبيلية . ومازال سقف المسجد وأبوابه باقية على حالها لم يحدث فيها شيء ، إلا ما تدعو الضرورة إليه من إصلاح السقف ، الذى يتداعى إلى السقوط وشبه ذلك . وقد أحدث النصارى بوسط هذا المسجد مقابلا لمحرابه قبة كبيرة مربعة ، مشبكة بشبابيك من نحاس أصفر ، جعلوا داخل هذه القبة صليباً من صلبانهم ، وكتب صلواتهم التى يحضرونها مع الموسيقى وشبهها .

وأبواب هذا المسجد باقية على حالها من البناء الأول والنقش بالكتابة العربية ؛ وهذا المسجد هو أكبر مساجد الدنيا وأعظمها صيتاً »[2] .

وزار قرطبة من بعده فى سنة (١١٧٩ هـ — ١٧٦٥ م) ، الغزّال الفاسى

---

(١) D. Rodrigo Amador de los Rios : Inscripciónes de Córdoba p. 8.

(٢) رحلة الوزير محمد بن عبد الوهاب المسماة « رحلة الوزير فى افتكاك الأسير » المنشورة بعناية معهد فرانكو بتطوان ، ص ١٨ و ١٩ .

سفير سلطان المغرب أبي عبد الله المنصور بالله ، إلى ملك اسبانيا كارلوس الثالث . وهو يصف لنا عاصمة الخلافة القديمة ، وموقعها فى الوادى قرب جبال «سيرمرين» ويقول لنا إن أهل قرطبة ، معظمهم من أهل الحرف ، وان المدينة فى غاية النظافة ، ومعظم سورها أيام المسلمين باق على حاله . وفى ظاهرها الحدائق والغراس. ثم يصف جامعها الأعظم « الذى تجاوز فى الارتفاع كل مبانيها واستدارتها بالسور الإسلامى» « وهو من أعظم مساجد الدنيا فى الطول والعرض والعلو» ثم يقول :

« ومذ عبرنا هذا المسجد ، لم تفتر لنا عبرة ، مما شاهدنا من عظمته ، وتذكرنا ماكان عليه عهد الإسلام ، وما قرىء فيه من العلوم ، وتليت فيه من الآيات ، وأقيمت به من الصلوات . وقد تخيل فى الفكر أن حيطان المسجد وسواريه تسلم علينا ، وتهش إلينا ، من شدة ما وجدنا من الأسف ، حتى صرنا نخاطب الجمادات ، ونعانق كل سارية ، ونقبل سوارى المسجد وجداره » . ثم يصف المحراب وفخامته ، وما نقش عليه من آيات ، وكونه يحمل اسم منشئه ، وهو الإمام المستنصر بالله ، وتاريخ إنشائه . ويقول لنا إن الإسبان قد بنوا فى وسطه قبة ضخمة ، وأنشأوا تحتها هيكلا نصرانياً (١) .

وفى جامع قرطبة عدة نقوش وكتابات ، تدل على تواريخ إصلاحه والزيادات فيه ، أقدمها نقش فوق الحافة العليا من عقد بابه الغربى ، وهو يؤرخ تاريخ التجديد الذى قام به الأمير محمد بن عبد الرحمن فى سنة ٢٤١ هـ .

بيد أن أهم نقوش المسجد الجامع ، هما اثنان ، أولهما يؤرخ ما قام به عبد الرحمن الناصر من إقامة واجهته ، وقد نقش فى لوحة رخامية ثبتت بالجانب الأيمن من باب النخيل ، بخط كوفى جاء فيه ما يأتى :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أمر عبد الله عبد الرحمن أمير المؤمنين الناصر لدين الله ، أطال الله بقاه ، ببنيان هذا الوجه وإحكام إتقانه ، تعظيما لشعائر الله ، ومحافظة على حرمة بيوته ، التى أذن الله أن ترفع ، ويذكر فيها اسمه ، ولما دعاه على ذلك من تقبل عظيم الأجر وجزيل الذخر ، مع بقا شرف الأثر وحسن الذكر ، فتم ذلك بعون الله ، فى شهر ذى الحجة سنة ست وأربعين وثلث مائة ، على يد مولاه ووزيره وصاحب مبانيه عبد الله بن بدر ، عمل سعيد بن أيوب» .

(١) من رحلة الغزال المسماة « نتيجة الاجتهاد فى المهادنة والجهاد » بقلم أحمد بن المهدى الغزال الفاسى المنشورة بعناية معهد فرانكو بتطوان ، ص ٣٧ .

والثانى ما نقش بالكوفية داخل المحراب فى أسفل القبلة ، وهو يؤرخ ، ما قام به الحكم المستنصر فى إنشاء المحراب ، وكسوته بالرخام وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى ؛ وقوموا لله قانتين . أمر الإمام المستنصر بالله ، الحكم ، أمير المؤمنين أصلحه الله ، بعد عون الله فيما شيده من هذا المحراب ، بكسوته بالرخام ، رغبة فى جزيل الثواب ، وكريم المآب ؛ فتم ذلك على يد موليه وحاجبه جعفر بن عبد الرحمن رضى الله عنه ، بنظر محمد تمليخ ، وأحمد بن نصر ، وخالد بن هاشم أصحاب شرطته ، ومطرّف ابن عبد الرحمن الكاتب ، عبيده ، فى شهر ذى الحجة من سنة أربعة وخمسين وثلث مائة . ومن يسلم وجهه إلى الله فقد استمسك بالعروة الوثقا ، وإلى الله عاقبة الأمور » .

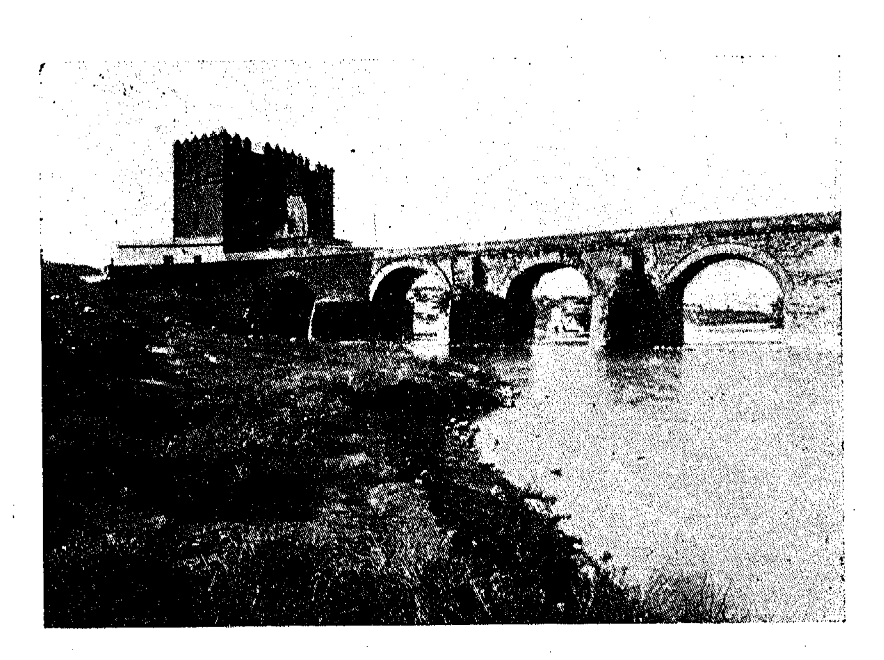
وتوجد فى المحراب ثمة نقوش أخرى تتضمن بعض الآيات القرآنية : وهى جميلة مذهبة .

هذا ومن المعروف أن جامع قرطبة ، كان موقعه قريباً من القصر . وكان القصر يقع فى جنوبه الغربى على ضفة النهر (الوادى الكبير) قرب القنطرة القديمة ، وكان يصل بين القصر والجامع « الساباط » أو الممر المسقوف الذى تقدم ذكره ، والذى كان مخصصاً لوصول الأمير إلى الجامع مباشرة ، بعيداً عن أعين الكافة . ويبدو من الروايات والتحقيقات المختلفة ، أن مواقع القصر كانت تشتمل على المكان الذى يقوم فيه اليوم القصر الأسقفى "Palacio Espiscopal" ، والمعهد المقابل له ، وبناء السجن الإقليمى وما يليه من الحدائق ، التى تعرف اليوم بحدائق القصر "Huerta del Alcázar" ، وهى تقع مكان حدائق القصر الأموى القديم ، بين النهر ، وبين الحى الذى يسمى اليوم « حى القصر القديم » "Barrio del Alcázar viejo" وقد كان هذا القصر مقام الأمراء منذ قيام الدولة الأموية ، حتى أوائل عهد الناصر ، وكان يضم مدافنهم أيضاً . ولم يبق اليوم شىء من آثار القصر الأموى القديم ، ولا القصر الإسبانى الذى أقيم إلى جانبه ، فى عصر الملك ألفونسو الحادى عشر ، والذى استعمل فيما بعد محكمة وسجناً لديوان التحقيق .

وتقع القنطرة الأندلسية القديمة تجاه المسجد الجامع من الناحية الجنوبية ، وهى قنطرة رومانية الأصل ، جددها المسلمون أيام السمح بن مالك أمير الأندلس ، وجددت بعد ذلك غير مرة . وهى قائمة على ستة عشر عقداً ، وفى نهايتها الجنوبية



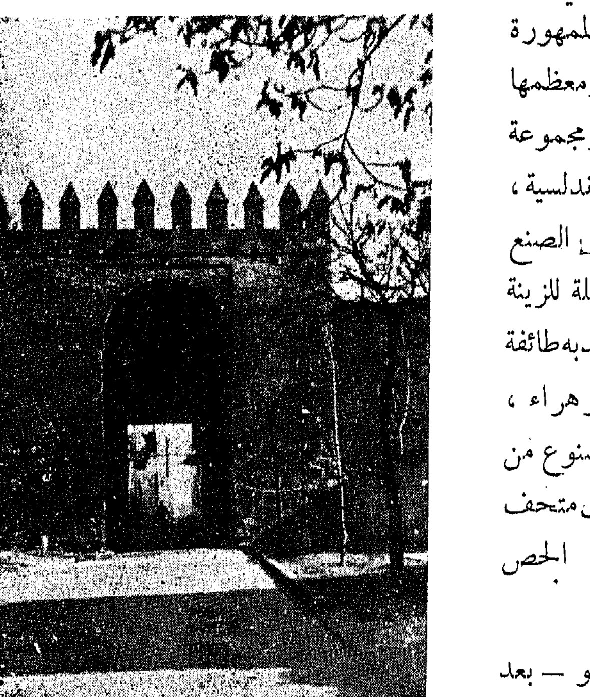
جامع قرطبة . الناحية الجنوبية المقابلة للقصر الأسقفى



قرطبة . القنطرة العربية على نهر الوادى الكبير

تمثال مرتفع للقديس رافائيل حامى المدينة . وهى تربط قرطبة بضاحيتها المسماة « حى الروح القدس » الذى سبقت الإشارة إليه ، وما زالت هذه القنطرة تحتفظ بكثير من معالمها الإندلسية .

وإلى مقربة من الجامع يقع المتحف الأركيولوجى فى أحد الأزقة الصخرية ، وقد جمعت فيه طائفة كبيرة من اللوحات ، والأحواض الرخامية والزخارف العربية ، وكثير من القطع الخشبية الممهورة بالآيات القرآنية ، ومعظمها مأخوذ من الجامع ، ومجموعة من الأوانى الخزفية الأندلسية ، ومنها قطع بديعة الصنع والزخرف ، وآنية جميلة للزينة وغيرها . وكذلك توجد به طائفة من مخلفات حفائر الزهراء ، ومنها وعل صغير مصنوع من النحاس الأسمر ، وله فى متحف الزهراء نموذج من الجص الأبيض .



قرطبة : باب المدور وهو بابها الأندلسى الوحيد الباقى

وجامع قرطبة هو — بعد قصر الحمراء — أعظم الآثار الأندلسية الباقية .

وهو فى الوقت نفسه أضخم أماكن العبادة النصرانية ، بعد كنيسة القديس بطرس فى رومة ؛ ولم يبق اليوم غيره فى عاصمة الخلافة القديمة من الآثار الأندلسية الذاهبة ، سوى منارة صغيرة قديمة ترجع إلى أوائل القرن العاشر الميلادى ، وقد جردت من نقوشها الحديثة لتعود إلى طرازها الأندلسى . وقد استحالت اليوم إلى برج أجراس لكنيسة « القديس يوحنا أبى الفوارس » "San Juan de los Caballeros"

ويقول العلامة جومث مورينو ، إن هذه المنارة هى من منشآت عبد الرحمن الثانى ، (عبد الرحمن بن الحكم) ، وان طرازها هو نفس طراز برج كنيسة

سانتياجو (شنت ياقب) فى قرطبة ، وكنيسة سان سلفادور فى إشبيلية[1]

ولم يبق اليوم من أسوار قرطبة الأندلسية القديمة ، سوى أطلال قليلة دارسة ليست لها أية أهمية أثرية .

بيد أنه يوجد من أبواب قرطبة القديمة موقع باب واحد ، هو الباب الذى يسمى باب المدوّر "Puerta de Almódovar"، وهو يقع فى جنوب غربى المدينة على مقربة من الجامع ، وهو عبارة عن باب معقود فى إطار كبير مربع يبلغ إرتفاعه نحو ثمانية أمتار ، وعرضه عشرة ؛ وفى أعلاه شرفة كبيرة عريضة يبلغ ارتفاعها مثل ارتفاعه ، وقد علتها مشارف نصرانية ، وقد أقيم هذا الباب على أنقاض باب « بطليوس » القديم ، ويرجع بناؤه الأصلى إلى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى.

ومما يذكر أن قرطبة ، كانت أيام المسلمين مشهورة ببراعة صائغيها وماينتجونه من تحف فنية بديعة ، وهى ما زالت إلى اليوم تحتفظ ببقية من هذا التراث حيث تصنع بها التحف والآنية الفضية المزخرفة .

---

(١) Gomez - Moreno : El Arte Arabe Espanol hasta los Almohades (Ars Hispaniae Vol. III) p. 51.

٣ — أطـــــلال الزهراء

Medina Azzahra

تحتل سيرة مدينة الزهراء ، وذكريات فخامتها الذاهبة ، مقاما ملحوظاً في تاريخ الأندلس المعمارى والفنى . وتقترن عظمتها وروعة صروحها ، بعظمة عصر منشئها الخليفة الأموى عبد الرحمن الناصر لدين الله (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) . وقد بدأ الناصر بإنشاء هذه الضاحية الملوكية الفخمة في سنة ٣٢٥ هـ (٩٣٦ م) بعد أن ضاقت قرطبة عاصمة الخلافة ، بما يتطلبه ملكه العظيم من استكمال الفخامة الملوكية ، ووجود القصور والأبهاء والرياض الشاسعة . وأنشئت الزهراء في بقعة تقع على مقربة من غربى قرطبة شمال نهر الوادى الكبير ، واستمر العمل في إكمال صروحها العظيمة ، ومرافقها الفخمة ، بقية عهد الناصر ، ومعظم عهد ولده الحكم المستنصر ، أعنى زهاء أربعين عاماً . ولم يدخر الناصر جهداً ولا نفقة ، في تشييد حاضرته الجديدة ، وتجميلها وزخرفتها ، وأنشأ فيها قصر الخلافة العظيم ، وقصره الخاص المسمى بالمؤنس ، وزودها بنفيس الرياش والتحف والذخائر النادرة ، وأسبغ عليها أروع ما تمخض عنه العصر ، من ضروب الرونق والبهاء .

بيـــد أن الزهراء لم تعمر طويلا كقاعدة ملوكية . فقد لبثت منزل الخلافة الأندلسية زهاء أربعين عاماً فقط ، منـــذ نزل بها الناصر سنة ٣٢٥ هـ إلى نهاية عهد ولده الحكم المستنصر في سنة ٣٦٦ هـ . ولم يكن ذلك لأن الزهراء قد عفت كقاعدة الخلافة ، ومنزل الملك ، ولكن لأن تحولا خطيراً وقع في سلطان بنى أمية . فقد نهض متغلب جديد ، هو الوزير محمد بن أبى عامر (الحاجب المنصور) ، وحجر على الخليفة هشام المؤيد بالله ولد الحكم ، واستأثر تباعاً بكل سلطة في الدولة . ثم بدا له أن ينقل مركز الحكم إلى قاعدة جديدة تكون منزل سلطانه ، فأنشأ لنفسه ضاحية ملوكية جديدة تقع على مقربة من شرقى قرطبة على الضفة الجنوبية لنهر الوادى الكبير ، وذلك في سنة ٣٦٨ هـ (٩٧٨ م) ، وسماها « الزاهرة » . ونقل إليها خزائن الأموال والسلاح ودواوين الحكم ، وبذلك اختتمت حياة الزهراء الملوكية .

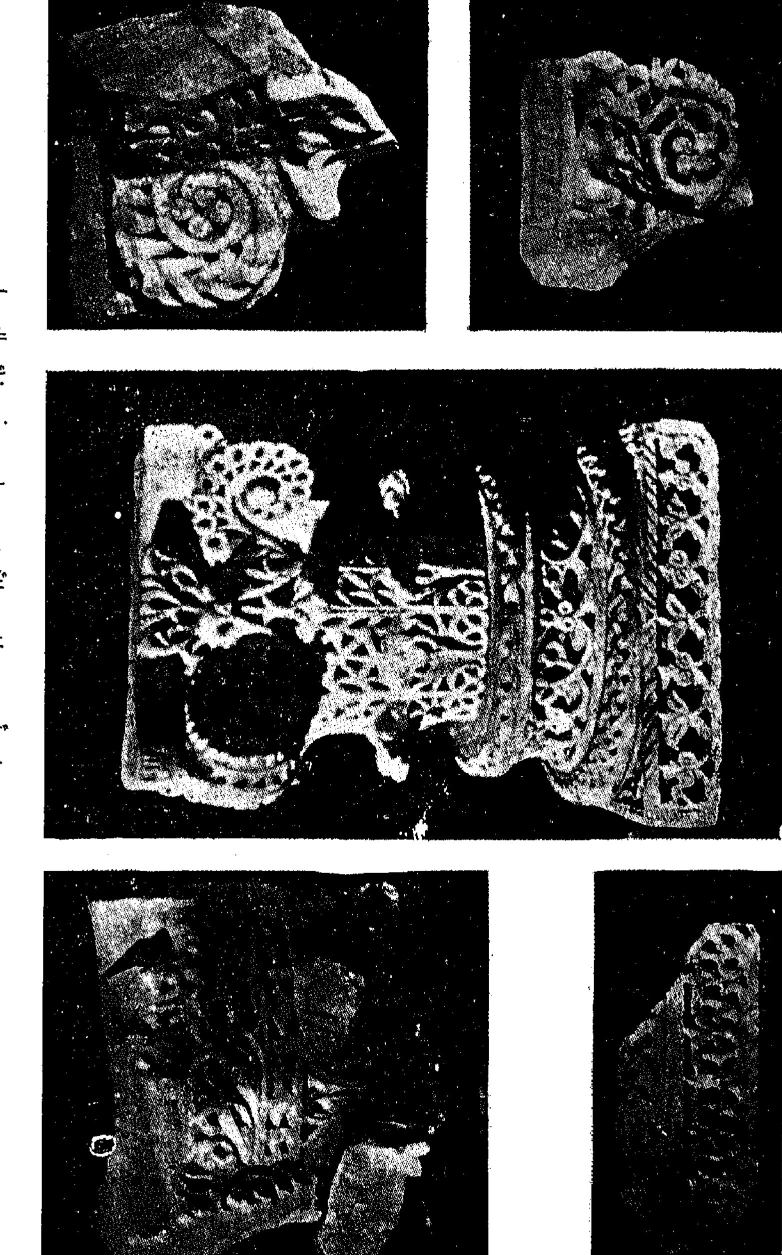
ثم عفا عليها الزمن بعد ذلك تباعاً ، حتى وقعت ثورات البربر ، عقب انهيار الدولة العامرية ، فى أواخر القرن الرابع الهجرى ، فاقتحمت الزهراء ، وقوضت صروحها الفخمة ، ونهبت ذخائرها وتحفها ، وغمرها الخراب والنسيان ، ولم يمض بعيد ، حتى غاض اسمها نفسه ، من صحف التاريخ الأندلسى ، فلا نكاد نظفر لها بذكر منذ أيام الطوائف .

ومنذ نحو قرن فقط عادت سيرة الزهراء ، وذكريات فخامتها الذاهبة ، تحتل المقام الأول فى تاريخ اسبانيا المسلمة ، المعمارى والفنى . واهتم العلماء الإسبان بالكشف عن معالمها وأطلالها ، لما يلقيه ذلك الكشف من أضواء هامة ، على أحوال الخلافة الأندلسية ، ونظمها الإدارية والاجتماعية ، وعلى تطور الفن الأندلسى فى أزهى عصوره . وعنيت الحكومة الإسبانية منذ بداية القرن الحالى ، بإجراء الحفريات الأثرية ، للكشف عن صروح المدينة الخلافية . وبالرغم من أن جهود اللجان الأثرية المتعاقبة ، التى اضطلعت بهذا العمل ، لم تكن متواصلة أو ذات نطاق واسع ، فقد استطاع الأثريون الإسبان ، أن يكشفوا عن كثير من معالم الزهراء ، ومواقع صروحها وأبهائها الملوكية .

وقد أتيح لنا أن نزور معالم الزهراء وأطلالها غير مرة ، وكانت آخرها فى يناير سنة ١٩٦٠ . وتقع هذه الأطلال الضخمة غربى قرطبة ، على بعد نحو سبعة أميال منها ، وشمالى نهر الوادى الكبير على قيد ميلين ، وتحتل منحدراً صخرياً وعراً ، يقع أسفل الأكمة ، التى يحتلها دير « سان خيرنمو » الشهير . وتسمى هذه المنطقة التى تحتلها أطلال الزهراء « قرطبة القديمة » "Córdoba la Vieja"

وتشتمل الحفريات الأثرية التى يقوم بها العلماء الإسبان منذ سنة ١٩١٠ ، منطقة واسعة ، تمتد ١٥١٨ متراً من الشرق إلى الغرب ، و٧٤٥ متراً من الشمال إلى الجنوب . ومع أن هذه المنطقة لم تكشف كلها ، وما يزال على ذوى الشأن أن يبذلوا جهوداً فادحة لإكمال مهمتهم ، فإن ما كشف حتى الآن من الأطلال الضخمة ، ومن نقوشها وزخارفها ، التى ما زال بعضها قائماً فى بعض الجدران ، والتى تتمثل بالأخص فى مئات القطع الرخامية التى وجدت ، يكفى لتكوين فكرة عامة عن هندسة المدينة الملوكية ، ومناعتها وفخامة صروحها .

وتنقسم أطلال الزهراء بصفة عامة إلى مجموعات ثلاث ، مدرجة من أعلى



زخارف رؤوس وقواعد أعمدة من الرخام الأبيض ، مما وجد في حفائر الزهراء

إلى أسفل . وتشمل المجموعة الأولى مواقع القصر الخليفي والمقام الخاص. وتشمل الثانية فيما يبدو مساكن الحاشية والحرس . وتشمل المجموعة الثالثة ثلاثة أبهاء كبيرة عالية ذات أعمدة ضخمة ، وأروقة جانبية ، وقد كانت حسبما يظن ، أبهاء رسمية لاستقبال السفراء والشخصيات الملوكية ، وما زالت جدرانها تحمل بعض الزخارف الأصلية بألوانها الزاهية .

وقد تم الكشف عن المنطقة الأولى منذ سنة ١٩٢٥ ، وهي تمتد فيما بين البهو الأكبر أو « مجلس الغربية » ومجموعة المساكن الخليفية ، أعني قصر الخلافة ومقام الخلفاء ، وهي التي وفق إلى كشفها الأستاذ بلاثكيث بوسكو منذ سنة ١٩١٢ . وكشفت الحفريات التالية عن الجدار الشمالي ، والفناءين التوأمين المتصلين بالمنحدر . والفناء الصغير المتصل بقصر الخلفاء ، ثم البهو الكبير ذي الشرفة ، وعن مساكن الحرس ، والطريق المؤدي إلى البهو الغربي والمتصل بشرقيه .

وترجع منطقة الجدار الشمالي إلى عصر الناصر ذاته ، وهي من منشآته في العصر الأول من بناء الزهراء . وقد أصلحت على امتداد سبعين متراً . ويمتد القسم الأول منها فيما بين باب الطريق المعبد ، وزاوية القصر الخلافي . وهذا الجزء من الجدار أمتن بناء وأحكم صنعاً ، من قسمه الذي بني فيما بعد ، في عهد الحكم المستنصر .

أما عن الفناءين المتماثلين أو الفناءين التوأمين ، فيقع أولهما على قيد ثمانية أمتار أسفل القصر الخليفي . ويشتمل كل منهما على بهو كامل . وهنالك ما يدل على أن كلاًّ منهما ، كان يحتوي على مجموعة من المساكن المتماثلة ، المخصصة لسكنى طائفة هامة من البطانة أو الجند . ويشغل الفناء الغربي رقعة تمتد من الشمال إلى الجنوب قدرها ٢٤,٢٠ متراً ، ومن الشرق إلى الغرب ٢٠ متراً ، وهي مساحة تبلغ نحو خمسمائة متر ، وفيه بقايا أبنية تبدو أكثر أهمية من تلك التي كان يشملها الفناء الشرقي . والفناء الشرقي مثل قرينه ، ولكنه أقل منه نظاماً . ويحتوي على أربع غرف متماثلة تقريباً ، تطل أبوابها جميعاً على الفناء ، وبه من الزاوية الشمالية غرفتان منحدرتان . ولم يستطع المكتشفون أن يحددوا موقع المدخل بالنسبة لهذين الفناءين الكبيرين ، ولم يظهر فيهما مكان لباب صغير أو كبير . والظاهر أنهما يكونان معاً موقع مسكن لأحد الكبراء ، وربما كان الفناء الشرقي موقع مسكن « للحريم » ،

أو بعبارة أخرى جناح القصر الذى تسكنه النساء والأولاد ، ففيه غرف أنيقة بعضها مبلط بالرخام ، وأمكنة للفراش ومطابخ ومرافق .

وأما الفناء الغربى ، فالظاهر أنه مكان الجناح الخاص ، الذى كان السيد يستقبل فيه الزوار ، ويصرف الأمور ويضع تحفه ومكتبته . ويرى بعض المكتشفين أن هذا المكان ، ربما كان مسكناً للحاجب أو رئيس الوزارة .

وهنالك روايتان ، تتعلق احداهما بأخذ البيعة للحكم المستنصر فى سنة ٣٥٠ ﻫ ، وتتعلق الثانية بزيارة أردونيو الرابع ملك ليون المخلوع للحكم فى شهر صفر سنة ٣٥١ ﻫ (٩٦٢ م) . وفى تفاصيل هاتين الروايتين ، وفى أوصافهما ، ما يلقى ضوءاً على أوضاع المدينة الخليفية ، وما يدل على أن المعالم التى وردت فيها ، إنما تحدد المكان نفسه وتؤكده ، وقد كان الباب الرئيسى لمدينة الزهراء الذى جاز منه أردونيو هو « باب القبة » ، ثم يليه عند المدخل « باب السدة » .

وقد استقبله الحكم فى « المجلس المؤنس » . وجاز بعد ذلك إلى الروشنين الباقيين ، وانحنى أمام العرش الخليفى المجاور للبهو الغربى ، أو « مجلس الغربية » الذى سبقت الإشارة إليه . وفى مكان يقع شمال هذا البهو ، استقبله الحاجب جعفر المصحفى ، الذى نكبه المنصور فيما بعد . وقد اكتشفت اليوم هذه المعالم كلها .

وفى شرقى القصر الخليفى فناء صغير ، هو الذى اكتشفه الأستاذ بلاثكيث بوسكو منذ سنة ١٩١٤ . وعلى قيد نحو ستة عشر متراً أسفل هذا الفناء المتواضع ، يقع بهو ضخم مربع تقريباً يشغل مساحة قدرها ٤٦٠ متراً ، وقد بلط بقطع كبيرة من الرخام ، ويحيط به رواق عرضه متران ونصف ، تحف به أعمدة ضخمة قوية مربعة ، سمك ضلعها نحو متر تقريباً . ويمتد من زاويته الشمالية الشرقية ، نفق عرضه زهاء مترين يتجه نحو الجنوب الشرقى ، وله بابان متعاقبان بينهما نحو مترين ، وعلى مقربة من بابه يبدو سلم ضخم ، يصعد نحو المدينة الخليفية ، وقد اكتشف منه خمس درجات فقط . وهى مبنية بالحجارة الضخمة ، التى بنيت منها مدينة الزهراء كلها . وربما كان هذا السلم ، هو سلم قصر الخلفاء ذاته . والظاهر أن هذا الفناء ومتعلقاته كان مثوى لبعض الدواوين العامة ، كديوان الخزانة أو نحوها ، وهو متفق فى ذلك مع الأوصاف العامة للمدينة الخليفية ، حيث يوصف الجزء الأوسط منها ، بأنه مكان يضم فى أعلاه

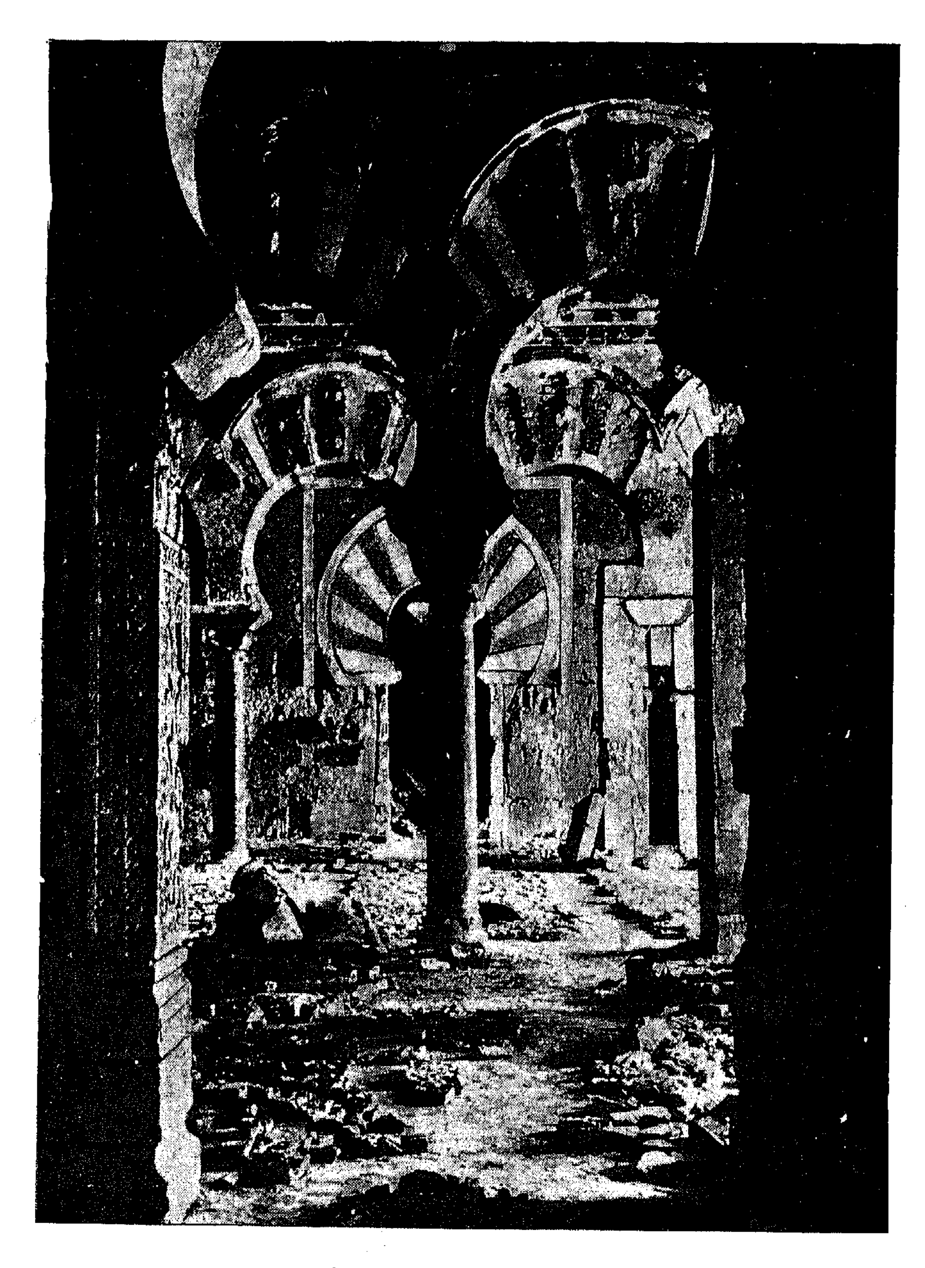
المساكن الخليفية ، ثم تليها الدواوين فى الجزء الأوسط ، ثم تقع الحدائق فى الحيز الأدنى .

وأحدث ما كشفت عنه حفريات الزهراء ، هى المجموعة الثالثة التى أشرنا إليها فى صدر هذا الفصل ، وقد تم هذا الاكتشاف فى سنة ١٩٤٤ ، وكشف عن بهو عظيم ، ذى أفنية ثلاثة ، تقوم على عقود من الأعمدة ،وقد تحطمت عناصره، وشوهت بشدة ، ولكن وجدت سائر مواده وزخارفه تحت الأنقاض .

وقد عكف العلماء الأثريون الإسبان منذ أعوام على إقامة هذا البهو وتنسيقه مما وجد من الأنقاض والأعمدة والعقود والزخارف المكتشفة ، وهو يتكون من أربعة أروقة أو أبهاء متلاصقة ، تبلغ واجهتها معاً نحو أربعين متراً ، وقد قسمت من الداخل إلى ثلاثة أروقة مستطيلة ، يتوسطها رواق ذو عقود فى الجانبين ، وتبلغ عقوده خمسة تقوم على سبعة أعمدة ، اثنان يستند كل منهما إلى عقد الحائط ، وخمسة حرة . وقد ركب على هذه العقود ما وجد بين الأطلال من رؤوس ، وقواعد رخامية مزخرفة . ومن الرواق الثالث يفتح باب على بهو داخلى ، قد أقيم على الطراز المفروض ، وزين جانباه بالزخارف الرخامية ، وقسم إلى قسمين . ويبلغ طول كل رواق من الأروقة المذكورة نحو عشرين متراً ، وعرضه نحو سبعة أمتار ، وقد صيغت العقود كلها على نمط واحد ، وزينت رؤوسها بما أمكن جمعه من قطع الزخارف الرخامية التى وجدت ، والتى توجد منها بين الأنقاض مئات القطع ،وهذه الرؤوس كلها من طراز خلافى جميل من النسق الكلاسيكى . ووجد فى إحدى هذه القواعد نقش كوفى جميل يشيد بذكر عبد الرحمن الناصر ، ومؤرخ فى سنة ٣٤٢ هـ (٩٥٣ م) .

وعملت فى كل من الرواقين الأول والثالث ، كوتان ، كل منهما فى طرف ، والأربعة متقابلة متماثلة . ويجرى البناء فى تركيب مداخل جديدة قد زين بعضها بقطع الآجر الحمراء التى وجدت ، وقد شيدت هذه الأروقة على ارتفاع يبلغ نحو عشرة أمتار .

يقول الأستاذ كستيخون أحد أعضاء اللجنة الأثرية المكتشفة : « إن هذا البهو الذى يمتاز بتناسبه الجميل ، وعقوده القوية ، وزخارفه الجميلة ، لابد أنه كان من تحف مدينة الزهراء الهندسية ، وقد رأت اللجنة نظراً لأنه لم يكن له اسم معين ، أن تسميه بهو « عبد الرحمن الثالث» (الناصر) ، لما وجد فى رؤوس أعمدته من



مدينة الزهراء : بعض العقود والزخارف التي وجدت بين أنقاض المجلس المؤنس بالقصر الخليفي ، وأعيد تركيبها فيما يسميه الأثريون الإسبان « بهو عبد الرحمن الناصر » أو « بهو السفراء » .

إشادة بذكر هذا الخليفة ، وكذلك على عقد مدخله الأوسط من ذكر له يرجع إلى سنة ٣٤٥ هـ (٩٥٦ — ٩٥٧ م) »[١] .

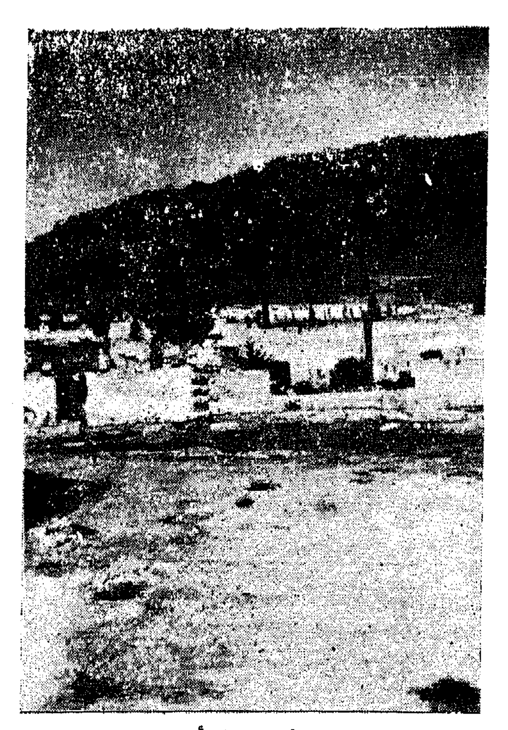
وقد كشفت الحفريات الأخيرة عن مجموعة جديدة من الأطلال ، تقع أعلى هذه الأبهاء من اليسار ، وهى عبارة عن مجموعة من الغرف السكنية وبهو مستطيل ، وهى لا تفترق كثيراً عن غيرها من المجموعات الأخرى المماثلة من حيث التخطيط ، ولكنها تكشف لنا عن حقائق معمارية وفنية هامة ، فهى المجموعة الوحيدة التى وجد بها أثر الدهان واضحاً ، وقد تبين أن لون الدهان الذى كان مستعملا فى هذه المجموعات من المساكن (مساكن الحاشية) هو اللون الأحمر يحف به على ارتفاع نحو متر ونصف خط أبيض ، يعلوه خط أحمر . وتبين كذلك أن البلاط المستعمل فى أرض الغرف هو أيضاً أحمر اللون ، وهو قطع مربعة يبلغ ضلع الواحدة منها أربعين سنتيمتراً ، وتبين أخيراً أن الأحجار المستعملة فى أسفل البناء ، هى أحجار قوية كبيرة ، بعضها يبلغ طوله نحو ٨٠ سنتيمتراً ، وعرضه أربعون .

وقد عثر المكتشفون إلى جانب هذه المجموعة الضخمة المنوعة ، من أطلال المدينة الخليفية ، بطائفة كبيرة من القطع الزخرفية ، والأعمدة والألواح والأحواض الرخامية المنوعة ، ومئات من القطع والأوانى الخزفية ، والبللورية ، وقد جمعت كلها فى متحف خاص أقيم عند مدخل المدينة ، وعرضت فيه بعض القطع ، والأحواض الرخامية البديعة الزخرف والنقوش ، وبعض الأوانى الخزفية المصححة . وأقيم إلى جانب المتحف بهوان كبيران يغص كلاهما بالقطع الزخرفية ، والبللورية المتكسرة ، التى يعكف الاخصائيون على فحصها وتصحيح ما يمكن تصحيحه منها .

وكان من أنفس ما عثر به المكتشفون بين أطلال الزهراء ، تمثال وعل من البرونز الأسمر الدقيق الزخرف ، وهو يحفظ اليوم حسبما أسلفنا بالمتحف الأركيولوجى بمدينة قرطبة ، إلى جانب عدة قطع رخامية بديعة ، وجدت أيضاً بين أطلال الزهراء . ويوجد نموذج جصى من هذا الوعل محفوظ بمتحف الزهراء الذى سبقت الإشارة إليه .

---

(١) **R. Castejón : Nuevas Excavaciónes en Medinat Al-Zahra, El-Salon de Abd Al-Rahman III (Al-Andalus, Vol X (1945) Fasc. I.**



مدينة الزهراء : بعض الأطلال التى أسفرت عنها الحفريات



مدينة الزهراء : جانب آخر من الأطلال .



وعل الزهراء البرونزى المحفوظ بمتحف قرطبة

وقد تفقدنا أطلال الزهراء مراراً ، وتجولنا بينها ساعات طويلة ، تحت شمس قرطبة المحرقة . وإنه ليبدو لنا أن هذه المجموعة من الأفنية والأبهاء والعقود ، والأماكن والأنفاق ، إذا كانت تدلى بما كانت عليه المدينة الخليفية من ضخامة ومنعة ، سواء بموقعها فوق المنحدر الجبلى الوعر ، أم بضخامة حجارتها الصخرية الصلدة ، ومتانة أطلالها المكتشفة ، فإنها ما زالت بعيدة عن أن تدلى بما كانت عليه مدينة الزهراء الملوكية من آيات الجلال والروعة التى تحدثنا عنها الروايات المعاصرة . على أن الحفائر المستقبلة ، وهى ما زالت رهن منطقة شاسعة ، قد تكشف فيما بعد ، عن كثير من ضروب الفخامة والجلال ، التى تنقص اليوم أطلالها الماثلة[١] .

(١) رجعنا فى هذا البحث إلى مشاهداتنا الخاصة ، وإلى تقارير الحفائر الرسمية التى أجريت تحت رعاية الحكومة الإسبانية :

1- Medina Azzahra y Alamiriya, por D.R. Velazquez Bosco (Madrid 1912)

2- Excavaciónes del pian nacional en Medina Azahra (Córdoba) campana de 1943; por R. Castejón y Martinez de Arizala (Madrid 1945).

٣ — إشبيلية
Sevilla

كانت إشبيلية أيام الدولة الإسلامية ، أعظم مدن الأندلس وأجملها ، وكانت أعظم وأجمل من قرطبة ذاتها . وقد سطعت أيام بنى عباد ، إذ كانت دار الملك ، وغدت أيام الموحدين مركز الحكم مرة أخرى ، ولكنها لقيت مصرعها كقاعدة إسلامية أيام الموحدين أيضاً ، وسقطت فى أيدى القشتاليين فى ٢٧ رمضان سنة ٦٤٦ هـ (٢٣ نوفمبر سنة ١٢٤٨ م) ، أعنى بعدسقوط قرطبة باثنى عشر عاماً ، وغدت من ذلك الحين حتى أوائل القرن السادس عشر ، دار الملك فى قشتالة .

وما تزال إشبيلية حتى اليوم أجمل مدن الأندلس ، وأوفرها سحراً ، بل هى فى الواقع من أجمل المدن الإسبانية ، وقد أسبغت عليها عناية الدول والعصور المتعاقبة ، طابعاً من الروعة والجلال ، يمثل فى صروحها ومعاهدها الفخمة ، وآثارها التاريخية الكثيرة .

وقد سميت إشبيلية اشتقاقاً من اسمها اللاتينى « إشبالى » أو هسبالى Hispalis وهى تسمى أيضاً فى الأدب الأندلسى « حمص » ، وذلك لأنه قد نزلها عند الفتح جند حمص الشأم[1] وأطلقوا عليها هذا الاسم ، لما لمسوه من شبه بين المدينتين فى الموقع والخطط والتربة ، وإليها يشير أبو الطيب ، صالح بن شريف الرندى فى مرثيته حين يقول :

وأين حمص وما تحويه من نزه ونهرها العذب فيّاض وملآن

وتعد إشبيلية اليوم بين المدن الإسبانية الكبيرة ، ويبلغ سكانها نحو ربع مليون نسمة ، وهى تأتى بعد بلنسية من حيث فخامتها وعدد سكانها . ويشقها نهر الوادى الكبير من جانبها الغربى ، وبها ميادين جميلة وشوارع فسيحة عامرة ، ولاسيما فى أحيائها الحديدة ، الواقعة بين الكنيسة العظمى (الكاتدرائية) والنهر . وأجمل ميادينها التاريخية ، ميدان سان فرناندو المسمى اليوم « الميدان الجديد » "Plaza Nueva" . وتزدان إشبيلية بكثير من المتنزهات الجميلة ، وحدائق البرتقال

---

(١) راجع معجم البلدان لياقوت تحت كلمة «إشبيلية» ، وكذلك الروض المعطار ص ٢٠ و ٢١ .

اليانعة ، ولاسيما على ضفاف الوادى الكبير . وبها مصانع كثيرة للسماد والزيوت والإسمنت والزجاج والخزف ، وهى تحتفظ بالأخص بمصنع من أعظم مصانع الخزف ، والأدوات الخزفية المزخرفة فى اسبانيا . ويقع هذا المصنع العظيم على ضفة النهر فى ضاحيتها المسماة « لاكارتوخا » ، ويشتغل به أكثر من ألف عامل ، وتصدر منتجاته الأنيقة ذات الألوان الزاهية إلى سائر أنحاء العالم . وقد زرنا هذا المصنع الشهير ، وأعجبنا بما ينتجه من الأوانى والتحف الخزفية المدهشة من كل ضرب ولون . وتصدر إشبيلية الزيوت والنبيذ والفواكه والمعادن ، وبها حركة تجارية عظيمة .

وإشبيلية أيضاً مركز حركة ثقافية عريقة ، وبها جامعة قديمة ترجع إلى قرنين ، تحتوى على كليات للآداب والحقوق والعلوم وكلية مستقلة للطب ، وتدرس العربية قليلا بكلية الآداب .

وبها دار محفوظات الهند "Archivo general de Indias" ، وهى تضم مجموعات قيمة من الوثائق المتعلقة باكتشاف أمريكا ، وتاريخ المستعمرات الإسبانية الأمريكية وإدارتها ، ويقصدها الباحثون من سائر البلاد ولاسيما أمريكا ، التى يعنى علماؤها بدراسة هذه المجموعات بنوع خاص .

وليس فى إشبيلية من الآثار الإسلامية سوى القليل ، وحتى هذا القليل يكاد يختفى تحت أثوابه النصرانية المجددة ، بيد أنه يمتاز فى الوقت نفسه بروعته وأهميته الأثرية البالغة .

ويكتفى أن تحتفظ إشبيلية بدرتيها الإسلاميتين الفريدتين ، وهما منارة مسجدها الأعظم السالف ، و« القصر » ذو الطابع الإسلامى الفريد .

ولنبدأ الحديث عن المسجد الأعظم ومنارته الباقية ، والواقع أنه لم تبق من جامع إشبيلية اليوم وحدة قائمة بذاتها ، كما هو الشأن فى جامع قرطبة ، الذى تركت عقوده ومحاريبه ، ونصبت فى داخله الكنائس والهياكل الحديدة . ولكنه أزيل وأقيمت مكانه كنيسة إشبيلية العظمى ، التى تعتبر بضخامتها وفخامتها ، ثانى كنيسة فى العالم بعد كنيسة القديس بطرس فى رومة ، ولم يبق اليوم قائماً منه سوى صحنه القديم ومنارته .

وقد قام بإنشاء هذا المسجد عاهل المغرب والأندلس الخليفة ، أبو يعقوب يوسف

الموحدى ، ولد الخليفة الأكبر عبد المؤمن بن على ، وذلك فى شهر رمضان سنة ٥٦٧ هـ (مايو سنة ١١٧٢ م) ، أثناء إقامته بمدينة إشبيلية ، وكانت يومئذ قاعدة حكم الموحدين بالأندلس . وكان مسجد إشبيلية الجامع المسمى بجامع ابن عدبّس وهو المنسوب للقاضى عمر بن عدبس ، والمشيد فى سنة ٢١٤ هـ ، أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، قد ضاق برواده ، نظراً لنمو المدينة وتكاثف سكانها ، وكثرة الموحدين الوافدين عليها . وقد ترك لنا عبد الملك بن صاحب الصلاة مؤرخ الموحدين المعاصر ، وشاهد العيان ، وصفاً مسهباً لإنشاء هذا الجامع ، يقول فيه ، إن أمير المسلمين الخليفة أبا يعقوب قد « حاز الذخر والأجر فى بناء هذا المسجد الجامع الكبير توسعة للناس ، فأسسه من الماء بالآجر والجيار والحصى والأحجار ، على أعظم البناء والاقتدار ، وأسس أرجله المعقودة بطاقات بلاطاية تحت الأرض أطول مما فوق الأرض ، وجمع عليه الفعلة بكثرة الرجال والخدام ، وإحضار الآلات من الخشب المجلوب من سواحل العُدوة ، مما لم يقدر عليه ملك من ملوك الأندلس قبله ، فأعلى بنيته ، وصقل صفحته بالإتقان لتشييده وتوثقه ، وأنفذ أمره العالى ببنيانه فى شهر رمضان من سنة سبع وستين وخمسماية المؤرخة ، لم يرفع البناء عنه قط فى فصل من فصول السنين مدة إقامته بإشبيلية ، إلى أن كمل بالتسقيف ، وجاء فى أبهى المنظر الشريف ، أعجز فى بنيانه من تقدمه ، وتغنى فى ميزابه وخبره ورخمه مقدمه ، قارب به جامع قرطبة فى السعة ، وليس فى الأندلس جامع على نده وسعته وعدد بلاطاته »[1] .

وذكر لنا ابن صاحب الصلاة اسم الناظر على بناء المسجد وعرفائه ، وهو العريف أحمد بن باسة ، والناظر على النفقة ، وهو أبو داود بلول بن جلداسن خاصة أمير المؤمنين ومشرفه على الأعمال . ومن الحفاظ على البناء من أهل إشبيلية ، أبو بكر بن زهر ، وأبو بكر الساقى . ثم يقول : ان سرب المدينة كانت تشق بجريها تحت الأرض على مواضع اختطاط هذا الجامع ، فنكبت عنه ، وحرفت إلى جهة الحوف على سرب واسع ، وعمل على توثيق البناء تحت الأرض ، وعنى العرفاء ببناء القبة التى على محرابه وبنجارتها أعظم عناية ، وأقاموا عن يسار

(١) السفر الثانى من كتاب « تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين » لعبد الملك بن صاحب الصلاة (مخطوط اكسفورد) ، لوحة ١٦٧ أ

المحراب ، ساباطا فى الحائط ، يشقه الخليفة من القصر إلى الجامع لشهود صلاة الجمعة ، وافتن الصناع فى عمل المنبر وصياغته من أكرم الخشب ، وفى إبداع نقوشه ، وترصيعه بالصندل المجزع بالعاج ، وأبنوسه يتلألأ بصفائح الذهب والفضة ، « وأشكال فى عمله من الذهب الإبريز ، يتألق نوراً ، ويحسبها الناظر لها فى الليل البهيم بدوراً » . ثم عملت له مقصورة من الخشب مزينة بالفضة . وكان الخليفة يتفقد بناءه بنفسه فى أكثر الأيام ، ومعه أشياخ مملكته ، ويشير للمشرفين عليه بالجد فى البناء وإتقانه ، حتى كملت جهاته الأربع بالبناء وعقد الأقواس ، وكمال التثقيف . واستغرق بناؤه ثلاثة أعوام وأحد عشر شهراً . وسافر الخليفة أبو يعقوب إثر إتمامه إلى حضرته مراكش فى شعبان سنة ٥٧١ هـ . وافتتح الجامع المذكور للصلاة بصفة رسمية على يد والى إشبيلية السيد أبى اسحق إبراهيم ابن الخليفة أبى يعقوب . وأقيمت به خطبة الجمعة لأول مرة فى يوم الجمعة ٢٤ ذى الحجة سنة ٥٧٧ هـ (٣٠ أبريل سنة ١١٨٢ م) ، وأزيلت من جامع ابن عدبّس من ذلك اليوم[1] .

ولما عاد الخليفة أبو يعقوب يوسف إلى الأندلس فى أوائل سنة ٥٨٠ هـ ، معتزماً غزو الأراضى النصرانية فى جيوشه الجرارة التى عبرت معه ، أمر عند وصوله إلى إشبيلية عامله أبا داود بلول بن جلداسن ، أن يشتغل أثناء غيبته فى الغزو ، بإنشاء سور حصين لقصبة إشبيلية ، وببناء صومعة (منارة) للجامع تكون متصلة بالسور وبالجامع . ثم خرج الخليفة فى جيوشه ، وغزا أراضى البرتغال الشمالية ، وحاصر مدينـــة شنترين ، ووقعت بينه وبين النصارى تحت أسوارها معركة عنيفة ، هزم فيها الموحدون وقتل أبو يعقوب ، وذلك فى ربيع الثانى سنة ٥٨٠ هـ (يوليه ١١٨٤ م) .

فلما بويع ولده أبو يوسف يعقوب بإشبيلية بالخلافة ، أمر بالكف عن بناء سور القصبة ، ولكنه أمر بالاستمرار فى إنفاذ أمر أبيه ببناء صومعة الجامع ، وكان العمل فى بنائها قد بدأ بالفعل قبل ذلك ببضعة أسابيع ، ووضع العريف أحمد بن باسة أساسها لصق الجامع ، وكان قد وافق بئراً معينة ، فردمت وبلط فوق الماء حتى أمن قعود الأساس . وقام بالنظر على نفقتها العامل محمد بن سعيد . ثم بدأ العريف بناءها بالحجر المسمى « بالطجون العبادى » ، المنقول من سور قصر

---

(١) كتاب ابن صاحب الصلاة السالف الذكر لوحة ١٦٨ ب و ١٦٩ ا

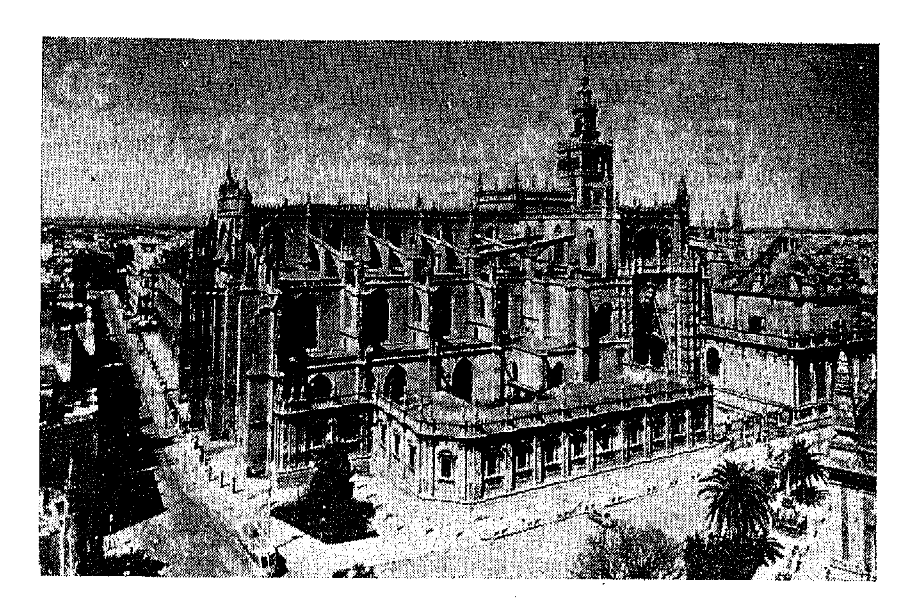
ابن عباد . ولم تمض بضعة أشهر حتى عزل ابن سعيد عن العمل ، وتعطل البناء، إلى أن وصل أبو بكر بن زُهر حافظ البناء من حضرة أمير المؤمنين بمراكش فى سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٨ م) ، وقد أمر بإعادة بناء الصومعة ، وبناء ما اختل من الجامع ، فاستؤنف العمل فيها ، حسبما نذكر بعد[1] .

ولما سقطت إشبيلية فى أيدى القشتاليين فى سنة ١٢٤٨ م ، حولوا مسجدها الجامع إلى كنيسة . وفى سنة ١٤٠٢ بدئ بإنشاء كنيسة إشبيلية العظمى (الكاتدرائية) فوق موقع المسجد الجامع القديم ،واستمر العمل فى بنائها أكثر من قرن ونصف ، حتى غدت برقعتها الشاسعة ، وعقودها المنيفة ، وزخارفها البديعة ، ثانى كنائس العالم من حيث الضخامة والروعة . وهى تقع فى جنوب المدينة ، وبها تحت القبة العظمى ، قبر كريستوف كولمبوس مكتشف العالم الجديد . وليس هنا مقام التحدث عن أوصاف هذه الكنيسة الباذخة ، التى يحار البصر فى تأملها ، وإنما الذى يهمنا هو التحدث عما بقى حولها من آثار المسجد الجامع الذى بنيت مكانه ؛ فقد بقى من مسجد إشبيلية أولا صحنه ، وهو ما يزال يحتفظ بشكله وموقعه القديم . وهو يقع شمالى الكنيسة ويبلغ نحو ربع مساحتها ، وفى وسطه نافورة أندلسية ، وقد وضعت فيه آنية التعميد الحجرية ، وغرست فيه أشجار البرتقال ، ويعرف اليوم « بفناء البرتقال أو فناء النارنج» "Patio de los Naranjos" ، وما تزال عقود الصحن قائمة من ناحية الشمال والغرب ، ولكنها مسخت وبنى فيما بينها . كذلك ما تزال ساريات الصحن القديمة قائمة ، فى هذين الجانبين . وقد بقى باب الجامع الرئيسى ، الواقع فى شمالى الصحن ، كما هو بعقده وزخارفه البرونزية الإسلامية ، وقد نقشت على كل من قبضتيه الضخمتين ما يأتى : « بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد » ، ويبلغ عرضه نحو خمسة أمتار وارتفاعه عشرة . ومن الغريب أن هذا الباب الأندلسى الشاهق ، أضحى بالرغم من نقوشه الإسلامية ، والآيات المرقومة عليه ، يعرف بالإسبانية « بباب الغفران » "Puerta del Perdón" ، وهو يفضى إلى هيكل أقيم تحت عقده الداخلى ، ونصب فى جانبه تمثال للعذراء ، ينحنى أمامه طلاب التوبة والغفران .

ويصف الغزّال الفاسى فى رحلته كنيسة إشبيلية العظمى بإفاضة ، ويسميها

---

(١) كتاب ابن صاحب الصلاة السالف الذكر لوحة ١٧٠ ا و ب .



إشبيلية . الكنيسة العظمى (الكتدرائية) ، وإلى ورائها « الخيرالدا » (برج الأجراس)



كنيسة إشبيلية العظمى . باب الغفران من الداخل وقد ظهر من ورائه صحن الكنيسة

« الجامع الأعظم الذى كان للمسلمين » ويعطف على صحن الجامع بقوله : «وبصحن الجامع خمس وعشرون شجرة من النارنج ، وخصتان ، وضريح واحد به بيوت عدة يسكنها الفرايلية »[1] .

ويلى صحن الجامع جنوباً صرح « الكاتدرائية » الضخم ، ويقع بابها الرئيسى المباشر فى الجهة الشرقية ، وهو باب عريض ضخم ، ويبدو أنه باب الجامع الكبير . ولها ستة أبواب أخرى شرقية وشمالية . وكلها ملبسة بالنحاس والنقوش العربية والآيات القرآنية . وهى بلا ريب من أبواب جامع إشبيلية القديم .

هذا ، وأما عن جامع إشبيلية القديم وهو جامع ابن عدبّس الذى سبق ذكره ، فقد أقيمت فوق موقعه كنيسة سلفادور وهى من كنائس إشبيلية القديمة ، وتحفظ فى متحف إشبيلية الاركيولوجى لوحة إنشاء هذا الجامع حسبما نذكر بعد .

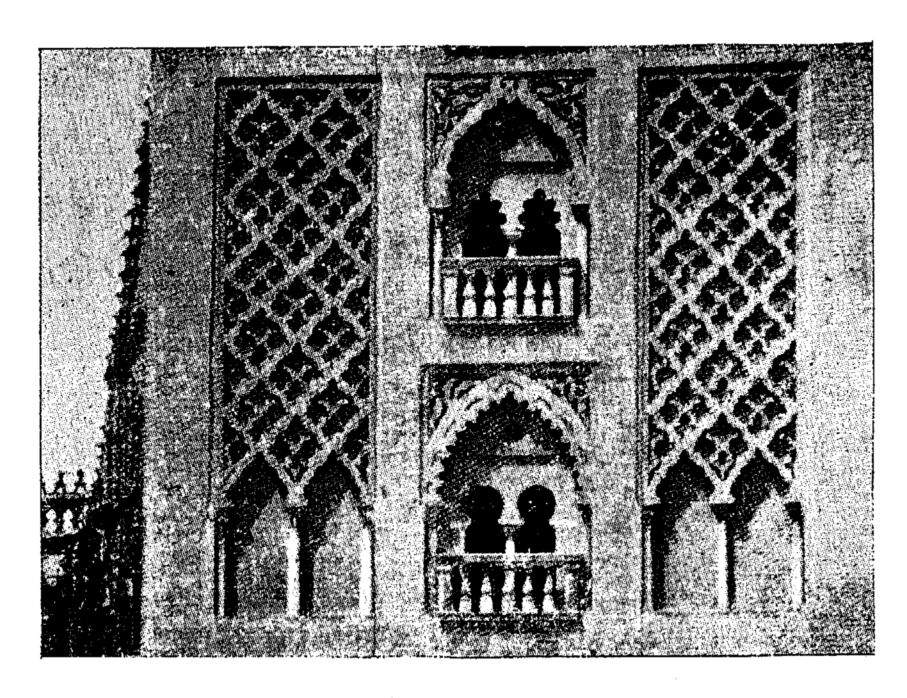
لاخيرالدا La Giralda

وهى منارة أوصومعة مسجد إشبيلية الجامع المتقدم ذكره ، وهى بروعتها وجمالها تبدو لؤلؤة إشبيلية الأثرية ، وتقع إلى جوار زاوية الكاتدرائية العظمى الشمالية الغربية ، وفى جنوب غربى الصحن . وقد سبق أن ذكرنا كيف بدئ بإنشاء المنارة المذكورة فى أواخر عهد الخليفة أبى يعقوب يوسف ، ثم استؤنف بناؤها فى عهد ولده الخليفة أبى يوسف يعقوب ، ، وهو الملقب بالمنصور ، وقد ذكر لنا ابن صاحب الصلاة أنها بنيت بغير أدراج ، يصعد إليها فى طريق واسعة للدواب والناس والسدنة ، وأنه لما صدر أمر الخليفة ببنائها ، وبناء ما اختل من الجامع ، وذلك فى سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٨ م) ، شرع فى بنائها بالآجر الذى يؤخذ من بناء حجر سور ابن عباد المتقدم الذكر ، وعنى بالبناء أشد عناية ، ودام العمل فى ذلك أعواماً ، يجرى البناء فيها أحياناً متقطعة ، فإذا غادر الخليفة إشبيلية إلى الحضرة ، تعطل البناء ، ثم يستؤنف متى حضر . وكان الخليفة المنصور يلازم الجلوس بنفسه على البنائين فى المدد التى كان يعاود فيها البناء ، واستمر ذلك إلى أن كانت موقعة الأرك الشهيرة[2] التى أحرز فيها الموحدون بقيادة المنصور نصرهم الباهر على القشتاليين ، وذلك فى سنة ٥٩٣ هـ (١١٩٥ م) ، فحينما عاد المنصور إلى

---

(١) رحلة الغزال ص ٣١ . والفرايلية جمع « فرايلى » Fraile أعنى القس .

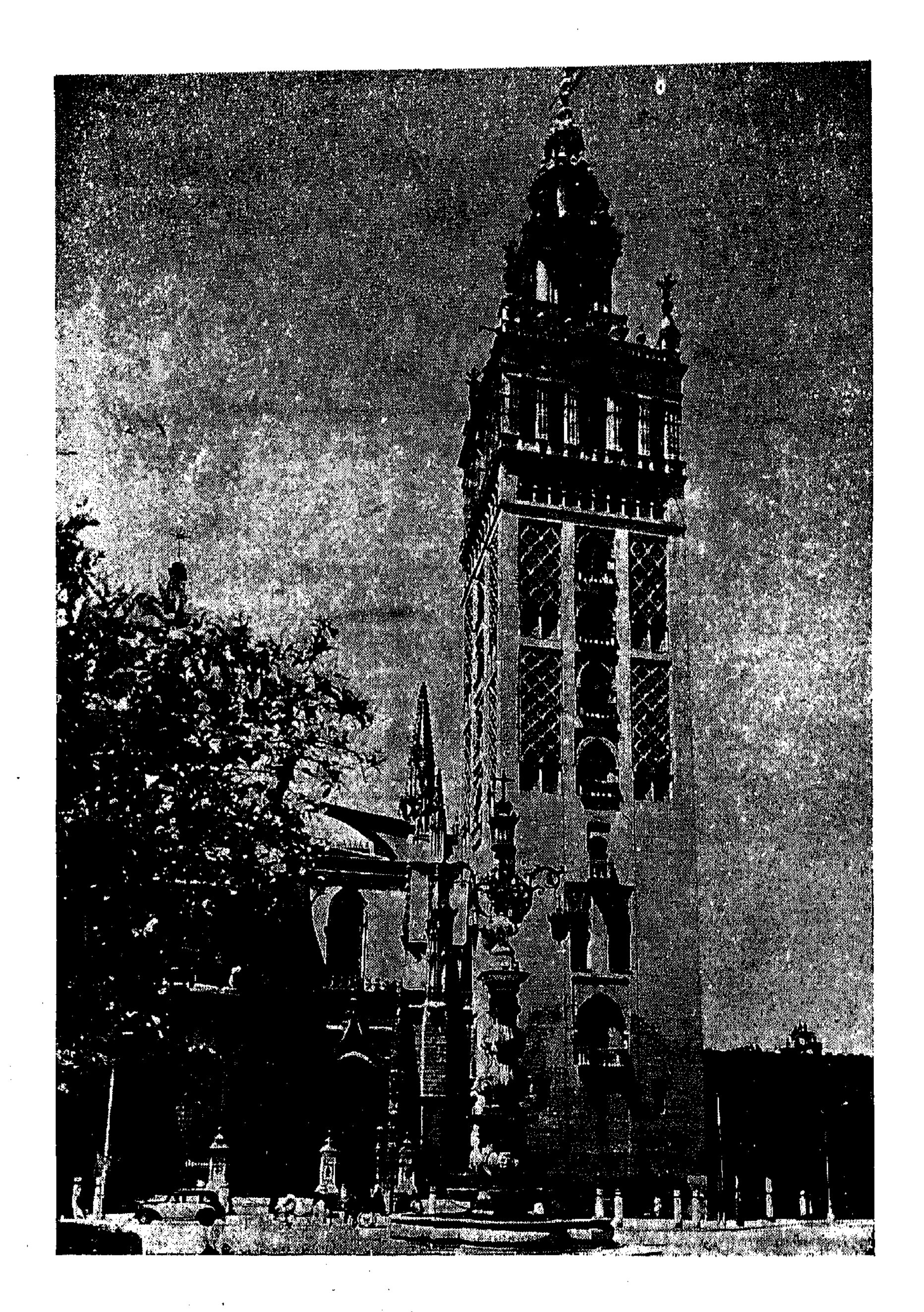
(٢) وتعرف فى الإسبانية بموقعة Alarcos .



إشبيلية . تفاصيل من الزخارف الخارجية لمنارة المنصور (لاخير الدا) .

إشبيلية مكللا بغار النصر ، وكان بناء المنارة قد تم ولم تبق سوى أعمال التجميل ، أمر بتزويدها بتفافيحها الذهبية المشهورة . وإليك كيف يصف لنا ابن صاحب الصلاة قصة هذه التفافيح ورفعها إلى أعلى المنارة فى حفل كان من شهوده ، قال :

« فلما وصل أمير المؤمنين ، وهزم الله له أذفونش الطاغية ، أمر رضى الله عنه فى مدة إقامته بإشبيلية بعمل التفافيح الغريبة الصنعة ، العظيمة الرفعة ، الكبيرة الجرم ، المذهبة الرسم ، الرفيعة الإسم والجسم ، فرفعت فى منازلها بمحضره ، وحضر المهندسون فى إعلائها على رأيه ، وبلوغ وطره ، مركبة فى عمود عظيم من الحديد ، مرسى أصله فى بنيان أعلى صومعة الصومعة أعلاها ، زنة العمود ماية وأربعون ربعاً من حديد ، موثقاً هناك ، فى تلاحك البنيان ، بارز طرفه الحامل لهذه الأشكال المسماة بالتفافيح إلى الهواء ، يكابد من زعازع الرياح ، وصدمات الأمطار ، ما يطول التعجب منه من مقاومته وثباته . وكان عدد الذهب الذى طليت به هذه التفافيح الثلاث الكبار والرابعة الصغرى ، سبعة آلاف مثقال كبارا



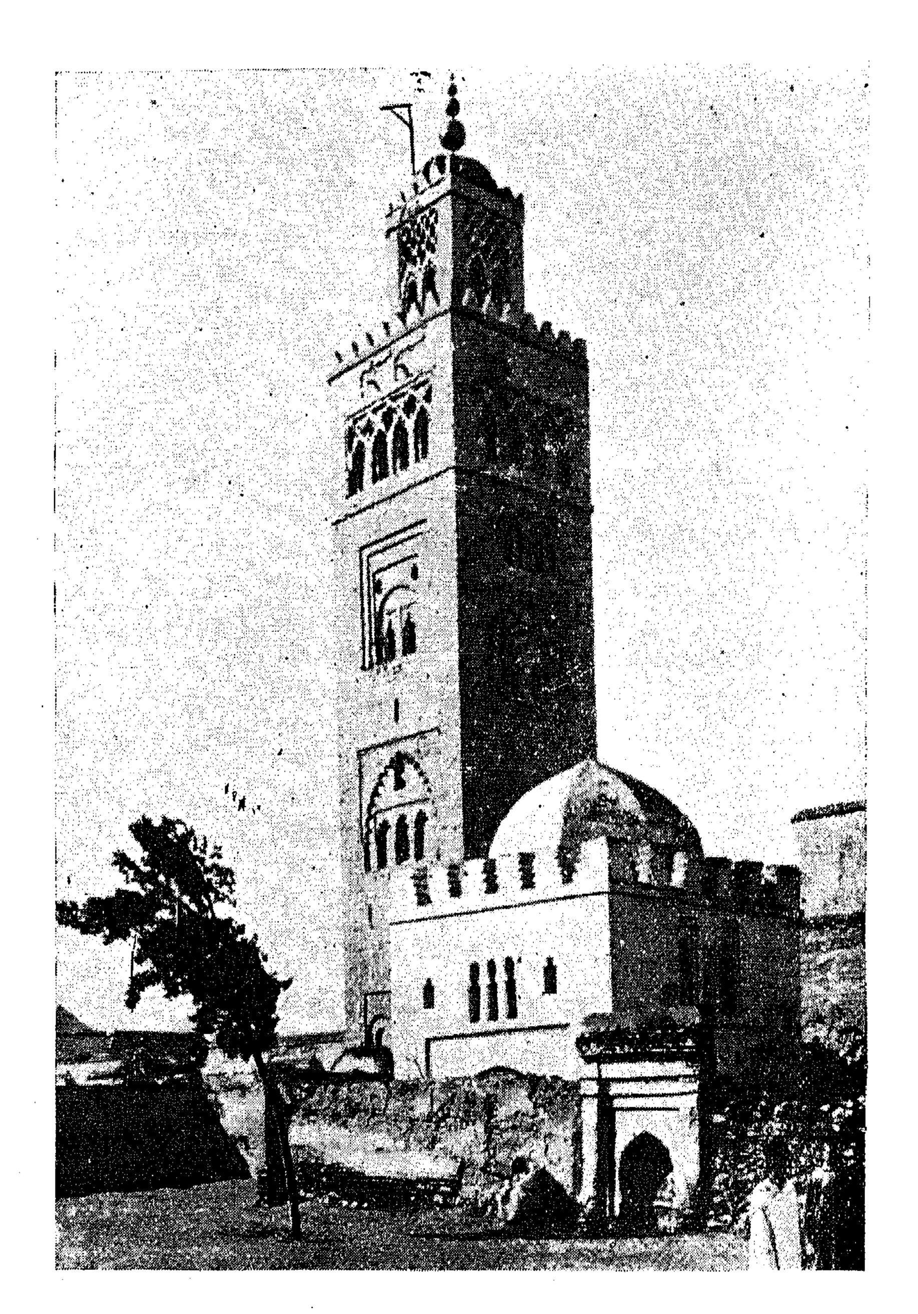
إشبيليه . لاخير الدا LaGiralda أو منارة جامع المنصور .

يعقوبية عملها الصياغ بين يدى أمير المؤمنين وحضوره . ولما كملت سترت بالأغشية من شقاق الكتان لئلا ينالها الدنس من الأيدى والغبار ، وحملت على العجل مجرورة حتى إلى الصومعة ، بالتكبير عليها والتهليل ، حتى وصلت ورفعت بالمسدسة حتى إلى أعلى الصومعة المذكورة ، ووضعت فى العمود ، وحصلت فيه ، وحصلت بمحضر أمير المؤمنين أبى يوسف المنصور رضى الله عنه ، وبمحضر ابنه وولى عهده أبى عبد الله السعيد الناصر لدين الله ، وجميع بنيه ، وأشياخ الموحدين ، والقاضى ، وطلبة الحضر ، وأهل الوجاهة من الناس ، وذلك فى يوم الأربعاء عقب ربيع الآخر ، بموافقة التاسع عشرين من مارس العجمى عام أربعة وتسعين وخمسماية ، ثم كشفت عن أغشيتها ، فكادت تغشى الأبصار من تألقها بالذهب الخالص الإبريز ، وبشعاع رونقها »[١].

ونزيد نحن على ما تقدم أن منارة جامع إشبيلية : كانت قرينة لمنارتين شقيقتين فيما وراء البحر ، هما منارة جامع الكتبية (أو الكتبيين) بمراكش ، وهى التى مازالت تزدان بها العاصمة المغربية القديمة حتى اليوم ، ومنارة حسّان (تور حسان) القائمة على مقربة من شاطئ المحيط بمدينة الرباط ، وكلتاهما على نفس الطراز والنمط ، فى الداخل والخارج . وقد أمر بإنشاء المنارتين أيضاً الخليفة يعقوب المنصور . وقيل فى شأن منارة الكتبية إنه بدئ بإنشائها فى عهد الخليفة عبد المؤمن ، ولكنها لم تكمل إلا فى عهد حفيده المنصور . وعلى أى حال فقد تم إنشاء الكتبية فى سنة ٥٩٤ هـ ، بعد تمام منارة إشبيلية بقليل[٢] ، وأقيمت منارة حسان فى نفس الوقت ، ولكن بناءها لم يكمل ، ووقف دون القمة العليا . وفى وسعنا بتأمل منارة الكتبية أن نتصور منظر منارة إشبيلية قبل تحويلها إلى برج للكنيسة .

وما زالت منارة إشبيلية ، بالرغم من تحولها إلى برج للأجراس ، تحتفظ بكثير من روعتها الإسلامية القديمة ، وهى مربعة الشكل ، بالغة الارتفاع ، وقد اشتهرت عصوراً بجمال هندستها ، وروعة زخارفها ، التى بقى الكثير منها حتى اليوم ، واشتهرت بالأخص بتفافيحها الذهبية ، وكانت الوسطى منها بالغة الضخامة . ومما يذكر أن الذى قام بصنع هذه التفافيح ، ورفعها إلى أعلى المنار ، هو المعلم

(١) كتاب ابن صاحب الصلاة السالف الذكر لوحة ١٧١ ا و ب .
(٢) روض القرطاس لابن أبى زرع (طبعة تورنبرج) ص ١٥١ .



مراكش . منارة جامع الكتبية الشهيرة ، وهى قرينة لاخيرالدا .

أبو الليث الصقلى ، وأن قيمة ما أنفق على تذهيب التفافيح ، بلغت من النقد مائة ألف دينار[١] .

ويبلغ ارتفاع منارة المنصور أو « لاخيرالدا » La Giralda كما يسميها الإسبان ستة وتسعين متراً ، ويُصعد إليها من الداخل ، بواسطة ممرات منحدرة صاعدة مرصوفة بالآجر ، تبلغ أربعة وثلاثين ، وبها فى ثلثها الأوسط أربع طبقات من المخادع الجانبية ، لها نوافذ ومشرفيات عربية ، زينت واجهاتها بنقوش عربية ومغربية بديعة . وتعلو هذه الطبقات الأربع ، طبقة خامسة ، ذات أروقة ، ومشرفيات عالية . والظاهر أنها كانت طبقة المؤذنين . ثم تأتى بعد ذلك الطبقة الأخيرة ، وهى اليوم برج أجراس الكنيسة . ذلك أنه قد وقع فى الثلث الأعلى من المنارة تغيير عظيم ، وكانت تفافيحها الذهبية الأربعة قد سقطت فى سنة ١٣٥٥م ، على أثر زلزال مروع هز أركانها بشدة ، وغاصت فى الأرض وأتلفت قشرتها الذهبية الزاهية . وفى سنة ١٤٠٠ حولت قبتها العليا إلى برج متواضع للأجراس ، ولما تم بناء كنيسة إشبيلية العظمى فى سنة ١٥٥٨ م ، بدئ العمل فى تحويل قمة المنارة إلى برج عظيم للأجراس فأبقى هيكلها الرئيسى بطبقاته الخمس على أصله ، ثم بنى الإسبان فوقه برج الأجراس ، الحالى من طابقين على طراز عصر الإحياء ، واستغرق بناؤه عشرة أعوام ، ونصبوا فوق البرج تمثالا برونزياً للإيمان "Santa Fe" إرتفاعه نحو خمسة أمتار ، وله شارة تدور عند هبوب الريح (يدور بالإسبانية Girar) ، ومن ثم فقد أطلق الإسبان على المنارة اسمها الذى تعرف به وهو « لاخيرالدا » "La Giralda" أى « الدوارة » .

ويشير الغزّال إلى « لاخيرالدا » بقوله : « وصومعتها (أى صومعة الكنيسة) خارجة عن المسجد بقليل ، تشاكل فى التشييد صومعة الكتبية فى العلو والضخامة ، والصعود لها من غير مدارج ، إلا أن هذه زادوا فى فحلها علواً فادحاً ، على ما اقتضاه نظرهم محل النواقيس »[٢] .

وهكذا أصبحت منارة المنصور ، برج الأجراس "Campánula" لكنيسة إشبيلية العظمى ، بعد أن كانت منارة مسجدها الجامع .

---

(١) روض القرطاس ص ١٥١ .
(١) رحلة الغزال ص ٣١ .

يقول العلامة الأثرى الإسبانى كونتريراس : « إن « لاخيرالدا » تبدو صرحاً كاملا من الطراز العربى ، وفيها تبدو مظاهر الفن الزخرفى الحقيقى . ومن الأسف أن هذا البرج الجميل ، قد توج بجسم غريب عنه جداً ، لايسمح لنا أن نتصور وضعها القديم ، وتفاحتها الذهبية ، وألوانها الزرقاء الزاهية »(١) . وقدكان لطراز « لاخيرالدا » ، وجماله وافتنانه ، أثر واضح فى تطور الفن المعمارى الكنسى ، المتعلق بالأبراج الكنسية ، فنرى فى إشبيلية . وفى كثير من مدن الأندلس الأخرى ، كثيراً من الأبراج الكنسية ، قد أقيم على طراز شبيه بطراز لاخيرالدا ، وزخارفها وتقاسيمها الأندلسية .

وقد أتيح لنا أن نصعد إلى أعلى برج « لاخيرالدا » . وأن نلقى على إشبيلية الحسناء ، نظرة من هذا الارتفاع الشاهق . وهى تبدو رائعة مستديرة الشكل ، مكتظة بالشوارع ، والدروب الضيقة ، ومعظم منازلها بيضاء ، وهو اللون المفضل فى الأندلس ، ويبدو الفناء الأندلسى فى كثير منها ، وفيه نخلة أو نخيل ، وتظللها من الناحية الجنوبية ، المقابلة للنهر ، بعض التلال ، وتبدو حدائق القصر ، وحدائق أخرى من وراء « الكاتدرائية » رقاعاً خضراء يانعة .

وتنتصب « لاخيرالدا » ، فى قلب إشبيلية ، بقامتها الرشيقة الشاهقة ، بالغة الروعة والجلال ، كأنها ملكة تزهو وتتسامى ، وهى تشرف على إشبيلية كلها من نواحيها الأربع ، وتشرف على نهر الوادى الكبير القريب منها ، وعلى واديه اليانع كله ، وتستطيع أن تراها وأنت بالقطار من مسافات بعيدة .

ومن آثار إشبيلية التى يبدو فيها الطابع الأندلسى قوياً واضحاً ، كنيسة « سان ماركوس » ، وقد صنع برج نواقيسها ، على طراز منارة الجامع ، وهو يعتبر أجمل « منار » فى إشبيلية بعد « الخيرالدا » .

قصر إشبيلية Alcázar de Sevilla

ولابد لنا أن نشير أولا ، إلى أن كلمة « القصر » "Alcázar" ، أصبحت فى اسبانيا ، علماً يطلق على الصروح أو القصور الملوكية الإسلامية ، أو أطلالها

(١) Rafael Contreras : Estudio descriptivo de los Monumentos Arabes de Granada Sevilla y Córdoba. p. 129

الباقية ، فى قواعد الأندلس الذاهبة ، عدا غرناطة التى اختصت قصورها الملكية باسم « الحمراء » . وبالرغم من أن قصر إشبيلية معظمه من إنشاء الملوك الإسبان ، فإنه يسمى كذلك ، لأنه أقيم على بقايا قصر إسلامى سابق ، وأقيم على الطراز الأندلسى .

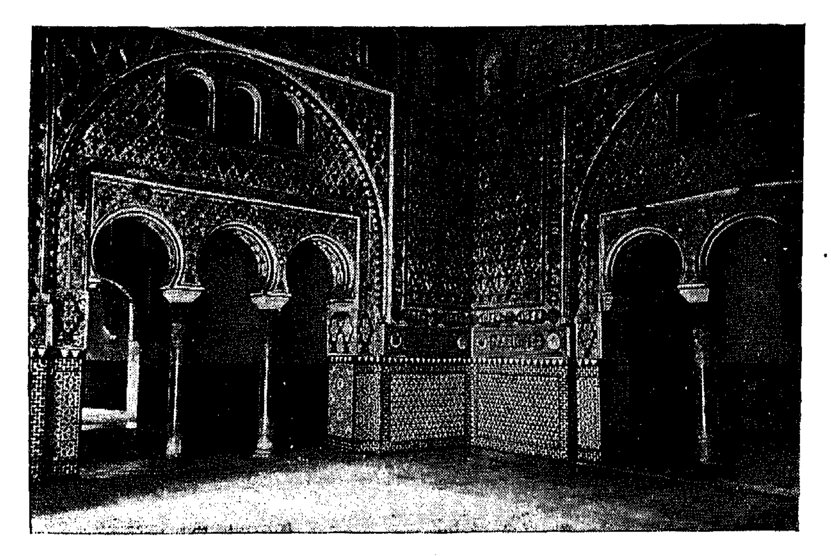
ويقع قصر إشبيلية ، على مقربة من الكنيسة العظمى ، وفى جنوبها الشرقى . والظاهر أن واجهة مدخله من بقايا قلعة أندلسية قديمة ، ينم عن ذلك طرازها ومشارفها العربية . وتقوم بعد الفناء الذى يلى المدخل ، ثلاثة عقود قديمة ، يبدو أيضاً أنها من عقود الصرح الأندلسى القديم ، ثم يلى هذه العقود ساحة شاسعة ، تقوم عقودها الجانبية ، على أعمدة رشيقة من الرخام الأبيض ، ويبدو طرازها الأندلسى واضحاً .

وهنا يبدو لك الصرح الأندلسى بأبهائه وعقوده ومشرفياته وزخارفه العربية ، فى ذروة روعته وجماله . « والقصر » طابقان عظيمان . والطابق الأول ، هو الذى يبدو فى معظمه أندلسى الأصل ، وإن كانت قد أضيفت إليه أبنية حديثة ، من إنشاء ملوك اسبانيا . والطابق الأعلى كله من صنع إسبانى ، أجرى تقليداً للنمط الأندلسى .

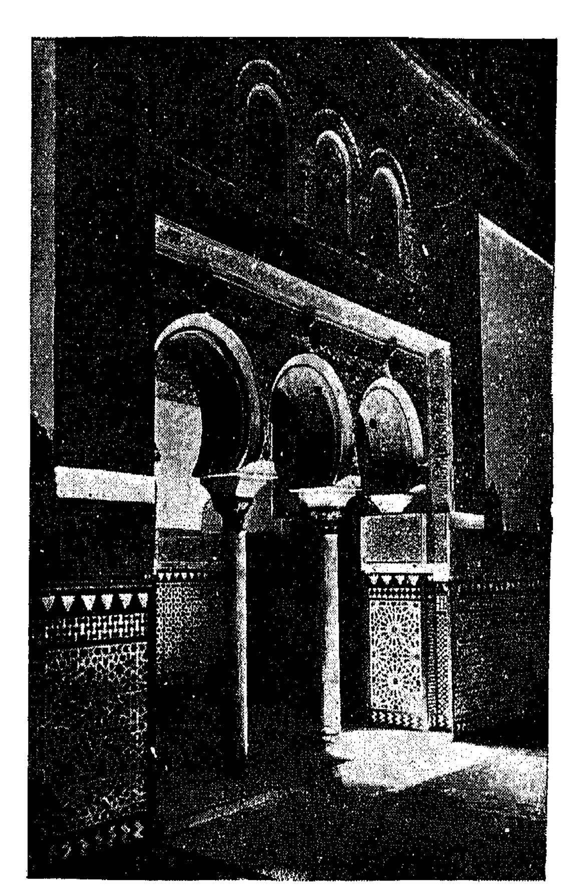
ويحتوى الطابق الأول على عدة أفنية وأبهاء ، لكل منها اسمه الخاص . وهى : قاعة العدل ، وفناء الصيد ، وفناء العذارى ، وبهو كارلوس الخامس ، وبهو السفراء ، وجناح فيليب الثانى ، وفناء العرائس ، وجناح الملوك الأندلسيين ، وجناح الملوك الكاثوليك(١) . وأهم وأبدع هذه الأبهاء « بهو السفراء » ، وهو بهو شاسع فخم تظلله قبة عالية جداً معقودة على عمد ومقرنصات عربية بديعة الزخرف . وجدرانها مكسوة بالقيشانى الفخم ، تتخلله نقوش عربية مقلدة فى الغالب ، وفى دائرة الجدران الوسطى ، نقشت عبارة عربية مكررة فى الدائرة كلها ، وهى « الغبطة المتصلة » ، وإلى جانبها رسوم أسود صغيرة . وفى هذه الطبقة السفلى يبدو الطابع الأندلسى الأصيل قوياً ، وفى أفنيتها وأبهائها عدة أبواب كبيرة وصغيرة ، أندلسية الأصل بها نقوش عربية .

---

(١) وهى بالأسبانية: **P. de las Doncellas, P. de la Monteria, Patio de la Justicia, P. de los Monecas, P. de Felipe II, Salon de Embajadores, P. de Carlos V, Dormitorio de los Reyes Moros, D. de los Reyes Católicos.**



قصر إشبيلية .
بهو السفراء



إشبيلية . عقود
من جناح الملوك
الأندلسيين .

ويتخلل زخارف القصر المدجنية ، كثير من العبارات والتحيات والأدعية الإسلامية ، وبعض الآيات القرآنية ، وهى مقلدة منقولة عن نظائرها فى بعض الصروح الأندلسية المعاصرة .

فى أبواب « قاعة السفراء » ، نقشت عبارة « الملك لله » يميناً ويساراً ، على مصاريع الأبواب . وفى الجزء الأعلى من هذه الأبواب ، توجد الكتابة المهمة الآتية ، وقد نقشت فى لوحة زرقاء :

« أمر مولانا المعظم المرفع ضن بضر ، ملك قشتالة وليون ، أدام الله سعده ، وهنىء أيامه ، بعمل هذه الأبواب الحديدة ، لهذه القبة السعيدة ، بما أجاب من العزة والرفعة ، من حشد السرور والسعود » .

وفى هذه اللوحة بالذات توجد عبارة « ولاغالب إلا الله » (وهى شعار بنى نصر ملوك غرناطة) منقوشة ثمانى مرات يميناً وشمالا ، بالأزرق والأبيض ، بخط كوفى جميل .

وفى قاعة السفراء ذاتها توجد العبارة الآتية منقوشة بالكوفية : « عز لمولانا ضن بدر ، أيده الله ونصره » وضن بضر أو بدر هو ملك قشتالة بيدور الأول .

وفى الجزء الأعلى من المصراع الأيسر للباب ، توجد عبارة مشوشة مختلطة الألفاظ ، تشير إلى أن الذى اضطلع بالعمل هم « المعلمون الطايطلون وذلك عام ألف وأربع مائة وأربع » .

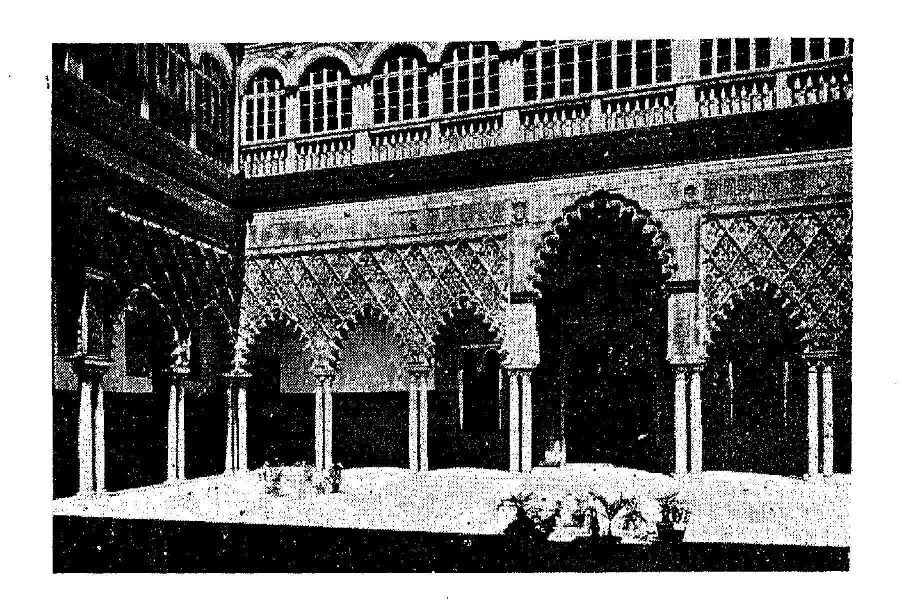
ويرى المستشرق أمادوردى لوس ريوس ، أن فى هذه العبارة ما يدل على أن هذا القصر ، لم يقم بإنشائه الفنانون الغرناطيون كما يظن البعض ، بل قام بإنشائه أساتذة وصناع من المدجنين من أهل طليطلة[1] .

ونقش على الحزام الخارجى « لفناء العذارى» ما يأتى « الحمد لله على نعمه على نعمه على نعمه » .

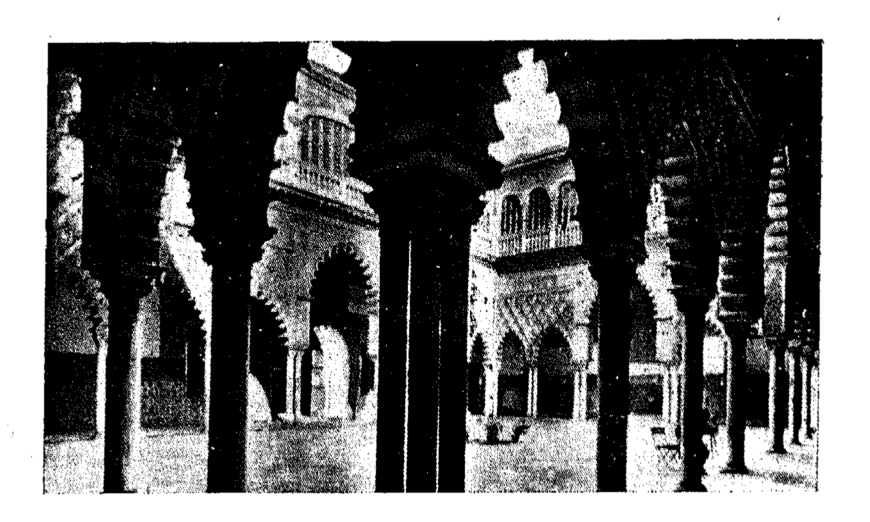
ونقش فى البهو الأيمن المسمى « جناح الملوك الأندلسيين » فى القبلة ، هذه الأبيات الشعرية :

يأيها المجلس الجديد يأتيك الطالع السعيد
لازالت الزهر خير مثوَى حتى أعاد وهو عيد

(١) Amador de los Rios : Inscripciónes Arabes de Sevilla, p. 74.



قصر إشبيلية . مدخل فناء العذارى



قصر إشبيلية . فناء العذارى

ومن ينل المحب عينـــا ومات غيظـــا . . . (١) .

وفى أفاريز هذا البهو فى مواضع مختلفة « المنة لله . العظمة لله . السعد والتوفاق نعم الرفاق » ، ثم « عز لمولانا السلطان ضن بطر . . » .

وفى البهو الخارجى لهذا الجناح فى قوسه الأعلى ، نقشت هذه العبارة مكررة « يا ثقتى يا أملى ، أنت الرجاء ، أنت المولى ، إختم بخير العمل » .

ونقشت على جدران الطبقة السفلى من القصر بصفة عامة ، هذه العبارة مكررة بكثرة : « النعمة الشاملة » ، وكذلك نقش فى الحزام الخشبى الأوسط هذه العبارات مكررة : « اليمن والسلامة . العزة والكرامة . السعد الدائم » .

ونقش فى الساحة الكبرى "Patio Principal" عنـــد المدخل « الحمد لله على نعمه » ، ثم العبارات الآتية مكررة « عز لمولانا . الملك لله . اليمن والإقبال . ولاغالب إلا الله » .

ومما يلفت النظر بوجه خاص ، أنه نقشت فى زاوية من فناء العرائس آية الكرسى « بسم الله وإلاهكم إلاه واحد ، لا إله إلا هو الحى القيوم لاتأخذه سنة ولانوم ، له ما فى السموات وما فى الأرض ، من ذا الذى يشفع عنده ... » . ومن المعروف أن الصناع المدجنين كانوا ينقلون كثيراً من الآيات محرفة ، بطريق التقليد الوضعى فقط ، حتى أنهم كانوا يثبتون بعض هذه الآيات ، فى زخارف الأديار ذاتها ، دون أن يشعروا أنها من القرآن ، وقد شاهدنا مثلا من ذلك ، فى مصلى الدين الملكى ببرغش ، حسبما نذكر بعد عند كلامنا عن هذا الدير .

وأما الطبقة العليا من القصر فهى كلها من إنشاء الملوك الإسبان ، وقد أنشئت تقليداً للطراز الأندلسى ، وهى تحتوى على الأماكن الآتية : مصلى الملوك الكاثوليك . بهو الملوك . جناح الملك بيدرو . وبه عدة غرف وأبهاء ذات مشرفيات عربية بديعة ، وقد فرشت جميعاً بالأثاث والرياش الفخم ، وزينت جدرانها بطائفة من الصور لأكابر الفنانين . والبناء كله من طراز أندلسى يحاكى الطابق الأول ، وقد غطيت جدرانه كلها بالقيشانى الملون ، ونقشت به أيضاً نقوش عربية مقلدة .

وتختلف الرواية فى أصل « القصر » الأندلسى . ويرى البعض أنه يقوم فى بعض أجزائه على أنقاض قصر المعتمد بن عباد ، وقد كان موقعه قريباً من

---

(١) كلمة غير مقروءة .

النهر فى مثل البقعة التى يقوم عليها «القصر» . وقد رأينا فيما تقدم عند الكلام على بناء صومعة جامع إشبيلية (لاخيرالدا) أنها بنيت من أنقاض سور قصر ابن عباد، ومعنى ذلك ان بقايا قصر ابن عباد، كانت قائمة حتى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى، ومن ثم فإنه يبدو من المحقق أن معظم الأجزاء السفلى لقصر إشبيلية، قد بنيت فى هذه الفترة بالذات أعنى فى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى، أيام الخليفة أبى يعقوب يوسف وولده الخليفة المنصور الظافر فى معركة «الأرك» الشهيرة . وتضع الرواية الأندلسية تاريخ إنشاء هذا القصر فى سنة ٥٦٧ هـ (١١٧٣م) وقد بدأ بإنشائه الخليفة أبو يعقوب يوسف، وأنشأ فى الوقت نفسه قنطرة من السفن على نهر الوادى الكبير، وأصلح أسوار المدينة، ومازالت تقوم إلى اليوم فى إشبيلية بقية من الأسوار الموحدية . وابتنى المسجد الجامع فى نفس هذا التاريخ حسبما تقدم . وليس من المستبعد أن يكون هذا القصر الذى أنشأه الخليفة الموحدى، قد أقيم على بقايا قصر أندلسى سابق، ربما كانت بقايا قصر المعتمد بن عباد . ويذكر لنا الغزّال سفير سلطان المغرب إلى ملك اسبانيا أنه حينما زار إشبيلية سنة ١٧٦٦، انزل «بقصر إشبيلية»، وهو يقول «إن هذه الدار (أى القصر) تقع داخل قصبة أحد ملوك الإسلام، وقيل انها كانت للمعتمد بن عباد رحمه الله»، «وإنها من الديار التى لم يكن مثلها بالبلاد الإصبنيولية بالكلية، إلا ما كان بغرناطة على ما قيل»، ثم يصف القصر وحدائقه بحماسة وإعجاب [1] . وكان يحيط بالقصر أيام الموحدين، أسوار وأبراج منيعة، بقى منها إلى اليوم برج وحيد على النهر، هو البرج المثمن المسمى «برج الذهب» "Torre de Oro" الواقع جنوب غربى القصر، على ضفة نهر الوادى الكبير، على مقربة من قنطرة سان تلمو، وهو برج ذو ثلاث طبقات ويبلغ إرتفاعه نحو خمسة عشر متراً . وقد أنشىء هذا البرج فى سنة ٦١٩ هـ (١٢٢١ م) بإشارة السيد أبى العلاء حاكم إشبيلية الموحدى يومئذ، وكان يربطه بالقصر سور، ويعتبر مركز دفاع أمامى لباب القصر [2] .

ولما افتتح الملك فرديناند الثالث الملقب بسان فرناندو مدينة إشبيلية فى سنة ١٢٤٨ م (٦٤٦ هـ) أبقى «القصر» كما هو . ثم قام الملك پيدور الأول

---

(١) رحلة الغزال ص ٢٦ .

(٢) راجع روض القرطاس (طبعة تورنبرج) ص ١٦١ . ومجلة **Al-Andalus** **(1934) p. 372**

(بطرس) بتغييرات وإضافات كبيرة فيه ، ما بين سنتي ١٣٥٣ و١٣٦٥ ، وأصلح أبهاءه الملك خوان الثانى ، وابتنى فيـــه الملكان الكاثوليكيان فرديناند وإيسابيلا ، مصليات وقاعات جديدة . ثم جاء الإمبراطور شارلكان فغير كثيراً من معالمه . وأحدثت فيه بعد ذلك تغييرات أخرى أيام فيليب الثالث وفيليب الخامس. ثم بذلت بعد ذلك مجهودات كثيرة لإعادته وإعادة نقوشه كما كان ، قبل أن يتناوله الملوك الإسبان بالتغيير والمسخ . ومع أن هذه التغييرات المتوالية ، قد أفقدته كثيراً من معالمه الإسلامية ، إلا أنه مازال بشكله الحالى يعتبر نموذجاً بديعاً للفن الأندلسى والفن المدجنى أى الأندلسى النصرانى .

يقول العلامة الأثرى كونتريراس : « إن « القصر » لم يكتسب الطابع الغرناطى ، الذى أسبغ فى هذا الوقت بالذات على « بهو السباع » ببنائه وزخارفه الرائعة » . ثم يقول « وفى قصر يعقوب تغيض هيبة جيل من أجيال البطولة ، وفيه تمثل حياة الملوك النصارى الذين عاشوا فيه ، وأمدوا تاريخنا المجيد بآلاف الصفحات ؛ إن الموحدين الذين طبعوا هذا الصرح بأنقى ذكرياتهم الإفريقية ، قد تركوا فى جدرانه الآثار الخيالية التى اشتقوها من خرائب الشعوب المغلوبة »(١) .

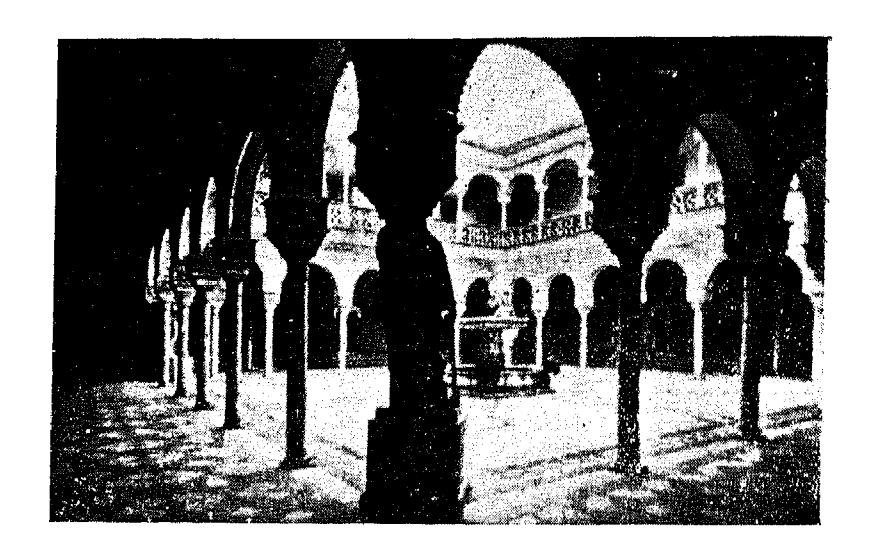
ويلحق بالقصر حدائقه العظيمة اليانعة ، وهى منسقة على الطراز الأندلسى وبها كثير من أشجار البرتقال ، والنخيل العربى ، وتتخللها رواشن ساحرة كثيرة. والظاهر أنها قد أقيمت مكان حدائق القصر القديمة .

دار پلاتوس

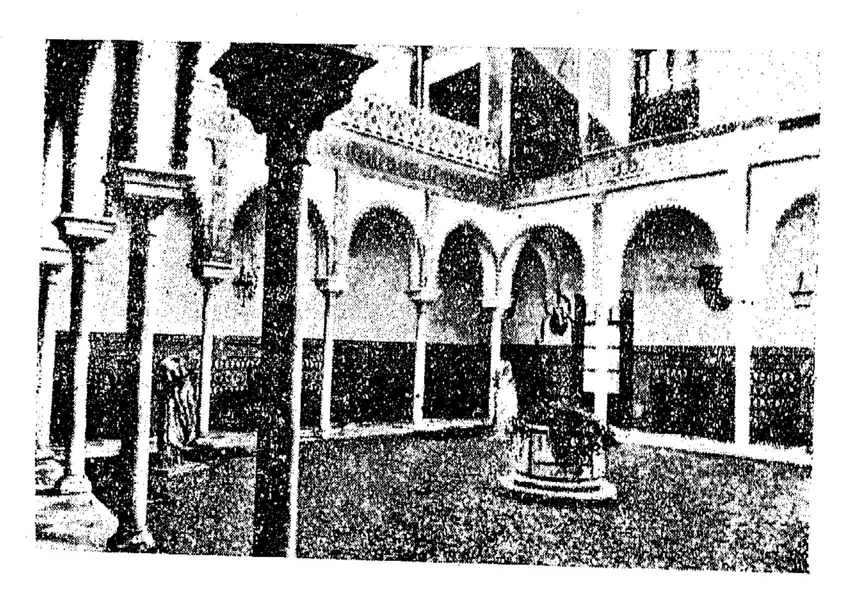
ليست هذه الدار أثراً أندلسياً ، ولكنها قطعة من الفن الأندلسى الإسلامى الخالص ، وهى كما يستفاد من لوحة فى فنائها من إنشاء سادتها الأوائل أسرة « مدينا سالى » . وقد أنشئت فى سنة ١٥٣٣ ، وتوالى فى ملكيتها دوقات « مدينا سالى » وألبا . وقد ذكر فى لوحة أخرى أن البناء قوطى الطراز ، وأن فناءه مصنوع على طراز أفنية قرطبة وغرناطة العربية . وفناؤه أجمل ما فيه ، وهو مربع ذو عقود عربية ، ستة فى الطول وخمسة فى العرض ، وفى وسطه نافورة مرمرية بديعة ، وقد كسيت جدرانه بالقيشانى الجميل المختلف النقوش والألوان ، وقد نقشت عليها

---

(١) R. Contreras : Estudio descriptivo de los Monumentos Arabes de Granada, Sevilla y Códoba, p. 102, 103 & 109.



إشبيلية . فناء دار بلاتوس وعقوده العربية



إشبيلية . فناء دار على الطراز الأندلسى

العبارة الآتية « الملك الدايم لله . العز القائم لله » . ووراء الفناء بهو فى داخله مصلى صغير ، وسقفه مصنوع من الخشب المقرنص ، وبه زخارف بيضاء مدجنية فوقها شريط به نقوش عربية لاتقرأ ، وسقف البهو الداخلى الأصغر أيضاً من الخشب المقرنص ، وبه زخارف عربية .

وفى الدور الأعلى أروقة ذات عقود تطل على الفناء ، ويؤدى إليها سلم عربى جميل ، وفوقه قبة عربية بها زخارف مذهبة ، وتحتها مربع من النقوش المدجنية .

وقد سمى هذا البناء بدار بلاتوس "Casa de Pilatos" حسبما جاء فى لوحة إنشائه ، تشبهاً بالقصر المماثل الذى كان فى بيت المقدس للحاكم الرومانى پلاتوس . وهو يقع فى وسط مدينة إشبيلية وتفضى إليه دروب ضيقة .

بعض النقوش العربية الأخرى

وفى متحف إشبيلية الأثرى (الأركيولوجى) توجد عدة لوحات وقطع رخامية عليها نقوش عربية ، منها لوحة رخامية طولها نحو ثلاثة أمتار وعرضها أقل من نصف متر ، وقد كتب عليها بالكوفية البدائية تاريخ إنشاء جامع ابن عدبّس ، وهو كما قدمنا جامع إشبيلية القديم ، وذلك على النحو الآتى :

« يرحم الله عبد الرحمن بن الحكم الأمير العدل المبين الآمر ببنيان هـــذا المسجد على يدى عمر بن عدبس قاضى إشبيلية فى سنة أربع عشرة ومئتين وكتب عبد البر بن هرون » .

وقد أشار ابن صاحب الصلاة ، عند حديثه عن انتقال الخطبة إلى جامع إشبيلية الموحدى ، إلى هذه اللوحة ، وقد كانت مثبتة فى الفناء الخلفى للجامع ، المقابل للمحراب ، وذكر لنا أنه كان مكتوباً عليها بخط قديم هذا النص بذاته[1] .

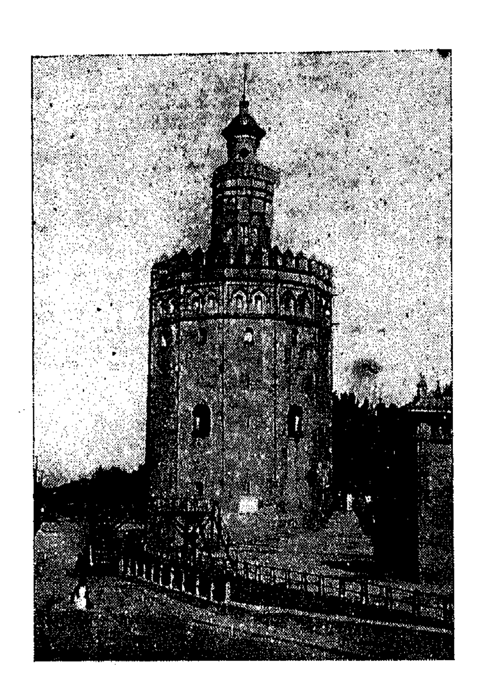
ومنها لوحة جصية مأخوذة عن لوحة رخامية محفوظة بكنيسة «سلڤادور» وهى التى أقيمت فوق موقع مسجد ابن عدبس المتقدم الذكر ، عليها كتابة كوفية فيها بعد البسملة بأن أعلى المنار «قد أمر ببنائه المعتمد على الله المؤيد بنصر الله أبو القاسم محمد بن عباد ، وذلك عقب تهدمه بسبب الزلزال ، فى مستهل ربيع الأول سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة » ، كما توجد قطعة رخامية صغيرة عليها « أبو القاسم محمد » .

---

(١) كتاب « المن بالإمامة على المستضعفين » لوحة ١٦٩ ب .

ويذكر العلامة المستشرق أمادور دى لوس ريوس ، أنه توجد فى متحف إشبيلية الإقليمى لوحة رخامية ، كانت محفوظة فى الأصل بكنيسة « سان خوان دى لاپالما » عليها بالخط الكوفى ما يأتى :

« بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد خاتم النبيين ، أمرت السيدة الكبرى أم الرشيد أبى الحسين عبد الله بن المعتمد على الله المؤيد بنصر الله أبى القاسم محمد بن عباد أدام الله تأييده وأمره وإعزازها ، بإقامة هذه الصومعة بمسجدها ، صانه الله ، طلباً لجزيل الأجر والثواب . فتمت بعون الله على يدى الوزير الكاتب الأمير أبى القاسم بن حجاج وفقه الله ، وذلك فى شعبن من عام ثمانية وسبعين وأربع مائة »[1]. ولكنى لم أوفق إلى زيارة المتحف الإقليمى هذا ، ولم أجده مذكوراً بين معالم إشبيلية اليوم .



إشبيلية . برج الذهب

الأسوار الموحدية

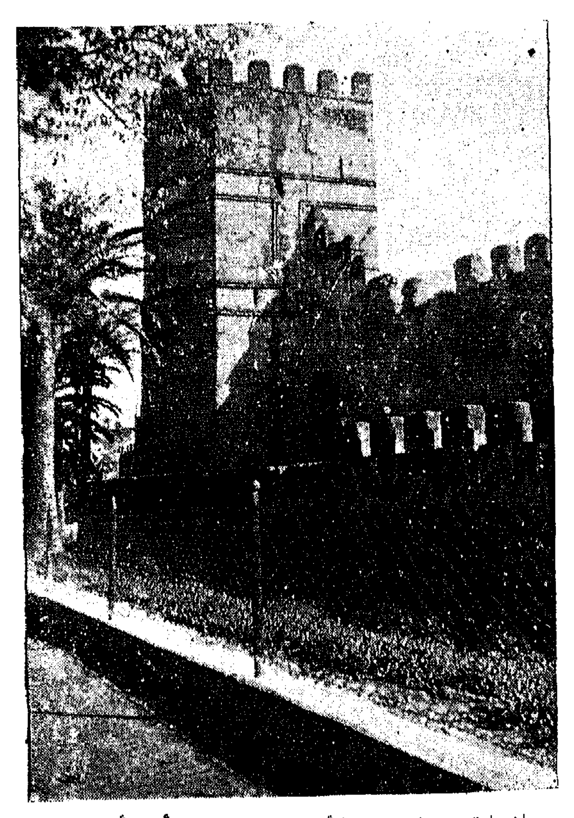
ولم يبق من أسوار إشبيلية القديمة الرومانية العربية داخل المدينة سوى أبراج القصر ، وبرج الذهب "Torre de Oro" الواقع على ضفة الوادى الكبير ، وقد تقدم ذكره ؛ بيد أنه ما زالت توجد خارج المدينة بقية كبيرة من الأسوار القديمة ، يبلغ طولها نحو أربعمائة متر ، وارتفاعها نحو ثمانية أمتار ، وتمتد من الباب المسمى « باب ماكارينا » حتى قبالة دير « الكاپوسين » ، ومنها جزء كبير يرجع إلى عصر الموحدين ، ويخترقها عقدان قديمان إلى جانب « باب مكارينا » ؛ وبها ستة أبراج

---

(١) Amador de los Rios : Incripciónes Arabes de Sevilla, p. 107. Lévy-Provençal : Inscriptions Arabes d'Espagne, p. 40.

موحدية من أصل مائة وستة وستين برجاً كانت موزعة على الأسوار كلها ، ومنها أربعة مازالت تحتفظ بكامل بنائها ، وتمتدهذه الأسوار بحذاء « شارع الكاپوسين » الفسيح ، وهو من أعظم شوارع إشبيلية الخارجية . ومازالت تعرف حتى اليوم « بالأسوار الموحدية » Las Murallas Almohades

* * *



إشبيلية . جانب من الأسوار الموحدية وأحد أبراجها

وإشبيلية ، إذا استثنينا غرناطة ، أشد المدن الإسبانية احتفاظاً بالطابع الأندلسى . وربما كان ذلك لطول إقامة المسلمين بها ، فقد حكموها أكثر من خمسة قرون ، ومن ثم فإن خططها وأبنيتها تأثرت بالطابع الإسلامى إلى حد كبير . ومازالت ثمة بها أحياء برمتها على نسقها الأندلسى القديم ، من حيث الدروب الضيقة ، والمنازل ذات الأبواب المزدوجـــة والأفنية الأندلسية . وهذا الطراز من المنازل يحتوى على فناء مستدير ، فى وسطه نافورة ، ويحيط به سياج من البلور أو تزين جوانبه بالخزف الملون ، ويتصل البـــاب الخارجى برواق رخامى . وفى الدور الأول تقام أروقة ذات عمد مطلة على الفناء ، وهذا الفناء هو مجلس الإشبيليين المفضل فى الصيف ، حيث يجتمعون حول النافورة الرطبة . ويبدو الطابع الأندلسى على أشده فى حى « سانتاكروث » Santa Cruz أى الصليب المقدس ، أحد أحيائها الشعبية القديمة . وهو أقرب أحياء إشبيلية شبهاً بحى البيّازين الشهير فى غرناطة . بل إن الطابع الأندلسى ليبدو قوياً فى أحياء إشبيلية وصروحها الحديثة.

ففى كثير من المنازل والفنادق الكبيرة ترى الأفنية الأندلسية البديعة ، وفى وسطها النوافير والخضرة ، وقد أطلت عليها المشرفيات والشبابيك العربية ، وترى الجدران ، وقد زينت بالخزف الملون ذى الزخارف الأندلسية البديعة .

ويغلب الروح الأندلسى المرح على إشبيلية ، وهى فى ذلك على نقيض من غرناطة التى يسودها الجمود والتحفظ ؛ وفى إشبيلية تعرض أجمل مناظر الرقص الأندلسى ، وتتلى الأغانى الأندلسية المرحة ، وتعرض أجمل الأزياء والشيلان الأندلسية ، وأبدع منتجات الخزف الأندلسى الملون ، وعلى العموم فإن إشبيلية تثير بكل ربوعها وصروحها ، ومعالمها وآثارها ، ودروبها ومغانيها ، فى النفس كثيراً من ذكريات المدينة الأندلسية الذاهبة .

قلعـــة جابر

ويوجد فى بلدة « قلعة جابر » الصغيرة "Alcála de Guadaira" ، التى تقع على مسافة قريبة من جنوب شرقى إشبيلية ، أثر أندلسى هام ، هو عبارة عن قلعة جابر . وقد كانت من حصون إشبيلية الأمامية الشرقية ، واشتهرت بحصانتها وأهميتها الدفاعية منذ عهد الطوائف وقد وسعت وجددت أيام الموحدين فى عهد الخليفة أبى يعقوب يوسف وسقطت فى أيدى القشتاليين عند حصارهم لإشبيلية فى سنة ١٢٤٧ م . وقام النصارى خلال القرن الخامس عشر بعمل تعديلات ، وإضافات كثيرة فيها ، ولكن بقيت

أطلال قلعة جابر

أجزاء كثيرة من بنائها الأصلي . وتقع قلعة جابر فوق ربوة عالية وتشرف على المدينة الصغيرة من الجنوب ، وتشغل أطلالها منطقة واسعة ، وتتكون من فناءين كبيرين يشرف على كل منهما أبراج تبلغ نحو العشرة فى الفناءين . ومدخل كل منهما عقد عربى . وتمتد مساحة القلعة بعدذلك إلى مسافة كبيرة ، وتقوم من حولها بقية كبيرة من أسوارها القديمة . وهى ليست عالية . وقد أنشأ الإسبان فى تلك الساحة بعض أبنية حديثة ومتنزهات. ومنها كنيسة القديسة آجيلا Sta Aguila وهى حامية المدينة . ويوجد فى نهاية الساحة الخارجية عقدان قويان وبقية أخرى من الأسوار . وتبلغ واجهة القلعة الرئيسية المطلة على المدينة نحو مائتى متر ، وبرجها الرئيسى ضخم مربع الشكل .

وقد كانت قلعة جابر أيام الموحدين من أهم النقط الدفاعية الشرقية حول إشبيلية ، وكان الموحدون قد أقاموا حول إشبيلية — وهى قاعدة حكمهم فى الأندلس — سلسلة من الحصون القوية كانت قلعة جابر من أضخمها وأمنعها . فلما سقطت قلعة جابر فى يد النصارى ، غدت بدورها مركزاً للدفاع عن إشبيلية ، عاصمة قشتالة الجديدة ، ضد هجمات المسلمين .

٤ – قرمـــونة

Carmona

ويتبع الكلام عن إشبيلية ، الكلام عن مدينتين ، تقعان على مقربة منها ، ولو أنهما ليستا من الناحية الاصطلاحية ، من القواعد الأندلسية الكبرى ، هما قرمونة وإستجة .

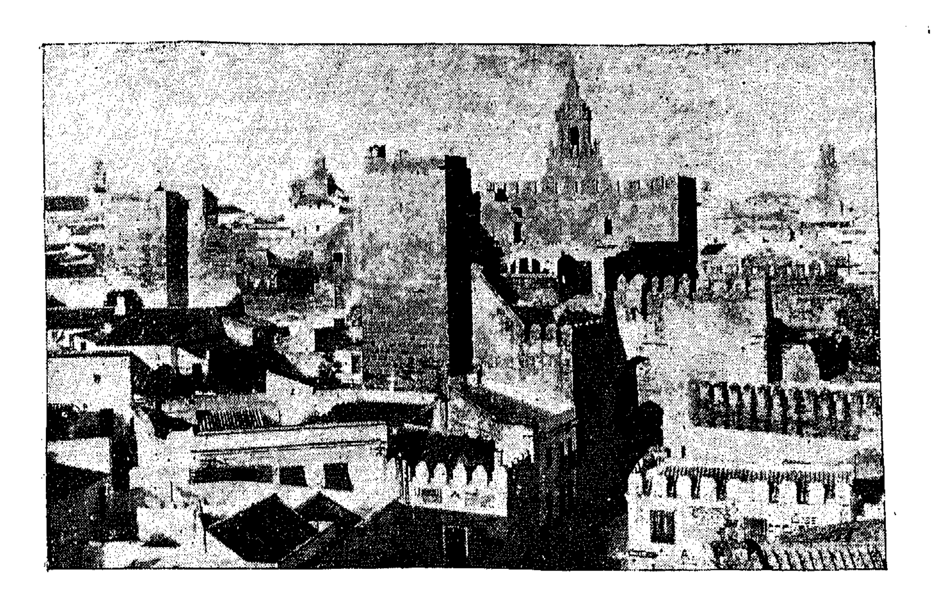
تقع مدينة قرمونة على مقربة من جنوبى نهر الوادى الكبير ، فى شمال شرقى إشبيلية ، على قيد اثنتين وثلاثين كيلومتراً منها ، فى بسيط من الأرض ، وافر الخضرة والخصب ، كباقى تلك الرقعة الكبيرة اليانعة التى يحتضنها الوادى الكبير فى حنيته نحو الشرق ، والتى تغمرها غابات الزيتون ، وحقول القمح النضرة ، وتعتبر بجملتها من أجمل رقاع الأندلس وأخصبها .

وقد كانت قرمونة أيام الدولة الأندلسية من أهم وأمنع مدن ولاية إشبيلية . وتنوه الرواية الإسلامية بعراقة قرمونة وحصانتها ، وتنوه بالأخص ببابيها الشهيرين الباقيين إلى اليوم ، وهما باب إشبيلية ، وباب قرطبة[1] . وقد قامت بها أيام الطوائف مملكة بنى برزال البربرية ، ثم افتتحها بنو عباد ، وضمت إلى مملكة إشبيلية ، واستمرت تلعب دورها فى تلك المنطقة من الأندلس الوسطى ، حتى استولى عليها فرناندو الثالث ملك قشتالة فى سنة ١٢٤٧ م ، قبيل استيلائه على إشبيلية بأشهر قلائل .

وقرمونة مدينة كبيرة ، يبلغ سكانها نحو أربعين ألفاً ، وقد بنيت أحياؤها الوسطى فى بطن الوادى ، وأحياؤها الجانبية من الناحيتين الشرقية والغربية على ربوتين صاعدتين ، على هيئة ضلعى المثلث . والقسم القديم من المدينة ، وهو الذى يحتل مكان المدينة الأندلسية ، يبدو أنه هو المحصور ما بين باب إشبيلية جنوباً ، وباب قرطبة شمالا ، وباب إشبيلية هو بداية الربوة الصاعدة حتى باب قرطبة ، وتقع فى داخلها ووسطها الكنيسة العظمى . أما المدينة الحديثة ، فتمتد غرباً من باب إشبيلية حتى المقابر الرومانية التى تقع عند مدخل المدينة . وتخترق

---

(١) راجع الروض المعطار (صفة جزيرة الأندلس) ص ١٥٨ .



قرمونة . مدخل المدينة وقد ظهر فيه باب إشبيلية وجزء من أسوار القصبة .



قرمونة . باب إشبيلية
وهو بابها الغربي

المدينة الداخلية شوارع طويلة ضيقة ، وبها السوق الكبير ، وهى تبدو على العموم ذات طابع أندلسى واضح .

الآثار الأندلسية

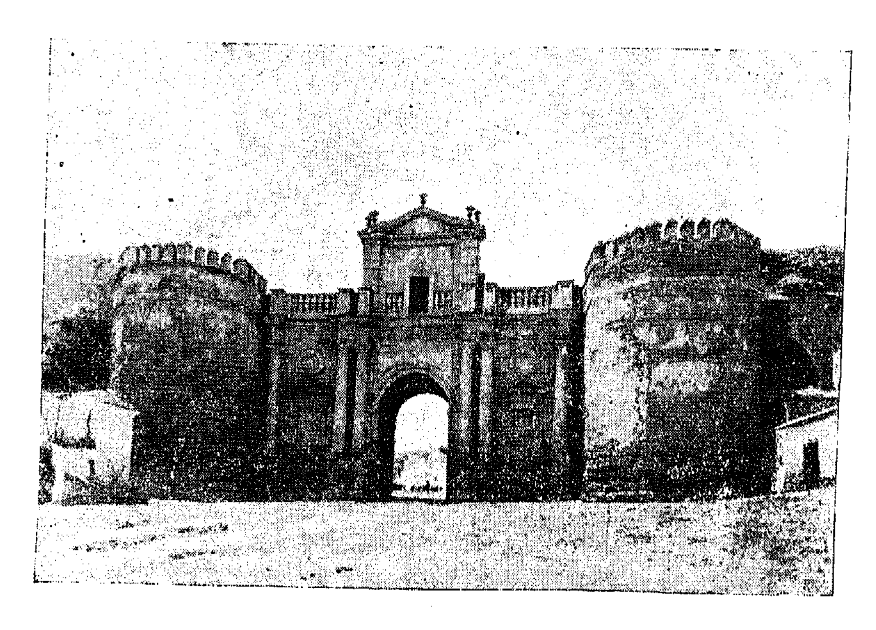
باب إشبيلية : وهو من أعظم وأروع الأبواب الأندلسية الباقية، وهو عبارة عن عقد ضخم يبلغ ارتفاعه نحو عشرة أمتار ، واتساعه من أسفل نحو خمسة ، ومن أعلى نحو أربعة ، ويعلوه من الأمام عقد أكبر مستدير ، وفوق الباب بقية شرفة كبيرة عالية ، تبلغ واجهتها نحو خمسة عشر متراً ، ويبلغ ارتفاع الباب والشرفة معاً نحو العشرين متراً ، ويبلغ عمق الباب أو ممره نحو عشرة أمتار ، وينتهى من الناحية الأخرى بعقد مماثل لعقد المدخل ، وبينهما من الداخل عقد متوسط ، ثم يأتى بعد الباب وعقوده الثلاثة ، وهى المغطاة ، بنحو عشرة أمتار من العراء ، عقد آخر عمقه نحو ستة أمتار ، وإلى يمينه قطعة هائلة من السور الأندلسى يبلغ طولها نحو خمسة وعشرين متراً ، وارتفاعها نحو ثلاثين ، وتتوج العقود والشرفة من أعلى ، السوارى العربية المعروفة ، ويبدو الأثر كله فى حالة رائعة من القوة والمناعة ، ويتوسط بموقعه قسمى قرمونة ، القديم منهما والحديث . وقد سمى باب إشبيلية لأنه يتجه نحو الجنوب الغربى إلى طريق إشبيلية .

باب قرطبة : وهو عقد ضخم مزدوج عمقه نحو ثمانية أمتار ، وعرضه نحو سبعة أمتار وارتفاعه نحو عشرة ، وإلى كل من يمينه ويساره عضادة عرضها نحو ثمانية أمتار وارتفاعها نحو اثنى عشر متراً ، وبها ثلاثة أعمدة . ومن الواضح أنها إضافة متأخرة . ويوجد أيضاً إلى كل من يمين هاتين العضادتين ويسارهما ، قاعدة برج ضخمة مسدسة الشكل ، قد بنيت بالأحجار الكبيرة الصلدة ، وهما تحتفظان بأصلهما العربى ، وأما الباب فقد أدخلت عليه تغييرات ، ولكن بقيت فى أسفله الأحجار الصلدة التى يبدو أنها قديمة ، وقد بنيت فوق أعلى الباب مقصورة نصرانية . وقد أقيم فى الناحيـــة الأخرى من الباب عن كل من يمينه ويساره ، عمودان يرتفعان عن الأرض نحو مترين ، وظاهر من موقع الباب ، وكونه يطل على الوادى والحقول المجاورة ، ويجاور الربوة الصخرية ، أنه كان نهاية المدينة من الشمال ، وقد سمى باب قرطبة لأنه يتجه نحو الشمال الشرقى إلى طريق قرطبة ،

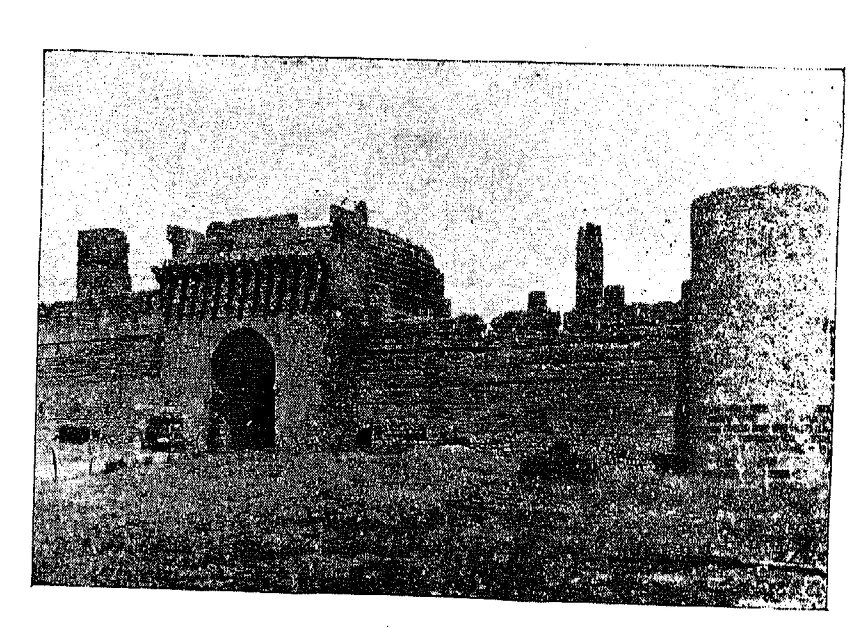
ومن المقرر من الوجهة التاريخية أن باب قرطبة يرجع فى القديم إلى أصل رومانى ، ثم جدد أيام المسلمين ، واتخذ طابعه الأندلسى ، ثم توالت عليه بعد ذلك تغييرات وتجديدات قام بها ملوك قشتالة .

قصر مرشانة : ويطلق هذا الاسم على طلل ضخم تبلغ واجهته نحو مائة متر ويقع على ربوة عالية تطل على الوادى ، وتبدو منه المدينة بيضاوية الشكل ، وفى وسطها الكنيسة العظمى ، ومدخل هذا الطلل باب ضخم ذو ثلاث عقود متواصلة وعليه شرفة عالية ، قد تآكلت حافتها ، وإلى يمينه برج مثلث ، ومن ورائه ساحة صغيرة ، يتلوها عقد آخر ، وتبدو الأطلال داخل الصرح الفخم متناثرة فى كل ناحية ، ويبلغ عرضه من الداخل نحو ثمانين متراً ، ومن الأطلال بقايا أبراج وأسوار ، وبقايا غرف ، كلها فى حالة مطبقة من الخراب ، والمعروف أن هذا الصرح الضخم ، هو القلعة التى أنشأها الملك بطرس القاسى (پيدرو) ملك قشتالة (١٣٥٠ — ١٣٦٩ م) ، وكان بداخلها قصر أنشأه أيضاً ، ولكن يبدو من ناحية أخرى ، أن هذه القلعة قد أنشئت مكان القصبة الأندلسية القديمة وفوق أنقاضها ، وربما كان بين الأطلال الحالية كثير من أنقاض القصبة وأسوارها .

الكنيسة العظمى : وهى تسمى كنيسة سانتا ماريا ، وهى كنيسة صغيرة قديمة ، ولكن جميلة ذات عقود قوطية عالية ، ولها نوافذ من الزجاج الملون ، وقد بنيت فوق مكان المسجد الجامع القديم ، وقد بقى منه إلى اليوم صحنه الذى جعل صحناً للكنيسة ، وبه ستة من عقود الجامع ، وتبلغ مساحة هذا الصحن عشرين متراً فى عشرة ، وظاهر كذلك من باب الكنيسة المعقود ، وتوسطه للعقود العربية التى بالصحن ، أنه كان أيضاً مدخل الجامع الرئيسى .



قرمونة . باب قرطبة وهو بابها الشرقي .



قرمونة . أطلال « القصر » القديم وباب مرشانة

٥ – إستجّة

Ecija

كانت إستجة أيام سيادة الرومان فى شبه الجزيرة ، من المستعمرات الرومانية الملحوظة ، وسماها العرب « إستجة » من اسمها الرومانى القديم Astigis .

وهى مدينة كبيرة ، تقع على الضفة اليسرى لنهر شنّيل ، فرع الوادى الكبير ، فى بسيط أخضر خصب من الأرض ، ويبلغ سكانها نحو ثلاثين ألفاً ، وهى من أعمال مقاطعة إشبيلية ، وتبعد عنها نحو ثمانين كيلو متراً ، وتبعد عن قرطبة نحو ستين . وفى الطريق إليها من قرطبة تكثر البسائط الخضراء تتخللها غابات الزيتون وحقول القمح ، وقد تعترضها المرتفعات أو المنخفضات هنا وهنالك ، ولكن الخضرة تغمرها دائماً ، وتظللها الجبال من الشمال على مدى البصر .

وكانت لإستجة فى عهدها الإسلامى ، أسوار مزدوجة منيعة ، تخترقها عدة أبواب كبيرة ، وكانت كما هى اليوم ، تحتل الرقعة الواقعة على ضفاف النهر (١) .

وإستجة اليوم مدينة جميلة مشرقة ، تخترقها شوارع طويلة واسعة ، وتبدو فى ثوب من الإناقة والنظافة يميزها عن المدن الإسبانية المماثلة . وأشد ما يميز إستجة ، هو طابعها الأندلسى العميق ، فهى بخططها وتقاسيمها ، تبدو مدينة أندلسية حقاً ، ومنازلها جميعاً بيضاء ، لا ترتفع إلى أكثر من طابق أو طابقين ، ويوجد الفناء الأندلسى فى كثير منها بنافورته وأشجاره ، ويغطى جدرانها الزليج الأندلسى الملون ، وهذا ما حدا بالعلامة الأثرى الأستاذ توريس بالباس أن يصفها بحق بأنها « أشد المدن الإسبانية احتفاظاً بالطابع الأندلسى » .

ويقع الميدان الكبير فى وسط المدينة ، ويتفرع منه عدد كبير من الشوارع العريضة والضيقة . وتقع الكنيسة الكبرى على مقربة منه فى درب ضيق يفضى إليه ، وتسمى كنيسة « الصليب المقدس » Santa Cruz ، ويسمى برجها المستقل القائم إلى يسارها مطلا على الشارع بنفس الاسم . والكنيسة صغيرة ، وهى

---

(١) الروض المعطار (صفة جزيرة الأندلس) ص ١٤ و ١٥ .



إستجة .
منظر
جزئى
للمدينة

إستجة . الكنيسة العظمى
وبرج « سانتاكروث » .





إستجة . عقد عربى فى فناء الكنيسة
يظن أنه من بقايا الجامع

حديثة البناء ، ولكن تقوم إلى جانبها أطلال الكنيسة القديمة وعقودها العالية . ويبدو من هذه الأطلال ، ومن وجود عقد عربى فى صدر الفناء المجاور لها ، أن الكنيسة وأطلالها القديمة كلها ، تحتل موقع المسجد الجامع القديم . وقد أقيمت الكنيسة القديمة ، فوق أنقاض الجامع ، فى سنة ١٥١٢ م .

ويقع العقد العربى المشار إليه فى صدر الفناء الواقع إلى يسار الكنيسة ، بينها وبين البرج ، وهو عقد واسع ومنخفض يبلغ ارتفاعه نحو ستة أمتار ، وسعته كذلك ، وقد بقيت نقوشه وزخارفه العربية فى الزوايا .

وبالرغم من أنه لاتوجد فى إستجة آثار وأطلال أندلسية ذات شأن ، فإنه توجد لوحتان أندلسيتان ، قد ثبتتا فى أسفل برج الكنيسة فى واجهته المطلة على الشارع ، ويبدو من شكل البرج وطرازه ، أنه ربما كان منار الجامع القديم ، وقد بقى نصفه الأسفل محتفظاً ببنائه القديم ، وحول نصفه الأعلى إلى برج للأجراس . ويقع هذا البرج ، وهو يحمل نفس اسم الكنيسة — سانتا كروث — فى الناحية اليسرى لفناء الكنيسة الخارجى ، ويطل على الشارع الضيق ، ويبلغ ارتفاعه نحو ثلاثين متراً من الأرض ، وفى وسط واجهته الخارجية كوة مستديرة ، والبرج مربع الشكل ، يبلغ ضلعه نحو ستة أمتار.

اللوحتان العربيتان

وقد ثبتت فى أسفل واجهة البرج المطلة على الشارع لوحتان عربيتان على ارتفاع نحو أربعة أمتار من الأرض ، وبينهما لوحة لاتينية تباعد بينهما بنحو متر ونصف . الأولى مستطيلة الشكل يبلغ ارتفاعها نحو ٦٠ سنتيمتراً ، وعرضها ٥٠ ، والثانية مربعة الشكل ، يبلغ ضلعها نحو ٥٥ سنتيمترا .

وقد نقش فى اللوحة الأولى بالخط الكوفى ما يأتى :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أمر أمير المؤمنين أعزه الله ، عبد الرحمن بن محمد ، ببنيان هذه السقاية ، رجاء ثواب الله الجزيل [وأجره العظيم] فتم ذلك بعون الله على يدى موليه وعامله ، أمية بن محمد بن شهيد ، فى شهر المحرم سنة ثمانى عشر وثلث مائة » .

ونقش فى اللوحة الثانية ، وهى من الرخام ، أحد عشر سطراً من الكتابة الكوفية ، هذا نصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أمرت ببناء هذه السقاية أعزها الله الوالدة أم أمير المؤمنين المؤيد بالله هشام بن الحكم ، أطال الله بقاه ، رجا منها ثواب الله الجزيل وأجره العظيم ، فتمت بعون الله وتأييده على يد صنيعتها صاحب الشرطة وقاضى أهل كورة إستجة وقرمونة وأعمالها ، أحمد بن عبد الله بن موسى ، وذلك فى شهر ربيع الثانى سنة ست وستين وثلاثمائة » .

ومعنى ذلك أن اللوحة الأولى ترجع إلى أوائل عهد الناصر لدين الله ، وأن اللوحة الثانية ترجع إلى أواخر عهد الخليفة الحكم المستنصر . وأم أمير المؤمنين المشار إليها فى هذا النص ، هى صبح البشكنسية جارية الحكم ، وأم ولده هشام المؤيد .

* * *

ويوجد فى إستجة عدا كنيسة « سانتاكروث» عدة كنائس أخرى يقع معظمها على مقربة من الميدان الكبير ، ومنها كنيسة سانتا ماريا ، وكنيسة سان فرنسيسكو ، ويوجد بها أيضاً عدد من الأديار القديمة .

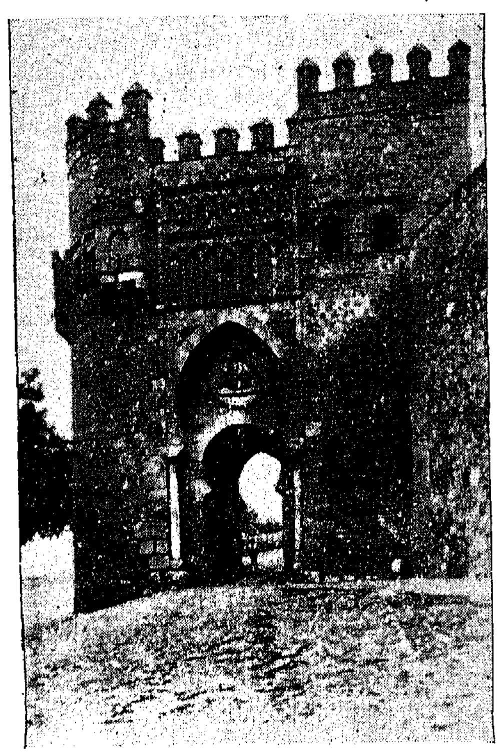
وقد حاولنا أن نتقصى آثار القنطرة الأندلسية التى أنشأها الحاجب المنصور على نهر شنيل قبالة إستجة ، أى قبالة طرفها الشمالى ، فوجدناها قد جددت تجديداً كاملا ، ولم نجد فى عقودها الحالية ، مايحمل على الظن ، بأن منها ماهو قديم يرجع إلى العهد الإسلامى .

وقد سقطت إستجة فى أيدى القشتاليين فى سنة ١٢٣٧ م ، فى عهد فرناندو الثالث ملك قشتالة .

٦ — طليطـــلة

Toledo

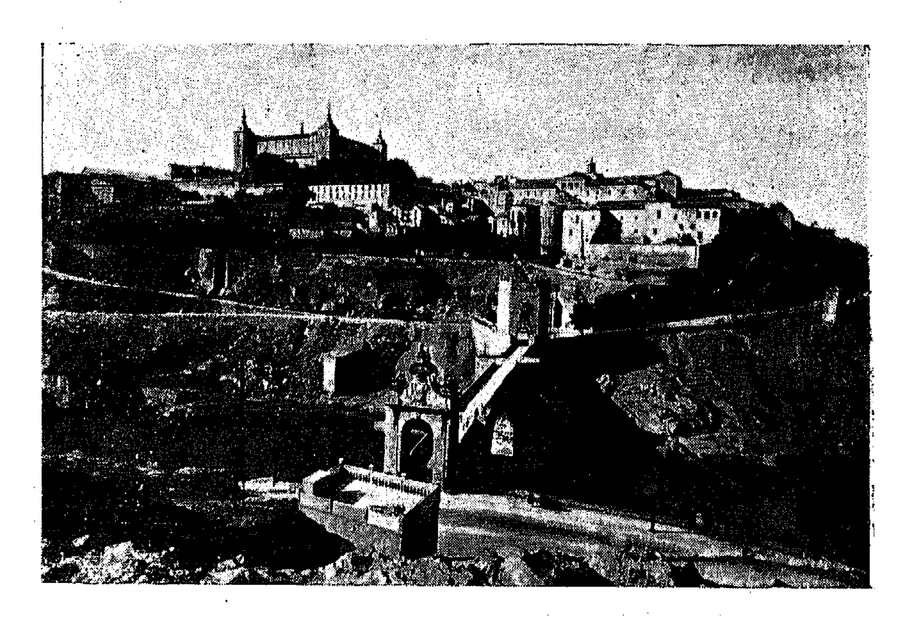
كانت طليطلة عاصمة المملكة القوطية ، ثم كانت بعد فتح المسلمين للأندلس من أعظم وأهم القواعد الأندلسية . وقد لبثت أيام الدولة الإسلامية ، موئلا لثورات المولدين والبربر . وكان المولدون أو المسلمون الإسبان ، هم عنصر سكانها الغالب ، ومن ثم فإن ولاءهم للحكومة الإسلامية لم يكن قوياً . وقد عانت حكومة قرطبة فى إخضاعها وحكمها متاعب وصعابا جمة . وفوق ذلك فقد كانت طليطلـــة بموقعها على المنحدرات الصخرية العالية ، الممتدة حتى ضفاف التاجُه ، الذى يحيط بها من الشرق والغرب والجنوب ، وأسوارها الضخمة ، وقلاعها الحصينة ، من أمنع مدن العصور الوسطى ، وهى ما تزال إلى اليوم متى تأملت موقعها الجبلى الوعر ، وبقايا أسوارها وحصونها القديمة ، ودروبها الصخرية القفرة ، تذكرنا بحصانتها القديمة .



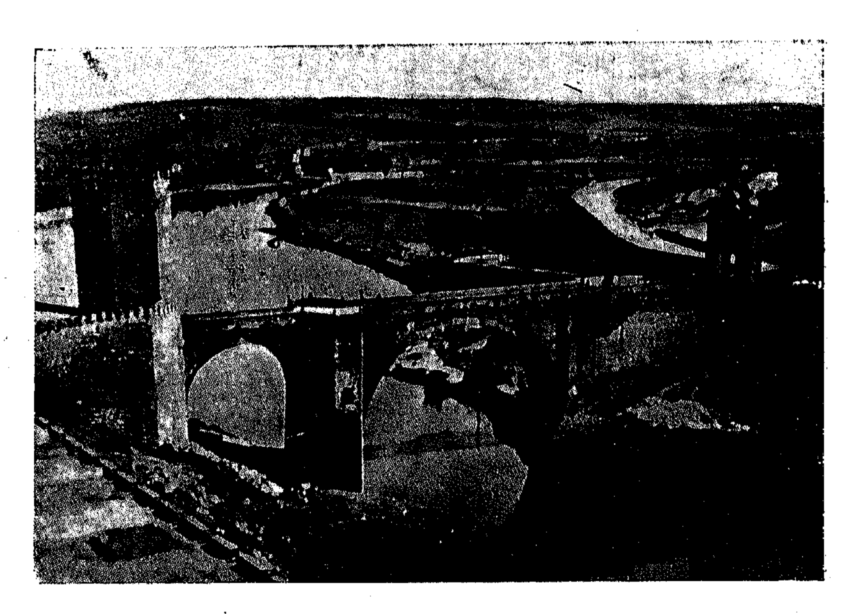
طليطلة . باب الشمس

وهى تقع فى منعطف نهر التاجه على بعد خمسة وسبعين كيلومتراً من مدريد ، وتربطها بالعاصمة الإسبانية مواصلات حديدية منظمة ، وكذلك طريق سيارات حسن ، ويفد إليها السياح بكثرة من سائر البلاد .

وقد كانت طليطلة أول قاعدة أندلسية هامة سقطت فى أيدى النصارى ، وكان



طليطلة . منظر جزئى لواجهة المدينة يبين موقعها على نهر التاجه



طليطلة . القنطرة الأندلسية المسماة قنطرة « القنطرة » **Alcnátra** القائمة فوق نهر التاجه

سقوطها فى شهر صفر سنة ٤٨٧ هـ (مايو سنة ١٠٨٥ م) فى يد ألفونسو السادس ملك قشتالة . وكان هذا السقوط نذيرا خطيراً بتصدع صروح الدولة الإسلامية . وكان المسلمون حينما فتحوا طليطلة ، قد استبقوا كثيراً من خططها ومعالمها وصروحها القوطية والرومانية القديمة ، وجعلوا مسجدها الجامع مكان الكنيسة القوطية التى تقع فى وسطها . ولكنها نمت وازدهرت فى ظلهم ، واشتهرت بصناعاتها الصلبية والحديدية ، وأسلحتها الفاخرة . وبلغ سكانها أيام المسلمين نحو مائتى ألف نسمة . فلما سقطت فى أيدى النصارى هجرها معظم سكانها المسلمين ، وتضاءل سكانها ونشاطها الصناعى فى ظل الحكم الإسبانى ، بالرغم من أنها كانت فى وقت من الأوقات عاصمة اسبانيا النصرانية ، وكانت مقراً لبلاط فرديناند وإيسابيلا ، وأحياناً لبلاط الإمبراطور شارلكان . واستمر تدهورها حتى عفت معظم صناعاتها القديمة ، وأصبح سكانها اليوم لايعدون ثلاثين ألف نسمة .

وطليطلة اليوم مدينة متواضعة ، وهى ما زالت تحتفظ بخططها القديمة ، بدروبها الضيقة المنحدرة ومنازلها الصخرية العتيقة ، وما زالت بها بقية من أسوارها وأبراجها وأبوابها القديمة ، ومنها الباب المسمى « باب بساجرا "Puerta de Visagra" أو باب ألفونسو السادس ، وأصله من الأبواب الأندلسية القديمة ، وكان يسمى « باب شرقى » ، وقد جدد فى منتصف القرن السادس عشر . وتقع القنطرة العربية القديمة على التاجه أمام شمال شرقى المدينة ، ومازالت تسمى إلى اليوم "Puente de Alcántra" « قنطرة القنطرة » ، وقد أنشئت فى سنة ٩٩٧م أيام المنصور بن أبى عامر مكان القنطرة الرومانية القديمة ، ثم جددها ألفونسو السادس فاتح طليطلة بعد أن كادت تتهدم ، وهى تقوم على عقدين ضخمين عميقين ، وعليها باب قديم فى أعلاه برج ، وعلى الربوة المقابلة لها من الشمال ، يقوم الصرح المسمى « بالقصر » ، وفى نهايتها باب آخر أحدث صنعاً .

ومازالت طليطلة تحمل إلى اليوم طابع العصور الوسطى ، وتبدو حصانتها القديمة فى كل بقعة من بقاعها ، وكل حى من أحيائها . والمدينة القديمة ، المدينة القوطية الأندلسية ، مازالت قائمة بدروبها الضيقة المتشابكة ، ومنازلها القديمة الصلدة ، وشوارعها المنحدرة ، وحتى كنيستها العظمى (الكاتدرائية) تقع فى وسط شبكة من الدروب الضيقة . والمدينة كلها تنحدر بصخرتها المنيعة نحو نهر التاجه

الواقع فى جنوبها ، وتوجد فى الضفة الأخرى من التاجه مما يلى قنطرة القنطرة ، عدة شوارع ومبان حديثة ، وهذه تعتبر المدينة الحديدة . وما زال نهر التاجه والمنحدر والأسوار والأبواب المشرفة عليه ، تعين لنا معالم المدينة القديمة . ولاتوجد فى طليطلة ميادين كبيرة ، وميدانها الرئيسى «الميدان الكبير» "Plaza Mayor" قريب من التاجه ، ومنه تتفرع عدة دروب ضيقة يفضى إحداها إلى الكنيسة العظمى .

الكنيسة العظمى

وتقع كنيسة طليطلة العظمى (الكاتدرائية) فى وسط المدينة تقريباً ، وهى تحتل مكان المسجد الجامع القديم ، وقد كان هذا المسجد كنيسة قوطية قديمة ، فحولها المسلمون وقت الفتح إلى مسجد طليطلة الجامع . ولما سقطت طليطلة فى أيدى القشتاليين ، كان من عهود التسليم التى قطعها ملك قشتالة على نفسه أن يبقى للمسلمين جامعهم إلى الأبد ، يؤدون فيه شعائرهم أحراراً . بيد أنه لم يمض على ذلك سوى شهرين ، حتى قام أسقف طليطلة الجديد بتحويل الجامع إلى كنيسة بالقوة القاهرة ، ونصبت فيه الهياكل ، ولم يغن احتجاج المسلمين ولا هياجهم شيئاً . وفى شهر ديسمبر سنة ١٠٨٥ م دشنت الكنيسة الجديدة فى حفل ملوكى ضخم ، واستمر بناء الجامع بعد تحويله إلى كنيسة قائماً زهاء قرن ونصف حتى أمر بهدمه الملك فرناندو الثالث فى سنة ١٢٢٧ م ، وأمر بأن تبنى مكانه الكاتدرائية الحالية ، وهى من أعظم وأغنى الكنائس الإسبانية . وقد كانت طليطلة وما زالت مقر الرياسة الدينية العليا للكنيسة الإسبانية .

وقد بدأ بناء هذه الكنيسة فى عصر فرناندو الثالث ، ولكن بناءها استمر دهراً ولم يتم إلا فى سنة ١٤٩٢ ، فى نفس الوقت الذى سقطت فى غرناطة آخر القواعد الأندلسية . وتوجد فى نهاية صحنها ، لوحة كتب عليها بالإسبانية ما يأتى : « فى سنة ١٤٩٢ فتحت غرناطة وكل ممتلكاتها ، على يد الملكين فرديناند وإيسابيلا . وفى نفس هذا العام فى نهاية شهر يوليه ، أخرج جميع اليهود من جميع ولايات قشتالة وأراجون وطليطلة . وفى السنة التالية — سنة ١٤٩٣ — كان إتمام هذه الكنيسة » .

ويوجد تحت القبة الكبرى ، فى شريط الحظيرة التى تحيط ببهو الهيكل الكبير ، نقوش خشبية مصورة تمثل قصة حصار غرناطة وافتتاحها ، ويبدو فيها فرسان معممون هم الفرسان المسلمون ، كما تبدو مناظر الحمراء وقلاعها . وتبدو صور



طليطلة . الكنيسة العظمى

الملك فرديناند والملكة إيسابيلا كل على جواده ، وتسمى هذه النقوش « افتتاح غرناطة فى عصر الملكين الكاثوليكيين » "Conquista de Granada en tiempo de los Reyes Católicos" ، وتعتبر من أقيم ما يزدان به صحن الكنيسة .

وفى ناحية أخرى من الكنيسة ، توجد قاعة كبيرة لها مدخل زين بنقوش وزخارف مدجنية . وكذلك سقفها زين بنقوش مدجنية مذهبة . وقد رسمت على جدرانها الأربع ، صور جميع الأساقفة ، الذين تولوا كرسى طليطلة ، منذ إنشائه حتى العصر الحالى .

وتحتفظ كنيسة طليطلة بطائفة كبيرة من الآنية الذهبية ، والصلبان والتيجان الملوكية والأسقفية التاريخية الثمينة ، تحفظ فى غرفة خاصة فى نهايتها .

وإلى جانب هذه الذخائر ، التى تشتهر بها كنيسة طليطلة ، يوجد معرض الصور والثياب الأسقفية فى أبهاء « المقدس » . ويحتوى معرض الصور ، على مجموعة كبيرة من الصور الدينية ، بريش أكابر الفنانين الإسبان وغيرهم ، ومنها مجموعة رائعة من صنع دومنيكو إل جريكو (اليونانى) الذى عاش فى طليطلة فى أواخر القرن السادس عشر وتوفى بها . وتضم قاعة الثياب المقدسة ، مجموعة كبيرة من الأثواب الأسقفية المذهبة ، التى كانت لمختلف الأساقفة الذين تولوا كرسى هذه الكنيسة .

علما السلطان أبى الحسن المرينى

على أن أهم ما يثير طلعة الباحث بين ذخائر كنيسة طليطلة ، هو علما السلطان أبى الحسن المرينى ، اللذان غنمهما الإسبان ، فى موقعة سالادو Salado أو موقعة طريف ، وهى الموقعة التى نشبت بين الإسبان ، وبين الجيوش الأندلسية والمغربية المتحدة ، بقيادة السلطان يوسف أبى الحجاج والسلطان أبى الحسن المرينى الذى عبر إلى اسبانيا لنجدة المسلمين ، وذلك فى ٣٠ أكتوبر سنة ١٣٤٠ م (جمادى الأولى سنة ٧٤١ هـ) وهزم فيها المسلمون هزيمة فادحة ، وسقط معسكر السلطان أبى الحسن فى يد النصارى ،وكان من أسلابه هذان العلمان ، اللذان مازالت تحتفظ بهما حتى اليوم إسبانيا النصرانية ، عنواناً لظفرها فى ذلك اليوم المشهود .

وقد علق هذان العلمان الإسلاميان ، على جدران قاعة الثياب المقدسة .وأولها عبارة عن سجادة كبيرة مذهبة الجوانب ، طولها ٣,٧٠ متراً وعرضها ٢,٢٠ متراً ، ذات لون أصفر ، وقد نقشت فى شريطها الأعلى والأسفل بحروف بيضاء هذه العبارة : « النصر والتمكين والفتح المبين ، لمولانا أبو الحسن أمير المسلمين » .

ونقش فى باطنها ، فى عدد من الدوائر بلغت ستة عشرة ، العبارات الآتية بأحرف سوداء : « وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم » « الحمد لله على نعمه» « الملك الدائم » « العز القائم » « اليمن الدائم » « العز القائم » .

وفى ذيلها أنها صنعت للسلطان فى المدينة البيضاء فى شهر جمادى الآخر عام أربعين وسبعمائة .

وثانيهما عبارة عن سجادة أصغر حجماً ، يبلغ طولها ٢,٨٠ متراً وعرضها ٢,٢٠ متراً ، وقد علقت إلى جانب الأولى ، ذات لون أزرق ، ونقوشها من النواحي الأربعة بيضاء ، وفيها عدة أهلة ونجوم . وقد نقش فى شريطها الأفقى الأعلى ما يأتى : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » .

وفى الشريط العمودى الأيمن ما يأتى : « تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله » .

وفى الشريط الأفقى الأدنى تكملة الآية : « بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » .

« وما النصر إلا من عند الله » « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » « نصر من الله وفتح قريب » « وما توفيقى إلا بالله » .

وفى الشريط العمودى الأيسر : « يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم » .

ونقشت فى الأهلة وعددها ستة عشر عبارة : « لا إله إلا الله » ، فى ثمانية منها ، و« محمد رسول الله » فى الثمانية الأخرى ، وعدد النجوم عشرون .

وفى ذيل هذا العلم ، أنه صنع لأمير المسلمين أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق ، فى قصبة فاس ، فى شهر المحرم سنة اثنى عشر وسبعمائة ، والسلطان المذكور هو أبو يوسف المنصور الجد الثانى للسلطان أبى الحسن (١) .

وقد زار الوزير ابن عبد الوهاب سفير ملك المغرب ، طليطلة سنة ١٦٩١ م ؛ وهو يقدم لنا فى رحلته التى سبقت الإشارة إليها ، هذا الوصف الشائق لطليطلة وكنيستها العظمى ، وهو يسميها فى وصفه بالمسجد ، ويبدو فى هذا الوصف عميق تأثره ، بروعة منظرها وذخائرها :

« وأسوار هذه المدينة وحيطانها وأزقتها ، باقية على حالها من عهد عمارتها من المسلمين ، وأثرها أثر الحضارة ، إلا أن أكثر أزقتها ضيقة جداً ، ودورها باقية

---

(١) رجعنا فى إيراد هذه الأوصاف والنقوش ، إلى مشاهداتنا ودراستنا الخاصة داخل كاتدرائية طليطلة . وراجع أيضاً فى ذلك ما كتبه المستشرق أمادور دى لوس ريوس فى رسالته :

Trofeos militares de la Reconquista; Estudio acerca Ensenas Musulmanes del Real Monasterio de las Huelgas (Burgos) y la Catedral de Toledo (Madrid 1893).

على حالها من البناء الإسلامى وتفصيله ، والنقش فى السقف والحيطان بالكتابة العربية ، ومسجدها الجامع من عجائب الدنيا ، إذ هو مسجد كبير مبنى كله من الحجارة الصلبة ، القريبة الشبه بالرخام ، وسقفه مقبوه من الحجارة ، وهو فى غاية ارتفاع السمك ، وعلوه فى الجو ، وسواريه فى غاية الضخامة والصناعة العجيبة ، والنقوش. وقد أحدث النصارى فى هذا المسجد من جوانبه ، زيادة فى الوسط بشبابيك من نحاس أصفر ، وفيها من تصاويرهم وصلبانهم وآلة الموسيقى المسماة عندهم أوركان ، التى يضربون بها وقت صلواتهم ، مع الكتب التى يقرأونها فى الصلوات ، شىء كثير . وقد جعلوا أمام هذا الشباك صورة المصلوب ، وهو من ذهب يقابلونها فى صلواتهم . وأبواب هذا المسجد غاية فى الإتقان والصناعة . وقد زادوا فوقها من الصور ما هو من عوايدهم ، التى لا يمكنهم تركها . ومن الزيادات المحدثة فى جوانب هذا المسجد ، بيوت كثيرة كبيرة مشتملة على خزاين من الأموال كثيرة ، فيها من الذخائر والأحجار الملونة ، مثل الياقوت الأحمر والأبيض والأصفر والزمرد ، والتيجان المرصعة بالدر الفاخر ، والأحجار النفيسة التى لها بال ولا تقوم بمال . ومع هذه الذخائر تاج كبير من الذهب ،ومعه سواران من ذهب ، زعموا أن ذلك من عهد المسلمين رحمهم الله »[1] .



طليطلة . شارع داخل المدينة

(١) رحلة الوزير فى افتكاك الأسير ، السالفة الذكر ، ص ١٠٥ ، ١٠٦ .

وكذلك تحدث الغزّال الفاسى فى رحلته عن كاتدرائية طليطلة ، وقد زارها فى سنة ١٧٦٥ م ، وأفاض فى وصف ضخامتها وروعتها ، وما تحتويه من الذخائر الجليلة ، وهو يصفها بأنها « الجامع » ، ويقول إنه من أعظم المساجد ، وله طراز خاص غير مسجد قرطبة ، وبناوءه وسواريه من الرخام ، وبوسط المسجد قبة عظيمة ، نصبت تحتها كنيسة وزينت جدرانها بأنواع الصور والرسوم ، وعلقت عليها الصلبان . وبأركان الجامع خزائن مملوءة بالذخائر الإسبانية النصرانية ، من تيجان وقلائد وخواتم وصلبان وغيرها من الذهب وغيره ، وبعضها مرصع بالحجارة الكريمة . وهذه الذخائر تفوق نظائرها فى إشكريال (يقصد قصر الإسكوريال) ، ثم يقول إنه مازالت بالمدينة مقبرة للمسلمين ، وعليها ساريان من الرخام فيها أسماء وتواريخ بعض أكابر المسلمين[١] .

ووصف الكنيسة العظمى فيما تقدم « بالجامع » ، يرجع إلى كونها تحتل موقع المسجد الجامع القديم ، ويقارنها الغزال فى وصفه « بجامع قرطبة » ، ولكن الواقع أن جامع قرطبة ، بالرغم من تحويله إلى كنيسة بل كنائس ، مازال يحتفظ بشكله وأوضاعه الإسلامية من عمد وبوائك وغيرها . أما كنيسة طليطلة فهى أثر نصرانى محض .

الآثار الأندلسية

ولاتوجد فى طليطلة آثار أندلسية محضة ، سوى بقايا المسجد الصغير ، التى حولت إلى كنيسة تسمى اليوم "Cristo de la Luz" . ويقع هذا الأثر فى داخل المدينة ، تفضى إليه دروب ضيقة منحدرة ، ويبدو لأول وهلة أنه بقية مسجد إسلامى ، تتألف من ثلاث عقود فى مثلها بأعمدتها وزخارفها العربية . والظاهر أن المسجد كان صغيراً ، وقد محيت نقوش القبة الإسلامية ورسمت مكانها صورة شخص أو قديس . ورسمت فى حنايا النوافذ القديمة ، بعد أن سدت ، صور العذراء ، ولايوجد بالمكان هيكل ، ولكن يوجد صليبان متقابلان ، وهو خال ، وإلى جواره حديقة مهملة ومساكن متواضعة .

وقد كان يطلق على هذا المسجد اسم مسجد «باب المردوم» . ويوجد فى نقش

---

(١) رحلة الغزال السالفة الذكر ، ص ٦٧ و٦٨ .

واجهته العبارة الآتية : « بسم الله الرحمن الرحيم أقام هذا المسجد أحمد بن حديدى، من ماله ابتغاء ثواب الله فتم بعون الله على يدى موسى بن على البناء وسعادة فتم فى المحرم سنة تسعين وثلث مائة ، (٩٩٩) م » .

ويوجد أيضاً من الآثار الأندلسية عدد من البيع اليهودية ، ومعظمها مبنى على طراز عربى واضح ، وبعضها بنى على طراز المسجد: بعقوده وأروقته وأعمدته، وبها نقوش وزخارف عربية . ويبدو هذا الطراز واضحاً ، فى الكنيسة المسماة اليوم سانتا ماريا دى بلانكا Sta Maria de Blanca وهى تقع فى نهاية طليطلة ، على مقربة من منزل المصور (إل جريكو) . وقد كانت بيعة يهودية ، ثم حولت فى سنة ١٤٠٥ إلى كنيسة ، وأسس إلى جانبها دير للراهبات . وقد أصلحت فى أواخر القرن الثامن عشر ، ثم جعلت أثراً قومياً . وهى مبنية على نسق المسجد بعقوده وبوائكه ، وبها سبعة عقود فى الطول وأربعة فى العرض ، وبها أربعة وعشرون عموداً سداسية الشكل ، وفى مدخلها بعض نقوش عربية .

طليطلة . بقايا المسجد المسمى «كريستو دى لوث»

وكذلك كنيسة سان سلڤادور "San Salvador" ، كانت فى الأصل مسجداً ، ثم حول إلى كنيسة فى سنة ١١٥٩ م ، بعد الفتح بنحو سبعين عاماً ، واستولى عليه النصارى من المدجنين .

القصر وصروح أخرى

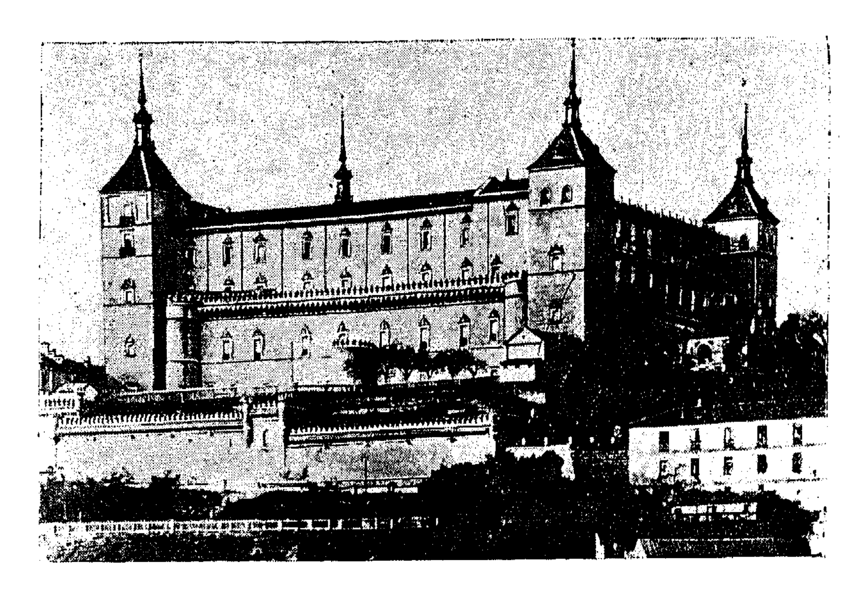
ومن أهم صروح طليطلة القديمة ، التى تتصل بالعصر الإسلامى ، «القصر» "Alcázar"، وهو بناء قديم ضخم ، شيد على صخرة عالية تطل على نهر التاجه ، أمام قنطرة « القنطرة » ، وكان أيام الرومان حصناً ، فجدده الملوك القوط ، ثم جدد أيام المسلمين ، وأنشأ به الحكم بن هشام أمير الأندلس فى سنة ٧٩٧ م قلعة منيعة ، لضبط مدينة طليطلة وقمع ثوراتها ، وكانت تستعمل حصناً ومقراً للحاكم. وهذه القلعة أو القصبة ، هى التى حولت فيما بعد إلى ما يسمى اليوم « بالقصر ». وهو صرح عبوس منيع البناء والمواقع ، له فناء مربع معقود ، وأربعة أبراج كبيرة ، يقوم كل منها فى ركن من أركانه الأربعة .

ولما سقطت طليطلة فى أيدى النصارى ، استعمله الإسبان كقلعة لحصانته ، ثم حوله الملوك الإسبان ، فى القرن الثالث عشر ، إلى قصر للإقامة فيه ، وأصلحه وزينه الملكان فرديناند وإيسابيلا ، ثم الأمبراطور شارلكان، وأسبغت عليه الفخامة الملوكية ، وعاش فيه ملوك وملكات ، واستقبل فيه عدد من مشاهير السفراء ، وكان يتخذ مقراً للبلاط من آن لآخر . ثم استعمل بعد ذلك سجناً لديوان التحقيق . ولعب فى الحرب الأهلية الإسبانية الأخيرة دوراً هاماً ، حيث اعتصم به الملكيون أنصار الجنرال فرانكو ، واستطاعوا الدفاع عنه حتى تم لهم الظفر على الجمهوريين .

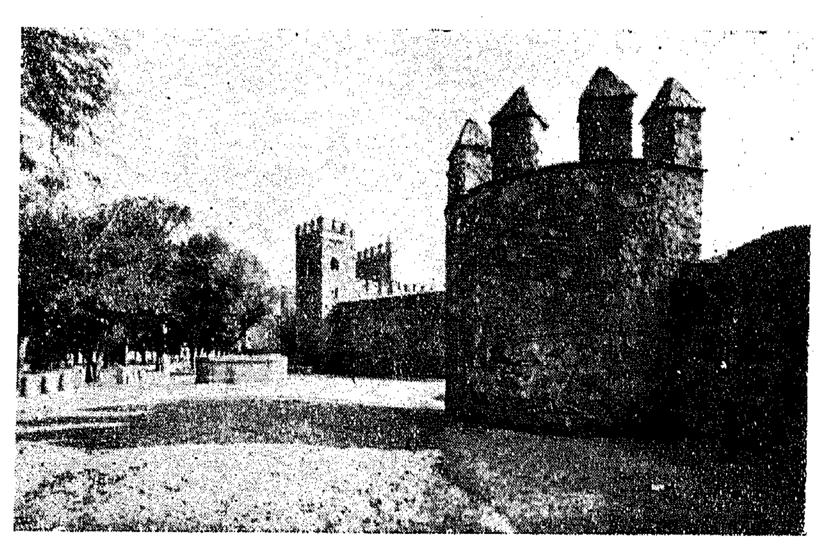
وتوجد فى ظاهر طليطلة ، بقية من أسوارها الأندلسية القديمة ، وقد غير كثير من معالمها فى العصور التالية .

ومن آثار طليطلة القديمة أيضاً ، البناء المسمى « حمام كابا » "Baño de la Cava" وهو يقع غربى طليطلة على مقربة من النهر ، وهو عبارة عن قلعة ومنزل معاً ، وتنسب إليه أسطورة ، تقول إنه كان مسكناً لفلورندا الحسناء ابنة الكونت يوليان ، الذى عاون العرب على فتح اسبانيا ، انتقاماً لاعتداء ردريك ملك القوط على ابنته .

وتشتهر طليطلة بنوع خاص ، بمنزل الفنان الكبير دومنيكو إل جريكو "D. el Greco" أى اليونانى ، وهو مصور عبقرى من أصل يونانى ، عاش فى طليطلة فى أواخر القرن السادس عشر ، وتوفى بها (سنة ١٦١٤) ، وقد غدا المنزل الذى كان يقيم فيه اليوم متحفاً قومياً ، يزخر بصوره وآثاره . وهو يقع فى نهاية



طليطلة . القصر **Alcázar** قبل تخريبه أثناء الحرب الأهلية



طليطلة . بقايا الأسوار الأندلسية

طليطلة فى شمالها ، على مقربة من نهر التاجه ، ويحج إليه زوار المدينة باستمرار .

وتوجد فى طليطلة مصانع رسمية للسلاح والذخيرة . وقد حافظت طليطلة على شهرتها القديمة ، فى صنع الأسلحة والآلات القاطعة ، وكذلك صنع الأقمشة الحريرية . وكانت صناعة الأسلحة الطليطلية ، من أزهر الصناعات أيام المسلمين ، وقد شاهدنا من منتجاتها السيوف ، والمدى الفاخرة ، التى زينت مقابضها بالعاج والأحجار الثمينة ، كما شاهدنا تحفاً كثيرة دقيقة الصنع يفتخر الطليطليون بها .

ومما يجدر ذكره أن طليطلة تشتهر بصنع الحلوى الأندلسية القديمة المسماة « ماثابان » "Mazapan" ، وهى تكثر فى الأعياد والموالد الدينية ، وترسل إلى سائر مدن اسبانيا .

٧ — بلنسيــــــة

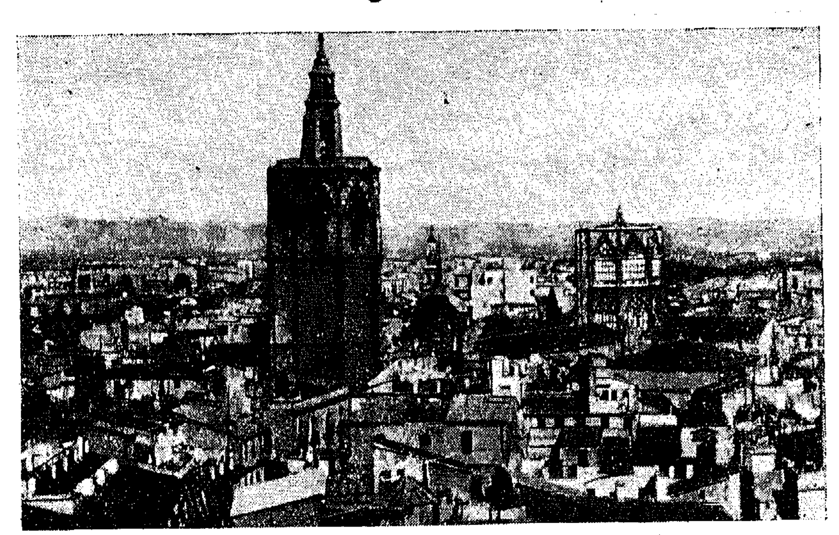
Valencia

بلنسية هى اليوم ثالثة المدن الإسبانية بعد مدريد وبرشلونة . وهى مدينة ضخمة ، تخترقها ميادين فسيحة وشوارع مديدة ، وتقع فى منطقة زراعية وصناعية هامة ، على مقربة من الشاطىء الغربى الجنوبى للبحر الأبيض المتوسط ، على بعد ٤٩٠ كيلومتراً من مدريد ، ويبلغ سكانها حسب إحصاء سنة ١٩٢٧ ، ٣١٢ ألف نفس ، ولكنهم يبلغون اليوم زهاء ثلاثمائة وخمسين ألفاً .

ومن محاصيلها الزراعية ، الأرز والذرة والقطن والبقول والفواكه والأزهار. ومن بين منتجاتها الصناعية الأسمدة ، وزيت الزيتون ، والكوكو ، والخروع ، والمشروبات الروحية ، والآلات الموسيقية ، والحرير والصوف ، وبها حركة تجارية كبيرة .

وقد سقطت بلنسية فى أيدى الإسبان فى سنة ١٢٣٨ م (٦٣٦ ﻫ) ، وبالرغم من أنها كانت أيام الدولة الإسلامية ، من أعظم القواعد الأندلسية ، وقد احتفظت بطابعها الإسلامى حتى منتصف القرن الثالث عشر ، ولبثت من بعد ذلك عصراً آخر ، منزل جماعات كثيرة من المدجنين ، وبالرغم من أنها من بعد سقوط الأندلس النهائى (سنة ١٤٩٢ م) ، قد لبثت نحو قرن من أعظم مراكز الموريسكيين أو العرب المنتصرين — بالرغم من ذلك كله فإنك لاتلمح بها اليوم أية مسحة أندلسية أو موريسكية واضحة ، بل ترى نفسك فى قلب مدينة أوربية عصرية محضة ، ذات ميادين وشوارع عظيمة وأبنية شاهقة محدثة . وأعظم ميادينها « ميدان الزعيم» "Plaza del Caudillo" القريب من محطتها الحديدية ، وأعظم شوارعها شارع خوسيه أنطونيو "Avenida de José Antonio" ، وشارع فرديناند الكاثوليكى "Gran Via de Fernando el Católico" ، وشارع كولب "Calle de Colón" وشارع البارون دى كارثر "Av. de Baron de Carcer" وغيرها ، وكلها شوارع مديدة فسيحة تزخر بالمتاجر ، والمقاهى والفنادق والمبانى الشاهقة . ومما يلفت النظر أن من بين شوارعها شارع يسمى شارع الرصافة ، وحى يعرف بحى الرُّصافة "Calle de Ruzafa" ، ويذكرنا هذا الاسم الأندلسى برصافة قرطبة

الشهيرة ، وقد كان فى بلنسية أيام المسلمين حى يسمى بهذا الاسم[1]. ولسنا ندرى، إن كان حى الرصافة هذا ، الذى يوجد فى بلنسية الحديثة ، قد خلف مكان سميه القديم فى المدينة الأندلسية . وعلى أى حال فقد سمعنا من البلنسيين أنه من أقدم خطط بلنسية . وهو شارع تجارى هام ، يمتد من « مسرح الثيران » على مقربة من المحطة ، طويلا إلى داخل المدينة ، وينتهى بحى متوسط الظاهر هو حى الرصافة ، ويتقاطع فى نحو منتصفه مع شارع « خوسيه أنطونيو » . وهو من أهم شوارع بلنسية ، ويقوم فى وسطه ممر تظلله أشجار النخيل الجميلة ، كما توجد عدة شوارع وميادين أخرى فى بلنسية تزينها أشجار النخيل .



بلنسية . الكنيسة العظمى وبرجها المسمى « الميجليتى »

ويشق نهر توريا "Turia" المدينة من الشمال ، وتقع فى الناحيــة الأخرى الحدائق الملكية ، وهى حدائق غناء حسنة التنسيق .

على أننا نستطيع بالرغم من هذا الطابع الأوربى العميق ، الذى يطبع مظاهر بلنسية وخططها ، أن نلمح مسحة أندلسية أو موريسكية باهتة فى بعض دروبها القديمة الضيقة ، وفى طراز بعض مساكنها العتيقة . أما عن الآثار الأندلسية الباقية، فإنه لايوجد فى بلنسية أى أثر أندلسى أو موريسكى ذو شأن ، اللهم إلا بقايا

---

(١) راجع الروض المعطار ص ٥٢ .

حمامات عربية ، تقع على مقربة من الكنيسة العظمى (الكاتدرائية) ، فى شارع صغير يسمى شارع حمامات الأمير ال"Calle de los Baños del Amirante" ، وهى تقع داخل منزل قديم ، وتحتوى على أربع قباب قديمة من قباب الحمامات العربية ، ذات كوات نجمية الشكل ، وقد أنشئت إلى جانبها بعض الحمامات الحديثة ، وهى معروفة بأنها الأثر الإسلامى الوحيد فى بلنسية .

ومن الصروح الأثرية البارزة فى بلنسية كنيستها العظمى ، وكان مكانها قبل الفتح الإسلامى كنيسة قوطية قديمة فحولها العرب إلى مسجد جامع . ولما افتتح السيد الكمبيادور (الكنبيطور) المدينة فى سنة ١٠٩٤ م حول المسجد إلى كنيسة ، ثم ردت الكنيسة مسجداً ، بعد أن عادت المدينة إلى سلطان المسلمين فى سنة ١١٠٢م . ولما افتتح خايمى الأول ملك أراجون بلنسية من أيدى المسلمين فى سنة ١٢٣٨م ، قلب هذا المسجد الجامع إلى كنيسة ، سميت باسم «ماريا العالية القداسة» "Santissima Maria" وبدىء بإنشاء الكاتدرائية فى أواخر القرن الثالث عشر ، وتم بناؤها فى سنة ١٣٧٦ ، وهى على الطراز القوطى ، وليست كبيرة الحجم ، وقد جددت فى معظم أجزائها ، ما عدا قسم صغير منها يبدو أنه أقدمها . أما برجها الشهير الذى يسمى « المجليتى » "El Miguelete" فقد أنشىء فى نهاية القرن الرابع عشر منفصلا عنها ، وهو شاهق يبلغ ارتفاعه خمسين متراً ، ويشرف على المدينة من سائر نواحيها .

ومن أقدم كنائس بلنسية ، كنيسة القديس أندريس "San Andrés" ، وقد كانت قائمة أيام المسلمين .

وأهم آثار بلنسية الأخرى ، القلعة المسماة « برج الجبليين » "Torre de Serranos" وهى تقع تجاه النهر فى الميدان المسمى بهذا الاسم ، وهى قلعة حصينة أنشئت فى نهاية القرن الرابع عشر ، والبرج المسمى «برج الكوارتو » "T. del Quarto" وهو يقع فى غربى المدينة ، وقد أنشىء فى سنة ١٤٤٤ ، وكان يستعمل فيما بعد سجناً للنساء ، ودار البورصة المسماة « لونخا » "La Lonja" ، وهى بناء جميل على الطراز القوطى ، يستعمل مركزاً للتعامل بالجملة فى المحاصيل ، وإلى جانبه قاعة فسيحة قديمة هى دار المحكمة التجارية .

ويقع على الضفة الأخرى من النهر متحف الفنون الجميلة ، ويحتوى على مجموعة كبيرة من الصور الدينية وغيرها ، من صنع أكابر المصورين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر .

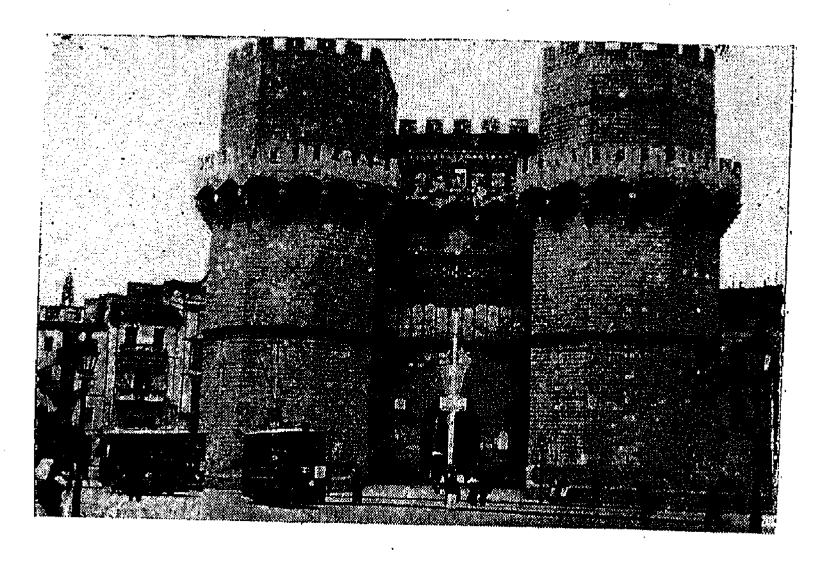
وتمتاز بلنسية بأنها مركز من مراكز الثقافة الإسبانية ، ففيها جامعة قديمة ترجع إلى خمسة قرون ، وتضم كليات للآداب والحقوق والطب ، ويلحق بها مكتبة عظيمة تسمى « المكتبة الجامعية والبلدية » وبها أكثر من مائة ألف مجلد ، هذا عدا مكاتب فرعية أخرى ، مثل مكتبة البلدية ومكتبة الحقوق والمكتبة الشعبية وغيرها. وبها داران للمحفوظات والوثائق التاريخية ، هما «محفوظات مملكة بلنسية "Archivo del Reino de Valencia" ، وهى تضم كثيراً من مجموعات الوثائق الخاصة بأحوال الموريسكيين (العرب المتنصرين) ، وديوان التحقيق ، وقد اطلعنا فيها على الأوامر الملكية الصادرة من فيليب الثانى فى سنة ١٥٥٣ ، بتحريم حمل السلاح على الموريسكيين . وقد كانت بلنسية ، بعد سقوط الأندلس النهائى من أعظم مراكز الموريسكيين . وهنالك أيضاً دار المحفوظات البلدية ، وهى تحتوى على كثير من الوثائق المتعلقة بتاريخ بلنسية .

وقد زرت ميناء بلنسية ، التى تصل إليها من طريق شاسع يقع على ضفة النهر الأخرى ، وتقوم على ضفتيه الأشجار الباسقة ، ويسمى « متنزه بلنسية » "Paseo de Valencia" ، وهى ميناء صغير ترسو فى خليجها الهادىء ، سفن الصيد الكبيرة وسفن الشحن ، وبعض سفن قليلة للركاب من ذوات الأحجام المتوسطة ، ولاترسو به السفن الكبيرة ، والحركة فيه قليلة هادئة .

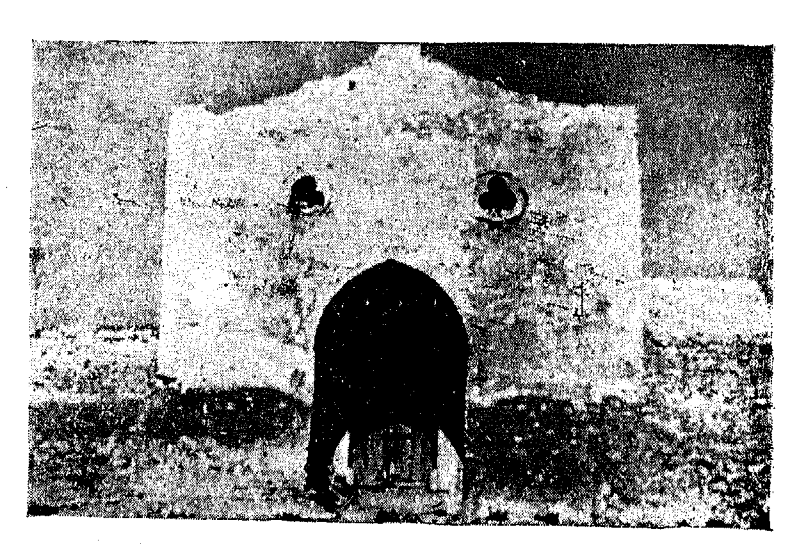
وعلى مقربة من الميناء فى شمال المدينة ، تقع القلعة التى بناها الإمبراطور شارلكان للدفاع عن المدينة ضد غارات أمير البحر التركى خير الدين بارباروس ، وهى التى كان يقوم بها بمعاونة الموريسكيين ووحيهم ، لكى يسهل لهم سبل الهجرة والفرار من اضطهاد ديوان التحقيق الإسبانى ومحاكماته المروعة .

وقد كانت بلنسية فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى ، فى بداية عهد المرابطين ، مسرحاً لمغامرات الفارس الإسبانى الأشهر السيد الكنبيطور "El Cid Campeador" ، وقد استولى عليها فى يونيه سنة ١٠٩٤م وحكمها حيناً ، بيد أنه مما يلفت النظر حقاً أنه ليس بالمدينة أى أثر أو تمثال للسيد ، أو أية آثار أخرى تتعلق بهذا العهد ، مع ما عرف عن الإسبان من المبالغة فى تخليد ذكرى أبطالهم ، ولاسيما أولئك الذين أبلوا فى محاربة المسلمين .

ومازالت بلنسية تحتفظ بشهرتها القديمة فى صنع الأوانى الخزفية ، وبها مثل



بلنسية . قلعة « الجبليين »



مربيطر (بلنسية) . باب معقود من أطلال حصن « المنارة »

إشبيلية فى ضاحيتها المسماة مانيسس "Manises" مصنع من أعظم مصانع الخزف الإسبانية :

ساجنتـــو

هذا وقد زرت ضاحية ساجنتو "Sagunto" الواقعة فى شمال بلنسية ، على قيد خمسة وعشرين كيلومتر منها ، وهى مدينة قديمة ، وبها فوق منحدر التل بقية مسرح رومانى قديم ، ومتحف صغير للأوانى الخزفية ، وعلى مقربة من المسرح الرومانى فوق الربوة ، توجد بقايا قلعة ومساكن أندلسية ، وما زال بها ثمة باب كبير ذو عقد عربى ، وفوقه مشارف وكوات عربية .

وتفسير ذلك واضح ، وهو أن ضاحية ساجنتو هذه ، ليست إلا مدينة مُرْبيطر الأندلسية القديمة "Murviedro" ، وقد كانت أيام الطوائف ، مركز إمارة صغيرة مستقلة .

وتوجد حول بلنسية ، على مسافات بعيدة ، مروج يانعة ، وقد أقيمت بها حدائق البرتقال ، ومزارع القطن الخصبة . وهو ينمو هنالك متأخراً نحو شهرين أو ثلاثة عنه فى مصر نظراً لرطوبة الجو.

ويلى بلنسية عدة من الضواحى القريبة ، التى ترتبط بتاريخها الإسلامى ، وتحمل أسماء ترجع إلى أصل عربى ، مثل الكدية "Alcudia" ، وألداية أو الضيعة "Aldaya" ، وبنى فرى "Beniferri" ، وبنى قاسم "Benicasim" ، وبوثال "Puzal" وغيرها .

وترتبط بلنسية بمدريد بمواصلات حديدية منظمة ، وترتبط كذلك ببرشلونة ، وثغور الأندلس مثل لقنت ، وقرطاجنة ، وألمرية ، ومالقة ، بمواصلات برية وبحرية حسنة .

٨ – مرسية

Murcia

مرسية هى اليوم من مدن اسبانيا الكبرى ، فى مرتبة إشبيلية ، وقرطبة ، وهى عاصمة الولاية الأندلسية المسماة بهذا الاسم . وتقع فى بسيط أخضر فى وادى شقورة ، ويشقها نهر شقورة "Segura" من الوسط ، وهى على نقيض بلنسية مدينة عتيقة الطراز فى شوارعها وميادينها وطراز مساكنها ، وليست لها تلك المسحة الأوربية ، التى تبدو واضحة فى خطط بلنسية ومعالمها ، ومعظم مبانيها منخفضة ذات طبقتين أو ثلاث . وبالرغم من أن بها بضعة شوارع كبيرة عريضة ، فإن شوارعها التجارية الداخلية ضيقة ، ولاسيما شارعيها الرئيسيين وهما "Calle de la Plateria," و C. de la Traperia ، حيث يغص كلاهما بالمتاجر والمقاهى المتقابلة . وأكبر ميادينها هو ميدان الدستور "Plaza de la Constitución" ، ويصل قسميها الكبيرين على ضفتى نهر شقورة قنطرة كبيرة حديثة ، وعلى الضفة الأخرى من النهر طواحين كثيرة تدار بقوة انحدار الماء . وتوجد قنطرة حجرية أخرى تصل المدينة بضاحية سان بنيتو التى يقوم بها مسرح الثيران (الكوريدا) .

ومرسية مدينة زراعية صناعية وتجارية معاً . ومن أهم منتجاتها الدقيق والخمور والفواكه ، وبها صناعات الصوف والكتان والقطن والبارود . وقد نما سكانها فى العهد الأخير نمواً عظيما ، وهم يبلغون اليوم نحو ربع مليون نسمة .

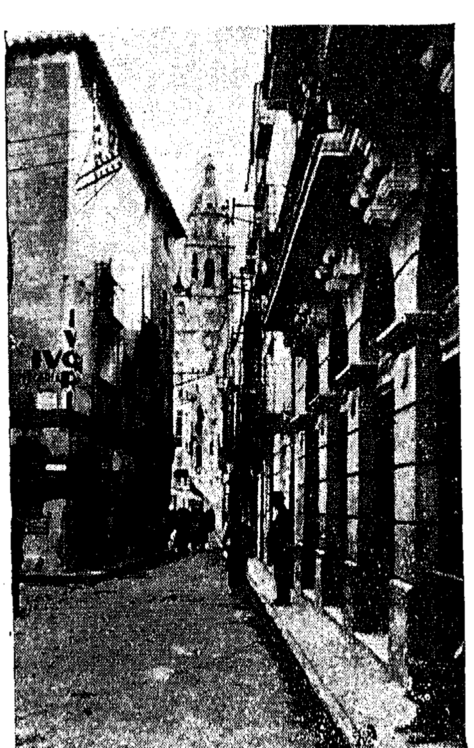
وقد سقطت مرسية فى يد الإسبان فى ٦٤١ هـ (١٢٤٣ م) . ومع ذلك فإنها ما زالت تحتفظ بطابع مدن العصور الوسطى . ولاتوجد اليوم فى مرسية آثار أندلسية ذات شأن ، ولم يبق من أسوارها وأبوابها وصروحها القديمة شىء ، ولاتوجد سوى بقايا بعض الحمامات العربية[١] ، وبعض أطلال قديمة مشوهة بدير سانتاكلارا . غير أن مسحة مرسية القديمة ومعالمها ، ما زالت تنم عن طرازها الأندلسى ، ولا سيما أسواقها الرئيسية ، فهى بدروبها الضيقة ، وحوانيتها المكتظة

---

(١) كانت هذه الحمامات توجد بالمنزل رقم ١٥ من شارع **Calle de la Madre de Dios** وقد علمت أخيراً أنها هدمت .

المتقابلة ، تشبه القيسرية القديمة ، ثم إنه ما زالت تعقد على ضفة النهر أسواق عامة على الطريقة الشرقية ، تعرض بها الطيور والخضر والفواكه والمأكولات والملابس والمنتجات الريفية . وقد حضرنا هذه السوق ذات صباح ، ورأينا فى مناظرها ، ملامح العهد الأندلسى القديم وروحه وتقاليده .

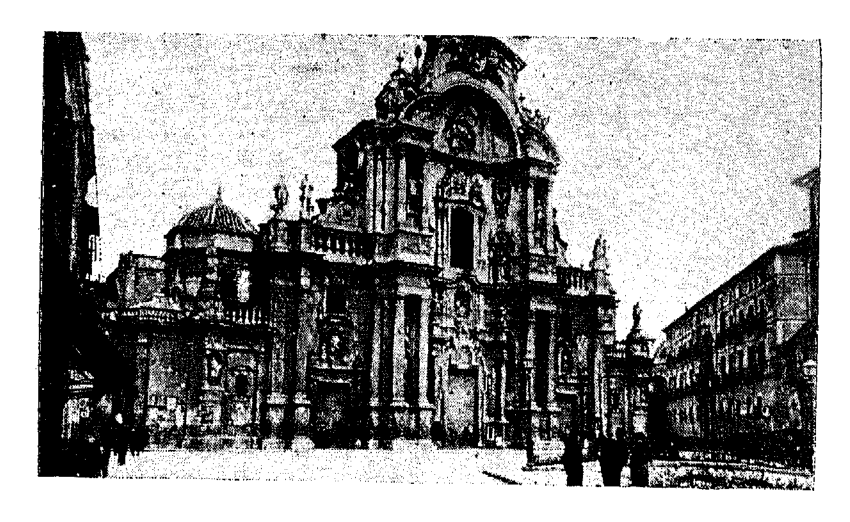
وتقع كنيسة مرسية العظمى فى وسطها ، فى ميدان صغير على مقربة من النهر ، وقد بنيت على موقع المسجد الجامع ، الذى حوله النصارى عند افتتاحهم للمدينة إلى كنيسة مؤقتة . ويرجع إنشاؤها إلى أواخر القرن الرابع عشر . وهى جميلة ، وطرازها قوطى ، وبه مزيج من طراز عصر الأحياء.



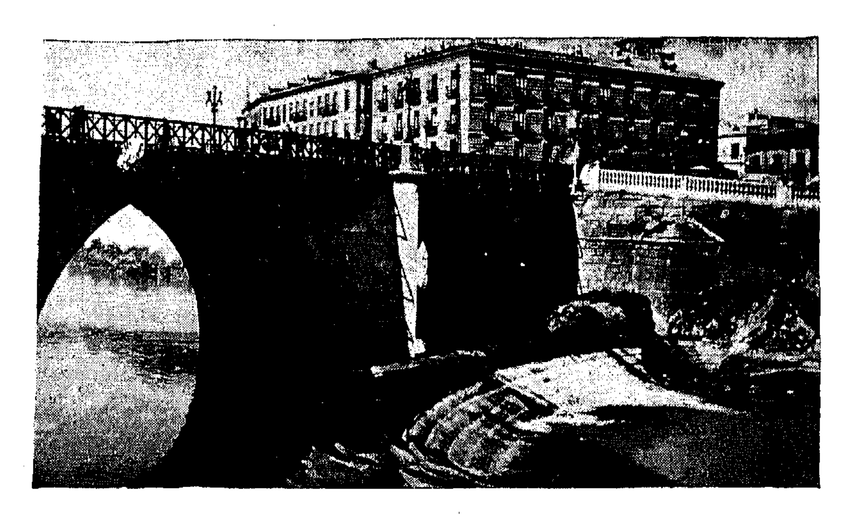
مرسية . شارع معقود الجوانب

وتقع خارج مرسية ، على قيد نحو فرسخ من شمالها الشرقى ، أطلال حصن أندلسى قديم ، يطلق عليه اليوم اسم حصن « مونتى أجودو » Castillo de Monte Agodo وهى تقع فوق ربوة عالية منعزلة مشرفة على الحقول . ومما هو جدير بالذكر أن هذا الحصن كان أيام الطوائف ، من المراكز الدفاعية الأمامية لمرسية . وفيه حاصر الوزير ابن عمار ، حينما هاجم مرسية فى سنة ٤٧١ هـ (١٠٧٨ م) ، صاحبها أبا عبد الرحمن بن طاهر ، وتغلب عليه .

ومرسية كبيرة الرقعة مترامية الأطراف ، تحيط بها حدائق ورياض متصلة ، وأكثرها حدائق البرتقال والزيتون والليمون ، وتحدها من الغرب والجنوب سلسلة من التلال العالية . ومما يلفت النظر فى مرسية كثرة النخيل بها على نحو ما كان أيام المسلمين ، وكذلك مناظرها الريفية الساذجة ، التى تبدو جنباً إلى جنب مع ملامحها



مرسية . الكنيسة العظمى



مرسية . القنطرة الحجرية على نهر شقورة

الأوربية ، فقد ترى مثلا فى شوارعها قطيعاً من الغنم ، وإلى جانبه تسير حسناء فوق دراجة ، أو تسوق سيارتها .

وفى مرسية طائفة خاصة من الجنّانين ، لها عوائد وأغان خاصة ،ولها مواكب وحفلات مأثورة ؛ وفى مواسمها تفيض مرسية بالوافدين عليها من كل صوب .

ومرسية مركز ثقافى أيضاً ، وبها جامعة صغيرة ، تضم كليات ثلاث للعلوم والحقوق والآداب .

الكتاب الثاني

الثغر الأعلى وشرق الأندلس

١ – سرقسطة

Zaragoza

كانت سرقسطة – وقد حرف اسمها الغربى عن اسمها الرومانى Caesar Augusta – أيام الدولة الإسلامية ، عاصمة الثغر الأعلى . ثم غدت خلال القرنين الثانى والثالث للهجرة ، قاعدة للثوار والخوارج على حكومة قرطبة . ومنذ أوائل القرن الرابع ، تغدو مركزاً لسلطان بنى تجيب فى الثغر الأعلى ، وقد حكموها إلى ما بعد انهيار الخلافة ، وقيام دول الطوائف بقليل حتى سنة ٤٣٠ هـ (١٠٣٩ م). ثم خلفهم فى حكمها بنو هود ، وغدت سرقسطة فى ظلهم قاعدة لإمارة أو مملكة قوية من ممالك الطوائف . واستمروا فى رياستها زهاء ثمانين عاماً ، من سنة ١٠٣٩ م ، حتى سقوطها فى يد ألفونسو الأول ملك أراجون فى سنة ١١١٨ م (٥١٢ هـ) .

وكان لموقع سرقسطة فى الشمال الشرقى ، بعيداً عن قلب المملكة الإسلامية ، وقربها من القواعد النصرانية ، وسقوطها فى يد النصارى فى وقت مبكر ، تأثير واضح فى اختفاء صفتها الإسلامية ومعالمها الأندلسية بسرعة . ومن ثم فإنا نجد سرقسطة منذ القرن الثانى عشر ، مدينة إسبانية نصرانية ، ونجدها اليوم مدينة أوربية حديثة ، قد خلعت عنها طابع العصور الوسطى ، الذى ما يزال يبدو فى مدن أندلسية أخرى ، مثل قرطبة وإشبيلية وطليطلة .

وسرقسطة مدينة كبيرة ، ذات شوارع وميادين فسيحة ، ومبانيها عالية ضخمة ، ويخترقها نهر إيبرو (إبرة) ، عند نهايتها ، على مقربة من الكنيسة العظمى ، والنهر ليس عريضاً فى تلك الجهة ، وقد أقيمت عليه هنالك قنطرة رومانية ، عربية الطراز ، ترجع إلى القرن الخامس عشر ، تسمى قنطرة الحجر "Puente de la Piedra" ، وعلى الضفة الأخرى من النهر ، أحياء متواضعة وأرض قفرة . ويبدو نهر إيبرو فى تلك الجهة ، تقريباً على نحو ما يبدو عليه نهر الوادى الكبير فى قرطبة ، من حيث موقعه وراء الجامع .

وسرقسطة مركز تجارى وصناعى هام ، تربطها مواصلات حديدية حسنة ، مع مدريد وبرشلونة وبلنسية . ومن منتجاتها الزجاج والصينى والآلات والمصنوعات الحديدية . ويبلغ سكانها اليوم مائتان وثمانون ألف نسمة .

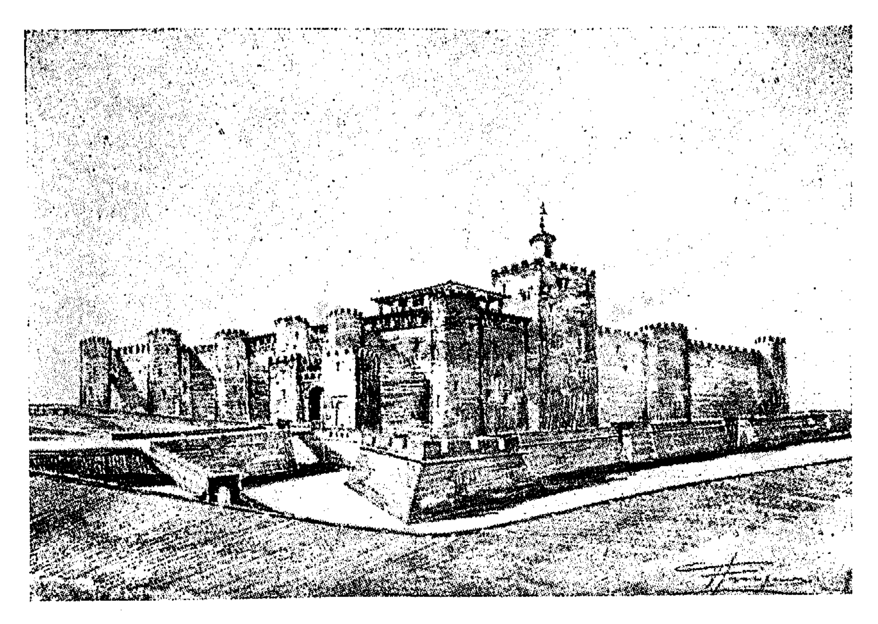
وقد أشرنا إلى أن سرقسطة ، فقدت صفتها الإسلامية والأندلسية ، فى عصر مبكر جداً . والواقع أن سرقسطة لاتحمل أية مسحة أندلسية . بيد أنه يوجد بها مع ذلك ، بعض الآثار الأندلسية التى تستحق الذكر والتعريف.

قصر الجعفرية

ولنبدأ بالحديث عن الصرح المسمى بقصر الجعفرية "Palacio Aljafería" وهو يستعمل الآن ثكنة عسكرية ومخزناً للسلاح ، ويقع هذا الصرح الضخم فى شرقى سرقسطة ، على مقربة من الضفة اليمنى لنهر إيبرو . وهويقوم فوق بقايا الصرح الأندلسى القديم ، وقدكان يضم القصر والقصبة . ويرجع بناؤه حسبما يجىء إلى القرن الحادىعشر الميلادى ، ثم توالتعليه بعد ذلك تغييرات وإضافات كثيرة ، على يد الملوك النصارى ، حتى غدا يمثل فى أجزائه المختلفة عصوراً مختلفة.

ويتمثل العصر الإسلامى فى صرح الجعفرية ، فى بعض الأماكن الداخلية التى ما زالت تعرب عن طرازها الشرقى ، وفى بقايا المسجد ، التى ما زالت قائمة فى داخله ، وهى عبارة عن قاعة صغيرة بها عقدان عربيان ، وشريط به نقوش كوفية ، وقد أحرق المكان من الداخل ، ولم يبق منه إلا زخارف العقود . والمقول إن الفرنسيين هم الذين أحرقوه أيام الغزو النابوليونى .

على أن الذى يهمنا من هذا الصرح ، هو جناحه الأيسر ، وهو القصرالملكى ، الذى أسس على بقايا القصر الأندلسى ، وأدخلت فيه بعض أجزائه . ومن حسن الحظ ، ان الرواية الإسبانية قدحفظتلنا اسمالقصر الأندلسى ، وهو "Aljafería" أو بعبارة أخرى قصر « الجعفرية » . إن هذا الاسم يذكرنا فى الحال بقصر بنى هود ملوك سرقسطة المسلمين ، وهو القصر الذى أنشأه أعظم ملوكهم ، أحمد بن سليمان ابن هود الملقب بالمقتدر . وقد حكم المقتدر مملكة سرقسطة خمسة وثلاثين عاماً ، من سنة ٤٣٨ — ٤٧٤ هـ (١٠٤٦ — ١٠٨١ م) ، وكان من أعظم ملوك الطوائف ، واشتهر ببراعته فى العلوم الفلسفية والرياضية . وسمى قصر المقتدر بقصر «الجعفرية» ، نسبة إلى كنيته ، وهى « أبو جعفر » ، وكان من أعظم وأفخم القصور الملكية فى تلك العصور ، وقد اشتهر فى تاريخ الفن الإسلامى باسم « دار السرور » ، وكان أروع ما فيه ، بهوه الرائع الذى زينت جدرانه بالنقوش



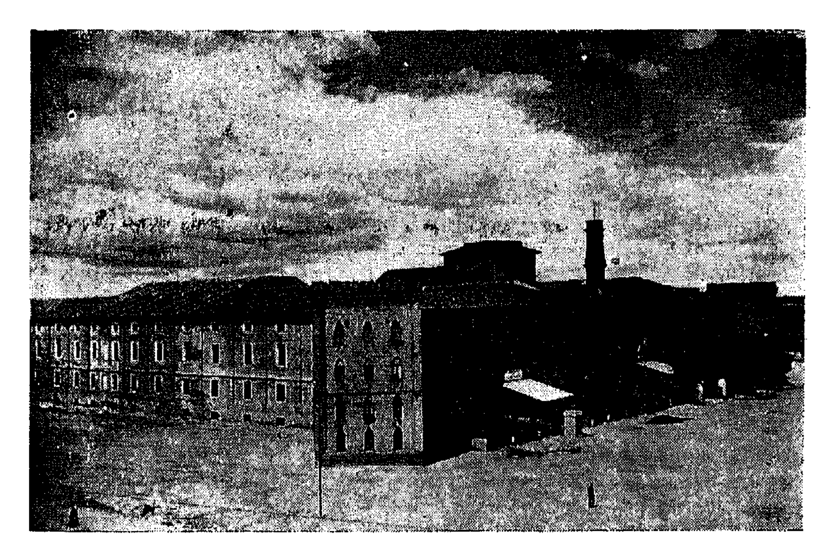
سرقسطة . واجهة قصر الجعفرية القديم حسبما يظن من خطط ورسوم قديمة

الذهبية البديعة ، والذى كان يسمى لذلك بالبهو الذهبى أومجلس الذهب ، وفيه يقول منشوءه المقتدر :

قصر السرور ومجلس الذهب　　بكما بلغت نهاية الطرب

لو لم يحز ملكى خلافكما　　لكان لدىّ كفاية الأرب

ولما سقطت سرقسطة فى يد الإسبان ، شوهت معالم هذا القصر البديع ، كما شوهت معالم معظم الصروح والقصور الأندلسية الأخرى . وقد تعاقب عليه ملوك أراجون ، أيام كانت سرقسطة عاصمة المملكة ، بالتغيير والتبديل . ثم جاء من بعدهم الملكان الكاثوليكيان فرديناند وإيسابيلا ، ثم فيليب الثانى ، وقد أحدث أولئك جميعاً ، تغييرات وإضافات فى هذا القصر الأندلسى ، حتى غدا مزيجاً من طرازات مختلفة ، من القرن الثالث عشر حتى القرن السادس عشر . وفى القصر كثير من آثار الملكين الكاثوليكيين ، وفيه بالأخص عدة من شعارهما الملكى ، تبدو فيه رموز اسبانيا المتحدة . وفيه أيضاً لوحة تذكارية بمولد إيسابيلا ملكة البرتغال فى سنة ١٢٧٢م . وقد كانت هذه الأبهاء والقاعات الملكية تؤلف المسكن الملكى ، يدل على ذلك فخامته وسقوفه المذهبة .وكان ملوك أراجون وملكاتها ، يتوجون فى هذا الصرح الملكى ، فى حفلات باذخة .



سرقسطة . منظر عام لقصر الجعفرية كما هو الآن



سرقسطة . كنيسة العمود ، والميدان المطلة عليه

وفى سنة ١٤٨٥ ، اتخذ ديوان التحقيق الأرجونى مركزه فى هذا الصرح. ويوجد فى الجانب الأيمن من القصر ، برج منيع ذو سلم عريض وغرف جانبية من الحجر الصلد . وكانت هذه المخادع الصخرية تستعمل سجناً للمتهمين ، كما أن حفلات « الأوتو دا فيه » "Auto-da-fe" كانت تقام فى الفناء الخارجى ، ومنه يخرج المحكوم عليهم إلى الميدان ، حيث ينفذ فيهم حكم الإعدام حرقاً .

ثم استعمل منذ أواخر القرن الثامن عشر ثكنة عسكرية ، وهدمت أسواره القديمة ، وأزيل مصلى پيدرو الرابع ، وقضى بصفة نهائية على محاسنه وبدائعه العربية . يقول الأستاذ مورينو : « وهو عمل بربرية من أشد ما وقع فى تاريخنا خزيا » [١] . وقد نقلت من مخلفاته إلى متحف مدريد ، قطع من العقود والزخارف البديعة ، ورؤوس الأعمدة التى كانت بالبهو الذهبى [٢] .

ويستعمل قصر الجعفرية الآن أيضاً مخزناً للسلاح ، وقد رأينا فيه كميات وافرة من البنادق والمدافع .

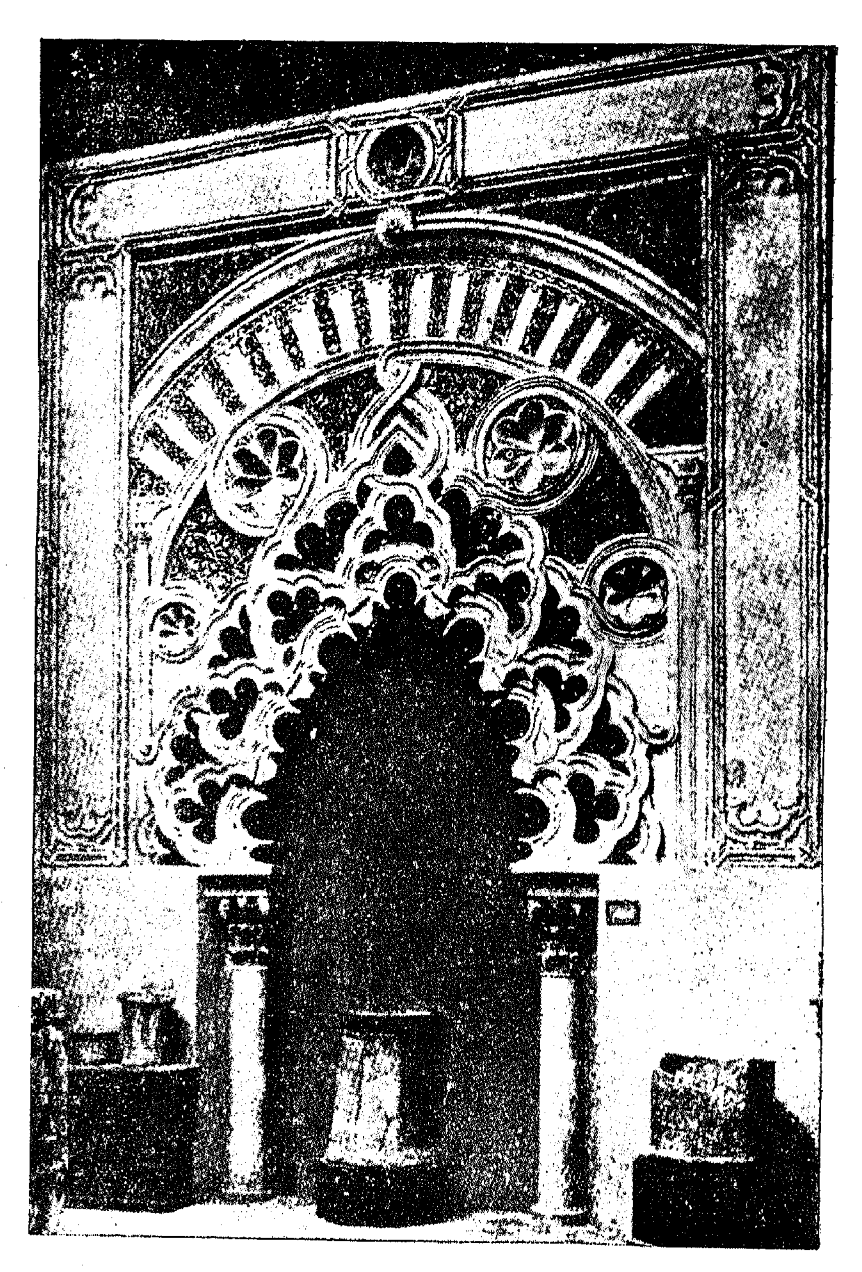
آثار أخرى

ومن الآثار الأندلسية القليلة فى سرقسطة ، العقد العربى الكبير المسمى « عقد العميد » "Arco del Déan" ، وهو يقع فى حى الكنائس ، على مقربة من الكنيسة الشهيرة المسماة « لاسيو » فى درب عتيق ، وهو عبارة عن أربعة عقود ضخمة متوالية يفصل كل منها عن الآخر نحو خمسة أمتار ، وبذلك يبلغ طول الممر كله ١٥ متراً ، وارتفاعه نحو سبعة أمتار ، وقد شيد فوقه مبنى عتيق . وإلى جواره أيضاً مبنى آخر مماثل ، عليه مسحة طراز عربى . ولا يوجد فى سرقسطة أى أثر آخر يحمل الطابع العربى الخالص سوى هذا العقد .

---

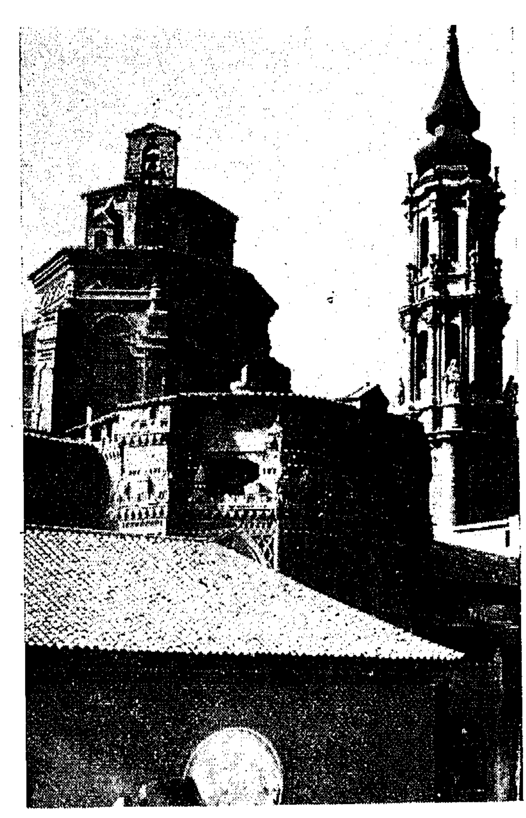
(١) الأستاذ جومث مورينو فى كتابه السالف الذكر : (El Arte Arabe Espanol) وهذه عبارته الإسبانية التى يندد فيها بما أصاب هذا الأثر الإسلامى القديم : "Acto de barbarie de lo más senalados en desdoro de nuestra historia" (ص ٢٢١) .

(٢) هذا ، وقد نشر الأستاذ ف . إنيجيث ألمش F. Iniguez Almech رسالة عنوانها : Así fué la Aljaferia (Zaragoza, 1952) « هكذا كان قصر الجعفرية » جمع فيها عدة تخطيطات ورسوم تاريخية مما عمل لمواقع قصر الجعفرية وأجنحته فى عصور متعاقبة ، كما ضمنه عدة صور لبعض عقوده وزخارفه الموجودة بمتحف مدريد ، وعدة رسوم متخيلة لبهوه الذهبى ومحرابه وواجهته . وقد نقلنا هنا بعضها .



سرقسطة . عقد زخرفى من عقود قصر الجعفرية القديم محفوظ بمتحف مدريد الوطنى

أما كنيسة « لاسيو » "La Seo" هذه ، التى يقع وراءها العقد العربى ، فهى أقدم كنائس سرقسطة ، ومعنى اسمها « الكنيسة العظمى » . وقد أقيمت فوق موقع المسجد الجامع القديم . وكان فى هذا الموقع كنيسة رومانية قديمة وقت الفتح ، فحولها المسلمون إلى مسجد ، وفى عهد بنى هود وسع المسجد ، وحول إلى مسجد جامع عرف « بالجامع الأبيض » . فلما دخل النصارى سرقسطة ، حولوا مسجدها الجامع فى الحال إلى كنيسة ، وسلمها ألفونسو المحارب فاتح سرقسطة ، إلى الرهبان البرناردين . ثم أنشأ بها المصلى والهيكل (سنة ١١١٨م) . ومع أن كنيسة « لاسيو » ليست هى كنيسة سرقسطة العظمى (الكتدرائية) ، فإنها تحتل المكانة الأولى بين كنائس سرقسطة .



سرقسطة . الكنيسة العظمى (لا سيو)

وتقع الكتدرائية على مقربة من « لاسيو » ، فى صدر الميدان الكبير ، وتسمى « كنيسة العمود » "Sta Maria del Pilar" وهى حديثة نوعاً إذ يرجع بناؤها الحالى إلى أواخر القرن السابع عشر ، وهى شاسعة منيرة . ويقال إنه كان يقوم فى مكانها كنيسة بهذا الاسم ، حينما افتتح المسلمون سرقسطة . ويقول المستشرق كوديرا فى بحث وضعه فى هذا الموضوع ، إن موسى بن نصير حينما دخل سرقسطة فى سنة ٧١٣ م ، أمر بتجريد هذه الكنيسة من أبنيتها وتحفها(١) .

(١) Fr. Codera : Despojo de la Sta Capilla de Nuestra Sra del Pilar de Zaragoza por Muza en el ano 713 . (V. La Lectura Católica 1879).

وهذه الكتدرائية الفخمة ، تطل واجهتها الخلفية على نهر إيبرو ، ويقع إلى جانبها الأثر المسمى « لونخا » "La Lonja" أعنى قاعة المعاملات التجارية .

وإلى جوار الكتدرائية من الناحية اليسرى ، يقوم البرج الأثرى المسمى "La Zuda" (لاثودا) ، وهو عبارة عن برج وحيد للأجراس ، بنى على الطراز المدجنى ، ويشبه المنارة فى مجموعه ، وهو يرجع إلى عصر قديم جداً .

وإلى جانب هذا البرج ، توجد بقية صغيرة من أسوار عتيقة ، يقال إنها بقية من الأسوار الرومانيــة أو العربية القديمة .

وقيل لى حينما كنت فى سرقسطة ، إنه يوجد قبو فى منزل خاص ، يقع فى شارع سرقسطة الكبير ، المسمى شارع كوسو "Coso" ، توجد به بقايا حمامات عربية ، ولكنى لم أستطع مشاهدة هذا الأثر .



سرقسطة . عقد « العميد »

وقد رأيت فى متحف سرقسطة ، قسما صغيراً للآثار الإسلامية ، يحتوى على عدة عقود وزخارف ولوحات زخرفية ، أخذت من قصر الجعفرية ، ولكنى لم أعثر فيها على كتابات عربية . ويوجد بهذا القسم أيضاً مصحف صغير قديم ، أو هو جزء من مصحف ، وخاتم ، ومفتاح حديدى ضخم ، يبدو أنه كان مفتاحاً لباب أحد الحصون أو المنازل الكبيرة ، وجرة عربية كبيرة بلا زخارف ولا كتابات :

كما أنه توجد صفحة وحيدة من الورق ، كتبت عليها ستة عشر سطراً ، هى عبارة عن آيات قرآنية .

ضوء على تاريخ المدجنين

بيد أنه توجد فى كتدرائية سرقسطة ، مجموعة من وثائق عربية ، تلقى ضوءاً على تاريخ المدجنين وأحوالهم فى مملكة أراجون ، منذ القرن العاشر الميلادى إلى القرن الخامس عشر . وهى عبارة عن ستة عشر وثيقة ، كلها عقود بيع وشراء ووديعة وغيرها ، عقدت بين أفراد من المدجنين ، وبين المدجنين والنصارى ؛ وبها وثائق محررة بتواريخ متأخرة فى سنتى ١٤٨٤ و١٤٩٦ م . ويستفاد من تلاوتها أن المدجنين فى مملكة أراجون ، كانوا إلى هذا العصر المتأخر ، وحتى بعد سقوط غرناطة فى يد الإسبان ، يحتفظون بدينهم الإسلامى ، وأنه كانت ماتزال ثمة بعض مساجد قائمة فى بعض أنحاء ولاية سرقسطة . وقد استعرضنا محتويات بعض هذه الوثائق . فى كتابنا « نهاية الأندلس ، وتاريخ العرب المتنصرين »[١] .

---

(١) راجع الطبعة الثانية من هذا الكتاب ص ٤٩ و٥٠ .

٢ — تطـــــيلة

Tudela

وتقع مدينة تُطيلة شمال غربى سرقسطة ، على قيد سبعين كيلومتراً منها ، على الضفة اليسرى لنهر إيبرو ، وفى منتصف الطريق بينها وبين بنبلونة . وهى مدينة متوسطة الحجم ، تمتد فوق بسيط أخضر ، ومن ورائها التلال . وهى مستطيلة الرقعة يخترقها شارع طويل ضخم تتفرع منه شوارع جانبية ضيقة ، ويقع النهر إلى يمينها ، وهو واسع تغطى ضفته الحدائق الغناء .

وقد سقطت تطيلة فى يد النصارى ، قبيل سقوط سرقسطة بعام أو اثنين ، فى سنة ١١١٧ م (٥١١ هـ) .

وليس فى تطيلة آثار أندلسية ظاهرة ، ولكن الأبحاث الأثرية الأخيرة ، أثبتت أن كتدرائية تطيلة ، قد أقيمت فوق أنقاض المسجد الجامع ، وهو الذى أقامه موسى بن موسى بن قسىّ فى القرن التاسع الميلادى ، وكان يضارع فى الفخامة مسجد سرقسطة ، الذى كان يسمى « المسجد الأبيض » . وتبين أيضاً من الأبحاث الأثرية فى مكان « المقدس » بهذه الكنيسة ، أنه لما جددت الكنيسة فى أواخر القرن الثانى عشر ، استعملت فى تجميله عقود من سقف جامع تطيلة ؛ كما أنه توجد بها نافذة ذات قوسين توأمين ؛ وبها من أعمدة المسجد ، عمود كامل ، وعدة رؤوس أعمدة ، كبيرة وصغيرة .

* * *

وعلى مقربة من مدينة تطيلة ، تقع بلدة « روطة » "Rued" ، وقد كانت أيضاً من قواعد مملكة سرقسطة الإسلامية . وهى تقع فى أسفل الجبل فوق بقعة صخرية حصينة على ضفة نهر خالون أحد أفرع الإيبرو الجنوبية . وبها كنيسة حسنة. وتفصلها عن تطيلة منطقة وعرة قفرة . وقد اشتهر حصن روطة بمناعته أيام المسلمين فى حروب « الثغر الأعلى » ، وكان فى عهد بنى هود ، ملاذا وملجأ لأمراء بنى هود يهرعون إليه وقت الخطر الداهم ، من ثورة داخلية أو هزيمة حربية أو غيرها . وكانت روطة بعد سقوط سرقسطة ، منزل عبد الملك بن هود الملقب بعماد الدولة ، ثم ولده سيف الدولة المستنصر بالله ، وهو آخر سليل حكمها من بنى هود ، وقد تنازل عنها لألفونسو ريمونديس ملك قشتالة فى سنة ٥٣٤ هـ (١١٣٩م).

٣ — لاردة

Lérida

كانت لاردة أيام العصر الإسلامى ، من قواعد ولاية « الثغر الأعلى » التى كانت عاصمته مدينة سرقسطة . ونظراً لوقوع « الثغر الأعلى » ، بعيداً عن الحاضرة الأندلسية (قرطبة) ، فقد كان ولاته وأمراؤه فى كفاح دائم مع النصارى المحيطين به من الشمال والشرق والغرب .

ولما انهارت الخلافة الأندلسية ، وقامت دول الطوائف ، قامت مملكة بنى هود فى سرقسطة وما حولها من القواعد ، مثل وشقة ولاردة وتطيلة وإفراغة وطرطوشة وطرّكونة . ولكن هذه المملكة الإسلامية الصغيرة ، لم تثبت طويلا أمام هجمات النصارى المستمرة ، فأخذت قواعدها تسقط فى أيديهم تباعاً . وسقطت لاردة فى يد كونت برشلونة رامون برنجار الرابع ، فى سنة ٥٤٤ هـ (١١٤٩ م) ، وعبر واليها المسلم ابن هلال البحر ، ملتجئاً إلى أمير ميورقة .

وتقع لاردة غربى ثغر برشلونة ، على قيد نحو مائة وخمسين كيلومتراً منها ، وتفصل بينهما منطقة تغلب عليها الوعورة ، وتكثر فيها الجبال العالية . ومع ذلك فإن هذه الهضبة تغطيها الخضرة والأشجار المختلفة ، وتتخللها البسائط من آن لآخر ، غاصة بالزروع والكروم .

وفى ظاهر لاردة ، تكثر البسائط الخضراء ، وغابات الزيتون والكروم والبقول اليانعة ، وتظلها الجبال من ورائها فى الأفق البعيد .

ولاردة مدينة كبيرة مستطيلة الرقعة ، تمتد على الضفة اليمنى لنهر « سجرى » أحد أفرع نهر إيبرو ، ويشرف عليه شارعها الرئيسى ، وهو شارع « الكوديليو » بأشجاره الظليلة ، ويخترقها من الوسط « الشارع الكبير » "Calle Mayor" ، وهو شارعها التجارى الذى يغص بالمتاجر والمقاهى ، ومنه تتفرع الشوارع الجانبية إلى الداخل ، صاعدة من الجانب الآخر نحو الربوة الصخرية ، التى تقع عليها أطلال القصبة الأندلسية والكتدرائية القديمة .

وهذه القصبة هى كل ما تحتويه لاردة من الآثار الأندلسية ، وتسمى بالحصن "El Castillo". وهى عبارة عن مجموعة من الأطلال الخربة ، تقوم فوق بقية أسوار

قوية عالية ، يبدو أنها كانت أسوار القصبة الخارجية ، المتصلة بأسوار المدينة، ولا يوجد منها فى السطح الأعلى سوى عقدين كبيرين ، بدت عليهما مظاهر العفاء؛ ويوجد إلى جانب هذه الأطلال الباقية من قصبة لاردة ، ثكنة عسكرية يبدو أنها تحتل الساحة السفلى التى كانت للقصبة الأندلسية .


لاردة . أطلال القصبة الأندلسية

وتقوم فوق نفس الربوة ، تجاه أطلال القصبة ، أطلال الكنيسة العظمى القديمة ، المقول بأنها تقوم فوق موقع مسجد قديم . وهى قوطية بيزنطية، وقد شيدت فى أوائل القرن الثالث عشر . ومما يلفت النظر أن عقودها وجدرانها ، تحمل كثيراً من الزخارف المدجنية الشبيهة بالعربية، مما يدل على أن أثر الفن الإسلامى ، كان ما يزال قوياً فى هذه المنطقة ، فى القرن الثالث عشر .

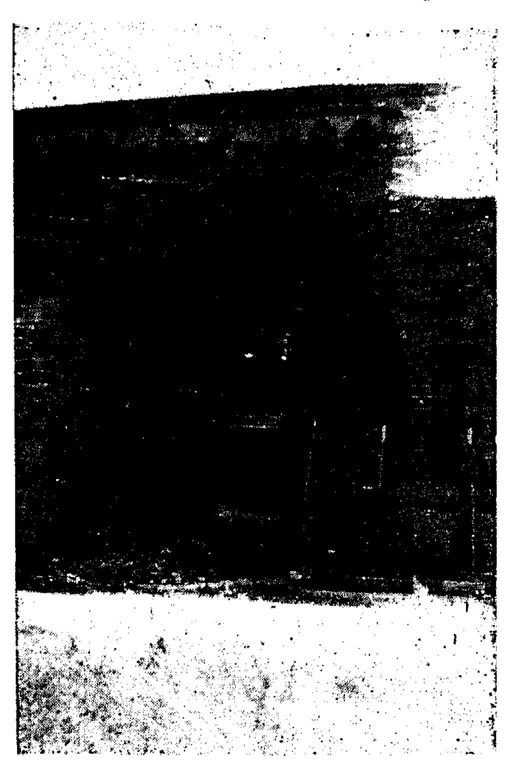
وإذا صح أن كتدرائية لاردة القديمة ، تقوم فوق أنقاض مسجد القصبة القديم ، فإنه يبدو أن هذه القصبة ، كانت تضم فى نفس الوقت الحصن والقصر ، وأنها كانت مقر الأمير أو الحاكم المسلم .

ويوجد فى لاردة بضعة كنائس قديمة أخرى ، تقع بالأخص فى المنحدر النازل من الربوة ، إلى داخل المدينة مثل كنيسة "La Zuda" ، التى يظن أنها شيدت فوق أنقاض مسجد قديم ، وكنيسة "La Anunciata"، وبها زخارف مدجنية . كما يوجد بها المارستان القديم ، وهو بناء يرجع إلى القرن الخامس عشر.

ولم نشاهد على نهر سجرى أثراً لقنطرة عربية قديمة . والظاهر أن القنطرة العربية

قد اندثرت منذ بعيد . وتقوم مكانها اليوم على النهر قنطرة حديثة جداً .

وتقدم لاردة إلى جانب أحيائها القديمة . ذات الشوارع العتيقة المزدحمة . التي تتجه من الشارع الكبير نحو الربوة . طائفة من الأحياء الحديثة التي تشقها شوارع جميلة منسقة .



لاردة . أحد عقود القصبة الأندلسية

وتحيط بالمدينة بسائط فسيحة من الحقول اليانعة والحدائق الغناء . وقد علمت من محادثاتي مع بعض العارفين . أن نظام الري الذي يسود ولاية لاردة كلها . مازال يقوم على نفس النظم والمنشآت التي وضعها المسلمون .

وقد رأينا بعض طوائف الغجر في لاردة . وكذلك رأينا الغجر على مقربة من بلدة «إسبولا» "Espula" القريبة . يقيمون في حمى سور صخري في شعب الجبال .

ويبلغ سكان لاردة أكثر من أربعين ألف نسمة .

٤ — طرّكونة

Tarragona

تقع مدينة طرّكونة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط ، جنوب غربى برشلونة ، وتبعد عنها نحو مائة كيلومتر . وتبدو المنطقة الواقعة بين برشلونة وطركونة ، مما يلى شاطئ البحر ، من أجمل المناطق الإسبانية ، تغلب عليها الخضرة ، وتكثر بها الحدائق اليانعة ، وكثير من نواحيها يقصده الناس للاصطياف والتنزه ، وتوجد التلال والآكام على جانبيها ، ولكنها تبدو أيضاً فى معظمها خضراء ، تغطيها أشجار الزيتون ، وتكثر بها حدائق الكروم الأرضية ، ويبدو شاطئ البحر على مقربة من طركونة ، بسيطاً أخضر تغطيه الأشجار ، ومحاصيل الذرة والقطن والخروع وأشجار الزيتون .

أما المنطقة التى تقع بين لاردة وطركونة ، فهى بالعكس منطقة وعرة نوعاً ، تكثر فيها التلال والربى الصخرية . بيد أن البسائط تتخللها فى نفس الوقت ، تغطيها الكروم والزروع وغابات الزيتون . فإذا اقتربت من طركونة ، بدت هذه الغابات الزيتونية فى كثرة تلفت النظر ، ثم تعقبها قبيل المدينة غابات النخيل الجميلة .

وطركونة مدينة كبيرة ذات شوارع طويلة فسيحة ، ويشقها شارعها الأعظم المسمى « رملة القائد الأعظم » "Rambla del Generalisimo" ، الذى تظله الأشجار اليانعة . وهى تقع على منحدر صخرى يمتد حتى البحر ، وتشرف عليه إشرافاً بديعاً ، ومن أسفل الربوة ، تقع على خليج مستدير ذى لسان يمتد داخل البحر ، ومن ورائه خليج آخر تحف به الجبال . ومن الناحية الأخرى تشرف المدينة على واد أخضر ، تحده بعد ذلك سلسلة من الجبال العالية .

وتبدو طركونة فى ثوب مدينة أوربية متوسطة ، وتمزج كمعظم المدن الإسبانية بين القديم والحديث ، وتضم إلى جانب أحيائها الحديثة ، وشوارعها الفسيحة ، طائفة من الأحياء الصخرية الضيقة ، ذات المبانى العتيقة الطراز ، ومن بينها حى صغير يسكنه الغجر . ويبدو النخيل فى بعض منازل المدينة على النحو الأندلسى ، كما يبدو فى بعض أطرافها ومنحدراتها .

وقد سقطت طركونة فى أيدى النصارى فى وقت مبكر ، وانتزعها من المسلمين برنجار الثالث كونت برشلونة ، فى سنة ٤٧٢ هـ (١٠٨٩ م) .

وكان لطركونة أيام الرومان شأن ، وكان يقصدها بعض الإمبراطرة للاصطياف بضواحيها الجميلة ، ومازال هذا الطابع الرومانى يغلب عليها من الناحية الأثرية ، فكل ما تضمه حتى اليوم من الآثار القديمة ، يرجع إلى العصر الرومانى .

وفى مقدمة هذه الآثار الأسوار الرومانية ، وهى أسوار ضخمة عالية يبلغ طولها نحو كيلومتر ، وهى تقع على مقربة من الكنيسة العظمى ، وقد شيدت من أحجار ضخمة ، وليس بها أبراج ، وهى تبدو رائعة المنظر .

ويغص متحف المدينة بالقطع الأثرية الرومانية ، وقد ذكر لى مديره أنه لاتوجد فى طركونة ، أية لوحات أو نقوش عربية من أى نوع ، وأن كل مافيها من الآثار يرجع إلى العصر الرومانى .

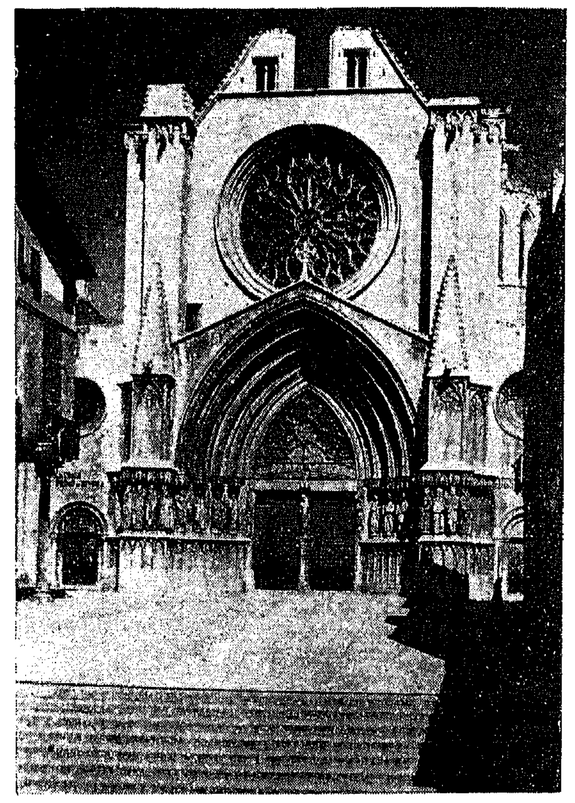
وكنيسة طركونة العظمى (الكتدرائية) ، هى صرح عظيم فخم ذات واجهة رائعة ، وقد بنيت على الطراز الرومانى القوطى ، وبدئ بإنشائها فى أواخر القرن الثانى عشر ؛ ومن المرجح أنها بنيت فوق موقع مسجد طركونة الجامع ، يدل على ذلك قدمها ، وموقعها فى وسط المدينة القديمة . ويوجد فى أحد أروقة الكنيسة الداخلية على مقربة من المدخل ، الأثر الأندلسى الوحيد الذى يوجد فى طركونة ، وهو عبارة عن محراب رخامى صغير يبلغ طوله نحو متر وربع وعرضه نحو ثمانين سنتيمترا ، وقد ثبت فى مكان عال من جدار الدير ، وفى إفريز عقده من الجانبين ومن أعلى كتابة كوفية ، هذا نصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم بركة من الله لعبد الله عبد الرحمن أمير المؤمنين أطال الله بقاه مما أمر بعمله على يدى جعفر فتاه ومولیه ستة تسع وأربعين وثلث مایة ».

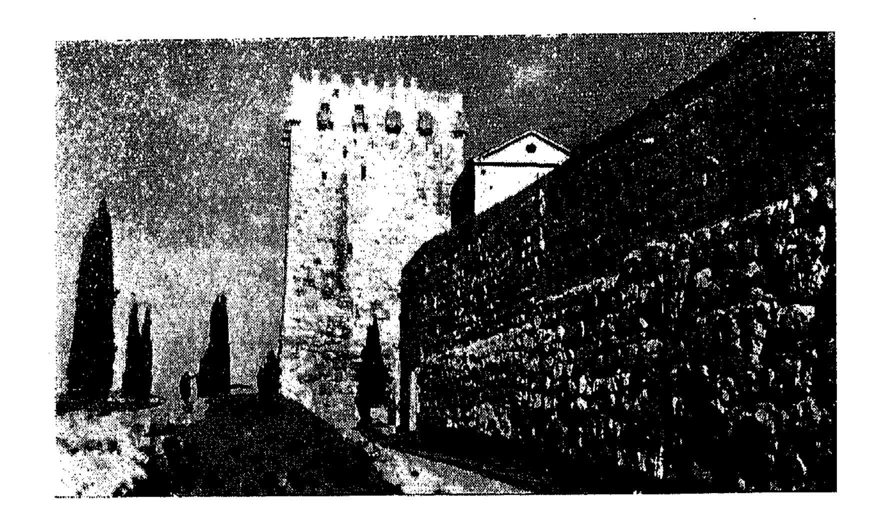
ومن المرجح أن هذه اللوحة ، تتعلق بأعمال أو إصلاحات أجريت فى جامع طركونة ، الذى أقيمت فوق موقعه الكنيسة ، وذلك بأمر الخليفة عبدالرحمن الناصر .

كذلك يوجد فى متحف الكنيسة العظمى ، إنجيل عربى لاتينى مطبوع فى القرن السابع عشر .

ويبلغ سكان طركونة أربعة وثلاثين ألفاً .



طركونة . واجهة الكنيسة العظمى



طركونة . الأسوار الرومانية

٥ - طرطوشة

Tortosa

تبعد مدينة طُرْطوشة نحو خمسين كيلومتراً من طرّكونة ، وتقع على نهر إيبرو (إبرة) الذى يشق ولاية أراجون كلها ، على مقربة من مصبه فى البحر الأبيض المتوسط .

وهى تشغل رقعة كبيرة شبه مستديرة ، وتحف بها الجبال عن كثب ، وتضم من السكان سبعة وأربعين ألفاً . ويشقها النهر نحو نصفين ، النصف الأيمن أو الشرقى ، ويشمل الأحياء الراقية والمصالح والمتاجر الهامة ، والنصف الأيسر أو الغربى ، ويشمل الأحياء المتوسطة والمتواضعة ، كما يشمل عدداً من المزارع النضرة . والتربة هنا وافرة الخصب ، وتنمو بها الذرة والكروم والحدائق النضرة ، وتوجد حقول الأرز على النهر بكثرة ، وكذا تبدو غابات النخيل كثيفة ساحرة .

وتبدو طرطوشة من الناحية العمرانية مدينة أوربية حديثة ، لا يبدو فيها ما يذكرنا بماضيها الإسلامى ، بيد أنه يلاحظ أن فى أطرافها المجاورة لأطلال القلعة ، توجد شوارع قديمة ضيقة صخرية صاعدة ، ولا سيما من ناحية الكنيسة العظمى . ويلوح لنا أن المدينة الأندلسية كانت تشغل بالأخص هذه المنطقة على يمين النهر ، خصوصاً متى ذكرنا أن الكنيسة العظمى تشغل مكان الجامع القديم . وقد كان يقوم عادة فى وسط المدينة .

وقد سقطت طرطوشة فى أيدى النصارى ، قبيل سقوط لاردة بقليل فى سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٨ م) . وكانت فى أواخر عهدها الإسلامى مثوى للمجاهدين والمغامرين ، من رواد الحملات البحرية ، التى تثخن فى شواطىء الأمم النصرانية المجاورة . فدعا البابا إلى تأليف حملة صليبية لفتحها ، واجتمعت قوات النصارى من الإسبان والبيزيين والجنويين وفرسان المعبد ، بقيادة الكونت رامون برنجار الرابع أمير برشلونة ، واضطر المسلمون إلى تسليم المدينة صلحاً فى آخر سنة ١١٤٨ م ، مشترطين الاحتفاظ بمساجدهم وأملاكهم . ولكنهم لم يستطيعوا الاحتفاظ بمساجدهم ، أكثر من ثلاثين أو أربعين عاماً ، ثم اضطروا إلى تسليمها لحكامهم الجدد .

وليست فى طرطوشة آثار أندلسية ذات شأن ، ولكن أطلال قلعتها التى تسمى "La Zuda" (السودا) تمت بلا ريب بصلة إلى العهد الإسلامى ، وهى عبارة عن مجموعة كبيرة من الأطلال من أسوار وبقايا أبراج ، تشغل مساحة كبيرة ، فوق ربوة عالية ، تقع فى وسط المدينة ، وتشرف من الخلف على النهر . ويرجع الأثريون أصل هذه القلعة إلى العصر الرومانى . ولكن المرجح أنها جددت واستعملت خلال العصر الإسلامى ، وكانت تؤدى وظيفة القصبة الأندلسية من الناحية الدفاعية ، وموقعها يعاون فى تقصى خطط المدينة الأندلسية.

وتقع الكنيسة العظمى (الكتدرائية) فى وسط المدينة ، على مقربة من القلعة ، وهى كنيسة قديمة تمتاز بواجهتها وزخارفها الداخلية ، ويتقدمها دير يلفت النظر بصحنه ، المبنى على الطراز القوطى العربى . والمعروف من تاريخ هـذه الكنيسة ، التى ترجع إلى القرن الثالث عشر ، أنها أنشئت فوق موقع جامع طرطوشة ، الذى بنى فى أوائل القرن العاشر الميلادى ، وأن كثيراً من أنقاض الجامع استعملت فى بنائها .

طرطوشة . واجهة الكنيسة العظمى

ومما يلفت النظر فى شأن هذه الكنيسة ، أنه قد ثبتت فى جدارها الخلفى من الخارج ، لوحة حجرية إسلامية مربعة تقريباً ، ضلعها نحو خمسين سنتيمتراً ، وقد نقشت عليها عشرة سطور من الكتابة العربية التى محيت نوعاً وهذا نصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أمر بإنشاء هذه الدار عدة للصناعة والمراكب ،

عبد الله عبد الرحمن أمير المؤمنين أيده الله فتم بناؤها على يد قائده وعبده عبد الرحمن ابن محمد ، بعون الله ونصره ، فى سنة ثلث وثلثين وثلث مائة وكتب عبد الله ابن كليب . . » .

وقد رأيت من هذه اللوحة صورة من الجص فى متحف طركونة ، وأخرى مماثلة فى متحف طرطوشة ، وعلمت من مدير متحف طرطوشة الدكتور بايرّى ، أنه لاتوجد فى طرطوشة ، أية لوحات أو نقوش عربية أخرى ، أو وثائق عربية من أى نوع .

* * *

وقد اشتهرت طرطوشة فى عهدها الإسلامى بنشاطها العلمى والثقافى ، وإليها ينتسب أبو بكر الطرطوشى صاحب كتاب « سراج الملوك » المتوفى سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) . وهو من كتب السياسة الملكية المشهورة .

وهى مازالت تحتفظ اليوم بسمعتها الثقافية القديمة ، وفيها يقوم مرصد طرطوشة الشهير .

ويقع هذا المرصد على الضفة الأخرى من النهر ، فى طرف المدينة الغربى ، على ربوة عالية بجوار الدير ، ويشرف عليه الآباء اليسوعيون . وبه قسم للطبيعة وآخر للكيمياء ، وثالث للأرصاد الجوية ، وقد جهز كل قسم منها بأحدث الآلات العلمية الدقيقة ، وأنشئت به مكتبة علمية عظيمة .

وقد استقبلنى فيه الأب الشاب أوريول كردوس ، وطاف بى مختلف أقسامه ، وأطلعنى على عمل الآلات المختلفة .

ويتبع هذا المرصد من الناحية الإدارية « المجلس الأعلى للعلوم » فى مدريد ، ويعد الطلاب لنيل الدكتوراه فى العلوم . ولكن ليس به طلاب منتظمون ،وإنما يعمل فيه الآباء والعلماء فقط . وهو على صلة بسائر مراصد العالم ، ومنها مرصدنا المصرى بحلوان ، وبه أحدث الأجهزة لرصد الزلازل ، وحركات الشمس ، وكثافة الأمطار ، والحرارة ، والأرصاد الجوية ، وغيرها .

وإنما عنيت بذكر هذه الكلمة عن مرصد طرطوشة ، للتدليل على نواحى النشاط العلمى والثقافى الممتاز ، الذى يقوم به الآباء فى مختلف الميادين .



طرطوشة . أطلال القصبة الأندلسية



طرطوشة . فناء الدير المجاور للكتدرائية ذو العقود العربية

٦ — ميـــورقة

Mallorca

حرصت على أن أعبر البحر إلى جزيرة ميورقة كبرى الجزائر الشرقية (جزائر البليار) ، وأن أقضى فيها أياماً ، أتقصى آثار العصر الإسلامى فى تلك الجزيرة الكبيرة الساحرة .

وكان عبورى إلى ميورقة بطريق الجو ، وقد أتاحت لنا الطائرة ، وهى تجوب الجزيرة على ارتفاع منخفض نوعاً ، أن نشهد سطح الجزيرة عن قرب ، وأن نتعرف مجمل خواصها الطبيعية .

إن جزيرة ميورقة تغلب على سطحها الصفة الصخرية ، وخصوصاً من أطرافها ؛ فهذه الأطراف هى هضاب تغلب فيها الجبال والربى ، وفى المناطق الوسطى توجد وديان منبسطة ومنحدرات خضراء . ويحتوى محيط الجزيرة على خلجان عديدة ، منها ما يصلح مرافئ بديعة لإيواء السفن . وتغطى الأشجار الباسقة وغابات الزيتون ، معظم البسائط والمنحدرات بالجزيرة ، يحوطها على مدار الشاطئ سياج صخرى أصفر ، وجبال ذات آكام متوسطة الارتفاع .

وإلى جانب جزيرة ميورقة ، توجد جزيرة مِنُورقة "Menorca" ، وهى تقع فى شمالها الشرقى ، ويابسة "Ibiza" وتقع فى جنوبها الغربى ، وعدة أخرى من الجزائر الصغيرة .

ويبلغ سكان الجزائر الشرقية كلها نحو ثلاثمائة وثمانين ألف نسمة . وهذه الجزائر بالرغم من غلبة الهضاب على طبيعتها ، غنية بالرقاع الخصبة ، وفيما خلا مدينة ميورقة ، فإن معظم سكانها يحترفون الزراعة . ويجود بها القمح والكتان والفواكه ، ولاسيما التين والبرتقال ، ومن أعظم صادراتها زيت الزيتون ، حيث تغطى غابات الزيتون مساحات واسعة منها .

وعاصمة الجزائر كلها هى مدينة ميورقة ، أو مدينة پالما دى ميورقة كما تسمى بالإسبانية . وهى تقع فى غرب ميورقة ، على خليج يتخذ صورة القوس ، وفى منتصفه لسان يحمى الميناء ، وفى جانبه الأيمن تمتد المدينة فى لسان طبيعى ، وفى شمال

القوس ، وفى طرفه تنساب أحياء المدينة الكبيرة . وتبدو الجبال عن بعد تظلل البسائط الخضراء ، التى تلى المدينة من الشرق والشمال ، ويحيط هذا السور الجبلى بموقع المدينة من طرفى القوس .

ومدينة ميورقة مدينة ضخمة ، يبلغ سكانها مائة وخمسين ألفاً . معظمهم من القطلان . ويؤلف القطلان أغلبية بين سكان الجزائر الشرقية . وهم أيضاً أغلبية فى مدينة برشلونة العظيمة وأحوازها . ويلاحظ أن القطلان جنس أرقى مدنية وثقافة ، وأكثر حيوية وإنتاجاً من الإسبان ، ولهم لغة وآداب خاصة . والمدينة قسمان . فأما قسمها الذى يشغل طرفى القوس فيقع فى بقاع مستوية ، وتشقه شوارع وميادين ضخمة ، ويبدو عليه طابع الجدة والحداثة .



ميورقة . منظر عام للمدينة والميناء

وأما قسمها الآخر ، وهو الذى يشغل الوسط ، ويمتد من البحر شمالا ، فيقع معظمه فوق مرتفع من الأرض يمتد صاعداً حتى يستوى فى نهاية المدينة ، وتخترقه شوارع عديدة ضيقة ، يبدو عليها طابع العصور الوسطى . ولاغرو فى هذا القسم توجد معظم معالم ميورقة الأثرية ، وتوجد به أيضاً معظم الأحياء التجارية ، وتتمركز معظم حركة الأعمال .

وكانت الجزائر الشرقية قبل العصر المسيحى ، فى يد المستعمرين القرطاجنيين ،

ثم الرومان ، وعرفها العرب فى عصر مبكر قبل افتتاح الأندلس ، وغزاها عبد الله بن موسى بن نصير سنة ٧٠٨ م . بيد أن المسلمين لم يبسطوا سيادتهم على تلك الجزائر قبل منتصف القرن التاسع الميلادى ، حينما بعث عبد الرحمن بن الحكم أمير الأندلس ، حملة بحرية إلى ميورقة فى سنة ٨٤٧ م أخضعتها ، وفرضت عليها الجزية . وفى سنة ٩٠٣ م كان الفتح الحقيقى للجزائر على يد زعيم مجاهد يدعى عصام الخولانى ، قاد فى عصر الأمير عبد الله ، حملة من المجاهدين ، وافتتح ميورقة . واستعمرها المسلمون وحكموها من ذلك الحين على يد الولاة المتعاقبين. وفى سنة ١٠١٤ م افتتحها مجاهد العامرى أمير دانية ، وضمها إلى مملكته المستقلة ، واستمر فى حكمها حتى وفاته فى سنة ١٠٤٤ م . وسميت مدينة ميورقة فى عصره مدينة مجاهد ، وحكمها ولده على من بعده حيناً ، ولما سقطت مملكة دانية فى يد بنى هود أمراء سرقسطة فى سنة ١٠٧٦ م ، استردت الجزائر استقلالها فى ظل ولاتها من المسلمين ، واستمرت إمارة مستقلة ، تصارع حملات النصارى المتعاقبة عليها من الجنويين والبيزيين والقطلان ، حتى سقطت نهائياً فى أيدى النصارى بقيادة ملكهم خايمى الأول ملك أراجون الملقب بالفاتح ، وذلك فى سنة ١٢٣٢ م (٦٣٠ ﻫ) .

وكانت الجزائر الشرقية أيام المسلمين ، ولا سيما كبراها ميورقة عامرة بالسكان ، غنية زاخرة ، تتمتع بقسط كبير من الرخاء والتمدن . وكانت لها علائق تجارية عظيمة مع ثغور المغرب .

* * *

ولنعد الآن إلى مدينة ميورقة عاصمة الجزائر ، ومستودع الآثار والذكريات الأندلسية ، فنقول إنها ما زالت تحتفظ بكثير من معالم العصر الإسلامى وآثاره ، وإن كانت هذه المعالم والآثار ، تكاد تختفى اليوم تحت أثواب التجدد أو أثر الإهمال والعفاء .

وما زالت ثمة بعض المعالم الأثرية ، تحدد لنا مواقع المدينة الأندلسية . وقد كان هذا الموقع يمتد من البحر شرقى الميناء شمالا حتى نهاية المدينة الحالية ، وشرقاً حتى ميدان الفتح "Plaza de la Conquista" ، وميدان إسبانيا "P. de España" وشارع بريمو دى رڤيرا ؛ وغرباً حتى شارع الجمهورية الفضية : وتشغل هذه

الرقعة بالضبط وسط مدينة ميورقة الحالية ، وهو الجزء الواقع فوق الرقعة المرتفعة ، التى تطل من جنوبها على البحر ، عند الكنيسة العظمى وبقية الأسوار الأندلسية .

وقد كان للمدينة الأندلسية فى العصور الوسطى ، ستة أبواب وردت أسماؤها جميعاً ، فى وثيقة تقسيم ميورقة العربية اللاتينية التى نتحدث عنها فيما بعد ، وهى « باب البلد » فى الشرق ، و« باب الكحل » و« باب البلياط » و« باب السراجب » فى الشمال ، و« باب برتبين » فى الغرب ، و« باب الحديد » فى الجنوب الغربى مما يلى البحر . وكان يخترق المدينة الأندلسية من وسطها الشارع الكبير ، وهو الذى يحتل مكانه اليوم « شارع الفاتح » ، ثم « الميدان الكبير » "P. Mayor" ، ثم شارع سان ميجيل حتى « باب البلياط » فى الشمال .

المعالم الأثرية

وتقوم كنيسة ميورقة العظمى فوق موقع المسجد الجامع ، على مقربة من البحر ، تجاه « القصر » الذى نتحدث عنه بعد ، وتسمى الكتدرائية أو "La Seo" ، وقد أسست عقب افتتاح النصارى لميورقة ، فى أواسط القرن الثالث عشر . والمعروف أن مصلاها المسمى « بالمصلى الملكى » "Capilla Real" وهو أقدم أجزائها ، يقوم فوق جزء المسجد الذى كان به المحراب . وهى كنيسة عظيمة مبنية على الطراز القوطى ، وقد استغرق إنشاؤها بضعة قرون ، ويسمى بابها الذى يطل على ناحية البحر « باب المنظرة » "Puerta del Mirador" ، وهو عقد قوطى شاهق .

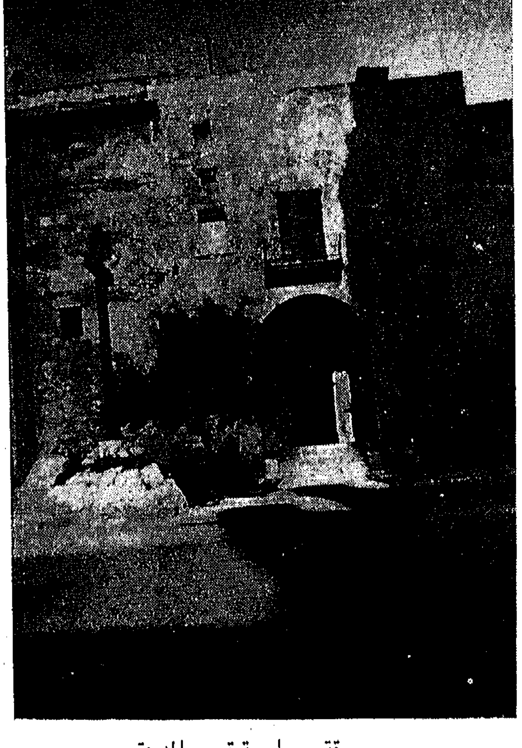
وتوجد فى ميورقة خلاف الكنيسة العظمى ، عدة كنائس أثرية أخرى ، فى مقدمتها كنيسة القديس ميجيل "San Miguel" ، الواقعة فى الشارع المسمى بهذا الاسم ، على مقربة من « الميدان الكبير » . والمعروف من تاريخها أنها كانت مسجداً ، وحول إلى كنيسة عند دخول النصارى الفاتحين المدينة .

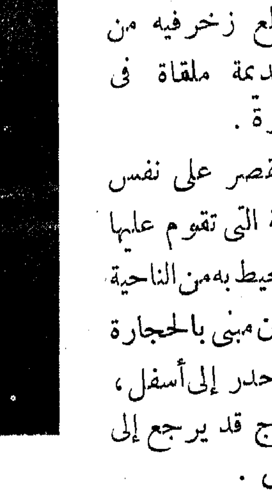
كما يوجد ديرسان فرنيسسكو ، وقد أنشىء فى أواخر القرن الثالث عشر ، وله صحن ذو عقود على الطراز الأندلسى .

قصر المُدَينة : "Almudaina" وهو صرح قديم ضخم ، يقوم قبالة الكنيسة العظمى من ناحية الغرب ، وهو اليوم مقر القيادة العسكرية ودار المحفوظات العامة . وتدلى واجهته العتيقة ، وبناؤه الوعر الحصين ، بأنه كان حصناً وقصراً .

والمعروف من تاريخه أنه كان قصراً للولاة والأمراء المسلمين ، شيد فوق أنقاض صرح رومانى قديم ، واستمر مقراً لهم حتى سقطت ميورقة فى يد النصارى ، وعندئذ غدا صرح « المُدَّينة » مقاماً للملوك النصارى ، وعدل بناؤه وغير مراراً ، حتى صار إلى وضعه الحاضر .

وفى داخل قصر المدينة فناء كبير مربع ، ذو عقود عربية من الناحيتين ، وفى وسطه النخيل على الطراز الأندلسى . ولم يبق فى هذا الصرح العتيق من عهده الأندلسى سوى القليل ، من ذلك فى فنائه الداخلى الذى يسمى « فناء الملكة » نافذتان لها عقود عربية ، وحوض نافورة عربى الطراز ، وهيكل عقد عربى يقوم فى أعلى الجدار فى أحد ممراته . وتوجد أيضاً عدة قطع زخرفيه من أعمدته القديمة ملقاة فى الحديقة المجاورة .

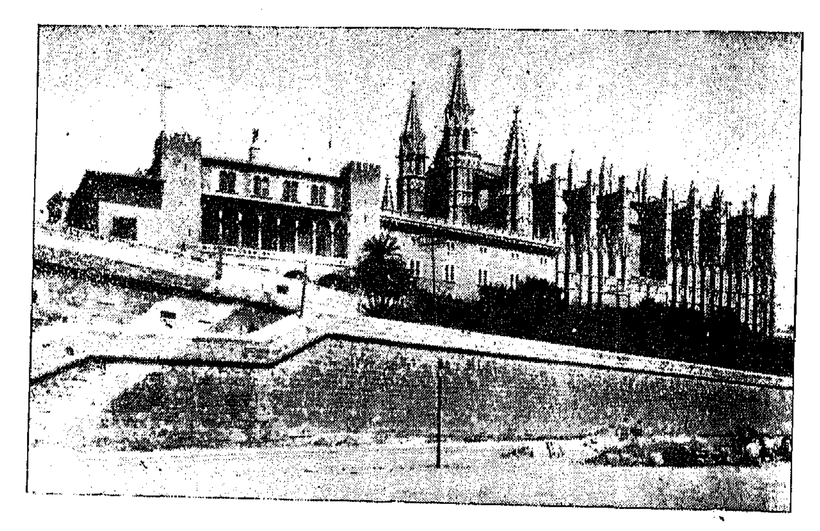




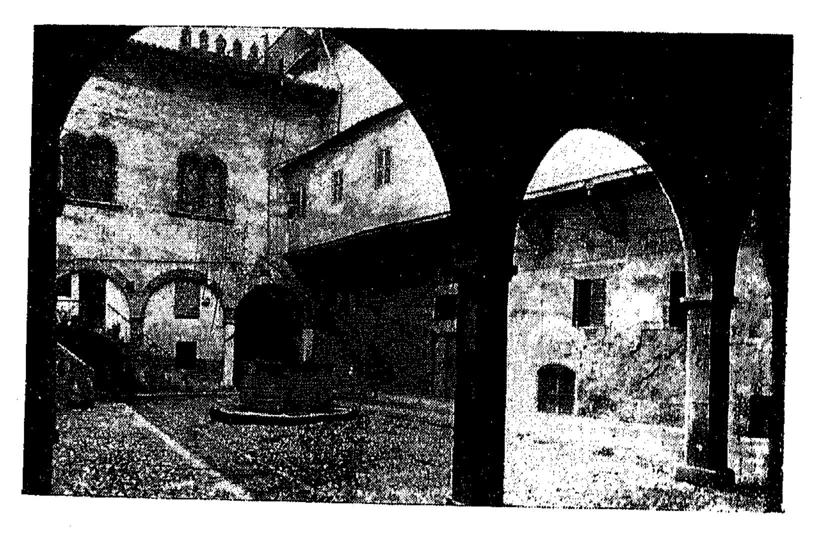
ميورقة . واجهة قصر المدينة

ويقوم القصر على نفس الربوة المرتفعة التى تقوم عليها الكتدرائية ، ويحيط به من الناحية اليمنى سور حصين مبنى بالحجارة الضخمة ، منحدر إلى أسفل ، وفى نهايته برج قد يرجع إلى العصر الأندلسى .

وعلى ذكر الأسوار نقول إنه لم يبق من أسوار المدينة الإسلامية ، سوى الجزء الذى يقع جنوب الكتدرائية على البحر ، ويحمى ساحتها المطلة عليه والمسماة « بالمنظرة » ، وبقية أخرى فى الناحية الشرقية ، فى الشارع المسمى « باب البحر » على مقربة من موقع « باب البحر » القديم . وفى هذه الجهة توجد أيضاً قلعة عربية صغيرة ، تقع فى ميدان المعبد "P. de Temple" القريب ، كان يحتلها « فرسان المعبد » عقب الفتح النصرانى .



ميورقة . الكنيسة العظمى وقصر المدينة ، وقد ظهرت بقية الأسوار العربية مشرفة على البحر



ميورقة . فناء الملكة داخل قصر المدينة

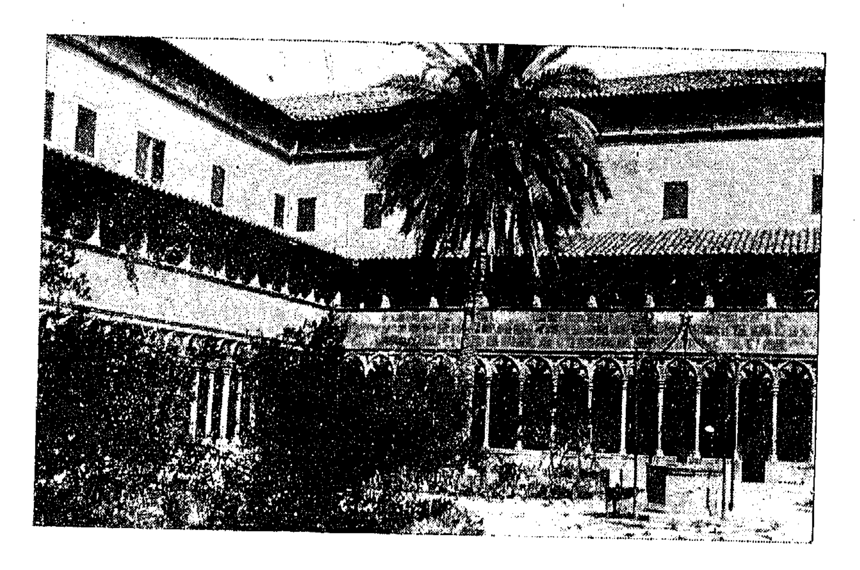
عقد المدينة : ولم يبق من عقود الأبواب الأندلسية القديمة سوى عقد « باب المُدَينة » وهو يقع فى وسط شارع المدينة "C. Almudaina" . ويعتبر هذا الشارع الصخرى العتيق من أقدم شوارع ميورقة ، وهو بقية ظاهرة من المدينة الأندلسية حيث يبدو طرازه الأندلسى ، فى شكله وفى منازله من الجانبين ، وفى أبوابها ذات العقود العربية .

وأما عقد المدينة فهو عقد حجرى ، يبلغ سمكه من الداخل مترين ، وارتفاعه نحو ثمانية أمتار ، واتساعه أربعة ، وهو اتساع الشارع ، وتعلوه غرفة حجرية ذات كوة صغيرة . وفى هذا الشارع تقع عدة منازل قديمة ، ترجع إلى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، وبها أفنية وشرفات ونوافذ يغلب عليها الطابع الأندلسى . ويوجد فى هذا الشارع أيضاً متحف صغير ، هو متحف الجمعية الأثرية المسماة « لوليانا » ، وقد شاهدنا فيه رأس محراب عربى له عمودان رفيعان من الرخام ، وبضعة شواهد أو قطع من شواهد قبور إسلامية ، على بعضها نقوش كوفية باسم المتوفى أو عام وفاته .



ميورقة . عقد باب المدينة

ويفضى شارع المدينة إلى شبكة من الدروب العتيقة الضيقة ، مثل شارع مورى "Morey" ، وشارع سرا "Serra" ، وشارع « النقاء » ، "Pureza" ، وهى كلها من طراز شارع المدينة ، وكلها تدل بأنها كانت من أحياء المدينة الأندلسية القديمة .



ميورقة . فناء دير سان فرنسيسكو ذو العقود العربية



ميورقة . حصن بلڤير (المنظر الجميل)

الحمامات العربية : وفى إحدى هـــذه الشوارع وهو شارع سرّا ، تقع الحمامات العربية ، وهى بقية خربة مشوهة من حمامات أندلسية ، يبدو عليها أثر الاحتراق ، وهى عبارة عن مربع فى كل ضلع من أضلاعه ، ثلاثة عقود. وتحتوى جميعاً على اثنى عشر عقداً رفيعة ، وتعلوه قبة صغيرة قد جردت من نقوشها ، ولم نر بها أية نقوش أوكتابات ، لأن النار قد أتت على قشرتها الخارجية . وفى وسط الفناء فجوة كبيرة قديمة .

وتقع هـــذه الحمامات داخل حديقة منزل خاص ، هو منزل السيد پيدرو موريل "Don Pedro Morel" ، والمقول أنها ترجع إلى القرن الحادى عشر الميلادى أو الخامس الهجرى .

فى المتحف الأسقفى : ويحتفظ المتحف الأسقفى "Museo Diocesano" ، بلوحة حجرية من العصر الإسلامى حجمها نحو ٥٠ × ٣٠ سنتيمتراً ، وهى عبارة عن شاهد قبر لمن يدعى سليمان بن منصور ، وعليه كتابة كوفية ساذجة جداً ، وقد كادت تمحى وهذا نصها :

«بسم الله الرحمن الرحيم . يا أيها الناس إن وعد الله حق . هاذا قبر سليمن بن منصور رحمة الله عليه ومغفرته ورضوانه ، إنه توفى اليوم الأحد لست وعشرين يوماً خلون من ذى القعدة من سنة سبع وخمسين وثلث مائة » .

وتوجد فى الطابق الأعلى لهذا المتحف قطعتان كبيرتان من الخشب ، طول كل منهما نحو خمسة أمتار وعرضها متر ، وقد زينتا بنقوش مدجنية ، على شكل نجوم مضلعة ، بارزة فى إحداهما ، ومحفورة فى الأخرى .

كما توجد قطعة خشبية أخرى ذات زخارف مدجنية ، وأطباق خزفية جميلة مذهبة من عصر الوريسكيين ، وأباريق خزفية أندلسية .

وعلمت أنه توجد ببلدة ماناكور لوحة حجرية أخرى ، قد نقش عليها « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » .

الأثر المسمى باللونجا "Lonja" : وهو عبارة عن قاعة قوطية كبيرة ، على شكل صحن الكنيسة ، تقع فى شارع « ساجريرا » "Paseo Sagrera" الضخم الممتد على طول البحر ، والذى يتوسطه صفان من النخيل المثمر ، وهو يرى بكثرة فى شوارع ميورقة وميادينها .

وقد كانت اللونخا فى العصور الوسطى ، كمثيلاتها فى كثير من المدن الإسبانية ، تستعمل للتعامل والبيع والشراء ، وهى اليوم تستعمل متحفاً للصور . وقد رأينا من بينها صورة بريشة سوريانو موريليو ، يصور فيها أبا عبدالله آخر ملوك الأندلس وهو سائر فى ركبه مع أمه وزوجته وابنته ، على مقربة من غرناطة ، فى الموضع الذى يسمى إلى اليوم « زفرة العربى الأخيرة » ، وهو يبكى وأمه تنحى عليه باللائمة « لأنه يبكى كالنساء ملكاً لم يستطع أن يدافع عنه كالرجال » .

ويوجد فى ضاحية ميورقة ، الحصن المسمى حصن « المنظر الجميل » "Belver" وهو يقع على ربوة تطل على المدينة . وله فناء ذو عقود ، ويتكون من طابقين بيضاويين ويطلان على الفناء ، وله برج عال . وهو من إنشاء الملوك النصارى ، أنشأه الملك خايمى الأول فى بداية القرن الرابع عشر .

وثيقـــــة عربية

بتقسيم أراضى ميورقة

وتحتفظ دار المحفوظات البلدية بمدينة ميورقة ، بوثيقة عربية وحيدة ترجع إلى عصر الفتح النصرانى ، وهى عبارة عن عقد أو اتفاق لتقسيم الأراضى بمدينة ميورقة بين زعماء النصارى الفاتحين ، يتكون من تسع ورقات مستطيلة (حجمها نحو ٣٠ × ١٥ سنتى) ، وأمام كل صفحة مقابلها باللغة اللاتينية واللغة القطلونية ، ويكون المجموع كراسة كبيرة مستطيلة . وتعرف هذه الوثيقة فى تاريخ ميورقة ، بكتاب أوعقد تقسيم ميورقة "Repartimiento de Mallorca"

وتعنى الوثيقة أولا ببيان الأقسام المختلفة وأصحابها على النحو الآتى :

١ — القسم الخاص بالأقماط وشركائهم فيه .

٢ — ويقسم هذا القسم إلى أربعة أقسام يعطى كل قسم منها إلى الآتين :

(ا) قمط ننوا جزين (ب) بيشُب برشلونة وشركاوه (ج) القمط أنبرياش (د) جليام ماجوره وشركاوه . ثم تعود الوثيقة فتبين هذه الأجزاء تباعاً بالتفصيل (ورقة ١ و ٢) .

وتتحدث الوثيقة بعد ذلك عن تقسيم « جميع الأراضى التى بخارج المدينة » إلى قسمين : الأول « وهو النصف الواحد الذى صار إلى الرى رغون وشركايه ».

ثم تسمى الأعيان الداخلة فى هذا القسم ، وتقسمه بعد ذلك إلى أربعة أقسام . وتعدد الأعيان والمزارع الداخلة فى ذلك .

ثم تقول « وقسم رابع منها وهو الربع الواحد الذى صار لحليام ماجوره » .

ثم « القسم الرابع الواحد الذى صار إلى القمط أنبرياش » .

تقول « ويقسم جميع ما بمدينة ميورقة ، على ثمانية أقسام تحت صورها » « قسم وهو النصف الواحد ... وهو الذى صار إلى الرى رغون وشركايه ، من صعد المليون إلى مسجد عبد الملك إلى جنة المصامدة ... » .

وقسم « وهو النصف الواحد أيضاً ، ويحوزه من صور المدينة من برج الحمام على الطريق من باب المدى إلى المسعنى ، وحفير الصور إلى برج الحمام ، بمقربة مخزن الضيان ، إلى الوادى إلى باب البلياط بطول الصور إلى باب المدى .

« وقسم ثانى منها وهو الربع الواحد الذى صار للبشب برجلونة وشركايه فيه ، ويحوزه من مسجد الزنقة إلى دار الحاج داود إلى قنطرة باب الغدر إلى الصور إلى باب الحديد » .

« وقسم ثالث منها وهو الربع الواحد ، وصار لحليام ماجورة منقاده وفرسانه شنجيشه وأصحابهم ، ويحوز من حايط رياض أبو يحيى الملاصق باب البلياط بطول شارع الكدية إلى مسجد بريقة ، إلى دار الحاج داود إلى باب الغدر من ناحية الحوف» .

ويرد خلال تحديد البقاع والأماكن المقسمة ، كثير من أسماء الخطط والأعيان والضياع الميورقية فى العهد الإسلامى ، مثل رحى الشجر . رحى الدب . رحى السفاح . رحى اللوزة . رحى ابن مدرك . جنان الصباغ . جنان الطرطوشى . رحل الصفار . رحل ابن الأصفر . رحل ابن قطيعة . رحل بشير . رحل الفخار . . الخ

ومن أسماء الأبواب : باب الكحل . باب البلد . باب البلياط . باب المدى .

وجاء فى صفحة ١٢ من الوثيقة فى الثلث الأول منها ما يأتى :

« لما وقع الاتفاق على أن تقسم جميع أراضى جزيرة ميورقة بخارج باب البلد على نصفين سويين ، وينقسم كل نصف على أربعة أقسام ، وقع الاتفاق على أن يبقى من خوز الأحواز للمدينة من الواد اليابس إلى رحل المعبرة بقطين إلى الرابطة بمربين إلى حد رحل القرازة . . » .

وتحدد الوثيقة بعد ذلك الأقسام « التى صارت للقمط ننوا ، والتى صارت



ميورقة . الصفحة الأولى من مخطوط وثيقة التقسيم العربية المحفوظ بدار محفوظات ميورقة

للبشب برجلونة وأصحابه ، وللقمط أنبرياش وشركايه ، ولغليام اجوره منقاده وشركايه » .

وليس لهذه الوثيقة تاريخ . ولكن يستفاد من موضوعها أنها ترجع إلى ما بعد فتح النصارى لميورقة بقليل ، وقد وقع هذا الفتح بين سنتى ١٢٢٩ و ١٢٣٢ م.

ولسنا نعرف من جهة أخرى سبباً لكتابة هذه الوثيقة بالعربية ، وهى تختص بتقسيم الأملاك المفتوحة بين النصارى ، مقابل نصها اللاتينى والقطلانى ، إلا أن يكون ذلك لتعيين الأعيان والحدود بأسمائها العربية الصحيحة ، التى لم تكن قد غيرت أو حرفت بعد ، ولتعريف الأنصبة الممنوحة بدقة تنفى الاضطراب واللبس.

وعلى أى حال فإن محتويات النص العربى لهذه الوثيقة ، تلقى أعظم ضوء على خطط مدينة ميورقة الإسلامية ، وعلى حدودها ومعالمها .

وما زالت توجد إلى اليوم بجزيرة ميورقة ، عدة بلاد وقرى تحتفظ بأسمائها الإسلامية ، مثل بنى سالم أو بنى عبد السلام "Benisalem" والكدية "Alcudia"، وبنى على أو بنى العالى Beniali وغيرها ؛ كما أنه توجد أسماء ميورقية ترجع إلى أصول عربية واضحة ، مثل Bennasar وهو ابن نصر ، و Beniatzar ولعله بنى الزار أو بنى الزرع ، وغير ذلك .

ومما يجدر ذكره أنه يوجد بين سكان ميورقة بعض الغجر ، وهم يعيشون فى بعض الشوارع القريبة من الكتدرائية والقريبة من « اللونخا » . وقد علمت أنه توجد منهم أقليات تعيش فى أنحاء الجزيرة ، ولكنى لم أقف على حقيقة عددهم .

مدينة سـوليير

وقد زرنا مدينة سوليير Soller ، وهى مدينة صغيرة تقع شمالى ميورقة على مقربة من البحر ، وتبعد عنها نحو ساعة بالقطار . وهذه المنطقة التى تفصل بين البلدين ، تختلف بين البسائط والتلال ، وتنمو بها غابات الزيتون بكثرة . وتقع سوليير نفسها فى منطقة جبلية فى واد عميق تحيط به الجبال ، وهى مدينة حديثة أنيقة المظهر ، ولكن تخترقها من الجانبين شوارع ضيقة ، وتبدو بها أشجار النخيل والكروم وليس بها من الآثار ما يزار ، ولم نلمح فيها ما يذكرنا بالطابع الأندلسى سوى دروبها الضيقة الملتوية . والظاهر أن هذه البسائط الخضراء الجميلة الواقعة بين ميورقة وسوليير ، وهى التى تكون المثلث الشمالى الغربى من الجزيرة ، كانت مهبطاً طيباً للمستعمرين المسلمين .

٧ — قسطلونة

Castellon

تقع مدينة قَسْطلونة ، فى منتصف المسافة بين طرطوشة وبلنسية ، وهى إلى بلنسية أقرب ، وهذه الرقعة الساحلية التى تمتد بين طرطوشة وقسطلونة ، تختلف فى البداية من الخضرة اليانعة ومناطق الكروم وغابات الزيتون ، إلى منطقة ، تتخللها التلال ، ويغلب عليها القفر ؛ ثم تضيق الرقعة قبيل قسطلونة فيما بين البحر والجبال ، وتغلب عليها الخضرة .

وقسطلونة من مدن الأندلس الشرقية ، التى يرتبط تاريخها معظم الوقت بتاريخ بلنسية ، وهى اليوم تبدو فى ثوب مدينة أوربية حديثة ، وتشغل السهل بعد أن كانت أيام المسلمين تشغل الربوة التى تقع شمال مكانها الحالى ، ومن ثم كان اسمها الحديث وهو « قسطلونة السهل » Castellon de la Plana

وهى مدينة متوسطة الحجم ، مثلثة الرقعة ، تقع على مقربة من مصب نهر مخارس Mijares ، وتخترقها شوارع طويلة منسقة وميادين فسيحة ، ويرى النخيل فى شوارعها وميادينها ، ويبلغ سكانها خمسة وثلاثون ألفاً .

ولاتوجد فى قسطلونة أية معالم أثرية أندلسية أو غيرها ، وحتى كنيستها القديمة الرئيسية أحرقت أيام الحرب الأهلية ؛ وكل ما هنالك أنه توجد بقايا القنطرة العربية فوق نهر مخارس ، على بضعة كيلومترات من المدينة ، وهى قنطرة صخرية تحمل إليها الماء من مصب النهر ، وقد أكد لى السنيور كادينا أمين المتحف والمكتبة البلدية ، أنه لاتوجد فى قسطلونة أو أحوازها ، أية أطلال أو نقوش أندلسية أو موريسكية ، وأن المنطقة كلها فقيرة جداً فى هذه الناحية . أما المتحف فإنه يضم بقايا آنية خزفية ، وبضعة أطباق وألوان أندلسية مصححة ، عثر عليها فى حفائر قسطلونة ، ومنها ما يرجع إلى عصر الخلافة ، ويرجع باقيها إلى عصور متأخرة ، ولاسيما العصر الموريسكى ، وقد أطلعنا السنيور كادينا على هذه البقايا الخزفية ، فوجدناها خالية من كل كتابة عربية ، وليست لها أهمية أثرية تذكر .

وقد سقطت قسطلونة فى يد النصارى فى أوائل القرن الثالث عشر قبل سقوط بلنسية بقليل .

* * *

وعلى مقربة من قسطلونة ، فى طريق بلنسية ، تقع بُرّيانة Burriana ، وهى بلدة أندلسية عريقة ، وهى اليوم بلدة صغيرة حديثة المظهر والتخطيط ، وليس بها آثار تذكر . ويرى بها النخيل ، وتمتد من بعدها فى الطريق إلى بلنسية ، حدائق البرتقال اليانعة إلى مسافات بعيدة .

٨ — شاطبـــة

Játíva

كانت شاطبة من القواعد الأندلسية العريقة ، وكانت أيام المسلمين مدينة عامرة زاهرة ، وقد بكاها أبو الطيب الرندى فى مرثيته الشهيرة :

فاسأل بلنسية ما شأن مرسية   وأين شاطبةٌ أم أين جيّان

أما اليوم فإن شاطبة بلدة صغيرة متواضعة ، يغلب عليها طابع القدم ، ولايتجاوز سكانها خمسة عشر ألفاً .

وتقع شاطبة على قيد نحو خمسين كيلومتراً جنوب غربى بلنسية ، على مقربة من البحر الأبيض المتوسط ، ويمتد فيما بين البلدين بسيط جميل خصب يغص بالحقول اليانعة ، وتنمو فيه محاصيل الذرة والأرز والبقول ، وغابات الزيتون وحدائق البرتقال . وتحد الجبال هذا البسيط الأخضر من الجانبين ، ولكن على بعد شاسع . وهذه البقعة النضرة هى من أخصب ما شهدت من البسائط الإسبانية.

وقد لفت نظرى أسماء عدة من البلاد ، التى تقع فى طريق شاطبة وعلى مقربة منها ، وهى أسماء عربية واضحة مثل« الجزيرة » Alcira « والحميسى »Algemisi و« بنى فايز »Benifays «وبنى مسلم» Benimuslem و« البريق» Alberique وغيرها.

وعلى مقربة من شاطبة تبدو أشجار النخيل فى سائر القرى ، عالية مبعثرة هنا وهنالك ، وتبدو فى ظاهرها حقول الأرز بكثرة تلفت النظر ، كما تبدو حدائق البرتقال الجميلة ، وتمتد هذه المنطقة حتى مشارف المدينة . بيد أنه تتوسطها بقعة مجدبة ، تتخللها الجبال والمستنقعات . ويقع هذا البسيط الأخضر على ضفة نهر « البيضاء » Albaida ، الذى يجرى على مقربة من المدينة ، وهو أحد أفرع نهر شُقر .

وشاطبة من أقدم المدن الإسبانية ، ويرجعها التاريخ إلى عصر الفينيقيين ، وقد كانت فى العهد الرومانى مدينة عامرة مزدهرة . واحتفظت بأهميتها ورخائها أيام القوط . وزادت فى ظل العهد الإسلامى أهمية وازدهاراً ، واشتهرت بمزارعها وحدائقها اليانعة ، ولبثت من أهم قواعد الأندلس الشرقية ، تلى بلنسية ومرسية

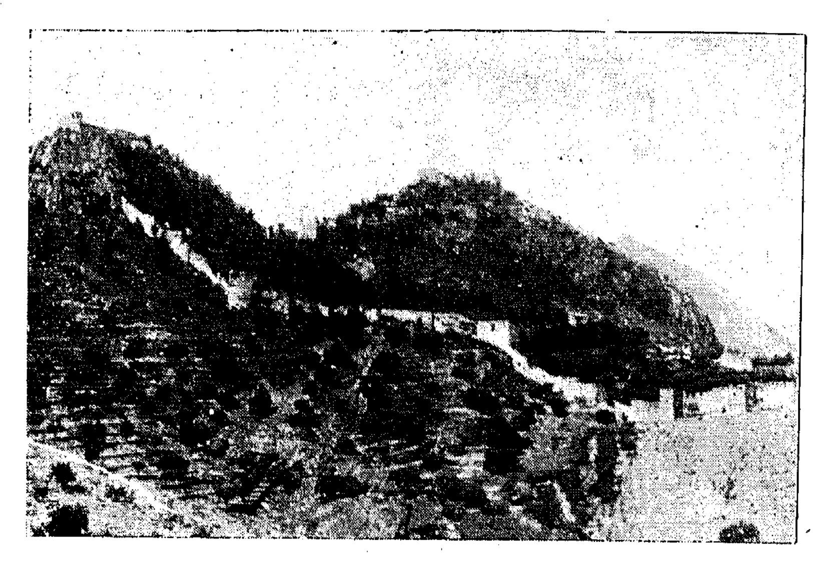
فى الأهمية حتى افتتحها النصارى ، بعد أن حاصروها مراراً متوالية ، على يد ملكهم خايمى الأول فى سنة ٦٤٧ ﻫ (١٢٤٩ م) .

وتبدو شاطبة اليوم فى ثوب مدينة أثرية ، لما تحتويه من أديرة وقصور قديمة . وهى تقع فى حمى الربوة العالية ، التى تقع عليها أطلال حصنها الشهير ، تحيط به سلسلة من التلال العالية . وهى متوسطة الحجم مستطيلة الرقعة يخترقها شارع عريض ظليل ، ومعظم شوارعها قصيرة تظللها أشجار التوت العتيقة ، وبها عدة ميادين أثرية يزدان بعضها بالنوافير والتماثيل ، وشوارعها الصاعدة المتجهة إلى الربوة ضيقة ملتوية تنم عن أصلها القديم ، ومنازلها منخفضة لا تزيد عن طابقين أو ثلاثة ، وهى تتخذ على العموم طابعاً خاصاً ، يغلب عليه القدم واللون الأثرى ، وهى من ناحية طابعها الخاص وطرازها الأثرى المخضرم ، تبدو على شاكلة قرينتها مرسية .

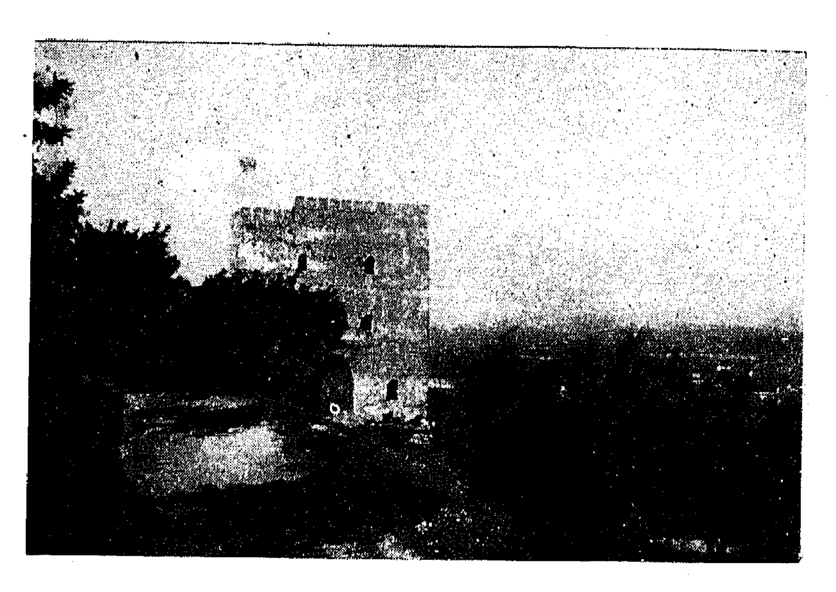
الحصن والأسوار

وأهم معالم شاطبة الأثرية ، هو الحصن الكبير الذى يشغل منطقة شاسعة ، فوق حافة الربوة الصخرية الوعرة ، التى تشرف على المدينة من ناحية الغرب ، والتى تعرف بجبل برنيسا Bernisa . وهى عالية جداً ترتفع عن البسيط الذى تقع عليه المدينة ، زهاء ألف وثمانمائة متر ، ويصعد إليها بواسطة طريق معبد تخترقه السيارة . وقد صعدت إليها برفقة الأستاذ العلامة الدكتور كارلوس سارتاو وكاريرس عضو أكادمية التاريخ ، وهو أمين متحف شاطبة ومؤرخها ، وقد كتب عن حصنها مؤلفاً تاريخياً وأثرياً قيما .

ومن التجاوز أن يقال الحصن ، إذ يوجد فى الواقع حصنان ، ومجموعة كبيرة مختلفة من الأطلال والأسوار . ويعرف أحد الحصنين بالحصن القديم Castillo Viejo ، والآخر بالحصن الجديد Castillo Nuevo. وتحيط بهذه المجموعة الأثرية أسوار واحدة . ويقع الحصن القديم ، وهو أصغر الحصنين فى الطرف الأيسر للربوة ، فوق أكمة منعزلة يصعب الوصول إليها ، وهو يرجع فيما يبدو إلى العصر الرومانى أو إلى عصر القوط . وتقع أطلال الحصن الكبير فى الناحية اليمنى ، وهى تحتوى على مجموعة منوعة من الأبواج والساحات والسلالم . وفى هذه المجموعة ،

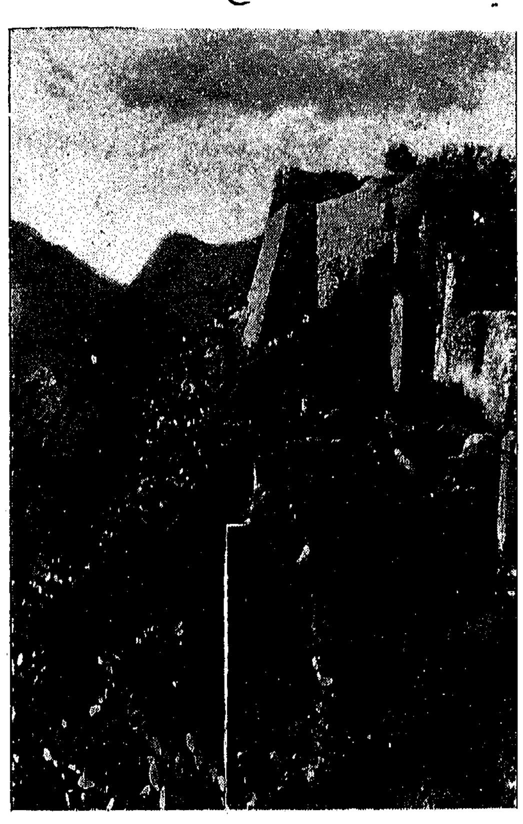


شاطبة . الجبل الذى يقع الحصن فى أعلاه



شاطبة . أحد أبراج الحصن

نلمح بعض مظاهر العمارة العربية . والمرجح من الناحية التاريخية فى شأن الحصن أو الحصنين ، أنهما يرجعان إلى العصر القديم ، وأنه قد توالت عليهما خلال مختلف العصور المتعاقبة ، من الرومان والقوط والعرب ثم الإسبان ، إضافات وتغييرات كثيرة . بيد أنه يغلب عليهما الطابع القوطى الأندلسى . وموقع الحصن الكبير على الربوة العالية المشرفة على المدينة ، شبيه بموقع القصبات الأندلسية التى سوف يأتى ذكرها ، فى مالقة وألمرية وغيرهما ، من وعورة الموقع ومنعته ، وتحكمه فى المدينة من الناحية الدفاعية .



شاطبة . أطلال الحصن

وإذاً فقد كان هذا الحصن أيام المسلمين ، هو قصبة شاطبة . ومما يؤيد صحة هذا الفرض ، أنه ما زال يوجد فى أسفل الربوة باب معقود أندلسى الطراز .

ويوجد فوق مرتفع بارز بين أطلال الحصن الكبير ، مصلى تاريخى أقامته إحدى ملكات اسبانيا ، فى القرن الخامس عشر .

كما أنه يوجد به سجن ملكى قديم ، وهو مما أنشأه فيه الملوك الإسبان ، وهو عبارة عن غرفة داخلية مظلمة شديدة المنعة . وقد سجن فى هذا المطبق ، عدة من الأمراء والأكابر الإسبان ، خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، وأحيطت سيرهم ومحنهم بطائفة من القصص المشجى .

وأما أسوار شاطبة فقد بقى منها جزء كبير ، مما يحيط بالحصن من الوراء ، وهى مزيج مما شيده الرومان والقوط والعرب ، ثم الإسبان بعد استرداد المدينة

الكنيسة العظمى : من المحقق أن كنيسة شاطبة العظمى المسماة "La Seo"، تقوم فوق موقع المسجد الجامع ، وهى تقع فى وسط المدينة من ناحيتها الجنوبية ، فى ميدان كبير . وكان الإسبان حينما استولوا على المدينة فى سنة ١٢٤٩ م ، قد حولوا المسجد كعادتهم إلى كنيسة ، ثم هدم المسجد ، وأنشئت مكانه كنيسة عظيمة فخمة فى القرن الرابع عشر ، تمتاز بزخارفها الرائعة من طراز عصر الإحياء . وفى خلال الحرب الإسبانية الأهلية ، أحرقت الكنيسة وأصابها تلف كبير ، ثم أصلحت وجددت فى الأعوام الأخيرة .

وفى ميدان الكنيسة تمثال للبابا كالكستوس الثالث ، الذى تولى عرش البابوية من سنة ١٤٥٥ إلى ١٤٥٨ م ، وهو إسبانى من أبناء شاطبة . ومما هو جدير بالذكر أيضاً أن البابا اسكندر السادس أو اسكندر بورچيا ، هو أيضاً من أبناء شاطبة ، وهو ابن أخى البابا كالكستوس ، وكلاهما من أسرة « بورخا » "Borja" الشهيرة ، التى حرف اسمها فيما بعد إلى « بورچيا » "Borgia" . ثم إن بلدة جانديا الصغيرة التى تقع على البحر شرقى شاطبة ، هى التى اتخذها اسكندر السادس فيما بعد لقباً لإمارة ابنه الكبير حيث سماه « دوق جانديا » .

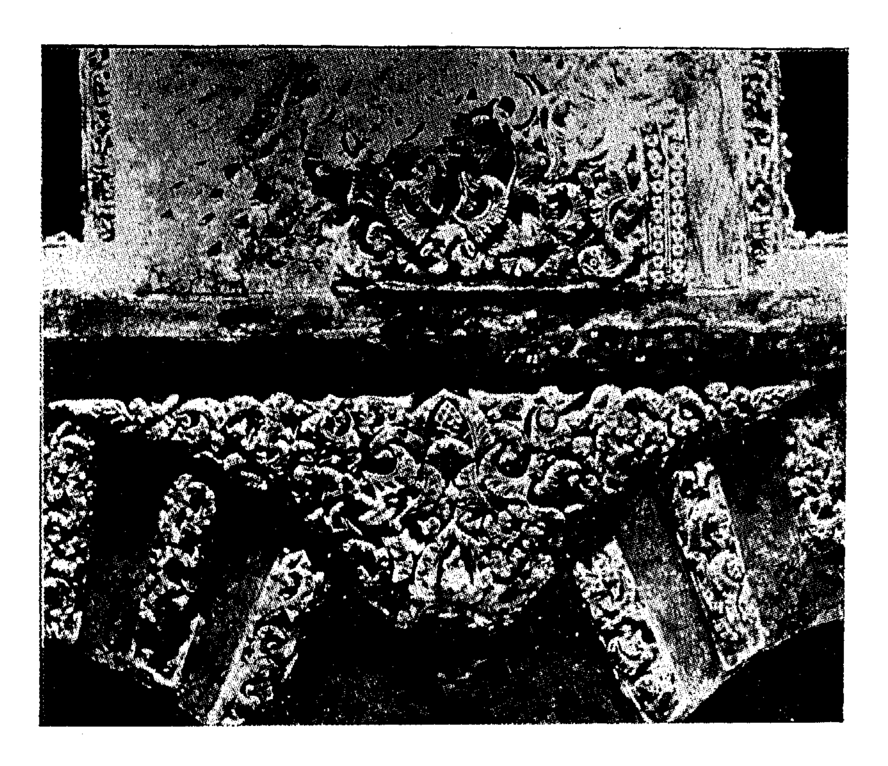
ويبدى مؤرخو شاطبة من أبنائها ، اعتزازاً فى تواريخهم ، بأن بلدهم قدمت إلى الكرسى الرسولى اثنين من البابوات وسبعة كرادلة من أبنائها .

ويوجد فى شاطبة بضع كنائس أخرى ، وعدد من الأديرة والقصور التاريخية ، التى ترجع كلها إلى العصر النصرانى .

فى متحف شاطبة : وفى شاطبة متحف يضم طائفة نفيسة من الذخائر الأثرية ، إيبرية ورومانية وأندلسية ، من تماثيل وأحواض وأحجار ونقوش ولوحات وآنية خزفية . وقد رأيت فيه التحف الأندلسية الآتية :

أولا — عقد مزدوج من الرخام وفوقه كوتان . وفى أفاريزه نقوش مدجنية من أحرف عربية ، تؤلف كلمات لامعنى لها . وقد انتهيت بعد فحصه إلى أنه ليس من آثار شاطبة الإسلامية ، وأنه من صنع عصر متأخر ونقوشه مدجنية بارعة . ويؤيد ذلك ما ذكره لى الأستاذ سارتاوو ، من أنه أخذ من قصر أحد الدوقات الإسبان .

ثانياً — يوجد أيضاً عقد عربى لحمام مكون من ثلاثة عقود وعمودين . وهو فيما يرجح من صنع أندلسى إسلامى بيد أنه لايحمل أية كتابة .



متحف شاطبة . زخارف عقد الحمام العربي

ثالثاً — والأثر الذى يلفت النظر حقاً ، هو حوض من الرخام على جوانبه نقوش وصور شبه رومانية ، تتكون من أشخاص وطيور ووحوش . وقد أكد لى الأستاذ سارتاوو أنه من صنع عربى أندلسى ، وأنه بنقوشه الفذة يعتبر قطعة نادرة من الذخائر العربية المصورة فى اسبانيا . وقد وجد فى مدينة الحامة . هذا ويوصف هذا الحوض فى دليل المتحف أيضاً ، بأنه من الآثار العربية . بيد أنى لم أقتنع بهذا الرأى.

ويوجد أيضاً فى متحف شاطبة ، عدة قطع رخامية من رؤوس أعمدة وغيرها مزينة بالزخارف العربية ، وهى من أصل إسلامى لاشك فيه .

* * *

وفى وسعنا أن نحدد معالم المدينة الأندلسية من موقع الكنيسة العظمى ، وهى تتوسط نصف المدينة الغربى ، ومن طبيعة أحيائها القديمة الواقعة فى سفح الربوة التى يقع عليها الحصن . وأما امتداد المدينة الحديث فإنه يبدو فى شطرها الشمالى ، الذى يخترقه الطريق العريض الظليل "Alameda" ، وينتهى بمحطة السكة الحديدية.

٩ – دانيـــــة

Denia

لم تكن دانية من القواعد الأندلسية المشهورة ، التى يتردد ذكرها كثيراً فى تاريخ الأندلس ، ولم يسطع إسمها إلا فى فترة قصيرة ، فى أواسط القرن الخامس الهجرى ، حينما غدت أيام الطوائف عاصمة لمملكة مستقلة .

وتقع دانية فى ركن منعزل على شاطىء البحر الأبيض المتوسط ، قبالة جزيرة يابسة إحدى الجزائر الشرقية ، وفى منتصف المسافة بين بلنسية ولقنت . ويربطها بلقنت خط حديدى خاص ، يخترق رقعة ضيقة يحدها البحر من ناحية ، وتحدها الجبال من الناحية الأخرى ، وتختلف من البسائط إلى التلال ، ومن الخضرة إلى القفر . وعلى مقربة من دانية يبدو البسيط الأخضر ، محصوراً بين الجبال من الناحيتين تغطيه غابات الزيتون ، فإذا أشرفت على دانية ، اتسعت جوانب البسيط الأخضر ، ورأيت إلى جانب أشجار الزيتون ، حقول الأرز وحدائق البرتقال والكروم ، ويمتد السهل وراء الجبال إلى مرمى البصر .

وتقع فى هذه الرقعة بلاد قليلة متباعدة معظمها من القرى البحرية ، وليس بينها بلاد كبيرة سوى ضاحية سان خوان ، وهى مصيف ذو شاطىء بديع ، وبلدة « ألتيا » . بيد أن الذى يلفت النظر حقاً ، هو أنه يوجد فى هذه المنطقة عدد من القرى ، التى ترجع أسماؤها إلى أصول عربية ، مثل بنى مرفيل ، وبنى لوبة ، وبنى دورم ، وبنى الشدوى ، وبنى جاسر ، وبنى عيسى ، وبنى دليج ، وبنى أربيج[١] . وعروبة هذه الأسماء ظاهرة بالرغم من تحريف بعضها .

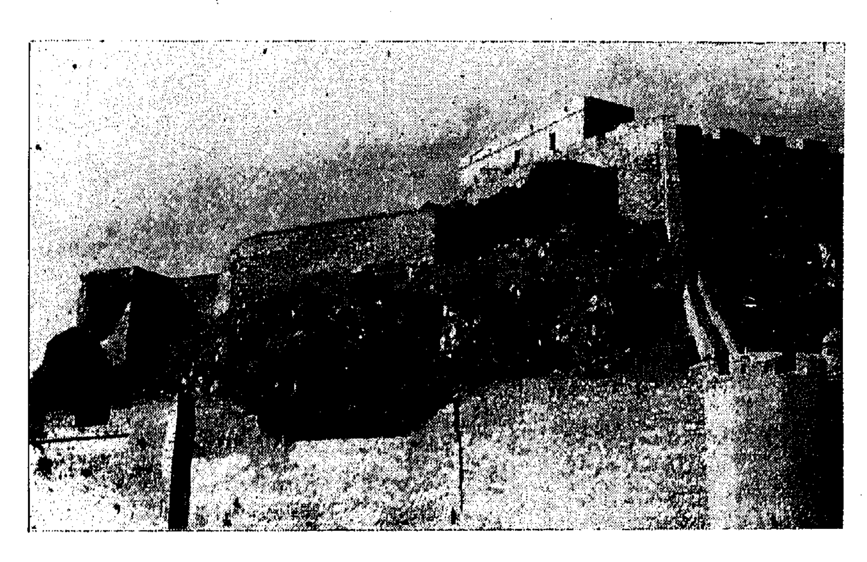
ودانية بلدة قديمة ، وكانت تعرف أيام الرومان باسم "Dianium"، وهى اليوم مدينة بحرية صغيرة لا يجاوز سكانها ستة عشر ألفاً ، ولا يكاد منظرها المتواضع ، يذكرنا بأنها لعبت فى العصر الإسلامى دوراً ذا شأن ، وكانت أيام الطوائف عاصمة

---

(١) هى بالإسبانية على التوالى : Benimarfill , Beniltoba , Benidorm , Benisadevi , Beniarbeig, Benidoleig, Benisa, Benigosar.

لمملكة عظيمة ، تضم الجزائر الشرقية « جزائر البليار » ، فيما بين سنتى ٤٠٥—٤٣٦هـ (١٠١٤ — ١٠٤٤ م) ، تحت رياسة مجاهد العامرى ، ثم ولده على الملقب بإقبال الدولة الذى حكم من بعده حتى سنة ٤٦٨ هـ (١٠٧٦ م) . وكانت دانية إبان تلك الفترة ، وحتى انتهاء الدولة المجاهدية فى سنة ١٠٧٦ م ، من أعظم قواعد الأندلس الشرقية . وكانت مركزاً هاماً لتجمع الأساطيل الأندلسية الغازية ، التى كانت تجوب مياه البحر الأبيض حتى شواطئ فرنسا ، وجزيرتى كورسيكا وسردانية.

وقد سقطت دانية فى يد الإسبان فى سنة ١٢٥٣ م ، وفقدت من ذلك الحين أهميتها ورخاءها تباعاً ، حتى أصبحت على ما هى عليه اليوم .



دانية . منظر ناحية من القصبة

وهى اليوم بلدة صغيرة عتيقة الطراز ، ذات شوارع عريضة تظللها أشجار التوت ، ولكنها ساذجة غير مرصوفة ، ويحدها البحر من ناحية مع جزء من الجبل ، ويحدها المرج الأخضر والجبل أيضاً من الناحية الأخرى ، ويبدو الطابع الأندلسى فى دروب دانية ومساكنها ذات الطبقتين أو الثلاث ، وذات السقوف المستوية والشرفات العربية ؛ ولا يرى النخيل كثيراً فى داخلها ، ولكن يرى فى خارجها . والمدينة تشرف على مرج جميل أخضر فى شكل نصف دائرة طرفها إلى البحر ، ووسطها تحت الصخرة ، وطرفها الآخر يحاذى المرج الأخضر ، وهو مرج وافر الخصب والخضرة ، وبه حدائق البرتقال والكروم وغابات الزيتون.

وأما من الناحية الأثرية فإنه يوجد فى دانية الحصن أو القصبة فيما يبدو ، وهى تقع كالعادة فوق الربوة الصخرية ، التى تشرف على المدينة من الوسط ، ويحدها البحر من ورائها ، وهى اليوم مجموعة من الخرائب المتفرقة ، ومدخلها عقد عربى ، يليه قبيل الفناء الأعلى عقد آخر قصير متدرج فى الارتفاع ، وتطل من شرق على المرج الذى يحاذى المدينة ، وفى نهايتها طلل يقال إنه يرجع إلى العصر اليونانى ، يليه طلل آخر يسمى « القصر » "Palacio" وهو خرب ، وليست به إمارات تدل على أصله العربى . ويبدو هيكل الأبراج المنيعة فى هذه المجموعة من الخرائب ، كما يوجد جزء من الأسوار القديمة المتصلة بها .

وينوه صاحب الروض المعطار بمناعة أسوار دانية ، ومناعة قصبتها[1] .

وأغلب الظن أن هذه المجموعة من الأطلال ، تعين موقع القصبة الأندلسية القديمة ، وموقع القصر الملاصق لها .

بيد أنه لايوجد فى دانية كنائس قديمة ، يمكن أن تعين إحداها موقع المسجد القديم . وأقدم كنائس المدينة ترجع إلى قرنين أو ثلاثة . أما الكتدرائية القديمة ، التى كانت بها ، أيام أن كانت دانية مركز أسقفية ، فقد دثرت ؛ ويقال إن موقعها كان بجوار الحصن .

وليس فى دانية أية آثار أخرى ، وليس بها متحف.

ولدانية ميناء كبير ، ولكنه قليل العمق ، ولا تأوى اليه سوى سفن الصيد ، والسفن التجارية الصغيرة ، التى تتردد بين دانية والجزائر الشرقية ، وبينها وبين الثغور المغربية .

---

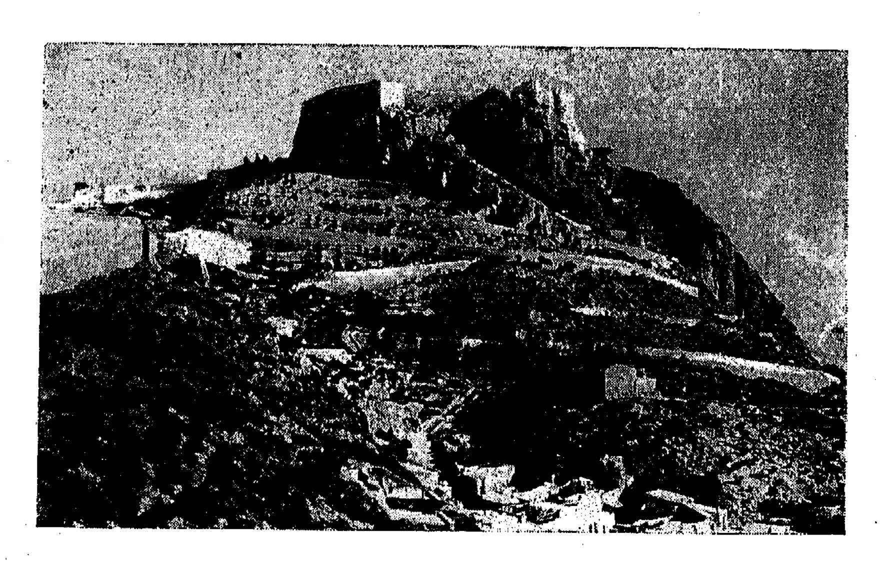
(١) الروض المعطار (صفة جزيرة الأندلس) ص ٧٦ .

١٠ — لقنت

Alicante

إن هذه البسائط المتباينة الطبيعة ، التى تمتد من بلنسية على شاطئ البحر الأبيض المتوسط حتى لقنت ، تعتبر من أجمل بقاع اسبانيا الشرقية .

وهى تختلف بين بسائط خضراء وافرة الخصب ، تغطيها حقول الأرز وحدائق البرتقال المتوالية ، وغابات النخيل ، وتظللها الجبال عن بعد ، ثم تعقبها هضبات تمتزج فيها البسائط بالتلال وبالقفر أحياناً ، وتبدو فيها غابات الزيتون والكروم الضئيلة . وتستمر هذه الطبيعة المتواضعة حتى تصل إلى لقنت .



لقنت . أطلال القصبة المسماة حصن القديسة بربارة

ولَقَنْت هى مدينة جميلة مشرقة ، تقع على خليج مستطيل على شاطىء البحر الأبيض المتوسط ، فى حمى تل ضخم يظللها من الشمال ، ويطلق عليه اسم يبدو عربى الأصل هو "Benacontil" (بنى قنديل ؟) ، وهى من أهم ثغور اسبانيا الشرقية ، لما تتمتع به من مرفىء بحرى بديع . وقد شهدنا بها حين زيارتنا لها للمرة الثانية فى صيف سنة ١٩٥٤ ، عدة من سفن الأسطول الأمريكى راسية فى مرفئها ؛

وهى مترامية الرقعة ، بيضاوية الشكل ، عليها مسحة حديثة محضة ، وتشقها شوارع كبيرة فسيحة وميادين فخمة ، ويزدان كثير من شوارعها وميادينها ، بصفوف من أشجار النخيل؛ وأهم وأجمل شوارعها هو بلا ريب شارعها البحرى الكبير ، الذى يمتد من أولها إلى آخرها على طول الميناء ، ويسمى « شارع النخيل» "Calle de las Palmas" ، وهو يزدان فعلا بصف طويل مزدوج من النخيل القصير ، وتقع فيه أهم المصالح والمتاجر والفنادق والمقاهى . وفى المساء يغدو هذا الشارع الجميل متنزه القوم ، وتبدو فيه أنوار الكهرباء معقودة بين النخيل ، فى أوضاع ساحرة .

ويبلغ سكان لقنت نحو مائة ألف وخمسة آلاف نسمة .

وتتمتع لقنت بحركة صناعية وتجارية طيبة ، وتصدر المصنوعات القطنية والصوفية . وهى إلى جانب ذلك تعتبر من أجمل المشاتى الإسبانية ، ويقصدها كثير من عشاق الدفئ من سائر الأنحاء ، إذ لا تنقص درجة الحرارة فيها فى يناير عن ثمانية عشر أو عشرين . بيد أنها فى الصيف يلفحها حر لا يطاق .

وأما من الناحية التاريخية ، فإن لقنت ترجع إلى العصر القديم ، وقد كشفت بعض حفرياتها الأثرية الأخيرة ، عن آثار تدل على أنها ترجع إلى العصر الإيبيرى . وكانت أيام الرومان تسمى مدينة « لوكنتم » "Lucentum" . ولما افتتحها المسلمون أطلقوا عليها اسم « لقنت» ، وهو الذى حرفه الإسبان إلى "Alicante" . واستمرت تحت حكم المسلمين ، حتى استردها النصارى فى عهد خايمى الفاتح فى سنة ٦٤٦هـ (١٢٤٨ م) ، بعد سقوط بلنسية بعشرة أعوام .

ولا توجد فى لقنت آثار أندلسية واضحة . ولكن توجد بعض أطلال القصبة الأندلسية القديمة ، بين أطلال حصنها الذى يسمى حصن القديسة بربارة "Santa Bárbara" . وتقع أطلال هذا الحصن على الربوة الصخرية التى تشرف على المدينة من الشمال والمسماة (بنى قنديل) ، على ارتفاع نحو ثلاثمائة متر فوق سطح البحر ؛ وهو عبارة عن مجموعة كبيرة من الأفنية والأبراج المتصلة والمتدرجة ؛ ويرجع الأثريون إنشاءه إلى العصر اليونانى ، إلى نحو سبعة قرون قبل الميلاد ؛ وقد جدده المسلمون واتخذوه « قصبة » للمدينة . وكانت قصبة لقنت فيما يبدو من أمنع القصبات الأندلسية ، وإليها يشير صاحب الروض المعطار فى كلامه عن

لقنت بقوله : « ولها قصبة منيعة جداً فى أعلى جبل يصعد إليه بمشقة وتعب »[1] .
والمعروف أن البرجين الرئيسيين فى أطلال الحصن ، هما من بقايا القصبة الأندلسية.

وليس فى لقنت آثار أخرى أندلسية أو غيرها ، سوى حصن سان فرناندو وهو حديث الإنشاء . وليست بها كتدرائية لأنها ليست مركزاً لأسقفية . وأقدم كنائسها هى كنيسة سانتا ماريا "Santa Maria" المقول بأنها تقوم فوق موقع المسجد القديم ، وهى تقع على مرتفع من الأرض ، وقد بنيت فى القرن الرابع عشر على الطراز القوطى ، ولها واجهة جميلة ، وهى صغيرة ولكن فخمة .

لقنت . واجهة كنيسة سانتا ماريا

وتحيط بهذه الكنيسة شبكة من الشوارع الضيقة الصاعدة نحو الصخرة ذات الحصن . والظاهر أن هذه المنطقة ، وهى الجزء القديم من المدينة ، تقوم على أنقاض المدينة الأندلسية القديمة.

ويوجد خارج لقنت على البحر ، غابات نخيل كثيرة ، تمتد نحو كيلو متر على مقربة من الشاطىء ، ثم تليها غابات الزيتون وحدائق التين والرمان إلى مدى طويل .

(١) الروض المعطار ، صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٧٠ .

مدينـــــة ألش

Elche

ولا نستطيع ونحن نتحدث عن لقنت ، أن ننسى ضاحيتها الجميلة « ألش »، وهى أيضاً مدينة أندلسية عريقة .

وتقع ألش فى جنوب غربى لقنت ، على قيد عشرين كيلومتراً منها . وإنك لترى قبيل ألش وعلى طولها ، أروع منظر يمكن تصوره ، من غابات النخيل المتجمعة ، فإن هذه الغابات الرشيقة الباسقة ، تمتد أميالا فى رقاع كثيفة منسقة من النخيل العالى المثمر ، الذى يقدر عدده بنحو مائة ألف نخلة ، والذى يعتبر ثمره أهم موارد مدينة ألش .

ووجود هذا النخيل فى ألش ظاهرة قديمة ، يشير إليها ياقوت عند ذكر المدينة ، ويقول لنا « وفيها نخيل جيد لا يفلح فى غيرها من بلاد الأندلس »[١] .

وألش مثل لقنت مدينة قديمة ، ترجع إلى العصر الرومانى ، وكانت أيام المسلمين مركزاً من مراكز العلم فى شرقى الأندلس ، وإليها ينتمى بعض أكابر العلماء .

ويوجد فى ألش أثر أندلسى هام ، هو البرج المسمى « برج قلهرة » ، وهو يقوم فوق باب ألش القديم .

ويوجد كذلك الصرح المسمى « بالقصر » "El Alcázar"، وقد كان قلعة من قلاع سور ألش القديم ، فحوله الملوك الإسبان إلى مقام ملكى حصين . والظاهر أنه يرجع قبل تغييره وتجديده على يد الإسبان إلى أصل أندلسى ، حسبما قد يدل عليه اسمه العربى المستعار .

---

(١) معجم البلدان تحت كلمة ألش .

١١ — أوريولة

Orihuela

تقع مدينة أوريولة بين ألش ومرسية ، على قيد عشرين كيلومتراً من شاطىء البحر الأبيض المتوسط ، فى بسيط أخضر يانع تغطيه الحقول والحدائق الغناء ؛ وتبدو فيه أشجار النخيل العالية ، وتحميها الجبال من الأمام والخلف ، وهى مستطيلة الرقعة يخترقها نهر شقورة من الوسط ، وتجمع فى طرازها بين مظاهر القديم والحديث . فأحياؤها الأمامية ما بين المحطة والنهر ، حديثة الطابع ذات شوارع واسعة ظليلة ، وأحياؤها التى تلى النهر ضيقة قديمة الطراز ، وشارعها الكبير الممتد من المحطة إلى وسط المدينة ، تظله الأشجار الباسقة من الجانبين ، وفى وسطه كورنيش جميل مرصوف ، أقيمت على جانبيه أشجار الزينة والمقاصير الجميلة .

ويبلغ سكان أوريولة زهاء خمسة وثلاثين ألفاً .

ولأوريولة فى تاريخ الأندلس قصة خاصة ، فقد كانت قاعدة لمملكة تدمير القوطية ، ولما حاصرها المسلمون عقب الفتح بعامين ، دافعت عن نفسها ببسالة ، واستطاع أميرها تيودمير أن يعقد مع عبد العزيز بن موسى أول ولاة الأندلس صلحاً ، يحتفظ فيه باستقلال مدن مملكته السبعة ، وفى مقدمتها أوريولة ، نظير دفع جزية معينة .

وكانت أوريولة بعد انهيار الخلافة الأندلسية ، وقيام دول الطوائف تتبع على الأغلب إمارة مرسية . وظلت كذلك حتى سقطت فى أيدى النصارى على أثر انهيار الأندلس الشرقية ، وسقوط بلنسية ومرسية ، وذلك فى سنة ١٢٦٢م (٦٦١ هـ) .

وتقوم أطلال القصبة الأندلسية القديمة ، فوق قمة صخرة عالية وعرة تشرف على طرف المدينة الخلفى ، وقد صعدنا الصخرة إلى أقرب نقطة ممكنة من القصبة ، وهى عبارة عن أطلال ، يبدو منها جزء من الواجهة وقواعد لبعض الأبراج ، ومن تحتها أسوار قديمة يغلب عليها البلى ، ولم يبق لهذه الأطلال الدارسة قيمة أثرية تذكر ،

اللهم إلا ما تدلى به من تحديد موقع القصبة القـــديمة . ويوجد فوق الربوة مقابل الحصن دير ومعهد ديني كبير ، ترى من شرفته المدينة من علٍ فى منظر رائع .

وإلى هذه القصبة يشير صاحب الروض المعطار فى حديثه عن أوريولة بقوله: « ولها قصبة فى نهاية من الامتناع على قنّة جبل »[١] .

وقد كانت قصبة أوريولة وأسوارها الإسلامية ، ما تزال قائمة حتى أواخر القرن الثامن عشر ، حسبما يدل على ذلك قول الغزّال حين زيارته لأوريولة : « وقد أحاط بالمدينة سور من عمل المسلمين رحمهم الله من الجهات الثلاث ، ينتهى من طرفه بجبل شاهق عليه قصبة للمسلمين أيضاً »[٢] .



أوريولة . أطلال القصبة الأندلسية فوق الجبل

ومن المعروف أيضاً أن كنيسة أوريولة العظمى ، تقوم فوق موقع المسجد الجامع ، وهى كتدرائية ولاية لقنت ، لأن أوريولة مركز الأسقفية . وهذه الكتدرائية تقع فى طرف المدينة الأيمن ، وهى صغيرة قوطية الطراز ، وليست لها مميزات فنية ذات شأن ، وبها معرض للصور يضم صورة لبلاثكث ، ويرجع إنشاؤها إلى القرن الرابع عشر .

بيد أن أقدم كنائس أوريولة هى كنيسة سانتياجو ، وهى كنيسة صغيرة

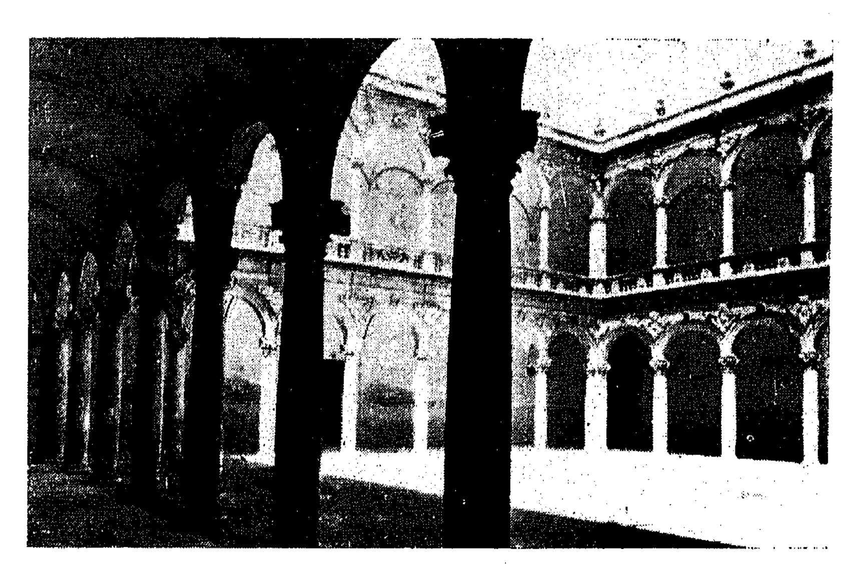
---

(١) الروض المعطار ، ص ٣٤ .

(٢) رحلة الغزال ، ص ٧٢ .

جميلة قوطية الطراز ، وبها تماثيل وزخارف من طراز عصر الأحياء ، وهى تقوم أيضاً على موقع مسجد قديم . وقد كان هذا المسجد قائماً بجوار كنيسة قوطية صغيرة وبينهما جدار فاصل . فلما استولى النصارى على المدينة أمر ألفونسو العاشر ملك قشتالة بإزالة هذا الجدار ، وأدخل المسجد فى حظيرة الكنيسة . ومازال أثر الفصل القديم يبدو فى عدم تناسق عقود هذه الكنيسة التاريخية .

ويوجد أيضاً فى أوريولة دير ومعهد سان دومنجو القديم . وهو معهد دينى وجامعة أدبية . ويمتاز بصرحه القديم الأثرى . وهو من الضخامة بحيث يسمونه « الإسكوريال الصغير » . ومما يلفت النظر صحنه ذو العقود الأندلسية .



أوريولة . دير معهد سان دومنجو ذو العقود العربية

وما زالت المدينة الأندلسية القديمة ، ظاهرة الخطط والأوضاع فى أحياء أوريولة ، الواقعة فيما بين النهر والربوة الصخرية ، فهنالك تكثر الدروب الضيقة الصاعدة نحو الربوة ، بمنازلها المنخفضة العتيقة الطراز . وتتجه هذه الدروب القديمة كلها من ضفة شقورة إلى الداخل ، ويمتد النهر على طول هذه الأحياء ، ضيق المجرى تطل عليه نوافذ المنازل وشرفاتها ، على نحو ما تطل المنازل على الشوارع المائية فى مدينة البندقية .

١٢ — قرطاجنـــة

Cartagena

قرطاجنّة من أقدم ثغور اسبانيا الشرقية ، أنشأها هزدروبال القائد القرطاجنى الشهير ، سنة ٢٤٣ قبل الميلاد ، وقد لعبت دوراً كبيراً فى الحرب البونيقية الشهيرة بين القرطاجنيين والرومان ، وذلك لما تختص به من مناعة موقعها البرى والبحرى.

وهى تقع جنوبى مرسية على شاطىء البحر الأبيض المتوسط ، فى نهاية منطقة يغلب عليها القفر ، وتقل فيها البسائط وتكثر التلال ، وليس فيها من الخضرة إلا غابات الزيتون القليلة .

وتتمتع قرطاجنة بموقع بحرى بديع فوق خليج مستطيل ، تحجبه الجبال من أمامه ، والمدينة من خلفه ، وهو مرفأ طبيعى للسفن . ولهذا فإن قرطاجنة هى المركز الرئيسى للأسطول الإسبانى ، يرسو بها قسم كبير منه ، وهى مركز بحرى ذو أهمية خاصة ، وتضم عدداً من الثكنات والمصانع البحرية الكبيرة ، ويعتبر ميناؤها أهم ميناء إسبانى بعد ميناء ثغر ڤيجو.

وقرطاجنة مدينة أوربية حديثة بكل معانى الكلمة ، وهى كبيرة الرقعة ذات شوارع طويلة شاسعة ، وميادين ضخمة ، وأجمل ميادينها هو ميدان الميناء ، وهو ميدان ضخم تتخلله المتنزهات ذات النخيل القصير ، وترى منه المرفأ البحرى المدهش ، والسفن الحربية العديدة التى يأويها ، وهو يغدو فى المساء متنزه القوم ، ويغص بعشرات الألوف من المتنزهين ، من مختلف الطبقات والأعمار . ويبلغ سكان قرطاجنة الآن نحو مائة وعشرين ألفاً ، وهى من حيث الضخامة والأهمية البحرية والتجارية ، تعد بعد بلنسية ثانية ثغور اسبانيا الشرقية "El Levante"

وتقع على مقربة من قرطاجنة مناجم الحديد والرصاص والنحاس الشهيرة ، وهى من أعظم مواردها ، وفيها يعمل الآلاف من أهلها .

وقد كانت قرطاجنة أيام العصر الإسلامى ، تمتاز أيضاً بأهميتها البحرية والتجارية ، فكانت ثغر مرسية وما والاها ، ومخرج التجارة الأندلسية فى هذا الركن من الأندلس ، وكانت أيضاً مركزاً من مراكز الجهاد والغزو البحرى، تجهز

فيها الحملات البحرية المجاهدة ، المتجولة فى مياه البحر الأبيض الغربية والوسطى ، وكانت تسمى « قرطاجنة الخلفاء » .

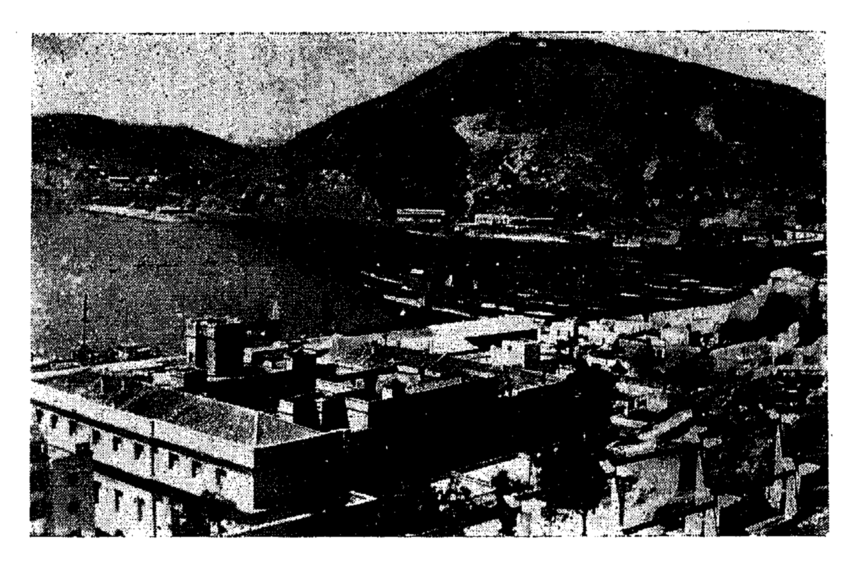
وسقطت قرطاجنة فى أيدى القشتاليين فى سنة ١٢٤٣ م (٦٤٠ هـ) فى نفس الوقت الذى سقطت فيه مرسية ، وكان فاتحها فرناندو الثالث ملك قشتالة الملقب بالقديس فرناندو ، ولكن المسلمين استعادوها وبقيت فى أيديهم عصراً آخر ، ثم استردها النصارى نهائياً فى سنة ١٢٧٦م ، على يد خايمى الأول ملك أراجون .

* * *

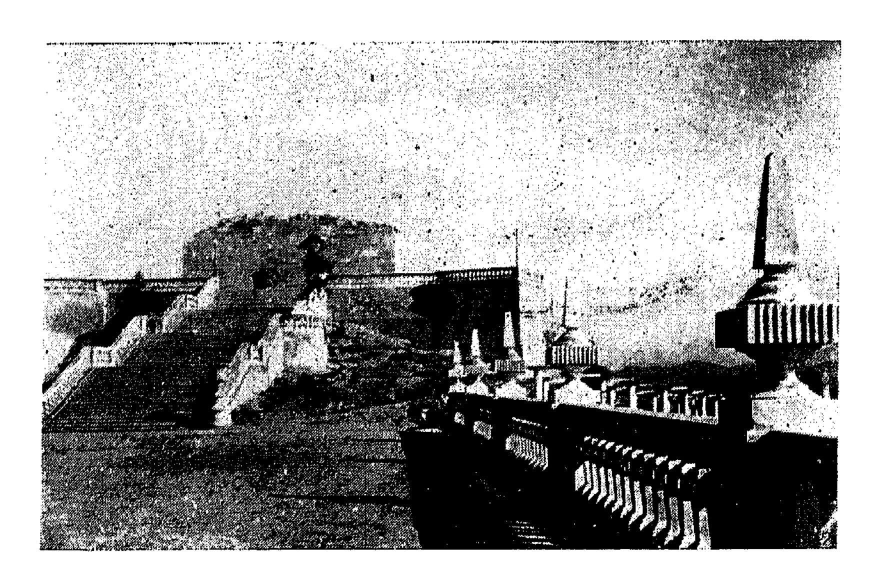
على أن قرطاجنة مع أهميتها البحرية والعسكرية التاريخية ، تخلو من المعالم الأثرية الأندلسية الهامة . ولم يلفت نظرنا فيها سوى الحصن المسمى « بحصن الأندلسيين » "Castillo de los Moros" أو معسكر سبيون ، وهو يقع على ربوة عالية فى نهاية المدينة من الشمال ، وفى مواجهة الجبل الذى يحمى الميناء ، وهو عبارة عن محيط من الأسوار القوية فى مجموعتين متصلتين مربعتين ، ومن حولهما أنقاض أسوار قديمة. ويسكن فى السفح الأسفل للربوة جماعة من الغجر . ولم نقع لهذا الطلل الضخم على تاريخ محقق ، ولا يدلى بصلة للعهد الإسلامى وللمسلمين سوى اسمه ، وإن كان اسمه الآخر وهو « معسكر سبيون » يدلى بصلته بالعصر الرومانى ، وسبيون هو القائد الرومانى الذى انتصر آخر الأمر على القرطاجنيين .



قرطاجنة . حصن الأندلسيين



قرطاجنة . منظر الميناء تحميها الجبال



قرطاجنة . حصن « لا كنسبسيون »

ويوجد بقرطاجنة حصن آخر يسمى « حصن كنسبسيون » "C. de la Concepción" ، وهو يقع على ربوة عالية فى منتصف الطريق الضخم ، الذى يشقها من الميناء إلى الشمال .

أما كنيسة قرطاجنة العظمى أو الكتدرائية ، فالمعروف من تاريخها أنها ترجع إلى العصر المسيحى ؛ ومن المحقق أنها حولت إلى مسجد عند فتح العرب للمدينة ، ثم أعيدت كنيسة عند استرداد النصارى للمدينة .

وهذه الكتدرائية اليوم هى بناء خرب ، لأنها أحرقت أيام الحرب الأهلية الإسبانية الأخيرة ، وهى تقع فوق ربوة عالية فى أحد الدروب القريبة من الميناء ، وهى صغيرة الحجم ولاتدلى أطلالها بأية مزايا فنية .

وقد زرنا متحف قرطاجنة الأثرى ، وهو يحتوى على مجموعة نفيسة من القطع الرومانية ، ولكننا لم نعثر فيه على أية قطع أو نقوش أندلسية .

وبالرغم من الطابع الأوربى الحديث الذى يغلب على مظاهر قرطاجنة ، فإنها تحتوى على بعض أحياء قديمة الطراز ، ذات دروب ضيقة صاعدة . ونعتقد أن المدينة الأندلسية القديمة ، كانت تشغل بالأخص موقع الأحياء القريبة من البحر

الكتاب الثالث

مملكة غَرناطة ومَا إليها

١ — غرناطـــــة

Granada

كانت غرناطة "Granada" ، ومعناها بالإسبانية « الرمانة » وهى شعارها التاريخى ، الذى ما زال ماثلا على باب قصبة الحمراء الرئيسى ، فى شكل ثلاث رمانات صخرية كبيرة — كانت آخر القواعد الأندلسية الذاهبة ، التى توج سقوطها ظفر اسبانيا النهائى ، باسترداد أرضها القديمة ، والقضاء على دولة الإسلام فى الأندلس . وقد سقطت بالتسليم فى يد الملكين الكاثوليكيين ، فرديناند وإيسابيلا فى الثانى من شهر ربيع الأول سنة ٨٩٧ هـ — ٢ يناير سنة ١٤٩٢ ، وهى نفس السنة التى اكتشف فيها كولومبوس العالم الجديد .

وقد مضى على سقوط غرناطة فى يد اسبانيا النصرانية ، إلى اليوم أربعة قرون ونصف ، ولكنها ما زالت بالرغم من تحولها إلى مدينة أوربية حديثة ، تحتفظ أكثر من أية قاعدة أندلسية أخرى ، ببقية حسنة من خططها ومعالمها وآثارها الأندلسية . وربما كان ذلك راجعاً إلى أنها كانت آخر القواعد الأندلسية الذاهبة ، والى كون السياسة الإسبانية ، رأت أن تبقى على بعض هذه الآثار الأندلسية ، لا من أجل قيمتها التاريخية والأثرية فقط ، ولكن بالأخص لكى تبقى على ممر العصور تذكاراً خالداً لظفرها .

ولغرناطة منزلة خاصة فى نفوس الإسبان وفى التاريخ الإسبانى ، فهى إلى كونها خاتمة الفتوح المظفرة التى توجت حروب الإسترداد الإسبانية "La Reconquista" تعتبر بتاريخها المؤثر أنبل المدن الأندلسية ، ويعتبر سقوطها فى أيدى الإسبان ، فاتحة عصر اسبانيا الذهبى . ومن ثم فقد اتخذت غرناطة ، مثوى أبدياً لفاتحيها الملكيين الكاثوليكيين ، ونالت حظوة من رعاية ملوك اسبانيا اللاحقين ، وفى مقدمتهم الإمبراطور شارلكان ، الذى أسس جامعتها الشهيرة .

وقد زرت غرناطة ثمانى مرات متواليات . وتجولت كثيراً فى جنباتها وأحيائها وضواحيها ، ووقفت طويلا أمام صروحها الأندلسية الباقية وأطلالها الدارسة ، وصروحها النصرانية ، التى حلت مكان صروحها الإسلامية الذاهبة . وتقصيت

معالمها الأندلسية القديمة ، من خلال خططها الحديثة ، ووقفت على كثير من طبائع أهلها وتقاليدهم ، مما يمت إلى تقاليد شعبها الأندلسى المغلوب بصلات وثيقة ، ورأيت بعد هذه الدراسة الشاملة ، أن أقدم إلى القارىء صورة واضحة من خططها ومعالمها ومظاهرها الحديثة ، وصوراً مما تبقى من معالمها وآثارها الأندلسية ، لكى يستطيع أولئك الذين يشجيهم تاريخ الأندلس ، وقصة سقوطها النهائى ، أن يستعرضوا أدوار هذه المأساة فى جوها الحقيقى ، وفى المواطن التى اقترنت بسيرها.

* * *

غرناطة هى اليوم ولاية ومدينة . أما ولاية غرناطة الحديثة ، فتشمل مساحة قدرها خمسة آلاف ميل مربع ، وتحدها من الشمال ولايات قرطبة وجيان والبسيط ، والبحر من الجنوب ، ومن الشرق ولايتا ألمرية ومرسية ، ومن الغرب ولاية مالقة . وتخترقها وتظلها جبال سيرا نفادا (جبل الثلج) ، ويرويها نهر الوادى الكبير ، وفرعه نهر شنيل ، وكذلك نهر « ريو جراندى» الصغير . وجوها حار ولاسيما فى الوديان المنخفضة ، وباردة فى التلال ، وتربتها خصبة جداً ، ولاسيما فى الغرب والجنوب. وفى شرقها تمتد سهول واسعة معظمها جرداء . ويبلغ سكان الولاية كلها أكثر من ثمانمائة ألف نسمة . وتضم من المدن عدا غرناطة ، بسطة ، وأشكر ، ووادى آش ، وسنتافيه (شنتفى) ، ولوشة ، وحصن اللوز ، ومونتى فريو ، والحامة ، وأجيجر ، وأرحبة ، والمنكب ، وشلوبانية ، ومتريل .

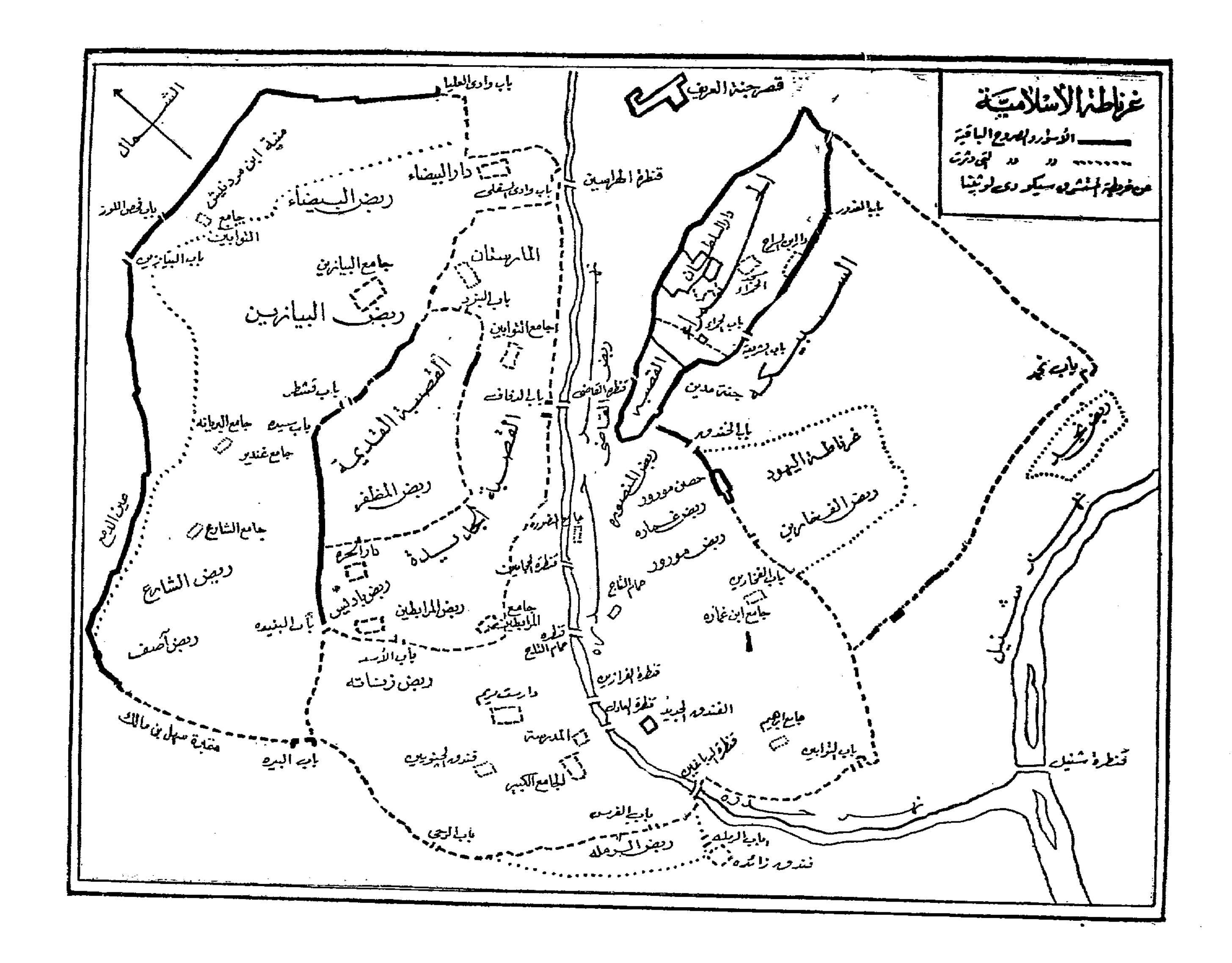
ومدينة غرناطة هى عاصمة الولاية . وهى تقع فى واد عميق ، يمتد من المنحدر الشمالى الغربى لجبال سيرا نفادا ، وتظللها الآكام العالية من الشمال والجنوب . ويحدها من الجنوب نهر شنيل فرع الوادى الكبير ، وهو ينبع من جبال سيرا نفادا ، ويخترق فرعه المسمى نهر حدرُّه المدينة من الوسط . وإلى يمينه يقع حى البيّازين ومعظم المدينة الحديثة ، وتقع قصبة الحمراء ، فى الناحية الأخرى . ثم يلتقى بشنيل فى جنوب المدينة . وقد كان شنيل وفرعه حدرّه أيام المسلمين يفيضان بالماء ، ولاسيما فى الصيف حين تذوب الثلوج ، وكانت ضفافهما خضراء يانعة تزخر بالحدائق الغناء . أما اليوم فقد جف مجرى شنيل ، وأقفرت ضفافه ، وقلما يجرى فيه الماء . وأما فرعه حدرُّه ، فيخترق المدينة من الشرق ، من سفح التل الذى تقع عليه الحمراء ، ويتصل بشنيل عند قنطرة شنيل فى جنوب المدينة ؛ وهو يكاد

يختفى اليوم ، ولم يبق من مجراه داخل المدينة سوى جزء صغير ، تشرف عليه ربى الحمراء ، وعلى ضفافه بقايا قناطر وسواقى قديمة . وأما جزوءه الذى كان يخترق وسط المدينة ، فقد غطى اليوم ، بشارعها الرئيسى الأوسط ، المسمى شارع الملكين الكاثوليكيين ، وامتداده من الميدان الكبير المسمى "Puerta Real" (الباب الملكى) حتى قنطرة شنيل .

وتشمل غرناطة الحديثة ثلاثة أقسام إدارية كبيرة ، هى انتكيرويلا ، وغرناطة ، والبيّازين . ويشمل الأول أحياءها الواقعة فى الجنوب الغربى والتى يحيط بها نهر حدرّه ؛ ويقع حى البيّازين أو ربض البيازين فى شمالها الشرقى ، ويليه حى غرناطة فى الشمال الغربى .

وقد كانت غرناطة وما زالت إلى اليوم تجمع بين الزراعة والصناعة . وتزرع فى مرجها وبسائطها الخضراء ، الحبوب والكروم والخضر بوفرة . وبها مصنع كبير للبارود . ومن بين صناعاتها الصلب والحديد ، والزنك والزيوت ، والدانتلا الجميلة والخمور والسكر . ومما يجدر ذكره أن معظم هذه الصناعات يرجع إلى أصل موريسكى ، ويحتفظ بكثير من أصوله وطرقه القديمة . وقد كانت غرناطة الإسلامية ، وهى التى تقوم اليوم على نفس خططها غرناطة الحديثة ، تشتمل على عدد كبير من الأحياء . فتقع الحمراء دار الملك فى جنوبها الشرقى . ويليها بسيط السبيكة ، ثم الحى المعروف بغرناطة اليهود ، وهو المقول بأنه أصل غرناطة ، وربض الفخارين ، وربض قمارش ، وربض المنصور ، وهذه تؤلف نصفها الجنوبى . وأما نصفها الشمالى فكان يشغله ربض البيضاء ، وربض البيازين ، والقصبة القديمة ، وربض المرابطين ، وبضعة أرباض أخرى .

أما اليوم فقد اختفت معظم خطط غرناطة الإسلامية ، وقامت على أنقاضها مدينة أوربية حديثة . ولم تبق من منشآتها ومعالمها القديمة سوى بقية يسيرة ، تجتمع بالأخص فى قسمها الشرقى حيث تربض الحمراء فوق هضبتها العالية . بيد أن السائح المتأمل ، يشعر حينما يسرح البصر فى جنباتها ، أنها تتشح بطابع خاص من من التحفظ والنبل ، وأن معالمها الأندلسية ، تكاد تطالعه من وراء خططها المحدثة ، هذا فضلا عما بقى من أحيائها الأندلسية القديمة ، التى ما زالت تحتفظ بدروبها الضيقة ، ومنازلها ومشرفياتها الأندلسية .


غرناطة الإسلامية
الأسوار والصروح الباقية
من خريطة المستشرق سيكو دي لوثينا
الشمال
قصر جنة العريف
ربض البيازين
جامع البيازين
ربض البيضاء
دار البيضاء
المارستان
القصبة القديمة
القصبة الجديدة
ربض المظفر
ربض الشارع
جامع الشارع
ربض آصف
ربض زناته
ربض الرملة
ربض الفخارين
غرناطة اليهود
السبيكة
باب البنود
باب البيرة
باب الرملة
باب الطوابين
الجامع الكبير
المدرسة
قنطرة شنيل
نهر شنيل
نهر حدرة

وتشمل غرناطة الحديثة عدة شوارع فسيحة، وميادين شاسعة، ويخترقها من قلبها شارعها التجارى الرئيسى المسمى شارع الملكين الكاثوليكيين "Calle de los Reyes Católicos"، ويبدأ من الميدان الجديد "Plaza Nueva"، الذى يتفرع منه مرتفع بنى غمارة "Cuesta de Gomeres" المفضى إلى هضبة الحمراء، وينتهى من الناحية الأخرى بميدان الباب الملكى "Puerta Real". ومن هذا الميدان يمتد جنوباً، طريقان شاسعان متوازيان تفصلهما الحدائق، هما طريق شنيل "Carrera del Genil" وطريق حدرّه "Acera de Darro". وتقع على جانبى شارع الملكين الكاثوليكيين أهم أحياء غرناطة، ومنها ميدان باب الرملة "Plaza Bibrambla" أشهر ميادين غرناطة القديمة، والقيسرية القديمة بدروبها الضيقة، ومتاجرها التى ما زالت تحمل الطابع الشرقى، والمدرسة الإسلامية القديمة. ويمتد من الميدان الجديد شارع غرناطة القديم على ضفة نهر حدرّه، إلى حى البيازين، ثم بعد ذلك إلى خارج المدينة حيث يفضى إلى حى « الغجر » ثم إلى دير ساكرومونتى.

ويخرج من منتصف شارع الملكين الكاثوليكيين، شارع كولون الكبير "Gran Via Colón" أفخم وأحدث شوارع غرناطة الحديثة، ثم يتصل بشارع فخم آخر هو شارع سوتيلو "Avenida Sotelo"، الذى ينتهى إلى محطة السكة الحديدية. ويقع على جانبه ميدان مسرح الثيران "Plaza de Toros"، وعلى مقربة منه يقع ميدان باب إلبيرة "Puerta de Elvira"، وميدان النصر "Paseo del Triunfo".

وتشرف غرناطة من ناحية الجنوب الشرقى، على بسيط خصب، هو المرج الشهير أو الفحص "La Vega"، وقد كان أيام الدولة الإسلامية قطعة من الجنان، تغص بالزروع اليانعة والحدائق الغناء، وكان مرتع النزهة الشائقة أيام الربيع وليالى الصيف. أما اليوم فقد زالت معالمه ومغانيه اليانعة، وإنك لتسرح البصر فيه، من مشارف قصر الحمراء العالية، فلا ترى من بسائطه الخضراء سوى القليل، وقد حفت بها أو تخللتها الرقاع الجرداء.

وتشرف على غرناطة من الشمال الغربى جبال سيرا نفادا الشامخة (وبالعربية جبل شُلّير أو جبل الثلج)، ويصلها بالمدينة ترام كهربائى، يقطع فى شعب الجبال نحو عشرين كيلومتراً. وهى شعب وعرة تظللها قمم عالية. وبها مساقط مياه كبيرة تستخدم لتوليد الكهرباء. وفى سفح الجبال توجد مزارع خضراء؛ وتوجد فى

بطونها محلات وقرى صغيرة . وتغطى الأشجار الخضراء رقاعاً كثيرة ، من المنحدرات الصخرية . ولا تخلو أعماق الجبال رغم وعورتها ، من الزروع والكروم والأشجار البرية العالية . وفى أسفلها يسير مجرى شنيل نحو منابعه .

ويبلغ سكان مدينة غرناطة اليوم مائة وثلاثين ألف نسمة . وقد كانت أيام الدولة الإسلامية أكبر رقعة ، وأوفر عمراناً وسكاناً ، وقد بلغ سكانها فى ظل الدولة النصرية أكثر من مائتى ألف نسمة ، منهم كثير من اليهود والقشتاليين والجنويين والبنادقة ، الذين يشتغلون بالتجارة والأعمال المالية . ولما ضعفت مملكة غرناطة ، وأخذت أطرافها تسقط فى أيدى الإسبان ، وهرع المسلمون إلى العاصمة الإسلامية من كل صوب ، زاد سكان غرناطة ، حتى غدوا فى أواخر عهدها الإسلامى زهاء نصف مليون ، وكان فى مقدورها يومئذ ، أن تجهز وحدها للقتال من سكانها ، نحو مائة ألف مقاتل . ولما سقطت غرناطة فى أيدى الإسبان ، وغادرها عشرات الألوف من أهلها المسلمين إلى المغرب ، كان عدد سكانها نحو مائتى ألف ، ثم تضاءل سكانها تباعاً بالهجرة والتشريد ، وأفنت سياسة التنصير والاضطهاد المستمر كثيراً منهم . ثم نفى سكانها الموريسكيون أو العرب المتنصرون بعد ذلك ، وأقفرت العاصمة الإسلامية القديمة تباعاً ، حتى هبط سكانها فى القرن الثامن عشر إلى عشرين ألف نسمة . وفى أوائل القرن التاسع عشر بلغ سكانها نحو خمسين ألفاً ، ثم زادوا تباعاً حتى بلغوا فى أوائل هذا القرن ثمانين ألفاً ، وبلغوا وفق إحصاء سنة ١٩٢٠ مائة ألف وثلاثة آلاف ، وهم يبلغون اليوم مائة وثلاثين ألفاً .

وتمتاز غرناطة بكثرة منشآتها العلمية والفنية والاجتماعية . وقد كانت أيام الدولة الإسلامية ، أعظم مركز للعلم والعرفان فى الغرب الإسلامى . وقد حرص الإسبان على أن تبقى عاصمة الأندلس القديمة كما كانت ، مركز العلوم فى جنوبى اسبانيا . فأنشئت جامعة غرناطة فى سنة ١٥٣١ فى عصر الإمبراطور شارلكان ، وروعى فى إنشائها ، أن تغدو مصدر التثقيف العقلى والدينى ، للشعب الأندلسى المتنصر ، وأن يقضى على البقية الباقية ، من تراث الأندلس الفكرى ، وأن تتوطد روح العصر الجديد فى ظل السيادة النصرانية ، وبارك المشروع البابا كليمنت السابع ، وأصدر مرسوماً بإنشاء الجامعة الجديدة ، على أن تكون على غرار الجامعات النصرانية العريقة فى بولونيا وباريس وشلمنقة . وبدأت جامعة غرناطة

بدراسة اللاهوت والفنون والطب والقانون ، وسيطر رجال الدين على إدارتها والتدريس فيها ، فى عصورها الأولى . وأصيبت فى عهد فيليب الثانى بهزة عنيفة ، من جراء ثورة الموريسكيين ، وسادها الركود مدى حين . ولما عاد الهدوء إلى غرناطة ، عاد إليها الانتعاش ، وتوالت عليها هبات القادرين ، وتوطدت أحوالها ، واستطاعت منذ أوائل القرن التاسع عشر أن تنهض قدماً ، وأن تتحرر من نفوذ الكنيسة نوعاً ، وأن تحرز قسطاً من الاستقلال . وتضم الجامعة اليوم خمس كليات ، هى كليات « الفلسفة والآداب » و « العلوم » و « الحقوق » و « الطب » و « الصيدلة » . وتقوم فى بناء الجامعة القديم الذى أسس أيام شارلكان كليتا الحقوق والعلوم ، وإدارة الجامعة ، وقسم النشر والمكتبة العامة ، وهى مكتبة قيمة تضم عدداً كبيراً من الكتب ، التى ظهرت حتى القرن الثامن عشر . وتقوم كلية الآداب فى بناء جديد خاص بها ، وكذا كلية الطب . ولكل كلية مكتبة خاصة بها ، ويعنى قسم النشر بنشر البحوث والكتب والمجلة الجامعية ، وبالجامعة فرع للمجلس الأعلى للبحوث .

ويلحق بكلية الآداب معهدان هامان ، هما « معهد تاريخ الملكين الكاثوليكيين » "Seminario de Historia de los Reyes Católicos" ، وقد أنشئ فى سنة ١٩٤٣ ، للعناية بتدريس هذه الفترة الهامة من تاريخ اسبانيا ، ودراسة حياة هذين الملكين ، اللذين يعتبران مؤسسى عظمة اسبانيا ، وأحداث عصرهما ومؤثراته ، دراسة وافية . والثانى هو مدرسة الدراسات العربية بغرناطة "Escuela de Estudios Arabes de Granada" ، وتعنى بدراسة الحضارة الإسبانية الإسلامية ، واللغة والآداب العربية ، وكانت تعنى أيضاً بإعداد الموظفين الإسبان الذين يعملون بالمنطقة الخليفية من مراكش [1] . وهى تعمل بالتعاون مع مدرسة « ميجيل آسن » للدراسات العربية بمدريد ، ويصدران معاً « مجلة الأندلس » "Al-Andalus" ، وتقوم هذه المدرسة فى بناء أندلسى قديم بحى البيازين يسمى "Casa del Chapiz" ، وعلى مقربة منه منزل آخر ، خصص لإقامة الطلبة المغاربة الذين يتلقون الدراسة بغرناطة .

ويقع بناء الجامعة القديم فى وسط غرناطة فى الميدان المسمى باسمها ، وقد أنشئت إلى جوارها كنيسة جميلة الطراز ، على غرار الجامعات الإسبانية ، التى تقوم الكنيسة داخلها أو بجوارها . وفى وسط الميدان تمثال حديث الصنع للامبراطور شارلكان .

---

(١) هى منطقة الحماية الإسبانية سابقاً . وقد اعترفت اسبانيا باستقلال مراكش ووحدتها الإقليمية منذ ابريل ١٩٥٦ ، وأصبحت المنطقة الخليفية السابقة جزءاً لا يتجزأ من المغرب الموحد .

وتقوم فى غرناطة إلى جانب جامعتها العريقة ، مدارس عديدة أولية وثانوية ، ومعاهد دينية . وبها أيضاً عدة متاحف هامة ، فى مقدمتها متحف الحمراء ، والمتحف الأثرى (الأركيولوجى) ، وهما يضمان لوحات وزخارف عربية كثيرة ، وذخائر وتحفاً أندلسية عديدة ، ومتحف البلدية ، والمتحف المسمى "Casa de Ios Tiros" وسوف نعود إلى ذكرها ، كما أنها تضم مستشفيات ودوراً خيرية عديدة .

معالمها وآثارها الأندلسية الباقية

إن حمراء غرناطة هى بلاريب أعظم الآثار الأندلسية الباقية ، وهى مازالت كما كانت منذ عصور ، تشرف بأبراجها وقبابها المنيفة من هضبتها العالية ، على المدينة الإسلامية القديمة من ركنها الجنوبى الشرقى ، فتسبغ عليها آيات من الروعة والجلال .

وإلى يمين الحمراء ، وعلى مقربة منها ، يقوم قصر جنة العريف بأروقته الأنيقة وخمائله المزهرة ، ونوافيره الفضية الساحرة .

ولن نتحدث هنا عن الحمراء ولا جنة العريف ، وقد تحدثنا عن كل منهما فيما بعد ، فى فصل خاص .

وإنما نتحدث هنا بادئ ذى بدء ، عن معالم غرناطة القديمة ، التى ما زالت رغم أحداث الزمن ، تسفر عن طابعها وملامحها الأندلسية الواضحة .

حى البيّـــازين

ولاريب أن حى البيازين "Albaicín"، وهو ما يزال إلى اليوم أكبر أحياء غرناطة ، هو أكثر أحيائها احتفاظاً بطابعه الأندلسى ، بل لانبالغ إذا قلنا إن هذا الحى ، ما زال محتفظاً بسائر خططه ودروبه الأندلسية الضيقة ، لم يطرأ عليها سوى تحول ضئيل .

ويقع حى البيازين فى شمال شرقى غرناطة ، تجاه هضبة الحمراء ، ويفصله عنها نهر حدرُّه ، ويمتد صاعداً على سفح التلال حتى أسوار المدينة القديمة ، وشوارعه ضيقة متقاطعة ، ومازال كثير من منازله محتفظاً بطرازه الأندلسى ، وقد شاهدنا الكثير من هذه المنازل ، وهى تمتاز بأفنيتها الداخلية ، ونوافذها

العربية المطلة عليها . وشاهدنا بالأخص فى بداية أحد الشوارع ، حماماً كبيراً على الطراز العربى ، ما يزال بأعمدته وحناياه وقبابه ذات الكوات النجمية ، فى حالة جيدة . كما شاهدنا منزلا أندلسياً ما زال يحتفظ بنوافده ونقوشه وزخارفه العربية كاملة ، وقد نقشت على مشارفه وحافاته ، عبارة (الحمد لله على نعمة الإسلام) ، مكررة فى سائر مواضعه ، وهو اليوم مركز لأحد أقسام البوليس .



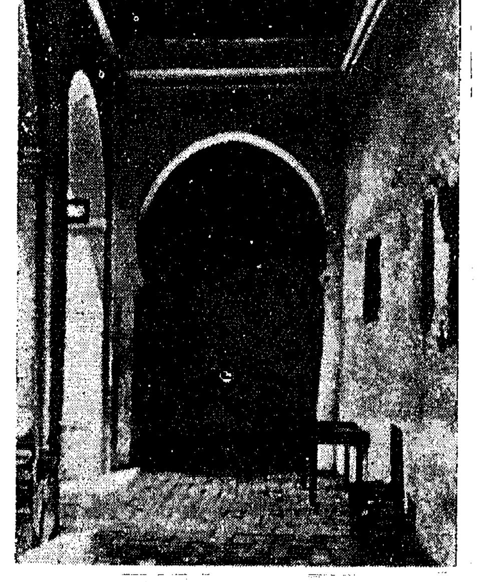
غرناطة . باب فحص اللوز داخل حى البيازين

وفى حى البيازين ثلاثة من أبواب غرناطة الإسلامية ، مازالت قائمة بعقودها العربية . وهى باب البيازين "Puerta de Albaicín"، ويقع فى نهايته فى داخل السور القديم ، وباب فحص اللوز أو فج اللوزة "Arco, Puerta de Fajalauza"، وباب الزيادة "Puerta de las Pesas" ، وكلاهما ذو عقدين . ويقعان داخل الحى . ويقع الباب الأخير فى ميدان أو رحبة باب الزيادة .

وقد حول المسجدان الكبيران ، اللذان كانا بحى البيازين أيام المسلمين ، إلى كنيستين ، فبنيت كنيسة سان سالڤادور "San Salvador" على أنقاض المسجد الجامع ، ومازالت فى مؤخرتها ثمة بقية من أسوار الجامع ، وعدة من بوائكه ، وجزء من صحنه . وبنيت كنيسة سان خوسى "San Jose" (سنة ١٥٢٥ م) على أنقاض مسجد المرابطين ، وقد كان من أقدم مساجد غرناطة (وكان موقعه

بحى القصبة الملاصقة لحى البيازين)، وتقع الكنيسة فى نفس الشارع المسمى باسمها وما زالت منارة المسجد القديم قائمة ، وقد حولت إلى برج لأجراس الكنيسة .

وكذلك حول مسجد ثالث فى البيازين هو مسجد التائبين ، إلى كنيسة سميت سان خوان دى لوس ريس "San Juan de los Reyes"، وهى ما زالت تحتفظ بمنارة الجامع كما كانت ، وفقط أضيف إليها برج الأجراس . وهذه المنارة من عصر الموحدين ، مربعة الشكل ، على طراز منارة المنصور فى إشبيلية (لاخيرالدا) ويُصعد إليها بمنحدر متدرج . وأسست كنيسة سان لويس "San Luis" القديمة ، الواقعة على مقربة من باب فحص اللوز ، أيضاً على موقع مسجد قديم .



غرناطة . بقية من عقود جامع البيازين

ويمتد حى البيّازين على الربوة القائم عليها ، شمالا حتى الأسوار القديمة ، وفى نهايته مما يلى الأسوار ، توجد مسالك ودروب ضيقة على المنحدر ، يسكنها قوم من الغجر ، يعيشون فى أكواخ وكهوف بدائية ، تنبعث منها روائح منفرة . وهؤلاء الغجر يؤلفون أقلية كبيرة فى غرناطة ، ويشغلون ، فضلا عن مؤخرة البيازين ، معظم أجزاء الطريق الطويل ، الممتد من غرناطة إلى دير ساكرومونتى ، ولكن مساكنهم فى هذه البقعة أفضل ، وظروفهم المعيشية أرقى ، ويشتغل الكثير منهم بالعزف والرقص ، ولهم براعة خاصة فى تأدية الرقصة الأندلسية الشهيرة المعروفة بالثامبرا "La Zambra" ، وأصلها العربى « الزمر » .

وقد كان حى البيازين أيام غرناطة الإسلامية ، من أكبر وأهم أحيائها ، وكان منزل عدد كبير من الأسر الغنية ذات العصبية ، وفيه نشبت الثورة غير مرة ضد سلاطين غرناطة ، ومنه بدأ الزحف غير مرة على قصبة الحمراء دار الملك .

فلما استولى الإسبان على غرناطة ، غادرتها الأسر الشريفة وعلية القوم ، وأقفر حى البيازين من كثير من سكانه القدماء ، وسكنته الطبقات الدنيا . بيد أنه لبث بعد التنصير ، أعظم الأحياء الموريسكية فى غرناطة ، ولم يفقد تقاليده القديمة فى تحريك الجموع ، والتمرد على كل ظلم واستبداد . وفيه أضرمت الشرارة الأولى ، فى ثورة الموريسكيين الخارقة ، التى نشبت ضد الإسبان فى سنة ١٥٦٧ ، أيام فيليب الثانى ، وكان لها أعظم شأن فى تطور السياسة الإسبانية نحو الموريسكيين ، والاتجاه إلى نفيهم النهائى من إسبانيا .

واليوم يغدو حى البيازين منزل الطبقات المتوسطة والمتواضعة ، ولكنه مع ذلك مازال محتفظاً بسمعته التاريخية القديمة ، ومازال يعتبر من أحياء المدينة الهامة.

ميدان باب الرملة

ويسمى بالإسبانية "Bibrambla" وقد كان أعظم ميادين غرناطة الإسلامية ، وكانت تعقد به الحفلات القومية العامة ، ولاسيما حفلات الفروسية . وهو يقع على مقربة من الكتدرائية وراء شارع الملكين الكاثوليكيين ، من ناحيته التى تتصل بميدان الباب الملكى . وما يزال إلى اليوم من أكبر ميادين غرناطة ، وفى وسطه نافورة كبيرة مزدوجة ، فى أعلاها تمثال لأحد القديسين ، ومن حولها ساحة كبيرة مغطاة بالرخام ، وعلى جانبيها المقاهى ومظلات بائعات الزهر وغيره . ويتفرع منه عدة شوارع مازالت تحمل أسماء أندلسية ، مثل شارع "Zacatin" (السقاطين) وشارع "Boabdil" (أبى عبدالله) ، وعلى مقربة منه شارع الفندق "Alhondiga".

القيسرية

وفى مواجهة باب الرملة من الجهة الغربية ، تقع القيسرية "Alcaicería" الشهيرة ، وقد كانت سوق غرناطة الممتاز . ومازالت إلى اليوم بدروبها الضيقة ، وحوانيتها المتلاصقة ، التى تزخر بالبضائع الحريرية ، والتحف المعدنية الدقيقة ، وغيرهامن مختلف السلع المختارة ، تحمل نفس طرازها الأندلسى القديم . وقد أحرقت القيسرية الأندلسية القديمة ، التى كانت تقوم فى نفس الموقع ، فى سنة ١٨٤٣ ، ثم أعيد تخطيطها وبناؤها ، على نفس نظامها القديم تقريباً . وكانت للقيسرية القديمة عدة

أبواب كبيرة ، تحول دون مرور الخيل والعربات إليها ، ثم تغلق لحفظها فى المساء ، ولم يبق من هذه الأبواب اليوم سوى بابين أو ثلاثة . وتتصل القيسرية بشارع كولون بدرب ضيق ، يمر بالكتدرائية الكبرى والمدرسة القديمة .

الكنيسة العظمى

وعلى مقربة من ميدان باب الرملة والقيسرية تقع الكتدرائية أو الكنيسة العظمى . وقد بنيت فوق موقع مسجد غرناطة الجامع ، وفقاً لسياسة الأحبار الإسبان ، التى قضت بأن يحول المسجد الجامع فى كل مدينة أندلسية مفتوحة ، إلى كنيسة جامعة أو كتدرائية . وهى كنيسة ضخمة رائعة ذات قبة عظيمة . وقد بنيت تخليداً لذكرى الملكين الكاثوليكيين فرديناند وإيسابيلا فاتحى غرناطة ، وكانا قد أنشآ فى هذا الموقع مصلى ملكياً فى سنة ١٥٠٥ ، وهو الذى مازال قائماً بجوارها . وبدىء ببناء الكتدرائية سنة ١٥٢٩ ، فى عهد الإمبراطور شارلكان . وافتتحت للعبادة سنة ١٥٦١ ، ولكن لم يتم بناؤها إلا فى سنة ١٧٠٣ . وتحت قبتها مدفن فرديناند وإيسابيلا ، وهو عبارة عن ناووسين كبيرين من الرخام ، تحتهما قبو أودع فيه تابوتا الملكين الكاثوليكيين ، الملكة على اليمين والملك على اليسار ، وإلى جوارهما من اليمين تابوت ابنتهما يوحنا ، وإلى اليسار تابوت لفيليب الجميل .

وفى مواجهة القبر هيكل عظيم به تماثيل صغيرة للرسل . وعلى جانبى الهيكل صور بارزة من صنع القرن السادس عشر ، ظهرت فى إحداها صور نساء موريسكيات ، يرتدين أثواباً طويلة وقد وضعن الحجاب ، والقس يباركهن بالماء المقدس . وظهرت فى أخرى صور لموريسكيين يرتدون الملابس العربية ، وعلى رؤوسهم شبه العمامة ، وتمثل هذان الصورتان مناظر التنصير بالجملة .

وتوجد صورتان أخريان ، إحداهما تمثل خروج أبى عبد الله آخر ملوك الأندلس سائراً ومن ورائه فرسه ، ومعه مفاتيح الحمراء ، ليسلمها إلى قاهره الملك فرديناند . وظهر فى الصورة الأخرى فرديناند وإيسابيلا ، ومن ورائهما الفرسان النصارى .

وعند مدخل المدفن ، يوجد معرض تاريخى لمخلفات الملكين الكاثوليكيين ، به صندوق زجاجى يحتوى على تاج إيسابيلا وصولجان الملك وسيفه ، وصندوق

صغير يحتوى على حلى الملكة وآثارها ، ومن ذلك الإنجيل الذى كانت تقرا فيه . وعرضت أثواب لفرديناند الكاثوليكى ، وأثواب أخرى لأكابر الأحبار فى هذا العصر ، كما عرضت الأعلام التى استعملت فى حرب غرناطة الأخيرة ، وهى حمراء مزركشة بخطوط عريضة مقصبة .

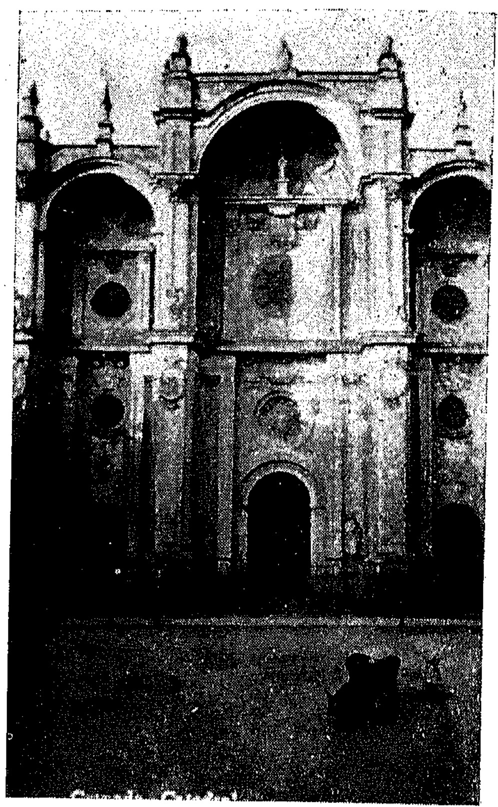
المدرسة والخان والمنازل الأندلسية

وما زال موقع مدرسة غرناطة القديمة ، قائماً فى الدرب الضيق المحاذى لشارع الملكين الكاثوليكيين ، تجاه المدفن الملكى . ولكن بناءها القديم أزيل منذ أوائل القرن الثامن عشر ، وأقامت البلدية مكانه بناء جديداً . ولم يبق من البناء القديم ، سوى الجناح الذى يحتوى على المحراب . وقد نزعت لوحات ونقوش عربية كثيرة من المدرسة ، ونقلت إلى مختلف المتاحف . ويحتفظ متحف غرناطة الأركيولوجى بعدد من هذه اللوحات ، ومنها عدة قطع رخامية يتكون منها بعض ما جاء فى لوحة إنشاء هذه المدرسة ، ويجرى نصها كما يلى :

« أمر ببناء هذه الدار للعلم جعلها الله استقامة ونوراً ، وأدامها فى علوم الدين على الأيام ، أمير المسلمين أظله الله بعونه ، العلى الشهير الكريم السعيد الطاهر الرفيع الهمام السلطان المؤيد أبو الحجاج يوسف ابن العلىّ الكريم الكبير الخطير الشهير المجاهد الفاضل العادل المقدس الأرضى أمير المسلمين وناصر الدين أبى الوليد اسماعيل بن فرج بن نصر كافى الله فى الإسلام صنائعه الزاكية وتقبل أعماله الجهادية وتم [ذلك] فى شهر محرم عام خمسين وسبعمائة » .

وقد كانت هذه المدرسة أو الجامعة ، من مفاخر غرناطة الإسلامية ، وقد أنشأها السلطان يوسف أبو الحجاج فى سنة ٧٥٠ هـ (١٣٤٩ م) ، حسبما جاء فى النص المتقدم ، وكانت تسمى بالمدرسة النصرية ، أو الجامعة النصرية .

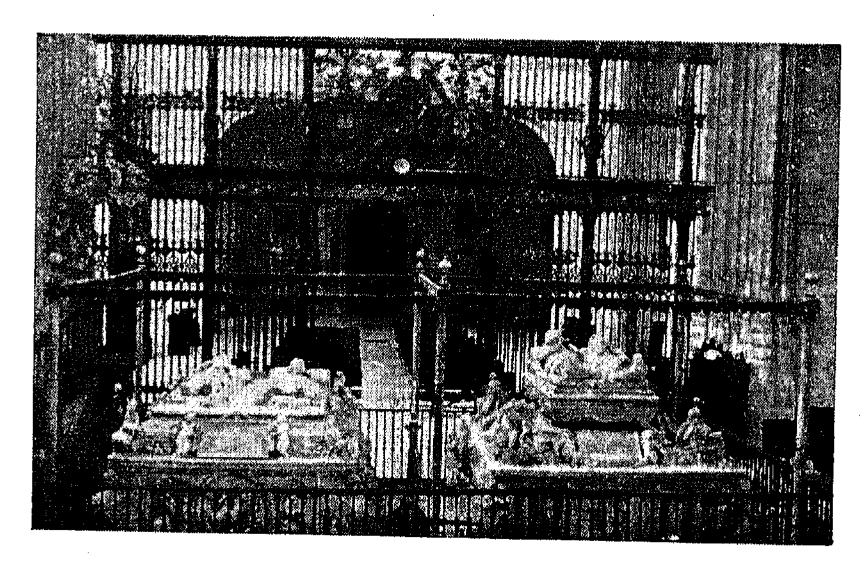
وأما الخان أو الفندق فيقع فى درب ضيق ، شرقى شارع الملكين الكاثوليكيين هو "C. Mariana Pineda" ، الواقع على مقربة من دار البريد الحالية . وهو عبارة عن بناء عربى قديم ذى باب معقود ضخم ، قد نقشت فى عقده بالكوفية سورة (قل هو الله أحد) ، ونقش على الجانبين عبارة « الملك الدائم العز القائم » مكررة . ونقش فى جانبى المدخلين « يا ثقتى يا أملى أنت الرجاء أنت الولى ،



غرناطة . واجهة الكنيسة العظمى



غرناطة . واجهة المصلى الملكى



ضريح فرديناند وإيسابيلا داخل الكنيسة العظمى

فيا للنبي المرسل اختم بخير عملي » . ومن داخل هذا الباب دهليز ، يفضي إلى فناء واسع مربع الشكل ، ضلعه نحو ثلاثين متراً ، وبه قاعات عديدة . وفى أعلاه جناح آخر ، تتقدمه فوق عقد الباب قاعة ذات مشرفية عربية كبيرة .

وقد اختلف فى أصل هذا البناء . والمرجح أنه أنشيء فى أواخر عهد الدولة النصرية ، ليكون فندقاً أو خاناً ، يؤمه التجار الواردون ، وكان يسمى يومئذ الفندق الجديد "Alhóndiga Guedida"؛ ثم استعمل بعد ذلك مخزناً للفحم ، ومن ثم كان اسمه الذى يعرف به اليوم وهو دار الفحم "Casa del Carbón" وكان حتى العهد الحديث ملكاً لبعض الأفراد . ولكنى علمت أنه يلحق اليوم بإدارة قصر الحمراء .

وهنالك أيضاً بناء أندلسى قديم يقع فى شارع "Pavaneras" ، ويطلق عليه اسم "Casa de los Tiros" (دار الرماية) ، وهو صرح كبير فى حالة جيدة من الحفظ ، ويبدو من سلمه العريض ، وأبهائه الشاسعة الجميلة ، أنه كان قصراً لأحد الكبراء ، وهو يستعمل اليوم متحفاً ، تعرض به طائفة من الصور التاريخية ، ويتخذ مركزاً لمكتب السياحة الحكومى .

هذا وتوجد فى غرناطة إلى اليوم فى مختلف أحيائها غير حى البيازين ، منازل كثيرة تحتفظ بأصلها العربى أو الموريسكى أو ببقية منه . ومنها كثير مايزال يحتفظ بفنائه الأندلسى ، ومشرفياته العربية ، وقد رأينا الكثير منها . ومازال الطراز الأندلسى والموريسكى ، يبدو فى كثير من أحياء غرناطة المحدثة ، وبنوع أخص فى أحيائها القديمة ، الواقعة فى جنوبها الشرقى ، مابين الحمراء وحدائق طريق شنيل.

الأبواب والأسوار

كان لغرناطة الإسلامية عشرون باباً ، لم يبق منها اليوم سوى القليل . وقد أشرنا إلى أبوابها الثلاثة ، التى مازالت قائمة فى حى البيازين ، وهى باب البيازين وباب فحص اللوز وباب الزيادة . وتوجد ثمة بضعة أبواب أخرى ماتزال فى حالة جيدة ، أهمها باب إلبيرة "Puerto de Elvira" الواقع فى شمال غربى المدينة ، وهو يقع اليوم على مقربة من ساحة الثيران ، وقد بقى هيكله كاملا على ارتفاع نحو اثنى عشر متراً ، وإلى جانبه بقية من السور القديم ، وفى أعلاه مشارف عربية ، وليست عليه أية نقوش أو كتابة . ومنه يبدأ شارع إلبيرة ، الذى مازال يحمل اسمه العربى "C. de Elvira".



غرناطة . باب إلبيرة

ويسير بحذاء شارع كولون الكبير حتى يصل إلى الميدان الجديد "P. Nueva". ثم باب البنيدة وهو يقع على مقربة من باب إلبيرة وفى شرقيه ، ثم باب سيدة ، وهو شرقى باب البنيدة ، وكلها تقع على خط الأسوار الشمالية القديمة . وهذا عدا أبواب قصبة الحمراء ، وهى عدة ، وقد ذكرناها فى موضعها .

وأما أسوار غرناطة الإسلامية ، فقد بقيت منها أجزاء كبيرة ، وبالأخص فى الجهة الشمالية الغربية حيث تمتد نحو كيلو متر ، وتنقطع قبل باب إلبيرة بقليل؛ وكذلك بقيت أجزاء كبيرة من الأسوار الشرقية ، وهى ترى على مد البصر من أعلى ربوة الحمراء . وقد طفنا بهذه الأسوار ، وهى متينة كثيفة ، وهى صفان داخلية وخارجية . وتدل بقاياها على متانة التحصينات الغرناطية القديمة .

قصر شَنيل

ومن الآثار الأندلسية الباقية بمدينة غرناطة ، بقية الصرح المسمى « قصر شنيل »"Alcázar Genil" ، وهو يقع خارج المدينة على الضفة اليسرى من نهر

شنيل ، فى بقعة خضراء منعزلة تسمى ضاحية « أرميليا » "Armilla" ، أوحدائق الملكة . وهو بناء أو بالحرى بقية بناء ذى باب عربى معقود ، على رأسه رقعة نقش عليها « ولا غالب إلا الله » ، ونقش فى عقد المدخل ما يأتى :

يا ثقتى يا أملى أنت الرجاء أنت الولى

فيا للنبى المرسـلى اختم بخير عملى

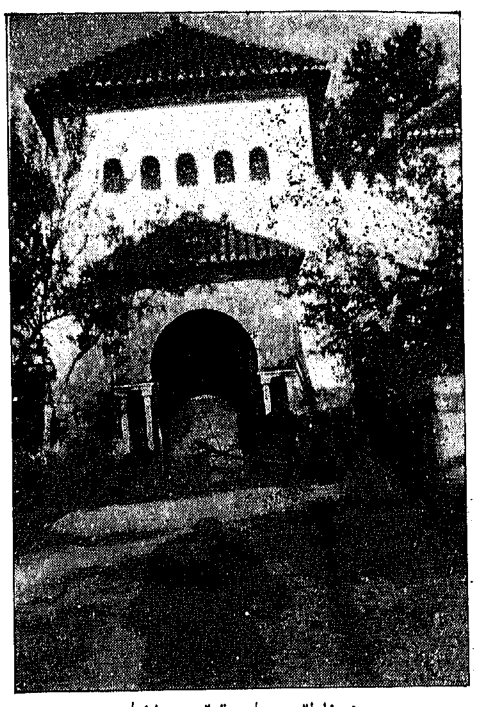
ويفضى هذا المدخل إلى بهو مربع ، به أربعة عقود جميلة ، فى كل جانب عقدان ، وله قبة عالية مزينة بالمقرنصات ، على مثل زخارف قبة بهو بنى سراج بقصر الحمراء ، ويبلغ ارتفاع القبة نحو اثنى عشر متراً . وقد نقشت على جوانب البهو العبارة الآتية فى رقاع عدة « عز لمولانا السلطان » مكررة حول المربع . ونقشت كذلك فى الحزام الأعلى . ونقش فى الحزام الذى يليه هذه العبارة مكررة « الحمد لله على نعمة الإسلام » ، كما نقشت هذه العبارة فى جوانب العقود الأربعة. ونقش فى الحزام الأخير حول المربع « ولاغالب إلا الله » مكررة كذلك . ونقش فى دوائر مختلفة هذه العبارات «من حسن كلامه وعز إكرامه » « عز لمولاناالسلطان» « الملك العادل المرابط » .

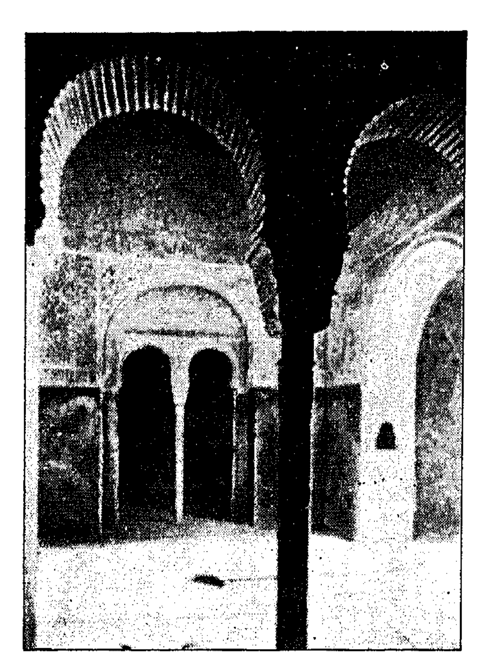
وتتسم واجهة هذا الأثر وبهوه ، بطابع مؤثر من الجمال والنبل ، مما يدل على أنه كان صرحاً ملوكياً ذا شأن . والحقيقة أنه بقية من قصر شنّيل الذى أنشأه الأمير الموحدى السيد إسحق بن الخليفة أبى يعقوب يوسف فى سنة ٦١٥هـ (١٢١٨م) خارج غرناطة ، على مقربة من نهر شنيل ، حسبما يروى لنا صاحب كتاب «الحلل الموشية » ، وحسبما جاء أيضاً فى كتاب « الإحاطة » لابن الخطيب[١] ، وقد كان يسمى عندئذ « قصر السيد » . وقد غلب عليه هذا الاسم أيام مملكة غرناطة ، وكان يستعمله ملوك بنى نصر قصراً للضيافة . وفيه أقام « الإنفانت» فيليب أخو الملك ألفونسو العاشر ، حينما ثار عليه ، والتجأ مع نفر من الفرسان النصارى ، إلى سلطان غرناطة ، محمد بن الأحمر الملقب بالفقيه ، وذلك فى سنة ١٢٧٠ م .

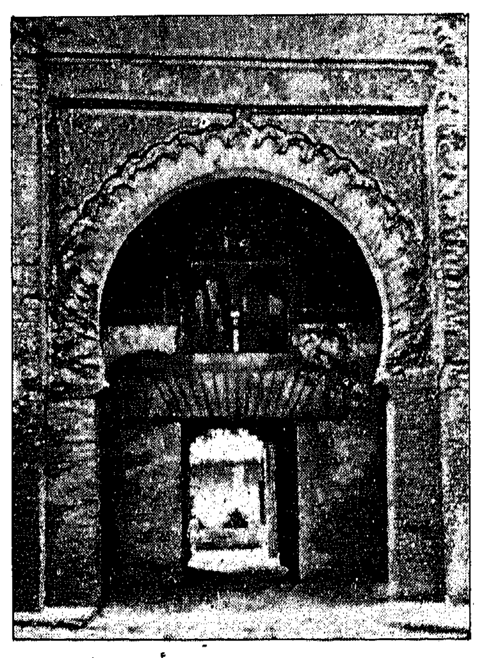
وأما قنطرة شنّيل فتقع على نهر شنيل عند ملتقاه بفرعه حدرّه فى نهاية الشارع

---

(١) « الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية » وهو لمؤلف مجهول (طبع تونس) ص ١٢٦ . وراجع كتاب « الإحاطة فى أخبار غرناطة » (القاهرة ١٩٥٦) ص ١٢٥ و٣٢٤ و٥٦١ حيث يجرى ذكر هذا القصر.


غرناطة . واجهة قصر شنيل


عقود قصر شنيل


غرناطة . عقد مدخل الفندق أو فناء الفحم


غرناطة . فناء منزل أندلسى قديم

الكبير المسمى طريق حدرّه Acera de Darro، وهى من أشهر القناطر الأندلسية، وقد بنيت فوق خمسة عقود على مثل القناطر الرومانية ، وبقيت على أصلها الأندلسى ، حتى أضر بها الفيضان العرم فى أوائل القرن السابع عشر ، فجددها الإسبان ، ولكن على طرازها الأصلى . وما زالت إلى اليوم تحمل اسمها الأندلسى القديم « قنطرة شنيل » Puente de Genil .

متاحف الآثار والصور

وتوجد فى غرناطة عدة متاحف أثرية هامة ، فى مقدمتها متحف الحمراء ، وهو قائم فى عدة أبهاء علوية ، واقعة عند مدخل قصر الحمراء ، فى مواجهة قصر شارلكان ، ويحتوى على طائفة كبيرة من القطع واللوحات الأثرية ، معظمها من مخلفات قصر الحمراء ، وبعضها من مخلفات قصر جنة العريف ، وقد شاهدنا من بينها الأشياء الآتية :

١ — لوحة رخامية كبيرة ، فى حجم باب متوسط ، نصفها الأعلى بيضاوى ، ونصفها الأسفل مستطيل ، وقد سجل فيها إنشاء المارستان (المستشفى) النصرى ، على يد السلطان الغنى بالله ، وهذا نصها :

«الحمدلله ، أمر ببناء هذا المارستان ، رحمة واسعة لضعفاء مرضى المسلمين ، وقربة نافعة إن شاء الله لرب العالمين ، وخلد حسنته ناطقة باللسان المبين ، وأجرى صدقته على مر الأعوام وتوالى السنين ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين ، المولى الإمام ، السلطان الهمام ، الكبير الشهير ، الطاهر الظاهر ، أسعد قومه دولة ، وأمضاهم فى سبيل الله صولة ، صاحب الفتوح ، والصنع الممنوح ، والصدر المشروح ، المؤيد بالملائكة والروح ، ناصر السنة ، كهف الملة ، أمير المسلمين الغنى بالله ، أبو عبد الله محمد ابن المولى الكبير الشهير ، السلطان الجليل ، الرفيع المجاهد العادل الحافل ، السعيد الشهيد المقدس ، أمير المسلمين أبى الحجاج ابن المولى السلطان الجليل الشهير الكبير ، المعظم المنصور ، هازم المشركين ، وقامع الكفرة المعتدين ، السعيد الشهيد أبى الوليد بن نصر الأنصارى الخزرجى ، أنجح الله فى مرضاته أعماله ، وبلغه من فضله العميم ، وثوابه الجسيم آماله ، فاخترع به حسنة لم يسبق إليها من لدن دخل الإسلام ، واختص بها طراز فخر على عاتق حلة

الجهاد ، وقصد وجه الله بابتغاء الأجر ، والله ذو الفضل العظيم ، وقدم نوراً يسعى بين يديه ومن خلفه ، يوم لاينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم ، وكان ابتداء بنائه فى العشر الوسط من شهر المحرم ، من عام سبعة وستين وسبعمائة ، وتم ما قصد إليه ووقف الأوقاف عليه ، فى العشر الوسط من شوال من عام ثمانية وستين وسبعمائة ، والله لايضيع أجر العاملين ، ولايخيب سعى المحسنين ، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين ، وآله وأصحابه أجمعين » .

والمعروف من تاريخ هذا المارستان ، أنه كان قائماً على الضفة اليمنى لنهر حدرُّه ، وقد هدم فى القرن الماضى فقط ، وعملت له قبل هدمه رسوم وخطط ولوحات كاملة(١) .

٢ — لوحتين كبيرتين من المرمر ، طول كل منها نحو مترين وعرضها ٦٠ سنتيمتراً ، وقد نقشت على حافاتها زخارف عربية بديعة ، وشعار بنى نصر « ولا غالب إلا الله » .

٣ — صحن نافورة كبيرة ، وبه بقية من غطاء مرمرى أخضر ، يبلغ قطره نحو متر ونصف .

٤ — خمس لوحات خشبية مستطيلة ، أصلها من مخلفات فناء الأسود ، وعليها زخارف عربية بديعة ، منها ثلاث فى حجم ١,٣٠ × ٠,٣٥ متراً ، واثنتان فى حجم ١,٦٠ × ٠,٥٠ متراً ، وقد سقطت من حافة البهو الخشبية .

٥ — لوحة خشبية من قصر جنة العريف ، وعليها نقوش وزخارف بديعة ، وعبارة « ولا غالب إلا الله » .

٦ — لوحة خشبية مذهبة أخذت من قصر جنة العريف ، وتنسب لأسرة (بنيغش) Los Venegas ، الذين تنصروا عقب سقوط غرناطة ، وعليها خمس رمانات هى شعار غرناطة النصرانية ، وشعار بنيغش ، وقد نقشت فوقها هذه العبارة اللاتينية Cris Vincit ، ومعناها « المسيح هو الغالب » ، وقد أريد بها على ما يظهر ، أن تعارض شعار بنى نصر « ولاغالب إلا الله » . وفوقها باللاتينية Servire Dio Regnares ، ومعناها « خدمة الله هى الكفاح » . وهى لوحة ذات مغزى عميق :

(١) راجع مقالا عن هذا المارستان وتاريخه فى مجلة الأندلس : Al-Andalus (1943), p. 482

٧ — جرة (زلعة) كبيرة زرقاء من الخزف الفاخر ، عليها نقوش رائعة وآيات قرآنية ، وتعتبر من أبدع نماذج هذه الصناعة الخزفية ، التي امتازت بها الأندلس المسلمة .

وطائفة كبيرة أخرى من اللوحات والزخارف ، ومن قطع الفسيفساء الملون (المزايك) ، ومعظمها من صنع موريسكي .

وأما المتحف الأثري (الأركيولوجي) ، فيقع في واجهة حي البيّازين ، على طريق ساكرومونتي ، في منزل قديم هو منزل آل ثفرا Zafra الذين كان عميدهم فرناندو دي ثفرا سكرتيراً « للملكين الكاثوليكيين » ، واشترك في وضع معاهدة التسليم .

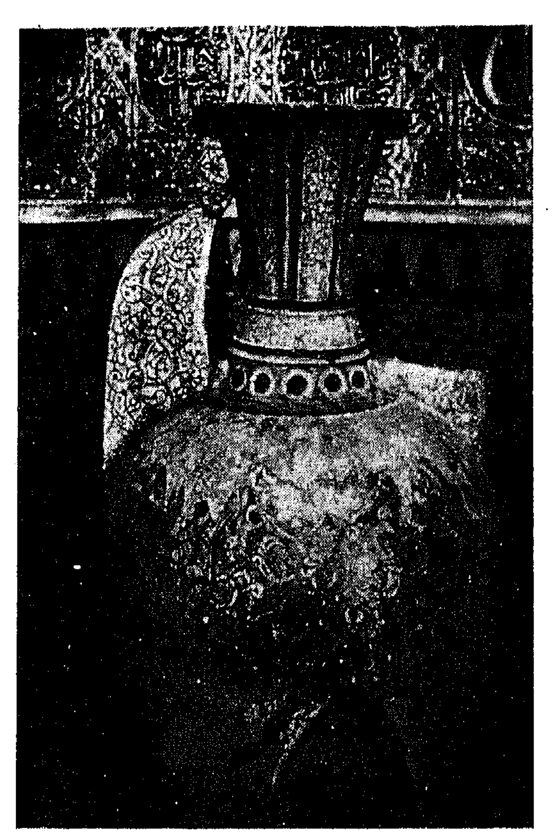
وهو يحتوي على طائفة كبيرة من اللوحات الخشبية والرخامية والأقواس ، وقطع عديدة من أبواب وشبابيك عربية ، ومنها عدة لوحات رخامية من مدرسة غرناطة من بينها بضع قطع من لوحة إنشائها على يد السلطان يوسف أبي الحجاج وفيها أن إنشاءها قد تم في المحرم سنة ٧٥٠ هـ (١٣٤٩ م) ، وباقيها آيات قرآنية . كما توجد قطع زخرفية عديدة تمثل نماذج الزخارف الإسلامية في غرناطة ، وغيرها من مدن الأندلس ، في عصرها الأخير[١] .

وإلى جانب هذين المتحفين الهامين ، يوجد متحف ثالث للصور ، هو القائم في الدار المعروفة باسم Casa de los Tiros «دار الرماية» ، وهي دار أندلسية قديمة ، واقعة في شارع Pavaneras ، وتحتوي على عدة أبهاء عرضت بها طائفة من الصور ، من بينها عدد من الصور التاريخية ، التي كانت تحفظ من قبل بمتحف جنة العريف . وكان قصر جنة العريف ، على مثل قصر الحمراء ، يضم متحفاً في الطابق الأعلى منه ، في الجناح المعروف بجناح الملكة إيسابيلا . ويحتوي هذا المتحف على مجموعة تاريخية من الصور : منها صورتان للملكين الكاثوليكيين ، وصورتان لأبي عبد الله آخر ملوك الأندلس كلتاهما لمصور مجهول ، وإحداهما توجد بالمتحف منذ عهد بعيد ، ويشك في أنها صورته ، ويقال إنها صورة للمتوكل ابن هود ، والأخرى أهديت إلى المتحف ، من أسرة «فرناندث جيرّا» الغرناطية

---

(١) وقد نشر الأستاذ ليڤي بروڤنسال في كتابه **Inscriptions Arabes d'Espagne** صور كثير من اللوحات الموجودة في هذين المتحفين .

وقد كانت تحتفظ بها من أجيال ، وسيف أبى عبد الله ، وصورة يحيى النياربطل ألمرية ،وشجرة نسب لملوك سرقسطة وغرناطة ، وصور آل بنّيغش الذين عاشوا حيناً فى القصر. وكان قصر جنة العريف ومحتوياته ، ملكاً خاصاً لأسرة إسبانية إيطالية هى أسرة Durazzo Pellivinci فى سنة ١٩٢١ اتفقت هذه الأسرة مع السلطات المسئولة ، على تسليم القصر إلى الحكومة الإسبانية ، واحتفظت بمعظم محتويات المتحف المذكور من أثاث وصور ، ونقلتها إلى إيطاليا ، وكان منها فيما يظهر صورة أبى عبد الله . وعلى أى حال فإنه لا يوجد اليوم فى متحف « دار الرماية » بغرناطة ، من محتويات جنـــة العريف السابقة ،



متحف الحمراء . زلعة خزفية رائعة الزخرف

سوى صورتى الملكين الكاثوليكيين ، وصورة أبى عبد الله المهداة من أسرة « فرناندث جيرّا » وهى صورة حجمها ٤٠ × ٢٧ سنتى متراً ، وفيها صورة نصفية لأبى عبد الله ، ويبدو فيها وعلى رأسه تاج ، وفى عنقه سلسلة ، هى عنوان أسره ، لأنها صورت أثناء أن كان فى أسر الملكين الكاثوليكيين بقرطبة بين سنتى ١٤٨٣—١٤٨٥م (١)، وصورة لسيد أسرة بنيغش الأندلسية المتنصرة Los Venegas المسمى سيدى يحيى ، أو الدوق پيدرو دى جرانادا ڤنيجاس ، وهى كبيرة الحجم

(١) نشرنا صورتى أبى عبد الله . الأولى فى فاتحة الكتاب . والثانية فى مجموعة الحمراء بعد ص ٢٠٨ .

وفيها يبدو بملابس عسكرية قشتالية مزركشة ، وتبدو على محياه مسحة المسلمين ، وقد أمسك سيفه بيده .

وأخيراً يوجد متحف للبلدية ، عرضت فيه بعض الصور ، ومنها صورة كبيرة حديثة للمصور Paradillo (سنة ١٨٨٢) ، عرض فيها منظر خيالى لتسليم غرناطة ، وفيه يبدو أبو عبد الله راكباً جواده ، ومن ورائه بعض جند معممين ، وقد ارتدى عباءة سوداء ، وأمسك بيده مفتاح المدينة . وأمامه فى الناحية الأخرى الملك فرديناند راكباً جواده ، وإلى جانبه الملكة إيسابيلا فوق جوادها ، تحف بهما طائفة من السادة والجند النصارى .

وعناية السلطات فى غرناطة بأمر المتاحف ، ترجع إلى نفس الفكرة التاريخية ، وهى الحرص على جمع سائر الآثار والتحف ، التى تتعلق بعصر الفتح والاستيلاء على غرناطة آخر القواعد الأندلسية .

وصف الغزال لغرناطة

وقد ترك لنا الغزّال الفاسى ، الذى زار إسبانيا فى سنة ١١٧٩ هـ (١٧٦٥م) سفيراً من قبل سلطان المغرب المنصور بالله أبى عبد الله ، إلى ملك اسبانيا كارلوس الثالث ، وتجول فى قواعد الأندلس الذاهبة ، وصفاً لمدينة غرناطة وآثارها ، يقول فيه : إنها تقع على مقربة من واد منبسط فيه أجنة من الزيتون والكروم وجميع الفاكهة ، وبساتين عظيمة ، مما يدل على أن مرج غرناطة ، كان ما يزال حتى ذلك العصر محتفظاً بخصبه ونضرته . ثم يقول ، إنه رآها تخالف سائر المدن الإسبانية التى زارها فى بنيان دورها وشوارعها ، وأنها ما زالت على حالها التى كانت عليه فى الإسلام ، وهى أقرب المدن شبهاً بفاس ، فى بنائها وجريان الأودية بجدرانها ، ثم القناطر المضروبة عليها ، وما اشتملت عليه الديار من الخصص والتزليج والدرابيز من اللوح المستديرة بمباحات الطبقة الثانية ، المشرفة على صحن الدار ، والبيوت والغرف والسقوف والأبواب ، كل ذلك مشاكل لمدينة فاس .

ثم يذكر لنا الغزال أنه توجد بغرناطة عدة مساجد صارت كنائس ، ولها قباب ، وفى صحونها أنشئت المصلات النصرانية ، ويفيض فى وصف « الجامع » الذى به مقابر ملوكهم ، ووصف قبته العظمى ، وما بها من تصاوير وصلبان

(وهو يقصـــد بلا ريب الكتدرائية أو الكنيسة العظمى التى بها قبر فرديناند وإيسابيلا) . بيد أنه يقول لنا إنه رأى بالمدينة فى نفس الوقت ، بعض المساجد التى بقيت على بنائها الإسلامى .

ويصف الغزال بعد ذلك وادى شنيل ، وما يحتويه من الحدائق والمتنزهات والمقاعد الكبيرة ، وما يمتاز به من كونه متنزه أهل غرناطة ، ومسرح أسمارهم فى الليالى الصافية[١] .

ويبدو من أوصاف الغزال ، أن غرناطة كانت ما تزال حتى أواخر القرن الثامن عشر ، تحتفظ بكثير من خططها ومظاهرها الأندلسية . والواقع أن معظم التغييرات والإصلاحات الحديثة ، التى طرأت على خططها ومعالمها ، قد وقعت منذ أوائل القرن التاسع عشر ، أى بعد العصر الذى يتحدث عنه الغزال بنحو نصف قرن .

---

(١) رحلة الغزال السالفة الذكر ص ٨١ — ٨٣ .

قصر الحمـــــراء

Alhambra

إن أول ما تضطرم به مخيلتك ، حينما تصل إلى مدينة غرناطة ، هو أن ترى درة الآثار الأندلسية الفريدة – قصر الحمراء ، وهو الذى حرف الإسبان اسمه ، فأصبح يعرف فى العالم الغربى باسم Alhambra .

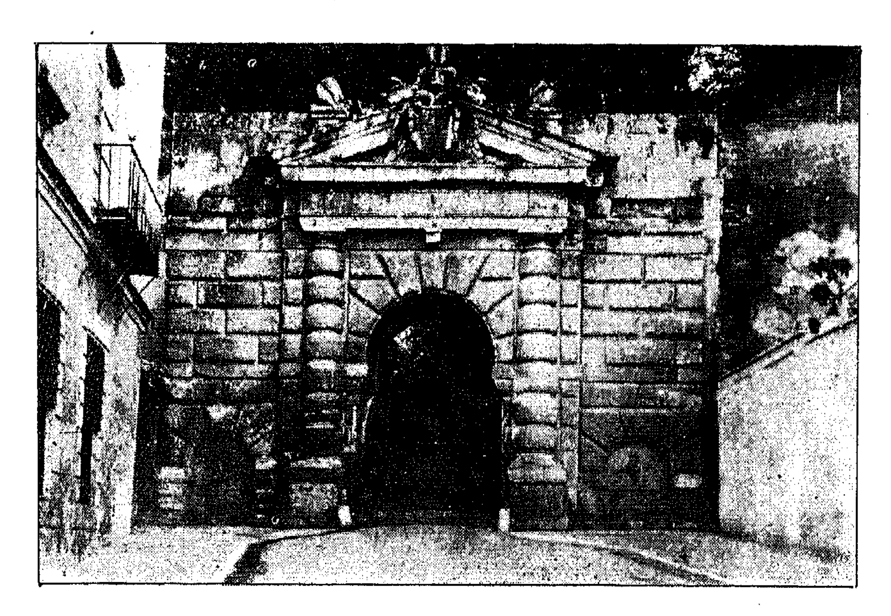
وقصر الحمراء لايرى من داخل المدينة لأول وهلة ، ولكنك تستطيع متى جزت إلى المدان الجديد Plaza Nueva ، وسرت فى طريق نهر « حدرُه » Carrera de Darro ، أن ترى إلى يمينك أبراج الحمراء مشرفة من هضبتها العالية ، على مجرى النهر القديم الذى غطى معظمه الآن .

ومن الميدان الجديد ، يسير المرء فى طريق صاعدة تسمى «مرتفع بنى غمارة » C. de Gomeres ، حتى باب القصبة الأول المسمى « باب الرمان » Puerta de Granadas ، ومنه تدخل هضبة الحمراء .

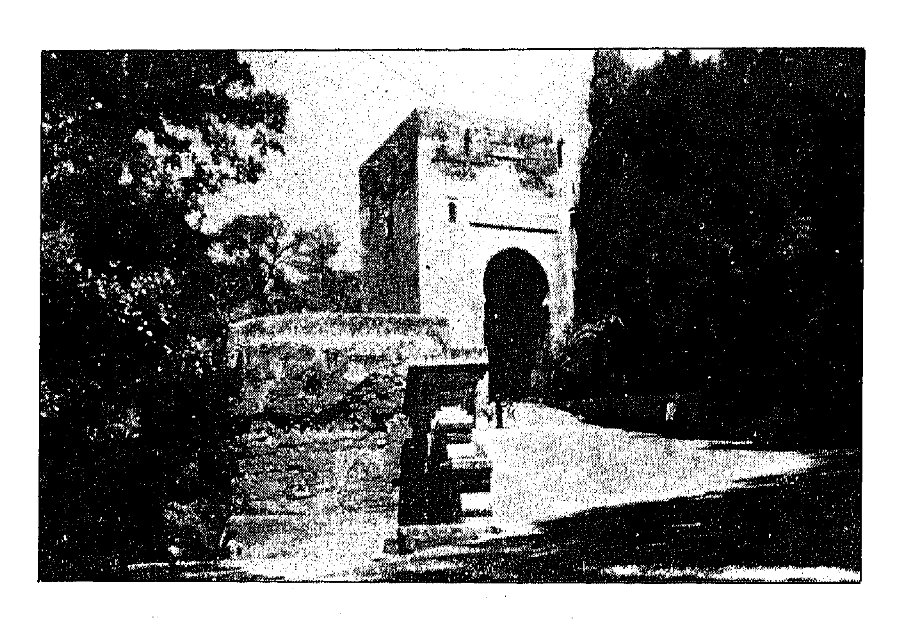
وباب الرمان ليس من أبواب الحمراء الأندلسية ، ولكن بنى فى عهـد الإمبراطور شارلكان على طراز عصر الأحياء . وهو عبارة عن عقد حجرى ضخم ، يقوم طرفاه على عمودين كبيرين ، وقد نصبت فى أعلاه ثلاث رمانات على هيئة مثلث . وكان يسمى فى البداية « باب بنى غمارة » ، ولكن سمى فيما بعد باسمه الحالى وهو « باب الرمان » ، وهو شعار غرناطة المشتق من اسمها .

وتبدو من وراء باب الرمان غابة رائعة ، تسحرك بأشجارها الباسقة ، وخرير الماء المتدفق فى جوانبها ، وشدو البلابل التى تملأ أغصانها . وتتفسح أمامك ثلاثة طرق عريضة ، يفضى أولها وهو الأيمن إلى « الأبراج الحمراء » ، والأوسط إلى قصر « جنة العريف» ، والثالث وهو الأيسر يفضى إلى « باب الشريعة » أول أبواب الحمراء .

والطريق المفضى إلى باب الشريعة ، طريق صاعد مجهد ، صفت على جانبيه المقاعد الحجرية ، وقد أنشىء فى ناحيته اليسرى قبيل الباب بقليل ، حوض



غرناطة . باب الرمان مدخل الحمراء الرئيسى



الحمراء . ميدان باب الشريعة عند نهاية الطريق الصاعد

مستطيل مزخرف نقشت فوقه صور لبعض الأساطير اليونانية ، وهو يرجع إلى عصر الإمبراطور شارلكان .

ويجب أن نذكر أولا ، أن هذه الغابة الفخمة ، وطرقها العريضة الرائعة هى من عمل الإسبان ، ولم تكن موجودة أيام المسلمين ، بل كانت هذه الرقعة الشاسعة التى تشغلها الآن ، أرضاً براحاً فى أسفل الحمراء ، كانت تسمى فى ذلك العصر « بالسبيكة » ، وهو اسم يتردد كثيراً فى أخبار مملكة غرناطة ، ولاسيما فى عصرها الأخير .

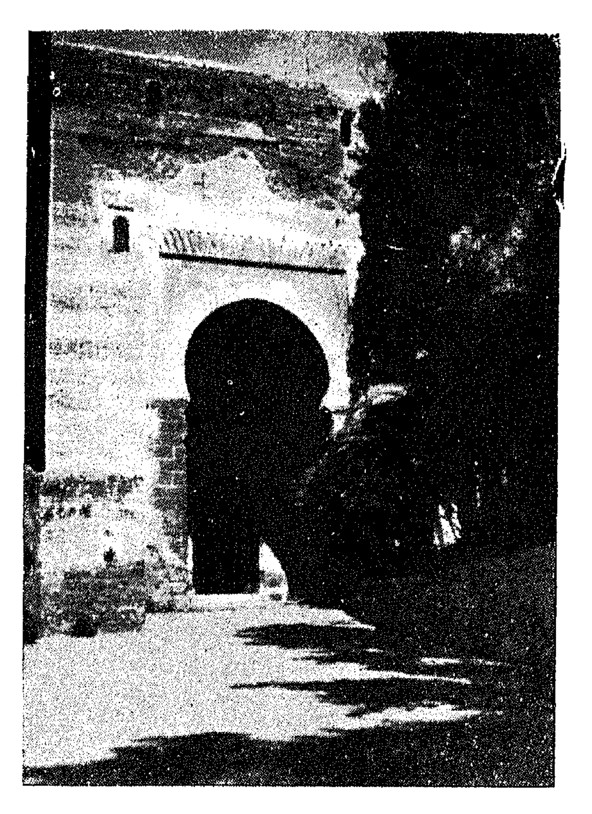
وفى منتصف هذا الطريق الصاعد ، يوجد ميدان صغير يطل عليه « باب الشريعة » ، وهو أشهر أبواب الحمراء ، وهو اليوم مدخلها الرئيسى . وقد كان هذا الباب كما يدل عليه اسمه مجازاً لذوى المظالم ، وفى الساحة التى تليه يجلس السلطان أو نائبه للفصل فى المظالم فى يوم معين ، جرياً على تقاليد خلفاء الأندلس وملوكها السابقين .

ويبلغ ارتفاع باب الشريعة نحو خمسة عشر متراً ، وقد صنع عقده المزخرف على مثل حدوة الجواد ، ونقش على قوسه سطران ، كتب فيهما بخط أندلسى متشابك ، اسم منشئه وتاريخ إنشائه على النحو الآتى :

« أمر ببناء هذا الباب المسمى باب الشريعة ، أسعد الله به شريعة الإسلام كما جعله فخراً باقياً على الأيام ، مولانا أمير المسلمين السلطان المجاهد العادل أبو الحجاج يوسف ابن مولانا السلطان المجاهد المقدس أبى الوليد بن نصر كافى الله فى الإسلام صنائعه الزاكية وتقبل أعماله الجهادية ، فتيسر ذلك فى شهر المولد المعظم من عام تسعة وأربعين وسبعمائة ، جعله الله عزة وافية وكتبه فى الأعمال الصالحة الباقية » .

ويوافق هذا التاريخ « ٧٤٩ هـ » سنة ١٣٤٨ م . والسلطان يوسف أبو الحجاج المشار إليه ، هو أعظم سلاطين مملكة غرناطة ، وقد حكم من سنة ١٣٣٣ — ١٣٥٤ م ، وهو الذى شيد أجمل وأفخم أجنحة الحمراء .

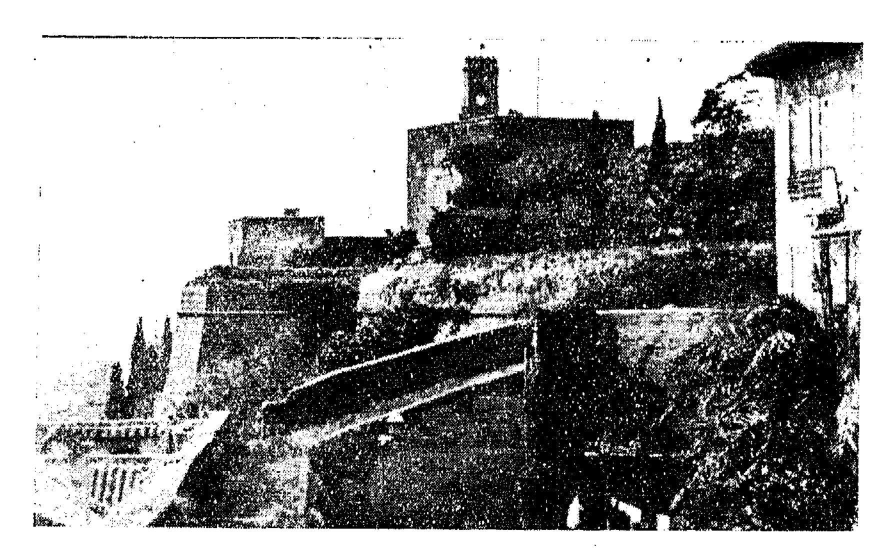
ووراء باب الشريعة مجاز معقود ، به فى الناحية اليمنى محراب وضع فيه تمثال للعذراء ، وفى نهايته مصلى أقيم به هيكل . وقد صنعت به لوحة رخامية أشير فيها إلى حصار غرناطة ، وتسليمها للملكين الكاثوليكيين فى ٢ يناير سنة ١٤٩٢ .



الحمراء . باب الشريعة



الحمراء . باب الشراب



الحمراء . برج الحراسة أعظم أبراج القصبة

ويلى ذلك درب صغير يتجه غرباً ، وقد أقيمت على جانبه الأيمن بضعة حوانيت لبيع الصور والتحف الغرناطية . ثم يتجه شمالا ، وفى نهايته من الناحية اليسرى ، يوجد باب معقود أطلق عليه اسم « باب النبيذ » أوباب « الشراب» Puerta del Vino ، وكان أيام المسلمين يسمى باب غرناطة أوباب الحمراء ، ولسنا نعرف سبب تسميته بهذا الاسم .

وفى شمال هذا الدرب الصاعد ، يطالعك ميدان شاسع أطلق عليه الإسبان اسم « ميدان الأجباب » Plaza de Ios Aljibes . ومنه ترى لأول مرة أهم مجموعة من الصروح والأماكن الأثرية التى تضمها قصبة الحمراء .

فإلى يمينك ترى القصر الذى أنشأه الإمبراطور شارلكان ، فى جنوب قصر الحمراء ، وإلى يسارك ترى الساحة التى يطلق عليها اسم « القصبة » أو الحصن ، وفى نهايتها البرج الضخم الذى يسمى « برج الحراسة » Torre de la Vela ، وهو من أعظم أبراج الحمراء ، وهو يشرف عالياً على مرج غرناطة كله . وهذا البرج هو الذى اختاره الإسبان عند دخولهم لرفع الصليب ، وما يزال هذا الصليب الذى وضع فى أعلاه يوم دخول الإسبان غرناطة قائماً فى مكانه ، وهو صليب خشبى كبير وضع فى الزاوية الشمالية الغربية .

وأمامك ترى جانباً من قصر الحمراء ، وهو الذى يسميه الإسبان «القصر العربى » Palacio Arabe .

* * *

أجل هذا هو قصر الحمراء .

هذا هو قبلة الرواد من سائر أنحاء الأرض ، وهذا هو خاتمة المطاف لرواد اسبانيا ورواد الأندلس .

أجل هنا كانت ثمة مملكة ، وكان ثمة ملك وعرش . وبين جدران هذا القصر ، كان يقيم سلاطين مملكة غرناطة الإسلامية آخر الممالك الأندلسية ، وهنا كان رجالات هذه الأندلس الأخيرة ، يوجهون مصائر شعب عظيم مسلم . أجل كانت الحمراء معقل مملكة إسلامية عظيمة ، استمر تاريخها يدوى فى الآفاق ، زهاء مائتى عام ، وعنوان مدنية إسلامية زاهرة ، تركت آثارها الخالدة فى الربوع التى تألقت فيها . ثم كانت الحمراء بعد ذلك قبراً لهذه المملكة وهذه المدنية . وفى بعض

أبهاء الحمراء وقع أبو عبد الله آخر ملوك الأندلس ووزراؤه ، معاهدة تسليم غرناطة والحمراء ، وحكموا بذلك على دولتهم بالمحو ، وعلى أمتهم بالفناء .

وبين هذه الجدران الصامتة ، التي يكاد الأسى يرتسم على زخارفها العربية ، ونقوشها الإسلامية ، يضطرم الخيال بهذه الفكر وأمثالها ، بل يكاد الدمع يغالبك وأنت تجوس خلال هذه الأبهاء الملوكية الفخمة ، وتقرأ فى كل ركن منها تلك العبارة المؤسية ، التى لبثت شعار بنى نصر ملوك غرناطة حتى انتهاء دولتهم :

« ولا غالب إلا الله »

ولا بد لنا قبل أن نجوز إلى داخل هذا القصر الملكى ، الذى يضم تاريخ مملكة بأسرها ، أن نقول كلمة عن تاريخه .

إن قصر الحمراء لم يكن سوى جزء صغير فقط ، من مدينة الحمراء أو كما تسميها الرواية الإسلامية « قصبة الحمراء » . وكانت القصبة تشمل عادة قصر الحاكم والقلعة أو القلاع التى تحميه ، ودور الوزراء والحاشية . وأحياناً تنمو هذه المجموعة حتى تغدو قاعدة ملوكية محصنة . وكان هذا شأن الزهراء ، التى أنشأها الخليفة عبد الرحمن الناصر وولده الحكم المستنصر ، فى أواسط القرن الرابع الهجرى ، وكذا كان شأن مدينة الزاهرة ، التى أنشأها المنصور بن أبى عامر (الحاجب المنصور) عقب إنشاء الزهراء فى سنة ٣٦٨ هـ . وعلى هذا المنوال نشأت الحمراء ، ونمت وتطورت ، حتى أصبحت مدينة ملوكية حقة .

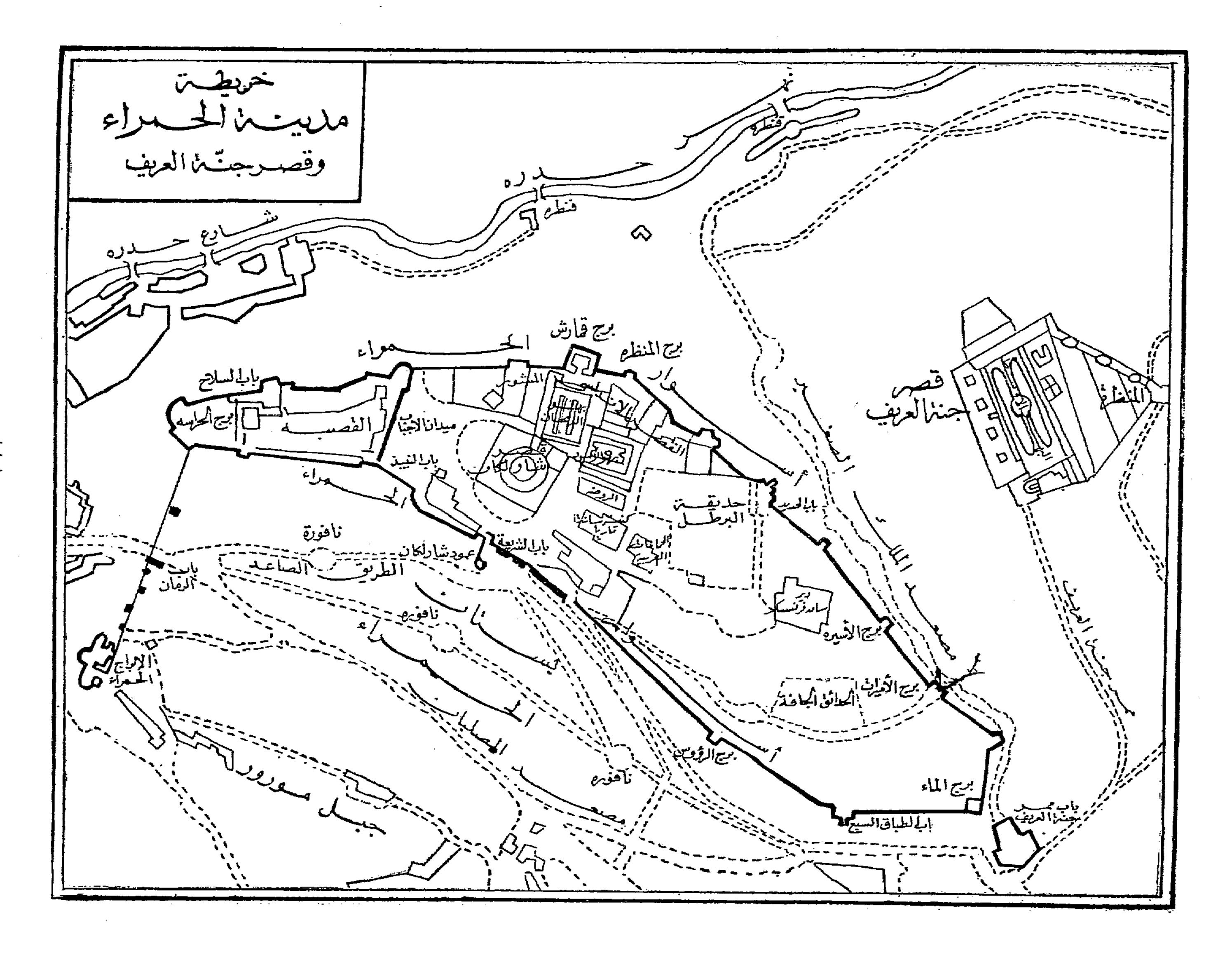
ويرجع قيام الحمراء إلى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) . فإن الرواية الأندلسية تشير ، إلى قلعة تسمى قلعة الحمراء ، بنيت فوق الهضبة الواقعة على ضفة نهر حدرّه اليسرى ، وكان لها شأن أيام الحروب الأهلية ، التى اضطرمت فى منطقة غرناطة ، بين العرب والبربر والمولدين فى هذا العصر . ولما تولى باديس بن حبّوس زعيم البربر حكم غرناطة ، على أثر قيام دول الطوائف فى أوائل القرن الخامس ، أنشأ سوراً منيعاً حول الهضبة التى تقع عليها قلعة الحمراء ، وأنشأ داخله قصراً ومركزاً لحكومته ، وسميت بالقصبة الحمراء ، وغدت هذه القلعة معقل غرناطة الرئيسى .

ولما غلب محمد بن الأحمر النصرى على غرناطة سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٨ م) اتخذ مركزه فى « القصبة » ، وأنشأ داخل أسوارها قصره المحصن الذى أطلق عليه اسم الحمراء القديم ، واتخذه قاعدة للملك ، وجلب إليه الماء من نهر حدرّه ،

وأنشأ حوله عدة أبراج منيعة، منها البرج الكبير المسمى برج الحراسة T. de la Vela الذى سبقت الإشارة إليه، وابتنى حوله سوراً ضخماً يمتد حتى مستوى الهضبة. ومن المرجح أنه بنى مسكنه الخاص فى الجنوب الغربى من الحصن، أعنى فى نفس المكان الذى يقوم عليه اليوم قصر الإمبراطور شارلكان. وسميت القصبة الحديدة «بالحمراء»، جرياً على اسمها القديم، الذى هو أصل التسمية. ومن الخطأ أن يقال إن اطلاق اسم «الحمراء» عليها، يرجع إلى اسم منشئها «ابن الأحمر» أو أنه يرجع إلى لون الآجر الأحمر الذى بنيت به الأسوار الخارجية، ذلك لأنه ثبت أن هذا اللون الأحمر الذى تبدو به الأسوار، يرجع إلى العصر الحديث، وأنه من صنع الإسبان.

وفى أواخر القرن السابع الهجرى، أنشأ محمد بن محمد بن الأحمر ثانى سلاطين غرناطة، الملقب بالغالب بالله، الحصن الجديد والقصر الملكى، وأنشأ ولده محمد إلى جوار القصر مسجداً، هو الذى تحتل موقعه اليوم كنيسة «سانتا ماريا». ثم جاء السلطان أبو الوليد اسماعيل، فزاد فى القصر وفى تجميله. بيد أن الحمراء تدين بفخامتها وروعتها، بالأخص إلى ولده السلطان يوسف أبى الحجاج، الملك الشاعر والفنان الموهوب، فهو الذى بنى معظم الأجنحة والأبهاء الملوكية، التى ما زالت تسبغ على الحمراء روعتها الخالدة، وهو الذى أغدق عليها روائع الفن والزخرف، وبنى باب الشريعة الشاهق الذى سبقت الإشارة إليه.

وتقع مدينة الحمراء فوق هضبة مرتفعة، يبلغ طولها ٧٣٦ متراً، وعرضها نحو مائتى متر، ويحيط بها سور ضخم بقيت منه إلى اليوم أجزاء كبيرة. ويتخلل السور عدة أبراج وأبواب بقى معظمها إلى اليوم. وأهم أبراجه الباقية، هى برج الحراسة الواقع فى الطرف الغربى من الهضبة، وهو الجزء الذى مازال يسمى إلى اليوم «بالقصبة»، وبرج قمارش Torre de Comares، الواقع فوق قاعة السفراء التى سيأتى ذكرها، وبرج المتزين T. del Peinador، وبرج العقائل T. de las Damas، وبرج الآكام T. de los Picos، وبرج الأسيرة T. de la Cautiva، وبرج الأميرات T. de las Infantas. وهذه الستة الأخيرة تقع كلها فى شمال الهضبة، وتطل على غرناطة والمرج La Vega. وبرج الماء T. del Agua، وهو يقع فى طرف الهضبة الشرقى، وبرج الرؤوس T. de las Cabezas، وهو يقع


خريطة
مدينة الحمراء
وقصر جنة العريف
شارع حدره
حدره
قنطرة
الحمراء
برج قمارش
برج المنظر
باب السلاح
برج الحراسة
القصبة
ميدان الأجباب
باب النبيذ
قصر
جنة العريف
حديقة
البرطل
باب الشريعة
عمود شارلكان
نافورة
الطريق الصاعد
باب الرمان
نافورة
الأبراج الحمراء
برج الأسيرة
برج الأميرات
الحدائق الجافة
برج الرؤوس
برج الماء
جبل مورور
نافورة

فى جنوب الهضبة . ومما يجدر ذكره أن معظم هذه الأسماء هى من وضع الإسبان .
وأما أهم أبواب الحمراء الباقية ، فهى باب الغدور Puerta de las Pozas ، وباب الطباق السبع Puerta de Siete Suelos ، وبرجه المسمى بهذا الاسم ، وهو الباب الذى تقول الرواية إن أبا عبد الله آخر ملوك الأندلس استقبل فيه الفاتحين يوم التسليم وطلب أن يبنى مكانه حتى لا يجوزه إنسان بعده ، وقد نزل الإسبان عند هذه الرغبة وبنى الباب ، وهو يبدو اليوم مغلقاً ببنائه القديم . وباب الشريعة الذى سبقت الإشارة إليه . وكلاهما يقع فى جنوبى الهضبة . وباب السلاح Puerta de las Armas الواقع فى شمال القصبة على مقربة من برج الحراسة ، وباب النبيذ الذى سبقت الإشارة إليه وهو داخل الأسوار.

وتقع بعد « القصبة » فى الطرف الغربى من الهضبة ، قلعة قديمة تسمى « حصن الأبراج الحمراء » Castillo de Torres bermejas

وموقع هضبة الحمراء ذو جمال طبيعى نادر ، فهى تشرف من الشمال والغرب من موقعها المنيع الشاهق ، على مدينة غرناطة ، وعلى فحصها أو مرجها الشهير La Vega وتشرف من الشرق والجنوب على آكام جبال سييرا نفادا Sierra Nevada ، التى تعرف فى الرواية الأندلسية بجبل شُلّير أو جبل الثلج ، وهى أقرب ما يكون إلى أحياء المدينة من جانبها الشمالى الغربى ، إذ تشرف من عل على مجرى نهر حدرّه وعلى حى البيازين .

* * *

ولنعد الآن إلى قصر الحمراء .

إن قصر الحمراء ، أو بالحرى ما تبقى منه ، هو أعظم وأروع الآثار الأندلسية الباقية ، كما أنه يعتبر من أبدع الآثار الإسلامية ، التى أبقت عليها حوادث الزمن. وهو يبدو بعقوده ، وسقوفه ذات الزخارف البديعة ، وأعمدته الرخامية الرشيقة ، وإناقته المتناهية ، من أجمل ما تقع عليه العين من الصروح الأثرية ؛ وهو مشرق منير يغمره الضوء والهواء . بيد أنه مما يسترعى النظر أن هذا الإشراق ، تطبعه لمحة من الأسى والكآبة ، يحس بها المتأمل فى جنباته الصامتة ، وكأنه إنما يرتد فى حسرة وأسى إلى عهد السيادة والعزة ، أيام أن كان قاعدة الملك لمملكة عظيمة .

ويطلق الإسبان على قصر الحمراء ، اسم القصر العربى Palacio Arabe. ويجوز

الزائر إليه من مدخل متواضع ، يقع فى مواجهة قصر الإمبراطور شارلكان ،وتقع إلى يمين ويسار هذا المدخل عدة أبهاء عليا ، يشغلها « متحف الحمراء » .

ويمكن أن نقسم أبنية قصر الحمراء إلى جناحين كبيرين : الأول ، جناح قمارش الذى يضم قاعة السفراء وبرج قمارش الذى يعلوها ؛ وجناح الأسود الذى يتوسطه فناء الأسود . وسوف نتناول تباعاً كل جزء من أجزاء القصر بالوصف ، ثم نورد ما رسم على جدرانه من نقوش .

فناء الريحان

والجناح الأول هو أول ما يرى الزائر ، وتتقدمه الساحة المعروفة باسم فناء البركة Patio de Alberca ، أو فناء الريحان Patio de los Arrayanes . وهو عبارة عن فناء كبير مستطيل مكشوف ، تتوسطه بركة من الماء ، تظللها أشجار الريحان ، وهو يستقى منها اسمه الحالى . والظاهر أن هذه الأشجار كانت تزرع من قديم على حافة الماء فى هذا الفناء .

وقد نقشت فى زوايا فناء الريحان العبارة الآتية : « النصر والتمكين ، والفتح المبين لمولانا أبى عبد الله أمير المؤمنين » .

والآية الآتية : « وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم » .

ونقشت على الإفريز الرخامى الأوسط لهذا الفناء ، قصيدة من اثنى عشر بيتاً ركيكة ، وبها كثير من الأغلاط . ويرجع ذلك كما سنرى ، إلى أن كثيراً من نقوش الحمراء الحالية هى من صنع محدث ، نقلت بالرسم عن النقوش القديمة ، تحت إشراف الأثريين الإسبان ، وتسربت إليها عند النقل أغلاط كثيرة . وهذا مطلع القصيدة المشار إليها :

تبارك من ولاك أمر عباده ... فأولى بك الإسلام فضلا وأنعما
فكم بلدة للكفر صبحت أهلها ... وأمسيت فى أعمارهم متحكما

ومنها عن يمين الباب الشمالى المفضى إلى البهو المجاور :

ولو خير الإسلام فيما يريده ... لما اختار إلا أن تعيش وتسلما
لقد لاحت أنوار الجلال ببابك ... يفتر منها الندى بشرا وأنسما
وتلك آثارها فى كل مكرمة ... أبدى وأوضح بدرّ إذا انتظما

وعن يسار الباب :

فيا ابن العلى والحلم والبأس والندى ... ومن فاق آفاق النجوم إذا انتما
طلعن بأفق المليـــك رحمـــة ... ليجلو ما قد كان بالظلم أظلما
فأمنت حتى الغصن من نفحة الصبا ... وأرهبت حتى النجوم فى كبد السما
فإن رعشت زهر النجوم فخيفة ... وإن سال غصن البان شكرك يمما

وقد نقشت فوق الأبيات المذكورة وتحتها عبارة « ولاغالب إلا الله » باستمرار .

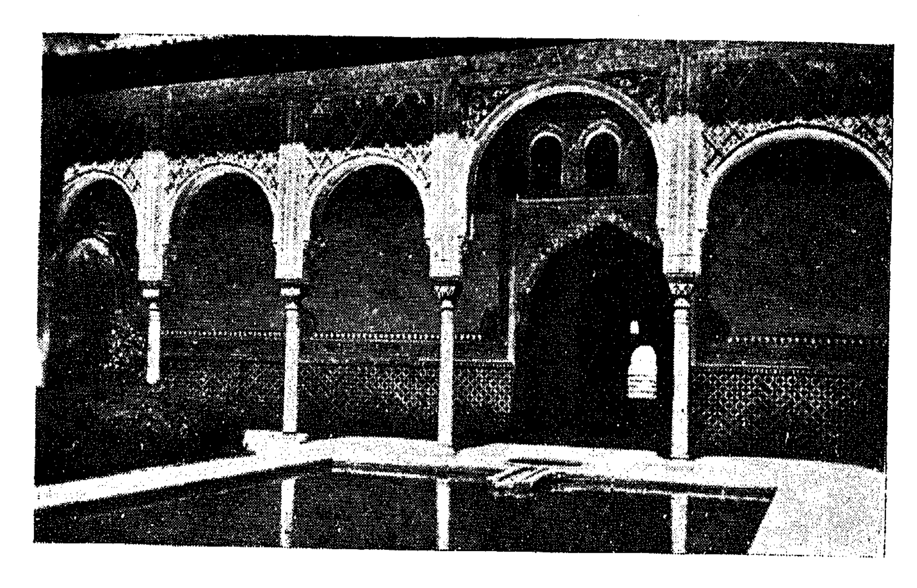
وفى النهاية الجنوبية لهذا البهو ، يوجد باب عربى ضخم ، هدمت الأبنية التى كانت من ورائه ، ولم تبق منها سوى بقية خربة ؛ وتوجد فى هذه الأطلال بعض النقوش ، منها « ولا غالب إلا الله » « عز لمولانا السلطان أبى عبد الله الغنى بالله » . ويظن أن هذه الأطلال هى بقية الجناح السلطانى الخاص ، وهو الذى هدمه الإمبراطور شارلكان فيما بعد ، ليفسح مكاناً لقصره الذى ابتناه إلى جوار الحمراء .

ويفضى باب فناء الريحان الشمالى ، إلى بهو صغير يسمى بهو البركة ، به قبلة زينت بنقوش جميلة ، وقد نقش على جانبها الأيمن ما يأتى :

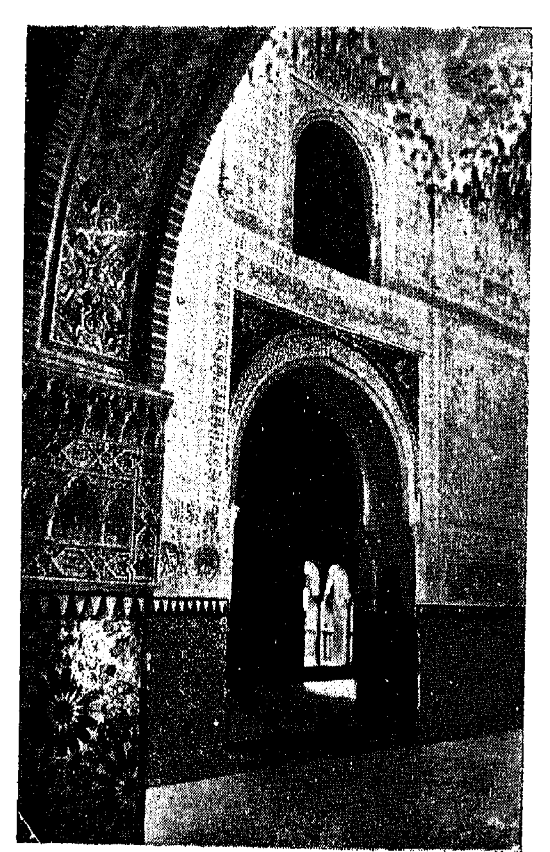
أنا محـــلاة عـــروس ... ذات حســـن وكمال
فانظر الإبريق تعرف ... فضل صدقى فى مقال
واعتبر تاجى تجـــده ... مشبها تاج الهـــلال
وابن نصر شمس فلك ... فى ضيـــاء وجمال
دام فى رفعـــة شان ... آمنـــا وقت الزوال

وعلى جانب القبلة الأيسر ما يأتى :

وأنا فخر لصـــلاة ... سمت سمت السعادة
تحسب الإبريق فيهـــا ... قايما يقضى عبـــادة
كلمـــا تفرغ منهـــا ... وجفت فيها الإعادة
وبمولاى ابن نصر ... شرف الله عبـــاده
قد نماه ســـيد الخز ... رج سعد ابن عباده



الحمراء . ساحة البركة (أو فناء الريحان)



الحمراء .
قاعة الأختين

بهـــو السـفـــراء

ويفضى هذا البهو الذى يلى فناء الريحان ، من الناحية الشمالية ، إلى أعظم وأفخم أبهاء الحمراء ، وهو البهو المسمى بهو قمارش أو بهو السفراء **Salón de Embajadores**

وبهو قمارش هو أعظم أبهاء الحمراء، من حيث سعته وارتفاع قبته الشاهقة . وهو عبارة عن مستطيل مساحته نحو ثمانية عشر متراً فى أحد عشر ، وله قبة خشبية فخمة يبلغ ارتفاعها ثلاثة وعشرون متراً ، وقد حفرت زخارفها على شكل النجوم ، وزخرفت الجدران على نفس الطراز ، وفى هذا البهو كان يعقد مجلس العرش . ويعلو بهو السفراء برج قمارش ، وهو مستطيل فى مثل مساحته .

وقد بدأ بإنشاء قصر قمارش السلطان أبو الوليد اسماعيل فى أوائل القرن الثامن الهجرى ، وأكمله ولده السلطان يوسف أبو الحجاج ، فأنشأ برج قمارش وبهوه ، وأنشأ جناح الحمامات السفلى القريب منه . وأنشأ ولده محمد الغنى بالله بهو البركة الذى سبق وصفه ، كما أنشأ قصر السباع الذى نصفه بعد .

وأروع ما فى بهو قمارش زخارف قبته ، التى لبثت محتفظة بنقوشها الأصلية. أما نقوش الجدران ، فإنها مع جمالها ، ليست إلا تجديداً مقلداً لنقوشها القديمة ، قام به الفنانون الإسبان .

وقد نقشت فى عقد باب بهو السفراء العبارات الآتية : « الحمد لله على نعمة الإسلام » « عز لمولانا أبو الحجاج عز نصره » .

ونقشت الأبيات الآتية فى جانب العقد الأيمن بعد عبارة « الحمد لله » :

فقت الحسان بحليتى وبتاج ... وهوت إلىّ الشهب فى الأبراج
يبدو إناء الماء فىّ كعابد ... فى قبلة المحراب قام يناجى
ضمنت على مر الزمان مكارمى ... ذى الأوام وحاجة المحتاج
فكأننى استقريت آثار الندى ... من كف مولانا أبى الحجاج
لا زال بدراً فى سماى لايحا ... ما لاح بدر فى الظلام الداج

ونقشت الأبيات الآتية على جانب العقد الأيسر بعد عبارة « الحمد لله » :

رقمت أنامل صانعى ديباجى ... من بعد ما نظمت جواهر تاجى

وحكيت كرسى العروس وزدته	أنى ضمنت سعادة الأزواج
من جاءنى يشكو الظما فوردى	صرف الزلال العذب دون مزاج
فكأننى قوس الغمام إذا بدا	والشمس مولانا أبو الحجاج
لا زال محروس المهابة ما غدا	بيت الإله مثابة الحجاج

ونقش فى الدائرة العليا للبهو ، العبارة الآتية مكررة باستمرار « عز لمولانا السلطان أبى الحجاج » .

ونقشت فى أسفل مدار القبة بحروف بيضاء نص صورة تبارك كلها ، وأولها « بسم الله الرحمن الرحيم . تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير . الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور . الذى خلق سبع سموات طباقاً ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فأرجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير » .

ونهايتها « قل أرأيتم إن أهلكنى الله ومن معى أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم . قل هو الرحمان آمنا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو فى ضلال مبين . قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين » .

وتقرأ فى جدار المشرفية ، وهو الجدار الشمالى للبهو هذه العبارة منقوشة فى أعلاه : « النصر والتمكين والفتح المبين لمولانا أبى الحجاج أمير المسلمين نصره الله » مكررة مراراً .

ثم تقرأ كذلك هذه العبارة فى الدوائر العليا لجدران البهو مكررة : « عز لمولانا السلطان الملك المجاهد أبى الحجاج عز نصره » .

ونقش فى محيط البهو بكثرة ظاهرة شعار بنى نصر : « ولا غالب إلا الله » .

ونقشت الأبيات الآتية فى إحدى فجوات القبة السفلى :

تحييك من حين تصبح أو تمسى	ثغور المنى واليمن والسعد والأنس
هى القبـــة العليا ونحن بناتها	ولكن لى التفضيل والعزّ فى جنسى
جوارح كنتَ القلب لاشك بينها	وفى القلب تبدو قوة الروح والنفس
وإن كان أشكالى بروج سمايهـــا	ففىّ عدا ما بينها شرف النفس
كسانى مولاى المؤيد يوسف	ملابس فخر واصطناع بلا لبس
وصيرنى كرسى ملك فأيدت	علاه بحق النور والعرش والكرسى

ونقشت فى الفجوات الأخرى مقابل هذه الأبيات العبارة الآتية « النصر والتمكين والفتح المبين لمولانا أبى الحجاج أمير المسلمين أيد الله أمره وعز نصره ».

* * *

ويفضى بهو البركة من ناحيته اليمنى إلى فناء سفلى يعرف بفناء السرو ، وقد زرعت فيه بالفعل بعض أشجار السرو . وليس لهذا الفناء أهمية أثرية تذكر ، فهو من صنع الإسبان . وإلى جانبه يقع جناح الحمامات السلطانية ، وهو عبارة عن عدة حمامات رخامية تتخللها أبهاء صغيرة . وما زالت بها أماكن الأحواض ظاهرة ، وكذلك أماكن المواسير والصنابير . ولا يخلو هذا الجناح أيضاً من بعض النقوش. فمنها عبارة « ولا غالب إلا الله » و« الله عدة لكل شدة » و« النصر والتمكين والفتح المبين لمولانا أبى عبد الله أمير المسلمين » .

وفى نهاية هذا الجناح من الداخل نقشت فى فجوة صغيرة من الرخام قصيدة من ستة أبيات أولها :

أعجب شىء حادث أو قديم   مرابض الأسد بيت النعيم

وآخرها :

من كأبى الحجاج سـلطاناً   لازال فى نصر وفتح عظيم

قاعة الأختين

وتقع شرقى فناء البركة قاعة الأختين ، وتصل إليها من باب الفناء الشرقى ، من رواق طويل مظلم . وقد سميت بهذا الاسم — قاعة الأختين Sala de las dos Hermanas — لأن أرضها تحتوى على قطعتين متساويتين من الرخام فريدتين فى ضخامة الحجم ، وقد نقش عند مدخلها بالكوفية « ولا غالب إلا الله» مكررة ، ونقشت هذه العبارة أيضاً حول جدرانها فى أسفل وأعلى ، ونقش تحتها هذه الأبيات وهى مقتبسة من قصيدة الوزير ابن زمرك الشهيرة فى وصف الحمراء وهى :

تبيت له خنس الثريا معيذه[1]   ويصبح معتل النواسيم رواقيـا

(١) فى نقوش هذه القصيدة تحريف . ويورد المقرى هذه الشطرة كالآتى : « تبيت لهم كف الثريا معيذة » .

فبين يدى مولاى قامت لخدمة[1] ومن خدم الأعلى استفاد المعاليا
وكم من قسىّ ٍ في ذراه ترفعت على عمد بالنور باتت حواليا
به المرمر المجلو قد شف نوره فيجلو من الظلماء ماكان داجيا[2]

وكذلك نقشت على الجدران هذه العبارة مكررة : « النصر والتمكين لمولانا أبي عبد الله أمير المسلمين » .

فناء الأســــود

وتفضى قاعة الأختين من بابها الجنوبي ، إلى أجمل وأشهر أجنحة الحمراء ، ونعنى فناء الأسود أوبهو الأسود وما إليه .

وقد قام بإنشاء هذا القصر أو هذا الجناح ، الذى يسبغ على الحمراء أكبر قسط من الروعة والفخامة والبهاء ، السلطان محمد الغنى بالله الذى تولى العرش فى سنة ٧٥٥ هـ (١٣٥٤ م) وتوفى سنة ٧٩٣ هـ (١٣٩١ م) ، والذى ما زال اسمه ماثلا فى مواضع كثيرة من هذا الجناح .

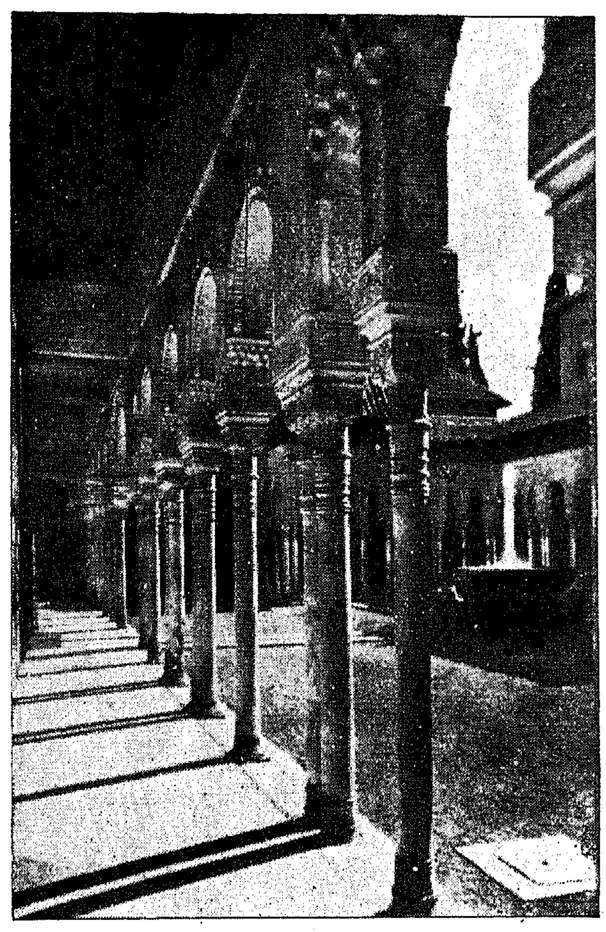
ويعتبر فناء الأسود أو كورة السباع **"Patio de los Leónes"** ، بطرازه المصقول ، وقبابه المضلعة ، وأعمدته الرشيقة ، وزخارفه البديعة ، ونافورته الفريدة التى تحملها الأسود ، أروع أجنحة الحمراء ، وأوفرها رواء وسحراً . وهو عبارة عن فناء مستطيل مكشوف طوله خمسة وثلاثون متراً وعرضه عشرون ، تحيط به من الجوانب الأربع مشرفيات أو أروقة ذات عقود ، تحملها مائة وأربعة وعشرون عموداً من الرخام الأبيض ، صغيرة الحجم ، متناهية فى الجمال والرشاقة ، وعليها أربع قباب مضلعة ، تقع كل واحدة منها وسط ضلع من أضلاع المستطيل ، اثنان منهما تتقابلان شرقا وغرباً ، والأخريان تتقابلان شمالا وجنوباً ، وهى متماثلة الصنع والزخرف كأنها رواشن ، ويحمل كل منها عدد متماثل من الأعمدة .

وفى وسط الفناء نافورة الأسود الشهيرة ، وهى عبارة عن نافورة ماء ، يحمل حوضها المرمرى المستدير الضخم اثنا عشر أسداً ، صفت على شكل دائرة ،

---

(١) وصحة الشطرة وفقاً للمقرى « فبين يدى مثواك قامت لخدمة » .

(٢) راجع قصيدة ابن زمرك بأكملها فى نفح الطيب (بولاق) ج ٤ ص ٧٠٥ — ٧٠٩ .

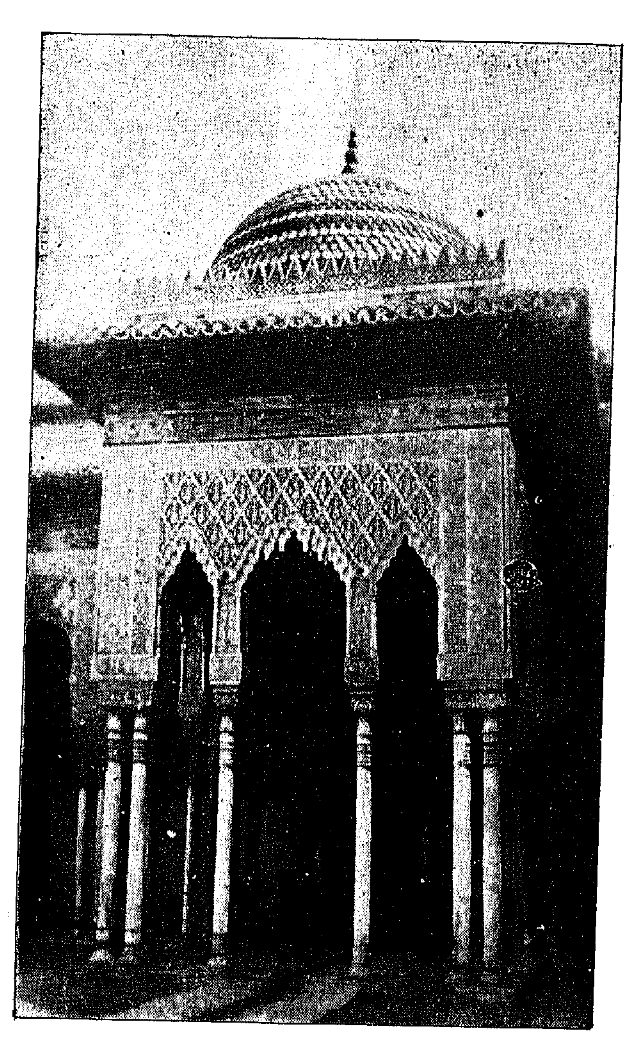


الحمراء . جانب من عقود فناء الأسود

ونحتت من الرخام الأبيض الذى اسمر بمضى الزمن ، وهى ليست بارعة المطابقة، ولكن تبدو عليها مخائل التوثب والشجاعة .

وتوجد فى فناء الأسود ، طائفة من النقوش التى كتبت بالخط النسخ أو الكوفى الجميل ، على الجدران والأعمدة والنافورة نفصلها فيما يلى :

نقش شعار بنى نصر « ولا غالب إلا الله » بالنسخ والكوفى ، فى الجانب القبلى وراء الأعمدة ، وفوق رأس كل عمود من الأعمدة التى تحمل القبة ، وكذلك على رءوس جميع العُمُد الأخرى .



الحمراء : قبة فناء الأسود الوسطى المواجهة للنافورة

ونقشت العبارة الآتية على كل عمود ثان : « عز لمولانا السلطان أبي عبد الله الغني بالله » .

ونقش على الأعمدة التي تحمل القبة المواجهة أي القبة البحرية « ولا غالب إلا الله» . « ولا غالب إلا الله » . ونقش على رءوس الأعمدة في المجموعتين الأخريين « عز لمولانا السلطان أبي عبد الله الغني بالله » .

ونقش في الداخل ، وراء القبة ، في صدر البهو الصغير الذي يلحق بالفناء من الناحية البحرية العبارات الآتية : « أبو عبد الله أمير المسلمين » . « النصر والتمكين والفتح المبين لمولانا أمير المسلمين » . « ولا غالب إلا الله » .

ونقش على رءوس مجاميع الأعمدة التي تزيد عن اثنين ما يأتي : « عز لمولانا السلطان العادل المجاهد أبي عبد الله الغني بالله » .

وإلى جانب هذه الأدعية ، التي تشيد بذكرى منشيء هذا الفناء ، قد نقشت قصيدة رائعة ، فوق دائرة صحن النافورة التي تحملها الأسود ، تضم اثني عشر بيتاً ، وهي من نظم الوزير ابن زَمرك ، ومنها أبيات وردت في قصيدته في وصف الحمراء ، وهذا نصها :

تبارك من أعطى الإمام محمدا ... مغاني زانت بالجمال المغانيا
وإلا فهذا الروض فيه بدايع ... أبى الله أن يلقى لها الحسن ثانيا
ومنحوتة من لؤلؤ شق نورها ... تحلى بمرفض الجمان النواعيا
يذوب لجين سال بين جواهر ... غدا مثلها في الحسن أبيض صافيا
تشابه جار للعيون بجامد ... فلم ندر أياً منهما كان جاريا
ألم تر أن الماء يجري بصفحها ... ولكنها مدت عليه المجاريا
كمثل محب فاض بالدمع جفنه ... وغص بذاك الدمع إذ خاف واشيا
وهل هي في التحقيق غير غمامة ... تفيض إلى الآساد منها السواقيا
وقد أشبهت كف الخليفة إذ غدت ... تفيض إلى أسد الجهاد الأياديا
فيا من رأى الآساد وهي روابض ... عداها الحيا عن أن تكون عواديا
ويا وارث الأنصار لا عن كلالة ... تراث جلال يستخف الرواسيا
عليك سلام الله فاسلم مخلداً ... تجدد أعياداً وتبلى أعاديا

قاعة بنى سراج

وفى منتصف الناحية الجنوبية من بهو الأسود ، يوجد مدخل قاعة بنى سراج "Sala de los Abencerrajes" ، وهو اسم الأسرة الغرناطية الشهيرة ، التى لعبت دوراً كبيراً فى حوادث غرناطة الأخيرة ، ويقول البعض إن اسم الأسرة هو «بنو السرّاج » وليس بنى سراج . وهذه القاعة عبارة عن مستطيل مساحته نحو اثنى عشر متراً فى ثمانية ، غطيت أرضه بالرخام المرمرى ، وفوقه قبة عالية ، مضلعة الدائرة ، وفى جوانبها كوات صغيرة هى التى تمد القاعة بالضوء ، وفى كلا الجانبين الأيمن والأيسر عقد عربى بديع ، وقد زين عقد الباب وهو من الخشب المعقود ، بزخارف عربية جميلة ، وحفرت فى داخل دائرة القبة مقرنصات مثلثة ، ليست هى زخارفها الأصلية ، بل هى من صنع الإسبان ، وترجع إلى القرن الثامن عشر ، وقد نقشت فى دائرة القبة الوسطى عبارة : « ولاغالب إلا الله » بالنسخ والكوفى ، ونقش فى دائرتين فى الجهتين اليمنى واليسرى ، هذا البيت وهو من نظم ابن زمرك :

فتحسبها الأفلاك دارت قسيها تظل عمود الصبح إذ لاح باديا

ونقش فى جدار الصدر فى مواجهة الداخل هذان البيتان :

تبيت له خنس الثريا معيذة ويصبح معتل النواسيم رواقيا

وتهوى النجوم الزهر لوثبتت به ولم تك فى أفق السماء جواريا

وهما أيضاً من نظم ابن زمرك .

وفى وسط قاعة بنى سراج ، حوض نافورة مرمرى مستدير ، وفى قاعه بعض بقع داكنة ثابتة ، تزعم الأسطورة أنها آثار من دماء أسرة بنى سراج ، الذين دبرلهم السلطان كميناً ، واستدرجهم إلى الحمراء ، ودبر مقتلهم فى هذه القاعة واحداً إثر الآخر .

وقد كان لهذه القاعة منفذ آخر مواجه لمدخلها ، فسده الإسبان بالبناء .

قاعة الملـــــوك

وفى الناحية الشرقية لفناء الأسود ، مدخل القاعة التى تسمى قاعة الملوك "Sala de los Reyes" أو قاعة العدل ، ومدخلها عقد بديع مثلث الجوانب . وبها ثلاث عقود أو حنايا ، رسمت فى سقف الحنية الوسطى منها ، صور عشرة سادة

مسلمين يلبسون العمائم ، ويجلسون على وسائد ، ولهم لحى ، وهيئاتهم تشع بالوقار والعزة . ويرى بعض الباحثين ، أن هذه صور ملوك غرناطة العشرة ، الذين سبقوا أبى عبد الله فى تولى العرش ، أولهم محمد الغنى بالله ، وآخرهم السلطان أبو الحسن والد أبى عبد الله .

ونقشت فى سقفى الحنيتين الأخريين ، صور فرسان ومناظر فروسة ، ومناظر صيد يُطارد فيها دب وخنزير .

ويرى فريق من الأثريين ، أن المرجح فى شأن هذه الرسوم أنها من صنع بعض الفنانين النصارى ، وقد رسمت قبل سقوط غرناطة ، فى القرن الخامس عشر .

منظرة اللنـــــدراخا

وفى شمال فناء الأسود ، وشمال قاعة الأختين ، يقع البهو المسمى منظرة اللندراخا "Mirador de Lindaraja" . وقد اختلف فى تفسير هذا الاسم . ويرى بعض المستشرقين الإسبان ، أنه فى الأصل تحريف لثلاث كلمات عربية هى « عين دار عائشة » ، وأن عائشة هذه كانت من ملكات غرناطة فى القرن الرابع عشر الميلادى ، (وهى غير عائشة الشهيرة والدة أبى عبد الله آخر ملوك الأندلس) وأن كلمة عين ، هنا تعنى « النافذة » . وهذه القاعة هى عبارة عن بهو صغير مضلع ، يفضى إليه رواق ذو نافذتين ، ومدخله عقد بديع الزخرف ، وله نافذة ذات عقدين فى أعلى ، وعقدين آخرين على الجانبين ، وهى تطل على الفناء المجاور ، والذى يحمل نفس الاسم ، وهو عبارة عن فناء سفلى ، تبلغ مساحته نحو عشرة أمتار فى ثمانية ، وبه نافورة وبضع أشجار ، ويطلق عليه اسم « فناء اللندراخا » .

وفى عقد المدخل فجوتان نقشت بينهما عبارة « ولا غالب إلا الله » ، ونقشت فى كل منهما أربعة أبيات تبدأ اليمنى منها بهذين البيتين :

كل صنع أهدى إلى جمـــاله   وحبـــانى بهـــاؤه وكماله
من رآنى يظننى كالدتى   تخطب الإبريق تبغى أن تناله

وتبدأ الأربعة اليسرى بهذا البيت :

لست وحدى قد أطلع الروض منى   عجبـــاً لم تر العيون مثـــاله

ونقش تحت الأبيات المشار إليها ما يأتى :

« عز لمولانا السلطان أبى عبد الله بن مولانا السلطان أبوالحجاج » .

ونقشت حول النافذتين اللتين بالرواق ، قصيدة من اثنى عشر بيتاً ، تبدأ من النافدة اليمنى وهذا مطلعها :

وجاد بهـا برد الهواء نسيمها ... فصحت هواء والنسيم قد اعتلا

وقد حزت من كل المحاسن غاية ... تقبس عنها الشهب فى الأفق الأهلا

ونقش فى العقد الأعلى للنافذة الأمامية بالكوفية ما يأتى : « عز لمولانا السلطان أبى عبد الله الغنى بالله ، أيد الله أمره وأدام سعده » وغيرها من الأدعية المماثلة . وتدل هذه النقوش على أن هذه المنظرة قد أنشئت فى أواخر القرن الرابع عشر فى عصر السلطان محمد الغنى بالله ، (١٣٥٤ — ١٣٩١ م) .

ونقش على صحن نافورة فناء اللندراخا قصيدة من تسعة عشر بيت هذا مطلعها :

أنا حقاً فلك المـاء بـدا ... للأنام ظاهـراً لم يحجب

لجـة عظيمة سـاحلهـا ... من بديع المرمر المنتخب

ومن المعروف أن فناء اللندراخا ، قد أنشىء أيام الإمبراطور شارلكان ، وأن صحن النافورة فقط ، هو الذى يرجع إلى صنع أندلسى .

متزين الملكة

وهنالك رواق بين قاعة الأختين وبين منظرة اللندارخا ، به باب يفضى إلى ساحة مستطيلة ، لم تكن من أبنية الحمراء الأصلية ، ولكنها أنشئت أيام الإمبراطور شارلكان . وفى هذه الساحة بابان صغيران ، يفضى كلاهما إلى الطبقة العليا ، التى تقع فوق جناح الحمامات السفلى . ويتصل بهذه الساحة رواق ضيق يفضى إلى « متزين الملكة » "Peinador de le Reina" ، وهو عبارة عن جناح علوى صغير ، يقع فى نهاية الطرف الشمالى للحمراء ، تحت البرج المسمى برج « المتزين » "Torre de Peinador" ، وهو برج يرجع إلى عصر السلطان يوسف أبى الحجاج . ويحتوى متزين الملكة على بهو صغير منخفض السقف . وقد أنشىء فى القرن



الحمراء . منظرة الملكة وبرج قمارش ، وفى أسفل حى البيازين

السادس عشر ، أعنى بعد سقوط غرناطة بعصر . ورسمت على جدرانه صور وزخارف نصرانية ، من ريشة بعض أكابر الفنانين الإسبان فى هذا العصر . وتطل شرفة المتزين على مدينة غرناطة وعلى مرجها ، ويبدو منظر المدينة من هذا الارتفاع الشاهق ساحراً رائعاً .

ومما هو جدير بالذكر ، أن الجناح المجاور لساحة الإمبراطور شارلكان من الجنوب ، والذى يقع فوق جناح الحمامات ، وهو مكون من عدة غرف ، يحمل لوحة رخامية تذكارية ، تفيد أنه كان مقاماً للكاتب والمؤرخ الأمريكى واشنطن إيرڤنج وذلك فى سنة ١٨٢٩ . وقد اشتهر إيرڤنج بكتابيه « فتح غرناطة » و « قصص الحمراء » ، وترجم كلاهما إلى الإسبانية(١) .

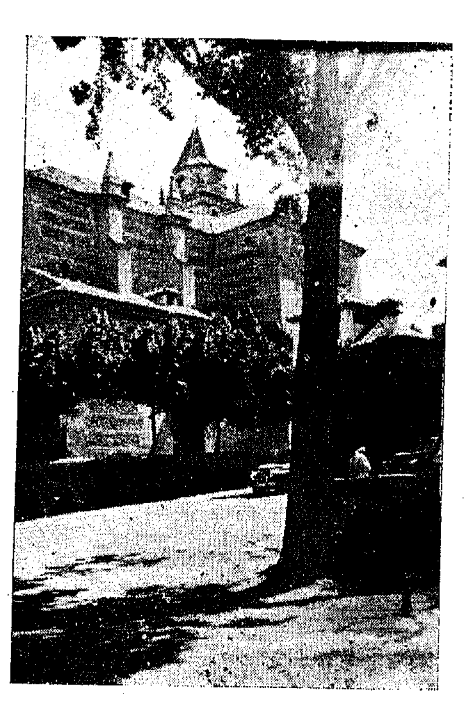
الزواية والروضـــة

وقد زرت فى بعض جولاتى بقصر الحمراء ، برفقة الأستاذ سبستيان لومبريرو ، وكيل متحف الحمراء ، ناحية صخرية مهجورة من القصر تقع فى غربيه ، ولا تفتح للزائرين العاديين ، وهى تنم بآثارها عن أنها كانت زاوية أو

(١) Conquest of Granada, The Alhambra Tales.

مصلى ، ففيها مكان ميضأة ومجاريها ، وقاعدة مئذنة صغيرة فيما يظهر . والظاهر أن هذا الجناح ، المحتوى على زاوية ومصلى صغير ، كان مخصصاً لقراء الحضرة ، أو مخصصاً لصلاة الحشم ، لأنه يلي القصر مباشرة .

وزرت خرائب « الروضة » أو مدفن ملوك بنى نصر ، ملوك غرناطة ، وهى واقعة خارج القصر ، فى جنوب شرقى فناء السباع ، وعلى مقربة من كنيسة سانتا ماريا ، التى بنيت فوق موقع مسجد الحمراء ؛ ورأيت بها آثار القبور السلطانية ، فى ثلاثة مواضع ، كل منها يحتوى على عدة لحود . وذكر لى الأستاذ لومبريرو أن الحفريات فى هذه المنطقة ، أسفرت عن العثور على هيكل عظمى واحد رد إلى مكانه .



الحمراء . كنيسة سانتا ماريا وهى مكان مسجد الحمراء

والظاهر أن السر فى عدم العثور على رفات ملوك بنى نصر ، يرجع كما يقال ، إلى أن أبا عبدالله آخر ملوك الأندلس ، حمل عند تسليم غرناطة ، فيما حمل من المتاع ، بقايا آبائه وأجداده ، لتدفن فى منطقة البشرّات ، التى تقرر انتقاله إليها ، ولا يعلم إذا كان بعد ذلك قد حملها معه إلى فاس ، حينما غادر إسبانيا نهائياً إلى المغرب ، أم أنها قد بقيت حيث ووريت فى أرض البشرات . وقد وجدت فى الروضة عدة شواهد رخامية لقبور ملوك غرناطة . ولكنها ضاعت جميعاً . ويورد لنا ابن الخطيب فى كتابه « الإحاطة » ، نصوص النعى المنقوش على بعض منها ، وقد كتب معظمها بأسلوب بليغ مؤثر يفيض توجعاً وأسى (١) .

---

(١) راجع كتاب « الإحاطة فى أخبار غرناطة » ج ١ (القاهرة ١٩٥٦) ص ٤٠١ و ٥٤٩ و ٥٦٢ ، و ج ٢ ص ٦٦ حيث يورد نصوص هذه النقوش . وراجع أيضاً الأستاذ ليڤى بروڤنسال Inscriptions Arabes d'Espagne ص ١٤٥ — ١٥٣ حيث ينقل هذه النصوص .

المسجد والكنيسة

وكان مسجد الحمراء يقع فى وسط الهضبة ، جنوبى الروضة ، فى نفس المكان الذى تحتله اليوم كنيسة سانتا ماريا . وقد أمر بإنشائه السلطان محمد المخلوع ، المعروف بمحمد الثالث ملك غرناطة (سنة ١٣٠٢ — ١٣٠٩ م) ، أنشأه على أبدع طراز ، وزوده بالعمد والزخارف والثريات الفخمة ، فكان على صغر مساحته ، من أفخم مساجد غرناطة[1] .

ولما احتل الإسبان غرناطة ، تركوا المسجد على حاله عصراً ، بعد أن أقاموا فيه هيكلا واستعملوه كنيسة ، ثم هدم فى سنة ١٥٧٦ ، فى عصر فيليب الثانى ولد الإمبراطور شارلكان ، وأقيمت مكانه الكنيسة التى سميت باسم «كنيسةسانتاماريا» وقد بنيت على شكل صليب لاتينى . وهى ذات برج شاهق يعلو كل صروح الحمراء .

ولم يبق من آثار مسجد الحمراء القديم ، سوى مصباح برونزى بديع الزخرف ، يحفظ الآن بمتحف مدريد الوطنى .

نقوش الأبراج

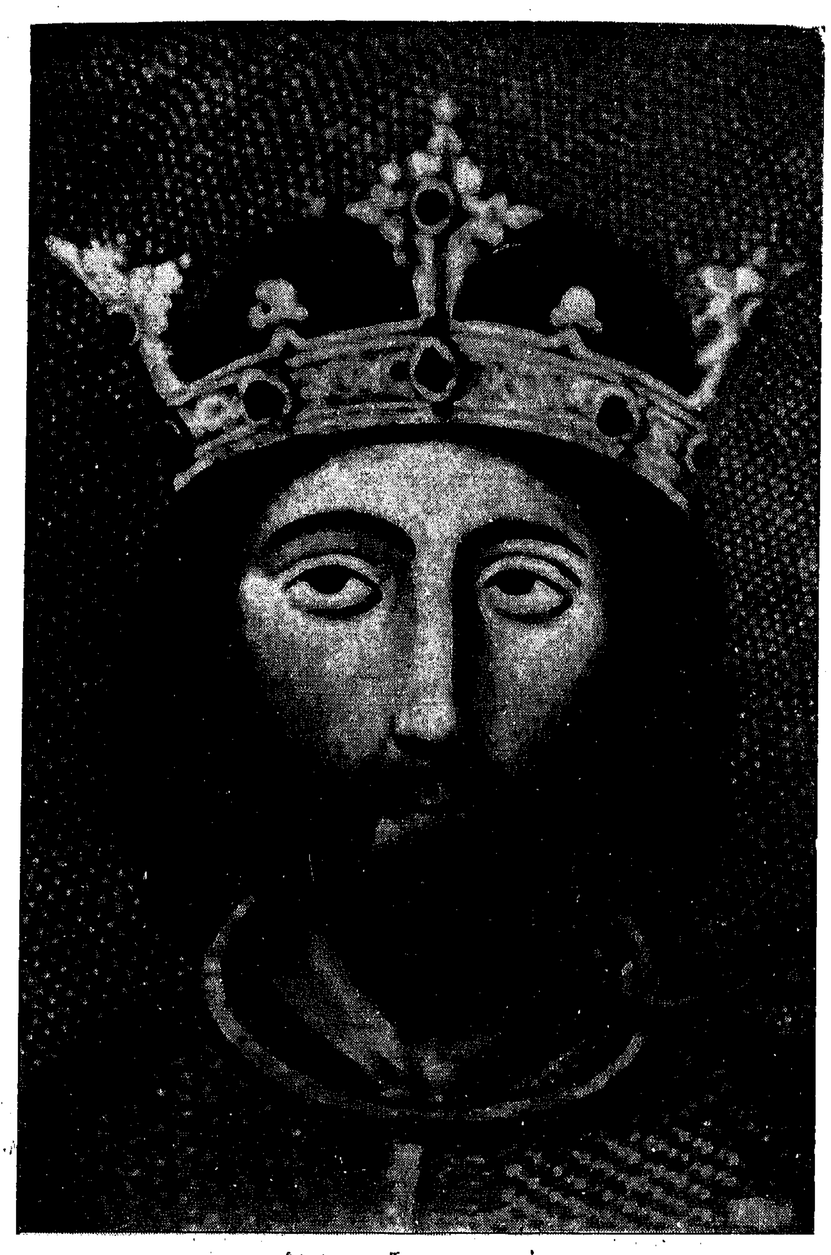
وقد سبق أن أشرنا إلى ما بقى من أبراج قصبة الحمراء . ونزيد هنا أن البرج الذى يسمى اليوم ببرج الأسيرة Torre de la Cautiva ، توجد به نقوش وأبيات شعرية كثيرة ، تشيد بأهمية هذا البرج وحصانته ، وتدل فى نفس الوقت على أن الذى أنشأه هو السلطان يوسف أبو الحجاج .

وكذلك يوجد فى البرج الذى يليه من ناحية الشرق ، وهو برج الأميرات T. de las Infantas ، نقوش بالدعاء « للسلطان أبى عبد الله المستغنى بالله » وهو على الأغلب السلطان محمد الغنى بالله .

ومما هو جدير بالذكر أن معظم الأسماء التى تطلق على أبراج القصبة ، كمعظم الأسماء التى تطلق على أبهاء الحمراء وأفنيتها ، هى من ابتكار الإسبان ، ولا يطابق منها الأسماء الأصلية سوى القليل .

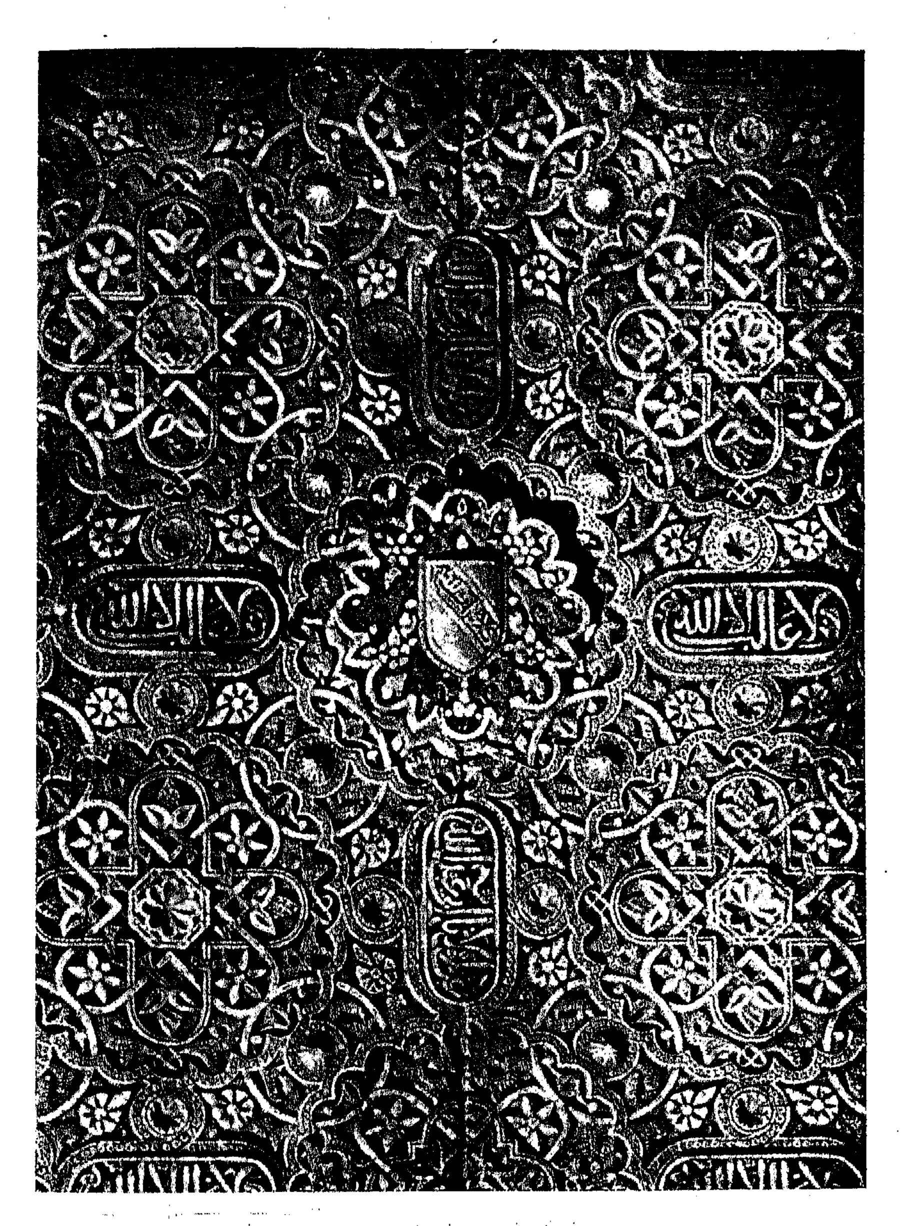
---

(١) أشار ابن الخطيب إلى إنشاء هذا المسجد فى اللمحة البدرية ص ٥٠ ، وفى الإحاطة ج ١ ص ٥٥٤ و ٥٥٥

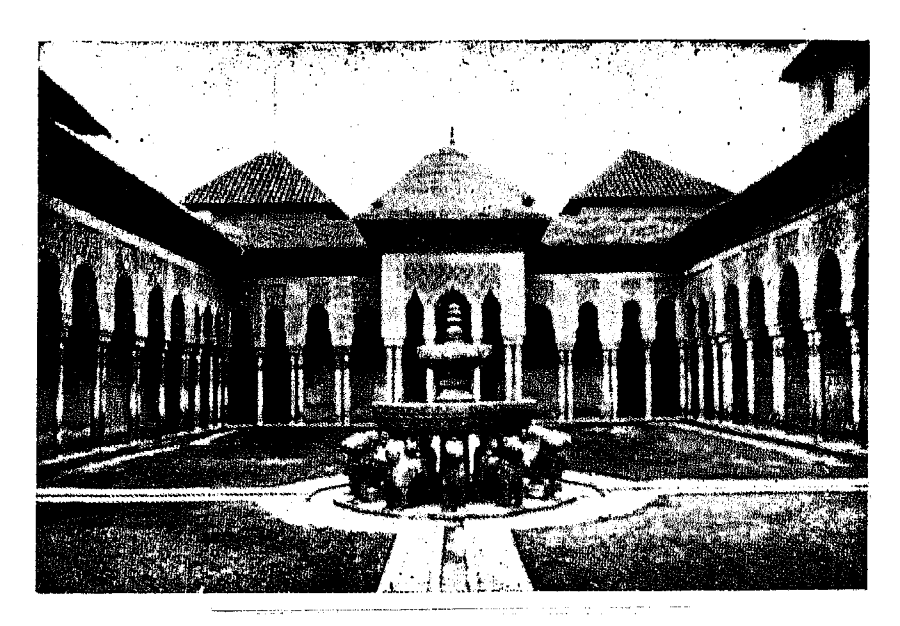


أبو عبد الله محمد آخر ملوك الأندلس

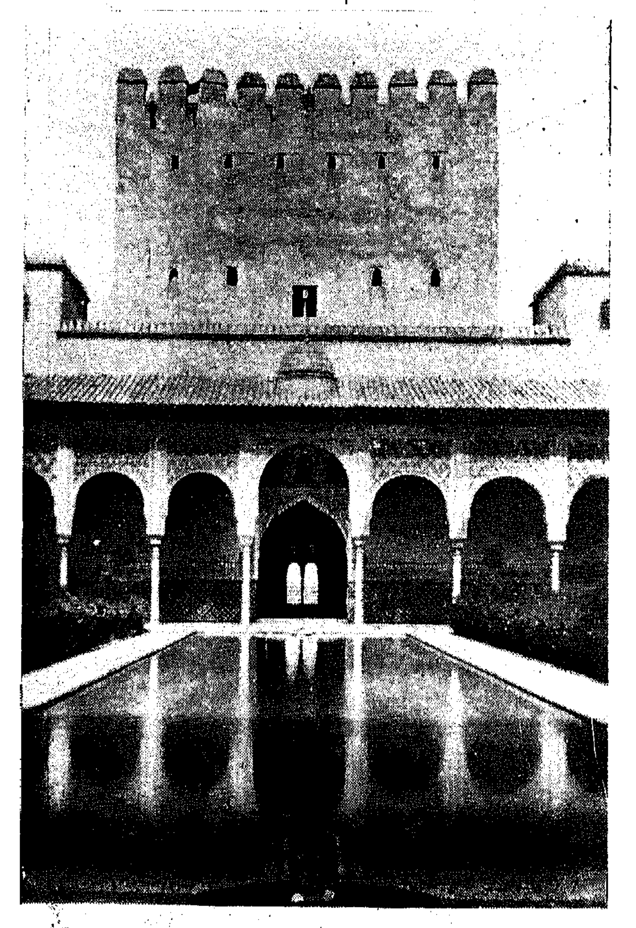
عن الصورة المحفوظة بمتحف « دار الرماية » Casa de los Tiros بغرناطة



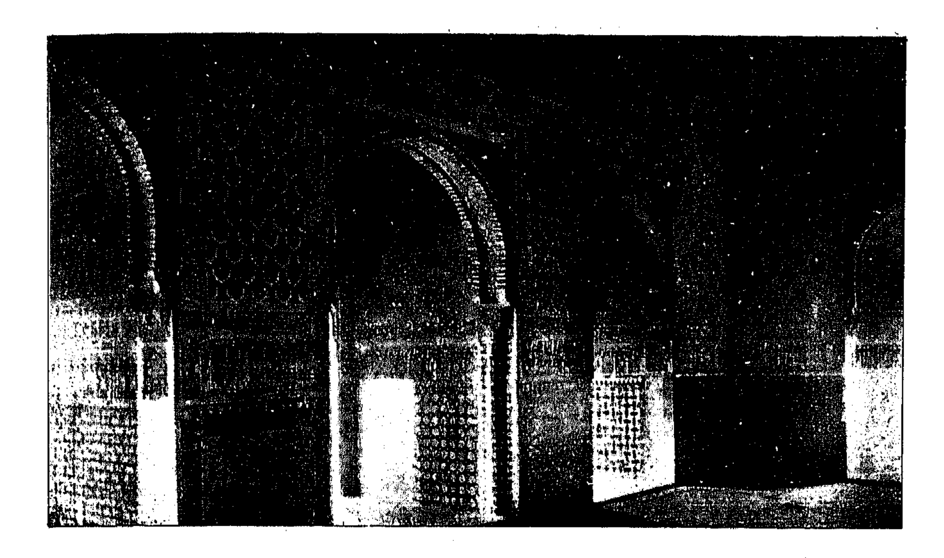
الحمراء . تفاصيل من زخارف بهو السفراء (بهو قمارش)



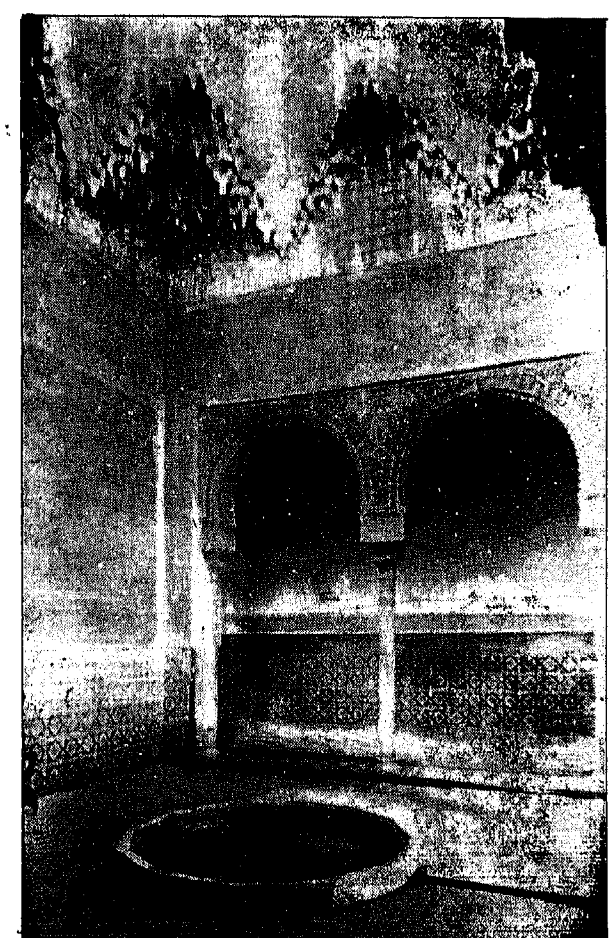
الحمراء . منظر عام لفناء الأسود ونافورته



الحمراء . بهو الريحان (بهو البركة) وبرج قمارش



الحمراء . مدخل بهو السفراء أو بهو قمارش



الحمراء .
بهو بني سراج

قصر الامبراطور شارلكان

لقد أصيب تراث الأندلس الأثرى ، على يد الإمبراطور كارلوس الخامس أو شارلكان بمحن جمة ، فهو الذى جنى على جامع قرطبة بتصريحه بإقامة الهيكل الكبير ، الذى أصاب الجامع بكثير من المسخ والتشويه ، وهو الذى هدم جزءاً كبيراً من قصر الحمراء ليفسح مكاناً لقصره ، وأنشأ فى الحمراء بعض الأبنية الدخيلة حسبما فصلنا فيما تقدم .

وهدم شارلكان ، وفقاً لأرجح الفروض ، الجزء الجنوبى الشرقى من قصر الحمراء ، وهو الذى كان يلى فناء البركة ، ويستعمل حسبما يرى كثير من الباحثين مقاماً شتوياً لملوك غرناطة ، وذلك لكى يقيم مكانه قصراً جديداً ، وهو الذى ما زال يقوم حتى اليوم بجوار قصر الحمراء .

وقد أنشىء قصر شارلكان فى سنة ١٥٢٧ ، وبنى على الطراز الرومانى ، فوق مربع يبلغ ضلعه ثلاثة وستين متراً ، وبه من الداخل ساحة كبيرة مستديرة ، تطل عليها أروقة القصر العليا فوق دائرة من العمد ، وهو يبدو على العموم فى شكل المسرح الرومانى القديم . وقد زينت واجهاته برسوم رومانية ويونانية .

وقد حجب قصر شارلكان واجهة الحمراء الجنوبية الغربية ، وهو اليوم فى حالة شبه خربة . وفى بعض أبهائه العليا توجد « محفوظات الحمراء » .

وكان مثل شارلكان فى التجنى على صرح الحمراء ، حافزاً للملك فيليب الخامس (١٧٠١ — ١٧٤٦) ، على القيام بحملة تخريب وتشويه جديدة لهذا الصرح الإسلامى الفريد ، فعمل على مسخ طرازه العربى ، واستبدل الزخارف العربية فى معظم الغرف بزخارف إيطالية ، وأتم تشويهه بإقامة حواجز سدت المنافذ والطرق بين مختلف أقسامه ، وأفقدته كثيراً من جماله وحسن نظامه .

وفضلا عن هذا التجنى المنظم على قصر الحمراء ، فإن الحكومة الإسبانية قد تركته عصراً فى زوايا الإهمال ، وأسلمته إلى العفاء والتخريب ، ولم تعن بإصلاحه أو ترميمه فى البداية ، سوى مرة واحدة فى أواسط القرن السادس عشر . وفى سنة ١٥٩٠ وقع بالحمراء حريق ، تسبب عن انفجار مصنع بارود مجاور فأصابها بأضرار كبيرة . ومنذ القرن السابع عشر تغلب على الحمراء مظاهر الخراب ،

ويسودها النسيان والوحشة . وفى سنة ١٨٠٢ — أيام الغزو النابوليونى لإسبانيا — نسف الفرنسيون بعض أبراجها ، ولم ينج القصر إلا بأعجوبة . ولم تفق الحكومة الإسبانية من سباتها الطويل ، إلا فى أواسط القرن التاسع عشر ، حيث عنيت بإصلاح الحمراء وترميمها . واستمرت أعمال الترميم والإصلاح زهاء نصف قرن ، أولا تحت إشراف المستشرق والعلامة الأثرى رافاييل كونتريراس ، ثم بعض الأثريين الآخرين . وتبدو الحمراء اليوم فى ثوبها المجدد ، وقد جددت الزخارف والنقوش القديمة فى معظم الأبهاء ، وفقاً لأوضاعها ونصوصها القديمة ، ولكن تتخللها أخطاء النقل فى مواطن كثيرة .

وقد أثارت هذه السياسة الغاشمة ، نحو تراث الأندلس الأثرى سخط العلماء الإسبان أنفسهم ، ونشر العلامة الأثرى الأستاذ جومث مورينو الكبير فى سنة ١٨٧٤ ، كتاباً عنوانه « الآثار والصروح الفنية التى فقدتها غرناطة فى قرن »(١) ذكر فيه عدداً كبيراً من الصروح والآثار الغرناطية الفنية ، التى هدمت أو شوهت ، بسبب الجهل أو المصلحة الخاصة . وأشار من بعده كارديناس فى أوائل هذا القرن فى بعض بحوثه ، إلى أبنية موريسكية كثيرة ، هدمت فى حى البيّازين وغيره من الأحياء الغرناطية ، وإلى أنه قد اكتشف تحت هذه الأبنية ، كثير من القبور الإسلامية ، والأوانى الأندلسية واللوحات الخشبية التى تحمل نقوشاً عربية ، ونوه بما بلغته سياسة الهدم والإتلاف للصروح الأثرية من حدود مروعة (٢) .

ولكن الحمراء مازالت ، بالرغم من كل ما أصابها من ضروب التشويه والإهمال ، تعتبر أعظم الآثار الأندلسية الباقية ، وهى اليوم علم على غرناطة ، تشتهر بها عاصمة الأندلس القديمة فى سائر الآفاق ، ويهرع إليها الرواد من كل صوب ، ليصعدوا إلى هضبة الحمراء ، وليقضوا لحظات فى تأمل صرحها الرائع .

---

(١) Gomez Moreno : Monumentos y Obras de Arte que ha perdido Granada en lo que va de Siglo (Madrid 1874).

(٢) Antonio Almagro Cardenas : Los Monumentos Granadinos (1911)

قصر جنـــــة العريف

Generalife

فى ركن منعزل ، وفوق ربوة مستقلة عالية ، تقع فى شمال شرقى قصبة الحمراء ، يقوم صرح أندلسى آخر ، هو قصر جنة العريف الذى يعرفه الإسبان باسم "Generalife"

وتصل إلى قصر جنة العريف من طريق طويلة صاعدة تظللها الأشجار الباسقة ، ثم تجوز إلى أخرى تظللها أشجار السرو المتلاصقة . وتقطع فى الطريقين من الحمراء إلى قصر جنة العريف زهاء ستمائة متر .

ويشرف قصر جنة العريف من ربوته العالية ، على صروح قصبة الحمراء وتبدو من ورائه آكام جبال سيرا نفادا الشاهقة ظليلة كالغمام . وهو عبارة عن صرح أنيق المنظر ، قد اختلطت أوضاعه العربية السفلى ، بما أنشأه الملوك الإسبان فوقها من أبنية دخيلة . وتجوز إليه من مدخل بسيط متواضع . وقد نقشت سورة الفتح ، على لوحة خشبية كبيرة ، تحيط بالجزء الأعلى من رواق المدخل .

ويفضى هذا المدخل إلى ساحة فسيحة ، يبلغ طولها خمسين متراً ، وعرضها ثلاثة عشر ، وعلى جانبيها رواقان ضيقان طويلان ، وفى وسطها بركة ماء ، وفى جميع جوانبها نوافير رشيقة ، وقد غرست حولها الرياحين والزهور الساحرة.

وفى صدر هذه الساحة ، مدخل ذو ثلاثة عقود عربية جميلة الزخرف ، وقد نقشت فى مربعاتها القصيدة الآتية :

قصر بديع الحسن والإحسان	لاحت عليه جلالة السلطان
راقت محاسنه وأشرق نـــوره	وهمت سحائب جوده الهتـــان
رقمت يد الإبداع فى أرجائه	وشيا كمثل أزاهر البســـتان
فكأن مجلسه العروس تبرجت	عند الزفاف بحسنها الفتان
وكفاه من شرف رفيع القدر أن	نال اعتناء خليفـــة الرحمن
خير الملوك أبو الوليد المنتقى	من نخبة الأملاك من قحطان

المقتدى بالطاهرين جـدوده أنصار خير الخلق من عدنان
لحقته منه عناية قد جـددت منه جمال مصانع ومبـان
فى عام نصر الدين والفتح الذى هو بالحقيقة آية الإيمـان
لازال معنواً بسـعد خالد فى نور إرشاد وظل أمـان

كما نقشت آية الكرسى فى الجزء الأعلى من هذا العقد .

ويبدو من نص هذه القصيدة ، أن قصر جنة العريف قد جدد وزين على يد السلطان أبى الوليد إسماعيل ملك غرناطة ، الذى حكم من سنة ١٣١٤ إلى سنة ١٣٢٥ م . ومعنى ذلك أن القصر قد أنشىء فى تاريخ سابق . والمرجح أنه أنشىء فى أواخر القرن الثالث عشر .

ويفضى هذا المدخل إلى بهو كبير ، يماثل البهو الذى يقع بجوار المدخل .

وتوجد ثمة نقوش عديدة متفرقة ، فوق أعمدة العقود ، وفى عقود النوافذ ، وفوق الجدران ، وفى دوائر صغيرة منها :

« لا إله إلا الله محمد رسول الله» « ولا غالب إلا الله »
« العز القـائم الملك الدايم لله » « الغبطـة المتصـلة »
« الحمد لله على نعمة الإسلام » « الملك لله وحـده »

وهذه الطبقة السفلى من قصر جنة العريف ، تكون وحدها الصرح الأندلسى . ولكن الملكة إيسابيلا الكاثوليكية ، قامت عقب افتتاح غرناطة ، بإنشاء طبقة عليا فوق البناء العربى ، تتكون أيضاً من رواقين طويلين ، ومن جناحين متقابلين ، لها أسقف مضلعة . وكان الجناح الشمالى ، الذى يقع فوق بهو الصدر ، يضم من قبل متحفاً فيه عدة صور تاريخية لبعض ملوك قشتالة والملكين الكاثوليكيين ، وصورة يقال إنها صورة أبى عبد الله آخر ملوك الأندلس ، وأخرى لزعيم آل بنّيغش Los Venegas ، وهى الأسرة الأندلسية التى تنصرت عقب سقوط غرناطة ، وسكنت قصر جنة العريف حيناً . وقد استمر هذا المتحف قائماً حتى سنة ١٩٢١ ، ونقلت بعض محتوياته إلى متحف آخر فى داخل غرناطة ، واختفى البعض الآخر ، وحملته الأسرة التى كانت تملك القصر معها إلى إيطاليا ، حسبما فصلنا ذلك فى كلامنا عن متاحف غرناطة .



الحمراء . واجهة قصر جنة العريف



البهو الداخلي بقصر جنة العريف



الحمراء . عقود البهو الداخلى بجنة العريف

ويغلب الخراب على الطابق الأعلى ، وقد نزعت نوافذه ، ولكن
الأندلسى ، ما زال بالرغم من هذا التشويه ، يبدو بطرازه الإسلامى ساحر
ويزيد فى هذا السحر ، ما يتخلل القصر وما يحيط به ، من الأشجار
المزهرة البديعة .

وقد كان قصر جنة العريف فيما يبدو ، مصيفاً أو متنزهاً لسلاطين غ
يؤمونه للاستجمام والراحة ، والاستمتاع بجمال موقعه ، وروعة المناظر
التى تحيط به .

٢ – وادى آش

Guadix

تقع مدينة وادى آش التى تسمى بالإسبانية "Guadix" ، فى شمال شرقى غرناطة على قيد ستين كيلومترا منها ، وفوق منحدر ربوة صخرية عالية ، تمتد من الناحية الأخرى ، على ضفة نهر « وادى آش » ، وهو فرع صغير من نهر الوادى الكبير ، وتظللها من ورائها الآكام العالية . ويصل بينها وبين غرناطة طريق جبلى وعر ، يبدأ منخفضاً أمام وادى آش فى بسيط أخضر ، وبين الحقول والحدائق النضرة ، وغابات الزيتون هنا وهنالك . ثم يرتفع تدريجياً حتى تبدو غرناطة من ورائه فى بطن الوادى . وقلما يخترق هذا الطريق بسائط ، ولكن تظلله التلال والمرتفعات الصخرية الوعرة ، ولا ترى فيه سوى بعض القرى الجبلية القفراء .

ولقد كان لوادى آش فى مأساة سقوط الأندلس الأخير شأن يذكر ، فقد كانت من بعد غرناطة ، مقر مملكة الأمير محمد بن سعد أخى السلطان أبى الحسن ، وعم أبى عبد الله ، وهو المعروف بمولاى « الزغل » . وكان الزغل يحكم منها جنوب الأندلس ؛ فلما توالى سقوط قواعده ، ولما سقطت مالقة ثغر الأندلس الأول ، ثم بسطة ، فى يدالعدو ، اضطر مولاى الزغل ، بعد أن استنفد كل وسائل المقاومة الباسلة ، أن ينزل على حكم الظروف القاهرة ، وأن يسلم مدينة وادى آش إلى الإسبان ، وكان ذلك فى شهر صفر سنة ٨٩٥ هـ (يناير سنة ١٤٩٠ م) أعنى قبل تسليم غرناطة بعامين .

ومازالت وادى آش تبدو فى منعتها القديمة ، فهى تقع من الشرق على نهر وادى آش ، ومن الغرب على صخرة منيعة عالية تشرف على واديها الأخضر ، وتبدو من بعده جبال سييرا نفادا الشاهقة ، على قيد اثنى عشر كيلومتراً منها ؛ وما زالت أبراج قلعتها القديمة المسماة « بالقصبة » "Alcazaba" ، تدلى بما كانت عليه من قوة وحصانة ، أيام الصراع الأخير بين إسبانيا النصرانية واسبانيا المسلمة.

ومظاهر وادى آش مزيج بين القديم والحديث ، وقسمها القديم هو الواقع فى السهل فى أسفل الربوة ، وأما قسمها الآخر الواقع فوق الربوة ، فيشمل معظم أحيائها الحديثة ، وفيه تقع الكتدرائية على حافة المرتفع مشرفة على السهل ، كما تقع

مبانيها الرسمية ، وشوارعها فى هذا القسم حديثة فسيحة ، ويشقها شارع طويل واسع تظلله الأشجار ، وبها متاجر وأسواق حسنة ، وتبدو خططها على وجه العموم فى شكل صليب كبير ، يمتد طرفاه الشرقى والغربى بين النهر والسهل . وكان سكان المدينة فى سنة ١٩٢٠ يبلغون أكثر من ستة عشر ألف نسمة ، وهم يبلغون اليوم زهاء ثلاثين ألفاً ، وكانت أيام المسلمين تضم أضعاف هذا العدد .

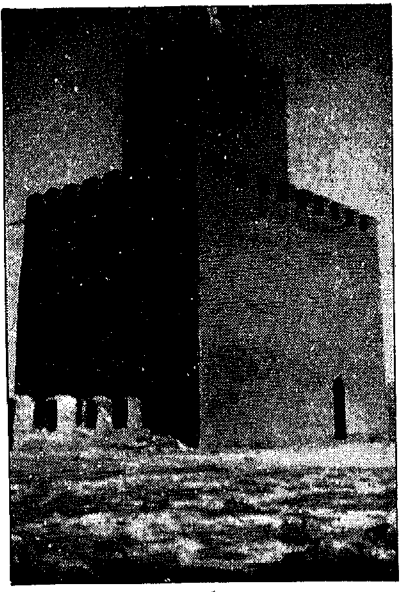
ووادى آش مدينة زراعية صناعية معاً ، ومحاصيلها القمح والذرة والخضر ، وبها من المعادن الحديد والنحاس ، ومن مصنوعاتها السكر والخمور والأبسطة . وهى من مراكز الثقافة الدينية فى شرقى الأندلس ، إذ يوجد بها معهد دينى كبير "Seminario" ، وتصدر بها صحيفة يومية ، وصحف أخرى أسبوعية .

وأهم آثارها الأندلسية الباقية هى « القصبة » أو القلعة القديمة ، وهى تقع فى غربها فوق الربوة ، بجوار معهدها الدينى ، الذى يتصل بناؤه بها بقنطرة خاصة. وهى عبارة عن بقايا قلعة أندلسية عالية ، بها برج كبير ، وبرجان صغيران فى قبالته ، يتصلان بسور ذى مشارف عربية ، كما يوجد برج رابع فى زاوية منعزلة منها . وقد رممت أطلالها وزالت ألوانها القديمة بالطلاء الحديث ، وأقيم فوق البرج الكبير تمثال قديس ، ولا توجد بهذه الأطلال أية نقوش عربية ، والظاهر أنها اختفت تحت أعمال الترميم والطلاء .

أما الكنيسة العظمى (الكتدرائية) فتقع فى وسط المدينة ، بين قسميها الأعلى والأسفل ، على حافة الربوة ، وتشرف على المرج الأخضر من عل ، وقد بنيت فوق موقع المسجد الجامع القديم ، ويرجع بناؤها الحالى إلى القرن السابع عشر ، وبرجها مربع متوسط الارتفاع ، يرى من السهل على بعد مسافة كبيرة ، وتبدو فيه ملامح من طراز منارة المسجد القديم . وفى أسفل الربوة ، وعلى مقربة من الكنيسة ، تقع أطلال قديمة يظن أنها بقايا برج أندلسى .

وموقع القصبة هو أعلى مكان فى الربوة ، وتشرف أبراجها على المدينة كلها ، وكانت القلعة فيما يبدو أعلى بناء فيها أيام المسلمين .

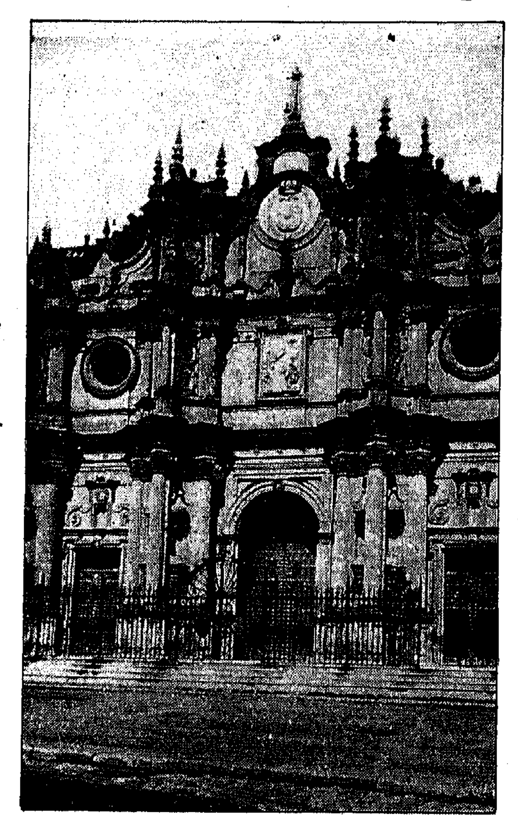
وقد تجولت فى أنحاء المدينة ، ولمحت مسحة ضئيلة من الطابع الأندلسى ، تبدو فى بعض دروبها المتواضعة . وقيل إنه يوجد ثمة بها بعض منازل ما يزال داخلها على الطراز الأندلسى ، وبها بعض البقايا الأندلسية ، ولكنى لم أستطع أن أرى شيئاً منها .



وادى آش . بعض أبراج القصبة الأندلسية



وادى آش . أطلال بناء أندلسى



وادى آش .
الكنيسةالعظمى

٣ — مُكلين

Moclin

أتيح لى ، وأنا بمدينة غرناطة للمرة الثامنة[١] ، أن أزور منطقة الحصون الغرناطية القديمة ، التى اشتهرت أيام الدولة الإسلامية بمناعتها ، والتى لعبت دوراً كبيراً فى المعركة الأخيرة ، التى انتهت بسقوط غرناطة ، وانتهاء دولة الإسلام فى الأندلس .

ومن أشهر حصون هذه المنطقة وآثارها الأندلسية الباقية حصن مُكْلين ، وهو يقع فى منطقة جبلية وعرة ، على قيد اثنين وثلاثين كيلو متراً من شمال غربى غرناطة ، ويوصل إليه عن طريق بلدة بنوط Pinos-Puente ، التى تبعد عن غرناطة نحو عشرة كيلومترات ، وقد شاهدت فى بلدة بنوط ، القنطرة الأندلسية القديمة ، وهى قائمة فوق نهر كوبياس الصغير ، وهى صغيرة ذات عقدين قويين من الحجر. واخترقت من بنوط إلى مكلين طريقاً جبلية صاعدة ، تحف بها الجبال الشاهقة أحياناً ، والوديان السحيقة أحياناً أخرى ، وكلما اقتربنا من مكلين ، كلما ازدادت المنطقة وحشة ووعورة ، وبدت آكام الجبال شاهقة مجللة بالثلوج .

ويقع حصن مكلين على ربوة هرمية عالية جداً ، فى نهاية سلسلة من الجبال ، وتشرف من ارتفاعها الشاهق على سائر الوهاد والبسائط المجاورة ، وفى أسفل الهضبة توجد غابات الزيتون ، وترى أمامك نحو الشمال ، عن بعد ، قلعة يحصب Alcála la Real ، على ربوتها العالية يظللها الغمام ، وترى إلى الجنوب آكام جبل الثلج Sierra Nevada ، تجللها الثلوج الكثيفة ، والمنطقة كلها عبارة عن هضاب وعرة ، تظللها الجبال الشاهقة ، والرقاع الخضراء بها قليل .

وفى أسفل الحصن تقع قرية مكلين ، وهى عبارة عن محلة صغيرة مستطيلة ، تمتد فى سفح الربوة نحو ثمانمائة متر ، وعرضها نحو مائتين ، يخترقها شارع واحد طويل ، ولا يعدو سكانها ألف نفس ، وأمامها الوادى والهضبة.

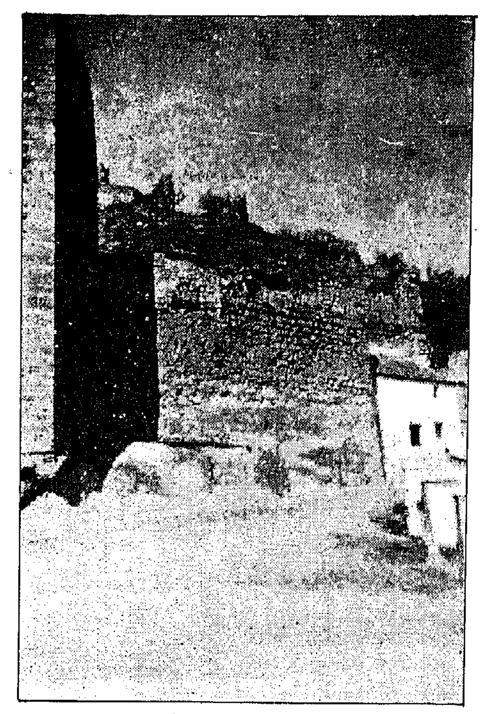
الحصن : وتبدو أطلال الحصن رائعة من فوق الربوة العالية ، وهى عبارة

---

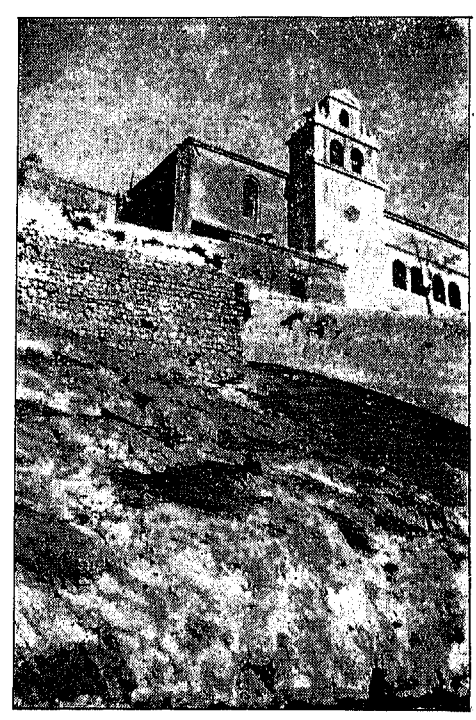
(١) كان ذلك فى أواخر شهر يناير سنة ١٩٦٠ .



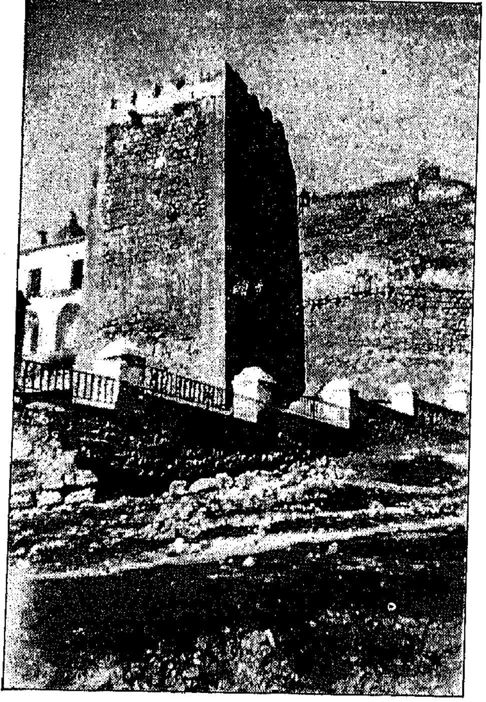
مكلين . أطلال الحصن مشرفة على القرية



مكلين . جانب آخر من أطلال الحصن



مكلين . الكنيسة القائمة فوق مشارف الحصن



مكلين . أحد أبراج الحصن الكبرى

عن مجموعة كبيرة من الأطلال المفردة من الأسوار والأبراج والبوائك ، ترتفع عن مستوى الهضبة نحو أربعمائة متر ، وتقع متدرجة على منحدر صخرى وعر ، وهى طبقتان ، تعلو أحداهما الأخرى ، وعلى منحدر الطبقة السفلى تقوم كنيسة هى كنيسة القرية الوحيدة . وهى كنيسة صغيرة جميلة ذات ثلاثة عقود متقابلة ، وهى تقع فى صدر الحصن ، وتبدو واجهتها البيضاء من بعد ، وقد علمت من القس الشاب المتولى أمرها ، أنها بنيت على هذا الارتفاع وفوق هذا المنحدر ، لكى تحتل موقع مسجد القصبة القديم . والواقع ، وهو ما يتصل بوجود الكنيسة فى هذا الموقع القفر الوعر ، أن فناء الطبقة العليا من الحصن ، وهى تقع على ارتفاع شاهق ، قد حولت إلى مقبرة للقرية ، وأنشئت بها قبور ومصلات عديدة . وتطل أطلال الحصن من الناحية الأخرى على منحدر سحيق يصل إلى الوادى . وقد بقى من أبراجه نصفى برجين فى الطبقة السفلى ، وتدل بقايا الأبراج المتناثرة ، على أنه كان يضم اثنى عشر برجاً ، وقد بقيت من الأسوار السفلى قطع عديدة ، ومنها فى الناحية الأخرى قطعة كبيرة ، مازالت تحتفظ بسارياتها .

وقد لعب حصن مكلين فى حرب غرناطة الأخيرة دوراً بارزاً ، وكان من أمنع خطوط الدفاع الشمالية الغرناطية . وفى شهر شعبان سنة ٨٩٠ هـ (يوليه سنة ١٤٨٥ م) ، نشبت تحت أسواره معركة شديدة بين المسلمين بقيادة الأمير محمد ابن سعد المعروف بالزغل ، وكان يومئذ ملك غرناطة ، وبين جيش مهاجم من القشتاليين بقيادة الكونت دى قبره ، فهزم القشتاليون وردوا بخسارة فادحة . وفى شهر جمادى الثانية من العام التالى ، ٨٩١ هـ ، سار فرديناند (فرناندو) الخامس ملك قشتالة إلى حصن إليورة فاستولى عليه ، ثم قصد إلى حصن مكلين ، وضرب حوله الحصار ، ورماه بالأنفاط بشدة (والأنفاط هى المدافع البدائية) ، فثلمت أسواره ، وهدمت أبراجه ، واضطر المدافعون عنه من المسلمين إلى تسليمه بالأمان ، والخروج بأسلحتهم وأمتعتهم إلى غرناطة (يوليه سنة ١٤٨٦م)[1] وما زالت آثار ثلم الأسوار والأبراج بفعل الأنفاط ، ترى حتى اليوم ماثلة فى أطلال حصن مكلين .

---

(١) راجع كتاب أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر ص ٢٠ . وكتابى « نهاية الأندلس » الطبعة الثانية ص ١٩٣ و١٩٤ و١٩٦ .

٤ - جيّـــان

Jaén

فاسأل بلنسية ما شأن مرسية وأين شاطبة أم أين جيان

(أبو الطيب الرندى فى مرثية الأندلس)

تقع مدينة جيّان فى قلب الأندلس المسلمة القديمة ، فى بقعة لبثت أندلسية دهراً ، وتقع فى جنوبى البسيط الممتد من ضفة الوادى الكبير ، وتكثر فى شمالها ، فيما بينها وبين النهر ، الرقاع الخصبة وغابات الزيتون ، وتحدها التلال العالية من الجنوب الشرقى ومن الغرب ،حيث يقع حصنها الضخم فوق ربوة عالية ، تشرف عليها . ومدينة جيان الحديثة هى عاصمة الولاية الأندلسية المسماة بهذا الإسم ،وهى مدينة كبيرة يبلغ سكانها نحو سبعين ألفاً من الأنفس ، وتقوم فوق رقعة مترامية ، يقع قسمها القديم فى الجنوب ، فى ذيل المدينة الحديثة ، وتتوسطه الكتدرائية ، وهى تقوم كما هو معلوم فوق موقع المسجد الجامع القديم . وإلى جوار هذا الجزء نفسه تقع الشوارع الضيقة الصاعدة متجهة نحو الحصن أو القصبة ، ويلى هذا القسم أحياء المدينة الحديثة ، التى تحتل الوادى العميق الذى تحده التلال المتقدمة الذكر ، وجيان من المدن الأندلسية القديمة التى مازالت تحتفظ بطابع خاص من ملامحها الأندلسية ، ويرتسم هذا الطابع بوضوح فى خططها وشوارعها ،وطراز منازلها .

وقد كانت جيّان أيام الدولة الإسلامية من أعظم قواعد الأندلس الوسطى . وتشيد الرواية الإسلامية بأهميتها وعمرانها وحصانة قصبتها [1]. وقد لعبت فى تاريخ الأندلس أدواراً ملحوظة ، وكانت أيام الطوائف ،أحياناً من أعمال مملكة غرناطة ، وآونة من أعمال مملكة ألمرية ، وأخرى من أعمال مملكة إشبيلية . ولما انهارت الدولة الإسلامية فى الأندلس ، عقب انهيار سلطان الموحدين ، وقامت مملكة غرناطة فى الجنوب تضم ما بقى من أنقاض الأندلس الكبرى ، كانت جيان من القواعد التى دخلت فى حوزة المملكة الإسلامية الجديدة ، ولكنها لبثت هى

---

(١) راجع الروض المعطار ص ٧٠ و٧١ .

وما حولها من البلاد هدفاً لهجمات النصارى المستمرة . واضطر محمد بن الأحمر سلطان غرناطة أخيراً أن ينزل عنها فيما نزل من البلاد إلى فرناندو الثالث ملك قشتالة ، وذلك فى معاهدة الصلح التى عقدت بينهما فى سنة ٦٤٣ هـ (١٢٤٥ م). ودخل القشتاليون جيان ، واستولوا عليها فى العام التالى — سنة ١٢٤٦ م — هى وأرجونة وبركونة وبيغ والحجار ، وغيرها من بلاد هذه المنطقة . بيد أن جيان لبثت بعد ذلك عصراً ، باعتبارها مدينة من مدن الحدود بين مملكتى قشتالة وغرناطة ، وهدفاً لغزوات الجيوش الغرناطية ، وقد اقتحمتها مراراً .

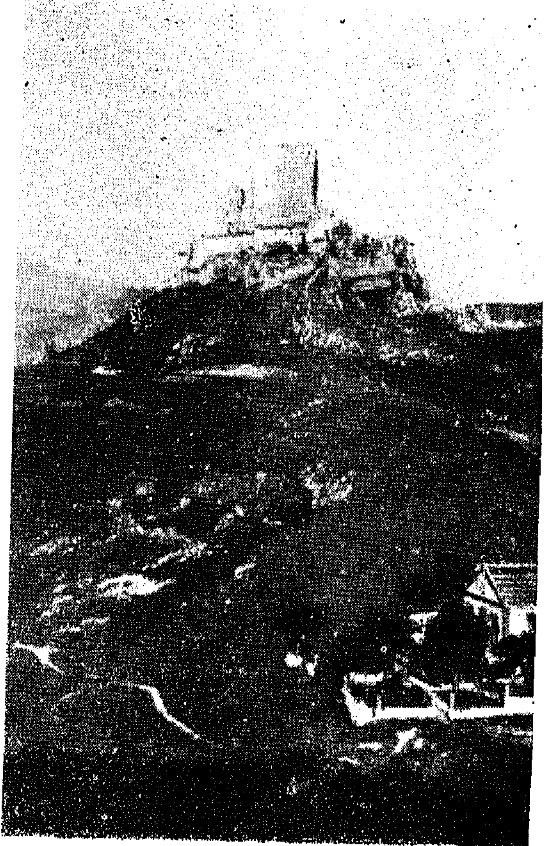
المعالم الأثرية

وأهم معالم جيّان الأثرية ، هو بلا ريب الحصن أو القصبة الأندلسية ، وتشيد الرواية كما تقدم بذكر قصبة جيان وحصانتها ، وموقع القصبة ذاته فوق الربوة العالية التى تشرف على المدينة ، وماتبقى من الأسوار والأبراج والأطلال الضخمة ، تؤيد هذه الحقيقة ، وتمتد هذه الأطلال فوق الربوة من الناحية الغربية محاذية لمعظم رقعة المدينة ، وتسمى باسمها الإسبانى ، «حصن سانتا كاتالينا » Castillo de Sta Catalina ، وقد أوضحت لنا سبب هذه التسمية القديمة ، الفقرة الآتية التى نقشت بالإسبانية فوق لوحة ثبتت على يمين أحد العقود الداخلية للحصن ، وهذا نصها :

«Segun tradición el XXV de Noviembre de MCCXLVI, dia de Santa Catalina, Alahmar rey de Granada entregó este Castillo a Fernando III el Santo quedando desde este Dia proclamada la Santa Patrona de Jaén»

ومعناه « انه وفقاً للرواية المتواترة ، فى يوم ٢٥ نوفمبر سنة ١٢٤٦ ، وهو يوم القديسة كاتالينا ، سلم ابن الأحمر ملك غرناطة هذا الحصن إلى فرناندو الثالث المقدس ، وأضحت من ذلك اليوم تعتبر القديسة حامية مدينة جيان » .

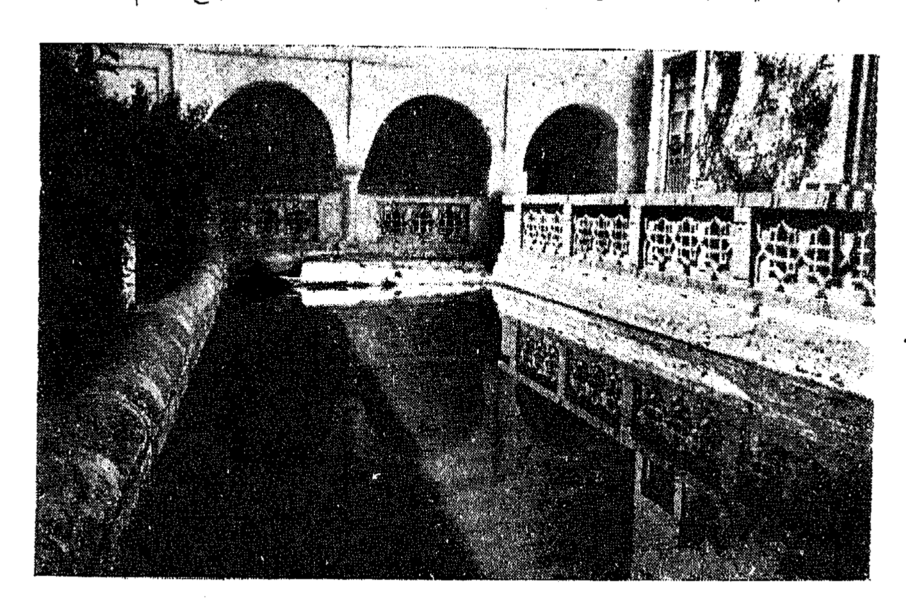
ويذكرنا موقع قصبة جيان ، وأطلالها الضخمة المترامية ، بأطلال القصبات الأندلسية الشهيرة فى ألمرية ومالقة . وتشتمل هذه الأطلال على مجموعة كبيرة من الأبراج الضخمة ، والعقود المنيعة ، بيد أن ما أدخل على القصبة الأندلسية من التغيير والإضافة على يد الملوك الإسبان ، قد أضاع الكثير من معالمها القديمة .



جيان . أطلال القصبة الأندلسية المسماة الآن حصن سانتا كاتالينا



جيان . البرج الأعظم بالقصبة



جيان .
الحمامات العربية

ويقع برج القصبة الأعظم وسط هذه الأطلال ، وهو مربع الشكل ،ويبلغ ضلعه فى العرض نحو خمسة عشر متراً وارتفاعه نحو ثلاثين ، وفى أسفله مثلث من العقود الضخمة ، تستند إلى دعامة سميكة ، وتقوم فوق البرج قبة عظيمة ذات دائرتين متقاطعتين ، وفى كل جانب منه نافذة عظيمة ، وتعلوها قبة أخرى أقل ارتفاعاً ، ثم يلى ذلك السطح والمشارف ، وتبلغ المساحة التى تعلوها القبة نحو اثنى عشر متراً فى مثلها ، ويوجد وراء هذا البرج فناء شاسع به مجموعة من أطلال الأسوار ، وعقود وأبراج صـــغيرة ، وإلى شرقيه برج آخر أصغر منه ، يتصل به بممر خاص .

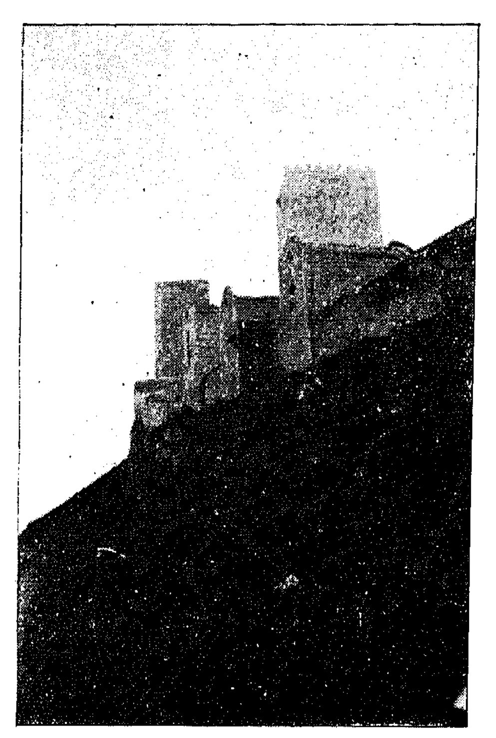
ويستند الحصن من الوراء إلى صخرة منيعة من الأحجار الزرقاء الصلدة ، وينتهى عند الجنوب ببرج صغير ذى عقد ، وأمامه ساحة فى أسفلها طابق من ثلاث غرف يبدو أنه كان يستعمل سجناً .

وهنا ، فى هذه الساحة ، تقع العين على طلل أندلسى مؤثر ، هو بقايامصلى عربية قديمة ، تعلوها قبة صغيرة ، ومدخلها عقد عربى ، وجوانبها الثلاثة ، ثلاثة عقود ، والظاهر أنهاكانت مصلى خاصة لحاكم القصبة .

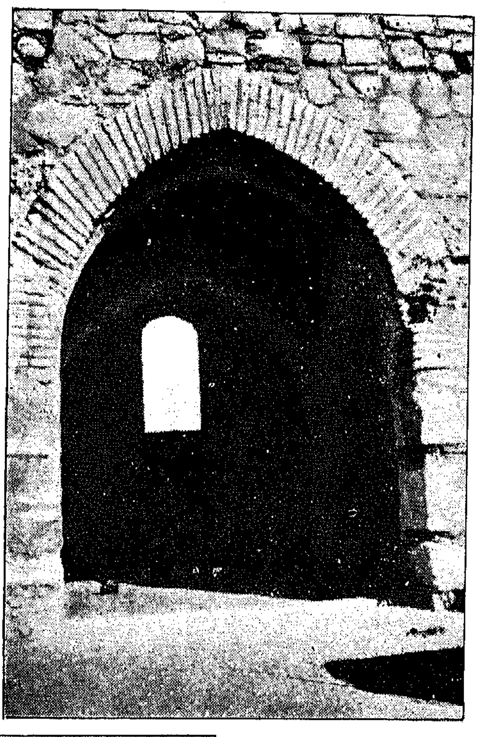
وفى نهاية الحصن من الجنوب تقوم سارية ثبت فوقها صليب كبير أبيض يطل على المدينة .

الكتدرائية : هى صرح ضخم ذو واجهة رائعة ، وتحتوى على برجين عظيمين متماثلين ، وهى تحتل موقع المسجد الجامع القديم . وكان فرناندو الثالث على أثر دخوله مدينة جيان فى سنة ١٢٤٦ م ، قد حول الجامع فى الحال إلى كنيسة ، ثم هدم بعد ذلك ، وأقيمت فى مكانه الكنيسة الحالية ، وقد أقيمت على طراز عصر الأحياء ، وهى شاسعة من الداخل ، تقوم على صفين عظيمين ، من العقود الضخمة العالية ، وقد زينت بتماثيل وزخارف فخمة ، وزودت بمجموعة ثمينة من الصور الدينية ، موزعة فى حظائر هياكلها . وتقوم كتدرائية جيان فى ميدان شاسع ، وأمامها شبكة من الدروب الضيقة ، وقيامها مكان المسجد الجامع يحدد موقع المدينة الأندلسية القديمة .

ويوجد إلى مقربة من الكتدرائية ، العقد المسمى « عقد سان لورنزو » وهو عقد يبلغ عمقه نحو عشرة أمتار ، وقد أحيط بسياج قوى من البناء ، وهو يمتاز



نجيان . جانب من
أبراج القصبة



جيان . المصلى العربي
داخل القصبة



جيان . واجهة الكنيسة
العظمى (الكتدرائية)

بمتانته ومناعته ، وقيل لنا إنه يرجع إلى أصل اندلسى. وقيل أيضاً إنه مدجنى الأصل والطراز . وإلى جانبه بناء يحتوى على قبر الملك فرناندو الرابع .

الحمامات العربية : وقد شاهدنا فى القسم القديم من المدينة ، وهو الذى يتميز بدروبه الضيقة ، أثرين أحدها أندلسى الأصل ، والثانى يتسم بمسحة أندلسية قوية . فأما الأول فهو « الحمامات العربية» Baños Arabes ، وهى تقع داخل البناء المسمى «ملجأ العجزة» وهى عبارة عن قبو شاسع ذى عقود متعددة قائمة فى صفين ، وفى بعض قباب هذه العقود ، نوافذ نجمية ، مما قد يدل بأنها كانت بالفعل حمامات. بيد أنه يلوح لنا أن هذا الوصف إنما هو وصف خاطىء ، وأن هذه العقود إنما هى على الأرجح عقود مصلى أو مسجد صغير . يؤيد ذلك أنه ما زالت تقوم فى أسفلها حظيرة «الميضأة». وفى الرواية المتواترة أن هذا البناء الذى يحتوى على هذه العقود هو بقية من بيوت الملوك الأندلسيين ، وأنه يرجع إلى سنة ١٥٠٥ م ، بيد أنه يبدو لنا من عقود ساحته ومن نوافذه ، أنه بناء مسيحى على الأرجح ، أو أنه قد عدل إلى هذا الطراز.

جيان . كنيسة سانتا مجدلينا وبرجها الموريسكى

وأما الأثر الثانى ، فهو كنيسة « سانتا مجدلينا » ، وهى أقدم كنائس جيان ، وهى كنيسة صغيرة ساذجة ، تقع فى الطرف الآخر من المدينة بجوار الحمامات

العربية ، وهى تقوم من الداخل على صفين من عقود ثلاثة ، ويغلب عليها الطابع العربى الموريسكى ، وقد بنى برجها الخارجى على طراز المنارة الموحدية ، وهى ترجع إلى القرن الثالث عشر .

المعالم الأخرى : وهنالك فى جيان كنيستان أخريان ، أولها كنيسة «سان أدفونسو» ، وهى كنيسة صغيرة قديمة ، قد بنيت على الطراز القوطى ، وتمتاز برواقها وفخامة مظهرها ، ويقال إنها قد بنيت على موقع أحد المساجد القديمة .

والثانية هى كنيسة « سان أندريس » ، وهى داخل المدينة القديمة ، فى أحد شوارعها الضيقة ، وهى صغيرة ، وقد بنيت عقودها القليلة على طراز مسجدى .

٥ – بياســـة وأُبّـدة

Baeza-Úbeda

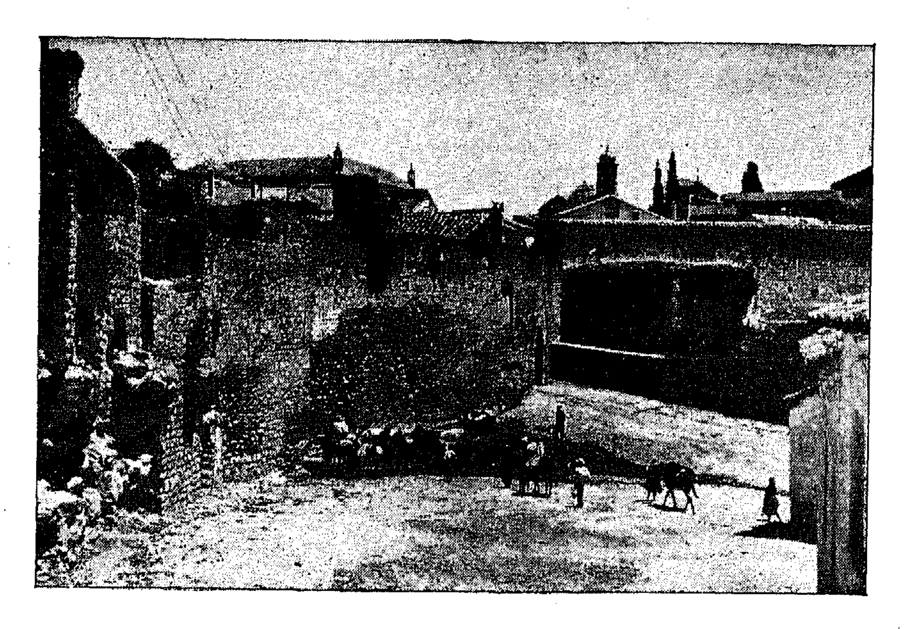
تضم ولاية جيّان ، وإلى الشمال الشرقى من مدينة جيان ، مدينتين أندلسيين قديمتين هما بياسة وأبدة ، يبعدان عن جيان نحو خمسين كيلومتراً ، وتفصلهما مسافة يسيرة .

أولاهما مدينة بيّاسة ، والثانية مدينة أبّدة ، وهى تبعد عن بياسة نحو عشرة كيلومترات .

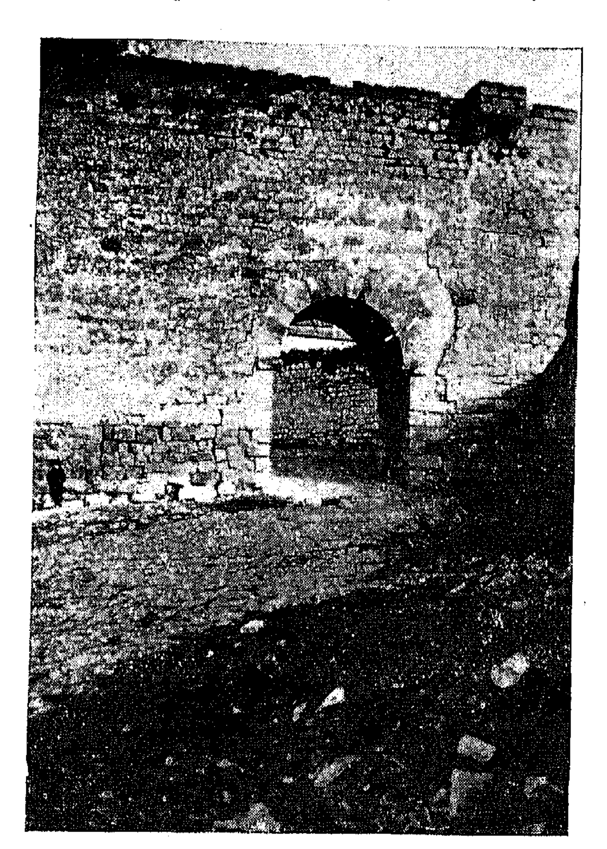
وهذه المنطقة التى تقع فى وسطها المدينتان الأندلسيتان ، يغلب عليها السهل المنبسط ، وتمتد سهولها إلى مسافات بعيدة ، ثم تظللها التلال فى النهاية ، ومعظم رقاعها خضراء منزرعة ،وقد كانت وقت اختراقنا لها فى قلب الشتاء،تغطيهاطبقة خفيفة من الجليد ، ومما يجدر ذكره أن هذا القطاع ، يتصل من الشمال بولاية « لامنشا » التى تكثر فى سهولها الكروم الأرضية ، فإذا ما تركت سهول « لامنشا » ونفذت إلى ولاية جيان ، تغيرت الطبيعة ، وظهرت الوهاد والهضاب ، وإن لم تكن وعرة ، ثم تبدأ غابات الزيتون ، وحقول القمح الخضراء ، وتمتد هذه الرقاع الخصبة إلى مسافات بعيدة .

وقد كانت بياسة من مدن هذا القطاع الذى يفصل بين الأندلس الشرقية والوسطى ، وسقطت فى أيدى النصارى لأول مرة فى سنة ١١٤٦ م ، ولكن المسلمين استردوها ، ثم تبادلها الفريقان بعد ذلك غير مرة ، وأخيراً استولى عليها فرناندو الثالث فى سنة ١٢٢٧ م ، وضمت بذلك نهائياً إلى مملكة قشتالة ،وحاول المسلمون استردادها فى سنة ١٣٢٤ م فى عهد السلطان أبى الوليد إسماعيل ملك غرناطة ،وحاصروها حتى سلمت،ولكنهم لم يستطيعوا الاحتفاظ بها ، وحاصروها مرة أخرى فى سنة ١٤٠٧ م ، ولكن دون جدوى .

وتقع بياسة فى بسيط من الأرض على الطريق الممتد من لينارس إلى أبدة ، وهى مدينة متوسطة ، مستطيلة الرقعة ، ذات شوارع طويلة ، وعليها مسحة حديثة ، ويبلغ سكانها نحو خمسة عشر ألف نفس ، وليست بها أية آثار أندلسية . وتقع مدينة أبّدة على مسافة قليلة من بياسة ، وتفصلهما هضبة تختلف بين السهل



أبدة . أطلال القصبة الأندلسية وفى ناحيتها اليمنى باب غرناطة



أبدة . باب غرناطة
وهو بابها الباقى داخل
أسوار القصبة

والوعر ، وتظللها التلال من ناحية الشمال ، وتكثر بها غابات الزيتون ، وتقع بها فى الطريق إلى أبدة أربع قرى هى « تريس أوليڤاريس » Tres Olivares و « كارينا » Carena ، و « روس » Rus ، و « يدرا » La Yedra ، ويربط هذه المحلات حتى أبدة ترام كهربائى متواضع . وقبيل أبدة ، يزداد البسيط من الأرض وتكثر غابات الزيتون والرقاع الخصبة كثرة ظاهرة .

وقد سقطت أبدة فى أيدى النصارى فى عصر مبكر ، فى سنة ١٢١٢ م ، عقب موقعة العُقاب التى هزم فيها الموحدون هزيمة شديدة ، وتضعضعت من بعدها قوى اسبانيا المسلمة ، وساد بها الاضطراب والفوضى .

وأُبّدة مدينة كبيرة تخترقها شوارع طويلة واسعة ، تجتمع صاعدة إلى الربوة الوسطى التى يحتلها وسط المدينة ، ومنها تنساب الشوارع منخفضة إلى أطرافها ، وتجمع خططها ومبانيها بين القديم والحديث ، ويبلغ سكانها نحو أربعين ألف نفس .

وتقع أبدة على ارتفاع كبير عن سطح البحر ، جنوبى سلسلة من الجبال الواقعة على ضفة الوادى الكبير ، وتهب عليها رياح باردة ، تجعلها فى الشتاء « أبرد مدينة أندلسية » . وقد قاسينا فيها روعة بردها القارس عند زيارتنا لها فى قلب الشتاء فى منتصف شهر يناير .

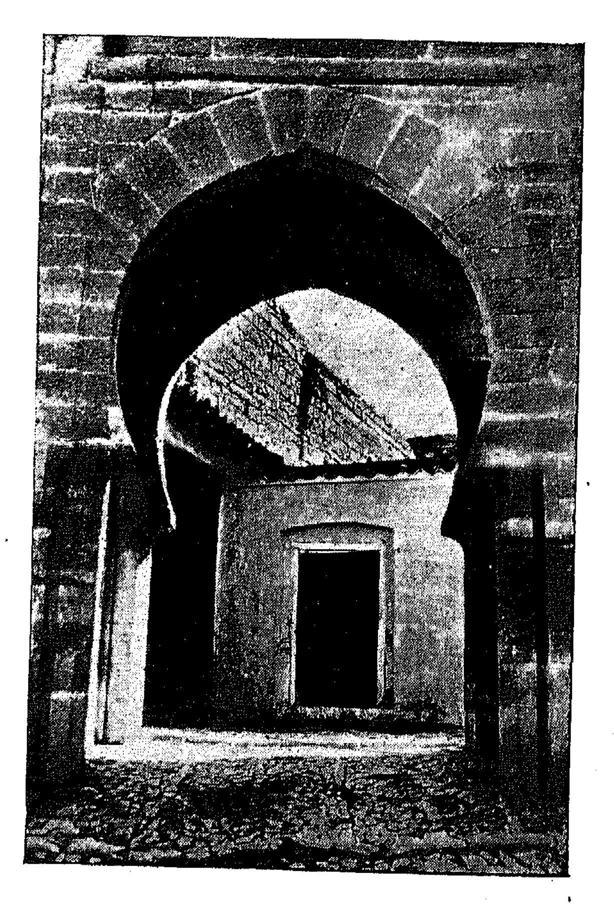
هذا ومازالت أبدة تضم بعض الآثار الأندلسية الهامة ، وهى تتمثل فى بقية من أسوارها الأندلسية ، وفى عقدين ، أو بابين من أبوابها القديمة .

الأسوار الأندلسية : وتقع بقايا الأسوار الأندلسية على مقربة من الكنيسة العظمى ، فى نهاية المدينة ، وهى بقية كبيرة يبلغ طولها نحو ثمانين متراً ، وارتفاعها خمسة عشر أو أكثر فى بعض أجزائها ، وفى وسطها عضادة قوية عالية ، وفى طرفها الأيمن عقد يسمى « باب غرناطة » ، وقد كان هذا فيما يبدو هو نهاية المدينة الأندلسية ، ويقع من وراء هذه الأسوار عدد من الدروب الصخرية الصلدة . وأما باب غرناطة هذا فهو عقد عتيق منخفض نوعاً يبلغ ارتفاعه نحو ستة أمتار وعرضه نحو أربعة وعمقه أربعة كذلك ، وإلى يمينه توجد بقية صغيرة أخرى من الأسوار .

عقد روسال Puerta del Rosal : على أن عقد روسال هو أهم آثار أبدة الأندلسية . ويقع هذا العقد فى الناحية الأخرى من المدينة وهى الناحية الجنوبية ،



أبدة . كنيسة سانتا ماريا (الكنيسة العظمى)



أبدة . العقد العربي
المسمى باب روسال

وتوجد فى جانبيه ، وفوقه بقية أسوار أندلسية منيعة ، وهو عقد مزدوج ، بين مدخله وعقده الداخلى، نحو مترين ونصف ، وهو يفضى إلى درب صاعد ضيق ويبلغ ارتفاعه نحو ثمانية أمتار ، واتساعه أربعة ، وفى منتصف كل من ناحيتيه ، عضادة تقوم على عمود رفيع ، وفى أعلى مدخله عقد معلق ، يبدو عليه القدم والمنعة ، ويقع هذا الطلل كله فوق مرتفع صغير يسمى « مرتفع الرحمة » ، Cuesta de la Merced ، ومن وراء العقد تقوم قطعة كبيرة من الأسوار عمل فى أسفلها « هيكل » صغير .

وتمتد من يسار العقد ، بضعة أزقة صغيرة تنحدر إلى واد صغير يقع فى شرقى المدينة ، وتقوم فى طرفه الآخر ربوة عالية بنيت فوقها بعض المساكن .

الكنيسة العظمى : وتسمى كنيسة سانتا ماريا ، وهى تقع فى نهاية المدينة على مقربة من الأسوار الأندلسية ، فوق ربوة صغيرة ، وأمامها ميدان كبير ، وهى قديمة ثم جددت ، وفى داخلها يقوم دير قوطى ؛ ويبدو كذلك وفقا للقاعدة التاريخية المأثورة ، أنها تحتل موقع المسجد الجامع القديم ، وإلى مقربة منها ، تقوم بقية الأسوار العربية التى سبق ذكرها .

وفى أبدة كنائس تاريخية أخرى مثل كنيسة « سان بابلو » ، وعدة صروح أثرية نصرانية .

٦ — لورقة وبسطة

Lorca-Baza

تقع بين مرسية وغرناطة ثلاث مدن ، لها فى تاريخ الأندلس شأن يذكر ، هى لورقة "Lorca"، وبسطة "Baza" ووادى آش "Guadix" ، وهى تقع على مسافات متقاربة . فبين مرسية ولورقة نحو ستين كيلومتراً ، وبين لورقة وبسطة ثمانين ، وبين بسطة ووادى آش ستين ، وبينها وبين غرناطة مثل هذه المسافة .

فأما لورَقة فهى مدينة كبيرة عتيقة الطراز ، تقع على سفح مرتفع تشرف عليه قلعة قديمة ، ربما كانت القصبة الأندلسية ، ويشقها من الوسط فرع لنهر شقورة ، وتحيط بها الجبال من الغرب ، وتتخللها الحدائق الباسقة والنخيل المثمر . وقسمها القديم تتخلله شوارع ودروب ضيقة ، تنم عن طرازها الأندلسى . ولكن قسمها الحديث تشقه شوارع عريضة ، ومبانيها منخفضة وأغلبها ذات طابقين أو ثلاثة ، وسكانها خليط بين الحضر والريف . ويليها من الجنوب بسيط أخضر من الحدائق والمروج . ومما يلفت النظر عدا كثرة النخيل بها ، أن أشجار التين الشوكى المعروف بمصر ، تنمو بها وبالمنطقة المحيطة بها بكثرة ظاهرة .

وكانت لورقة فى العهد الإسلامى قلعة مدينة مرسية ، فيما ينشب من حروب بين المسلمين والنصارى . وقد سقطت فى أيدى النصارى عقب سقوط مرسية فى منتصف القرن الثالث عشر .

ولورقة اليوم بلد زراعى وبها صناعات بسيطة ، ويبلغ سكانها زهاء ثمانين ألف نفس .

وتليها مدينة بَسْطة التى تفصلها عن لورقة سهول شاسعة جرداء . وتقع بسطة فى أعماق واد منخفض ، فى منطقة جبال سيرا نقادا ، وهى من أعمال ولاية غرناطة ، وتشرف عليها من الشمال الغربى آكام عالية . وهى مدينة قديمة ترجع إلى العصر الرومانى ، وقد لبثت فى أيدى المسلمين طوال الدولة الإسلامية ، ولم تسقط فى أيدى النصارى إلا فى سنة ١٤٨٩ م ، وبعد دفاع مجيد خلدته صحف العصر . وكانت أيام مملكة غرناطة من قواعدها الزاهرة ، وسكانها يبلغون زهاء

خمسين ألف نفس . أما اليوم فإن بسطة مدينة صغيرة ، يشقها شارع طويل على ضفتيه المنازل البيضاء ذات الطابقين والثلاثة ، ولا يعدو سكانها عشرين ألف نسمة . وهى بلد زراعى وبها صناعة الخزف والكتان .

وما زال الطابع الأندلسى يبدو فى مظاهر بسطة ، وكنيستها الرئيسية المسماة «سان ماسمو» "San Máximo" تحتل موقع المسجد الجامع القديم ، وكان هذا المسجد قد بنى على موقع كنيسة قوطية قديمة وكذلك كنيستها الأخرى المسماة Annonciación de Nra Señora كانت مسجداً حوله الملكان الكاثوليكيان إلى كنيسة .

وما زالت توجد فى بسطة بقية من أسوارها الأندلسية القديمة ، وكذلك يوجد بها حمامان عربيان ، أحدهما قديم ، والآخر — وهو ذو أربعة عقود — يرجع إلى العصر الغرناطى المتأخر .

وتوجد فى خارج بسطة الحدائق الغناء مترامية الأطراف ، حتى تصل إلى الجبال . ومعظم بقاعها الخارجية يغص بأشجار الزيتون . ويخرج منها طريق طويل تحف به الأشجار الباسقة هو طريق غرناطة . وبسطة هى بداية ولاية غرناطة الحديثة .

٧ - لوشـــــة

Loja

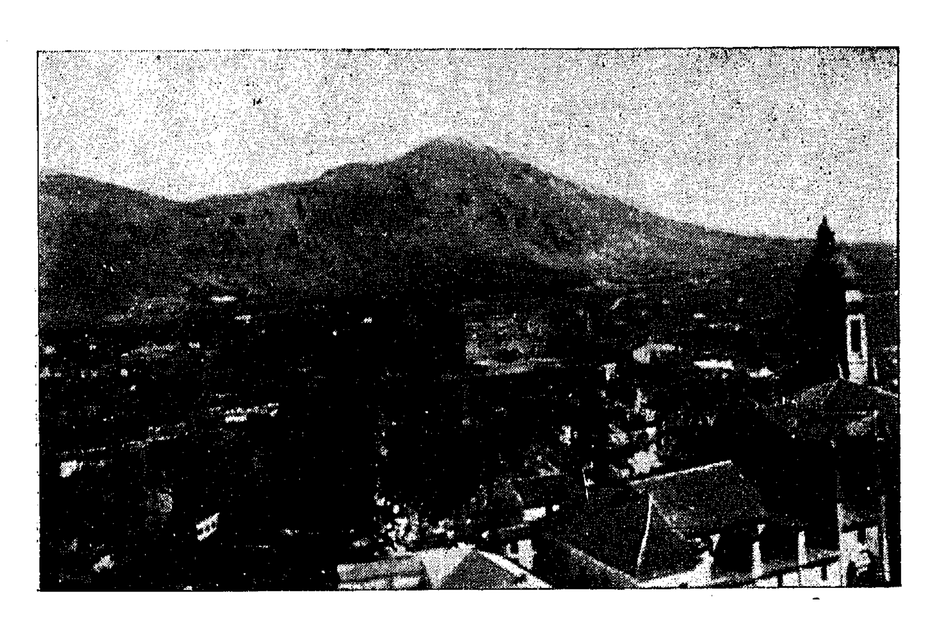
تقع لوشة غربى غرناطة ، على الطريق الممتد إليها من إشبيلية ، وعلى بعد خمسة وخمسين كيلومتراً منها . وهى مدينة متوسطة الحجم ، ذات شوارع كبيرة ، ويقوم بعض مبانيها فوق ربوة صخرية عالية ، ويقوم البعض الآخر فى منخفض الوادى ، ويخترقها نهر شنيل من الشمال ، ويقع على مقربة منها بعد قليل من الأرض الصخرية والتلال ، بسيط كبير من المزارع والحدائق الغناء ، يمتد حتى سفح الجبال القريبة منها ، وتليها أشجار الزيتون .

وبلغ سكان لوشة حسب إحصاء سنة ١٩٢٠ ، اثنى عشر ألفاً ، وهم يبلغون اليوم نحو عشرين ألفاً .

وقد سقطت لوشة فى أيدى الإسبان ، خلال حرب غرناطة الأخيرة فى شهر مايو سنة ١٤٨٦ م (٨٩١ هـ) ، بعد دفاع مجيد اشتهر فى صحف ذلك العصر . وكان فرديناند الكاثوليكى قد هاجمها قبل ذلك بأربعة أعوام ، فى سنة ١٤٨٢ م ، وكانت تدافع عنها حامية قوامها ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة القائد الباسل الشيخ على العطار ، فخرجت لمقاتلة النصارى وردتهم بخسائر فادحة . وكانت أيام الدولة الإسلامية من المدن الزاهرة فى مملكة غرناطة ، وبها ولد مؤرخ الأندلس وسياسيها الكبير ، الوزير لسان الدين بن الخطيب فى سنة ٧١٣ هـ (١٣١٣ م) .

وتتخذ خطط المدينة شكل صليب ، وتقع الكتدرائية أو الكنيسة العظمى فى وسطها ، ويخترقها من الوسط شارعها الكبير ، المسمى بعضه شارع الجنرال فرانكو ، وباقيه شارع الدوق بلنسية .

ولم يبق فى لوشة اليوم من آثارها الأندلسية القديمة ، سوى أطلال القصبة القديمة أو القلعة ، وما تزال تقوم فى باطنها بقايا بناء يظن أنه كان مسجداً ، وهى عبارة عن ثلاثة عقود على صفين ، وليست بها أية نقوش أوكتابات ، وقد غدت طللا دارساً يغمره الخراب والعفاء . ويسمى هذا المكان « بالجب » "Aljibe" ؛ وتقول الأسطورة المحلية ، إنه يحتوى على كنز للمسلمين . وإلى جانب هـذه



لوشة . أطلال القصبة الأندلسية

الأطلال ، يقوم بناء خرب كبير ذو فناء أندلسى قديم ، يقطنه بعض السكان الفقراء ، ويحتوى على طابقين فى كل منهما عدة غرف وأبهاء ، والمظنون أنه من مرافق القصبة الأندلسية القديمة .

وتقوم الكنيسة الكبرى فى وسط المدينة ، على مقربة من أطلال القصبة ، وفوق موقع المسجد القديم ، وتسمى كنيسة « التجسيد »"Encarnación" . وكانت القصبة تضم القلعة والقصر والمسجد الجامع . وهى متوسطة الحجم ، وقد أحرقت أيام الحرب الأهلية ثم جددت ، ولها برج عال يشرف على سائر جنبات المدينة .

وقد طفت بأرجاء لوشة ، والذكريات تغمر ذهنى ، فألفيتها مدينة مشرقة عامرة ، تتجه أحياؤها من طرفيها إلى الربوة العالية ، وتتجه أحياؤها الوسطى إلى بطن الوادى ، وأحياؤها الجانبية ضيقة الدروب والمسالك على الطريقة الأندلسية ، وشارعها الرئيسى طويل فسيح ، وبه كثير من المتاجر والمقاهى والفنادق .

ولوشة على وجه العموم مدينة راقية مثقفة ، وبها صناعات الزيوت والنشا والمنتجات الجلدية . وزرت كنيسة القديس جبريل"San Gabrael" ، وهى أيضاً

من أقدم كنائس لوشة ، وقد بنيت عقب سقوطها فى أيدى النصارى بقليل ، فوق موقع أحد المساجد القديمة ، فألفيتها فى قلب أحد الأحياء الجانبية ، وتبدو جدرانها القديمة عتيقة جداً ، ولكن معظمها قد جدد شأن الكنيسة العظمى .

ورأيت فى دار البلدية صورة زيتية كبيرة محدثة ، تمثل تسليم مدينة لوشة أيام حرب غرناطة ، إلى الملك فرديناند الكاثوليكى ، وزعيمها المسلم (وهو بطلها المدافع عنها الأمير محمد بن على) راكع أمامه ، ومن ورائه بعض الجند المسلمين بعمائمهم ، بيد أن هذه المناظر ليست بالطبع إلا من وحى الخيال . كما رأيت بها صورتين كبيرتين قديمتين تمثلان المدينة ومبانيها فى هذا العصر .

ولم أظفر بأية آثار أو معلومات ، تدل على موقع بيت ابن لوشة العظيم ووزيرها العبقرى ابن الخطيب .

٨ – أرشـــــدونة

Archidona

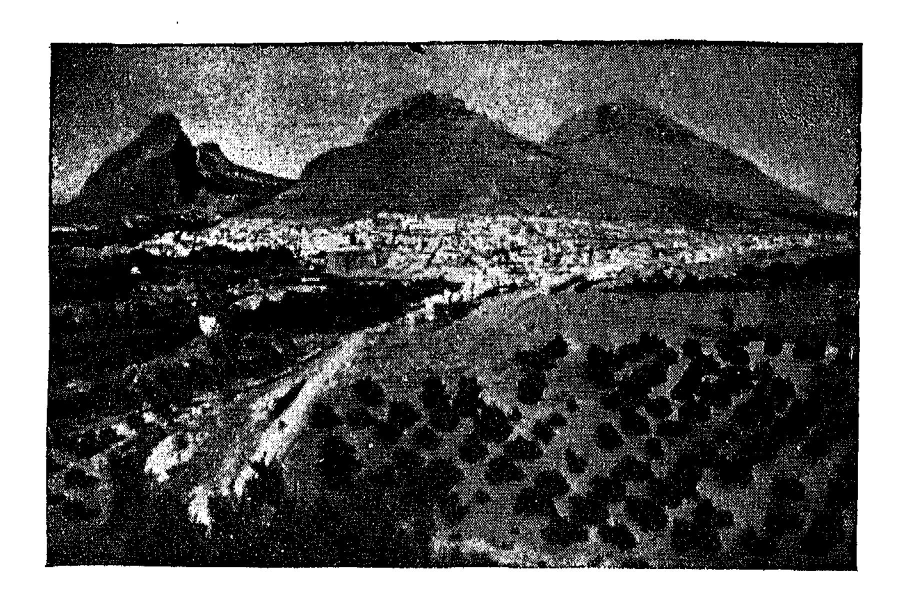
إن الوصول إلى أرشدونة من الأمور الصعبة . ذلك أن البسائط الخضراء الممتدة من غرناطة نحو الجنوب الغربى ، والتى تظللها الآكام العالية ، تنتهى جنوب غربى لوشة ، بمجموعة من الهضاب الوعرة . وهنالك تقع مدينة أرشدونة. وأرشدونه ذات موقع صعب يأخذ البصر بمناعته ووعورته ، فهى تقع فى بطن وادٍ سحيق تحيط به الجبال من كل ناحية ، ولا يرى منها خارج السهل سوى أسطح منازلها وأبراج كنائسها ، وهى تحتل من فجوة الوادى العميق رقعة مستديرة فى البداية ، ثم مستطيلة بعد ذلك ، تمتد إلى الداخل نحو كيلومترين ، فوق ربوة صاعدة تنتهى بتل عال ، تقع فوقه أطلال الحصن الكبير أو القصبة الأندلسية القديمة :

ويشق أرشدونه من الوسط شارعها الرئيسى الطويل حتى نهايتها ، ويمتد إلى إلى جانبيه شارعان محاذيان ضيقان ، وتخترقها شوارع جانبية عديدة ، وهى فى مجموعها كبيرة الرقعة ، يقع فى وسطها ميدانها الكبير القديم ذو العقود Plaza Mayor ، ومنازلها بيضاء معظمها من طبقة أو اثنتين ، ويغلب عليها الطابع الأندلسى على نسق مدينة إستجة .

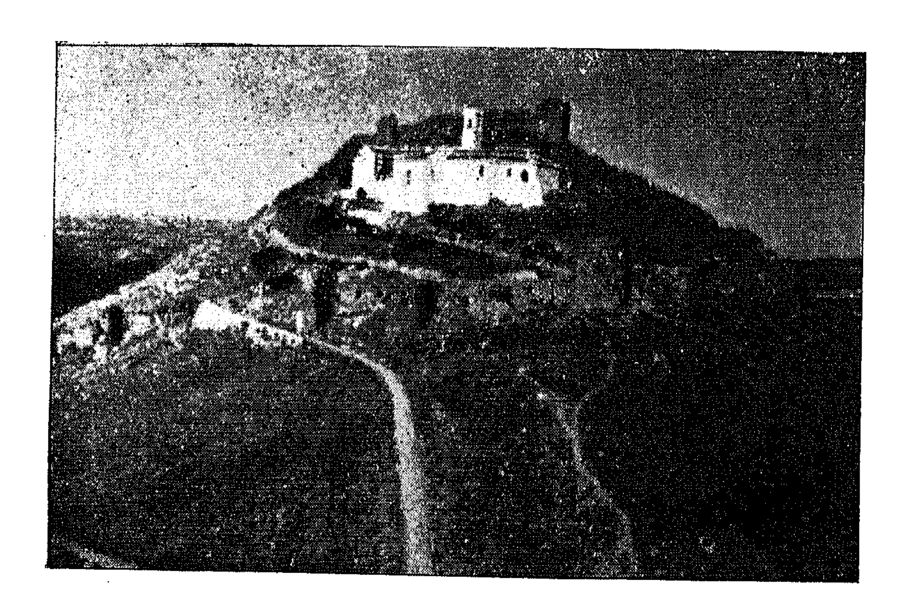
وقد كانت أرشدونة أيام الدولة الإسلامية ، من القواعد الجنوبية الحصينة ، وكان لها شأن أيام الفتنة الكبرى ، حيث كانت من قواعد عمر بن حفصون زعيم ثورة المولدين فى الجنوب ، وتبودلت مراراً خلال الوقائع التى نشبت بين الأمير وجند الثوار .

ولبثت أرشدونة من قواعد مملكة غرناطة الإسلامية ، ولم تسقط فى أيدى القشتاليين إلا فى حرب غرناطة الأخيرة حينما سقطت مالقة فى يد فرديناند الخامس فى سنة ٨٩٢ هـ (١٤٨٧ م) وسقطت فى أثرها سائر القواعد القريبة منها .

المعالم الأثرية : وأهم معالم أرشدونة الأثرية هى بالطبع بقايا الحصن أو القصبة الأندلسية . وهى تبدو فى نهاية المدينة فوق ربوة عالية جداً . وتقع هـذه



أرشدونة . منظر عام للمدينة ومن ورائها الجبل الذى تقع عليه أطلال القصبة



أرشدونة . أطلال القصبة وأمامها معبد « عذراء الرحمة »

الأطلال فوق صخرة وعرة ، وهى عبارة عن أسوار القصبة الخارجية ، تتخللها ثمان بوائك من بوائك أبراجها ، ويدل منظر هذه الأطلال وطراز بنائها ، على أنها كانت لحصن فى غاية المناعة ، كذلك يبدو من واجهة الحصن ، وهى تبلغ نحو مائة وخمسين متراً ، وما يترامى وراءها من بقايا أطلاله ، أنه كان يشغل مساحة عظيمة ، وأبرز ما يلفت النظر موقعه الفريد فوق الربوة العالية المشرفة على المدينة إشرافاً تاماً ، يجعلها تحت سيطرته المطلقة ، وقد أشار صاحب الروض المعطار إلى هذا الحصن فى حديثه عن أرشدونة[1] .

الكنيسة فوق الربوة : هذا وقد بنيت فى بطن السور ، فيما بين الأبراج الوسطى كنيسة أو معبد صغير يسمى « معبد عذراء الرحمة » [2] ، وهو عبارة عن بناء أبيض يبدو للناظر فوق الربوة ، على مسافة بعيدة . وأهم ما يلفت النظر فى داخل هذا المعبد ، أنه يحتوى على بضعة عقود عربية . وقد علمت من الدكتور راميلو R.C. Ramilo ، وهو طبيب شاب يعنى بدراسة تاريخ أرشدونة وخططها ، أن هذا المعبد قد أقيم فوق أنقاض جامع القصبة ، وأدخلت ضمنه العقود الباقية من الجامع ، فأصبح على هذا النمط نصفه كنيسة ، والنصف الآخر جامع .

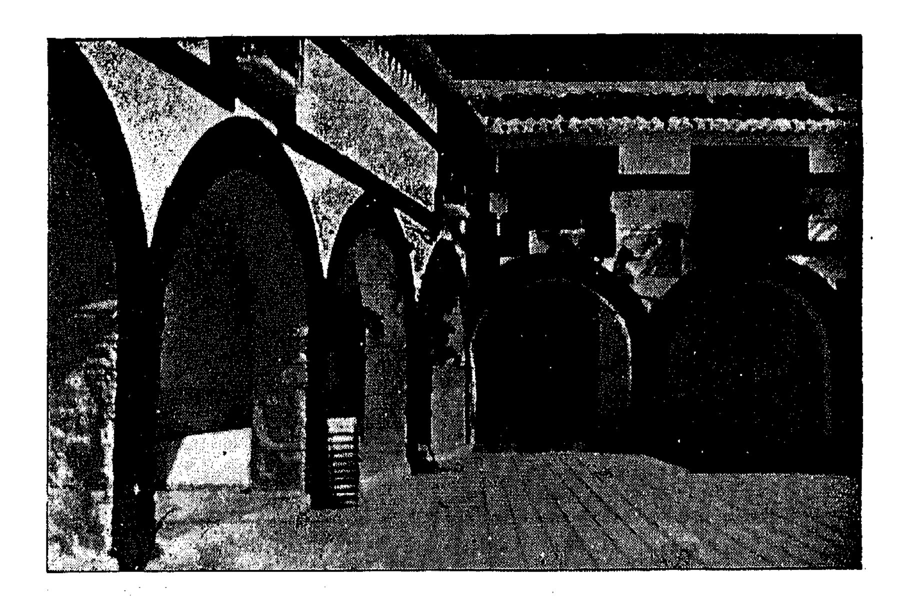
وعلمت من جهة أخرى أن أهل أرشدونة ، يحتفظون بكثير من التقاليد الأندلسية ، وأنه يوجد بها حتى اليوم شارع يحمل اسما عربياً هو شارع «المُحلّى» Almohalla ، وهو من أقدم شوارعها .

الكنيسة العظمى : وتقع الكنيسة العظمى فى وسط المدينة ،وهى كنيسة صغيرة مجددة البناء ، ولكن موقعها وسط المدينة ، يحمل على الظن بأنها على الأرجح ، تحتل موقع جامع أرشدونة القديم ؟

---

(١) الروض المعطار — صفة جزيرة الأندلس — ص ١٢ .

(٢) Ermita de la Virgen de Gracia



أرشدونة . عقود المعبد العربية وهى من بقايا جامع القصبة



أرشدونة . هيكل المعبد وقد أقيم داخل عقود الجامع

٩ — مالقـــة

Málaga

مالقة هى اليوم عاصمة الولاية الإسبانية التى تسمى بهذا الاسم ، وهى أعظم وأهم ثغور اسبانيا الجنوبية ، ويبلغ سكانها ثلاثمائة ألف نسمة .

وترجع مالقة إلى أصول رومانية وفينيقية . وقد كانت أيام الدولة الإسلامية من أقدم وأهم الثغور الأندلسية ، وقد احتفظت بطابعها الإسلامى الخالص حتى نهاية مملكة غرناطة ، وسقطت فى يد الإسبان فى شهر أغسطس سنة ١٤٨٧ م (شعبان سنة ٨٩٢ هـ) بعد دفاع مجيد سجلته صحف ذلك العصر .

ولكن مالقة تبدو اليوم مدينة أوربية حديثة بكل معانى الكلمة . وهى تقع على البحر الأبيض المتوسط فى واد عميق ، تظلله المرتفعات من الناحية الشمالية ، ومن وراء الوادى منطقة وعرة كلها جرداء ، والسهل فيها قليل .

وهى مدينة عظيمة مترامية الرقعة ، ذات شوارع وميادين فسيحة ، يظللها النخيل والأشجار الباسقة ، ويخترقها نهر « وادى المدينة » "Guadalmedina" ; ولكن مجراه يبقى جافاً لاماء فيه معظم أشهر السنة .

وأشهر شوارعها « الألميدا » "Alameda"، ذو الأشجار العتيقة الضخمة ، وهو يشق المدينة على مقربة من الميناء ، وتتفرع منه على الجانبين معظم شوارع المدينة التجارية ، وفى مقدمتها شارع المركيز دى لاريوس "C. del M. de Larrios" الذى يضم أعظم المتاجر والمقاهى والفنادق ؛ ومن أجمل شوارعها الشارع الفسيح الذى يحاذى الميناء ، ويقوم على جانبيه صفان من النخيل والأشجار الباسقة .

وتمتد المدينة جميلة مشرقة على البحر بضعة كيلومترات ، وإلى شرقها تمتد سلسلة من القرى الجميلة على شاطىء البحر ، فى رقعة ضيقة تحدها الجبال من الناحية الأخرى ، وهى رقعة خضراء فى معظمها ، وبها جداول ومزارع يانعة .

وتقوم غابات النخيل الجميلة فى مشارف مالقة من ناحية البحر .

ومالقة مركز صناعى وتجارى هام ، وتصدر المصنوعات الحديدية ، والرصاص والقصدير وزيت الزيتون والنبيذ ، والفواكه ولاسيما العنب والتين

واللوز . وقد اشتهرت كذلك بمنتجاتها الجميلة من الفخار والخزف الملون ، وهى صناعة تحرص على ازدهارها منذ العصر الإسلامى .

ولاتحتفظ مالقة اليوم بشيء من طابعها الأندلسى القديم . ولكنها مازالت تحتفظ بطائفة هامة من الآثار والمعالم الأندلسية .

القصبة : وأهم هذه الآثار الأندلسية قصبة مالقة الإسلامية . وهى طلل ضخم حصين يقع على منحدر صخرى قريب من البحر ، ويشرف على متنزه مالقة الكبير



مالقة . واجهة القصبة ، وقد ظهرت قبالتها الكنيسة العظمى

الواقع على مقربة من الميناء . ولقصبة مالقة تاريخ طويل حافل ، وأطلالها الحالية ترجع إلى عهود مختلفة ، وقد كان بنو حمّود ، حينما أقاموا ملكهم بمالقة فى أوائل القرن الخامس الهجرى ، هم أول من عنى بتجديد قصبة مالقة . واهتم منهم بالأخص بذلك حسن بن يحيى بن حمود ، المستنصر ، الذى ولى العرش فى سنة ٤٣١ هـ (١٠٣٩ م) . وكانت القصبة عندئذ تضم قصر الأمير .

على أن قصبة مالقة تدين بضخامتها ومنعتها بالأخص لباديس بن حبّوس ملك غرناطة البربرى أيام الطوائف ، فقد انتزع باديس مالقة من الحمّوديين فى سنة ٤٤٩ هـ (١٠٥٧ م) ، وجدد قصبة مالقة ، تجديدا شاملا ، ووسع منشآتها حتى

غدت من أعظم القصبات الأندلسية ، ويحدثنا حفيده الأمير عبد الله بن بُلُقّين عن ذلك فى مذكراته حيث يقول مشيراً إلى جده باديس :

« وبنى قصبتها (أى قصبة مالقة) بنياناً لم يقدر عليه أحد فى زمانه ، وأعدها عدة للمهمات ، وجعل فيها جميع ماورث لابنه وزاد عليه . وكان الذى يتوقع من كَلَب سلاطين الأندلس ،واتفاقهم عليه لذلك أن يتحصن فيها ما استطاع ، وإلا فيجوز منها إلى عدوة بنى عمه بأهله وذخائره »[1] .

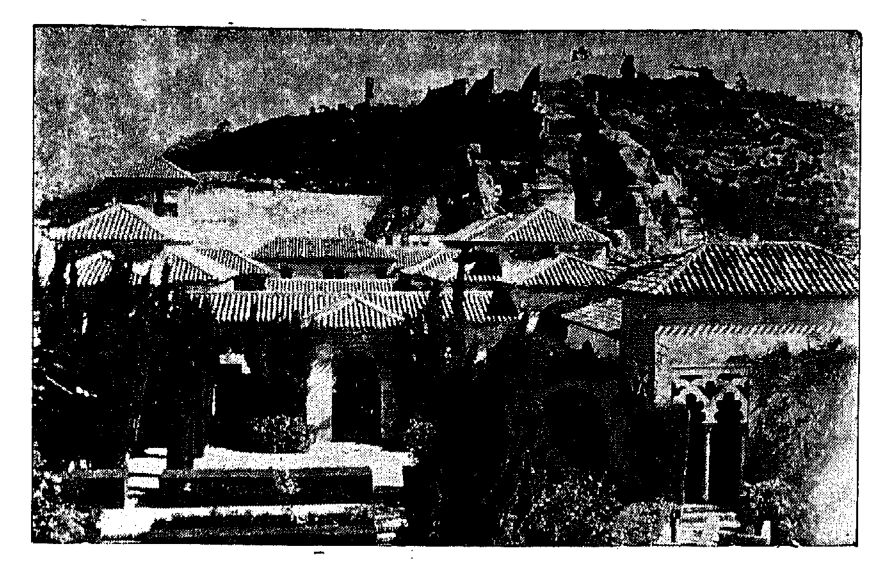
وقد توالت على قصبة مالقة من ذلك العهد تغييرات وتجديدات كثيرة ، وجددت وأصلحت غير مرة على يد سلاطين غرناطة ، وذلك فى أواخر القرن الثالث عشر ، وخلال القرن الرابع عشر .ولبثت طوال عهدها من أكبر وأمنع القصبات الأندلسية . ومما هو جدير بالذكر أنها كانت عند حصار مالقة الأخير ، على يد الملكين الكاثوليكيين فى سنة ١٤٨٧ م ، تضم أكثر من خمسة عشر ألف من المقاتلة وغيرهم ، وقد أبلت فى الدفاع عن المدينة فى هذا الحصار خير البلاء .

والآن تشغل قصبة مالقة رقعة شاسعة تدل على سابق ضخامتها ، كما تدل بوعورتها ومتانة أسوارها وخرائبها على سابق منعتها ، وتمثل هذه الأطلال الباقية عهوداً وطرازات مختلفة . ولا يوجد اليوم من أبنيتها القديمة أيام باديس ، سوى بقية تقع فى ناحيتها الشمالية ، أما سائر مبانيها الواقعة فى الناحيتين الشرقية والجنوبية فكلها لاحقة لهذا العهد ، ويوجد فى مدخلها عدة أبواب ذات عقود عربية ، ومنها الباب المعروف « بقوس المسيح » **Arco del Cristo** ، وهو ذو عقدين ، ويرجع إلى القرن الحادى عشر ، وقد أقيم فى صدره هيكل للعذراء .

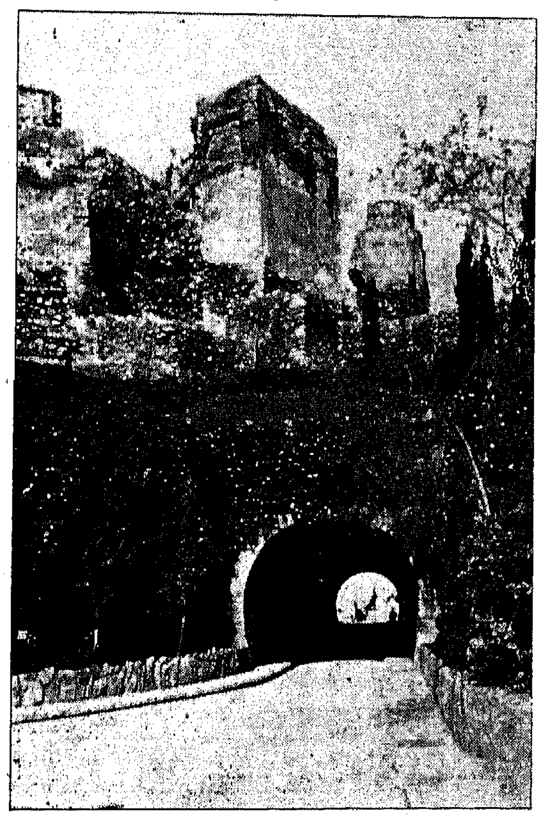
وقد أسفرت أعمال الحفر والتنظيف التى أجريت بقصبة مالقة بين سنتى ١٩٣٤ و١٩٣٦ ، عن الكشف عن مجموعة جديدة من الأبنية التى يرجع بعضها إلى العصر الحمّودى ، والبعض الآخر إلى العصر الغرناطى ؛ وتقع هذه المبانى فى الجزء الأعلى من القصبة ، وهو القائم بين الأسوار والأبراج ، وهى تضم مجموعتين . الأولى تقع بعد باب المدخل مباشرة ، وهى التى يطلق عليها منذ الإسترداد النصرانى Cuartos de Granada (الأجنحة الغرناطية) ، وهو حسبما يبدو قصر القصبة ، وينقسم إلى ثلاثة أبهاء . والثانية وهى الواقعة فى الناحية الشرقية ، هى عبارة عن

---

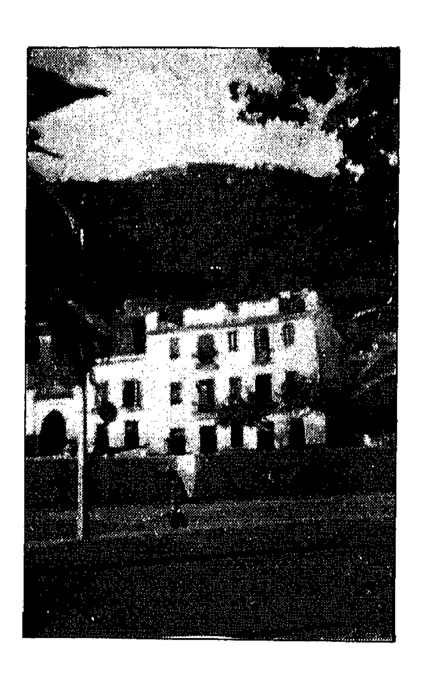
(١) كتاب « التبيان » أومذكرات الأمير عبد الله المنشور بعناية الأستاذ ليڤى بروڤنسال (القاهرة) ص ٤٣ .



مالقة . منظر عام لواجهة المبانى الداخلية للقصبة وفى أيسرها عقود ترجع إلى عصر بنى حمود



مالقة . أطلال حصن جبل فاره



مالقة . جبل فاره وفى أعلاه أطلال الحصن

أبنية سكنية وبها حمامات ، وكان يفصل القصر عن الأسوار والأبراج طريق عريض . وتدل مباني المجموعة الأولى وزخارفها على أنها ترجع إلى العهد الغرناطى ، إلى أواخر القرن الثالث عشر أو القرن الرابع عشر ، وأنه قد استعملت فى إقامتها بعض أنقاض أبنية باديس التى أقيمت فى القرن الحادى عشر . ويوجد إلى جانب هذه المجموعة متحف صغير به طائفة من الأوانى الخزفية الأندلسية ، التى اشتهرت بصنعها مالقة ، وبعض قطع زخرفية عليها كتابات عربية ، وهى مما وجد بين الأنقاض .

وقد احتفظت قصبة مالقة ، بعد سقوطها فى أيدى النصارى ، عصراً بجدتها ورونقها ، ولبث قصرها زهاء قرنين ، مقاماً ملكياً ، يؤمه الملوك والحكام الإسبان لروعة موقعه على البحر ، بيد أنها أهملت منذ القرن الثامن عشر ، وأخذ العفاء يدب إليها شيئاً فشيئاً ، حتى شملها الخراب ، ولم يكن بها فى أواخر هذا القرن سوى بعض مبان قائمة وسط أطلالها العديدة يسكنها بعض الفقراء ، واستمر الخراب يعمها ، حتى صارت فى أوائل هذا القرن أطلالا وركاماً دارسة ، إلى أن تداركتها أعمال الحفر الأخيرة ، فكشفت عن بعض معالمها ومحاسنها القديمة .

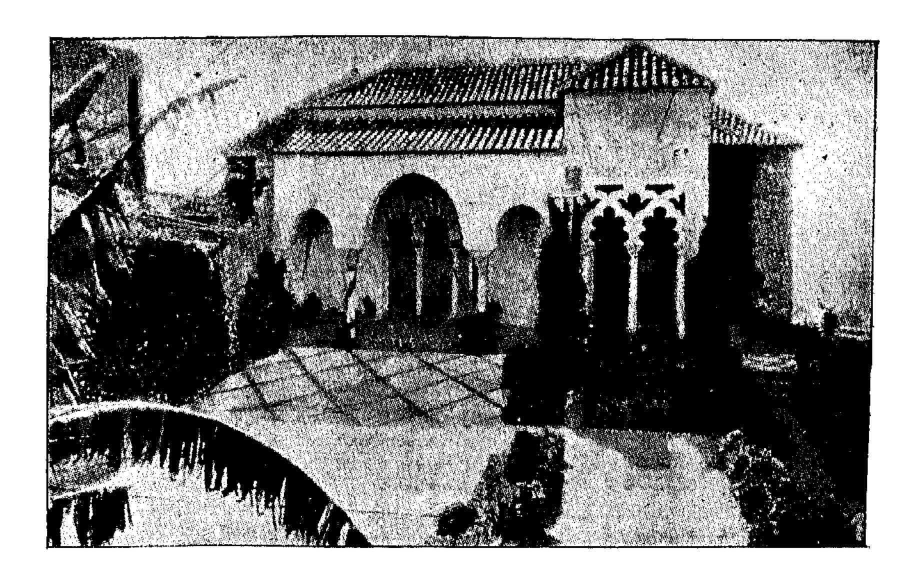
وتحتفظ القصبة ببعض أبراجها القديمة ، وهى تدل على ما كانت عليه أيام المسلمين من القوة والحصانة .

والخلاصة أن قصبة مالقة كانت أيام المسلمين صرحاً من أعظم الصروح الدفاعية وكان لها عندئذ اثنا عشر باباً ، ومائة وعشرة أبراج كبيرة عدا الصغيرة . وكان بها قصر للأمير ومساكن للحاشية وحديقة عظيمة ، تفضى إلى مجموعة من الحمامات . وكان بها مسجد . والواقع أن ما تبقى منها اليوم لا يعدو أن يكون بقية من الأطلال الدارسة لهذا الصرح العظيم القديم(١) .

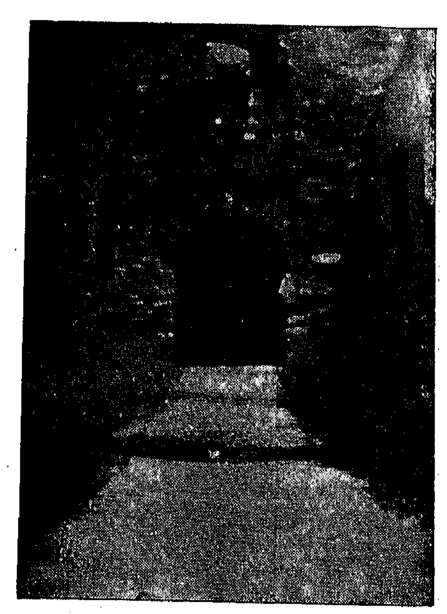
حصن جبل فارة وبالإسبانية "Gibralfaro" : وهو صرح دفاعى إسلامى آخر ، يقع على ربوة عالية تشرف على البحر ، على مسافة صغيرة من القصبة ، ويفصله عنها رقعة خضراء ، ويربطه بها طريق مسور ؛ ومازال هذا الصرح يحتفظ بكثير من مسحة عربية ، وهو أكثر جدة واحتفاظاً بهيكله من القصبة ، ويدخل

---

(١) راجع مقالا قيما عن تاريخ قصبة مالقة وخواصها الأثرية للعلامة المرحوم الأستاذ توريس بالباس فى مجلة الأندلس : **Al-Andalus (1944) Fasc. 1. p. 173-190**



قصبة مالقة . العقود الغرناطية والمدخل الجنوبي للفناء المكتشف حديثاً



مالقة . « باب قوس المسيح » داخل القصبة



مالقة . باب السوق الأندلسي

إليه من باب سفلى ذو عقد كبير ، يليه فناء مربع ذو عقود ، وله مدخل آخر من من فوق الربوة يؤدى إلى أروقته العليا ، وفى صحنه الأسفل حديقة وعقود عديدة ، وأسواره الخارجية مبنية بالآجر الأحمر ، ومن حوله طائفة من الأروقة التى تليها الأسوار. ومازال برجه الرئيسى قائماً ، ويسمى بالبرج الأبيض "Torre Blanca"، ويحتوى على عدة عقود ومخادع ، وواجهته مستديرة ، ويشرف على المدينة من ارتفاع شاهق . وأمام الحصن من الناحية الأخرى منحدر الجبل ، وممراته الجانبية من هذه الناحية متماثلة ، وتنحدر تدريجياً إلى أسفل . وتبدو من تحته مدينة مالقة ، فى شكل نجمة ذات زوايا ، ومنازلها بيضاء ما بين الحصن والجبل .

ويشغل الحصن رقعة واسعة . وقد لاحظنا أن مشارف أسواره ، قد بنيت على نمط مشارف أسوار الحمراء وأبراجها .

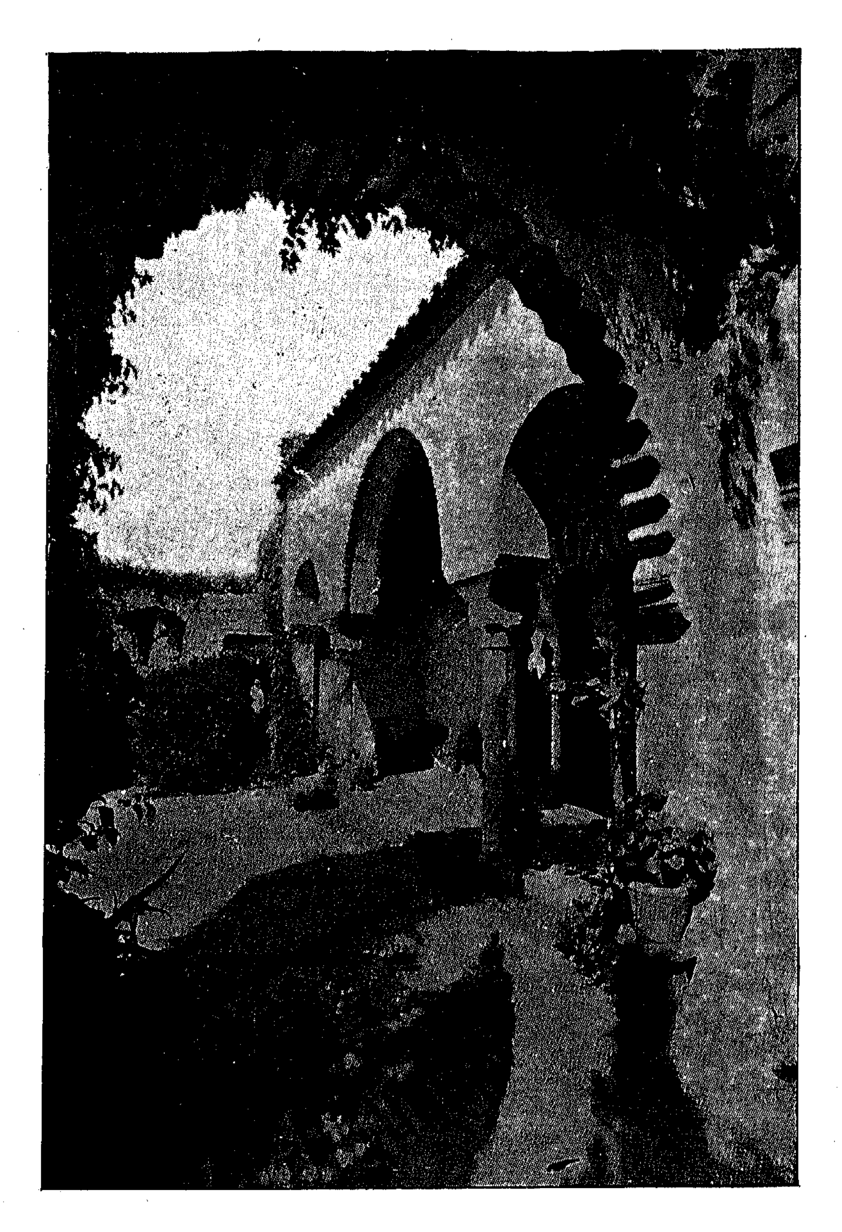
وقد اشتهر حصن جبل فارة ، أيام حصار النصارى الأخير ، بمواقفه الدفاعية الباسلة ، وكانت تحتله فرقة من جند غمارة ، أبلت فى الدفاع بلاء حسناً ، وصمدت حتى آخر لحظة ، وأنزلت بالنصارى خسائر فادحة .

ويبدو أصل هذا الحصن القديم غامضاً ، ويرجعه بعض الأثريين فى الأصل إلى عصر الفينيقيين ، والبعض الآخر إلى العصر اليونانى . ولكن الذى لاريب فيه أنه أصلح وجدد على يد المسلمين غير مرة ، كعادتهم فى شأن الصروح الدفاعية القديمة . ويرى بعض الباحثين أنه جدد لأول مرة ، على يد المسلمين ، فى عصر عبد الرحمن الداخل الأموى ، فى أواخر القرن الثانى الهجرى ، ونحن نعرف فوق ذلك أنه قد أصلح فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى ، على يد محمد بن الأحمر الثانى سلطان غرناطة ، ثم قام السلطان يوسف أبو الحجاج (١٣٣٣ — ١٣٥٤م) بعد ذلك بتجديده ، وإعادة بنائه على أكمل وجه ، وهو ما يشير إليه ابن الخطيب فى قوله « وفى أيامه بنى الحصن السامى الذروة ، المنبئ عن القدرة ، فى الجبل المتصل بقصبة مالقة ، فعظم به الفخر ، وجل الذكر »[1] .

وكانت لحصن جبل فارة أيام المسلمين أربعة أبواب كبيرة فى سوره الأسفل ، يفضى أحدها إلى القصبة ، وكانت به آبار كثيرة للماء .

سوق مالقة : ويوجد ثمة بمالقة أثر إسلامى آخر ذو أهمية خاصة ، وهو

(١) اللمحة البدرية (القاهرة) ص ٩٦ .



قصبة مالقة . عقد المدخل (البورتكو) للفناء الجنوبى

السوق القديم ، الذى ما زال يحتل موضعه منذ العصر الإسلامى ، وهو يقع اليوم فى وسط المدينة ، وهو عبارة عن ساحة مربعة واسعة ، مخصصة لبيع البقول والأسماك ، والطيور وغيرها ، وما زال هذا السوق يحتفظ ببابه الأندلسى القديم كاملا ، وفى حالة جيدة ، وهو باب مرتفع ذو عقدين ، وعلى جوانبه العليا زخارف وكتابات عربية ، يتخللها شعار بنى نصر ملوك غرناطة « ولا غالب إلا الله » .

الكنيسة العظمى : وتقع كنيسة مالقة العظمى (الكتدرائية) على مقربة من القصبة ؛ وقد بنيت فوق أنقاض المسجد الجامع القديم ، الذى حول عقب دخول الملكين الكاثوليكيين المدينة إلى كنيسة .

ثم أقيمت مكانها (الكتدرائية) الحالية ، وهى ترجع إلى أوائل القرن السادس عشر ، وهى كنيسة ضخمة عالية القباب ، ولها واجهات فخمة شاهقة ، ويغلب عليها طراز عهد الإحياء الإسبانى .

ومن صروح مالقة ذات الصلة بعهدها الإسلامى ، كنيستها المسماة « مسيح النصر » "Cristo de la Victoria" ، وهى ترجع إلى أواخر عهدها الإسلامى ، وكانت قائمة وقت حصارها الأخير فى سنة ١٤٨٧ م .

وكنيسة سانتياجو (شنت ياقب) ، وقد أسسها الملكان الكاثوليكيان فى سنة ١٤٩٠ م ؛ واتخذ برجها من منارة مسجد قديم ، كانت قائمة عند سفح القصبة.

وكنيسة « سـيدة النصر » "Nuestra Sra. de la Victoria" ، وقد بنيت فوق المكان الذى ضربت فيه الخيام الملكية وقت الحصار .

ومما هو جدير بالذكر أن كنيسة سان دومنجو ، التى تقع فى وسط المدينة على مقربة من نهر « وادى المدينة » ، قد بنيت من الداخل على طراز المسجد ، بعقود عربية متقابلة . والمعروف من تاريخها أنها بنيت فى الواقع ، فوق أنقاض أحد مساجد مالقة القديمة ، وأكثر من ذلك أن بابها يتجه نحو الجنوب الشرقى ، مما يدل على أنه أقيم مكان القبلة القديمة[1] .

* * *

(١) لفت نظرى إلى هذه الكنيسة وخواصها الأثرية ، صديقى السنيور خوان تمبورى J. Temboury وهو أحد سراة مالقة المشتغلين بالآثار الإسلامية .

والخلاصة أن مالقة تبدو فى مجموعها مدينة عصرية محدثة الخطط ، ويسبغ عليها موقعها على البحر ، كما تسبغ عليها شوارعها الظليلة ، ومتنزهاتها الفيحاء ، حلة خلابة من الجمال والسحر.

على أنه ليس من الصعب أن نتلمس فى هذه المجموعة الضخمة من الخطط العصرية ، بعض مواقع المدينة الأندلسية القديمة . والواقع أن جانباً من خطط المدينة القديمة يتجمع حول موقع حصن جبل فارة ، على مقربة من القصبة ، وفى أسفلها وحول موقع الكنيسة العظمى ، التى تحتل مكان المسجد الجامع القديم. فى هذه المنطقة مازالت تقوم شبكة من الدروب الضيقة الملتوية ، تقوم عليها منازل متواضعة ، ذات طابق أو طابقين ، ومواقعها فيما يرجع تمت بأوثق صلة ، إلى جانب من خطط مالقة الإسلامية . وتقع هذه المنطقة من مالقة القديمة فى جنوب شرقى المدينة.

مالقة : الكنيسة العظمى

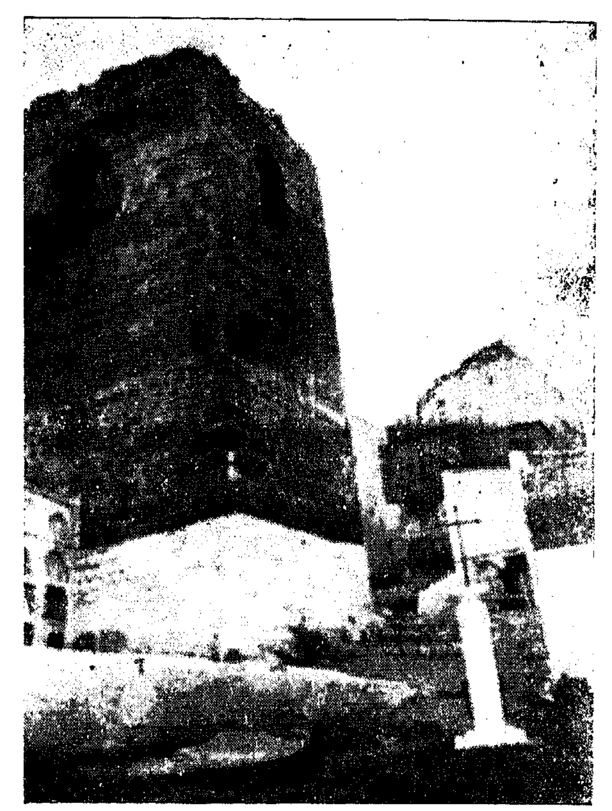
* * *

هذا وتوجد فى بعض بلاد ولاية مالقة ، طائفة من الآثار الأندلسية التى مررنا بها مروراً عابراً ، ونذكر منها على سبيل المثال :

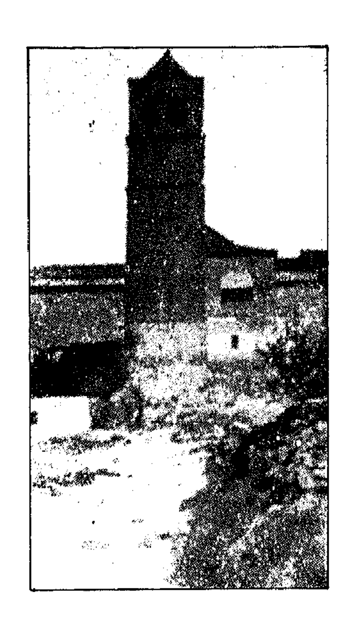
(١) يوجد فى قرية « الشرّو » "El Chorro" ، الواقعة على مقربة من بلدة

بُبَشتر ، كنيسة أندلسية قديمة ، هى الكنيسة التى أنشأها عمر بن حفصون زعيم المولدين وكبير الخوارج الأندلسيين ، فى أواخر القرن الثالث الهجرى ، حينما ارتد عن الإسلام واعتنق النصرانية .

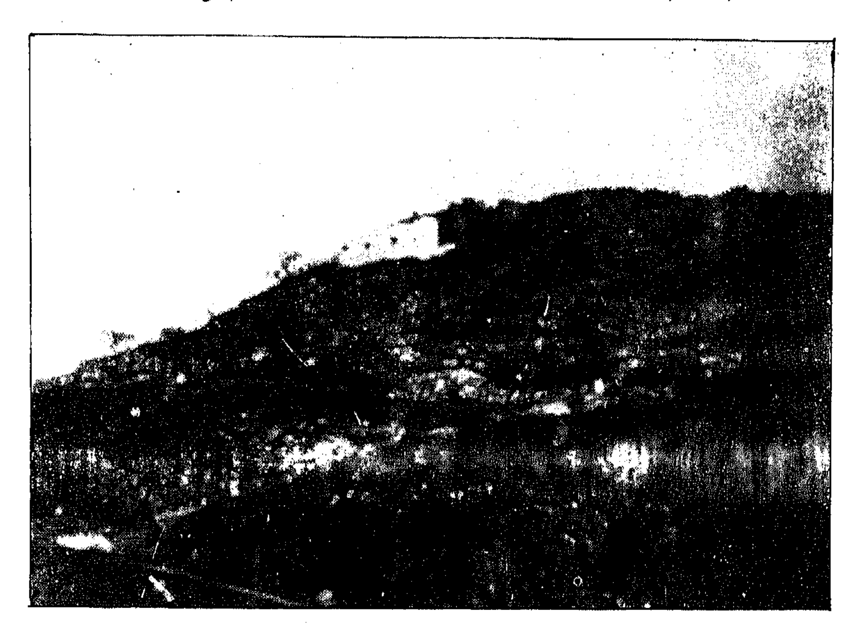
(٢) يوجد فى قرية « قرطمة » "Cártama" الواقعة غربى مالقة ، حصن عربى صغير ، وكذلك يوجد حصن عربى آخر فى بلدة « ألورة » "Alora" ، الواقعة شمال غربى مالقة .



ألورة (مالقة) . بقايا الحصن الأندلسى



بلش مالقة . كنيسة سانتا ماريا



قرطمة (مالقة) . الحصن الأندلسى

١٠ — بلش مالقـــــة

Vélez Málaga

ليست « بلّش مالقة » اليوم سوى مدينة صغيرة ، لايجاوز سكانها ثلاثين ألفاً من الأنفس ، وليست لها أية أهمية خاصة . بيد أنها كانت أيام مملكة غرناطة الإسلامية ، من أهم وأمنع قواعدها الجنوبية ، وكانت فوق ذلك موطن كثير من العلماء والأدباء ، الذين اشتهروا فى القرن الثامن الهجرى . وقد اشتهرت فى قصة سقوط الأندلس بدفاعها المجيد ، وسقطت فى أيدى القشتاليين فى جمادى الأولى سنة ٨٩٢ هـ (ابريل سنة ١٤٨٧ م) .

وتقع بلش شرقى مالقة ، على قيد ثلاثين كيلومتراً منها ، وتبعد عن البحر خمسة كيلومترات ، حيث تقع بلدة « تورى دلمار» "Torre de Mar" ، وهى مصيفها القريب منها .

وبلش مدينة بيضاء مشرقة ساحرة ، وشوارعها طويلة تغص بالمتاجر والحركة ويمتد شارعها الرئيسى زهاء كيلومترين ، وهى تقع فى بسيط أخضر تحده الجبال من ناحية ، ومن ناحية أخرى تحده الربوة العالية ، التى تقع عليها أنقاض القلعة القديمة . وتقع كنيستها القديمة المسماة « سانتا ماريا » فى أسفل الربوة فى نهاية البلدة وهى أقدم كنائسها . وتقع كنيستها الثانية المسماة « سان خوان » فى طرفها الآخر ، ومن المرجح جداً أن تكون كلتا الكنيستين قائمة على موقع مسجد قديم .

وقد شهدنا فى الشارع الصاعد إلى كنيسة « سانتا ماريا » ، عقداً عربياً قديماً ، يفضى إلى شارع آخر ، ولكن ليست به نقوش أو زخارف تنبىء عن قيمته الأثرية . بيد أنه يبدو بطرازه وقدمه ، أنه من عقود المدينة الأندلسية القديمة . والواقع أن الشوارع الصخرية الصاعدة المؤدية من بعده إلى الربوة ، وهى شوارع ملتوية ضيقة ذات منازل متواضعة ؛ تبدو كأنما تقوم فوق أنقاض بعض الأحياء الأندلسية القديمة المتواضعة ، التى كانت تقوم عادة تحت أسوار القصبة القديمة .

وقد كانت القصبة أو القلعة الأندلسية القديمة ، تقوم بلا ريب فوق هذه

الربوة العالية التى تشرف على المدينة ، بيد أنه لم يبق منها اليوم إلا بقية جدار وأنقاض ليست لها أية أهمية أثرية ، إلا ما كان من دلالتها على موقع القصبة الذاهبة.

ولاتوجد فى بلّش أية آثار أندلسية أو متحف أو غيره مما يشاهد ويزار . بيد أن المتأمل لموقعها من فوق الربوة وفى حمى الجبال ، يدرك ما كانت عليه أيام المسلمين من أهمية دفاعية . ويدرك أنها كانت حقاً جناح مالقة الأيمن .

ومما هو جدير بالذكر ، أنه توجد فى الطريق بين مالقة وبلّش أبراج صغيرة عديدة قديمة ، بعضها يقوم على شاطىء البحر ، والبعض الآخر يقوم فوق التلال ، ولعلها كانت مراكز للمراقبة فى القرن السادس عشر ، أيام غارات المجاهدين المسلمين من الترك والمغاربة ، على الشواطىء الإسبانية الجنوبية ، انتقاماً للموريسكيين .

١١ — مَرْبَلّة

Marbella

مربلّة من ثغور شاطئ اسبانيا الجنوبي المسمى «بساحل الشمس» Costa del Sol نظراً لصحو منطقته ، وصفاء جوه ، وسطوع شمسه ، وهو يمتد من إشتبونة حتى متريل شرقاً ، ويتوسطه ثغر مالقة ، وهو عبارة عن سلسلة من الهضاب التى تتخللها بعض الرقاع الخضراء ، وفيها بعض الحقول الخصبة ، وبعض الحدائق المتفرقة ، ومن وراء الهضاب والربى تقوم إلى الشمال ، جبال عالية قاتمة ، ويمتد الشاطىء منخفضاً تظلله مياه البحر الزرقاء الداكنة .

وتقع مربلة على قيد ستين كيلومتراً غربى مالقة ، والطريق إليها من مالقة تحف به فى البداية رقاع خضراء منبسطة ، ثم ينحرف بعد ذلك نحو البحر ، وتظلله هضاب ومرتفعات وجبال عالية . ومربلة بلد صغير مشرق ، مستطيل الرقعة ، يقع مباشرة على البحر ، فوق سفح جبل عال ، وتتخلله الحدائق وغابات الزيتون ، ويعتبر بشواطئه الساحرة على مياه البحر المتوسط من المصايف الجميلة ، ويعتبر كذلك بدفئه وشمسه أيام الشتاء من المشاتى المرغوبة ، على نمط ثغور هذا الشاطئ كله ، وقد أعدت جميعاً لتكون مشاتى ومصايف ، بشواطئها وفنادقها ومتنزهاتها .

وكانت مربلة أيام الرومان تسمى Maro Polis ، ثم أطلق عليها المسلمون اسم « مربلة » ، ولبثت مربلة من ثغور مملكة غرناطة الإسلامية ، حتى أخذت قواعد هذه المملكة تسقط تباعاً فى أيدى القشتاليين ، وكان سقوطها فى أيدى الملكين الكاثوليكيين فى سنة ١٤٨٨ م ، عقب سقوط ثغر مالقة .

ولم يبق فى مربلة من معالمها الأندلسية سوى أطلال متناثرة من حصنها القديم ، الذى يوصف بأنه من أقدم الحصون الأندلسية ، وينسب بناؤه إلى القرن الرابع الهجرى ، وتقع هذه الأطلال داخل المدينة ، وبين المساكن ، وقد بنيت فى ساحته الكبرى مدرسة ، وبقيت من أطلاله واجهة ساريته الكبرى ، وتدخل كثير من أطلاله فى الأبنية الحديثة المجاورة ، وتمتد هذه الأطلال إلى مسافة كبيرة ، ومنها قطع كثيرة من الأسوار ، تقع داخل الأزقة المجاورة ، وهى كلها ضيقة ، يبدو عليها طابع القدم . وإلى مقربة من أطلال الحصن ، تقع الكنيسة العظمى ،

وهوما يرجح أنها بنيت على موقع الجامع القريب من الحصن أوجامع القصبة نفسه .

سُهيل

وإلى شرقى مربلة ، تقع بلدة سهيل ، على قيد ثلاثين كيلومتراً منها ، وهى التى تسمى اليوم بالإسبانية Fuengirola . وكان اسمها الرومانى Selitane ، فغيره المسلمون إلى « سهيل » ، إذ كان يزعم أهل هذه الناحية أن النجم المسمى سهيلا ، يرى من أعلى الجبل المجاور لها . ويسميها صاحب الروض المعطار «مرسى سهيل»[١] .

وسهيل أو « فونخرولا » ، بلد كبير يقع على البحر مباشرة ، فوق سفح الجبال المجاورة ، على قيد ثلاثين كيلو متراً غربى مالقة ، ويمتد من الشاطىء إلى مسافة كبيرة ، وإلى شرقها تقع بلدة صغيرة تسمى « بنى المدينة » Beni Almedina ، مما يحمل على الاعتقاد فى أصلها العربى .

وإلى غربها تقع أطلال حصن أندلسى كبير ، لم يبق منه اليوم ، سوى أسواره الخارجية ، وهى عبارة عن حظيرة مسدسة الأضلاع ، يبلغ طول كل ضلع منها نحو ثلاثين متراً ، وفى إحدى أضلاعها نوافذ تعلوها الساريات الصغيرة ، وهو يقوم على ربوة عالية ، تقع على نحو كيلومتر من البلدة ، وتشرف على البحر ، ويبلغ ارتفاع الأسوار نحو عشرة أمتار ، وما زال به برجان خربان ، يرتفع كل منهما نحو ستة عشر متراً ، وليست به عقود أو ملامح عربية واضحة .

والمعروف من تاريخ هذا الحصن ، أنه بنى فى عهد عبد الرحمن بن الحكم ، فى النصف الأول من القرن التاسع الميلادى ، واستمر قائماً حتى انتهت دولة الإسلام فى الأندلس ، ثم عدل بناؤه أيام الإمبراطور شارلكان ، فالطلل القائم اليوم ، إنما هو طلل هذا الحصن المعدل البناء .

ونجد آخر إشارة فى الرواية الإسلامية لهذا الحصن ، فى رحلة ابن بطوطة ، فهو يشير إليه ، فى حديثه عن رحلته إلى مالقة ، ويقول لنا إنه سافر من مربلة ، « وهى بليدة حسنة خصبة » ، وقصد إلى حصن الرابطة المعروف بحصن سهيل ، وقضى به الليل مع قائده ، ثم سار من الغد إلى مالقة[٢] .

وفى حصن سهيل ، كان مولد العلامة عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن الحسن السهيلى ، وذلك فى سنة ٥٠٩ هـ (١١١٥ م) .

---

(١) الروض المعطار ، صفة جريرة الاندلس ، ص ١٨٠

(١) رحلة ابن بطوطة (القاهرة) ج ٢ ص ١٨٦ .

١٢ – المُنَكَّب

Almuñecar

إن الطريق من مالقة إلى المنكب وشلوبانية ، هى أيضاً طريق ألمرية ، وهى طريق ضيقة ملتوية ، صاعدة ومنخفضة ، تجرى على مقربة من البحر ، فى كنف هضاب ومرتفعات صخرية ، تظللها من آن لآخر أشجار ونخيل وغابات زيتون . ويبلغ من التواء الطريق أحياناً أن تتعاقب متدرجة فى طبقتين أو ثلاث ، وتعلو بذلك عن سطح البحر أربعين أو خمسين متراً . وتبعد المنكب تسعين كيلومتراً عن شرقى مالقة ، وأول البلاد الكبيرة فى هـذا الاتجاه هى بلدة « نرخا » Nerja ومن بعدها تخترق الطريق الجبال باستمرار حتى المنكب .

وتقع المنكب على خليجين مقوسين متجاورين فى البحر ، وهى ثغر جميل مشرق ، وتحجبها الجبال من الناحيتين الشرقية والشمالية ، ولها شاطىء طويل على البحر ، تكثر فيه الخلجان الصغيرة ، ويبدو حصنها المنيع فى وسطها قائماً فوق ربوة عالية .

هبطت إلى المنكب فى عصر يوم الميلاد[1] ، وما كدت ألقى نظرة فاحصة على مواقع هذا الثغر الصغير ، الذى يحتضن خلجانه ، وتحجبه الجبال من ظهره ، حتى ذكرت قصة عبد الرحمن بن معاوية ، أو عبد الرحمن الداخل ، وأدركت لماذا اختار هذا الأمير المغامر ، أن ينزل فى ثغر المنكب ، ليجوز منه إلى داخل شبه الجزيرة ، وأنه إنما اختاره لحصانته الطبيعية من البر والبحر .

قال صاحب الروض المعطار : « وبهذا المرسى (أى المنكب) خرج الإمام عبد الرحمن بن معاوية عند دخوله الأندلس ، وذلك فى ربيع الأول من سنة ١٣٨ ، ويتلو مرسى المنكب ، مدينة حسنة متوسطة ، كثيرة مصايد السمك ، وبها فواكه جمة »[2] .

وهذا الوصف مازال ينطبق على « المنكب » ، فهى مدينة جميلة متوسطة ، تضم من السكان ثلاثة عشر ألف نفس ، وتقع أحياؤها الأمامية الحديثة على بسيط

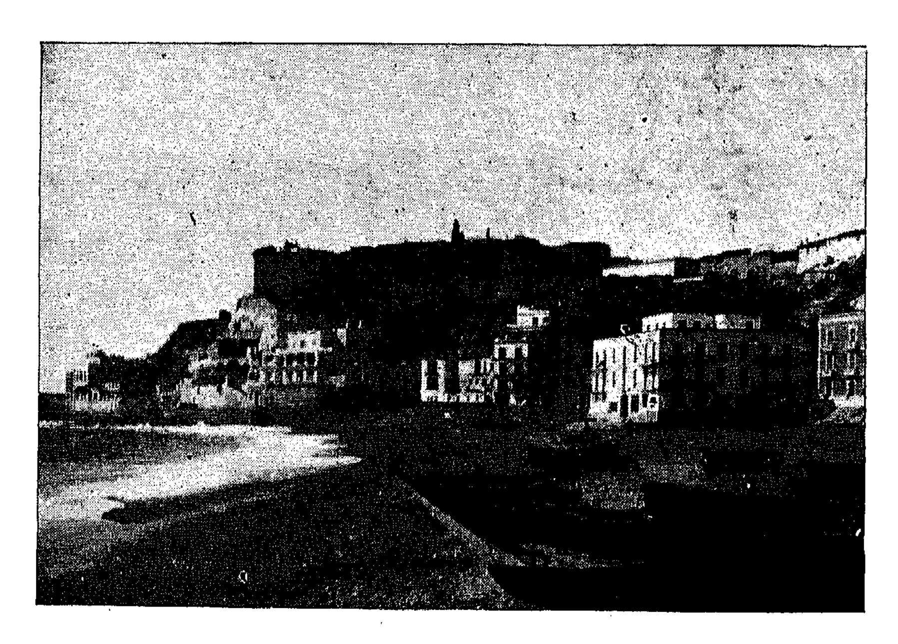
---

(١) فى يوم ٢٥ ديسمبر من سنة ١٩٥٩

(٢) الروض المعطار ، صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٨٦



المنكب . منظرعام للمنكب وثغرها



المنكب . أطلال الحصن المشرف على البحر

صغير يمتد على الشاطىء ، وتقع معظم أحيائها القديمة على سطح الربوة ، التى يقع الحصن فى طرفها الجنوبى ، والكنيسة العظمى فى طرفها الشمالى ، والجبال من وراء ذلك تشرف عليها ، وقد رأينا حين طوافنا بالمدينة نخلا مثمراً ، فى هذا الوقت من الشتاء .

حصن المنكب : وأهم معالم المنكب الأثرية ، هى أطلال حصنها الأندلسى ، وهو الذى يشير إليه صاحب الروض المعطار بقوله : « وعليه (أى مرسى المنكب) حصن كبير لا يرام » . والواقع أن هذه الأطلال المتناثرة ، تدل بوعورتها على مناعته القديمة ، وهو يبدو كثير الضلوع والمنحنيات ، وله لسان يمتد من أسفل حتى شاطىء البحر ، وقد حول هذا الحصن الدارس إلى مقبرة تدفن فيها أموات المدينة ، وحولت أسواره من الداخل إلى طاقات (نيشات) صغيرة للمواطنين ، توضع فيها الأشياء المقدسة واللوحات التذكارية . وفى داخله كنيسة صغيرة ، ويدخل إليه من ممر تشرف عليه بقية عقد عربى ، وللحصن طابق سفلى آخر تحيط به الأسوار المشرفة على البحر مباشرة ، وقد أقيمت المبانى بجوار الأطلال المتناثرة من كل ناحية ، وهى تدلى فى مجموعها ، وبمسافاتها المتباعدة ، بأن الحصن كان يشغل مساحة كبيرة .

ويرى الناظر من أعلى الحصن ، على بعد ، أثرين آخرين ، هما برجان يرجعان إلى أصل عربى ، وهما البرج المسمى Torre del Monje (برج الراهب) ، وهو يقوم على لسان داخل فى البحر ، وبرج آخر يقع فى ناحية الشرق ، ويشرف على الشاطىء أيضاً .

والواقع أنه توجد على طول الشاطىء الممتد من مالقة إلى المنكب أبراج كثيرة مستديرة ، تقع على مسافات متباعدة ، ومنها ما يرجع إلى أصل أندلسى ، والظاهر أن معظمها أقيم فيما بعد ، فى أوائل القرن السادس عشر ، حينما بدأت غارات المجاهدين المسلمين البحرية على الشواطىء الإسبانية .

وتقوم وراء الحصن من الجهة الشمالية ، ربوة عليها دروب ومسالك ضيقة متصاعدة ، يبدو أنها تقوم على خطط المدينة الأندلسية القديمة . أما أحياء المدينة الحديثة ، فتقوم حسبما تقـــدم على شاطىء البحر ، ومنها منازل وفنادق جميلة أعدت للمصيف .

الكنيسة العظمى : وتقع الكنيسة العظمى ، فى شمالى المدينة ، قبالة الحصن ، على مسافة نحو أربعمائة متر ، وهى كبيرة وقديمة ، بنيت على الطراز القوطى ، ومن المرجح أنها أقيمت على موقع المسجد الجامع القديم .

وفى المنكب عقود قنطرة رومانية قديمة ، تقع خلف المدينة فى الشمال .

وقد سقطت المنكب فى أيدى القشتاليين فى شهر المحرم سنة ٨٩٥ هـ ، الموافق شهر ديسمبر سنة ١٤٨٩ م .

١٣ – شلوبانيـــة

Salobreña

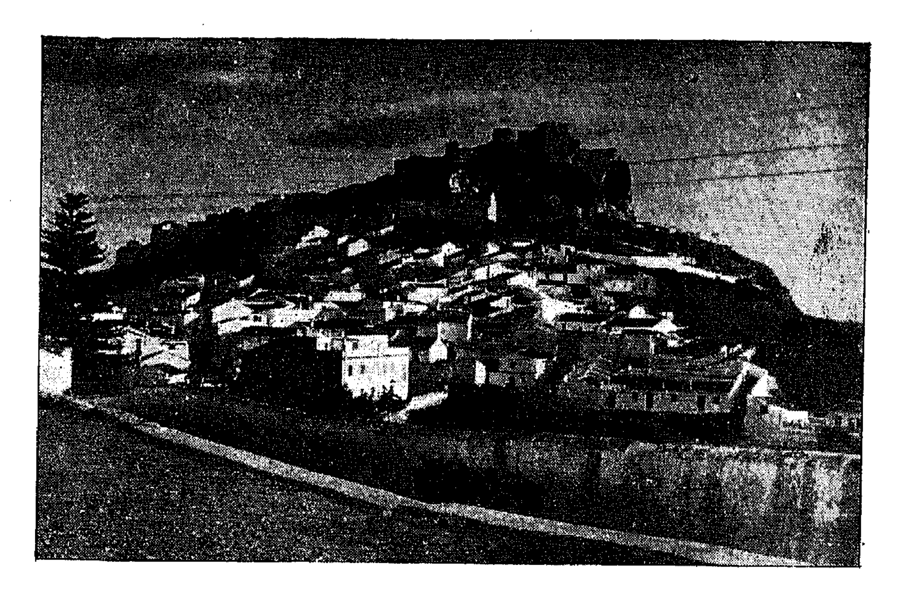
تقع شلوبانية أو شلوبينية على مسافة أربعة عشر كيلومتراً شرقى المنكب ، وهى بلدة صغيرة جميلة ، تقع على ربوة مستطيلة متصاعدة ، تمتد على شاطىء البحر ، وتحيط بها الجبال من الشمال والغرب ، ويخترقها من أولها إلى آخرها طريق طويل ؛ وأمامها ربوة أخرى بارزة فى البحر عليها بعض الأحياء الحديثة . ومنازلها جميعاً بيضاء ، وسقوفها من القرميد الأحمر .

وحصن شلوبانية هو أهم آثارها الأندلسية الباقية ، وهو يقع فى وسط المدينة على منحدر صخرى وعر ، مشرف على البحر ، ومدخله عقد مزدوج تلوه قبة معقودة ، وأسواره سميكة عرضها نحو ثلاثة أمتار ، وهى ما تزال تحمل سواريها العربية القديمة وقد أصلحت ، وفى داخله فى مواجهة البحر ، عقد ومدخل جانبى آخر يفضى إلى وسط الحصن ، وقد بقى من أبراجه برج كبير ارتفاعه نحو ثمانية أمتار فى مثلها ، وقد أصلح وجدد ، وتوجد فى وسطه أساسات بناء قديم آخر ، ربما كانت لمنزل الحاكم . وهو يشرف على المدينة من ناحية الشرق من ارتفاع شاهق ، ويبدو من مجموعة أطلاله ، أنها أطلال القصبة القديمة ، وأن القصبة كانت تشغل مساحة شاسعة ، وتتصل بأسوار المدينة العامة .

الكنيسة العظمى : وتقع الكنيسة العظمى ، على مقربة من الحصن ، فوق الربوة المشرفة على البحر ، وهى صغيرة الحجم ، وبرجها مربع عال يبلغ ارتفاعه نحو خمسة وعشرين متراً ، وهو ذو طراز عربى تقريباً ، على مثل طراز المنارة الموحدية (لاخيرالدا) ، وهى تحتل بلا ريب موقع الجامع القديم .

وقد سقطت شلوبانية فى يد الملكين الكاثوليكيين ، فى نفس الوقت الذى سقطت فيه المنكب ، أعنى فى سنة ١٤٨٩ م .

وإلى شلوبانية ينتسب إمام النحو الأندلسى أبوعلى الشلوبين المتوفى بإشبيلية سنة ٦٤٥ ﻫ (١٢٤٧ م) .



شلوبانية . منظر عام للبلدة وقد ظهر فى أعلاها الحصن



شلوبانية . الكنيسة العظمى

١٤ — متريل

Motril

وإلى شرقى شلوبانية ، تقع مدينة متريل على بعد ستة كيلو مترات منها ، وهى مدينة كبيرة تظللها الجبال شرقاً وشمالا ، وتبعد قليلا عن شاطىء البحر الأبيض المتوسط .

وكانت متريل من قواعد مملكة غرناطة الإسلامية ، سقطت فى أيدى الملكين الكاثوليكيين فى سنة ١٤٨٩ م ؛ وكانت لها أسوار ذات بابين ، وبها ثلاثة مساجد ، فلما تغلب عليها النصارى ، هجرها سكانها المسلمون إلى المغرب فى سنة ١٥٠٧ م ، وغلب فى سكناها الموريسكيون (أو العرب المتنصرون) . وكانت خلال القرن السادس عشر عرضة لغارات المجاهدين البحرية ، التى قادها أمير البحر التركى خيرالدين عصرا ، ومن بعده زعماء المجاهدين من المغاربة والموريسكيين .

ولاتوجد فى متريل آثارأندلسية ظاهرة ، ولكن كنيستها المسماة، **La Virgen de la Cabeza** (عذراء الرأس) ترتبط ارتباطاً وثيقاً بذكرى أندلسية مؤثرة . ذلك أنها تقوم فوق ربوة تقع فى وسط المدينة ومن حولها المزارع والتلال فى السهل ، وتشرف على البحر ، وكان يحتل هذه الربوة من قبل حصن أو قصر إسلامى ، كانت تعيش فيه الملكة عائشة الحرة ، والدة السلطان أبى عبد الله آخر ملوك غرناطة ؛ فلما سقطت متريل فى أيدى القشتاليين فى سنة ١٤٨٩ م ، أمر الملكان الكاثوليكيان بهدم هذا الحصن ، وأقيمت فوق موقعه الكنيسة المذكورة . واستمرت هذه الكنيسة قائمة مدى عصور ، حتى خربت أيام الحرب الأهلية الإسبانية الأخيرة ، ثم أعيد بناؤها فى نفس المكان ، وربما على نفس طرازها القديم ، بيد أنه لايوجد فى البناء الجديد شىء من آثار البناء القديم .

١٥ — ألمـــرية
Almería

تعتبر ألمريّة من أجمل الثغور والمدن الإسبانية ، وهي عاصمة الولاية الأندلسية المسماة بهذا الاسم . وهي مدينة كبيرة مستطيلة الشكل ، تمتد قاعدتها الكبيرة من الجنوب على البحر الأبيض المتوسط ، ويقال ان اسمها مشتق من كلمتين عربيتين هما « مرآة البحر » .

وألمرية مدينة أنيقة مشرفة ، يشقها من الوسط شارع عظيم ، تحف به الأشجار الباسقة من الجانبين ، ويسمى اليوم «متنزه الجنرال الأعظم» "Paseo del Generalisimo" وكان من قبل يسمى « شارع الأمير» "Avenida del Principe" ، وتقع فيه معظم المتاجر والمقاهي والفنادق الكبيرة ، وتتفرع منه على الجانبين شوارع كثيرة. وأحياء المدينة كبيرة مشعبة ، وهي على العموم أكثر اتساعاً ورونقاً ونظافة من غيرها من المدن الإسبانية المماثلة . وشوارع المدينة كلها مرصوفة بادية النظافة ، وقد غرست على جوانبها الأشجار الظليلة ، وكثير من منازلها في الأحياء الداخلية ذو طابق واحد .

ويصل داخل المدينة بالميناء طريق طويل ، يشقه متنزه ضيق غرست على جانبيه أشجار النخيل ، وصفت المقاعد ، وهو من أجمل الطرق التي شهدناها في المدن الإسبانية .

ويبلغ سكان ألمرية اليوم زهاء ستين ألف نسمة ، وأهم صادراتها الحديد والرصاص والفواكه .

وتصل إلى ألمرية من غرناطة بالقطار عن طريق وادي آش ، خلال وهاد وتلال وعرة جرداء . وقبل ألمرية بقليل تقوم بلدة «غدر» "Gádor" ، وهي تقع في وادعميق أخضر ، به زروع نضرة وحدائق برتقال غناء ، وتليها بلدة "Benahadux" وأصل اسمها عربي هو بنو عبدوس ، وهي تقع في بسيط أخضر وبها نخيل كثير وحدائق ، ثم بلدة بجانة "Pechina" ذات الأصل الأندلسي العربي . وقبيل ألمرية تكثر البسائط الخضراء والنخيل ، تحدها الجبال من ناحية ، والبحر من الناحية الأخرى .

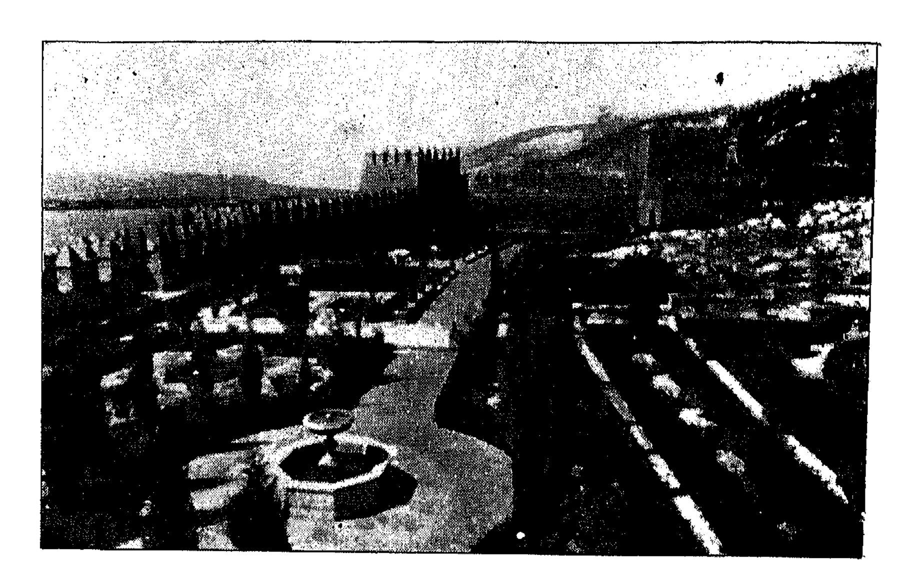
وكانت ألمرية فى العهد الإسلامى من أهم ثغور الأندلس الجنوبية ، وقد أنشأ عبد الرحمن الناصر ميناءها وأرصفتها فى سنة ٩٥٥ م . وكانت أيام الطوائف قاعدة مملكة صغيرة زاهرة أولا فى ظل الفتيين العامريين خيران ثم زهير(١١٠٤— ١٠٣٨ م) ، ثم بعد ذلك فى ظل بنى صُمادح (١٠٤١ - ١٠٩١ م) . ثم كانت أيام مملكة غرناطة ، فضلا عن أهميتها البحرية والتجارية ، موطن كثير من أكابر العلماء والأدباء ، وفى مقدمتهم ابنها الشاعر الكبير أبو جعفر ابن خاتمة الأنصارى .

وقد سقطت ألمرية فى يد الإسبان فى فبراير سنة ١٤٩٠ م (٨٩٥ هـ) ، بعد أن سقطت معظم قواعد الأندلس الأخيرة .

القصـــــبة

وما تزال ألمرية تحتفظ بقسط كبير من سمتها الأندلسية ، وهى تكاد تشبه فى ذلك غرناطة وإشبيلية . والواقع أنها تحتفظ إلى اليوم بأثر من أعظم الآثار الأندلسية الباقية ، وهو بقايا القصر والقلعة القديمة ، المسماة بالقصبة "Alcazaba"

وقصبة ألمرية عبارة عن طلل عظيم فسيح الأرجاء ، يقع فى شمال المدينة على ربوة صخرية منيعة عالية فى طرف جبل غُدر ، على مقربة من مصب نهر أنْدَرَش وتشرف على الميناء . وقد اشتهرت هذه القصبة أيام الطوائف ، بضخامتها ومنعتها ، وقد قام بإصلاحها وتوسعتها خيران الفتى العامرى ، وهو أول من حكم ألمرية عقب انهيار الخلافة ، وغدت عندئذ من أعظم القصبات الأندلسية وكانت تسمى لذلك قلعة خيران . ويمكننا أن نقدر ضخامتها متى علمنا أن طولها من الشرق إلى الغرب يبلغ ٥٣٠ متراً ، وقد بقيت منها أجزاء كبيرة من الأسوار والبرج الرئيسى ، وعدد آخر من الأبراج الصغيرة ، وتحتوى على عدة أفنية متدرجة فى الارتفاع . وقد جدد هذا القسم أيام الملكين الكاثوليكيين ، عقب سقوط المدينة فى أيدى النصارى . وتقع وراء البرج الرئيسى ساحة كبيرة ، بها بقايا أسس لبناء أو قصر كبير تضم غرفاً وأبهاء عديدة ، ويبدو أنه كان مسكن الأمير أو الحاكم فى وقت من الأوقات . ويرى بعض الأثريين الإسبان أن هذه هى أطلال قصر عبد العزيز المنصور أمير بلنسية الذى حكم ألمرية وقتاً قصيراً ، على أثر مصرع صاحبها زهير العامرى فى سنة ١٠٣٨ م ، ولهذا يسمى الشارع الذى تشرف عليه القصبة « بشارع المنصور » "Calle de Almanzur"



ألمرية . منظر عام لحدائق القصبة وأسوارها الخارجية



ألمرية . منظر الميناء ، وقد أشرفت عليها أطلال القصبة

وقد غرست فى فناء القصبة الكبير ، وهو الفناء الأول السفلى ، الأشجار والخضرة اليانعة ، ونسقت منه حديقة جميلة متصاعدة ، تضم شجيرات مما ينبت فى التربة الوعرة ، وشقت خلالها السلالم المتدرجة ، يصعد منها إلى الطبقة العليا ، وقد كان هذا القسم أيضاً هو موقع الحديقة القديمة .

ونصب فوق أعلى السور المتوسط فى نهاية الفناء الكبير صليب ، وتحته جرس على شكل برج صغير .

وإلى جانب هذه المجموعة الكبيرة من أطلال القصبة ، توجد مجموعة أخرى أصغر منها ، وتقع فى شمالها على ربوة عالية منفصلة عنها ، وبها خمسة أبراج صغيرة ، وقد نصب على قاعدة أمامية فيها تمثال للقديس كرستوبال .

وأسوار القصبة فى حالة جيدة من الحفظ ، وتبدو مشارفها جميعاً متصلة منسقة ، وقد أجريت فى الأطلال كلها أعمال تجديد أسبغت عليها رونقاً ورواء .

ويقع وراء هذه المجموعة الكبيرة من الأطلال من الناحية الشمالية ، بقية من أبراج وأسوار سفلية ، تصل بينها وبين القسم الآخر المواجه لها ، مما يدل على أن القسمين كانا متصلين فى الماضى ، وأنهما كانا يؤلفان معاً جبهة دفاعية منيعة .

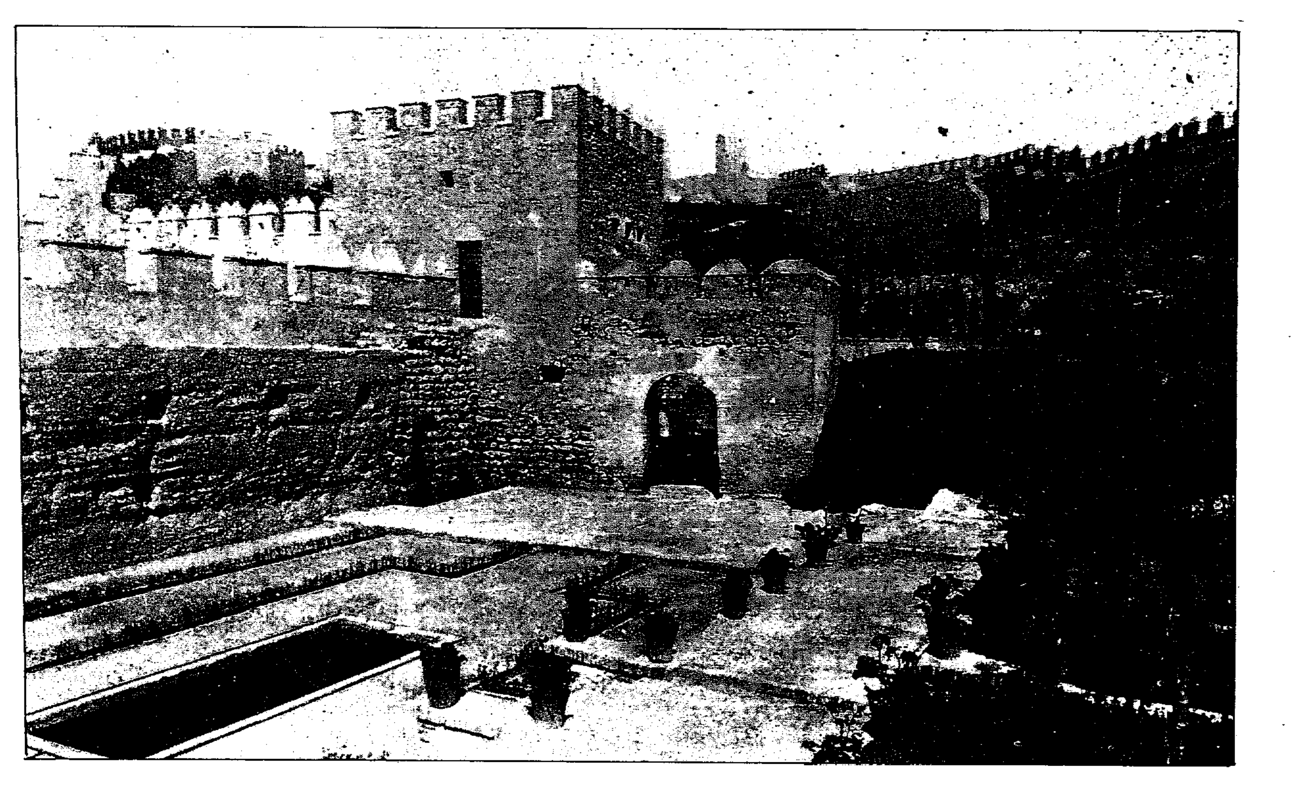
ولم نجد بالأسوار أو الأبراج أية زخارف أو نقوش عربية ، والظاهر أنها محيت بمضى الزمن ، ومن جراء أعمال التجديد والإصلاح ، التى قامت بها السلطات الإسبانية .

وقد ألقينا من أعلى القصبة على ألمرية الجميلة نظرة طويلة ، فإذا بها تبدو بشوارعها المنسقة ومنازلها الجميلة الوضاءة فى شكل بيضاوى ، ومن وراء ضلعها الكبير بسيط أخضر ، يليه البحر بمياهه الزرقاء الهادئة . ويقع الميناء فى مواجهة القصبة ، ومن وراء الخليج المستطيل الذى تمتد على شاطئه المدينة من ناحية الشرق ، تبدو سلسلة من التلال القائمة .

والحق أنه كان منظراً بالغ الروعة .

* * *

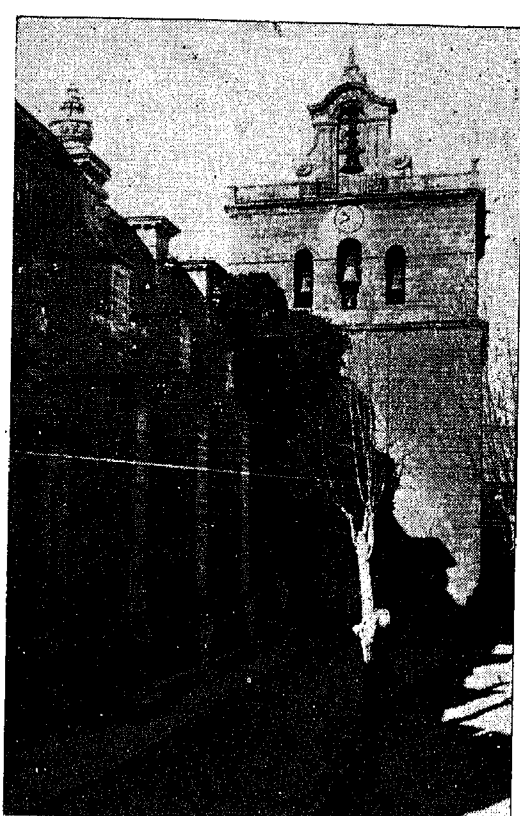
ولم يفتنا أن نزور كتدرائية ألمرية ، وهى تقع فى وسط المدينة ، بين شبكة من الدروب الضيقة ، وهى مثل معظم الكنائس المماثلة قد بنيت على النمط القوطى ، وليست بها خواص تاريخية أو أثرية مميزة . والمرجح أنها بنيت فوق موقع مسجد



ألمرية . منظر عام لواجهة القصبة الأندلسية (قصبة خيران العامرى) وقد ظهرت بها الأبراج والمشارف الباقية

المرية الجامع ، جرياً على القاعدة التقليدية التى اتبعتها اسبانيا النصرانية فى سائر مدن الأندلس .

بيد أنه يقال من جهة أخرى إن كنيسة سان خوان ، وهى إحدى كنائس ألمرية القديمة ، هى التى بنيت فوق أنقاض المسجد الجامع . ويقول الأستاذ جومث مورينو تأييداً لهذا الفرض إنه توجد فى هذه الكنيسة آثار بناء سابق ، يرجع إلى أوائل القرن الحادى عشر ، وهو الوقت الذى جدد فيه خيران العامرى المسجد[١] .



ألمرية . الكتدرائية أو الكنيسة العظمى

وهنالك فى نهاية المدينة على طريق مالقة ، يقوم طلل قديم دارس ، فوق ربوة عالية تطل على البحر ، ويطلق عليه اسم حصن سان تلمو "Castillo de San Telmo ويقولون إنه من آثار المسلمين. وقد صعدنا إلى أعلى الربوة رغم ارتفاعها الشاهق ووعورة مسالكها ، لنفحص هذا الطلل ، فإذا به عبارة عن أسوار قديمة مربعة بينها فراغ ، ولا يدل منظرها أو بناؤها على أية أهمية أو خاصة أثرية .

---

(١) Gomez-Moreno : ibid ; p. 266.

١٦ – رنـــدة

Ronda

تقع مدينة رندة غربى مالقة ، تفصل بينهما منطقة تمتاز بوعورتها ، وكثرة جبالها وآكامها ، وقلة بسائطها ، ووديانها القفرة السحيقة ، وهى تكاد تخلو من الرقاع الخضراء ، إلا بعض غابات الزيتون المتناثرة هنا وهنالك . وتبدو البسائط قبل رندة بقليل ، ولكنها بسائط صفراء ، تتخللها فى نفس الوقت منحدرات مدرجة ، وكلها مغطاة بأشجار الزيتون ، وليست بها أية زروع أخرى .

وقد كانت رندة من أهم القواعد الأندلسية التالدة ، ثم كانت بعد ذلك من أهم مدن مملكة غرناطة الإسلامية ، وكانت معقلا حصيناً يحمى مالقة من الغرب. فلما سقطت رندة فى يد القشتاليين ، فى جمادى الأولى سنة ٨٩٠ هـ (ابريل سنة ١٤٨٥ م) بعد حصار قصير ، أصبح الطريق ممهداً لاستيلاء النصارى على مالقة ،وقد سقطت فعلا فى أيديهم بعد أمد قصير فى شعبان سنة ٨٩٢ هـ (أغسطس سنة ١٤٨٧ م) .

وتتمتع رندة بموقع طبيعى رائع ، فهى تقع فوق منطقة من الربى المرتفعة ، تحيط بها الوديان السحيقة والآكام العالية ، تتخللها قليل من البسائط ، التى تنمو بها زروع ضئيلة ، ويشقها من وسطها نهر وادى لبين "Guadalebin" ، فى مجرى عميق ينساب إلى بطن الوادى السحيق ، وعليه قناطر ثلاث : الرومانية والعربية والحديثة . وقد وصف الرحالة ابن بطوطة مدينة رندة حينما زار الأندلس سنة ١٣٥٠ م بقوله : « وهى من أمنع معاقل المسلمين وأجملها وصفاً »[1] .

وتتخذ رندة طابعاً خاصاً ، فهى مدينة يغلب عليها القدم والبساطة ، وتحتفظ بكثير من طابعها وخططها الأندلسية القديمة ، فمعظم دروبها ضيق متعرج ، ومعظم منازلها منخفض ذو طابق أو طابقين ، ويحتوى على الأفنية الداخلية ذات الأشجار ، والمزينة « بالموزايك » الأندلسى عند المدخل ، ولايبدو فيها سوى القليل من المنازل الحديثة العالية .

---

(١) رحلة ابن بطوطة (القاهرة) ج ٢ ص ١٨٥ .

ورندة مدينة متوسطة الحجم ، مشرقة الطالع بالرغم من قدم طابعها ، يشقها من الشمال إلى الجنوب شارع طويل جداً ، يسمى فى نصفه الأول بشارع "Paz de la Virgen"، ثم يسمى بعد ذلك بشارع "Armiñan". وهذا الشارع هو قلب المدينة وفيه المتاجر والمقاهى ، ويقع فى منتصفه مسرح الثيران ، وهو أقدم مسرح من نوعه أنشىء فى اسبانيا ، وكان إنشاؤه سنة ١٧٨٤ ، ويمتاز بمدخله المعقود ذى الزخارف الشبيهة بالمدجنية ، ويقع بعده بقليل متنزه المدينة وهو يشرف من علٍ على الوادى السحيق ، الذى يحد المدينـــة من الغرب وله مشرفيات بارزة مشبكة بالقضبان الحديدية ، تسمى الوسطى منها « منظرة الملكين الكاثوليكيين » .

ويتفرع من هذا الشارع الرئيسى شوارع جانبية عديدة ، لاسيما فى الناحية اليسرى حيث تمتد الشوارع صاعدة طويلة . أما الناحية اليمنى ، فتمتد نحو الوادى العميق بضعة شوارع قصـــيرة ، وأهم الشوارع الجانبية اليسرى هو شارع "La Vela" التجارى ، وهو شارع ضيق يغص بالمتاجر ويمتد نحو كيلومتر .

ويبلغ سكان رندة أكثر من ثلاثين ألفاً .

المعالم والآثار الأندلســـية

وما زالت رندة فضلا عن طابعها الأندلسى ، تحتفظ بطائفة هامة من الآثار الأندلسية .

وفى مقدمة هذه الآثار أطلال قصبة رندة الشهيرة ، وهى تقع فوق ربوة عالية تطل على الوادى السحيق ، الذى يقع جنوب غربى المدينة وتظلله الآكام العالية . ولم يبق اليوم من هذه الأطلال ، سوى جزء من السور ، وثلاث بوائك ضخمة ، وبقايا أبراج دارسة . وفى أسفل هذه المجموعة من الأطلال ، يقع عقد باب من أبواب القصبة . وقد كان موقع قصبة رندة فيما يبدو وعراً جداً ، والظاهر أنها كانت تمتد إلى مسافة كبيرة على حافة الهاوية . وقد ذكر لى الأستاذ الأب رمباؤ و مدير معهد السلسيان الدينى ، القريب من هذه الأطلال ، أن أسوار المدينة القديمة كانت تمتد من القصبة ، وأن هذا المعهد قد بنى فوق أنقاض فناء القصبة ، وما زال يسمى حتى اليوم «الحصن» "El Castillo" تنويهاً بموقعه القديم .

وتقع الكنيسة العظمى المسماة "Sta Maria la Mayor" فى طرف المدينة

الجنوبى ، على مقربة من الحصن ، وهى أقدم كنائسها ، وقد بنى نصفها القديم وهو الذى به الهيكل ، فى أواخر القرن الخامس عشر ، فوق موقع جامع رندة القديم ، وأدمج فى بناء هذا القسم من أطلال الجامع أربع قباب عربية صغيرة ، ركبت فى سقف الكنيسة ، وهى ظاهرة وحيدة الطراز . أما القسم الآخر من الكنيسة فهو حديث .

والظاهر أن المدينة الأندلسية القديمة ، كانت تقوم حول الكنيسة العظمى . مبتدئة من جانب القصبة حتى منزل المركيز دى سالبتيرا الذى يجىء ذكره ، وحتى القنطرة العربية المجاورة له ، وأن أسوار رندة القديمة كانت تحيط بهذا القسم من المدينة . أما القسم الحديث من المدينة فهو الممتد من عند مدخلها حتى القنطرة الحديثة .



رندة . القنطرة العربية على نهر وادى لبين .

القنطرة العربية : وهى على صغرها من أهم الآثار الأندلسية الباقية ، وهى صخرية منيعة ، تقوم على النهر فى منخفض عميق ، عند مدخل المدينة الغربى ، وفى أضيق جزء من مجراه ، وهى ذات عقد واحد رائع بالغ الارتفاع ، والنهر يمر من تحتها بين صخور وعرة شاهقة .

وتقع على مقربة منها القنطرة الأخرى المسماة « بالقنطرة الجديدة » ، فى وسط

المدينة ، فى امتداد الشارع الرئيسى ، وهى ذات عقدين كبيرين ، وقد أنشئت فى أواخر القرن الثامن عشر .

الحمامات العربية : وهى أطلال دارسة من حمامات أندلسية قديمة ، تقع فى طرف رندة الجنوبى ، على مقربة من الكنيسة العظمى ، فى بسيط منخفض . وهى عبارة عن أربعة عقود متقابلة فى صفين ، يظللها سقف مقبى ذو ثلاث بوائك ، وتتخلله كوات النور المعروفة ، وإلى جانبها مكان البركة ، التى كانت تمد الحمامات بالماء ، وتحتها الأسراب التى تستعمل للتصفية ، وقد أضحى هذا الأثر فى حالة خراب ، يخشى أن تؤدى إلى انهياره فى المستقبل القريب ، لأنه يقع فى ملك خاص ولايعنى بصيانته أحد .

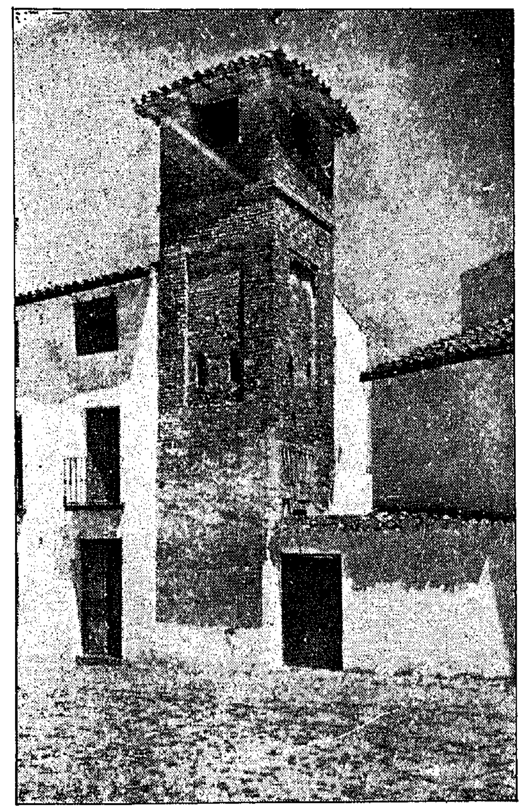
وقد رأينا إلى جانب هذا الطالل عدة أحجار وأنقاض أثرية ، بينها لوحة خشبية طويلة كتب عليها ما يأتى : « لا إله إلا الله . يا أيها المجلس . الحمد لله فإنك الطالع » .

المنارة : تقع هذه المنارة اليتيمة ، فى نهاية المدينة قبيل الكنيسة العظمى بقليل فى ميدان صغير ، وهى مربعة الشكل ، تقوم فوق الأرض مباشرة بين منزلين صغيرين ، ويبلغ ارتفاعها نحو اثنى عشر متراً فقط ، ويوجد فى وسطها فى كل جانب من جوانبها الأربعة كوتان ، وقد سدت الكوات فى جانبين ، وبقيت فى الجانبين الآخرين تدل على أصلها الإسلامى ، وعلى صفتها كمئذنة لمسجد صغير ، وقد حول المسجد فيما بعد إلى كنيسة ، واتخذت المئذنة برجاً للأجراس ، ثم هدمت الكنيسة ، وبقى البرج أو المئذنة القديمة . والظاهر أنها ترجع إلى عصر الموحدين ، إذ هى تشبه طراز مآذن عصرهم . ومما يجدر ذكره أن جزءها الأعلى هو الذى غير وحول إلى برج للاجراس ، وبقى جزؤها الأسفل على بنائه الإسلامى.

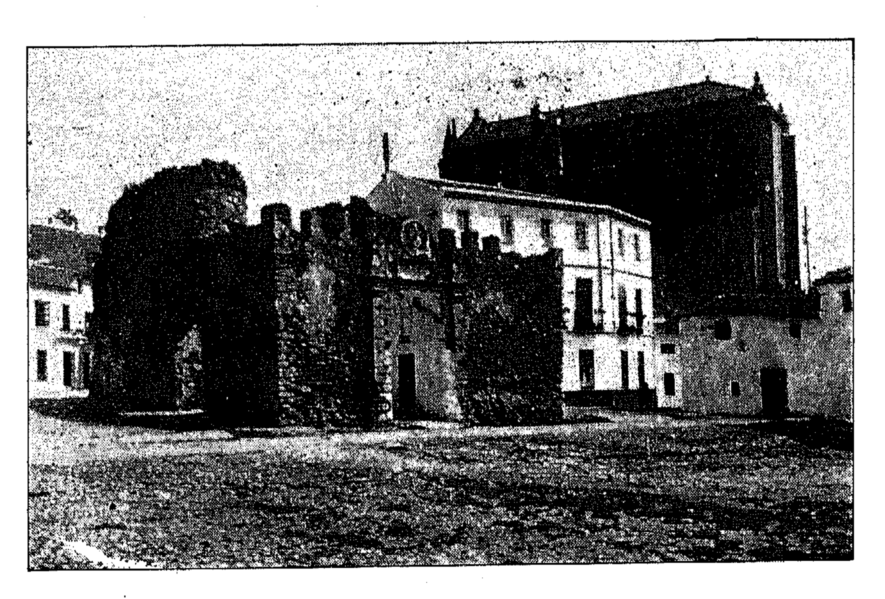
قصر الأمير أبى مالك : هو أثر أندلسى مغربى رائع ، ما زالت خواصه ونقوشه الإسلامية ، باقية فى أروع مظاهرها . وهو يعرف فى رندة أيضاً باسم « منزل خيجانتى » "Casa del Gigante" ، وهو اسم الأسرة التى تملكه . ويقع هذا المنزل فى طرف المدينة الجنوبى ، على مقربة من الكنيسة العظمى ، فى بعض الدروب الضيقة ، وله فناء أندلسى رائع يزدان أحد جوانبه بستة عقود عربية ، وقد زينت رؤوس أعمدتها بالزخارف العربية الجميلة ، وفى بعض حناياه عقود



رندة . بقايا الحمامات العربية



رندة . المنارة العربية



رندة . باب المقابر من أبواب رندة الإسلامية

رخامية ، وعقود نوافذ صغيرة بها زخارف وكتابات عربية ، وتوجد بجوار الفناء قاعة نوم أندلسية ، ذات سقف خشبي مطعم بالمقرنصات الجميلة ، وفيها عقدان كبيران متقابلان قد غصا بالزخارف والكتابات العربية ، كذلك يوجد فى أعلى جانبي القاعة كثير من النقوش الرخامية المتقطعة . ومعظم هذه الكتابات آيات قرآنية وأدعية وتحيات .

ويوجد فى وسط الفناء حوض ماء قديم مربع الشكل . وبالمنزل بئر يمده بالماء

وينسب هذا المنزل للأمير أبى مالك ولد السلطان أبى الحسن المرينى . ونحن نعرف أن ابن الأحمر ملك غرناطة ، نزل عن مدينة رندة وحصونها إلى بنى مرين ملوك المغرب ، فى أوائل القرن الرابع عشر الميلادى ، ثمناً لعونهم إياه ضد القشتاليين ، وبقيت فى أيديهم حيناً ، وقد أقام الأمير أبو مالك برندة فترة من الوقت ، والظاهر أنه أنشأ قصره المشار إليه فى هذا الحين ، واتخذه مقراً لإقامته .

ويرى بعض الأثريين من جهة أخرى ، أن هذا المنزل كان ملكاً لأحد أكابر المغاربة ثم استولى عليه بعد الفتح النصرانى ، بعض الحكام النصارى ، وتعاقب فى الملكية من بعده أعيان القشتاليين[١] .

منزل الملك العربى : هذا المنزل حديث النشأة فخم بنى على طراز شبه عربى ، وهو يسمى منزل مندراجون "Mondragón" ، ولا ندرى لماذا سمى أيضاً بمنزل الملك العربى "Casa del Rey Moro" ، لأنه بحداثة عهده لا يمكن أن يمت بصلة إلى العصر الإسلامى . بيد أنه يوجد خلفه سلم حجرى سحيق يتكون من ٣٦٥ درجة ، وينزل إلى النهر الواقع وراء المنزل ، وهذا السلم قديم العهد ، يرجع فيما يبدو إلى عصر بنى مرين فى رندة ، لأن الملك العربى الذى ينسب المكان إليه ، ربما كان أيضاً الأمير أبو مالك المرينى ، وقد أحيط اكتشاف هذا السلم بقصص وأساطير مغرقة . وربما كان تفسير نسبة هذا المنزل للأمير المسلم ، أنه بنى على أنقاض قصر إسلامى سابق .

منزل المركيز سالبتيرا : ويقع بعد منزل الملك العربى بقليل على مقربة

(١) مجلة الأندلس Al-Andalus (1944) p. 472 .

من النهر ، وهو قصر فخم ذو فناء أندلسى ، تزينه من جوانبه الأربع عقود أندلسية بديعة .

باب المقابر Puerta de Almocobar : ويقع فى حى سان فرنسسكو ، فى طرف المدينة الجنوبى الشرقى ، على مقربة من الكنيسة العظمى ، وهو ذو أربع عقود عربية ، ويوصف بأنه أحد الأبواب الثلاثة الرئيسية ، التى كانت مداخل رندة فى العهد الإسلامى .

وقد رأينا قبيل رندة وعلى مقربة منها فى الطريق إلى شَرِيش ، طللا كبيراً يتكون من عقود عديدة . والظاهر أنه كان قنطرة رومانية قديمة .

١٧ - مدينة طريف

Tarifa

كانت طريف أو جزيرة طريف ، أول بقعة إسبانية وطئتها أقدام الغزاة المسلمين . ففى سنة ٩١ هـ (٧١٠ م) عبرت حملة إسلامية صغيرة جهزها والى إفريقية موسى بن نصير ، البحر من سبتة بقيادة طريف بن مالك ، أحد الضباط البربر ، ونزلت بالبقعة المقابلة فى اتجاه الغرب ، فى شبه الجزيرة الإسبانية ، وهى التى سميت باسم قائد الحملة جزيرة طريف.

وتقع جزيرة طريف أو مدينة طريف ، فوق لسان منبسط أخضر ، يمتد فى البحر فى جنوب غربى المثلث الإسبانى ، وتقع قبالتها الجزيرة الخضراء فى الناحية الشرقية ، وتفصل بين الجزيرة الخضراء وطريف ، سلسلة من التلال المتصلة ، تتخللها بعض الوديان الصغيرة المنخفضة ، وهى بقعة جرداء لا تبدو فيها سوى بعض النباتات والحشائش البرية ، وترتفع هذه الهضبة تدريجياً حتى تعلو سطح البحر ، ثم تنخفض بعد ذلك على مقربة من طريف ، وتبدو فيها أشجار الزيتون تغطى بعض البسائط والمرتفعات .

وطريف من المدن الأندلسية التالدة . وقد كانت أيام الدولة الإسلاميه ، مثل جبل طارق والجزيرة ، ذات أهمية بحرية خاصة ، ومركزاً لنزول الجيوش المغربية العابرة ، وقاعدة من قواعد الوصل بين المغرب والأندلس ، وقد لبثت حتى أواخر الدولة الإسلامية تحتفظ بأهميتها الحربية ، وسقطت فى يد النصارى فى سنة ٦٩١ هـ (١٢٩٢ م) فى عهد ملكهم سانشو الشجاع ، ولم يستطيع المسلمون ، رغم تكرار المحاولة ، أن يستردوها منهم بعد ذلك .

وهى مدينة صغيرة جميلة تبدو بيضاء مشرقة ، على خليج مستدير فى البحر ، وتكاد تحيط بها مياه البحر إلا من ناحية واحدة تحدها الجبال ، وتستطيع أن ترى من شاطئها جبال المغرب الواقعة ما بين سبتة وطنجة . ويلوح لنا أن المدينة الأندلسية القديمة ، كانت تقع تحت أسوار حصنها الذى ما يزال قائماً فى شرقها ، بينه وبين الكنيسة القديمة ، التى أصبحت اليوم طللا دارساً . وتقع كنيستها الرئيسية

الأخرى وهى كنيسة سان ماتيو فى وسطها . وتخترق المدينة من الوسط عدة شوارع قصيرة ظليلة . وتخترقها من أطرافها دروب ضيقة متعرجة ، ومنازلها منخفضة ذات طابق أو طابقين . ويقع شارعها الرئيسى خارجها ، ويمر من تحت « باب شَريش » "Puerta de Jerez" ، وهو باب أندلسى قديم ، ذو ثلاثة عقود داخلية ، وقد أصلح وغيرت بعض معالمه العربية ، ووضعت عليه لوحة هذا نصها :

"Muy noble muy léal y heroica ciudad de Tarifa ganaba a los Moros Sancho IV El Bravo en 21 Septiembre de 1292".

« إن مدينة طريف وافرة النبل ، وافرة الولاء والبسالة ، قد انتزعها من المسلمين سانشو الرابع « الشجاع » فى ٢١ سبتمبر سنة ١٢٩٢ » .

وإلى ما قبل نصف قرن فقط ، كانت الأسوار الأندلسية التى تحيط بمدينة طريف ما تزال كلها قائمة ، ولكنها زالت اليوم ولم يبق منها سوى بضعة أجزاء ، تمتد إلى يسار باب شريش ، ومنها قطعة صغيرة بها عدة كوى ، يليها قطعة كبيرة يبلغ طولها نحو خمسين متراً ، وهى ممتدة نحو الداخل فى اتجاه الحصن ، حيث يكاد يبدو اتصالهما القديم . وتؤلف هذه البقية من الأسوار مع الحصن مجموعة كبيرة من الأطلال الأندلسية . كذلك توجد إلى يمين باب شريش ، قطعة أخرى من الأسوار القديمة تتصل بمتنزه المدينة .

وتتفرع من باب شريش إلى داخل المدينة ، شبكة من الدروب الضيقة الصاعدة هنا وهنالك ، وهى تمتاز بطابعها ومنازلها الأندلسية الطراز.

ويبلغ سكان طريف زهاء خمسة عشر ألفاً .

الحصـــن

والأثر الأندلسى البارز فى طريف هو الحصن ، وهو فيما يرجح بقية القصبة الأندلسية القديمة ، يدل على ذلك موقعه المنيع المشرف على المدينة ، والذى يحميه البحر من خلفه .

والظاهر من أوصاف الغزّال أن القصبة الأندلسية ، كانت وقت زيارته لمدينة طريف فى سنة ١٧٦٥ ، كاملة الهيكل والأبراج ، فهو يقول فى وصفها :

« ولما وصلنا القصبة ، وجدناها باقية على ما تركها المسلمون رحمهم الله ، لها من الأبراج ثمانية عشر ، وقدر ارتفاع الســور والأبراج عشر قامات ، وفيما بين البرج والذى يليه فى نفس السور آجر مزدوج مرقوم ، لمعانه عند مقابلته للشمس كالمرآة ، وقدر مساحة الزليخ المذكور ، أربعة أدراج طولا وعرضاً ، وبناء هذه القصبة من الحجر المنجور الشبيه بالرخام ، وبأعلى بابها رخامة مكتوب عليها بخط كوفى : « بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم تسليما . أمر عبد الله عبد الرحمان الداخل أمير المؤمنين ... » وما بعده فمحو(١) .

أما اليوم فان حصن طريف عبارة عن قلعة صغيرة ، مازالت فى حالة جيدة من الحفظ . وهو يقع على البحر ، وله فناءان كبيران ، ويدخل إليه من باب ذي عقد عربى ، وبعد الفناء الأول يدخل إليه من بابين متواليين معقودين ، وقد زالت سائر أبراجه العليا ، ولم تبق منها سوى آثارها ومواقعها ، ويتصل الحصن من جانبه الخلفى بأطلال أسوار المدينة القديمة .

وتوجد فى حصن طريف لوحة رخامية عربية مثبتة فى عقد بابه الداخلى مكسورة ومصححة ، وقد كادت تمحى نقوشها الكوفية القديمة ، وقد جاء فيها ما يأتى :

« بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد خاتم النبيين أمر عبد الله عبد الرحمن أمير المؤمنين أطال الله [بقاه] ببنيان هذا البرج فتم [بعون الله] فى شهر صفر من سنة تسع وأربعين وثلث مائة على يدى وزيره عبد الرحمن بن خير مولاه » .

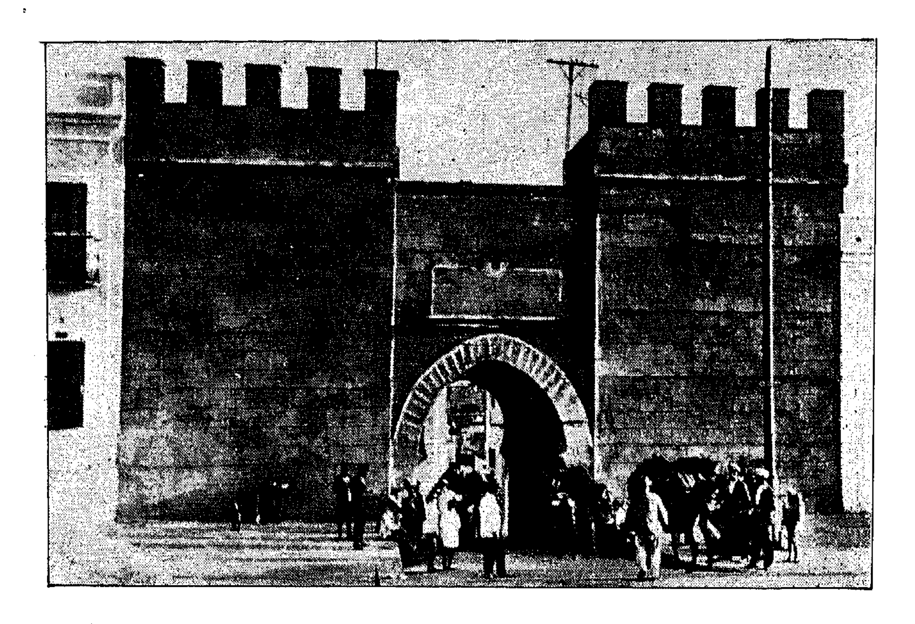
والظاهر أن الغزّال قد وهم فى قراءة هذا النص ، أو أنه قرأ لوحة أخرى لاتوجد اليوم .

ويستعمل الحصن اليوم مركزاً عسكرياً ، وتشغله فرقة من الجنود الإسبان .

وتقع أمام حصن طريف فى البحر ، جزيرة صخرية صغيرة محصنة يربطها بالمدينة جسر ضيق .

---

(١) رحلة الغزال ص ١٦ .



طريف . باب شريش ، وهومدخل المدينة



طريف . منظرعام لبقايا الحصن الأندلسى

١٨ - الجزيرة الخضراء

Algeciras

كانت الجزيرة الخضراء حينما عبر المسلمون إلى الأندلس ، محلة رومانية دارسة ، فجددها المسلمون وأنشأوا بها مدينة زاهرة ، استمرت قروناً فى مقدمة الثغور الجنوبية . وزادت أهميتها فى أواخر عصر الدولة الإسلامية ، لأنها كانت إلى جانب جبل طارق وطريف ، قاعدة للاتصال بين المغرب والأندلس .

وسقطت الجزيرة الخضراء فى يد القشتاليين سنة ٧٤٢ هـ (١٣٤٢ م) ، عقب موقعة « سالادو » الشهيرة ، التى هزمت فيها جيوش المغرب والأندلس ، بقيادة السلطان أبى الحسن المرينى والسلطان يوسف أبى الحجاج . واستولى ألفونسو الحادى عشر ملك قشتالة على الجزيرة الخضراء وخربها ، وحول مسجدها الجامع إلى كنيسة ، سميت كنيسة "Sta. Maria de las Palmas" (القديسة مريم ذات النخيل) ، وهى التى غدت فيما بعد كتدرائية . ومما هو جدير بالذكر أن المسلمين استعملوا فى هذه الموقعة ، ما يسمى فى تاريخ الأندلس « بالأنفاظ » ، وهى آلات تقذف النار والحديد ، ويقال إن الأندلسيين كانوا قد توصلوا يومئذ إلى اكتشاف البارود ، وان الأنفاظ لم تكن سوى نوع من المدافع البدائية .

واستمرت الجزيرة الخضراء أطلالا خربة ، حتى أعاد الإسبان بناءها فى سنة ١٧٦٠ ، فى عهد الملك كارلوس الثالث . وهذا هو السر فى أن الجزيرة الخضراء ، تبدو مدينة نصرانية حديثة لاصلة لها بالعهد الإسلامى ، وليس فيها آثار أندلسية أو غيرها . وقد بنيت كنيستها العظمى "Isglesia Mayor" على موقع الكتدرائية القديمة ، وبنيت على طراز الجامع ، ذات عقود عربية ، وهى تقع على ربوة فى الجانب الأيسر من المدينة . والظاهر أن المدينة الإسلامية القديمة كانت تقع حول هذه الربوة ، حيث تحتل الكنيسة العظمى موقع المسجد الجامع .

ومدينة الجزيرة ثغر كبير ، يقع على خليج داخلى مستدير ، تجاه جبل طارق ، التى لاتبعد عنها بالبحر أكثر من ستة أميال ، وتقع من ورائها سلسلة من التلال ، فى سفوحها بسيط أخضر ، ينمو فيه القمح وغابات الزيتون ،

وشوارعها صاعدة نحو الربوة ، ومنازلها بيضاء على الأغلب ، وميادينها صغيرة تقوم فيها أشجار النخيل . وأمامها فى الخليج جزيرة صغيرة بها عدد من الأبنية ، ويربطها بها جسر كبير .

وتقع الميناء شمال المدينة ، وهى ميناء متوسطة ترسو بها السفن الكبيرة . وتربط الجزيرة خطوط بحرية منتظمة بثغور المغرب الشمالية ، ولاسيما سبتة وطنجة ، وهى معبر اسبانيا المفضل إلى المغرب .

ويبلغ سكان الجزيرة مثل طريف زهاء خمسة عشر ألفاً .

ويصل الجزيرة بثغر قادس طريق سيارات معبد ، يمر بطريف ثم يخترق بسائط الفرنتيره ، فى الناحية الأخرى من المثلث الإسبانى ، ماراً ببلدة فيخر الفرنتيره ، ثم بشكلانا ، ثم بسان فرناندو ، وهو خلال ذلك يخترق بسائط خضراء تتخللها التلال من آن لآخر ، وتتخللها مزارع القمح وغابات الزيتون . ومنذ سان فرناندو تبدو منطقة شاسعة غنية بالملاحات العظيمة حتى ثغر قادس .

١٩ — جبـــل طارق

Gibraltar

لم تكن جبل طارق أول بقعة من شبه جزيرة الإسبانية نزلها الغزاة المسلمون، وإن كانت أول بقعة نزلها الجيش الإسلامي الفاتح . أما أول بقعة إسبانية نزلها المسلمون فهى جزيرة طريف ، أو مدينة طريف الإسبانية ، التى تقع جنوبى ثغر الجزيرة فى الطرف الغربى لمضيق جبل طارق ، والتى سبق الحديث عنها .

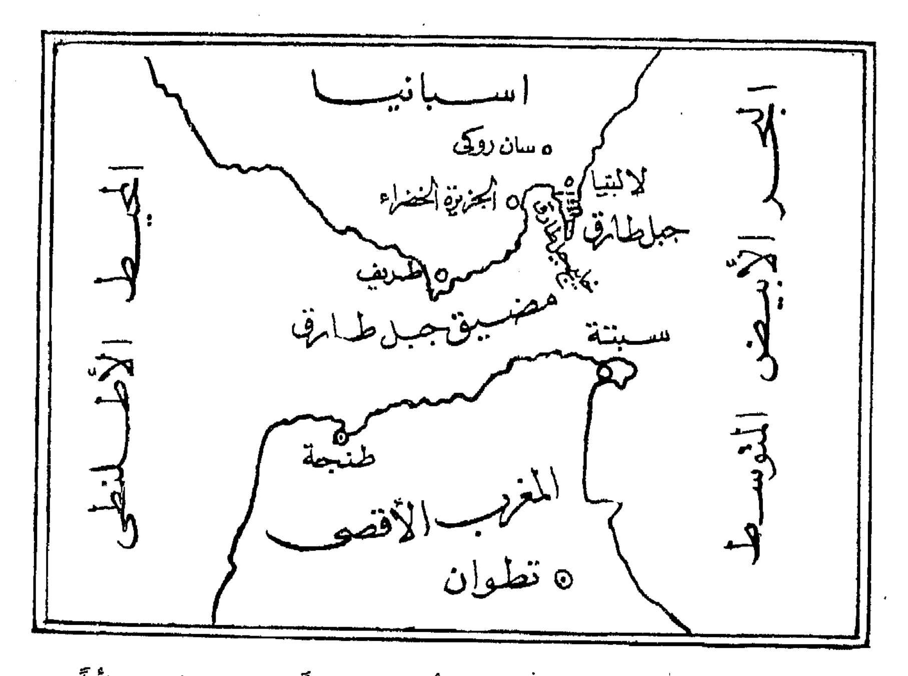
وإنك لتسطيع أن ترى صخرة طارق ، من شاطىء ثغر سبتة الإفريقى ، تراها كالغمام القاتم ، يعترض البسيط الأزرق الشاسع من مياه البحر الأبيض المتوسط ، فإذا صوبت نحوها البصر من الجزيرة الخضراء ، وهى التى تقع مقابلها فى الطرف الآخر من الخليج ، فإنك ترى أمامك أروع منظر يمكن تصوره .

ترى صخرة طارق رابضة فى البحر ، جاثمة على شكل أسد عظيم ، رأسه نحو الأرض الإسبانية ، وذيله نحو البحر ، وتراها عابسة مروعة تحت أشعة الشمس الساطعة ، كأنها تذكر كل من يرنو إليها بقوتها ومنعتها التى لاتقهر .

وقد كان من الطبيعي أن تكون جبل طارق ، معبر الغزاة المسلمين إلى الأرض الأوربية ، فهى أول بقعة تراها العين من الشاطىء الإفريقى ، وهى بموقعها الصلد ، ومرفئها المنيع ، تعتبر قاعدة برية وبحرية من الطراز الأول .

عبر طارق بن زياد فاتح الأندلس ، بجيشه من سبتة إلى الصخرة المقابلة فى شهر رجب سنة ٩٢ ﻫ (ابريل سنة ٧١١ م) ، فسميت الصخرة الوعرة الهائلة باسمه جبل طارق ، ومازالت تحمل هذا الاسم حتى اليوم ، محرفاً بالإفرنجية "Gibraltar"

وقد كانت صخرة طارق قبل أن يعبر إليها الغزاة المسلمون ، وقبل أن يطلق عليها اسم الفاتح المسلم ، تعرف فى الجغرافية القديمة بجبل كالبى "Mons Calpe" وتسمى مع جبل أتيلا المقابل لها فى الساحل الإفريقى ، بأعمدة هرقل ، وكان الأقدمون يعتبرونها نهاية العالم من الغرب ، ويجاريهم بعض الجغرافيين المسلمين فى ذلك ، فيسمى ما وراء جبل طارق من مياه المحيط ، ببحر الظلمات ، ويعتبرونه منطقة غامضة لانهاية لها .



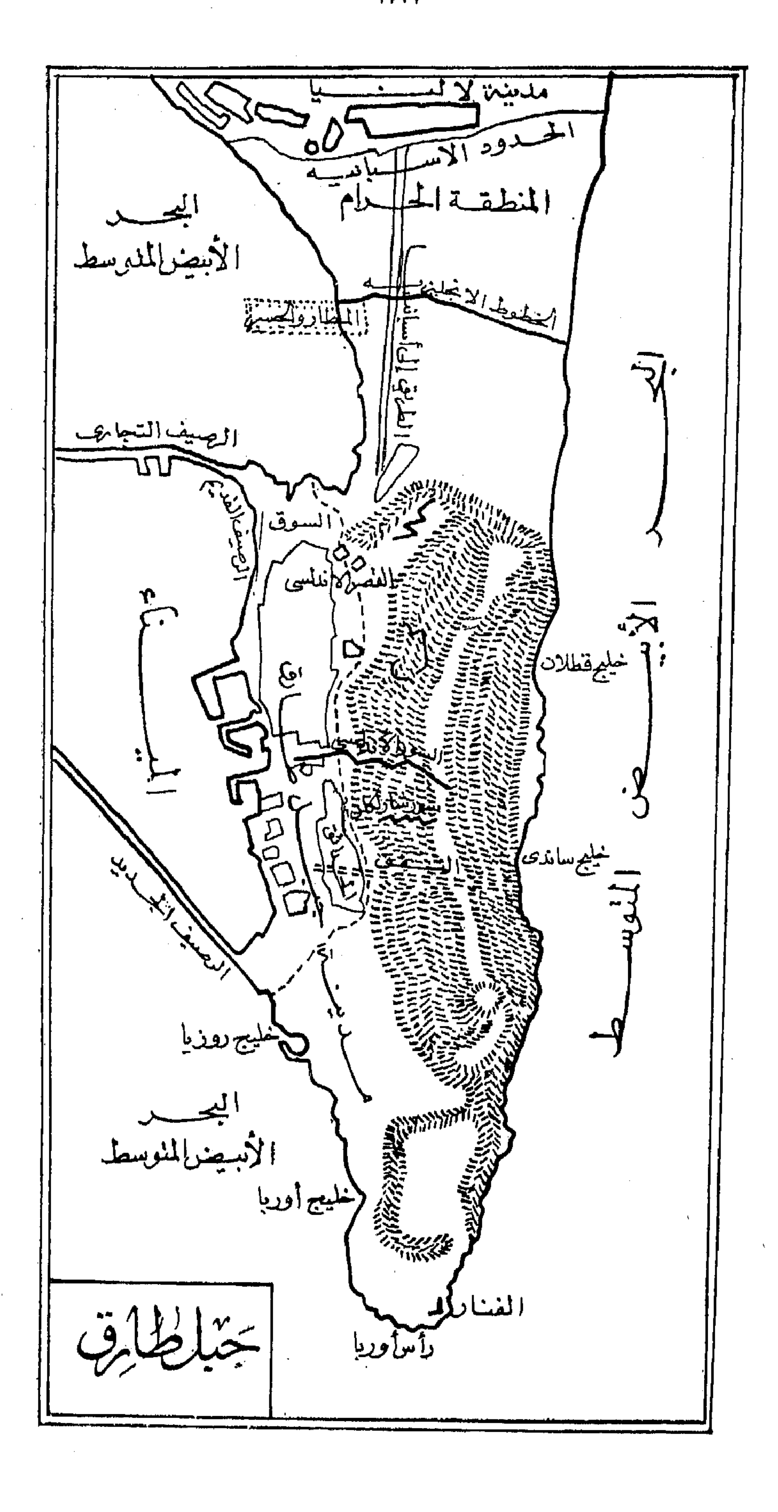
وقد لعب جبل طارق فى تاريخ الأندلس دوراً عظيما ، وكان دائماً معبر الجيوش الإسلامية ، من المغرب إلى شبه الجزيرة الإسبانية ، وكان يعتبر مفتاحها من الجنوب . ولم يكن جبل طارق أيام الدولة الإسلامية ، سوى قاعدة عسكرية برية وبحرية ، وقد أنشأ بها المسلمون منذ عصر الفتح حصناً عظيما فوق سطح الصخرة الأوسط من ناحيتها الشمالية الغربية ، وأسواراً ضخمة كانت تسمى أسوار العرب . وفى أواخر سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) عبر إليها عبد المؤمن بن على أعظم خلفاء الموحدين ، وذلك على أثر استرداده لثغر المهدية من الفرنج ، وافتتاحه لسائر قواعد إفريقية (تونس) . وكان الخليفة قد أرسل خلال حملته المذكورة ، فى ربيع الأول سنة ٥٥٥ هـ ، كتاباً إلى ولده السيد أبى سعيد والى غرناطة ، بأن يقوم ببناء « مدينة كبرى » بجبل طارق ، تكون « منزلا للأمير عند إجازته العساكر » ، وكتب فى نفس الوقت إلى ولده السيد أبى يعقوب والى إشبيلية ، بأن يستنفر جميع العرفاء والفعلة من كل ضرب ، ومن جميع بلاد الأندلس التى تحت نظر الموحدين لهذا الغرض . وندب لوضع خطط المدينة الجديدة ، والإشراف على بنائها ، عدة من أكابر المهندسين مثل الحاج يعيش المالقى ، وأبى إسحق برّاز بن محمد . وتولى النظر على أعمال البناء العريف أحمد بن باسة الإشبيلى . قال ابن صاحب الصلاة :

« وابتدأوا البناء فى الموضع الذى وقع الجميع عليه ، والاتفاق من نواحيه بسيف البحر مما يلاصقه ويليه . . . وأحكم البناءون فيه بناء من القصور المشيدة والأديار ، واخترعوا فى أسسها طيقانا وحنايا لتعتدل بها الأرض ، مبنية بالحجر المنجور والجيار ، بما هو عجب من الآثار . . . واتصل بهذا العمل من بناء الدور والقصور ، بناء السور والباب المسمى بباب الفتوح ، فى الفرجة التى كانت يدخل منها إلى الجبل ، بين البحر المحدق به من كلا جانبيه ، فجاء فرداً فى المعاقل التى لايتمكن لطامع فيه طمع . . . » . واستمر العمل شهوراً بهمة مضاعفة ، حتى تم بناء المدينة الجديدة فى شهر ذى القعدة سنة ٥٥٥ هـ (ديسمبر ١١٦٠ م) ، وابتنى بها جامع وقصر للخليفة ، ودور لأبنائه وحاشيته ، وغرست الحدائق على طولها حذاء البحر ، وجلب إليها الماء العذب ، وجدد الحصن والأسوار القديمة ، وعنى بتحصين الصخرة أكمل عناية ، وسمى الجبل بأمر الخليفة ، جبل الفتح أو مدينة الفتح . ولما كمل بناء المدينة ، فى شهر ذى القعدة سنة ٥٥٥ هـ ، عبر إليها الخليفة عبد المؤمن من ثغر سبتة . ويصف لنا ابن صاحب الصلاة مناظر احتشاد الناس على الشاطىء لرؤية موكبه فى ذلك اليوم المشهود . وأقام الخليفة بجبل طارق ، أو بجبل الفتح ، شهرين يتلقى وفود الأعيان والعلماء والأكابر من أهل الأندلس ، وأشياخ الموحدين من السادة والقادة والحفاظ والطلاب والجند ، وأنشد الشعراء قصائدهم بين يديه[1] ، وكانت فترة إقامته بالجبل من أيام الأندلس المشهودة .

ولبث جبل طارق بعد ذلك أحقاباً أخرى ، قاعدة الوصل بين الأندلس والمغرب ، تعبر إليه الجيوش المغربية لنصرة الأندلس كلما دهمها الخطر . ومنذ القرن الثالث عشر الميلادى ، تتوالى حملات اسبانيا النصرانية لافتتاح هذا المعقل العظيم ، ويتفانى المسلمون فى الدفاع عنه ، لشعورهم بأهميته وخطورة موقعه بالنسبة لسلامتهم . وفى سنة ١٣١٠ م استولى القشتاليون لأول مرة على جبل طارق . ثم استرده الأندلسيون بمعاونة السلطان أبى الحسن المرينى ملك المغرب فى سنة ١٣٣٣ م .

---

(١) أورد لنا ابن صاحب الصلاة ، وقد كان من شهود هـذا الحفل ، وصفاً ضافياً لمقدم عبد المؤمن إلى جبل طارق ، وحضور الوفود لديه ، والقصائد التى ألقيت بين يديه . (مخطوط المن بالإمامة لوحة ١١ وما بعدها) . وراجع فى ذلك « الحلل الموشية » ص ١١٨ ؛ والإحاطة لابن الخطيب ج ١ ص ١٦٠ (القاهرة ١٩٥٦) ص ٢٢٣ و ٢٢٤ ، وكذلك الروض المعطار (صفة جزيرة الأندلس) ص ١٢١ .


مدينة لالينيا
الحدود الاسبانية
المنطقة الحرام
البحر
الأبيض المتوسط
الخطوط الانجليزية
المطار والحسبة
الرصيف التجاري
السوق
القصر الاندلسي
خليج قطلان
خليج ساندى
خليج روزيا
البحر
الأبيض المتوسط
خليج أوروبا
الفنار
رأس أوروبا
الأبيض
المتوسط
جبل طارق

وجدد السلطان أبو الحسن الحصن ودار الصناعة والأسوار ، ثم جددها ولده السلطان أبو عنان . واستمر جبل طارق فى يد المسلمين بعد ذلك زهاء قرن وثلث .

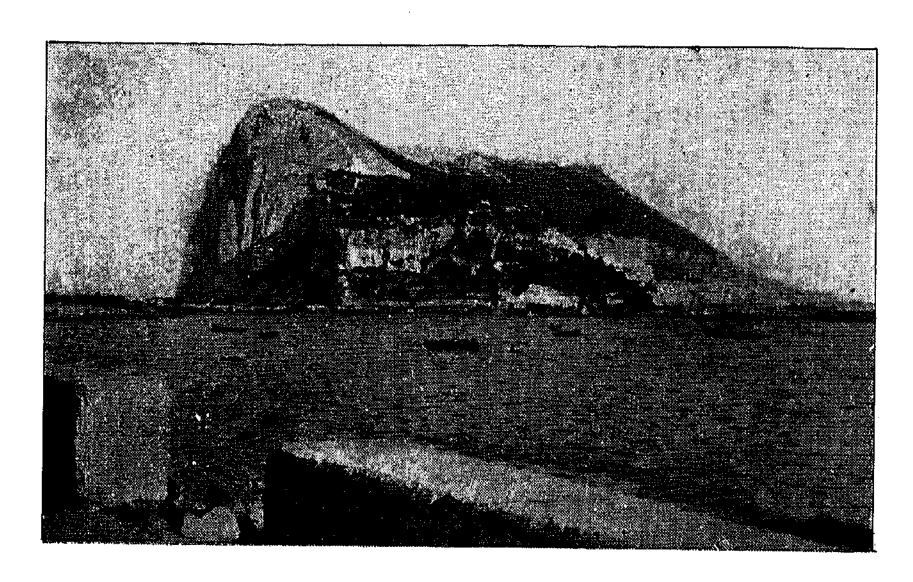
وفى سنة ١٤٦٢ م ، استولى الإسبان أخيراً على جبل طارق ، وكان فقده ضربة شديدة للأندلس ، وكان من ممهدات سقوطها الأخير.

وبقى جبل طارق من ذلك التاريخ بيد الإسبان ، حتى استولى عليه الإنجليز والهولنديون خلال حرب « وراثة العرش الإسبانى » فى سنة ١٧٠٤ . ثم ضمته انجلترا إلى أملاك التاج ، ومازالت تقبض عليه حتى اليوم بيد من حديد . ولم تنجح محاولات اسبانيا أيام قوتها فى استرداده ، وكانت أشهر محاولة قامت بها فى ذلك السبيل سنة ١٧٧٩ ، حيث استمر حصارها للصخرة زهاء أربعة أعوام ، ولكنها أخفقت فى النهاية ، ولم تقع من ذلك التاريخ أية محاولة ذات شأن لاسترداد جبل طارق ، وهو اليوم بوضعه الحالى مستعمرة من مستعمرات التاج البريطانى ، يعين له حاكم من قبل التاج .

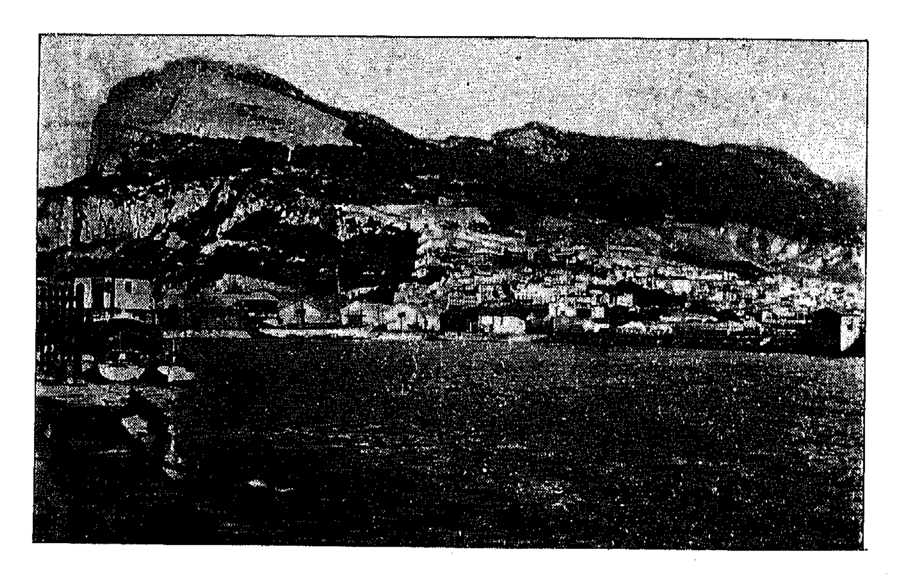
* * *

وليس جبل طارق سوى لسان صخرى وعر ، ممتد من طرف اسبانيا الجنوبى فى البحر زهاء ثلاثة أميال ، ويتراوح عرضه بين ربع ميل وثلاثة أرباع الميل ، ويبلغ ارتفاعه من الجنوب نحو أربعمائة قدم ، ومن الوسط نحو ألف قدم ، ومن الشمال نحو ألف ومائتى قدم . وكما أنه يمكن الوصول إليه من البحر ، فكذلك يوصل إليه من البر الإسبانى بالسيارة من الجزيرة ، فى طريق بديع تظلله الأشجار الباسقة ، يمتد على الخليج تجاه الصخرة ، وتحف به الجبال من الناحية الأخرى ، فى سفوحها المروج اليانعة ، ويمر ببلدة لوس باريوس "Los Barrios" ، ثم ببلدة سان روكى "San Roque" ، وينتهى بمدينة « لالنيا » "La Linea" نهاية الأرض الإسبانية :

ومتى جزت مدينة لالنيا ، وهى مدينة متوسطة الحجم ، مشرقة ، مستطيلة الرقعة ، ألفيت نفسك تجاه الصخرة الهائلة من ناحيتها الشمالية ، تفصلها عن لالنيا شقة حرام ، تمتد بجوار الصخرة نحو سبعمائة متر ، ويبلغ عرضها نحو اربعمائة متر. ثم تبدأ بعد ذلك الحدود الإنجليزية ، وتسير بك السيارة بضع مئات أخرى من الأمتار ، وعن يمينك ساحة المطار ، يليها لسان طرا نحو أربعمائة متر ، يمتد



جبل طارق . منظر الصخرة كما يبدو من البر الإسبانى المواجه



مدينة جبل طارق فى أسفل الصخرة والميناء

داخل البحر ، ويحمى أرصفة الميناء والرصيف التجارى ، ثم الرصيف الشمالى ، ثم الرصيف المنفصل ، يليه الرصيف الجديد أو الرصيف الجنوبى ، وكلها ضخمة تأوى أعظم السفن . وبعد اجتياز هذه المسافة القصيرة ، تجد نفسك إزاء مدينة جبل طارق .

أجل مدينة جبل طارق . ذلك ان الإنجليز قد أنشأوا مدينة حقة ، فى السفح الممتد غربى الصخرة ، مدينة حديثة بكل معانى الكلمة ، تمتد من المطار فى شكل قوس مفتوح ، يلاصق الصخرة ويشرف على البحر ، حتى الجسر الجنوبى بطول يبلغ نحو ثلاثمائة متر . ويخترق هذه الرقعة شارع طويل واحد يسمى « الشارع الرئيسى » "Main Street" ، وهو شارع مشرق نظيف يغص بالمتاجر والمقاهى ، ويزخر بالبضائع والحركة . ويتفرع من هذا الشارع الرئيسى على الجانبين ، عدة شوارع قصيرة أو أزقة "Lanes"، تسمى كلها بأسماء إنجليزية مثل "College L." "Bell. L., Parliament L., Market L." إلى غير ذلك. وتقع معظم دوائر الحكومة مما يلى البحر ، وينتهى هذا الشارع الطويل بالأبواب الجنوبية "South Gates" ، وهى عبارة عن أربعة عقود ، منها اثنان صغيران قديمان ، وقد جددا فى أواخر القرن الماضى حسبما رقم عليهما ، والآخران حديثان ، ويتصل الأولان بجرء من السور القديم الذى يسمى « السور الأندلسى » . ومن ورائهما قاعدة من الأسوار القوية كتب عليها « الدعامة الجنوبية » "S. Bastion" (سنة ١٥٤٠) ، وهذه يرجع تاريخها إلى عصر الإمبراطور شارلكان .

ويمتد الطريق بعد ذلك زهاء ميل آخر . وينتهى بالحوض الجاف و « الفنار » . وهذا الطريق عريض تقوم على جانبيه المبانى الضخمة ، والعمارات الشاهقة ، فى سفح الصخرة . وتقع فى بدايته الحدائق والمتنزهات المسماة « ألميدا » "Alameda"

وجانب المدينة الذى يلى البحر ، يزخر بالمخازن والمصانع ، والمهام البحرية الضخمة ، والمراكز والإدارات العسكرية .

والخلاصة أن مدينة جبل طارق تبدو بالرغم من ضيق رقعتها المستطيلة ، بتخطيطها البديع ، وشوارعها المنسقة المغطاة بالمكدام ، وأحيائها ومنتدياتها الأنيقة المشرقة ، كأحسن ما تبدو المدينة الأوروبية الرائقة .

ولاتوجد فى الناحية الشرقية من الصخرة ، سوى محلة صغيرة تسمى « كاتلان باى » "Catalan Bay" .

ويبلغ سكان جبل طارق اليوم ثلاثين ألفاً ، منهم الحامية وعددها سبعة آلاف ، والباقى من السكان المدنيين . وهؤلاء خليط من الإسبان سكان جبل طارق الأصليين ، ومن المالطيين والجنويين ، وقليل من الإنجليز ، وبعض العناصر الأخرى . والإسبان فى جبل طارق أرقى من مواطنيهم وأوفر تمدناً ورخاء ، ولكنهم يتكلمون إسبانية رديئة ، كما يتكلمون إنجليزية رديئة . هذا ولابد لنا من أن نسجل هنا ما لاحظناه من أن هذا الشعب الخليط من سكان جبل طارق ، يبدو بالرغم من مظاهره التمدنية ، شعباً خشناً نزقاً ، قليل الرقة والمجاملة ، وهو ما يلاحظ عادة فى المرتزقة من سكان الموانىء .

وإلى جانب سكان جبل طارق المقيمين ، يفد على المدينة كل يوم نحو خمسة عشر ألفاً من الإسبان ، ممن يبيعون مختلف المؤن والسلع ، وممن يعملون فى الميناء والأحواض ، ثم يعودون فى المساء إلى الأرض الإسبانية .

الآثار الأندلسية

ولايخلو جبل طارق من الآثار الأندلسية الباقية ، فهنالك بقايا الحصن الأندلسى أو القصر الأندلسى أوالمغربى "Moorish Castle" ، وهو عبارة عن قلعة حصينة ، تقوم فوق ربوة عالية تقع على مقربة من الطرف الشمالى الغربى للصخرة ، ومن تحتها سراديب وعقود عربية ، ويستعمل جناحها الأسفل سجناً مدنياً . ويشرف طالل برجها الرئيسى على ساحة السجن فى ارتفاع شاهق . ويدل تخطيط القلعة وحافاتها ، على أنها قد ترجع إلى عصر الموحدين ، حيث ابتنى خليفتهم عبد المؤمن بن على بالصخرة حسبما تقدم ، قلعة وقصراً . بيد أن بعض الأثريين يرى أن بناء هذه القلعة يشبه طراز التحصينات الغرناطية وأنها قد أنشئت فيما يبدو فى عصر السلطان يوسف أبى الحجاج ، فى النصف الأول من القرن الرابع عشر(١) . والمرجح أيضاً أن يكون هذا البناء ، قد أقيم على بناء أنقاض القصبة الأندلسية القديمة ، التى أقيمت منذ عصر الفتح . وتنحدر أطلال القلعة إلى أسفل لتتصل بأطلال أخرى ، يبدو أنها برج حرس أوما يشبهه .

(١) هذا رأى الأستاذ توريس بالباس فى مقال له عن جبل طارق ونشأتها وتاريخها . راجع مجلة :
Al-Andalus (1942) V. I. p. 168-216

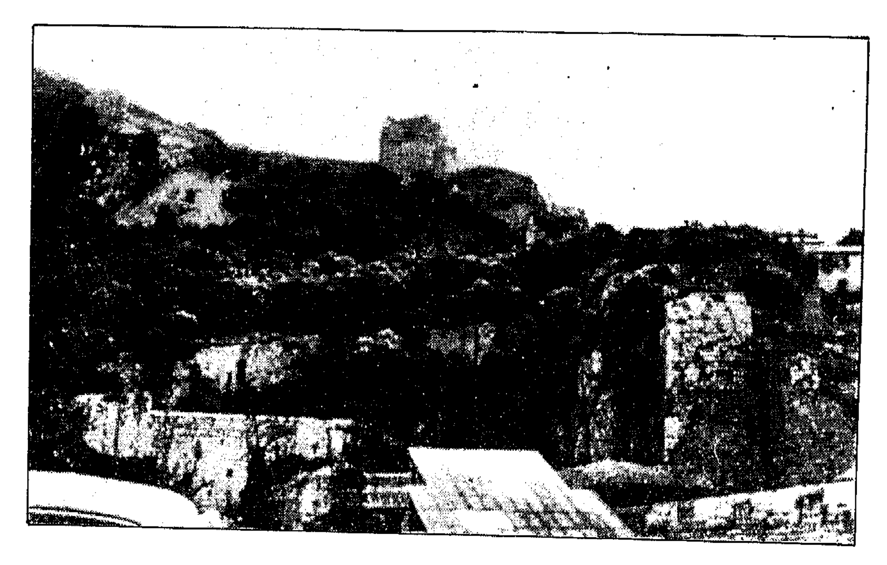


جبل طارق . بعض عقود الحمامات الغرناطية (القرن الرابع عشر)

ويشرف القصر الأندلسى من علٍ ، على صفوف متعاقبة من المبانى المتدرجة فوق سفح الصخرة ، والتى تتصل فى النهاية بميدان "Casement" ، وهو أكبر ميادين جبل طارق ، ومن ورائه يرتفع جانب الصخرة العليا التى تحد الجبل من الشمال

ويوجد أثر أندلسى آخر لايقل أهمية عن الحصن وهو الحمامات العربية . وتقع هذه الحمامات تحت بناء متحف جبل طارق ، وهى عبارة عن صفين من العقود العربية ، يتكون كل منهما من ثلاثة عقود ، وتجمعها قبة منخفضة . وهذا الطلل فى حالة طيبة من الحفظ ، ولكن ليست به أية نقوش . وترى مجرى المياه محفوراً فى الوسط والجانب الأيمن . وإلى جانب البناء المعقود ، يوجد بهوان كبيران ، ربما كانا يستعملان لتجهيز الماء الحار والبارد ، وأحدهما ذو سقف تتخلله كوات معقودة .

وتقوم عقود هذا البناء على أعمدة رومانية فيما يظهر ، يدل على ذلك خلوها من النقوش العربية . وقد وصف هذا الأثر فى الرقعة الخاصة به ، أنه يرجع إلى القرن الثانى عشر الميلادى. ولكن الأستاذ توريس بالباس يرى بالعكس أن هذه



جبل طارق . منظر الحصن الأندلسي من أعلى الصخرة



مدخل الحصن الأندلسي



إحدى واجهات الحصن الأندلسي

الحمامات من طراز غرناطي يشبه طراز حمامات الحمراء ، وأنها ترجع إلى نفس العصر الذى أنشئت فيه التحصينات أى إلى عصر السلطان يوسف أبى الحجاج[1].

وأما عن الأسوار الأندلسية القديمة ، فقد رأيت أنه مازال ثمة قطعة من الأسوار تتصل بالأبواب الجنوبية ، وتسمى بالسور الأندلسى أو المغربى ، وهذه التسمية دليل على أصلها العربى . ويمتد هذا السور من وسط الصخرة منحدراً على سفحها حتى الأبواب الجنوبية فى اتجاه البحر ، فى قطع وأطلال متصلة ، ويخترقه الطريق الرئيسى الذى يشق وسط الصخرة من الجنوب إلى الشمال .

وقد كانت توجد فى سفح الصخرة الغربى ، على مقربة من البحر اسوار أخرى هدمت ولم يبق لها اليوم أثر ، ولكن يدل على موقعها الأبواب التى تسمى « أبواب الماء »"Water Gates" ، وهذه تقع وراء الميدان الكبير المسمى ميدان « كاسمنت» "Casement" ، وهى عبارة عن صفين من عقود ثلاثة ، بينهما مسافة ٤٠ متراً ، وكان الصف الأول منها يطل فيما مضى على الماء قبل امتداد الرقعة اليابسة ، ويسمى لذلك أبواب الماء ، وهذه الأبواب العربية القديمة تعين مكان السور الغربى . ثم خربت هذه الأبواب بمضى الزمن فأزيلت ، وأنشئت مكانها الأبواب الحالية ، وسميت أبواب « كاسمنت » باسم الميدان الذى يقع وراءها.

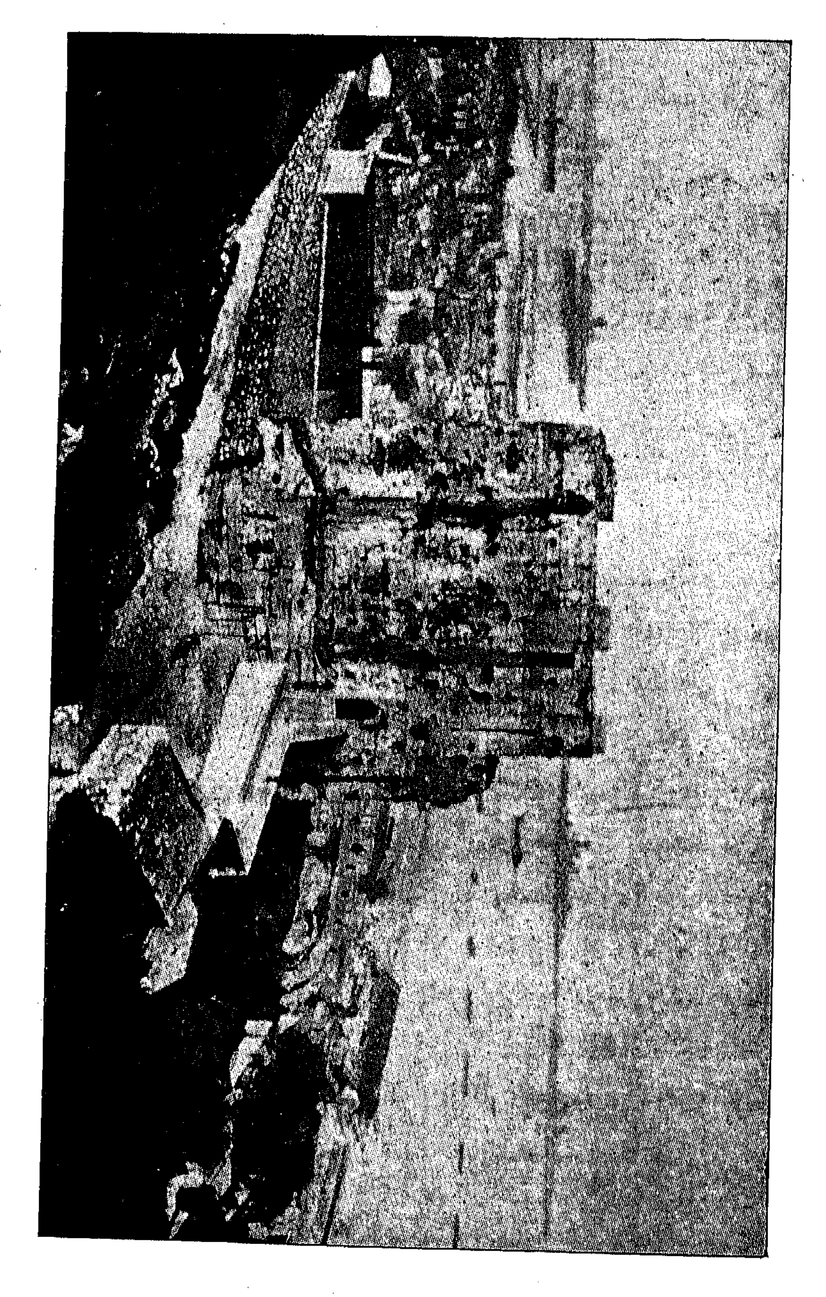
ويقع هذا الميدان الذى تؤدى إليه أبواب الماء فى الشمال الغربى للصخرة ، تحت الربوة التى يقوم عليها « القصر الأندلسى » . وأبواب كاسمنت هى مدخل مدينة جبل طارق الحقيقى ، وقد سجل الإنجليز فى لوحتها التذكارية ، أنها بنيت على موقع « أبواب الماء القديم » ، كما عينوا مكان الأسوار الأندلسية القديمة ، بتسمية الطريق الذى يجرى مكانها ، وهو الذى يحاذى البحر والميناء ، « بطريق خط السور » "Line Wall Road" .

معـــــالم أخرى

ويوجد فى جبل طارق متحف فى البناء الذى يقوم فوق الحمامات العربية ، وهو عبارة عن متحف حربى محض ، به نموذج بديع للصخرة وخططها ، ونماذج من السلاح التى لها علاقة بتاريخ جبل طارق ، ولاسيما نماذج السلاح التى استعملت

---

(١) الأستاذ توريس بالباس فى مقاله السالف الذكر.



جبل طارق . الحصن الأندلسى وفى أسفله المدينة والميناء من الناحية الغربية

فى الحصار الكبير سنة ١٧٨٣ ، وطائفة من الوثائق التاريخية الهامة التى تتعلق بهذا الحصار ، من أوامر عسكرية وتقارير للقادة وغيرها . ومن المدهش أن يضم المتحف « مومياءين » مصريتين ، قيل لنا إنهما سقطتا من إحدى السفن التى كانت قادمة من مصر إلى إنجلترا .

ومن أروع ما رأيناه فى الصخرة المغار العظيم الذى يوجد فى وسطها ، وهو مغار طبيعى عميق واسع الجنبات رائع الشكل قد أنير بالكهرباء .

وفى بطن الصخرة توجد خزانات المياه العظيمة التى أنشئت فى سنة ١٩٠١ ، تمد مدينة جبل طارق بالماء العذب طوال العام ، وهى خزانات عديدة ضخمة تصب فيها مياه الأمطار التى تجتمع فى نهيرات صغيرة تفضى إليها ، ويوزع الماء بواسطة المواسير الضخمة فى شعب المدينة ، وهو عمل عظيم يكفى المدينة كل مؤنتها من الماء .

* * *

وبعد فقد بسطنا القول نوعاً فى جبل طارق ، وخرجنا عن الحد الذى رسمناه فى الكلام على المعالم الأندلسية . والواقع أن جبل طارق ، إلى جانب الدور العظيم الذى لعبته فى تاريخ اسبانيا المسلمة ، وفى الوصل بين قوى الإسلام فى المغرب والأندلس ، مازالت تعتبر فى عصرنا من أعظم المعاقل البحرية . وهى تسيطر على المضيق المسمى باسمها ، والذى هو مدخل البحر الأبيض المتوسط من جهة المحيط . ومرفؤها يصلح لإيواء أعظم السفن الحربية والمدنية ، وهى ما زالت بالرغم مما طرأ على الخطط البحرية والعسكرية ، من جراء تطورات الحرب العالمية الثانية ، تعتبر من أهم وأمنع المواقع البحرية فى خط المواصلات الإمبراطورية البريطانية . وبالرغم مما أبدته اسبانيا فى الأعوام الأخيرة من رغبة ملحة فى استرداد جبل طارق ، فإنه يلوح أن السياسة البريطانية لم تبد أقل استعداد للتنازل عن هذا المعقل البحرى العظيم ، الذى تسيطر باحتلاله إلى جانب مالطة على مياه البحر الأبيض المتوسط .

٢٠ — شَريش الفرنتيره

Jerez de la Frontera

إن طريق السيارة هو سبيل الاتصال الوحيد المباشر ، بين جانبي المثلث الإسبانى ، ومن ثم فقد غادرنا رندة بالسيارة إلى بلدة شَريش الفرنتيره ، فى الجانب الآخر من المثلث ، وأتيح لنا خلال الرحلة أن نخترق تلك البسائط ، التى كانت مسرحاً لمعركة شذونة الفاصلة بين العرب والقوط ، والتى انتهت بفتح المسلمين لإسبانيا .

وهى منطقة وعرة المسالك ، معظمها هضاب وتلال وجبال متصلة ، قليلة البسائط والخضرة ، قليلة السكان . وأهم بلادها الواقعة على هذا الطريق هى ألحدرالس "Algodorales" ، وهى بلدة صغيرة ذات مساكن منخفضة على الطراز الأندلسى ، ثم بلدة ڤليا مرتين "Villa Martin" ، ثم برنش "Bernos" ، ثم أركش "Arcos" الواقعة على نهر وادى لكّه ، وهى من البلاد الأندلسية القديمة.

ومنذ منتصف الطريق تكثر الخضرة والمزارع المتدرجة ، وترى الكروم وغابات الزيتون ، ثم تكثر البسائط شيئاً فشيئاً تنمو بها المحاصيل المختلفة ، ومن بينها رقاع صغيرة من القطن .

ومتى جزت إلى النصف الآخر من المثلث ، وهو أرض الفرنتيره التى تنتهى بشاطىء المحيط الأطلنطى ، رأيت معظمها من البسائط الخضراء ، ولا سيما بعد أركش . والأرض فى هذه المنطقة سوداء التربة ، وتزرع فى معظمها الحبوب من القمح والذرة ، ويجود بها القطن على منوال مزارعه فى بلنسية ، وتقل فيها غابات الزيتون . وقبيل شريش تزداد البسائط اليانعة ، تغطيها المحاصيل المختلفة ، والأشجار الباسقة ، وحدائق الفاكهة وأشجار النخيل ، وتبدو الطبيعة الخضراء فى أروع حللها .

وشَريش مدينة كبيرة عظيمة الحركة ، تقع على مقربة من مصب نهر وادى لكّه فى المحيط الأطلنطى ، وسكانها يزيدون على مائة ألف ، وتشتهر بنوع خاص بكرومها اليانعة ، ونبيذها الذائع الصيت . وهى تبدو مشرقة منيرة كثيرة الأنوار بالليل ، وشوارعها طويلة واسعة ، وبها عدة ميادين كبيرة تظللها الأشجار والنخيل

مما يطلق عليه Alameda (المكان الظليل) . وأهم ميادينها ميدان الملكين الكاثوليكيين الذى تقوم فى جوانبه أشجار النخيل ، وتغطيه الحدائق الصغيرة المزهرة ، وفى وسطه أثر الجنرال دى رڤيرا ، ومن حوله نوافير ماء بديعة تضاء بالليل ، وينبثق الماء من عشرات الصنابير . والجنرال دى رڤيرا من أبناء شريش ، وقد كان من أعظم موسسى النظام الحاضر فى اسبانيا ، ولهذا تعتبر شريش من معاقل هذا النظام .

وتتفرع من ميدان الملكين الكاثوليكيين ، عدة شوارع كبيرة رئيسية ، منها شارع « لارجا » C. Larga ، وهو شارع المقاهى والمتاجر ، وشارع فرانكو ، وشارع قادس المؤدى إلى « القصر » وغيرها .

وشريش مترامية الرقعة ، وتقع أحياؤها القديمة ذات الدروب الضيقة ، وراء الميدان ، والشوارع الكبرى ، وهى تبدو على العموم حديثة الطابع ، ولا تبدو على أحيائها وأبنيتها أية مسحة أندلسية . بيد أنه مما يلفت النظر أنه ما تزال بها عدة كبيرة من الأحياء والمنازل الأرستقراطية الفخمة ، التى تستحق اهتمام السائح . بيد أنها مغلقة دون الزيارة ، وقد رأينا بها منزل المركيز دومنيك ، وفيه ساحة أندلسية بديعة .

والظاهر أنه ما تزال ثمة فى شريش بقية من المجتمع الأرستقراطى القديم ، ففى شوارع المدينة الكبيرة تجد كثيراً من القصور والمنازل الأرستقراطية ذات الطراز الأندلسى ، والأفنية الواسعة ، والأبواب المزدوجة ، تقف أمامها العربات الضخمة ذات الخيل المطهمة ، والحشم ذوى الأثواب الخاصة ، مما يذكرنا بما كانت عليه الأرستقراطية الإسبانية فى ظل الملوكية ، فى أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحالى .

وتشتهر شريش بجيادها الأصيلة الرشيقة ، التى تمت بأوثق الصلة إلى الأرومة العربية .

المعالم الأثرية

وليس فى شريش كثير من الآثار الأندلسية ، ومع ذلك فإن القليل الذى تضمه منها يمتاز بطرافته وأهميته التاريخية والأثرية .

القصر : وأعظم هذه الآثار الباقية هو « القصر » El Alcázar ، وهو صرح ضخم يقع فى ميدان شاسع على الطريق المؤدى إلى قادس ، وقد أحيط بالأشجار والحدائق الصغيرة ، وفوق مدخله برجان كبيران متماثلان . ثم يلى البرج

الأيسر منهما برجان آخران كبيران ، ومن بعدهما برج صغير ومشارف متدرجة ، وفى داخل فنائه الكبير يقوم قصر ضخم حديث الطراز ، هو ملك الأسرة التى تملك البناء كله .

ومن الواضح أن مدخل هذا الصرح وأبراجه الخارجية ، هى وحدها التى تمتاز بقيمتها الأثرية . بيد أن الذى يلفت النظر حقاً ، هو الكنيسة الصغيرة التى تقع داخل القصر ، فإن هذه الكنيسة أو المصلى ، هى فى الواقع مسجد صغير مازال يحتفظ بطابعه وعقوده القديمة . وقد كان فيما يبدو مسجد القصر الخاص ، وينقسم هذا المصلى إلى قسمين ، القسم الكبير وبه أربعة عقود ، قد سد فيما بينها بالبناء ثم ينفذ منه إلى قسم أصغر ، وفى هذا القسم أربعة عقود متقابلة ، وتقوم فوق القسم الكبير قبة عربية كبيرة ، ذات ثمانية أضلاع .

وقد وضعت فى صدر هذا المصلى لوحة رخامية ، رأينا أن نثبت ما نقش عليها من عبارات تاريخية ذات مغزى وهى :

> **"Capilla Real de Santa Maria de Alcázar, antigua Mezquita Arabe. Fué dedicada al divino culto en 1264 por el Rey Alfonso X El Sabio. Honorada la memoria de este monarca ha sido restaurada en 1827 por Salvador Diez."**

ومعناها « المصلى الملكية للقديسة مريم ذات القصر ، وقد كانت مسجداً عربياً قديماً ، فحوله للعبادة الإلهية فى سنة ١٢٦٤ الملك ألفونسو العاشر ، الملقب بالعالم ، وتخليداً لذكرى هذا الملك أجرى تجديدها فى سنة ١٨٢٧ على يد سلڤادور ديث » .

والسنة التى سجلت فى اللوحة تحويل هذا المسجد إلى كنيسة ، وهى سنة ١٢٦٤ ، هى السنة التى سقطت فيها شَريش فى أيدى النصارى ، بقيادة ملكهم ألفونسو العالم . وكان ذلك فى نهاية عصر الموحدين بالأندلس . وقد حاول ملك المغرب السلطان أبو يوسف المرينى استردادها ، وضرب حولها الحصار سنة ١٢٨٤ ، ولكن النصارى استطاعوا إنقاذها بقيادة ملكهم سانشو الملقب بالشجاع ولد ألفونسو العالم .

وأمام هذا المصلى الأثرى ، فناء صغير به عقد عربى ، عمل مدخلا للقصر الحديث .

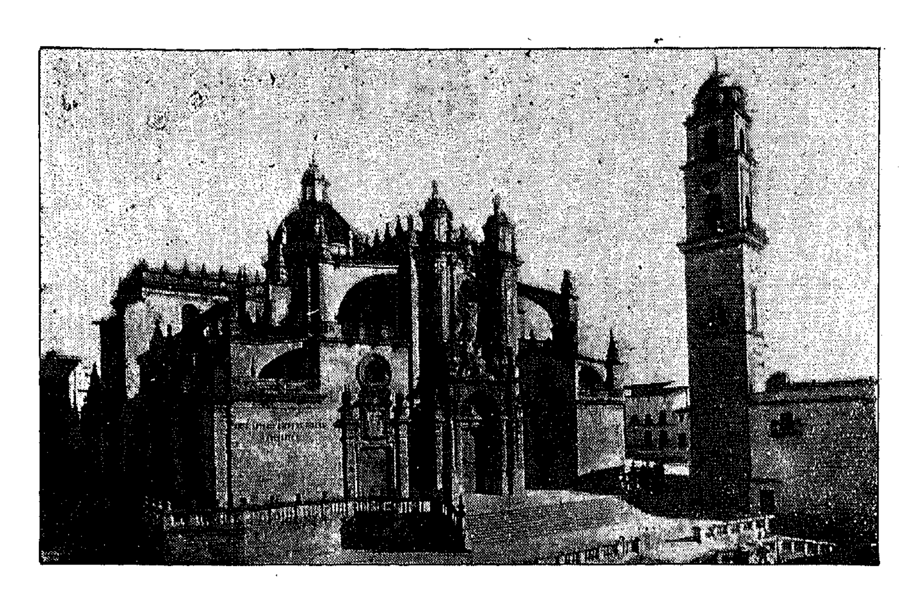
ومن الصعب أن نحدد تاريخ بناء هذا الصرح ، الذى توالت عليه التغييرات

حتى لم يبق من أبنيته القديمة سوى بعض الأبراج ، والظاهر أنه يرجع إلى القرن الحادى عشر أعنى إلى أوائل عصر الموحدين ، وكان فى الأصل حصناً ، كما تدل على ذلك أبراجه . وموقعه فى طرف المدينة فى إحدى مواقعها الدفاعية .

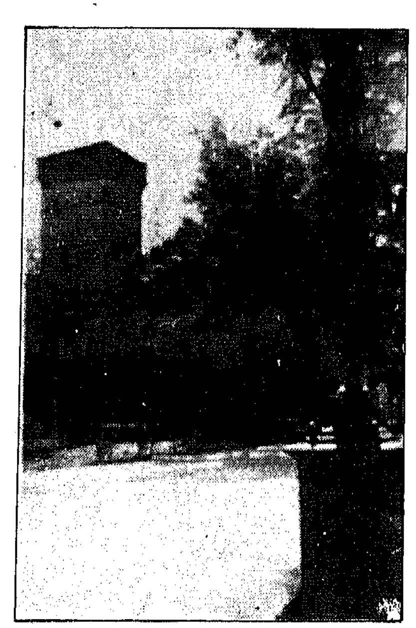
الكنيسة العظمى : (الكتدرائية) وهى تعرف باسم La Colegiata ، وتقع على مقربة من القصر فى الطرف الجنوبى الغربى للمدينة ، وفى ميدان شاسع فوق ربوة مرتفعة . وهى مضلعة الشكل بنيت عقودها على الطراز اليونانى الرومانى ، ولها واجهة عظيمة . وتبدو من الداخل بالغة الروعة والفخامة . ومما يلفت النظر فى طرازها . أن قبتها الكبرى قد صنعت على شكل قبة المسجد ، وأن برج أجراسها منفصل عنها ، وقائم على مقربة منها . وقد صنع على شكل منارة الجامع ، وعلى طراز « لاخيرالدا » برج أجراس كتدرائية إشبيلية الشهيرة ، وأطلق عليه اسم « سان سالڤادور » . وكان فى الأصل من مبانى الكتدرائية القديمة ، التى أقيمت فوق موقع جامع شريش القديم ؛ والتى حلت مكانها الكتدرائية الحالية . وفى هذا البرج من الداخل زخارف من الطراز الأندلسى ، عملت فيه بعد فتح النصارى للمدينة .

هذا وتوجد فى شريش عدة كنائس أثرية أخرى ، مثل كنيسة سان دونزيو التى أنشئت فى سنة ١٢٦٤ حينما دخل ألفونسو العالم المدينة ، وهى ذات طراز مدجنى (إسلامى نصرانى) ، وكنيسة سانتياجو (شنت ياقب) وهى ترجع أيضاً إلى أواخر القرن الثالث عشر ، وسان ماتيو ، وسان ميجل ، وكنيسة حنا أبى الفوارس ، وكنيسة الرحمة La Merced ، وهى أيضاً من أقدم كنائس شريش ، وقد شيدت عقب استرداد النصارى للمدينة من المسلمين بأعوام قليلة . وفيما خلا ذلك فإنه لا توجد ثمة مميزات خاصة لهذه الكنائس ، وربما كان منها ما شيد فوق مواقع المساجد الإسلامية .

ومما يلفت النظر أن موقع الكنيسة العظمى ، تحيط به الأحياء القديمة والدروب الضيقة ، فإذا أضفنا إلى ذلك كونها بنيت فوق موقع المسجد الجامع ، أمكننا أن نحدد معالم المدينة الأندلسية القديمة . ومن الملاحظ بوجه عام أن معظم كنائس شريش القديمة ، تقع على مقربة من الكنيسة العظمى ، وفيما بينها تمتد شبكة الدروب الضيقة . فإذا افترضنا أن معظم هذه الكنائس قد أنشىء فوق أنقاض المساجد القديمة ، فإن موقع شريش الأندلسية ، كان يشغل الجانب الغربى الجنوبى من المدينة الحديثة ، وهو الذى يضم القصر وسائر الكنائس الأثرية .



شريش . الكنيسة العظمى (الكولجياتا) وبرجها المنفصل



شريش . بعض أبراج القصر وأسواره



شريش . عقد عربى داخل القصر

٢١ — قادس

Cádiz

إن منطقة « الفرنتيره » La Frontera ، التى تمتد جنوبى شريش مما يلى شاطىء المحيط ، هى عبارة عن بسائط تتخللها التلال المنخفضة ، وتبدو هذه الظاهرة بوجه خاص على ضفتى نهر وادى لكّه . بيد أن هذه البسائط ليست وافرة الخصب ، ولم نر فيها أثراً لحدائق الفاكهة أوغابات الزيتون ، التى تكثر شمال هذه المنطقة . وأغلب ما تراه العين فيها شجيرات الحلفاء والحشائش البرية . وعند بلدة « الثغر الملكى » Puerto Real على مقربة من قادس ، تبدو أشجار الفاكهة والنخيل فى منطقة صغيرة ، ثم تليها منطقة كبيرة تغص بالمستنقعات والملاحات الكبيرة ، التى تتسرب إليها المياه من المحيط ، وتستمر كذلك حتى تقترب من قادس .

وقادس هى ثغر بحرى هام ، يقع على لسان ممتد فى مياه المحيط ، وله مرفأ بيضاوى كبير ترسو فيه بعض سفن الأسطول الإسبانى . هذا عدا ما يقصده من السفن التجارية . والمدينة مشرقة عليلة الهواء ، طويلة الرقعة ، تخترقها طائفة من الشوارع المتوازية الضيقة ، وبها عدة ميادين كبيرة ظليلة ، ويبلغ سكانها اليوم زهاء خمسة وسبعين ألف نسمة . ويبدو النخيل بكثرة فى شوارعها وميادينها ، فيسبغ عليها رواء وجمالا . والنخيل ظاهرة واضحة فى سائر مدن اسبانيا الجنوبية .

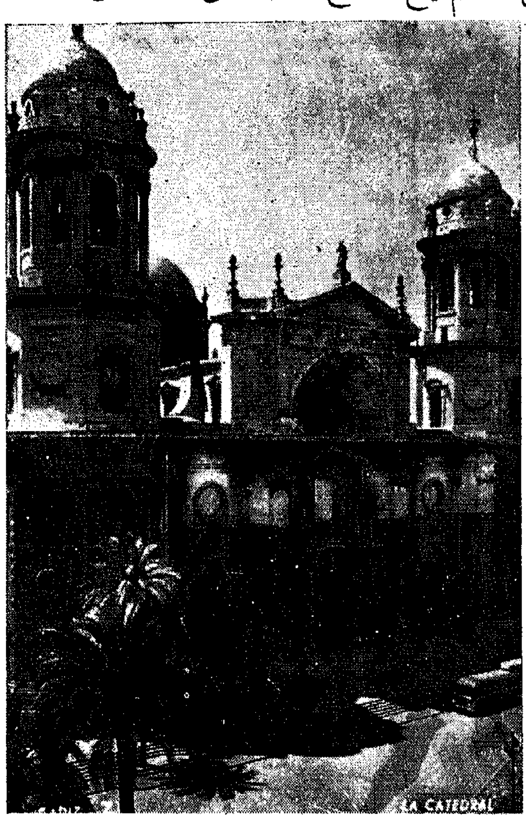
وتتشح قادس بثوب أوربى حديث محض ، ولا تكاد تبدو عليها أية لمحة من ملامح المدن الإسبانية الأخرى ذات الطابع الأندلسى ، إلا فيما يبدو فى بعض أحيائها الداخلية المتواضعة من ضيق الدروب والتوائها ، ومن مشارف منازلها الأندلسية واستواء سقوفها .

وتضم قادس على نمط باقى المدن الإسبانية ، عدة من الكنائس الجميلة ، وفى مقدمتها الكنيسة العظمى ، وهى تعتبر من حيث الحجم والفخامة من كنائس اسبانيا الكبرى . وقد أقيمت فى القرن السابع عشر على أنقاض الكتدرائية القديمة التى أنشأها الملك ألفونسو العاشر عقب افتتاحه للمدينة من المسلمين . وعلى هذا فمن المحقق أن تكون قائمة على موقع المسجد الجامع القديم وفقاً للقاعدة المأثورة ،

وهى تقع على مقربة من البحر وظهرها إليه . كذلك ترجع معظم كنائس قادس إلى قرن أو قرنين ليس غير .

كذلك تضم قادس عدة من الحصون ، وهى قائمة كلها فى ناحيتها الشرقية . وقيل لنا إن منها ما يرجع إلى العصر الأندلسى ، ولكنا لم نلحظ فيما شاهدناه منها ما يحمل على هذا الاعتقاد .

وهنالك أثر آخر ينسب أيضاً إلى أصل أندلسى ، وهو المسمى باب تيرا Puerta Tierra ، وهو صرح ضخم يقع خارج المدينة على مقربة من البحر . ويتكون من قاعدتين كبيرتين من الأبنية الحجرية ، إحداهما من ناحية البحر والأخرى قبالتها ، وبينهما عقدان كبيران منخفضان ، وكل منهما يستند إلى عقود ثلاثة ، وفى الوسط يقوم برج يبلغ ارتفاعه نحو اثنى عشر متراً . وليس فى هذا الصرح سواء من حيث الشكل أو الطراز ما يدلى بأصله الأندلسى ، وربما كان قد أقيم على أنقاض طلل يرجع إلى العصر الإسلامى ، أو على أنقاض جزء من السور القديم .



قادس . الكنيسة العظمى

ويوجد فى متحف قادس الأركيولوجى ، مجموعة من النقود الأندلسية ترجع إلى عصر الإمارة والخلافة الأموية ، وعصر الموحدين. كما أنه يضم عدة لوحات خشبية بها كتابات عربية حملت إليه من ثغر سبتة ، من أنقاض مسجدها القديم .

وقد سقطت قادس فى يد القشتاليين ، فى عهد الملك ألفونسو العاشر فى سنة ١٢٦٢ م.

الكتاب الرابع

نافار وقشتالة القديمة

تمهيـــــد

عنينا فيما تقدم ، من فصول هذا الكتاب ، بوصف القواعد والمدن التي لبثت عصوراً طويلة ، قواعد ومدناً أندلسية إسلامية حقة ، ووصف ما أبقت عليه يد الدهر بها من الصروح والآثار ، والذكريات الأندلسية الباقية .

وقد رأينا إلى جانب ذلك أن نعنى بوصف البقاع والمدن الإسبانية ، التي لم يطل أمد بقائها في ظل الحكم الإسلامي ، واستردها النصارى في عصر مبكر ، مثل بلد الوليد ، وآبلة ، وسمّورة ، وشقوبية ، أو التي لم يحكمها المسلمون ، وإنما كانت خلال العصور الأولى عرضة لفتوحهم ، أو مهبطا لحملاتهم الغازية ، ويدخل في ذلك عدة من المدن الإسبانية النصرانية المحضة ، التي يقترن اسمها مع ذلك بتاريخ الأندلس من آن لآخر .

وسنرى أنه يوجد في معظم هذه المدن — حتى النصرانية الخالصة منها — بعض الآثار والذكريات الأندلسية الهامة ، التي تحتفظ بها متاحفها ، أو التي تمثل في بعض الصروح الأثرية ، التي تأثرت بروح الفن الأندلسي وطرازه ، من قصور وكنائس وغيرها ، ولعب الفن المدجّن ، الأندلسي النصراني ، أكبر دور في تكييفها . وسنرى في بعض الأحيان أن هذه المدن الإسبانية النصرانية ، تملك من تراث الآثار الأندلسية ثروات رائعة ، لا تملك القواعد الأندلسية الذاهبة شيئاً منها .

وسوف نتبع في ذكر هذه المدن ، التقسيم الجغرافي الإسباني ، ونجمعها بحسب مواقعها في قطاعين : الأول ، نافار وقشتالة القديمة ، وهو هذا الكتاب الرابع ، الذي نفتتحه بهذه الكلمة ، والثاني ، هو ليون وجلّيقية والأستورياس .

١ – بنبلونة

Pamplona

بنبلونة هى عاصمة ولاية ناڤار أو نبرّة أو بلاد البشكنس ، كما تسمى فى التواريخ العربية . وكانت ناڤار منذ الفتح الإسلامى لإسبانيا ، من أشد الولايات الإسبانية مقاومة للمسلمين . ولما قامت مملكة ناڤار النصرانية فى تلك الجهة ، منذ أوائل القرن التاسع الميلادى ، غزاها المسلمون مراراً ، ودخلوا عاصمتها بنبلونة غير مرة فى القرنين التاسع والعاشر . ولكن هذه المملكة الصغيرة ، كانت دائماً تدافع عن استقلالها بمنتهى البسالة ، سواء ضد المسلمين أو ضد جيرانها من النصارى .

وبالرغم من أن ناڤار لم تخضع للحكم الإسلامى ، فانها قد تأثرت إلى حد كبير بمجاورتها للمسلمين ، ولاسيما عند ما كانت فى القرنين التاسع والعاشر ، ترتبط فى معظم الأحيان برباط التحالف والمصاهرة ، مع الثوار المسلمين فى الولايات الشمالية ، أمثال التجيبيين وبنى قسىّ وغيرهم .

وتقع بنبلونة على بعد ثلاثمائة وخمسين كيلومتراً من مدريد ، على الضفة اليمنى لأحد أفرع نهر إيبرو ، وهى مدينة جميلة ذات شوارع فسيحة مستقيمة ، وميادين شاسعة ، أهمها الميدان المسمى « ميدان أمير ڤيانا » **P. del Principe de Viana**، وميدان كاستيليا **P. de Castilla** ، وهو ميدان كبير مربع ذو عقود قوطية ، وبه عدة من المقاهى الكبيرة ، وتشرف عليه دار البلدية والمسرح ، ويتصل به شارع بنبلونة الفسيح المسمى « متنزه بلنسية » **Paseo de Valencia** ، وهو جميل تظلله الأشجار الباسقة . وهو ملتقى الجماهير ومتنزههم فى الأمسية الصافية . ومبانى بنبلونة جميلة عالية ، وهى على العموم من أكثر المدن الإسبانية بسمة وإشراقاً . ويبلغ سكانها اليوم سبعين ألف نسمة .

ويشتغل أهل بنبلونة بالزراعة والصناعة ، ومن منتجاتها الأقمشة والصابون والورق والحديد .

وبنبلونة مركز ثقافى هام ، وبها معهد دينى كبير ومدارس كثيرة . وبها مسرح كبير لمصارعة الثيران ، بنى كالمعتاد على الطراز العربى . وبها مسارح للعبة « البيلوت » **Pelota** التى يشتهر بها أهل ناڤار ، والتى يقال إنها من أصل أندلسى .

تحفـــة أندلسية

وليس فى ناقار آثار أندلسية لأنها لم تخضع لحكم المسلمين كما رأينا . ولكن كنيسة بنبلونة العظمى تحتفظ بتحفة أندلسية ذات أهمية فنية خاصة . وكانت هذه التحفة فى الواقع هى مقصدى الأول من زيارة بنبلونة .

وترجع كتدرائية بنبلونة إلى أواخر القرن الرابع عشر . أنشأها سانشو الثالث الملقب بسانشو النبيل فى سنة ١٣٩٧ م ، فوق أنقاض كنيسة رومانية قديمة ، لم يبق منها اليوم سوى ركن صغير من « المقدس » ، ودفن بها سانشو وزوجه ، ثم جددت فى القرن الثامن عشر ، وبنيت واجهتها الكبرى الحالية .

أما التحفة الأندلسية التى أشرنا إليها ، فهى عبارة عن صندوق خشبى جميل مطعم بالعاج ، يبلغ طوله نحو أربعين سنتيمتراً ، وارتفاعه عشرين ، وسطحه شبه منحرف مربع الجوانب ، وقد رسم على واجهته الظاهرة صورة شيخ وحوله طفلان ، وتحته وعلان صغيران . ورسم فى الناحية اليسرى صورة سيدتين ، وفى الوسط صورة ثلاثة أشخاص ينفخون فى المزمار .



بنبلونة : نموذج من صور الصندوق الأندلسى المحفوظ بالكنيسة العظمى

ونقشت حول الصندوق فى شريطه الأوسط هذه الكلمات بخط كوفى متداخل :

« بسم الله بركة من الله ، وغبطة وسرور وبلوغ أمل ، فى صالح عمل ، وانفساح أجل ، للحاجب سيف الدولة عبد الملك بن المنصور وفقه الله . مما أمر بعمله على يد الفتى نمير بن محمد العامرى مملوكة سنة خمس وتسعين وثلث مائة » .

وقد حفظت هذه التحفة الفنية الفريدة ، فى قاعة خاصة فى نهاية الكنيسة . وعلقت عليها للتعريف بها لوحة كتب عليها ما يأتى :

Arqueta Hispano Arabe considerada como
primera pieza artistica en España. Año 1005 A. D

ومعناه « صندوق إسبانى عربى يعتبر قطعة فنية من الطراز الأول فى اسبانيا سنة ١٠٠٥ م » .

وعلمت من القس الذى صحبنى أثناء الزيارة ، أن هذا الصندوق كان فى الأصل ، من الغنائم التى ظفر بها ملك ناڤار فى حروبه مع المسلمين ، ثم أودع فى دير من الأديار فى أراجون القديمة ، يسمى دير « ليرى » Leire . وفى القرن التاسع عشر أهدى آباء هذا الدير الصندوق إلى كتدرائية بنبلونة[1] .

ويوجد أيضاً إلى جانب هذا الصندوق ، قطعة صغيرة من القماش حجمها نحو ٢٥ س فى ٨ ، وقد نقشت عليها حروف عربية لاتقرأ . والظاهر أنها من صنع المدجنين .

* * *

وقد عثرت فى محفوظات بنبلونة بدار البلدية ، على وثيقة عربية وحيدة مؤرخة فى شهر ابريل سنة ٨٠١ هـ (١٣٩٨ م) ، وهى وثيقة تعامل وتعاقد ، تدلى بحقائق ذات شأن ، فى حياة المدجّنين فى مملكة أراجون .

---

(١) نشرنا صورة هذا الصندوق ضمن المجموعة الخاصة بصور الكتاب الرابع .

٢ — برغش

Burgos

لم تكن مدينة برجوس ، التى تسمى فى الجغرافية العربية « بُرْغُش » ، موجودة وقت الفتح الإسلامى لإسبانيا ، ولكنها أنشئت لأول مرة فى عهد ملك قشتالة ألفونسو الثالث (٨٦٦ — ٩١٠ م) ، وكان فى مكانها عدة قرى وضياع يغير عليها المسلمون من آن لآخر ، فأنشأ ألفونسو حولها سوراً وابتنى قلعة لحمايتها من غارات المسلمين ، وكان هذا مولد مدينة برجوس ، التى غدت فيما بعد عاصمة قشتالة القديمة ، ثم أصبحت اليوم من أجمل المدن الإسبانية التاريخية .

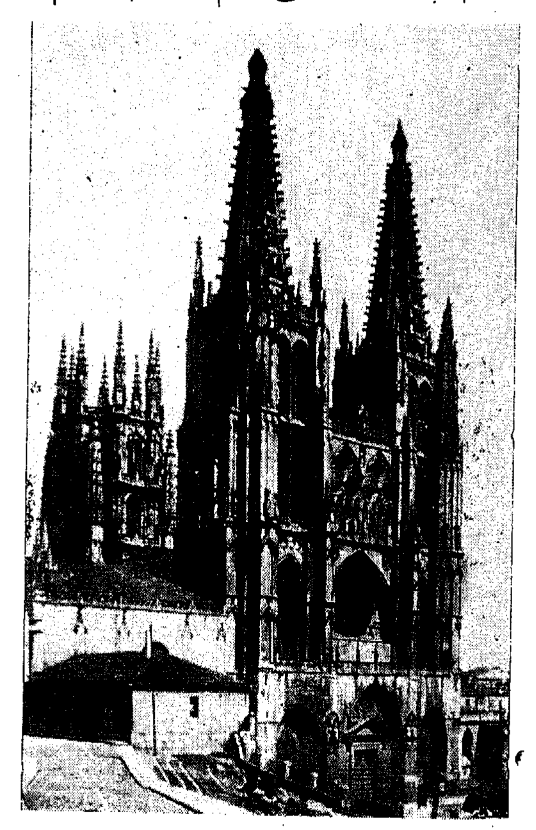
وتقع برجوس على منحدر مجموعة من التلال ، تمتد نحو السهل الأخضر ، ويخترقها من نهايتها الجنوبية نهر « ارلانتون » ، أحد فروع نهر دويره (دورو) . وهى مدينة كبيرة فخمة تحتفظ بكثير من طابعها الأثرى ، وتخترقها عدة من الشوارع الفسيحة ، أطولها وأجملها شارعها المحاذى للنهر ، والمسمى « متنزه الجزيرة » Paseo de la Isla ، وهو شارع عريض تظلله الأشجار الباسقة ، وتمتد فى وسطه الحدائق الغناء . وميدانها الكبير المسمى Plaza Mayor ، يقع وسطها وتظلله عقود قوطية ، ويقع على مقربة منه ميدان الكنيسة العظمى ، ويليه فى الأهمية ميدان سان دومنجو كثمان . وفى برجوس مبان كثيرة فخمة ، وعدة كنائس وأديرة وقصور تاريخية . والحركة فيها شديدة متواصلة . ولكن أحياءها القديمة ذات شوارع ودروب ضيقة كباقى المدن القشتالية . وهى على العموم مدينة جميلة أخاذة ، ولكنها ليست مشرقة مثل بنبلونة .

ويبلغ سكان برجوس وفق إحصاء سنة ١٩٤٧ ، ٧٨,٩٠٠ نسمة .

وإذا لم تك ثمة فى برجوس آثار أندلسية مباشرة ، لأنها لم تخضع لحكم المسلمين ، فإنها تحتوى مع ذلك على بعض الآثار والتحف الهامة ، التى تتعلق بتاريخ الأندلس ، ومن ثم كان مقصدنا إليها .

ولنبدأ بذكر كنيستها العظمى (الكتدرائية) ، وهى من أفخم وأعظم كنائس اسبانيا . ويرجع إنشاؤها إلى سنة ١٢٢١ م ، فى عصر فردناندو الثالث ملك قشتالة ،

واستمر البناء فيها حتى سنة ١٥٦٧ م . وهى بناء رائع فخم ، ويعتبر أعظم أثر على الطراز القوطى فى اسبانيا كلها ، وهى تقع فى وسط المدينــة ، وتطل عليها فى عظمة وجــلال ، ويرى جمالها وفنها البديع عن بعد . وفى أحدأجنحتها توجد قاعة للكنوز ، تغص بالصلبان والآنيةوالأيقونات الذهبية ، وعلى جدرانها عــدد من بسط جوبلان الفاخرة تمثل مناظر دينية بديعة .



برغش . الكنيسة العظمى

ويوجدتحت قبتها العظمى أثر تخليدى للسيد الكمبيادور El Cid Campeador ، وزوجه خمينا . وهذا الأثر عبارة عن لوحة رخاميــة كبيرة سوداء طولها ثلاثة أمتار وعرضها متران ، وقد نقش عليها ما يأتى باللاتينية والإسبانية :

Roderigus Didaci Campidoctor
MXCIX Anno Valentiae Mortuus
A todos alcanca Odora
Por el que en Buen or nacio
+
Eximina Uxoreius
Didaci Comitis Oveensis
Regali Genere Nata

والسيد الكمبيادور (وبالعربية الكنبيطور) هو ردريجو دى بيڤار ، الفارس القشتالى الشهير ، وأصله من مدينة برجوس ، وقد حارب المسلمين فى أواخر حياته واستطاع أن يفتتح بلنسية فى سنة ١٠٩٤ م ، وأن يحكمها بضعة أعوام ، ثم توفى بها

سنة ١٠٩٩ م ، وهو يدافع عنها ضد المرابطين حينما حاولوا استردادها ، ودافعت عنها من بعده زوجه خمينا دى أوڤيدو مدى عامين ، ثم غادرت المدينة حاملة رفات زوجها ، واسترد المرابطون المدينة من النصارى فى سنة ١١٠٢ م[1] .

وكذلك يوجد فى برجوس أثر آخر للسيد ، يعين مكان المنزل الذى كانت تقيم فيه أسرته ، وهو عبارة عن ثلاث لوحات قائمة فوق قاعدة ، وقد كتب على إحدى اللوحات بالإسبانية « أن السيد ولد فى سنة ١٠٢٦ م ، وتوفى فى بلنسية . وأن هذا الأثر قد عمل فى سنة ١٧٨٤ فى عهد الملك كارلوس الثالث » . ويسمى هذا الأثر « موقع منزل السيد » Solar del Cid

وعلى مقربة من هذا الأثر الذى يقع فى أطراف برجوس ، يوجد باب على الطراز العربى ذو عقود ثلاثة ، هو باب سان مرتين Arco de San Martin

الدير الملكى

وتوجد فى الدير الملكى المسمى : Real Monasterio de las Huelgas تحف أثرية أندلسية تثير ذكريات محزنة .

ويقع هذا الدير فى مشارف برجوس على مقربة من « متنزه الجزيرة » ، على قيد نحو كيلو مترين من المدينة ، وهو بناء حصين يرجع إلى القرن الثانى عشر ، وقد بنى ليكون مصيفاً لملوك قشتالة ، ثم حول بعد ذلك إلى دير وضريح ملكى . وفى فنائه الكبير ، توجد إلى جانب البناء الرئيسى واجهة من العقود العربية ، ومنها عقد على جانبه عدة من العمد يضارع عقود المسجد ، وقد نقشت عليها نقوش مدجنية لاتقرأ . وكان هذا الدير قبل إنشاء قصر الإسكوريال ومدفنه الملكى فى القرن السادس عشر ، يستعمل مدفناً لملوك قشتالة ، وتوجد بالفعل فى أروقته عدة توابيت حجرية ، مدفون بها عدة من الملوك والأمراء الإسبان .

ويبدو أثر الفن الأندلسى والفن المدجّنى ، فى أبنية الدير وزخارفه بوضوح ، فقد صنعت جوانب صحنه الداخلى من عقود عربية ، وفى سقف أحد أروقته الداخلية نقوش مدجنية ، تتخللها كتابات كوفية ونقوش عربية ، وفى قبة هيكله الرئيسى توجد زخارف وكتابات عربية ، استطعنا أن نقرأ منها « بسم الله » . والظاهر أن العرفاء والصناع المدجنين ، كانوا ينقلون رسوم الآيات القرآنية

---

(١) ويوجد قبر السيد بدير سان بيدرو ببلدة كاردنيا القريبة من برجوس .

والعبارات العربية ، دون أن يفقهوا شيئاً من معانيها ، وعلى أنها رسوم وزخارف فقط . ومن ثم فإنا نجد فى كثير من الكنائس والأديار الإسبانية التى يغلب عليها الفن المدجنى ، بعض الآيات القرآنية ، التى أدرجت فى نقوشها بصورة مشوهة .

ومما يلفت النظر أن باب المصلى ، قد صنع على طراز عربى مدهش ، وزين بمقرنصات خشبية على شكل نجوم داخل حظائر مسبعة الأضلاع . ويرى الأستاذ جومث مورينو أنه يرجع إلى القرن الحادى عشر أو إلى أوائل القرن الثانى عشر ، وأنه أندلسى الأصل والصنعة ، وربما أخذ من مقصورة أو منبر أحد المساجد ، ونقل إلى قشتالة كغنيمة ثمينة ، ثم أودعه ألفونسو الثامن ديره الذى أنشأه[1]

برغش . الدير الملكى وعقوده الخارجية

على أن أهم ما يسترعى النظر بين محتويات هذا الدير ، هو العلم الإسلامى الكبير الذى علق فى واجهة إحدى قاعاته الداخلية ، وكتب تحته للتعريف مايأتى :

"Trofeo conquistado al enemigo en la Batalla de las Navas de Tolosa"

ومعناه « غنيمة انتزعت من العدو فى موقعة هضاب تولوسة » .

والموقعة المشار إليها فى هذا التعريف ، هى الموقعة الشهيرة التى تعرف فى

---

(١) G. Moreno : El Arte Arabe-Espanol hasta los Almohades (Ars. Hispaniae, Vol. III) p. 278.

التواريخ الإسلامية بموقعة العُقاب أو حصن العقاب ، والتى وقعت فى سنة ٦٠٩ هـ (١٢١٢ م) بين الموحدين ، وجيوش اسبانيا النصرانية المتحدة بقيادة ألفونسو الثامن ، فى هضاب تولوسه على مقربة من بياسة ، وهزم فيها الموحدون هزيمة شنيعة .

أما هذا العلم الذى كان بين غنائم النصارى فى الموقعة ، فهو عبارة عن سجادة كبيرة طولها ٣٫٣٠ متراً ، وعرضها ٢٫٢٠ متراً ، وبها فى الوسط دائرة كبيرة صفراء ، يحيط بها مربع ذو مقاطع أربعة . وقد ملئت الدائرة والمربع بنقوش عربية جميلة . ويحيط بهذا المربع من الجوانب الأربعة ، أحزمة بُنية ، نقشت عليها آيات قرآنية بخط أزرق ، وفى ذيلها دوائر نقشت فيها أدعية مختلفة .

وقد كتب فى أعلى العلم فى شريط بنى بالأزرق ما يأتى :

« أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله » .

وكتب تحته فى الشريط الذى فوق المربع ما يأتى :

« يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم » .

وكتب فى الشريط الذى على يمين المربع ما يأتى :

« تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم » .

وفى الشريط الذى على يساره تكملة الآية :

« ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات » .

وفى الشريط الذى فى أسفله هذه التكملة :

« تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك . . » .

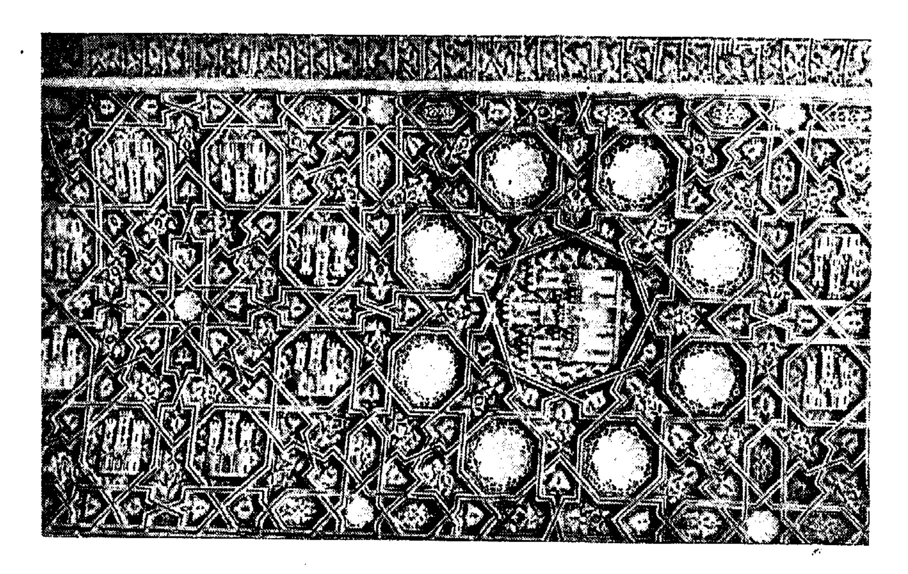
وأما فى دوائر الذيل فقد نقشت الأدعية الآتية على التوالى ، بخطوط زرقاء على رقعة بيضاء :

« العافية الباقية . الغبطة المتصلة . السلامة الدائمة . العافية البركة . العافية الباقية . السلامة الدائمة . العافية الباقية »[1] .

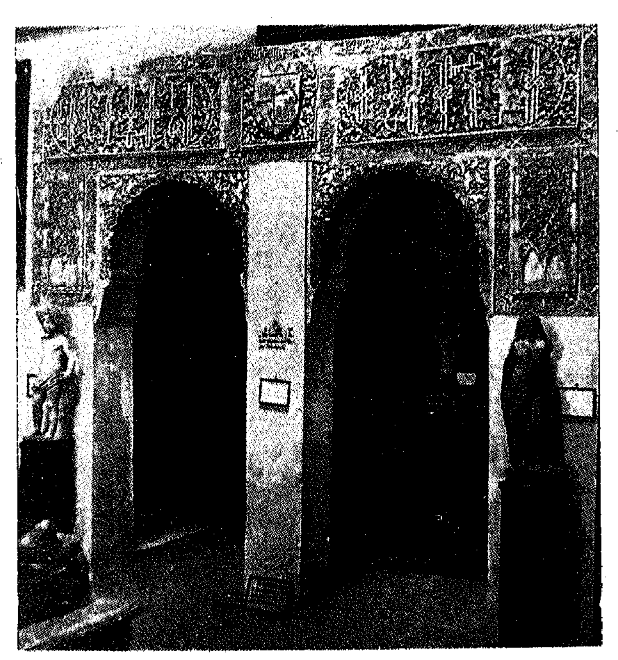
وتوجد فى أحد أروقة الدير صورة زيتية كبيرة ، تمثل موقعة العقاب المذكورة وهزيمة الموحدين فيها .

---

(١) وقفنا طويلا أمام هـذه التحفة الأندلسية المحزنة نقرأ خطوطها المغربية بصعوبة . وراجع فى وصفها ونقوشها أيضاً : R. Amader de los Rios : Trofeos militares de la Reconquista الذى سبقت الإشارة إليه . وقد نشرنا صورة هذا العلم فى المجموعة الخاصة بصور الكتاب الرابع .



برغش (الدير الملكى) . زخارف مدجنية من المقرنصات الخشبية فى سقف البهو الرئيسى



متحف برغش . عقد من الرخام ذو نقوش مدجنية

وقد علق إلى جانبي هذا العلم الموحدى الكبير ، علمان تركيان صغيران ، أخذا من الترك فى معركة ليبانتو البحرية الشهيرة ، التى وقعت فى المياه اليونانية فى سنة ١٥٧١ م ، وهزمت فيها الأساطيل التركية ، أمام الأساطيل النصرانية المتحدة .

ويوجد فى متحف الدير قطعة من القماش المغطى بالحرير ، وعليها كتابة عربية ظاهر فيها الكلمات الآتية :

« لك والسلام الأعلى » ، وعليها تاريخ مارس سنة ١٣٣٣ م .

فى متحف برجوس

وفى متحف مدينة برجوس عدة تحف أندلسة أثرية ، أولها صندوق من الخشب المطعم على مثل صندوق كتدرائية بنبلونة ، طوله ٣٠ سنتيمتراً وعرضه ١٥ ، وغطاؤه شبه منحرف ، وعليه كتابة عربية من الجانبين القصيرين . وقد جاء فى دليل هذا المتحف أنه صنع فى قونقة فى سنة ٤١٧ هـ (١٠٢٦ م) . وذكر المستشرق أمادور دى لوس ريوس فى كتابه الذى سبقت الإشارة إليه أن المنقوش على الصندوق هو ما يأتى :

« باقية لصاحبه أطال الله بقاءه مما عمل بمدينة قو (نكه) (سنة) سبع عشر وأربع مائة عمل محمد ابن زيان عبده أعزه الله » .

لكنا بالتأمل الدقيق فى كتابات هذا الصندوق ، لم نستطع أن نقرأ فيها شيئاً من العبارات المتقدمة .

وقد نقشت على الصندوق ، صور وعول وجياد وسباع ، وفى أحد جانبيه القصيرين صور نساء نصرانيات ، رسمت فيما يبدو بريشة بعض المصورين النصارى .

ويرى المستشرق أمادور دى لوس ريوس ، أن هذا الصندوق ، وقد أتى به فى الأصل من أحد الأديار ، إنما هو تحفة زائفة(١) .

والأثر الأندلسى الثانى فى متحف برجوس ، عبارة عن صندوق خشبى به من الناحيتين سلاطين من الخزف السمنى ، فى كل ناحية خمس منها ، وقد جاء

---

(١) Amador de los Rios : Ibid, p. 13

فى الدليل ، أنها صنعت برسم « عبد الرحمن أمير المؤمنين » . بيد أننا لم نجد عليها أثراً لأية عبارة مكتوبة . وقد يرجع ذلك إلى أن ما دونه المستشرق أمادور دى لوس ريوس عن هذه الآثار فى دليل المتحف وفى كتابه ، قد دُون منذ أكثر من ستين عاماً ، طرأت خلالها على هذه التحف بعض التغييرات .

ويوجد أيضاً فى متحف برجوس بعض عقود رخامية من صنع المدجنين عليها نقوش عربية غير واضحة الكلمات ، وإنما هى رسوم منقولة فقط .

٣ - بلد الوليـــــد

Valladolid

كانت بلد الوليد أو بالإسبانية « ڤايّادوليد » ، من القواعد الأندلسية الشمالية التى استردها النصارى منذ أوائل القرن العاشر ، ولم تمكث تحت حكم المسلمين أكثر من قرنين .

واسمها ينم عن أصله الأندلسى ، ولكن ليس من المعروف إن كان لها قبل الفتح تاريخ ، يرجع بها إلى العهد القوطى أو الرومانى ، أم أنها أنشئت عند الفتح على أطلال محلة أو قاعدة قديمة ، وأسبغ عليها ذلك الاسم العربى « بلد الوليد » الذى حرفه الإسبان إلى وضعه الحالى « ڤايّادوليد » .

وعلى أى حال فإن بلد الوليد ، لم تلعب دوراً كبيراً فى تاريخ الأندلس المسلمة . وليست بها اليوم أية آثار أندلسية .

وبلد الوليد مدينة مشرقة من أجمل المدن الإسبانية ، وهى اليوم تحمل طابعاً أوربياً لامراء فيه . وبها شوارع عريضة جميلة ، ومتنزهات غناء ، وميادين شاسعة وأعظم شوارعها ، هو « متنزه ثورليا » Paseo Zorrilla ، المسمى باسم شاعرها الكبير « خوسية ثورليا » ، وشارعها التجارى الزاخر شارع سانتياجو . وأجمل ميادينها « ميدان ثورليا » والميدان الكبير Plaza Mayor ، وهو ميدان تاريخى تشرف عليه دار البلدية ، وعدة صروح تاريخية قديمة .

أما من الناحية الأثرية ، فإنه توجد فى بلد الوليد عدة من الكنائس الأثرية القديمة ، وفى مقدمتها الكتدرائية التى أنشئت فى أواخر القرن السادس عشر ، وبناء الجامعة التى ترجع إلى القرن الثالث عشر ، ومتحف النحت الوطنى ، الذى يغص بالتماثيل والصور الدينية ، وهو يقوم فى صرح قديم كان فى الأصل معهداً دينياً ، وفى هذا الصرح بالأخص يبدو أثر الفن الأندلسى واضحاً . فهو يشتمل على ساحة سفلى أقيمت على جوانبها عقود عربية ، وتشرف عليها من الدور الأعلى أروقة ذات عقود مدجّنية زينت بزخارف دينية دقيقة ، وبعض أسقف أبهاء المتحف ، مزينة بزخارف مدجنية مذهبة ، وكذلك سقف السلم العربى العريض

مزخرف على الطراز المدجنى . وبالجملة فان هذا البناء ، ينم بعقوده وزخارفه الجميلة عن طابع أندلسى واضح .

وإذا لم يكن ثمة فى بلد الوليد ما نصفه من الآثار الأندلسية ، فإنها تحتفظ بأثرين قوميين جليلين يتصلان بعالم الأدب .

أولهما ، المنزل الذى عاش فيه كاتب اسبانيا الأشهر ميجل ثرڤانتس ، مؤلف « القصة الخالدة « دون كيخوتى » Don Quijote حيناً من الدهر ، وهو عبارة عن منزل صغير متواضع ذى طابقين ، يقع فى درب صغير مغلق يسمى شارع راسترو Calle Rastro ، ونوافذه مشبكة بالقضبان العريضة . ويوجد فى الطابق الأول منه ، بعض مقاعد وموائد من طراز العصر (أوائل القرن السابع عشر) وورقة مخطوطة بخط ثرڤانتس وتوقيعه ، وخطاب موجه منه إلى الملك فيليب الثالث . وكذلك صورة فتوغرافية مأخوذة عن الطبعة الأولى من قصة « دون كيخوتى » ، التى صدرت لأول مرة فى سنة ١٦٠٥ م

والثانى ، هو المنزل الذى ولد فيه الشاعر خوسيه ثورليا J. Zorilla ، وهو من أعظم شعراء اسبانيا فى العصر الحديث ، وهو يقع فى درب صغير على مقربة من كنيسة سان بابلو فى نهاية المدينة ، وقد كتب عليه ما يأتى تحت صورة من الجص للشاعر « هنا ولد الشاعر الكبير دون خوسيه ثورليا فى سنة ١٨١٧ » . ويحتوى المنزل على متحف للشاعر ، حفظت به بعض الأثاث والرياش وبعض مخطوطاته ، وتوجد به قاعة عمله ومكتبته .

وقد لعبت بلد الوليد دوراً ملحوظاً فى تاريخ قشتالة الحديث ، وكانت منزل البلاط فى فترات كثيرة . وفى أوائل القرن الخامس عشر ، جعلت عاصمة مملكة قشتالة ، وفيها عقد زواج فرديناند وإيسابيلا الذى أدى إلى اتحاد اسبانيا النصرانية (١٤٦٩ م) . وفيها توفى كرستوف كولومبوس مكتشف العالم الجديد (١٥٠٦ م) ، وولد فيليب الثانى (١٥٢٧ م) .

حصن شنت منكش Simancas

على أنه إذا كانت بلد الوليد تخلو من الآثار الأندلسية ، فإنه توجد على مقربة منها بلدة صغيرة ، تضم أثراً أندلسياً قديماً ، وله صلة وثيقة بالتاريخ الأندلسى ، ثم بتاريخ اسبانيا الحديث .

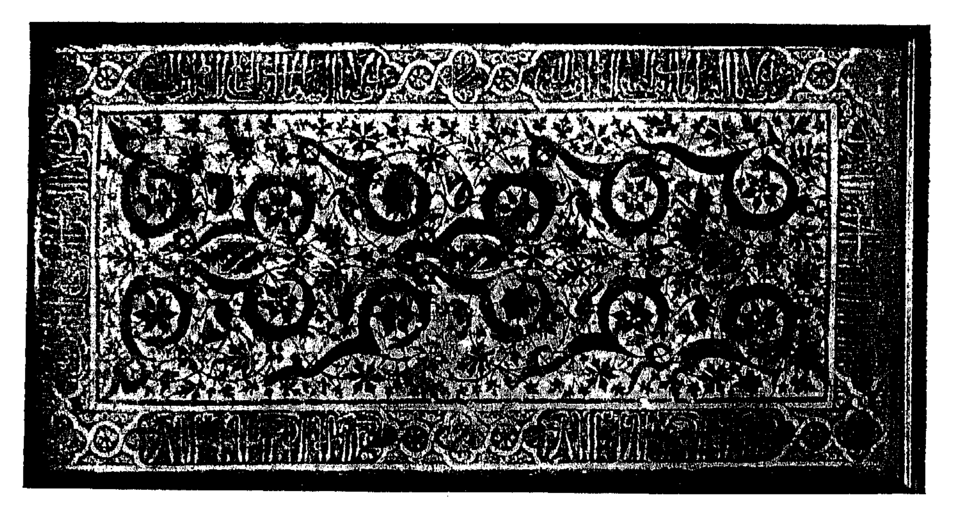
تلك هى بلدة شنت منكش أو شنت مانكش الصغيرة ، وهى بالإسبانية بلدة Simancas ، التى تضم الحصن الشهير الذى يحمل نفس هذا الاسم .

وتقع شنت منكش أو « سيمانقا » جنوبى غربى بلد الوليد ، على قيد عشرة كيلومترات منها ، فى واد عميق أخضر يقع على ضفة نهر بسوجرا أحد أفرع نهر دويرة . وهى عبارة عن محلة صغيرة تحتوى على عدد قليل من المساكن . بيد أنها تشتهر بالأخص بحصنها الشهير ، الذى يقع فى وسطها فوق ربوة مرتفعة . ويرجع حصن شنت منكش أو حصن سيمانقا إلى القرن التاسع الميلادى ، وقد أنشأه المسلمون ، ولبث فى أيديهم إلى نحو منتصف القرن العاشر . وعلى مقربة من شنت منكش ، فيما بينها وبين سمّورة ، كان مسرح الموقعة الشهيرة التى وقعت بين عبد الرحمن الناصر ، وراميرو الثانى ملك ليون فى سنة ٩٣٩ م (٣٢٧ هـ) ، والتى هزم فيها المسلمون هزيمة شديدة ، وتعرف هذه الموقعة فى الرواية الإسلامية بموقعة الخندق Alhandega .

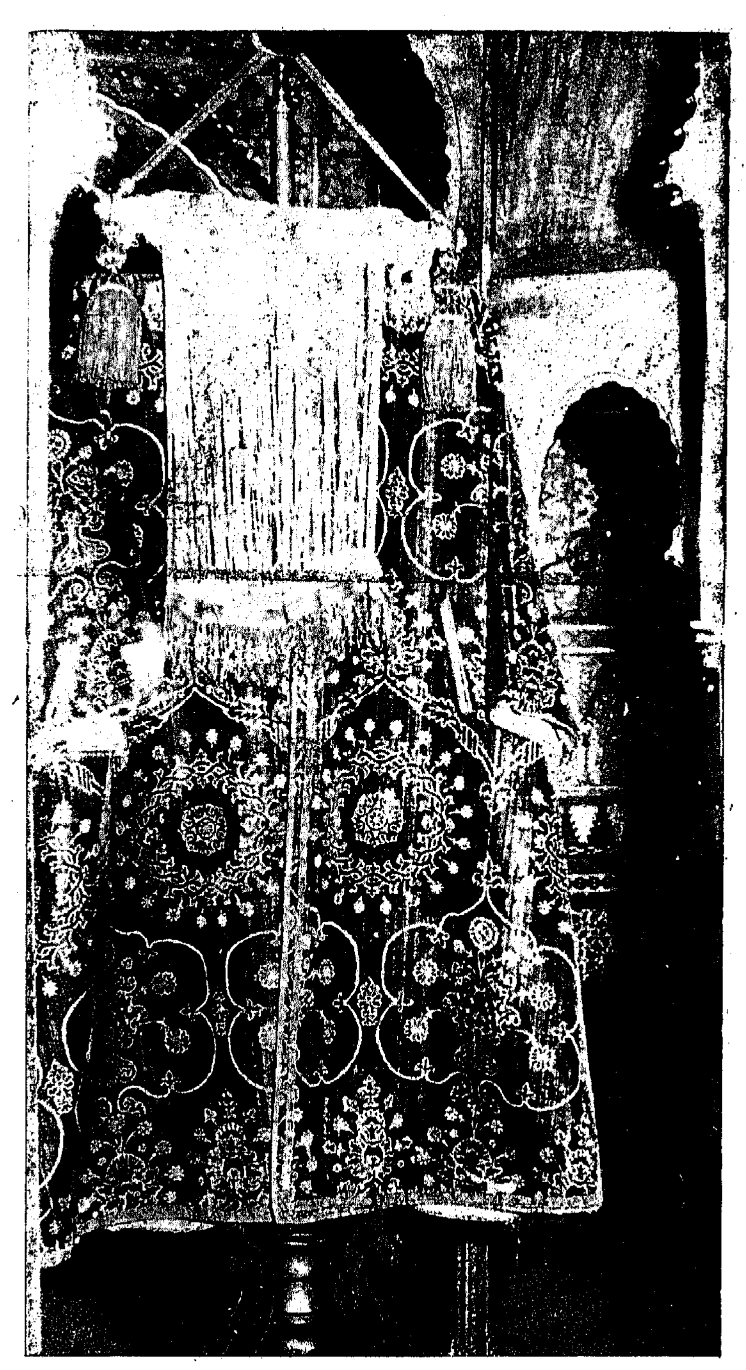
وقد توالت على حصن شنت منكش بعد وقوعه فى يد النصارى ، تغييرات وتعديلات كثيرة . وهو يبدو فى شكله الحالى ، قلعة حصينة بنيت من الصخر الصلد ، وبها عدة أبراج منيعة . وتحتوى على أربعة طوابق فى كل منها عدة غرف صخرية . وكان هذا الحصن يستعمل خلال العصور الوسطى سجناً من سجون الدولة ، ثم كان بعد ذلك من معاقل ديوان التحقيق (Inquisición) ، واستعمل منذ أوائل القرن السادس عشر داراً للمحفوظات الإسبانية . وهو مايزال إلى يومنا مستودع هذه المحفوظات الشهيرة ، التى تضم مجموعات عديدة ، من أهم وأنفس الوثائق ، التاريخية والدبلوماسية والقضائية . ومنها عدد من الوثائق الأندلسية والمغربية النادرة . وتشغل هذه المحفوظات الغنية أربعة وأربعين غرفة . ويطلق عليها اسم « دار المحفوظات العامة بسيمانقا Archivo general de Simancas » ، وهى تستقبل العلماء والباحثين من سائر أنحاء العالم . وقد أتيح لنا زيارتها والعمل فيها غير مرة ، لقينا خلالها من القائمين بأمرها ، أجمل ترحاب ومعاونة .



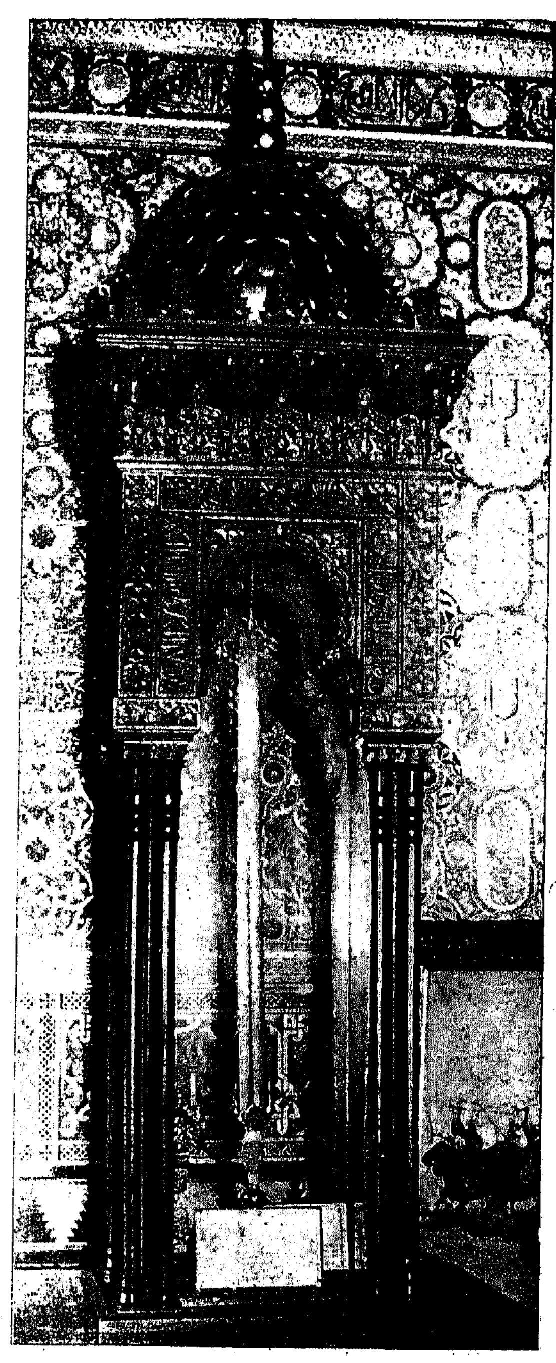
صندوق عاجي لعبد الملك المنصور (٣٩٥ ﻫ) محفوظ بكنيسة بنبلونة العظمى



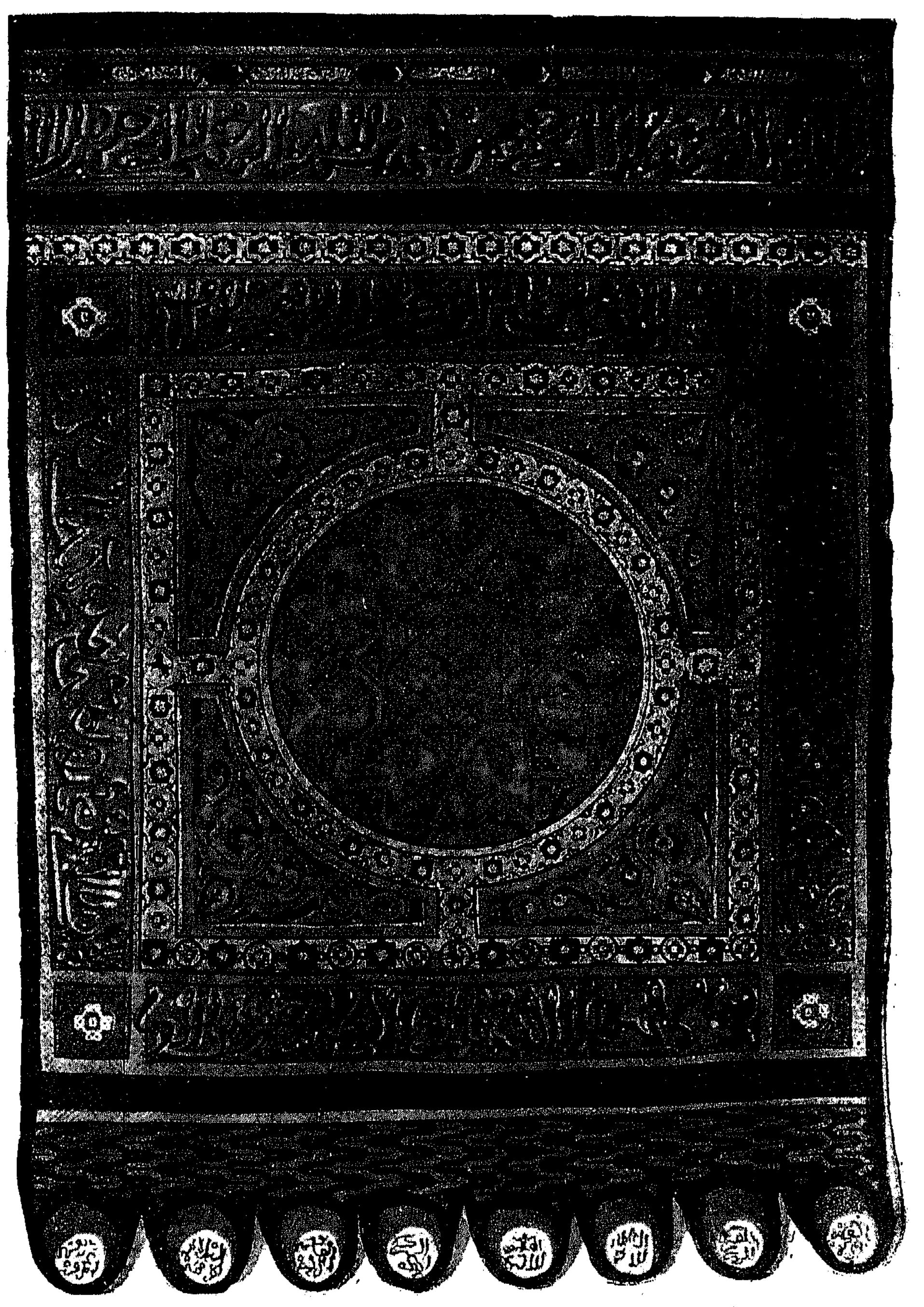
لوحة أندلسية من الخزف المذهب (الزليخ) ، محفوظة بمتحف بلنسية دى دون خوان بمدريد



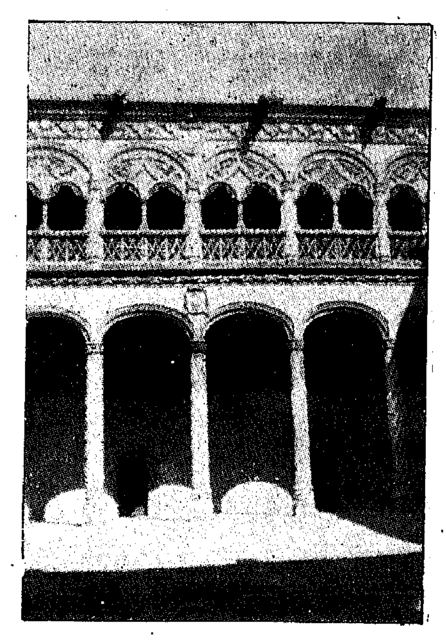
عباءة أبي عبد الله آخر ملوك الأندلس ، المحفوظة بمتحف مدريد الحربي



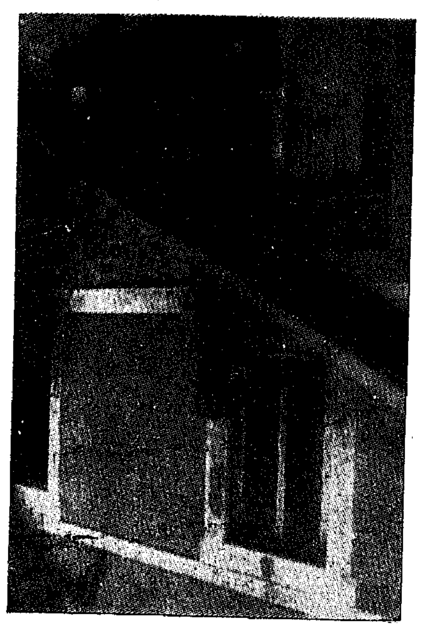
سيف علي العطار بطل لوشة ، المحفوظ بمتحف مدريد الحربي



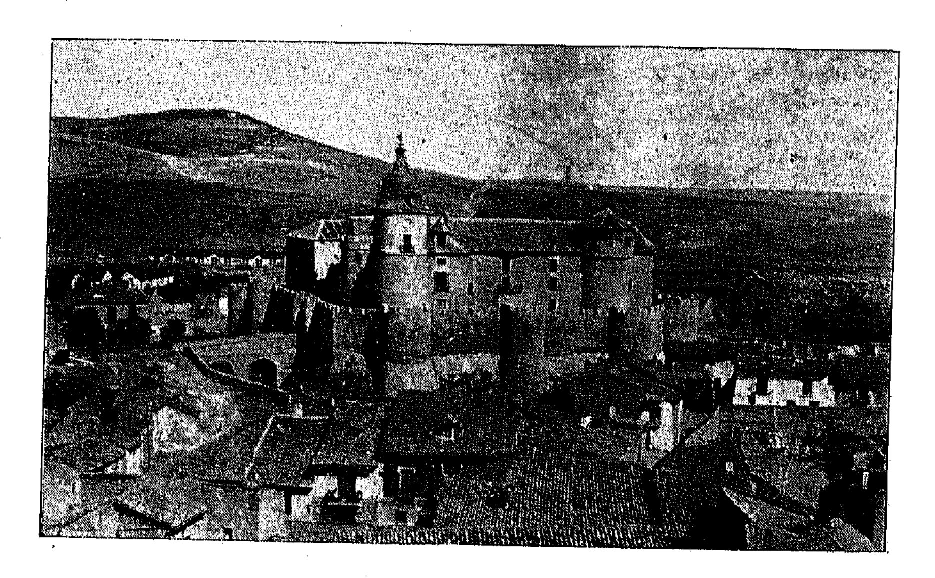
علم الموحدين الذى غنمه الإسبان فى موقعة العقاب (١٢١٢م) وهو محفوظ بالدير الملكى بمدينة برغش



بلد الوليد . عقود المتحف



بلد الوليد . واجهة منزل ثرڤانتس



شنت منكش (سيمانقا) . القلعة الأندلسية القديمة وهى اليوم دار المحفوظات الإسبانية العامة

٤ — شـــقوبية

Segovia

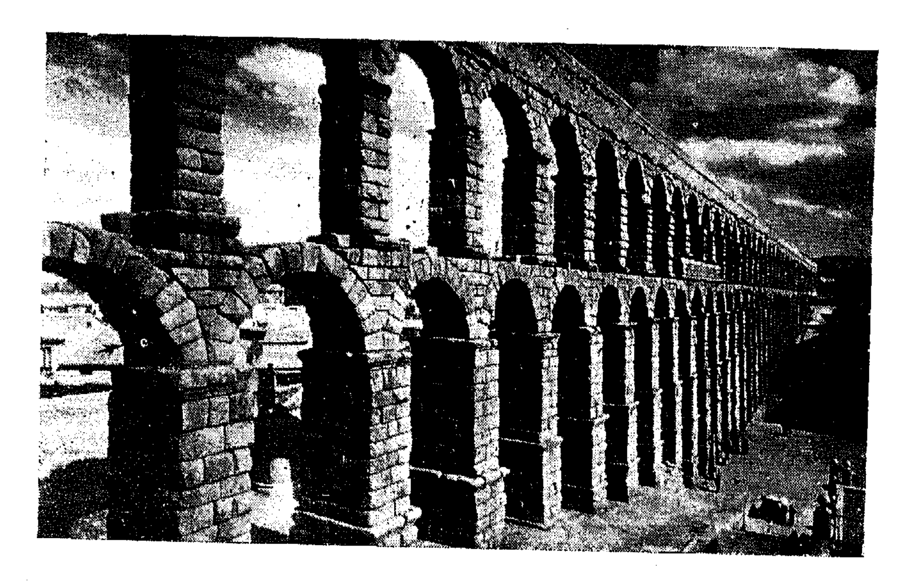
تعتبر شقوبية أو بالإسبانية سجوبية من مدن اسبانيا الأثرية العريقة .

والواقع أن شقوبية تبدو للسائح المتجول ، مدينة قديمة تحمل طابع العصور الوسطى ، بل العصور الغابرة ، ويكفى أن تلقى نظرة على قنطرتها الرومانية الهائلة القائمة فى وسطها ، لتدرك أنك فى مدينة يرجع تاريخها على الأقل إلى العصر الرومانى .

وهى تقع شمال غربى مدريد على قيد تسعين كيلومتراً منها ، فى سفح جبال وادى الرملة (جوادا راما) ، وتمتد أمامها بسائط خضراء يانعة ، تنتج مختلف المحاصيل ولاسيما الحبوب ، وتحف بها الجبال . وأهم صناعات شقوبية الدقيق والورق والخزف . ويبلغ سكانها زهاء خمسة وعشرين ألف نسمة . وهى هادئة الحركة ، يشقها من الوسط حتى ميدان القنطرة الرومانية شارع طويل ضيق ، ثم يمتد من هذا الميدان شارعها التجارى حتى ميدانها الرئيسى ، الذى تشرف عليه دار البلدية ، ويقع على مقربة من كنيستها العظمى . وشوارع شقوبية ودروبها صخرية منحدرة . ومنازلها عتيقة الطراز قاتمة اللون ، وكل مظاهرها تدلى بطابعها القديم .

وكانت شقوبية من أوائل المدن الأندلسية الشمالية التى استولى عليها النصارى . وقد سقطت فى أيديهم فى عصر عبد الرحمن الأموى حوالى سـنة ٧٥٧ م . واتخذت طابعها القشتالى فى عصر مبكر ، فهى فى الواقع من أعرق مدن قشتالة القديمة .

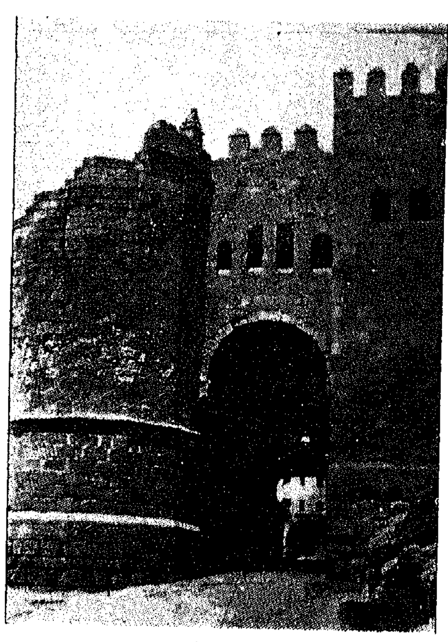
وبالرغم من أن شقوبية لم تمكث طويلا تحت حكم المسلمين ، فإنها مازالت تحتوى على بعض الآثار الأندلسية . وأهم هذه الآثار هى بقايا الأسوار العربية القديمة . التى مازالت قائمة إلى جانب القنطرة الرومانية تشرف عالية على الميدان ، وقد كادت تحجبها المنازل الحديثة الملاصقة لها . ويصعد إليها بواسطة سلم حجرى عريض .



شقوبية . القنطرة الرومانية الكبرى



شقوبية . بقية من الأسوار الأندلسية



شقوبية . عقد سان أندريس

وتمتد القنطرة الرومانية الشهيرة من عند بقية الأسوار العربية . وهى أثر هائل من أعظم آثار العصر القديم . وتمتد على ضلعين كبيرين يبلغ طولهما أكثر من كيلومتر ، ويتكون كل من الضلعين من عقود هائلة من الحجر الصلد ، تبدأ من الأسوار على عقدين فوق بعضهما يبلغ ارتفاعهما نحو ٣٥ متراً . ويستمر الصف مزدوجاً مدرجاً فى الانخفاض حتى ينتهى إلى عقد واحد . ثم يعود فى الضلع التالى فيبدأ عالياً بعقده الموحد ، ويتضاءل فى الارتفاع تدريجياً ، ويمتد على طول ستمائة متر تقريباً .

وقد شيدت هذه القنطرة العظيمة فى عصر الإمبراطور تراچان الرومانى ، فى القرن الأول بعد الميلاد ، وكانت تقوم بوظيفتها فى نقل ماء النهر (وهو نهر فريو فرع نهر دويرة) عبر الجبال إلى المدينة خلال مختلف العصور ، واستمرت تقوم بمهمتها إلى أواخر القرن الماضى . ولكنها اليوم تغدو أثراً مهجوراً لا عمل له.

وتقع الكنيسة العظمى أو الكتدرائية ، فوق صخرة عالية على مقربة من الميدان الكبير ، وتمتد هذه الصخرة منحدرة حتى موقع « القصر » . وكتدرائية شقوبية ضخمة رائعة من الداخل . وقد بنيت فى أواخر القرن السادس عشر على الطراز القوطى . ويمتد « مقدسها » خلال رواقين كبيرين . وبها معرض للمخطوطات المقدسة من الأناجيل والأناشيد الكنسية ، وكذلك تعرض بعض الوثائق القشتالية فى بهو المحفوظات . وبها متحف يقدم طائفة من التحف الدينية المذهبة والصور التاريخية ، ومجموعة من السجاد الفاخر من صنع جوبلان ، وقد صور عليه تاريخ ملكة تدمر نقلا عن المصور « روبنس » .

وقد لفت نظرنا فى هذا المتحف قطعة رخامية ، هى عبارة عن رأس عمود مزخرف مقرنص وعليه كتابة عربية قرأنا منها :

« بسم الله والحمد لله

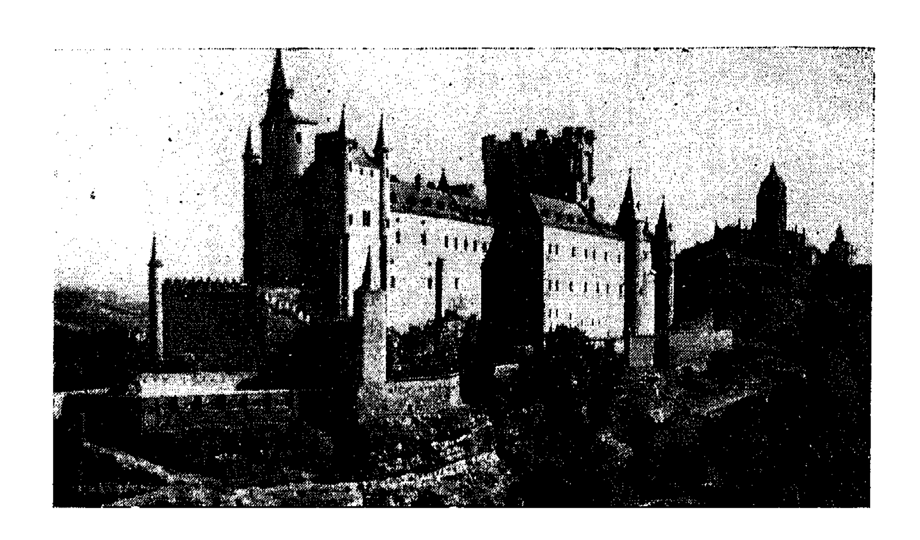
نعمة شاملة

أطال الله بقاه مما أمر بعمله . .

سنة تسع وأربعين وثلثمائة والحمد لله ».

ويفضى من الكتدرائية إلى « القصر » طريق صخرى ضيق منحدر . ويقع القصر Alcázar فوق صخرة وعرة تجثم فى أعماق هاوية مخيفة ، وهو يتخذ شكل

قلعة منيعة ذات برج ضخم ، يبلغ ارتفاعه منذ مرساه فى الهاوية إلى قمته نحو مائة متر . ولابد أنه يمت بصلة ما إلى صرح أندلسى قديم مثل القصبة أو القصر إذا اعتبرنا دلالة الإسم . ولعله قد بنى فوق أنقاض هذا الصرح الأندلسى القديم أو فوق موقعه . والمعروف من تاريخه أنه بنى فى القرن الثالث عشر ، وجدد فى القرن الرابع عشر ، وكان من الصروح الملكية القديمة ، التى كانت تستعمل للإقامة المؤقتة ، ويعقد به البلاط من آن لآخر ، وهو يحتوى بالفعل على بهو ملكى وقاعة للعرش ، ومما يلفت النظر أن قاعة العرش لها سقف عربى ، بزخارف مقرنصة على شكل قبة عربية ، تحفها نقوش مدجنية ، والمقول أنها صنعت على



شقوبية . منظر عام للقصر والربوة القائم عليها

مثل زخارف قصر الجعفرية بسرقسطة ، وقد زينت أبهاء « القصر » بطائفة من الصور التاريخية .

ويقع على مقربة من الكنيسة العظمى فى أسفل الصخرة ، عقد قديم منيع ذو طراز عربى ، يسمى باب سان أندريس ، وإلى جانبه الأيمن بقية من أسوار قديمة . بيد أننا لم نستطع أن نقف على العصر الذى بنى فيه ، ولم نعرف إن كان يرجع إلى العصر الأندلسى ، أم أنه من إنشاء العصر القشتالى .

وفى شقوبية ساحة لمصارعة الثيران .

٥ — آبــــلة

Avila

كانت آبلة ، مثل شقوبية ، من أوائل المدن الأندلسية التى استردها النصارى. وكان ذلك فى عهد عبد الرحمن الأموى حول سنة ٧٥٧ م .

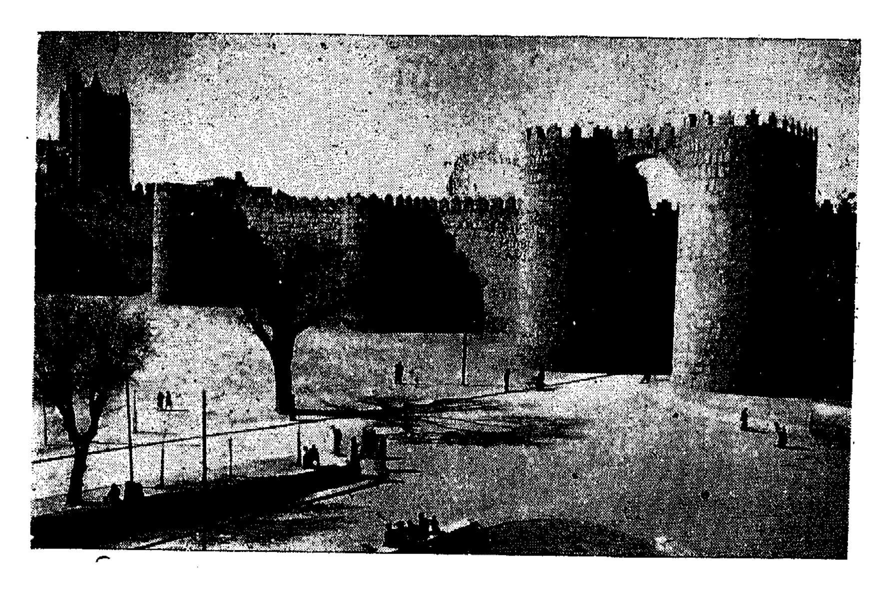
وهى مدينة صغيرة تقع فى شمال غربى مدريد ، على قيد ثمانين كيلومتراً ، وبينها وبين شقوبية مسافة صغيرة ، ويربطها بمدريد قطار كهربائى . ويبلغ سكانها خمسة عشر ألف نسمة .

وآبلة ضيقة الرقعة ، يشقها شارع طويل يبلغ نحو كيلو مترين . وهى مدينة هادئة جميلة المظهر ، وبها أسواق حسنة . وأعظم آثارها الظاهرة هى بقية أسوارها الضخمة التى مازالت تحيط بقسمها الغربى ، وهى أسوار منيعة عالية يبلغ طولها نحو نصف كيلومتر ، وبها عدد كبير من الأبراج ، وعدة أبواب ما زالت كلها فى حالة جيدة . ويبدو من منظر هذه الأسوار ، وطرازها أنها ترجع إلى العصر الرومانى ، ولكن يبدو كذلك فى كثير من أجزائها ، أن العرب قاموا بإصلاحها والزيادة فيها .

وفى آبلة عدة كنائس أثرية فى مقدمتها الكنيسة العظمى ، وهى بناء ضخم أقيم على الطراز القوطى ، ولها واجهة فخمة ، وبها من الداخل زخارف وهياكل بديعة . ويرجع إنشاؤها إلى القرن الثالث عشر . وتليها فى الأهمية كنيسة سان بثنتى ، وهى أيضاً جميلة فخمة وبها متحف صغير .

ومن آثار آبلة الأندلسية القصر Alcázar ، وهو عبارة عن حصن قديم حول منذ عهد بعيد إلى ثكنة عسكرية .

وهنالك رأى فيما يتعلق بمسجد آبلة القديم، وهو أن موقعه لم يُشغل ببناء الكنيسة العظمى وفقاً لسياسة اسبانيا النصرانية ،التى اتبعتها فى سائر مدن الأندلس، ولكن ظهر من البحوث الحديثة أن موقع هذا المسجد ، يقوم اليوم مكانه دير سانتا ماريا دى جراثيا Monasterio de Sta. Maria de Gracia ، الذى يشغله الراهبات الأوغسطينيات ، يدل على ذلك كتابة وجدت على قطعة من الخشب،



آبلة . جانب من الأسوار الرومانية وقد ظهرت فى نهايته الكنيسة العظمى

وكذلك مذكرة قديمة كتبها أحد رؤساء هذا الدير فى القرن السابع عشر . بيد أنه من الصعب أن نعرف متى كان هذا المسجد قائماً ومتى هدم ، إذ أنه من أقدم المساجد الأندلسية[1] .

---

(١) يراجع فى ذلك بحث المستشرق F. Gonzalez عنوانه « مسجد آبلة القديم » Antigua Mezquita de Avila منشور فى مجلة أكاديمية التاريخ الملكية Boletin de la Real Academia de la Historia (T. XIV, 1889).

٦ – وادى الحجارة

Guadalajara

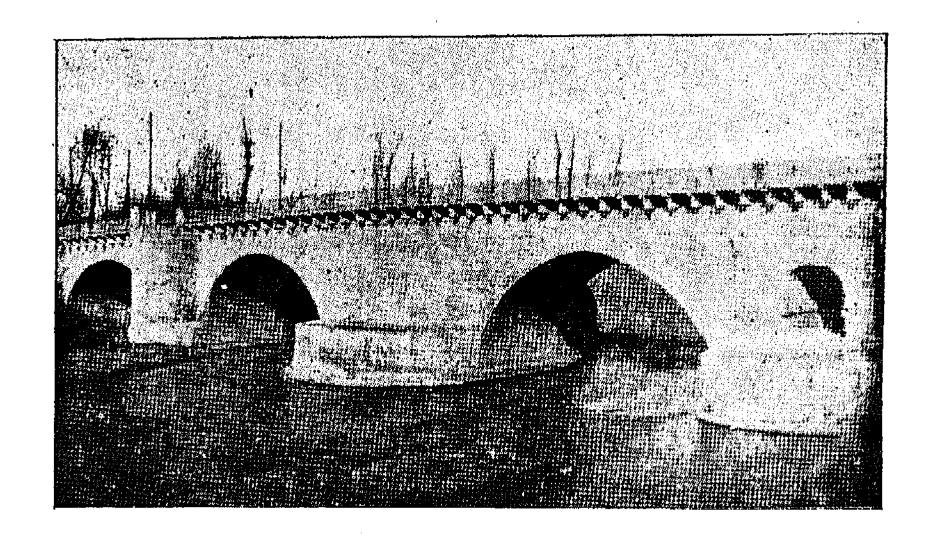
هى مدينة أندلسية قديمة ، كانت أيام المسلمين تعتبر من المراكز الأمامية للغزوات الإسلامية فى ناڤار وقشتالة ؛ وهى تقع على نهر هنارس شمال شرقى مدريد وعلى قيد خمسين كيلومتراً منها ، وبينها وبين العاصمة الإسبانية منطقة خضراء تتخللها بعض التلال ، وتغطيها غابات الزيتون والحقول اليانعة .

وقد لبثت وادى الحجارة تحت حكم المسلمين زهاء ثلاثة قرون ونصف ، وسقطت فى أيدى القشتاليين عقب سقوط طليطلة فى سنة ١٠٨٥ م ، وكان الذى استولى عليها هو القائد ألبرفانيس أو ألبرهانس Alvar Fañez زميل السيد الكنبيطور El Cid ، ثم ضمت بعد ذلك إلى مملكة قشتالة ؛ وحاول المسلمون استعادتها فى سنة ١١٩٦ م ، فلم يفلحوا .

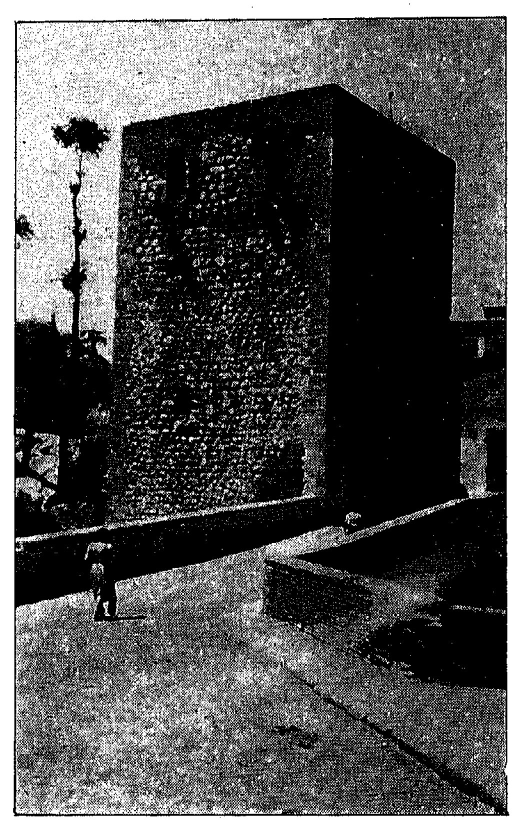
وتبدو مدينة وادى الحجارة ، إلى جانب مناظرها الطبيعية الجميلة ، مدينة قديمة الطراز ، وهى طويلة الرقعة قليلة العرض ، يشقها شارع طويل جداً هو شارع القائد الأعظم ، وهو شارعها الرئيسى وفيه المتاجر والمقاهى ، وتتفرع منه سائر أحياء المدينة على الجانبين فى عرض قليل ، وتضم المدينة من السكان اثنى عشر ألفاً . ويلاحظ أن الدروب الواقعة فى طرف المدينة هى دروب ضيقة وصاعدة ، تحمل طراز العصور الوسطى .

ولاتوجد فى وادى الحجارة آثار أندلسية بارزة ، اللهم إلا بقية أسوار قديمة تقع على مقربة من الكنيسة العظمى ، وفوقها بناء مربع عال يظهر أنه برج قديم وفى أعلاه عقود نافذة ، ويسمى « برج العلمين » ، وقيل لنا إنه يرجع إلى عهد المسلمين .

وتسمى الكنيسة العظمى كنيسة « سانتا ماريا » ، وهى صغيرة الحجم ذات عقود كعقود الجامع ، وترجع إلى القرن الخامس عشر ، وهى بسيطة قليلة الزخارف ، وفيها تحفظ صورة قديمة للعذراء ، كان ألفونسو السادس ملك



وادى الحجارة . القنطرة العربية على نهر هنارس (القرن العاشر إلى الحادى عشر)



وادى الحجارة . برج العلمين وبقية الأسوار الأندلسية

قشتالة يحملها معه فى حروبه ضد المسلمين ، فى أواخر القرن الحادى عشر. وظاهر من موقع الكنيسة أنها ربما كانت تحتل موقع الجامع القديم .

وتقع كنيسة سان فرنسسكو فى طرف البلدة على ربوة مرتفعة ، على مقربة من الكنيسة العظمى ، ويقال إنها ترجع إلى عهد المسلمين ، وربما كانت تقوم أيضاً فوق موقع أحد المساجد . .

ويوجد إلى يسار هذه الكنيسة بناء هو عبارة عن برجين مستديرين بينهما سور طوله نحو ثمانين متراً ، ويعرف هذا البناء بأبراج «ألبرفانيس» فاتح المدينة ، وربما كان النصارى قد أنشأوها فوق أنقاض القصبة العربية القديمة ، يرجح ذلك الفرض موقعها فى نهاية المدينة ، وفى طرف الربوة المطلة على الوادى .

كذلك توجد كنيسة القديس نيقولا ، وهى كنيسة صغيرة ذات عقود وقبة على طراز الجامع ، وهى تقع فى وسط المدينة .

ويوجد فى وادى الحجارة صرحان كبيران يرجعان إلى القرن الخامس عشر ، من طراز مدجنى يسمى أحدهما « قصر مندوسا » .

كما توجد القنطرة العربية القديمة فوق نهر هنارس ، وقد بقى من عقودها الأربعة عقدان من عهدها الإسلامى .

ويبدو من تأمل الدروب والأحياء التى تقع حول الكنيسة العظمى ، أن المدينة الأندلسية كانت تقوم فوق هذه الرقعة ، صاعدة نحو الربوة التى تقع عليها كنيسة سان فرنسسكو فى طرف المدينة ، وممتدة من الناحية الأخرى حتى القنطرة .

٧ – مـــدريد

Madrid

إن مدريد عاصمة اسبانيا الحديثة ليست من العواصم القديمة . ولم تكن مدينة أندلسية ، ولكنها مدينة باسمها وموقعها من الناحية التاريخية إلى بلدة أندلسية صغيرة ، أنشأها المسلمون في أواسط القرن التاسع الميلادى ، هى «مجريط» Magerit أو كما ينطقها الإسبان مخريط .

وكانت مجريط محلة صغيرة ، أمر بانشائها الأمير محمد بن عبد الرحمن ابن الحكم أمير الأندلس (٨٥٢ – ٨٦٦ م) ، حوالى سنة ٨٦٠ م . واختطت فوق سطح جبل وادى الرملة Guadaramma شمالى طليطلة ، وجنوب غربى وادى الحجارة ، فى منطقة الحصون الدفاعية ، وبنيت بها قاعة منيعة ، مشرفة على الضفة اليمنى لنهر منثنارس ، أحد أفرع التاجُه . لتعاون فى رد غارات النصارى ، من ناحية الثغر الأعلى . كما أقيم بها مسجد جامع ؛ وقامت حولها بلدة إسلامية صغيرة .

ويذكر المؤرخون والجغرافيون المسلمون « مجريط » . ويصفونها بأنها مدينة صغيرة وقلعة منيعة ، ويصفون حصن مجريط بأنه من « الحصون الجليلة » (١) .

وكانت أهمية مجريط فى عهدها الإسلامى تنحصر قبل كل شىء فى قيمتها الدفاعية . ومع ذلك فقد كانت مجريط فى ذلك العهد بلدة زاهرة ، وكانت موطناً لبعض علماء الثغر الأوسط ، ومنهم المحدث سعيد بن سالم الثغرى المتوفى سنة ٣٧٦ هـ (٩٨٦ م) . وكذلك ينتسب إليها العلامة الفلكى الأندلسى ، أبوالقاسم مَسْلمة المجريطى القرطبي المتوفى فى سنة ٣٩٨ هـ (١٠٠٧ م) .

ولبثت مجريط زهاء قرنين ونصف قاعدة دفاعية أمامية . تؤدى دورها الهام فى الحروب التى تنشب بين المسلمين والنصارى فى منطقة وادى الحجارة ، وكانت فى أواخر عهدها الإسلامى من أعمال مملكة طليطلة ، أيام بنى ذى النون ،

---

(١) راجع معجم ياقوت تحت كلمة (مجريط) . وكذلك الروض المعطار (صفة جزيرة الأندلس) ص ١٧٩ – ١٨٠ .

وكانت محور كثير من المعارك التى دارت فى ذلك الوقت بين المأمون بن ذى النون، ملك طليطلة ، وبين ألفونسو السادس ملك قشتالة ، وانتهت آخر الأمر بسقوطها فى يد ألفونسو السادس فى سنة ٤٧٦ هـ (١٠٨٣ م) ، قبيل استيلائه على طليطلة بنحو عامين ، وقد هدم مسجدها الجامع ، وبنيت فوق موقعه كنيسة عرفت فيما بعد بكنيسة سيدة المدينة Nuestra Sra. de Almedina :

ثم اتخذ بعض ملوك قشتالة من هذه المحلة مركزاً للصيد والتنزه ، وذلك لجمال موقعها ، وطيب هوائها ، وأقام الملك هنرى الرابع مكان القلعة الإسلامية القديمة Alcázar قصراً للصيد ، وجاء الإمبراطور شارلكان فعنى بتوسيعه وتجميله ، وكان ينزل فيه من آن لآخر . واشتهرت مجريط وسهلها المسمى « الباردو » ، يومئذ بأنها أجمل منتجع للصيد والتنزه . وأخيراً جاء ولده الملك فيليب الثانى فاتخذه مقراً لبلاطه ، وذلك أثناء قيامه بإنشاء قصره العظيم « الإسكوريال » Escorial فى بقعة تقع على مقربة من مدريد ، وكان ذلك فى سنة ١٥٦١ م . ومن ذلك التاريخ تغـدو مجريط ، أو مدريد وفق اسمها الحديث الذى تطور إليه الاسم القديم ، مقر البلاط ومقر الحكومة ، وتغدو عاصمة لإسبانيا .

وهكذا ولدت مدريد العاصمة الإسبانية ، واستقرت مكان أمها العربية الأندلسية مجريط ، وهى تغدو اليوم بشوارعها وميادينها الفسيحة ، وصروحها الفخمة العديدة ، من أجمل العواصم الأوربية . وقد خلفت الملوكية فى مدريد ومن حولها كثيراً من الصروح والمنشآت الباذخة التى تضفى عليها مسحة ساحرة من الروعة والجلال .

ويعنى أولو الأمر عناية خاصة برواء العاصمة الإسبانية وتجميلها . ويعتبر شارع « جران بيا » Gran Via ، أو « خوسيه أنتونيو » أعظم شوارعها التجارية والاجتماعية ؛ ففيه أشهر المتاجر والفنادق والمسارح والمقاهى ودور الأعمال . وفى نهايته من ناحية « ميدان اسبانيا » يقع «صرح اسبانيا » ، وكان إلى أعوام قلائل أعظم وأعلى بناء فى العاصمة الإسبانية ، ويحتوى على ست وثلاثين طبقة[1] ، وأمامه الحدائق التى يتوسطها أثر الكاتب الإسبانى الأشهر « ميجيل ثرڤانتس » . ويلى « الجران بيا » فى الأهمية شارع « مايور» (الشارع الكبير) الذى تقع من

(١) وقد قام فى الأعوام الأخيرة أمام « صرح اسبانيا » صرح جديد آخر أعلى منه بعدة طبقات .

ورائه مدريد القديمة بأحيائها العتيقة وشوارعها الضيقة ، وشارع « ألكالا » Alcála (القلعة) وكلاهما يتفرع من ميدان «باب الشمس» P. del Sol في اتجاهين متقابلين . وهذا الميدان القديم الذى تقع دار البلدية فى أحد جانبيه ، يكاد يكون قلب مدريد النابض الذى يوزع مجمل الحركة على شوارعها الكبرى ، ويتفرع منه عدة شوارع أخرى صاعدة كلها ، من ناحية نحو « الجران بيا » ، وعدة أخرى من الناحية الأخرى صاعدة كلها نحو أحياء مدريد الشعبية . وشارع « ألكالا » هو شارع البنوك وبعض الوزارات ، ويمتد حتى حدائق الرتيرو ، ثم ينحرف بعدها إلى مسافة طويلة . وحدائق الرتيرو El Retiro هذه تفاخر بها مدريد أعظم الحدائق الأوربية ، وقد تفضل حدائق ڤرساى روعة واتساعاً . ويمتد قبيل الرتيرو ، بحذاء الكالا ، شارع آخر من شوارع مدريد الكبرى هو شارع سرّانو . بيد أن أعظم وأطول شوارع مدريد ، وأبدعها تخطيطاً هو طريق «كاستليانا» Castillana الذى يشق العاصمة الإسبانية من الوسط ، وتقوم فى وسطه المتنزهات المستطيلة الرحبة ، وتتخلله عدة ميادين فخمة ذات نوافير تاريخية بديعة . وأهم هذه الميادين وأجملها ميدان ثبليس Cibeles الذى يقع فى منتصفه ، والذى تشرف عليه دار البريد العامة بأبراجها القوطية الرشيقة ، وهى من أجمل صروح مدريد الحديثة . ومن أعظم وأشهر صروح مدريد قصر المشرق «أورينتى» وهو مقر رئيس الدولة ، والقصر الملكى السابق (قصر باردو) ، ومتحف البرادو الشهير ، والمتحف الأركيولوجى ، والمكتبة الوطنية ، ودار البرلمان (الكورتيس) ، ومسرح مصارعة (الثيران) (الكوريدا) ، والجامعة الجديدة ، وكثير غيرها .

ويقع القصر الملكى السابق Palacio Real فى غربى المدينة ، فوق مرتفع يشرف على نهر منثنارس ، وقد بنى فى أواخر القرن الثامن عشر ، على موقع قلعة مجريط الإسلامية القديمة ، مكان قصر الصيد السابق .

وليس من موضوعنا أن نتحدث هنا عن العاصمة الإسبانية لذاتها ، ولا أن نصف خططها ومنشآتها ، ولكنا نريد فقط أن نتحدث عما تحتويه متاحفها من الذخائر التى تتعلق بتاريخ الأندلس وحضارتها .

ففى متحف مدريد الحربى ، الواقع على مقربة من متحف البرادو ، توجد قاعة صغيرة خصصت لبعض الآثار الأندلسية . وتكاد تنحصر هذه الآثار فى قطع ثلاث ، ترتبط كلها بمأساة سقوط الأندلس .

١ — وأولى هذه القطع صورة مكبرة لإقرار بالعربية ، كتبه أبو عبد الله محمد آخر ملوك الأندلس بخطه ، بالموافقة على نصوص آخر معاهدة للتسليم ، عقدها مع الملك فرديناند الكاثوليكى وزوجه الملكة إيسابيلا فاتحى مملكة غرناطة ، وأمضاه بتوقيعه (محمد بن على بن نصر) وبصمه بخاتمه . وتاريخ هذه الوثيقة المؤثرة هو ٢٣ رمضان سنة ٨٩٨ هـ ، (الموافق ٧ أغسطس سنة ١٤٩٣ م) ويلى هذا القبول ترجمته بالقشتالية (الإسبانية) .

وهذا هو نص الإقرار المذكور : « الحمد لله إلى السلطان والسلطانة أضيافى أنا الأمير محمد بن على بن نصر خديمكم وصلتنى من مقامكم العلى العقيد وفيها جميع الفصول الذى عقدها عنى وبكم التقديم من خديمى القائد أبو القاسم المليخ . وصلت بخط يدكم الكريمة عليها وبطابعكم العزيز كيف هيت مذكورة بهذا الذى تصالكم . وإنى نوفى ونحلف أنى رضيت بها بكلام الوفا مثل خديم جيد . وترى هذا خط يدى وطابعى أرقيته عليها لتظهر صحة قولى . ووصلت بتاريخ الثالث والعشرين من شهر رمضان المعظم عام ثمانية وتسعين وثمانمائة ، أنا كاتبه محمد بن على بن نصر رضيت وقبلت جميع ما فى هذا المكتوب الثابت وتقبل بيدى . إلى أضيافى السلطان والسلطانة مُدّلى هنا كما » .

وتنص هذه المعاهدة التى مهرها أبو عبد الله بقبوله المتقدم ، على تعهده بأن يغادر الأندلس بصورة نهائية ، وأن يعبر إلى المغرب فى موعد أقصاه نهاية شهر أكتوبر سنة ١٤٩٣ ، وأن يتنازل عن سائر ضياعه فى أنْدَرَش وغيرها بالبيع للملكين الكاثوليكيين ، نظير ثمن إجمالى قدره واحد وعشرون ألف جنيه قشتالى (كاستليانو) . وقد كتبت المعاهدة المشار إليها باللغة القشتالية ، وهى محفوظة بدار المحفوظات العامة فى سيمانقا[1] .

٢ — وإلى يمين هذا الإقرار الملىء بالعبر المؤلمة ، تعرض العباءة الملوكية التى تنسب إلى أبى عبد الله ، وهى عباءة نصفية من المخمل أرجوانية اللون ، وعليها نقوش عربية جميلة بيضاء . وقد كتب تحتها أنها عباءة أبى عبد الله Capa de Boabdil ، وأنها أهديت إلى المتحف من أسرة المركيزة ماريا دل كارمن بيرث Doña Carmen Perez Vanidas y Berry

(١) حصلنا أثناء بحوثنا فى قلعة سيمانقا (شنت منكش) على صورة فتوغرافية لهذه الوثيقة . وقد نشرنا محتوياتها فى كتابنا « نهاية الأندلس » (الطبعة الثانية) ص ٢٦٢ و ٢٦٣ .

وإذا صح حقيقة أنها عباءة أبى عبد الله ، فأغلب الظن أنها أخذت منه فى معركة حصن اللسّانة ، التى وقعت بين المسلمين والنصارى فى ابريل سنة ١٤٨٣ ، قبل سقوط غرناطة بعدة أعوام . وقاد فيها قوات المسلمين أبو عبد الله وهو يومئذ سلطان غرناطة الفتى ، وقد أسر فيها أبو عبد الله . وقضى فى أسره فى بلاط الملكين الكاثوليكيين زهاء ثلاثة أعوام . وربما أخذ منه سلاحا وثيابه الملكية يومئذ . عنواناً لظفر النصارى وتذكاراً من هذا الأسر الملكى الكبير .

٣ — وثالثة هذه التحف . سيف أندلسى ضخم بمقبض ثمين مموه بالذهب ، ومرقوم بأنه سيف على العطار Aliatar .

وهذا السيف هو تذكار بطولة أندلسية خالدة ، فقد كان صاحبه الأمير على العطار قائداً بطلا ، من أبطال الصراع الأخير بين المسلمين والنصارى ،وكان يرتبط بملك غرناطة السلطان أبى عبد الله برباط المصاهرة . إذ كان السلطان متزوجاً بابنته الحسناء مريم . وقد أبدى على العطار بسالة نادرة فى الدفاع عن مدينة لوشة . التى كان قائداً لحاميتها حينما هاجمها النصارى فى يوليه سنة ١٤٨٢ . وكان يومئذ فى الثمانين من عمره ، ولكنه كان بالرغم من شيخوخته من أشجع وأبرع فرسان الأندلس . وقد أخذ هذا السيف منه فى معركة اللسّانة التى خاضها ضد النصارى مع أبى عبد الله وأسر معه فيها[1] .

وإلى جانب هذه الذخائر الثلاث ، يوجد أيضاً فى المتحف الحربى درعان يقال إنهما كانا لأبى عبد الله ، كما توجد مجموعة من قطع النقد الأندلسية ،ترجع إلى عصور عبد الرحمن الناصر ، والزهراء ،والمستنصر . والمنصور .

متحف بلنسية دى دون خوان

يضم هذا المتحف الصغير الواقع فى شارع فرتونى . والذى يضمه بناء عربى أنيق ، مجموعة ثمينة جداً من اللوحات والشواهد الرخامية الأندلسية ،والزخارف العربية ، والأوانى الخزفية الأندلسية والمدجّنية ، وقطع البسط الأندلسية ،وهى تشغل معظم قاعاته.

ومن الأسف أنه لا يوجد لهذا المتحف دليل مفصل شامل يقوم بالتعريف

(١) نشرنا صورتى العباءة والسيف فى المجموعة الخاصة بالكتاب الرابع .

عن محتوياته ، ولم توضع على محتوياته بيانات إيضاحية ، وقد أنفقنا فى البحث فيه ساعات طويلة نستقرىء ذخائره الأندلسية ، وإليك بعض ما لفت نظرنا من هذه المحتويات :

١ — عدة لوحات رخامية من شواهد قبور ، مختلفة الأحجام والتواريخ ، قد صيغ معظمها فى أساليب متشابهة ، وافتتح معظمها بالآية : « يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولايغرنكم بالله الغرور » ، هذا قبر . . الخ »[1] .

بيد أنه قد لفت نظرنا منها شاهدان كتب كلاهما بأسلوب مختلف أولهما ، لوحة رخامية حجمها ١,٥٠ × ٢٣, متراً ، وقد نقش فيها ما يأتى :

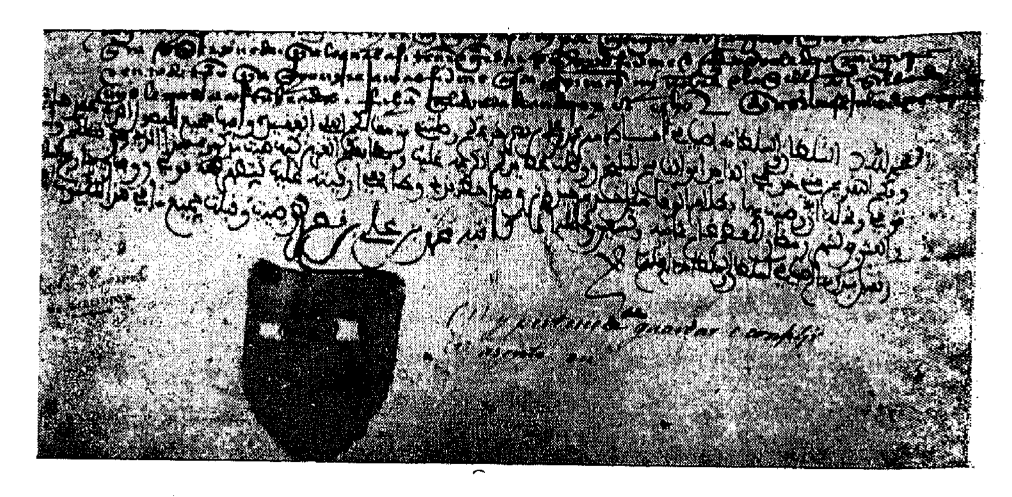
« دفن بهذا القبر رجل من أهل الخير ، أبو فارس عبد العزيز بن الشيخ المرحوم محمد بن زياد البلنسى سنة تسعة وعشرين وسبعمائة رحمة الله عليه وكتبه ابنه فظل وحاج عنه نفعه الله به وببركة رظاه» . وقد وجدت بهذه اللوحة فى مدينة ألمرية .

والثانية لوحة رخامية كبيرة حجمها ١,٧٥×٨٠, متراً وقد وجدت بمدينة غرناطة ، ونقش عليها هذا النعى البليغ المؤثر :

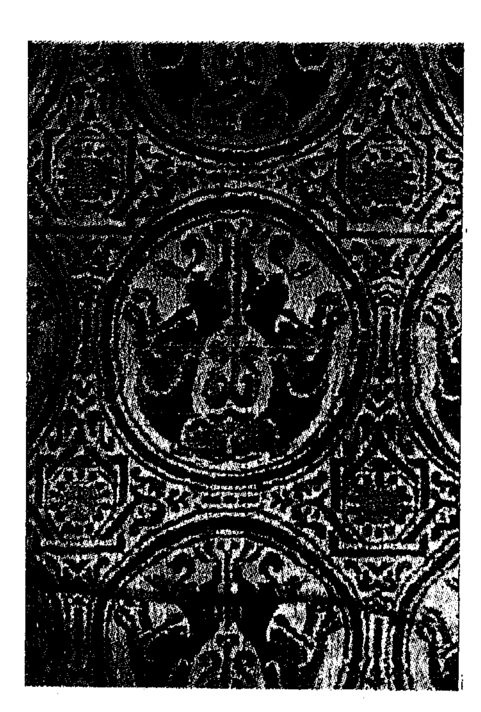
« بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد وعلى آله ، هذا قبر الشاب الفقيه الأجل السرى الأفضل الأبرع الأخصل المرحوم أبي جعفر بن شبرين رحم الله شبابه ، وروّى بماء الرحمة ترابه ، لما تشوّفت منه الرتب إلى كفوها ، ووليت منه مقلد حليها ، والبراع إلى مجيل أفراسها ، والرقاع إلى راقش أطراسها ، دعاه داعى الأجل ، فحث سبيله بأقصى العجل ، وعاق هلاله عن التمام ، صرف الحمام ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ، وكان [سبب] وفاته رحمه الله بفرس قيض لحينه ، فأثكل المجد ، ومحا قرة عينه ، فيا له من بدر عدا عليه الرامح ، وشهاب اقتران يهتدى به اللامح ، أجزل الله بمصابه ثواب والديه ، وجعل له من صالح العمل نورا يسعى خلفه وبين يديه ، ولد فى ظهر يوم الاثنين الرابع وعشرين لصفر أربعة وعشرين وسبعمائة وتوفى فى أول يوم الأربعاء السادس عشر لذى حجة اثنين وأربعين وسبعمائة ،

---

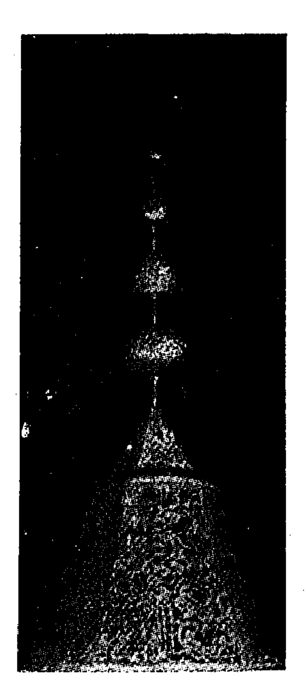
(١) راجع : Lévy-Provençal ; Inscriptions Arabes d'Espagne اللوحات رقم ١٣٣ ، ١٣٤ ، و١٣٥ ، و١٣٩ . . . الخ



متحف مدريد الحربى . إقرار أبى عبد الله آخر ملوك الأندلس بقبول معاهدة التسليم الأخيرة



متحف مدريد الوطنى . زخارف
قطعة من البسط الأندلسى



متحف مدريد الوطنى . قنديل برونزى من
مخلفات جامع الحمراء

٢ — صندوق صغير مستطيل من مخلفات مدينة الزهراء نقش على جوانبه ما يأتى :
« بسم الله بركة الله ويمن وسعادة وسرور لأحب ولادة مما عمل بمدينة الزهراء سنة خمس وخمسين وثلث مائة عمل خلف» .

٣ — زلعة أو جرة كبيرة من الخزف بوجه مذهب ، ونقوش كوفية وعربية ، على مثل زلعة الحمراء ، وقد نقش على عنقها مكرراً « اليمن والإقبال » .

٤ — لوحة من الخزف المذهب حجمها نحو متر فى نصف متر ، وقد كتب على جوانبها الأربع هذه العبارة «عز لمولانا السلطان أبى الحجاج الناصر لدين الله» . وقد كتب عنها فى الدليل الموجز الذى عمل عن بعض محتويات المتحف ، أنها وجدت فى حى البيازين بغرناطة .

٥ — قطعة من الخزف المزخرف ظاهر أنها جزء من لوحة كبيرة ، وقد نقش عليها « الملك الدائم ، العز القائم » .

٦ — قطعة من قماش مستطيلة طولها متر ونصف وعرضها ثلاثون سنتيمتراً مذهبة الحواشى ، وفى وسطها رقعة سوداء كتب عليها بخط مذهب باهت «ولا غالب إلا الله » عدة مرات .

٧ — قطعة من سجاد مستطيلة ضيقة طولها متر ونصف وعرضها ١٥ سنتيمتراً وعليها كتابة مكررة «سلطان أيده الله ، بالسعد والفتح والنصر . لمولانا عمدة ملوك الأرض فى اليمن . . الخ » .

٨ — عدة قطع أخرى من سجاد عليها نقوش مختلفة مثل « عز لمولانا السلطان » وغيرها .

٩ — عدد كبير من الأوانى الخزفية الجميلة ، المدجّنية والموريسكية ذات الألوان الزاهية .

المتحف الوطنى

ويضم متحف مدريد الوطنى أو الأركيولوجى ، قسما كبيراً للآثار الأندلسية والمدجنية والموريسكية . ويضم بالأخص لوحات وقطعاً زخرفية عديدة ، من مخلفات الصروح والقصور الأندلسية المختلفة ، وبه كذلك عدد من شواهد القبور ، رأينا من بينها شاهد قبر الأمير أبى محمد سير بن أبى بكر اللمتونى ، القائد المرابطى الشهير والمتوفى سنة ٥٣٧ ﻫ ، وشاهد قبر الوزير أبى عمران موسى بن الأزرق الفهرى ، قائد ابن مردنيش المتوفى سنة ٥٦٦ ﻫ

وإليك بعض ما لفت نظرنا من محتوياته الأندلسية :

١ — لوحة رخامية تذكارية سجل بها ، إنشاء الخليفة الحكم المستنصر بالله لأحد أبراج حصن بجهة جيّان على النحو الآتى :

« بسم الله الرحمن الرحيم أمر ببنيان هذا البرج عبد الله الحكم المستنصر بالله ، أمير المؤمنين أطال الله بقاه على يد موله وقائده ميسور بن الحكم فتم وكمل بحول الله وتأييده وذلك فى شهر رمضان سنة سبع وخمسين وثلث ماية » .

٢ — صندوق مربع الشكل من مخلفات اسماعيل بن ذى النون الظافر ، صاحب طليطلة ، نقش على جوانبه الأربع ما يأتى :

« بسم الله الرحمن الرحيم بركة دائمة ونعمة شاملة وعافية باقية وغبطة طائلة وآلاء متتابعة وعز وإقبال وإنعام واتصال وبلوغ آمال لصاحبه أطال الله بقاه مما عمل بمدينـــة قونكة بأمر الحاجب حسام الدولة أبى محمد اسماعيل بن المأمون ذى المجدين ابن الظافر ذى الرياستين أبى محمد بن ذى النون أعزه الله فى سنة إحدى وأربعين وأربع ماية عمل عبد الرحمن بن زيان » .

٣ — صندوق صنع برسم المعز لدين الله الفاطمى ، وعلى وجهه العاجى نقش هذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم نصر من الله وفتح قريب لعبد الله ووليه معدّ أبى تميم الإمام المعز [لدين الله] أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطيبين وذريته الطاهرين مما أمر بعمله بالمنصورية المرضية صنعه أحمد الخراسانى »(١) .

٤ — قطعة من قماش حريرى مزركش بالذهب ، من مخلفات الخليفة هشام المؤيد بالله وقد كتب عليها ما يأتى :

« بسم الله الرحمن الرحيم البركة من الله واليمن والدوام للخليفة الإمام عبد الله هشام المؤيد بالله أمير المؤمنين » .

٥ — طشت وضوء من مخلفات المنصور بن أبى عامر (الحاجب المنصور) نقش عليه ما يأتى :

« . . المنصور أبى عامر محمد بن أبى عامر وفقه الله مما أمر بعمله بقصر الزاهرة

---

(١) هذا ليس من التحف الأندلسية ، ولكنه وجد فى بعض الحفريات التى عملت على مقربة من بلدة بالنسيا بقشتالة .

فتم بعون الله وحسن تأييده على يدى : . الفتى الكبير العامرى سنة سبع وسبعين [وثلثماية] » .

هذا وقد رأينا فضلا عما تقدم فى هذا القسم الزاخر بالآثار والذكريات الأندلسية ، باباً عربياً مزخرفاً من صنع المدجّنين ، وزلعة كبيرة بنقوش بديعة مذهبة على مثل زلعة الحمراء ، وقطعاً خزفية غرناطية ترجع إلى القرن الخامس عشر ، وقطعاً خشبية عليها نقوش عربية مختلفة قرآنية وغيرها ، وآنية مختلفة من الخزف المذهب ، ترجع إلى عصر الملكين الكاثوليكيين ، وعصر الموريسكيين فى القرن السادس عشر ، وعليها نقوش وصور بديعة ، وأطباق وآنية مذهبة رائعة الصنع ترجع إلى نهاية عصر الموريسكيين.

متحف لازارو

ورأينا فى متحف لازارو صندوقين صغيرين من الخشب ، يبدو أنهما من صنع مدجّنى أو موريسكى ، وأولهما يبلغ حجمه نحو ٤٠ × ٢٠ سنتيمتراً ، وغطاؤه شبه منحرف ، ويبدو أنه موريسكى الصنع ، وقد نقشت عليه صور شيوخ على رؤوسهم « كاب » تشبه العمامة وتيجان . وثانيهما فى حجم الأول تقريباً ، وقد زينت جوانبه بصور الأزهار ، ونقشت عليه عبارات عربية قرأنا منها ما يأتى : « البركة والسعادة » مكررة ، تتخللها صور طواويس غير متقنة .

المكتبة الوطنية

ويضم قسم المخطوطات العربية بالمكتبة الوطنية ، طائفة من المخطوطات العربية ، ليس بينها كثير من المخطوطات ذات القيمة الخاصة . ومعظمها منقول عن مخطوطات « الإسكوريال » . وهى مذكورة فى الفهرس الخاص بها . ولهذا لا نرى مجالا للتحدث عنها هنا .

وتوجد فى قسم « المحفوظات التاريخية » Archivos Históricos الملحق بالمكتبة الوطنية ، مجموعة من الوثائق العربية ، نقلت إليه من دير سان كلمنتى فى طليطلة ، وهى عبارة عن عقود بيع وشراء وهبة وغيرها ، عقدت بين المسلمين والنصارى أو بين النصارى وحدهم ، ومعظمها يرجع إلى القرنين الثانى عشر والثالث عشر للميلاد . وقد حصلنا على صور فتوغرافية لعدد منها[1] .

---

(١) نشر معظم وثائق هذه المجموعة المستشرق الإسبانى الكبير جونثالث بالنثيا مقرونة بتراجمها الإسبانية فى أربعة مجلدات كبيرة تحت عنوان : Los Mozarabes de Toledo en los Siglos XII y XIII (Madrid 1926-1930)

الكتاب الخامس

ليون وجلّيقية والأستورياس

١ – شنت ياقب

Santiago

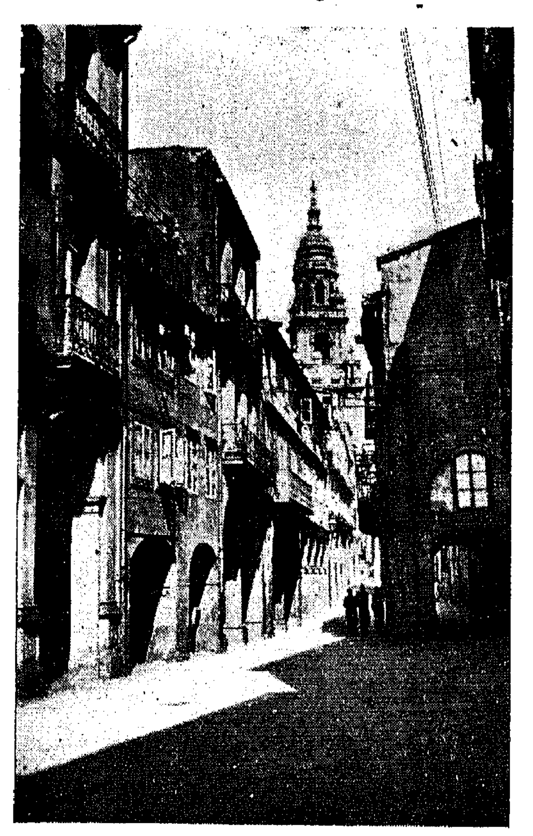
إنها أسطورة من أروع الأساطير الدينية ، تلك التى تحيط بنشأة مدينة شنت ياقب أو شنت ياقوب أو شنتياقُو Santiago ، وبالدور العظيم الذى لعبته فى تاريخ مملكة جلّيقية ، وفى حضارتها فى العصور الوسطى .

وتقع هذه المدينة الدينية التالدة فى واد خفيض ، تواجهها التلال ، ومن حولها بسائط يانعة ، فى الركن الشمالى الغربى من اسبانيا ، وفى جنوب غربى ثغر لاكورنيا La Coruña ، على مقربة منا لمحيط الأطلنطى . وهى عاصمة ولاية جلّيقية القديمة . والطبيعة فى جليقية بالرغم من عبوسها وخشونتها ، أجمل وأبهج منها فى بقاع كثيرة فى اسبانيا . وبالرغم من أنها ليست سهولا وبسائط متصلة ، بل تتخللها التلال والمرتفعات الكثيرة ، إلا أنها على العموم خضراء جميلة منوعة ، وبها غابات من مختلف الأشجار ، وتكاد الطبيعة فى جليقية ، تشبه سفوح الألب فى النمسا وسويسرة ، من حيث تنوعها وخضرة هضابها . والبسائط هنا خصبة جداً ، والمياه موفورة لكثرة تساقط الأمطار فى هذه المنطقة .

ومدينة شنت ياقب (سنتياجو) من أعجب وأجمل المدن الإسبانية ، ذات طابع خاص بها . وهى أشد المدن الإسبانية احتفاظاً بهذا الطابع الخاص . وطابعها القدم المشبع بالجلال والوقار . وهى تبدو بشوارعها المعقودة المرصوفة بالبلاط الضخم ، وميادينها التى تظللها الصروح التاريخية ، مدينة قديمة عريقة حقاً . وأروع ما تقع عليه العين كنيستها العظمى ، التى تقوم فى وسطها ، وتبدو بواجهاتها الفخمة ، وصروحها الشامخ ، وبرجها العظيم ، أثراً من أعظم الآثار الدينية . ويخترق المدينة من الشرق شارعان كبيران كلاهما ذو عقود حجرية من الجانبين ، أولهما شارع ڤليار Rua del Villar ، المؤدى إلى ميدان الكتدرائية ، وهو من أهم شوارعها التجارية ، وثانيهما الشارع الجديد Rua Nueva ، وهو يسير محاذياً للأول ويؤدى إلى ميدان سان پلايو ، وهما بلا ريب من أقدم شوارع المدينة إن لم يكونا أقدمها على الاطلاق .

ومعظم صروح المدينة وأهمها الصروح الدينية ، من كنائس وأديرة وقصور أسقفية ، ترجع إلى القرن الثانى عشر والثالث عشر ، وكلها تسبغ على المدينة طابع العراقة والقدم ، فهى حقاً مدينة من مدن العصور الوسطى ، لم تخلع عنها شيئاً من خواصها .

وبالرغم من الأفق الدينى الذى يغمرها ، فإن شنت ياقب مدينة كثيرة الحيوية ، ذات حركة تجارية وصناعية كبيرة . وهى فضلا عن منتجاتها الزراعية الوفـيرة ، تنتج الأقمشة والورق والخمور وغيرها ، ويلاحظ فوق ذلك أن حوانيتها غاصة بالآنية الفضية المزخرفة ، والذكريات المقدسة من صور وتماثيل وصلبان وغيرها . ويبلغ سكانها ثمانية وعشرين ألف نفس .



شنت ياقب . شارع ڤليار المعقود الجوانب

ويجدر بنـا قبل أن نعرض إلى معالم شنت ياقب الأثرية ، أن نذكر ملخص الأسطورة الدينية التى كانت سبباً فى إنشائها ، والتى جعلت منها كعبة الحجاج طوال العصور الوسطى .

إن شنت ياقب هو القديس يعقوب أو يعقوب الحوارى . وتذكر الأسطورة أنه قتل شهيداً بأمر هيرود ، فحمل تلاميذه جثته فى مركب ، جازوا به البحر الأبيض إلى المحيط ، ثم حملتهم الرياح شمالا حتى انتهوا إلى موضع فى قاصية جليقية ، ودفنوا جثمان القديس فى سفح تلال هنالك . ومضت العصور وغاض القبر ولم يعلم مكانه ، حتى كانت سنة ٨٣٥ م ، حيث زعم القس

تيودمير أسقف إيريا أنه اكتشف القبر ، هداه إليه ضوء نجم ؛ فذاعت الأسطورة في الحال ، وصدقها المؤمنون دون تردد ، وهرعوا إلى البقعة المقدسة ، وأنشئت فوقها كنيسة ، وقامت حول المزار المزعوم مدينة نمت بسرعة ، وغدت هي مدينة شنت ياقب المقدسة Santiago de Compostela ، وكلمة Compostela المضافة إلى اسم المدينة مشتقة من اللاتينية Campus Stellae أي « سهل النجمة » ، إشارة إلى النجم الذي اهتدى الأسقف بنوره في اكتشاف القبر . وكان لوقوع هذا الحادث ، وقيام هذه المدينة المقدسة ، أثر كبير في إذكاء الحماسة الدينية والعاطفة القومية الإسبانية ، وغدا « القديس ياقب » حامي اسبانيا كلها ، وغدا قبره من أشهر المزارات النصرانية في سائر أوربا .

ويعلق العلامة ألتاميرا على هذا الحادث الديني بقوله : « وقد بعث هذا الاكتشاف في النصارى أيما سرور ، وانتظمت وفود عظيمة جاءت لتحج إلى القبر ، لا من الأراضي الإسبانية وحدها ، ولكن من الخارج أيضاً . وهكذا بدأ تيار من الزيارات والمؤثرات الأوربية في جلّيقية . وكان لها أعظم تأثير في العادات والآداب »(١) .

وكانت شنت ياقب عصراً عاصمة لمملكة جلّيقية النصرانية ، قبل أن تنقل إلى ليون . ولم تصل الغزوات الإسلامية إلى ذلك الركن النائي من هضاب جليقية ، إلا في عهد الحاجب المنصور . ففي سنة ٣٨٧ هـ (٩٩٧ م) قام المنصور بأعظم غزواته في شمال غربي إسبانيا ، وتابع زحفه المظفر حتى جليقية ، وقصد مدينة شنت ياقب ، فاقتحمها وهدم كنيستها العظمى ، وصروحها . ولكنه احترم قبر القديس فلم يمسه الجند المسلمون بسوء . وعاد المنصور إلى قرطبة مثقلا بالغنائم ، ومنها عدة من أبواب صروح شنت ياقب الفخمة ، جعلت أبواباً للمسجد الجامع بقرطبة ، وكان هذا آخر عهد الجيوش الإسلامية بتلك الأنحاء .

* * *

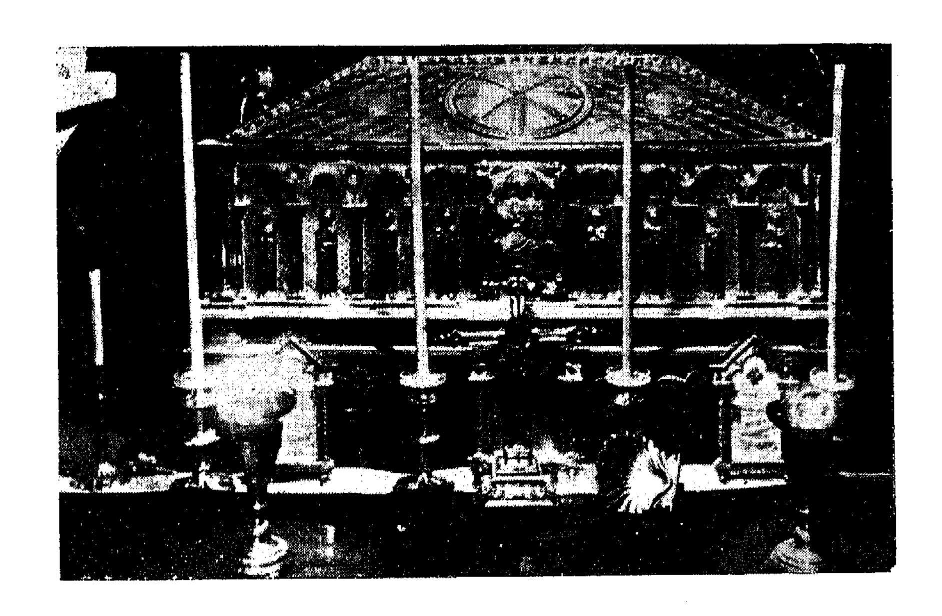
ولنعرض الآن إلى معالم شنت ياقب الأثرية ، فنقول إن أعظم صروحها هو بلاريب كنيستها العظمى ، أو الكتدرائية ، التي تضم في داخلها قبر القديس يعقوب ، وهي من أعظم كنائس اسبانيا ضخامة وروعة ، تقع فوق مرتفع يحيط

(١) Altamira : Historia de Espana y de la Civilización Espanola, Vol. II p. 239



شنت ياقب . الكنيسة العظمى

به ثلاثة ميادين كبيرة ، ويطل مدخلها الرئيسى على ميدان اسبانيا . وهو مدخل قوطى شاهق رائع الفخامة ، نقش عليه شعار قشتالة ، ومن حوله وفوقه عمد وزخارف بديعة . وقد بدىء بتشييد هذه الكنيسة العظيمة فى سنة ١٠٨٢ م ، واستمر العمل فيها حتى سنة ١٢١١م ، وكان الأسقف ديجو خلمريث D. Gelmirez الذى تولى الأسقفية فى سنة ١١٠٠ م ، من أعظم العاملين على توسعتها وزخرفتها ، واستصدار المراسيم البابوية بامتيازها ، وتأكيد مركزها الخاص . وفى عصره تقاطرت وفود الحجاج من سائر أنحاء النصرانية على شنت ياقب ، حتى قيل «إنه لم تكن ثمة لغة أو لهجة لم ترن أصواتها هنالك » .



شنت ياقب .قبر القديس ياقب (يعقوب) الرسول

وقد بنيت كتدرائية شنت ياقب ، على شكل صليب لاتينى هائل ، يحتوى كل ضلع من أضلاعه على عدة عقود قوطية شاهقة ، وفى معقده الهيكل الأعظم الذى يعلو قبر القديس . ولأروقتها الوسطى التى تعلو العقود ، واجهات معقودة على مثل عقود الجامع ، وهى بادية القدم والروعة . وفى عقب الكنيسة عند طرف الصليب الأفقى ، توجد الواجهة الداخلية المسماة «مشرفية المجد» Pórtico de la Gloria وهى عبارة عن أربعة أبواب ، الأول والرابع عقدان والأوسطان غير معقودين ،

وقد نقشت عليها صور القديسين ، وزينت بأعمدة رومانية جميلة ،وهى ترجع إلى القرن الثانى عشر .

ويقع قبر القديس ياقب تحت الهيكل الأعظم ، فى سرداب يمتد على طوله ، ويدخل إليه من الجانبين ، وهو من الرخام وعليه حلية كبيرة من الفضة ، صنعت على شكل مخروط ، ويحج إليه المؤمنون ويجثون أمامه بمنتهى الخشوع والإجلال . ويستمطرونه البركة والرعاية .

وتوجد فى متحف الكتدرائية مجموعة نفيسة ، من سجاجيد زينت بصور جويا وموريليو وغيرهما ، من أعاظم المصورين ، وترجع إلى القرنين السابع عشر والثامن عشر .

وإلى جوار الكتدرائية من ناحية ميدان اسبانيا ، يقع القصر الأسقفى القديم المسمى قصر خلمريث ، وهو قصر صخرى عتيق ، يرجع إلى أوائل القرن الثانى عشر ، وله بهو سفلى ذو عقود عالية ، وفى أعلاه بهو مماثل ذو عقود قوطية .

وتغص مدينة شنت ياقب بالكنائس والأديار القديمة . وقد زرنا منها فضلا عن الكتدرائية ، كنيسة « ماريا سالومى » وهى كنيسة صغيرة تقع فى الشارع الجديد ، وكنيسة سان پلايو وهى صغيرة ذات عقدين متقابلين ، وقبة كقبة الجامع ، ودير كنيسة سان مرتين . ويرجع هذا الصرح إلى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، والكنيسة فخمة كثيرة الزخارف المذهبة فى هياكلها الثلاثة .وهيكلها الأعظم قطعة رائعة من الزخرف والتماثيل الصغيرة المقدسة . ويقع الدير أو المعهد الدينى إلى جانبها ، وله صحن كبير ذو عقود على نمط العقود العربية .

وفى شنت ياقب جامعة من أقدم الجامعات الإسبانية ، أنشئت بمقتضى مرسوم بابوى أصدره البابا جوليوس الثانى سنة ١٥٠٤م ، فى عهد الملك فرديناند الكاثوليكى ، وبها اليوم كليات الطب والعلوم والحقوق والآداب ، وتحتل كلية العلوم بناء أثرياً هو دير فونسكا القديم ، وله صحن معقود يرجع إلى عصر الأحياء .

ومن معالم شنت ياقب الأثرية منزل الملكين الكاثوليكيين Hospicio de los Reyes Católicos ،وهو يقع فى الميدان الكبير (ميدان اسبانيا) ، الذى تطل عليه واجهة الكتدرائية الرئيسية ، وقد بدىء بإنشائه فى سنة ١٥٠٤ م ليكون فندقاً لإيواء الحجاج القادمين من سائر الأنحاء إلى المدينة ، ثم حول فيما بعد إلى مقام

ملكى ثم إلى مستشفى . ولكنه أعيد اليوم إلى فندق أرستقراطى فخم . ولقد جبنا أبهاء هذا الصرح الأثرى وأزوقته ، وشهدنا ما اتخذ من استعدادات هائلة لتأثيثه وتجهيزه ، فإذا به اليوم من أروع فنادق العالم . وقد حولت أبهاؤه الملوكية القديمة إلى أبهاء للطعام . وهو يضم ثلاثة أفنية كبيرة ، ذات عقود قوطية ونوافير أثرية ، ومصلى ملكياً فخماً . وله باب أثرى شاهق يرجع إلى القرن السادس عشر.

* * *

وبعد فإن مدينة شنت ياقب هى بحق مدينة مقدسة . وهى تبدو بخططها القديمة ، وشوارعها المعقودة ، وكتدرائيتها العظيمة ، وكنائسها وأديرتها العديدة ، كأنها بيت مقدس أخرى ، يغمرها الجلال والوقار ، وتبعث إلى نفس الألى يتجولون فى طرقاتها ، وفى رحابها الدينية ، شعوراً بالتأثر والخشوع ، مهما كانت آراؤهم ومعتقداتهم .

٢ — ليون

León

تحتل مدينة ليون فى تاريخ الأندلس أهمية خاصة ، فقد افتتحها العرب فى سنة ٧١٧ م ، عقب افتتاح الأندلس بقليل ، ولكنها لم تمكث فى أيديهم سوى ربع قرن ، وعاد النصارى فاستردوها فى سنة ٧٤٢ م . ولما نمت المملكة النصرانية الشمالية ، واتسعت رقعتها ، اتخذت مدينة ليون عاصمة لها منذ أوائل القرن العاشر ، وغلبت عليها اسم مملكة ليون بدلا من مملكة جلّيقية ، وأضحت مدينة ليون مركز الكفاح والمقاومة ، فى النصف الشمالى من شبه الجزيرة الإسبانية ، لمملكة قرطبة الإسلامية .

وكانت مملكة ليون مقصد الحملات الإسلامية الغازية من آن لآخر .ولكن هذه الحملات قلما كانت تصل إلى مدينة ليون ، لنأيها ووقوعها فى قاصية الشمال . وفى سنة ٩٨٤ م غزاها المنصور بن أبى عامر ، واحتلتها الجيوش الإسلامية مدى حين . فلما توفى المنصور فى سنة ١٠٠٢ م استرد النصارى المدينة ، وكان هذا آخر عهدها بالغزوات الإسلامية .

وتقع مدينة ليون على أحد أفرع نهر دويرة ، فوق تل مرتفع ولكن منبسط الساحة . وهى مدينة ضخمة حديثة بكل معانى الكلمة ، ذات شوارع كبيرة فسيحة Avenidas ، وميادين شاسعة فخمة ، تظللها مبان حديثة ، ترتفع أحياناً إلى ثمان طبقات أو عشر . وإذا استثنينا قسمها الداخلى ، الذى يضم معالمها الأثرية ، فإن مظهرها على العموم لايخالطه أى طابع يذكرنا بماضيها ، كعاصمة لمملكة ليون القديمة ، وهى تخلو حتى من ذلك الطابع التاريخى القديم ، الذى تحتفظ به مدن أخرى فى شمال اسبانيا ، مثل شنت ياقب (سانتياجو) . وبالرغم من أنها تضم عدداً من الصروح الأثرية ، فانها لا تحمل طابع القدم والتاريخ المؤثل ، وهى بذلك قد خلت نهائياً من طابع العصور الوسطى ، وغدت مدينة أوربية بكل معانى الكلمة .

وقد نمت ليون فى نصف القرن الأخير نمواً عظيما ، وأضحت مدينة تجارية وصناعية ذات شأن ، وتضاعف سكانها حتى غدوا اليوم خمسة وستين ألف نسمة.

وتقع معظم معالم ليون الأثرية فى قسمها الداخلى ، وهو يبدأ من الباب المعقود المسمى باب پلايو P. de Pelayo . وتوجد عن يمين هذا الباب وعن يساره بقية من أسوار ليون القديمة ، وهى على الأغلب من بقايا الأسوار الرومانية. كما أنه توجد فى شمال المدينة وفى شرقها أجزاء كبيرة من هذه الأسوار . وتبدأ بعد باب پلايو ، شبكة من الشوارع والدروب الضيقة القديمة ، ويفضى إحداها إلى الكتدرائية أو الكنيسة العظمى .



ليون . الكنيسة العظمى

وكتدرائيـــة ليون من أعظم وأروع الكنــائس الإسبانية ، ومع أنها لاتضارع كتدرائية طليطلة أو إشبيلية فى الضخامة ، فإنها لا تقل عنهما زخرفاً وجمالا . ويرجع إنشاؤها إلى نهــاية القرن الحادى عشر ، واستغرق العمل فيها زهاء ثلاثة قرون ، ولها مدخل قوطى فخم ، قد ثبتت فى أعلاه وفى جانبيه تماثيل الرسل . وصحنها الداخلى قوطى الطراز ، وهو كثير الفخامة والروعة ، وأهم مايلفت النظر ، نوافذها العديدة فى الجانبين ، وقد نظمت صفوفاً متعاقبة ، وجهزت كلها بزجاج ملون ذى صور ورسوم ساحرة . ويلحق بها من الجانب الأيسر ، صحن كبير معقود وبه متحف غنى ، رأينا فيه إنجيلا عربياً مخطوطاً ، يرجع إلى القرن السادس عشر ، وآخر مطبوعاً يرجع أيضاً إلى قرنين أو ثلاثة .

ومن كنائس ليون الأثرية كنيسة سان إيزيدورو ، وهى كنيسة قديمة يرجع إنشاؤها إلى أواخر القرن الحادى عشر ، ولها واجهة عتيقة مزخرفة ، ومدخل ذو عقد قوطى وأعمدة رومانية ، وهى صغيرة الحجم ، وصحنها الداخلى ذو عقود عادية ، ومن فوق العقود تبدو مشارف الرواق الدائرى فى طراز عربى معقود ، وفى داخلها المدفن الملكى يضم توابيت عدة من ملوك ليون .

ومنها كنيسة ودير سان ماركوس ، ويقع هذا الصرح خارج ليون فى قسمها الحديث ، وكان الذى وضع مشروعه الملك فرديناند الكاثوليكى فاتح غرناطة ، ولكن الذى أنشأه هو حفيده الإمبراطور شارلكان ، وهو يتكون من دير قديم له صحن كبير معقود ، وكان أيام إنشائه يستعمل نزلا للحجاج ، الذين يقصدون إلى مدينة شنت ياقب المقدسة ، وهو اليوم يستعمل متحفاً يضم طائفة من الآثار الحجرية والرومانية من تماثيل وغيرها ، كما يضم عدة قطع من أبواب خشبية ذات نقوش مدجّنية . وتقع كنيسة سان ماركوس إلى جانب الدير ، وهى كنيسة صغيرة ولكن جميلة الزخرف ، وهى الآن مغلقة لا تستعمل للعبادة .

وتوجد فى ليون بضعة كنائس أثرية أخرى ، وكذلك بعض القصور ، مثل قصر آل قزمان P. de los Guzmanes ، وهو من أجمل قصور اسبانيا ، ويرجع إلى القرن السادس عشر .

ومن الواضح أنه لا توجد فى مدينة ليون أية آثار أو ذكريات أندلسية ، لأنها لم تخضع لحكم المسلمين سوى فترة قصيرة ، تلتها سلسلة من الغزوات الإسلامية العابرة ، التى لم تخلف وراءها شيئاً من الآثار الباقية .

٣ – سمـــورة

Zamora

تقع مدينة سمّورة فوق مرتفع صخرى، يشرف على ضفة نهر دويرة (دورو) اليمنى ، وهى مستطيلة الرقعة ومن ورائها بسيط أخضر ، وفى ظاهرها على النهر قنطرة قديمة ذات عقود رومانية ، ربما كان للمسلمين دور فى إصلاحها وتجديدها ، وهى تبدو على العموم بشوارعها الطويلة المكتظة بالحركة مدينة كبيرة ، ويبلغ سكانها زهاء أربعين ألف نسمة .

وقد كانت سمورة من القواعد القوطية ، وافتتحها المسلمون كما افتتحوا معظم المدن الشمالية ، ولكنها لم تلبث فى أيديهم سوى نصف قرن ، واستطاع النصارى استعادتها فى عهد عبد الرحمن الداخل سنة ٧٥٧ م (١٣٠ هـ) ، مع لُك وشلمنقة وآبلة وغيرها من المدن الشمالية . ثم استعاد المسلمون سمورة بعد ذلك غير مرة ، ولكنهم كانوا يحتفظون بها لفترات قصيرة فقط ، وكانت آخر غزواتهم لها أيام المنصور ابن أبى عامر ، فقد اجتاحها وأحرقها فى سنة ٩٨١ م (٣٧١ هـ) .

وفى بعض الروايات الإسلامية والنصرانية ، أنه قد وقعت تحت أسوار سمورة هزيمة المسلمين الفادحة ، بقيادة عبد الرحمن الناصر ، فى شوال سنة ٣٢٧هـ (يوليه سنة ٩٣٩) ، وهى الموقعة التى تعرف فى تاريخ الأندلس بموقعة الخندق ، لوقوعها على خنادق سمورة[١] .

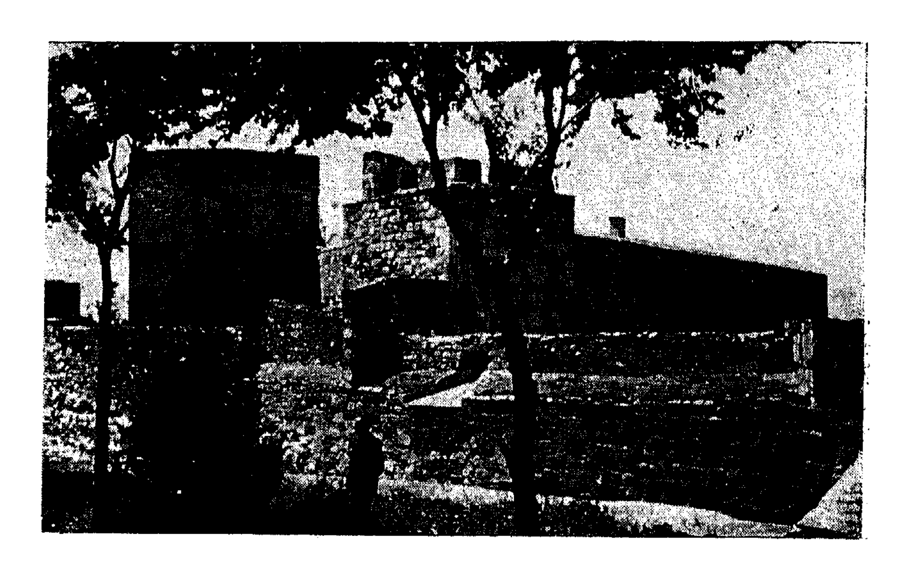
وسمورة مدينة عتيقة المظهر ، وهى قسمان ، القسم القديم ويحتفظ بطابع العصور الوسطى ، وفيه تقع معالمها الأثرية ، والقسم الحديث وهو يتكون من بضعة أحياء حديثة ، بنيت خارج المدينة القديمة .

وتؤدى إلى وسط المدينة من النهر ، عدة من الشوارع الصاعدة العتيقة المرصوفة بالحجارة ، وتوجد مقابلها من الناحية الأخرى شوارع مماثلة ، صاعدة نحو الكنيسة العظمى ، وهذه الشوارع هى أقدم شوارع سمورة .

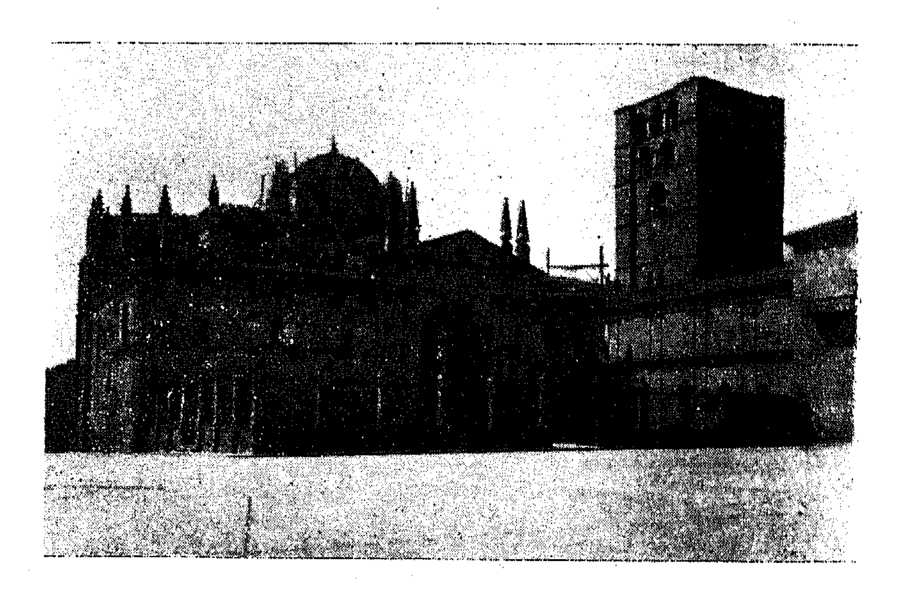
وتقع كتدرائية سمورة فى طرف المدينة الأيمن ، وهى قديمة ترجع إلى القرن

---

(١) راجع كتابى دولة الإسلام فى الأندلس (الطبعة الثالثة) ص ٣٨٨ و ٣٨٩ .



سمورة . منظر عام للحصن والأسوار



سمورة . الكنيسة العظمى

الثانى عشر، قوطية الطراز ، ذات عقود مستديرة من أعلى ، ولها قبة مستديرة هى أقرب إلى شكل قبة الجامع ، يحيط بها من الخارج، عدة قباب صغيرة مستديرة، على مثل قباب كنيسة أيا صوفيا البيزنطية ، وهى جميلة الزخرف من الداخل بالرغم من صغرها ، ولها برج أجراس مربع عريض ذو طابع خاص وقائم إلى يمينها ، وتوجد فى متحفها مجموعة ثمينة من السجاجيد ، وبه تحفتان أندلسيتان هما عبارة عن صندوقين ، أولها صندوق صغير من العاج ، ارتفاعه ١٨ سنتى متراً وعرضه ١٠,٥ سنتى متراً ، وقد زينت جوانبه بصور الطيور والغزلان ، ونقش عليه بالخط الكوفى ما يأتى :

« بركة من الله للإمام عبد الله الحكم المستنصر بالله أمير المؤمنين مما أمر بعمله للسيدة أم عبد الرحمن على يدى درّى الصغير سنة ثلثة وخمسين وثلث مائة » .

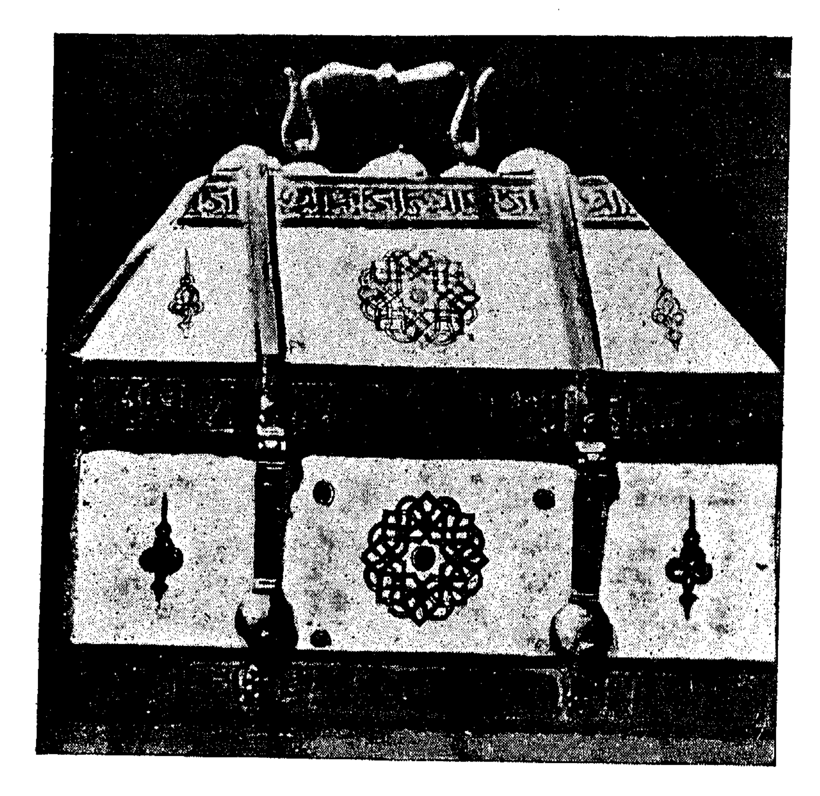
والثانى صندوق كبير من الخشب مطعم بالعاج ، طوله ٣,١٥ متراً وعرضه متران ، وارتفاعه ٢,٣٥ متراً ، وعلى جوانبه نقوش عربية متقطعة هذا نصها :

«. . . وصلى الله على محمد وآله وسلم تسليما خير حافظاً وهو

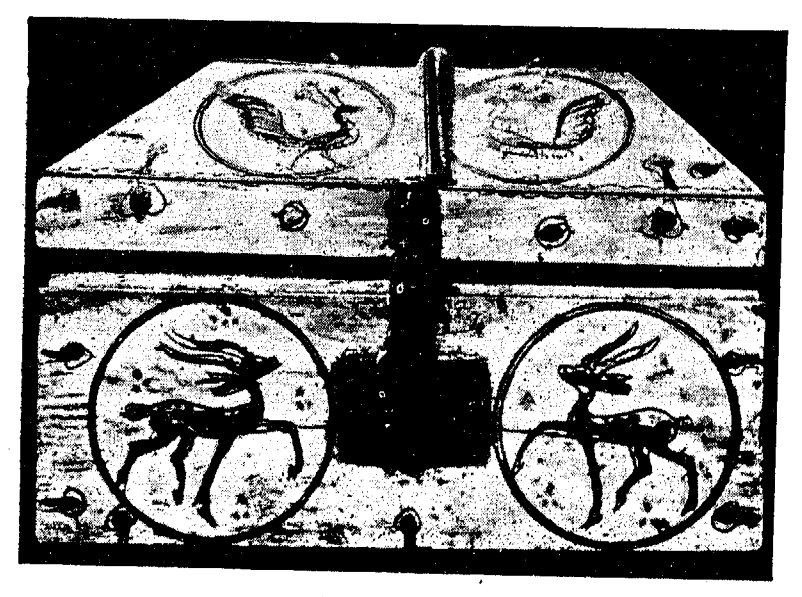
« العزة الدائمة والنعمة [الكاملة] والغبطة المتصلة والسعاد [ة] [ال] قبيلة واليمن والتأييد والنصر والتسديد والعز لصاحبه » .

وأما عن الآثار الأندلسية، فإنه ما زالت توجد قطعة من أسوار سمورة القديمة أدمجت فى ظهر بعض المبانى الحديثة ، وتقع بجوار هذه الأسوار شوارع عتيقة صاعدة نحو الكتدرائية ، التى يبدو أنها تحتل مكان الجامع أو مسجد القصبة القديمة .

وتقع قلعة سمورة فوق أعلى جزء من الربوة ، ويطلق عليها اسم حصن « أورّاكا » . وأورّاكا هذه هى ابنة فرديناند الأول ملك ليون ، وكان بعد أن استرد المدينة من المسلمين فى سنة ٩٨٦ م ، قد أصلحها ومنحها لابنته المذكورة. على أنه يبدو أن حصن أورّاكا قد بنى فوق أسوار وأنقاض القلعة الأندلسية القديمة، التى أقامها المسلمون منذ الفتح . ويسمى أحد أبواب الحصن « باب الخيانة » P. de la Traición لأنه فتح بخيانة حراسه فى بعض المعارك ، التى نشبت بين الملكة أورّاكا وخصومها .



صورة . جانب من الصندوق الأندلسى الكبير المحفوظ بالكنيسة



صورة . جانب من الصندوق الأندلسى العاجى الصغير المحفوظ بالكنيسة

ولا داعى لأن نتحدث عن باقى المعالم الأثرية فى سمورة ، وهى كنائس أخرى مثل كنيسة مجدلينا ، وسانتا ماريا ، وسانتياجو ، وبعض صروح ترجع إلى العصور الوسطى . بيد أنه مما يلاحظ فى خطط المدينة القديمة وشوارعها الصاعدة نحو الكنيسة العظمى ، وما يتخللها من الدروب الضيقة والمنازل العتيقة الطراز ، أنها تقوم على الأغلب ، فوق رقعة المدينة الأندلسية القديمة ، متأثرة بمظاهرها وطرازها .

٤ — شلمنقــــة

Salamanca

كانت شلمنقة من أوائل المدن الأندلسية التى فقدها المسلمون ، فلم تمكث فى أيديهم سوى نصف قرن ، ثم استردها النصارى فى سنة ٧٥٧ م ، فى أوائل عهد عبد الرحمن الداخل الأموى .

وتقع شلمنقة[1] على الضفة اليمنى لنهر تورمس أحد أفرع نهر دويرة ، وهى مركز مواصلات مهم لمدن قشتالة الشمالية ، مثل بلد الوليد وبرغش وسمورة وليون.

واشتهرت شلمنقة فى العصور الوسطى بنوع خاص ، بجامعتها الشهيرة التى كانت تنافس جامعة غرناطة الإسلامية ، خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، والتى ما زالت إلى يومنا تسبغ على اسمها فخراً وبهاء .

وشلمنقة مدينة عظيمة ، تكاد برقعتها المترامية وشوارعها الفخمة ، وميادينها الفسيحة ، تضارع بعض المدن الإسبانية الكبيرة ، مثل إشبيلية وقرطبة ، بيد أنها أصغر منهما حجماً ، وأقل سكاناً ، وسكانها لايعدون خمسة وثمانين ألفاً .

وتحتفظ شلمنقة بطابع تاريخى بارز ، وترتسم عليها ملامح المدينة القديمة التالدة ، مدينة العصور الوسطى ، وتسبغ عليها صروحها التاريخية المتعددة حلة الوقار والنبل والسحر ، وما يزال كثير من خططها وشوارعها وميادينها على حالتها التى كانت لها منذ قرون . وميدانها الكبير Plaza Mayor ، من أكبر وأروع ميادين المدن الأوربية ، وهو عبارة عن مربع شاسع يبلغ ضلعه نحو مائة متر ، وتحيط به من جوانبه الأربع عقود حجرية جميلة ، وله مداخل عديدة من شوارع المدينة الرئيسية كلها معقودة ، وتتصل به ، وتقع من حوله شوارع قديمة ذات عقود ، وشوارع ضيقة مسقفة على نظام (الجالبريا) أو القيسرية الأوربية . ويرجع هذا الميدان إلى أكثر من قرنين ، وقد أنشىء ليتسع لعشرين ألفاً من النظارة ، الذين يحتشدون لشهود مصارعة الثيران .

---

(١) وقد رأيناها تكتب « شلمنقكة » وذلك فى مخطوط كنسى قديم بمكتبة مدريد الوطنية .

وبالرغم من هذا الطابع التاريخى القديم ، فان شلمنقة تحتوى على طائفة من الأحياء الحديثة ، التى تخترقها شوارع فسيحة مرصوفة ، وتقوم بها أبنية وعمارات كبيرة حديثة الطراز .

وليس فى المدينة شيء يذكرنا بماضيها الأندلسى القصير المدى ، وإن كانت خططها القديمة وشوارعها المعقودة ، تبدو متأثرة بطراز المدن الأندلسية فى العصور الوسطى .

* * *

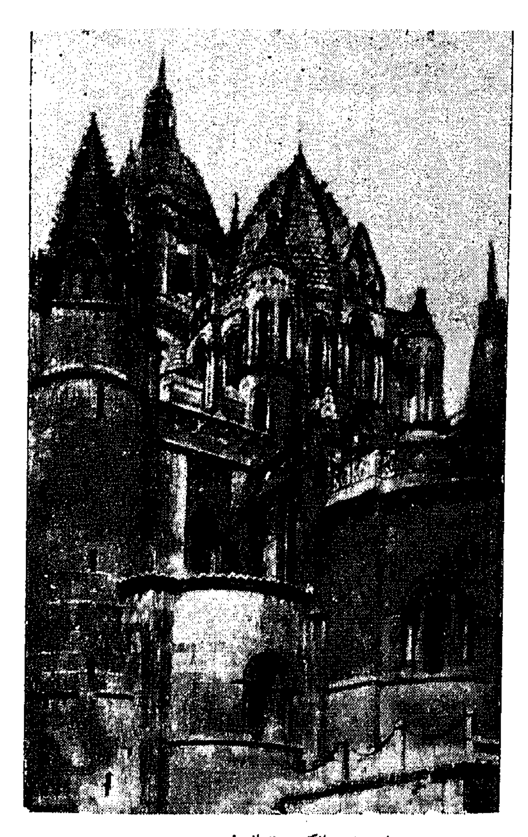
وتجتمع معظم صروح شلمنقة التاريخية فى منطقة واحدة ، فالجامعة ، والكتدرائية ، وغيرها من الكنائس التاريخية ، والقصر المسمى « دار الأصداف » وقصر مونتيرى ، كلها تقع على مقربة من بعضها البعض داخل المدينة القديمة .

وجامعة شلمنقة بلا ريب هى أعرق وأشهر صروحها الأثرية ، وهى أقدم جامعة فى اسبانيا ، ومن أقدم جامعات العالم . وقد أنشئت فى أوائل القرن الثالث عشر ، فى عصر ألفونسو التاسع ملك ليون ، وأغدق عليها الملك ألفونسو العاشر (العالم) (١٢٥٢ — ١٢٨٢) رعايته ، وأنفق أموالا عظيمة فى سبيل تدعيمها ، وتوسيع نطاق الدراسة فيها ، وصدر مرسوم البابا اسكندر الرابع باعتبارها من معاهد الدراسات العامة ، على مثل جامعات بولونيا وباريس وأكسفورد يومئذ . وفى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، ذاعت شهرتها العلمية فى سائر أنحاء أوربا ، وهرع إليها الطلاب من كل فج ، وبلغ طلابها يومئذ نحو خمسة عشر ألفاً ، غير أنها أخذت فى التضاؤل والذبول منذ القرن السابع عشر ، واستمرت كذلك حتى انتهى عدد طلابها فى بداية القرن الحالى ، إلى نحو ألف ومائتى طالب ، وأضحت فى يومنا لا تحتفظ من سمعتها القديمة بأكثر من صفتها التاريخية ، وإن كانت تحاول دائماً أن تجعل من هذه الصفة شيئاً مذكوراً ، بما تجريه من احتفالات تذكارية ، وما تنظمه من دراسات موسمية خاصة .

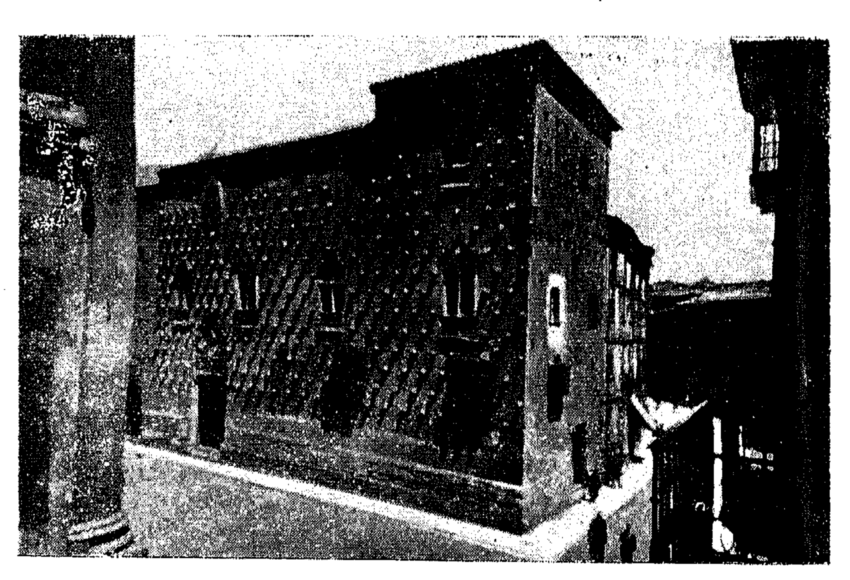
ومازالت جامعة شلمنقة تحتفظ بصروحها التاريخية ، التى ترجع إلى القرنين الخامس عشر والسادس عشر . وهى عدة صروح متقاربة مبنية من الحجر الصلد ، ولها عقود وأبهاء فخمة ، وبها كثير من الزخارف المعمارية ، من طراز عصر الأحياء : وتضيق هذه الصروح القديمة اليوم عن أن تتسع لكلياتها الخمس ، وهى الآداب ،



شلمنقة . بناء الجامعة القديم



شلمنقة . الكنيسة العظمى



شلمنقة . « دار الأصداف »

والفلسفة ، والحقوق ، والعلوم ، والطب ، ولهذا فقد بنيت إلى جوارها وعلى مقربة منها عدة صروح حديثة . وللجامعة شلمنقة مكتبة قديمة نفيسة ، تحتوى على ألف مخطوط ونحو مائة ألف كتاب .

وتقع كتدرائية شلمنقة ، فوق مرتفع يشرف على نفس الميدان ، الذى تشرف عليه الجامعة ، وهى كنيسة عظيمة الحجم قوطية الطراز ، شاهقة الارتفاع ، كثيرة التنسيق والزخرف ، وترجع إلى القرن السادس عشر ، ولها واجهة عظيمة من الأمام وأخرى من الخلف ، ومن ورائها توجد الكتدرائية القديمة بقبابها وأبراجها الصغيرة المنخفضة.

ويوجد غير الكتدرائية عدة أخرى من الكنائس التاريخية ، منها كنيسة كليريثيا Clerecia ، وهى على مقربة من الجامعة والكتدرائية ، وترجع إلى القرن السابع عشر ، وكانت فى البداية معهداً لليسوعيين ، ويقوم اليوم إلى جانبها معهد دينى آخر ذو صحن كبير معقود ؛ وكنيسة سان مرتين ، وهى كنيسة صغيرة ولكن قديمة فخمة .

كما شهدنا بعض الصروح التاريخية ذات الخواص الأثرية والزخرفية ، منها « دار الأصداف » Casa de las Conchas ، وهى ترجع إلى عصر الملكين الكاثوليكيين (أواخر القرن الخامس عشر) ، وقد سميت كذلك ، لما تزدان به واجهتها من الأصداف المدببة . ومنها قصر مونتيرى ، وهو صرح جميل فخم مبنى على طراز عصر الإحياء ، وبه كثير من الزخارف الجميلة .

٥ — أوفييـــــدو

Oviedo

تقع منطقة الأستورياس Asturias[1] فى شرقى جلّيقية ، على القسم الأوسط من خليج بسكونية ، وتحدها من الجنوب جبال كنتبريا الشهيرة . وكان من المتعين بعد زيارتى لجلّيقية ، أن أجوب تلك المنطقة ، التى عجز الفاتحون المسلمون عن إخضاعها ، والتى نمت فيها البذور الأولى للمملكة النصرانية الشمالية .

وقد رأيت خلال تجوالى مدينة « لُك » Lugo ، وهى أيضاً من مدن جليقية التى افتتحها المسلمون ، وبقيت فى يدهم زهاء نصف قرن ، ثم كانت من أوائل المدن التى استردها النصارى ، حيث استولوا عليها فى سنة ٧٥٧ م ، أيام عبدالرحمن الداخل ، مع بعض المدن الشمالية الأخرى ، مثل أسترقه وسموره وشلمنقة ، حسبما سبقت الإشارة إليه .

وتقع مدينة « لك » على مقربة من شنت ياقب فوق ربوة مرتفعة ، وتقوم أحياؤها موزعة متدرجة فوق أجزاء الربوة ، ومن ورائها السهل الأخضر ، تتلوه سلسلة من التلال ، وهى فيما يبدو مدينة تجمع بين طابع العصور الوسطى والطابع الحديث .

ومنطقة الأستورياس كمنطقة جليقية ، ذات طبيعة جميلة منوعة ، وتخترقها الجبال والتلال والآكام العالية ، والوديان العميقة ، بلا انقطاع . وهذه الهضاب الوعرة ، إما صخرية أو تغطيها الخضرة والأشجار ، والبسائط منها نادرة ، وهى فى هذه المنطقة أشبه ما تكون ببعض نواحى الألب النمسوية ، ويسير القطار خلالها ساعات متوالية دون أن تتغير مناظرها .

وقبيل مدينة أوفييدو تكثر التلال والبسائط المتدرجة اليانعة ، وهى منطقة خصبة جداً ، تغطيها مختلف المحاصيل والأشجار .

* * *

(١) تسمى منطقة Asturias فى الجغرافية العربية بمنطة « أشتوريش » .

وتقع مدينة أوڤييدو عاصمة ولاية الأسترياس ، فى واد عميق أخضر تحيط به الربى والتلال ، وتشغل رقعة تمتد على شكل قوس مفتوح ، تجتمع فى وسطه أحياؤها الهامة ، وتوجد فى جانبيه طائفة من الأحياء الأنيقة المتفرقة بمثابة الضواحى ، وأمامها وخلفها التلال تحميها ، وبسيطها يانع وافر الخصب ، تحيط به طائفة من التلال المتدرجة الخضراء .

وأوڤييدو مدينة كبيرة ، ذات شوارع فسيحة وميادين فخمة ، وفى وسطها متنزه عظيم جميل التنسيق ، وطابعها حديث ، ومبانيها جميلة مشرقة ، بيد أنه توجد فى بعض أحيائها الداخلية بعض شوارع ضيقة عتيقة الطراز ، وفى هذه الأحياء تقع صروحها الأثرية ، التى تذكرنا بتاريخها القديم ، أيام أن كانت عاصمة للمملكة النصرانية الشمالية . والمدينة وافرة الحركة والنشاط ، ويبلغ سكانها زهاء مائة ألف .

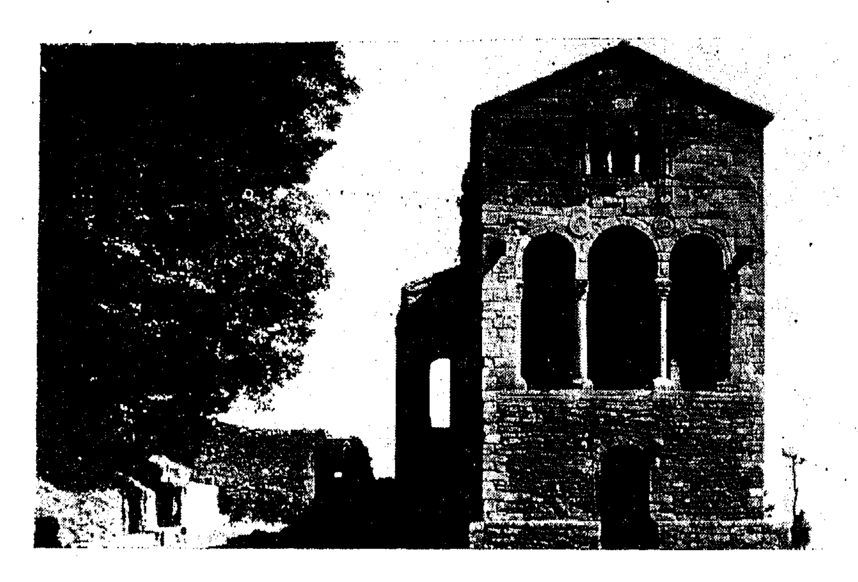
ومما يجدر ذكره أن النخيل القصير يرى فى شوارع أوڤييدو وضواحيها ، وهو نادر الوجود فى هذه الأصقاع الشمالية .

وفى أوڤييدو عدة معالم أثرية ، فى مقدمتها الكتدرائية (الكنيسة العظمى) ، وهى كنيسة عتيقة قوطية الطراز ، ذات واجهة تتكون من ثلاث عقود كبيرة ، وفناء مستطيل ، يتوسطه عقد ، وقد زينت بمختلف الزخارف وصور الرسل ، وصحنها الداخلى قوطى الطراز أيضاً ، وبها عدة هياكل جميلة الزخرف .

ويرجع صرح الكتدرائية الحالى إلى القرن الرابع عشر ، ولكنه أقيم فوق أنقاض كنيسة قديمة صغيرة بنيت فى القرن الثامن . وفى داخل الكنيسة ، مصلى قديم يسمى « الغرفة المقدسة » Camara Santa ، وهو يضم عدة ذخائر نفيسة ، من أحجار كريمة وصلبان أثرية ، ومنها صليب يقال إنه هو الذى كان يرفعه النصارى فى موقعة كوڤادنجا ، التى هزم فيها المسلمون فى أوائل القرن الثامن .

وتوجد بالمدينة عدة كنائس أثرية أخرى ، مثل كنيسة سان إيزيدورو اليسوعية ، وسان خوان وغيرهما . بيد أن أقدم كنائس أوڤييدو الأثرية ، تقع خارج المدينة ، على التل المشرف عليها .

فهناك توجد كنيستان ترجعان إلى القرن التاسع الميلادى . الأولى « سانتا ماريا دل نرانكو » وهى عبارة عن زاوية صغيرة الحجم : قديمة جداً ، مبنية من الحجر الصلد ، وأهم ما يميزها من ناحية الطراز ، واجهتاها الأمامية



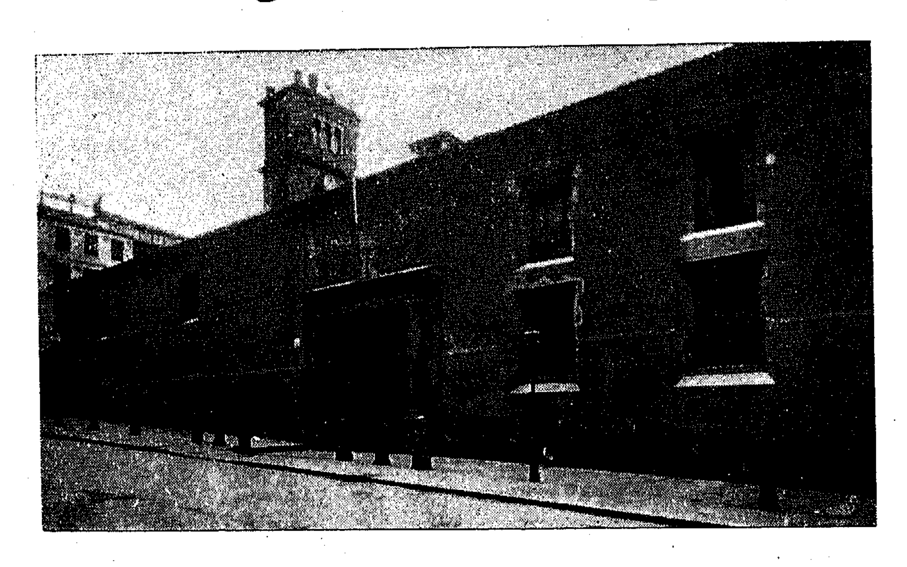
أوڤييدو . كنيسة سانتا ماريا دل نرانكو



أوڤييدو . كنيسة سان ميجل دى لليو

والخلفية ، وكل منهما عبارة عن شرفة عربية ذات ثلاثة عقود صغيرة جميلة ، وفى أعلاها شباك صغير ذو ثلاثة عقود صغيرة . ومداخلها وكواتها كلها ذات عقود عربية ، وأعمدة رومانية ، وصحنها الداخلى عبارة عن قبو قوطى مستطيل ، يقوم فوق بهو يصل ما بين الواجهتين ، وقد كانت هذه الكنيسة قصراً شيده الملك راميرو فى أواسط القرن التاسع الميلادى ثم حول إلى كنيسة .

والثانية هى كنيسة سان ميجل دى لليو ، وهى تقع فوق الربوة على مقربة من الأولى وهى عتيقة فى حالة تهدم ، وبناؤها عادى لا يمتاز بشىء من الخواص الفنية ، إلا نوافذها الثلاثة الصغيرة على الجانبين ، فكل منها ذو عقدين صغيرين على الطراز العربى ، وفى أعلا كل من جانبيها ، توجد أيضاً نافذة عربية ، ذات ثلاثة عقود صغيرة ، وترجع هذه الكنيسة أيضاً إلى القرن التاسع الميلادى .



أوڤييدو . واجهة الجامعة القديمة

ومما يلفت النظر فى شأن هذين الصرحين العتيقين ، هو ما يحتويانه من العقود والنوافذ العربية ، وهى ظاهرة تدل على أن الطراز العربى الأندلسى ، كان له أثره منذ وقت مبكر ، فى طراز الكنائس والصروح النصرانية . حتى فى هذا الجزء النائى من اسبانيا .

وفى أوڤييدو أيضاً جامعة من أقدم الجامعات الإسبانية ، وقد أنشئت فى

سنة ١٦٠٤م فى عصر فيليب الثالث، وهى مازالت إلى اليوم تحتل صرحها القديم داخل المدينة ، وهو عبارة عن بناء حجرى متوسط الحجم ذى طابقين ، وله فناء أندلسى معقود ، تطل عليه أروقة الطابق الثانى ، وهى تضم كلية للحقوق،وأخرى للعلوم (الكيمياء فقط)،وقسما من كلية الآداب هو قسم العلوم الرومانية . أما باقى الكليات والأقسام فهى ملحقة ببعض الجامعات القريبة الأخرى ، مثل بلد الوليد وشملنقة . ولجامعة أوفييدو مكتبة قديمة ، تضم كثيراً من المخطوطات اللاتينية ، والكتب الكلاسيكية .

٦ – كوڤادنجا

Covadonga

طالما تاقت نفسي إلى زيارة منطقة الصخور الوعرة المسماة صخور كوڤادُنجا ، وهي الصخور التي عجز الفاتحون المسلمون عن إدراكها ، والتي اعتصمت بها فلول القوط عقب فتح الأندلس ، بزعامة أميرهم پلايو ، ثم كان منها خروجه لاسترداد بعض الأراضي المفتوحة من المسلمين ، ووضعه بذور المملكةالنصرانية.

فلما وصلت إلى مدينة أوڤييدو ، حرصت كل الحرص على تحقيق هذه الأمنية.
وتقع كوڤادُنجا شرقي أوڤييدو ، على قيد خمسة وثمانين كيلومتراً منها ، وتفصل بينهما منطقة من أجمل مناطق الأستورياس ، وهي منطقة معظمها بسائط خضراء ، وافرة الخصب ، تنمو بها مختلف الأشجار ، وتجود بها الحبوب ولاسيما الذرة ، وتتخللها الرقاع المتدرجة ، ولكنها دائماً خضراء . وبها كثير من المراعي الجيدة ، وتحدها التلال من الجنوب . وهنا تتفوق المناظر الطبيعية في جمالها ، على مناظر أواسط اسبانيا وجنوبها ، وتقترب في هذا الجمال من نظائرها في بلاد أوربا .

وتقطع ثلاثة أرباع هذه المسافة أولا بالقطار ، من أوڤييدو إلى بلدة الرّيوندَاس Arriondas الصغيرة الأنيقة ، ثم تؤخذ منها السيارة إلى كوڤادنجا .

ولا تعدو هذه المسافة ثمانية عشر كيلومتراً ، وفي خلالها تمر بمدينة كانجاس دي أونيس Cangas de Onis ، وهي بلدة صغيرة قديمة ، كانت خلال القرن الثامن الميلادي ، وقبل أوڤييدو ، أول عاصمة للمملكة النصرانية الشمالية ، وهي تقع في سهل منبسط نوعاً .

ومتى جزت مدينة كانجاس ، فإنك تدخل منطقة الصخور التاريخية التي تنتهي بآكام كوڤادنجا . وفي هذه المنطقة تمتد الربى الصخرية العالية على جانبي الوادي ، ومعظمها ربى وعرة جرداء ، ويضيق الوادي شيئاً فشيئاً حتى ينتهي إلى كوڤادنجا. ولامراء في أن هذه المنطقة ، بواديهاالضيق وآكامها العالية ، ومراكزها الدفاعية الكثيرة ، تصلح للمعارك الحربية .

* * *

كوڤادُنجا ! إنها ليست بلداً ، بل ولا قرية . وهى لاتعدو أن تكون بقعة سياحية رائعة ، بها فندق وبعض مقاهى ، وأفراد قلائل من السكان لخدمةالسياح الوافدين . وكل ما فيها عدد من رجال الدين ، وعدد من زجال الحرس الوطنى ، وأبنيتها قليلة متناثرة هنا وهنالك فى السهل ، وفى أطراف الربوة التى تشرفعليه .

ولكن كوڤادنجا من جهة أخرىتقدم بصخورها الهائلة ، وآكامها الشاهقة ، أروع منظر يمكن تصوره .

والصخرة الهائلة ، والصخرة الأثرية التى هى مقصد الناس ، تسمى صخرة أوسيبا Auseba ، ويقوم أزاءها من الناحية الأخرى جبل يسمى خنيس Gines ، ويوجد بينهما واد سحيق ، هو الوادى الذى يقال إن المسلمين قدموا من ناحيته، لمقاتلة النصارى الذين التفوا حول زعيمهم پلايو ، وأن النصارى اعتصموا بمغار فى صخرة أوسيبا ، وصمدوا حتى يئس المسلمون من إدراكهم وانصرفوا .

إن الأسطورة تمتزج هنا بالتاريخ . وقد كان پلايو هذا (أو پلاجيوس) من زعماء أو أشراف القوط أو البسكونيين ، وقد عرف بالجرأة والبسالة ، فالتفت حوله فلول القوط الذين نجوا من بطش الفاتحين ، ولجأوا إلى قاصية الشمال ، واحتموا بالجبال . وتعرف الرواية الإسلامية پلايو هذا وتسميه (بلاى) ، وتصفه أحياناً بأنه أمير أو ملك ،ولكنها كالرواية النصرانية لا تحدثنا عن نشأته أو ظروف إمارته . بيد أنها من جهة أخرى تحدثنا عن الحملات التى جردها المسلمون عليه ، وعن الوقائع التى نشبت بينه وبينهم ، فى ذلك الموطن الشهير .

وتعرف الرواية الإسلامية هذا المكان « بالصخرة » أعنى صخرة كوڤادنجا ، وتحدثنا عن روعته وعن وديانه السحيقة ، ثم تذكر لنا كيف اجتاح المسلمون ناڤار وبسكونية ، ونفذوا إلى أعماق جبال الأسترياس ، لكى يقضوا على تلك البقية الباقية من قوات النصارى ، ولكنهم لم يستطيعوا إدراك العدو ، لأن پلايو وأصحابه، لجأوا إلى مغار عظيم فى هذه الصخرة الهائلة واعتصموا به، وكانعددهم بضع مئات ، فرابط المسلمون فى الوادى العميق الذى تشرف عليه الصخرة ، وحاصروا النصارى مدى حين ، وهم يتساقطون تباعاً من الجوع ، حتىلم يبقمنهم على قول الرواية الإسلامية سوى ثلاثين رجلا وعشرة نساء[1] . ثم انصرف

---

(١) راجع أخبار مجموعة فى فتح الأندلس ص ٣٨ ، ونفح الطيب (القاهرة) ج ٢ ص ٥٧ .

المسلمون عنهم احتقاراً لشأنهم . ولكن الرواية النصرانية تزعم من جهة أخرى ، أن پلايو وأصحابه كروا على المسلمين فى السهل ، وأن المسلمين هزموا هزيمة فادحة وفقدوا عدة ألوف ، وكان ذلك فى سنة ٧١٨ م (٩٨ هـ) .

وعلى أى حال فإن موقعة كوڤادنجا ، مهما كان القول فى شأنها ، قد أسفرت عن أعظم النتائج . ذلك أن هذه الشراذم القليلة من النصارى ، استطاعت فى ظرف أعوام قلائل ، أن تغدو قوة يحسب حسابها ، واستطاع پلايو بعد أن أمن مطاردة المسلمين ، أن ينظم إمارته الصغيرة ، التى استحالت غير بعيد إلى مملكة إسبانية نصرانية ، لبثت تنمو وتقوى تباعاً ، واستطاعت بعد صراع طويل الأمد ، أن تقضى على الدولة الإسلامية فى الأندلس .

* * *

ولنعد إلى كوڤادُنجا :

إن صخرة أوسيبا التى تجتمع حولها تلك الذكريات التاريخية العظيمة ، هى صخرة هائلة شاهقة ذات آكام مدببة ، يجرى من تحتها الماء من عيون صغيرة ، وتشرف على بسيط صغير من الأرض ، ويبلغ ارتفاعها نحو مائتى متر .

وفى وسط الصخرة ثغرة كبيرة ، تنفرج عن ساحة صغيرة ، فى ركنها الداخلى كنيسة قديمة ، وفى وسطها مغار صغير يضم قبر پلايو .

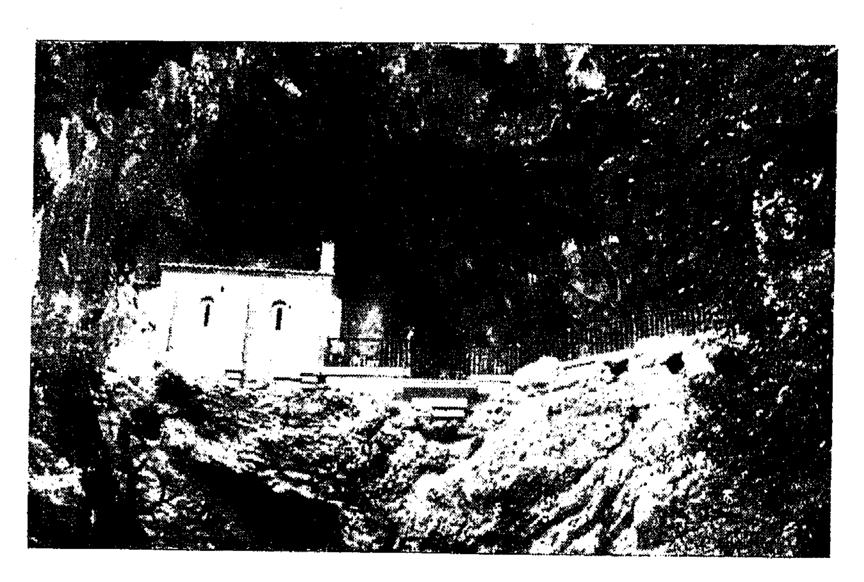
ويمكن الوصول إلى هذه الساحة التى بها الكنيسة والقبر ، إما بواسطة نفق طويل مد إليها من الربوة المجاورة التى تحاذى فى الارتفاع وسط الصخرة ، وإما بواسطة سلم طويل منحدر ، يصعد إليها من البسيط المنخفض الذى يطل عليه .

فأما الكنيسة الصغيرة فتسمى «مصلى عذراء كوڤادنجا» Capilla de la Virgen de Covadonga ، وهى عبارة عن هيكل صغير ، أقيم فى حمى ركن من الصخرة ، يجثو أمامه الرواد فى خشوع ، ويقام فيه القداس يوم الأحد ، حينما يغص المكان بالزوار من سائر الأنحاء .

وقبيل هذا المصلى يوجد قبر پلايو ، وهو عبارة عن خرق قدّ فى الصخرة (قبل نهايتها بنحو خمسين متراً) ، وقد وضع فيه تابوت من الحجر الأبيض تطل عليه كوة صغيرة معقودة ، وقد حفر على واجهته بالقشتالية ما معناه :



كوڤادنجا . منظر عام للوادى ومن حوله الجبال



كوڤادنجا . جانب الصخرة الذى به الكنيسة وقبر پلايو

« هنا يثوى الملك دون پلايو الذى انتخب سنة ٧٢٦ ، والذى كان فى هذه الصخرة » . ويلى ذلك تاريخ الوفاة وهو سنة ٧٣٧م .

وقد علمت من أحد الآباء المطلعين ، أن رفات پلايو لم تودع فى الأصل فى هذا المغار ، ولكنها دفنت أولا فى جبل خنيس ، ثم نقلت فيما بعد فى عصر صهره وخلفه الملك ألفونسو الأول ، إلى مكانها فى مغار الصخرة ، التى صمد فيها أمام المسلمين ، تنويهاً بنصره ، وتخليداً لذكراه .

وإلى يسار المدخل من ناحية النفق الذى أشرنا إليه ، توجد بقايا الكتدرائية القديمة ، وهى عبارة عن رواق كبير معقود ، ويستعمل اليوم لاجتماع الرهبان ويسمى « دار الرهبان » Casa de Sacerdotes .

وإلى كنيسة الصخرة هذه يتقاطر الحجاج ، من سائر أنحاء اسبانيا الشمالية ، وغيرها ، وللمؤمنين فى شأنها اعتقادات غريبة ، ومنهم من يصعد إلى الصخرة من سلمها الأسفل أو يأتيها من النفق جاثياً على ركبتيه ، حتى يصل إلى هيكلها ، وقد رأينا الكثير من الرجال والنساء ، يسيرون ركّعاً فى التراب والطين ، حتى يصلوا إليها ، ويبتهلون إلى العذراء أن تقضى حاجاتهم .

وتوجد فى أسفل الصخرة تحت الكنيسة ، بركة صغيرة يتساقط إليها الماء كما قدمنا من عيون صغيرة ، وقد علمت من أحد الرهبان ، أن هذا الماء يأتى من ينابيع نهر صغير ينبع من فوق الصخرة ويسمى نهر « رينوثا » Reynoza . وهو يجرى منحدراً نحو السهل ماراً بالصخرة .

وفى هذه الربوة المقابلة للصخرة ، والتى يظللها جبل خنيس Gines ، تقوم كتدرائية كوڤادنجا الحديدة ، التى شيدت منذ خمسين عاماً فقط ، وهى قوطية الطراز وتسمى « بازيلكا كوڤادنجا » .

الكتاب السادس

الأندلس الغربيّة والبرتغال

١ – بطليـــوس

Badajoz

ترجع بَطَلْيوس إلى العصر الرومانى ، وربما إلى عصور أقدم ، ويعتقد بعض الباحثين أنها تقوم على موقع مدينة Pax Augusta الرومانية .

وكانت بطليوس ، حتى النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى ، محلة قوطية خربة ، لم يعن بها المسلمون ، حتى كان اضطرام الفتنة الكبرى ضد حكومة قرطبة فى تلك الفترة ، فالتجأ إليها أحد زعماء الثورة المولدين ، وهو عبد الرحمن بن مروان الجلّيقى الثائر بماردة ، وبناها وحصنها (٨٧٥ م) ، وامتنع بها حيناً . وفى عهد الأمير عبد الله ، فى أواخر القرن التاسع ، أعلن الجليقى الطاعة ، وعاونه الأمير بالرجال والمال على تجديد بطليوس ، فابتنى بها الجامع ، وابتنى أيضاً مسجداً داخل القصبة ، وعدة مساجد أخرى ، وهكذا قامت بطليوس كقاعدة أندلسية جديدة ، تحتل من ذلك الحين مكانها فى تاريخ الأندلس [١] .

ولما انهارت الخلافة الأندلسية ، وقامت دول الطوائف ، كانت بطليوس قاعدة إمارة مستقلة فى ظل بنى الأفطس ، الذين سطعت دولتهم فى بطليوس وما حولها سبعين عاما (١٠٢٢ – ١٠٩٤ م) ، وكان منهم الأمير العالم الشاعر عمر بن الأفطس الملقب بالمتوكل ، وإليها أيضاً ينتمى أبو محمد عبد الله بن محمد البطليوسى اللغوى الشهير المتوفى سنة ٥٢١ هـ (١١٢٧ م) ، وكثير غيره من أكابر العلماء والأدباء .

وتقع بطليوس فى منحنى نهر وادى يانة ، على مقربة من الحدود البرتغالية ، فى البقعة المثلثة التى يحتضنها النهر ، عند ملتقاه بفرعه المسمى نهر « سو » . ويحدها النهر من الشمال . وهى مدينة كبيرة عتيقة الطراز ، تجوز إليها فوق قنطرة حجرية عظيمة يبلغ طولها نحو خمسمائة متر ، وهى ترجع إلى العصر الرومانى ، ثم جددها المسلمون ، وجددها الإسبان بعد ذلك ، فى عصر فيليب الثانى (القرن السادس عشر) . ويقابلها عند مدخل المدينة باب أثرى من صنع القرن السادس عشر ، هو

---

(١) الروض المعطار ، صفة جزيرة الأندلس ، ص ٤٦ .

باب النخيل، P. de las Palmas، وهو عبارة عن عقد عريض يحيط به برجان كبيران ، ومنه يدخل إلى المدينة .

وتبدو بطليوس بموقعها على النهر العريض الضخم ، فوق الربوة العالية التى تشرف عليه ، كأنها فى مجموعها قلعة عظيمة . والواقع أن هذه المدينة التالدة تتمتع بموقع طبيعى منيع ، يذكرنا بما كان لها فى سالف الدهر من أسباب الحصانة ، التى كانت تجعل منها أيام عهد الفتنة ، مركزاً من أشد مراكز الخروج والثورة على السلطة المركزية ، كما كانت تجعل منها أيام اشتداد الغزوات النصرانية ، مركزاً من أهم مراكز الدفاع الأمامية، فشأنها فى ذلك شأن قرينتها مدينة طليطلة .

القصبة الأندلسية

وليس أدل على هذه الحقيقة التاريخية من أطلال قصبة بطليوس ، التى تشغل بقعة كبيرة فوق الربوة المشرفة على النهر شرقى الزاوية التى ينحرف إليها النهر ، حين ينساب إلى حدود البرتغال، والتى يبدو أنها كانت من أعظم القصبات الأندلسية ضخامة ومنعة . وهى عبارة عن عدة مجموعات من الأطلال فرقتها يد الزمن ، وعوامل التخريب والتغيير ؛ والظاهر أنه لم يبق من قصبة بطليوس القديمة ، من أيام بنى الجلّيقى ، ثم بنى الأفطس ، آثار تذكر ، وكذلك لم يبق شىء من منشآتها أيام المرابطين . ذلك أن الهجمات والحصارات التى توالت على بطليوس فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى ، لم تبق على شىء من تحصيناتها القديمة . ونحن نعرف أن الموحّدين ، الذين حكموا الأندلس ، منذ أواسط القرن الثانى عشر ، قد اعتنوا بتحصين بطليوس بصفة خاصة ، لوقوعها فى طرف المملكة الإسلامية ، وتعرضها بذلك لهجمات النصارى المستمرة . وأمر الخليفة أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بإنشاء قصبة وأسوار جديدة للمدينة ، ومدها بالمياه ، وقد كان ذلك فيما يظهر حوالى سنة ٥٦٣ هـ (١١٧٠ م) . ومن ثم فإنه يمكن القول بأن الأسوار والأبراج التى تحيط اليوم بأطلال قصبة بطليوس ، هى من إنشاء الموحدين . ويوجد من هذه الأطلال حسبما تقدم عدة مجموعات . فقسم منها يقع على مقربة من النهر مع جزء من السور ، يبدو أنه السور الخارجى للقلعة ،

وقسم آخر يبعد قليلا عن الأول ، وقسم ثالث هو فيما يبدو أهم أقسام القصبة ، وهو الذى يشمل باب القصبة الخارجى ، ويقع هذا القسم فى الواجهة الغربية للقصبة ، وهو فى حالة جيدة من الحفظ . ويفصل القصبة من المدينة ما بين البرج المسمى « برج إسبنتابرّوس » ، والباب الرئيسى ، ويتصل هذا البرج فى الزاوية الجنوبية الغربية بالسور ، وتقع بينه وبين الباب الرئيسى ، ثلاثة من الأبراج الخارجية (البرانية) . ويقوم فى جنوب القصبة على مقربة من النهر برجان آخران . ومما يلفت النظر أن هذه الأبراج كلها مختلفة البناء والطراز .

وأما باب القصبة الخارجى ، فهو باب معقود يطل اليوم على الشارع المؤدى إلى سوق الفاكهة ، ويليه ممر قصير صاعد يؤدى إلى المدخل الرئيسى ، وهو عقد عال مزدوج ، بنى قوسه الخارجى من الحجارة الصلدة ، ويبلغ اتساعه نحو أربعة أمتار ، وارتفاعه نحو ثمانية ، ومن ورائه فناء مستطيل ، يخترقه عقد ثالث يؤدى إلى الخارج . ويقوم إلى يمين الباب الرئيسى ، برج فى حالة جيدة يبلغ ارتفاعه عن الأرض نحو ١٥ متراً ، وهو يقع بين البابين .

بطليوس . البرج الموحدى من بقايا القصبة

وهذا الجزء من أطلال القصبة ، ينبىء عما كانت عليه من المنعة والإحكام .

وقد حجب هذا القسم من القصبة ، وبنيت على جانبيه المنازل والحوانيت ، ولكن توجد عن يمين هذا القسم وبعده بقليل بقية أخرى من أسوار القلعة ، وهى التى تمتد حتى البرج الموحدى .

وهذا البرج الموحدى ، وهو المسمى بالإسبانية كما تقدم «برج إسبنتابيروس» Torre de Espentaperros ، هو أهم الأبراج التى تقدم ذكرها ، وهو يقع على قيد خمسين متراً من قسم الأطلال الواقعة داخل المدينة ، والتى يتوسطها الباب الرئيسى ، وهذا البرج مثمن الأضلاع ، ويوصله بالأطلال المذكورة سور طويل ، يقوم عليه برجان صغيران للحماية . وقد أقيم فوق هذا البرج المثمن ، برج آخر أصغر ، وهو بناء دخيل أقيم بعد عصر « الإسترداد » فى القرن السادس عشر فوق البرج الموحدى ، ليكون برجاً للأجراس ، ثم نزعت منه الأجراس فيما بعد . ويبلغ ارتفاع البرجين معاً عن الأرض نحو ثلاثين متراً . ويوجد إلى وراء هذا البرج برج آخر ، أقيمت إلى جانبه كنيسة المستشفى العسكرى ، الذى يحتل هذا القسم من موقع القصبة .

وقد أقيم هذا المستشفى العسكرى منذ أكثر من قرن على هذا القسم من أقسام القصبة ، وهو القسم الذى يتوسطه الباب الرئيسى السابق ذكره ، ثم وسع تدريجياً حتى وصل إلى أنقاض الكنيسة القديمة ، التى كانت تسمى « سانتا ماريا صاحبة الحصن » Sta Maria del Castillo . وفى هذا القسم آثار أبنية قديمة ، قد غطتها الأبنية الحديثة . ونحن نعرف مما تقدم ، أن عبد الرحمن الجلّيقى منشىء بطليوس ، قد أنشأ مسجداً داخل القصبة . وقد حول هذا المسجد عقب « الإسترداد » إلى كنيسة ، رفعت فيما بعد إلى مركز « الكتدرائية » ، وسميت « سانتا ماريا دل كاستيّو » . ولبثت هذه الكنيسة ، التى أقيمت على أنقاض جامع القصبة عصراً ، كتدرائية بطليوس ، قبل أن تنشأ الكنيسة العظمى الحالية . وكانت كنيسة « سانتا ماريا » هذه كنيسة صغيرة ، وقد بقى من أنقاضها برجان أدمج أحدهما فى واجهة المستشفى الجنوبية . ولما جدد المستشفى ووسع ، أدخلت فى بنائه بقايا الكنيسة المذكورة . ومعنى ذلك أن المستشفى يحتل ضمن أبنيته موقع جامع القصبة القديم .

وقد صعدنا إلى البرج الموحدى السابق الذكر ، وألقينا منه نظرة على بطليوس ، وهى تبدو منه مستديرة الرقعة ، وتبدو دروبها الطويلة الضيقة ومنازلها البيضاء ، ومن حولها السهل ، وتبدو القصبة واقعة فى طرفها الشمالى الشرقى . وشاهدنا فى داخل البرج من وسطه دائرة من العقود الصلدة ، وفى أعلاه دائرة أخرى مماثلة ،

ثم يليها فى القمة برج مربع يبلغ ارتفاعه نحو عشرة أمتار ، ويبدو هذا البرج من أعلى ، مقابلا لبرج الباب الذى أشرنا إليه .

والخلاصة أن ضخامة قصبة بطليوس ومنعتها ، تبدوان فى مختلف أجزائها ، وقد كانت تشغل رقعة كبيرة تمتد من ضفة النهر حتى الأسوار التى تبدو بعد البرج الموحدى[1] .

فى متحف بطليوس

ويحتوى متحف بطليوس الأركيولوجى على عدة لوحات أندلسية ، أهمها لوحة رخامية صغيرة حجمها نحو ٣٠ × ٤٠ سنتيمتراً ، وقد كتب عليها بالخط الكوفى ما يأتى : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا قبر سابور الحاجب رحمه الله . وتوفى يوم الخميس لعشر ليال خلون من شهر رجب سنة ثلث عشرة وأربعمائة ، وكان يشهد ألا إله إلا الله » . وسابور الحاجب المشار إليه فى هذه اللوحة ، هو سابور أحد الفتيان العامريين ، وقد استطاع أن يتغلب على بطليوس عقب الفتنة ، وأن يبسط حكمه عليها عدة أعوام ، حتى وفاته فى سنة ١٠٢٢ م (٤١٣ هـ) ، وأعقبه فى حكمها بنو الأفطس .

وتوجد صورتان للوحتين أخريين وجدتا أيضاً فى مدينة بطليوس ، وكانتا من ذخائر متحفها ، ثم نقلتا إلى متحف مدريد الوطنى ، واكتفى بعرض صورتيهما .

الأولى وهى أيضاً بالخط الكوفى ، شاهد قبر هذا نصه :

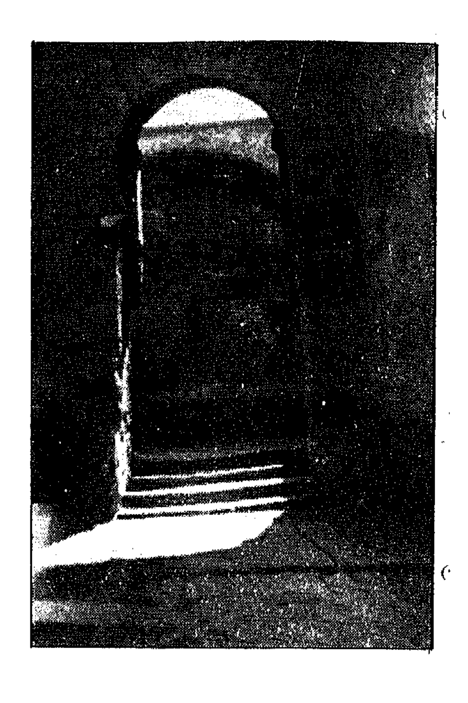
« بسم الله الرحمن الرحيم هذا قبر الشهيد المقتول ظلماً رحمه الله عبيد الله بن محمد بن أحمد الماردى بن المقتول قتلوه الملثمين يوم خروجهم ، وذلك يوم الأحد يوم تسعة وعشرين من رمضان المعظم عام تسعة وثلاثين وخمسمائة » .

والثانية كذلك شاهد قبر هذا نصه :

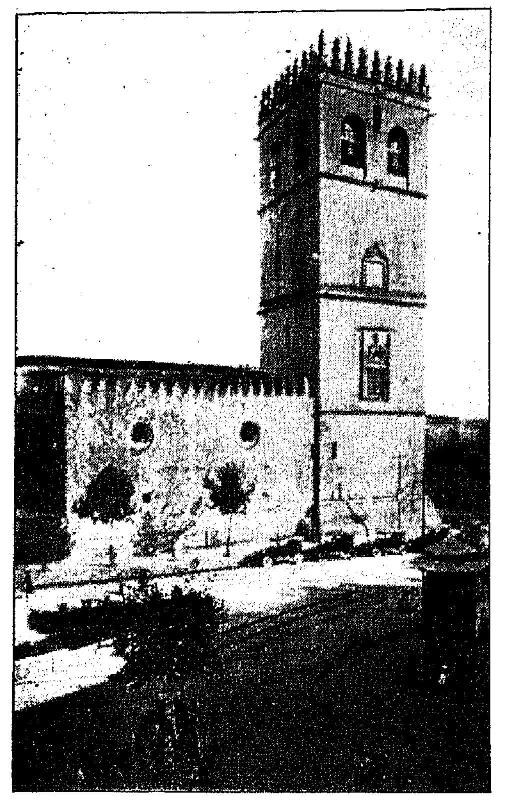
« بعد البسملة . كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام . هذا قبر الشيخ الفقيه أبى القاسم خلف بن حسن بن فرحون البكرى نور الله ضريحه وقدس روحه . استشهد بشرقى جامع بطليوس حين غدر العدو لها فى

---

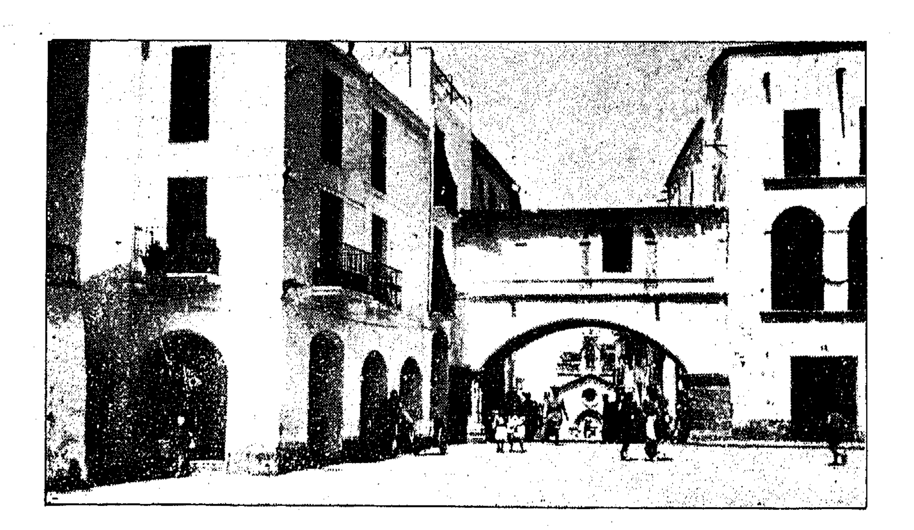
(١) راجع مقالا ضافياً عن قصبة بطليوس وأطلالها للعلامة المرحوم الأستاذ توريس بالباس فى مجلة الأندلس : Al-Andalus (1941, Fasc. I.p . 168-203) ، ومقالا آخر عن مسجد قصبة بطليوس ibid : (1943 Fasc. II. p. 467)



بطليوس . باب من أبواب القصبة



بطليوس . الكنيسة العظمى



بطليوس . « الميدان العالى » وقوسه المنخفض

فى صبيحة يوم الخميس أول يوم من ربيع الآخر عام ستة وخمسين وخمسمائة»(١).

وتوجد أخيراً بضع قطع من الآنية الخزفية الأندلسية .

معالم أثرية أخرى

وتقع الكنيسة العظمى فى الجنوب الشرقى ، على نحو خمسمائة متر من القصبة فى ميدان كبير هو ميدان اسبانيا . وهى متوسطة الحجم ، بنيت على شكل صليب عقدته المصلى ، وعلى جانبيه عقود قوطية ، وهيكلها كثير الزخرف ، ولكنها مظلمة ولاروعة فيها . وقد بنى برجها على مثل برج القصبة . وهى ترجع إلى النصف الثانى من القرن الثالث عشر . ويوجد بجوار الكنيسة مربع كبير من الأروقة الفخمة ذات العقود القوطية ، زينت جدرانها السفلى بالفسيفساء الجميلة ، وصحنه عبارة عن حديقة صغيرة ذات عقود جميلة مماثلة .

وهناك عدة كنائس وأديرة أثرية ، منها كنيسة سانت أوجستين ، وهى كنيسة صغيرة ذات عقود جانبية على مثل الجامع ، وكانت قبل ذلك ديراً ، وترجع إلى القرن الخامس عشر ، والكنيسة المسماة « دير الحفاة » **Convento de las Descalzas** ، وهى صغيرة ذات عقود قوطية وزخارف كثيرة .

وهناك أيضاً كنيسة كونثبسيون **La Concepción** ، وتقع فى وسط المدينة تقريباً . ويلوح لنا أنه إذا كانت الكنيسة العظمى تقع فوق أنقاض جامع بطليوس لقربها من سفح القصبة ، فإن كنيسة «كونثبسيون » فيما يرجح تحتل أيضاً مكان أحد المساجد الأخرى .

ويوجد فى بطليوس غير أبواب القصبة وباب النخيل التى سبق ذكرها ، أبواب أثرية أخرى منها العقد الضخم الواقع فى « الميدان العالى » **P. Alta** ،وهو عقد خفيض عريض يقع فى مواجهة سوق الفاكهة ، على مقربة من باب القصبة ، « وباب العمود » وهو أحد أبواب بطليوس النصرانية ، ويقع فى جنوبها ،وهو عقدان بينهما قبو يبلغ طوله نحو اثنى عشر متراً ، وباب « ترنداد » ويقع فى القسم الغربى من الأسوار المسماة أسوار « ڤوبان » .

---

(١) تشير هذه اللوحة إلى واقعة مهاجمة البرتغاليين بقيادة ملكهم ألفونسو هنريكيز لبطليوس ، لأول مرة (سنة ١١٦١ م) واستيلائهم عليها ، ثم استرداد المسلمين لها على الفور .

ولنعد إلى المدينة ذاتها ، فنقول إن بطليوس مدينة كبيرة الرقعة يبلغ سكانها زهاء خمسة وأربعين ألفاً . ويحد نهر وادي يانة المدينة القديمة من الشمال ، ومن ورائه توجد طائفة من الأحياء الحديدة تمتد حتى محطة السكة الحديدية . وأما المدينة القديمة فتمتد جنوباً وغرباً حتى أسوار « ڤوبان » ، وهي التي أنشأها الفرنسيون أيام حرب « وراثة العرش » في فاتحة القرن السابع عشر ، وسميت باسم منشئها المهندس والقائد الشهير ڤوبان ، وقد بقيت منها أجزاء كبيرة ، وتتجه بقيتها الجنوبية من الناحية الشرقية نحو أطلال القصبة لكي تتصل بأسوارها .

وللمدينة بطليوس طابع خاص يغلب عليه القدم والاحتشام ، ومع ذلك فهي تضم كثيراً من الشوارع والمباني الحديثة . وتجتمع في قلبها وفي جانبها الشرقي شبكة كبيرة من الدروب الضيقة القديمة الصاعدة نحو ربوة القصبة ، ومعظم سكانها من الطبقات الفقيرة ، وتوجد في أطراف المدينة من الشمال والغرب ، جماعات من الغجر ، وقد علمت أن عددهم يبلغ نحو ألف وخمسمائة .

وقد كانت لبطليوس بموقعها الحصين على منحنى نهر وادي يانة وعلى الحدود الإسبانية البرتغالية ، في العصور الوسطى ، أهمية عسكرية خاصة ، وقد حاول البرتغاليون بقيادة ملكهم ألفونسو هنريكيز انتزاعها من المسلمين ، المرة الأولى في سنة ٥٥٦ هـ (١١٦١ م) ، وقد استردها المسلمون على الفور ؛ والثانية في سنة ٥٦٥ هـ (١١٦٩ م) ، ولكن المسلمين عادوا فاستردوها ، واستمرت في أيديهم بعد ذلك عصراً آخر . وأخيراً استولى عليها النصارى بقيادة ألفونسو التاسع ملك ليون ، وذلك في سنة ١٢٢٧ م (٦٢٦ هـ) .

وليس من العسير أن نتعرف معالم مدينة بطليوس الأندلسية ، فهي واضحة في شبكة الدروب التي تنحدر من غربي القصبة وجنوبها إلى قلب المدينة .

٢ – ماردة

Mérida

ماردة هى إحدى مدن ولاية بطليوس ، وهى تقع شرقى بطليوس ، على الضفة الشمالية لنهر وادى يانة ، فى بسيط أخضر وافر الخصب ، وتبعد عن بطليوس نحو أربعين كيلومتراً .

وقد كانت ماردة مثل بطليوس ، منزل البربر والمولدين ، وكانت كثيرة الخروج والثورة على سلطة حكومة قرطبة . وقد سقطت فى يد النصارى بعد سقوط بطليوس بنحو عامين ، فى سنة ١٢٢٩ م (٦٢٨ ﻫ) .

ولكن ماردة ليست كبطليوس ، ذات طابع خاص واضح ، وإن كانت لها مع ذلك ملامح خاصة بها . وهى مثلثة الرقعة تقريباً ، ذات شوارع طويلة ، وميادين عديدة ، ويحدها من الجنوب نهر وادى يانة ، وعليه تقوم القنطرة الرومانية العظيمة ، على ستين عقداً . وهى كثيرة الدروب الضيقة المنعرجة ، التى هى طابع المدن الأندلسية القديمة ، وكثير من مبانيها الحديثة يحمل طابعاً أندلسياً من العقود والشبابيك المعقودة والأفنية الأندلسية ، ويرى النخيل فى شوارعها وميادينها وأحياناً فى منازلها .

وتضم ماردة خمسة عشر ألفاً من السكان ، منهم أقلية كبيرة من الغجر تسكن بجوار القصبة ، وفى بعض أحياء أخرى .

المعـــالم الأثرية

وفى ماردة طائفة من المعالم الأثرية الجليلة ، ولكن معظمها آثار رومانية ، وهى تدلى بما كانت عليه ماردة فى العصر الرومانى ، من الأهمية والمنعة ، فقد كانت عندئذ تسمى باسمها الرومانى Augusta Emerita ، ومن مقطعها الثانى اشتق اسمها الأندلسى « ماردة » .

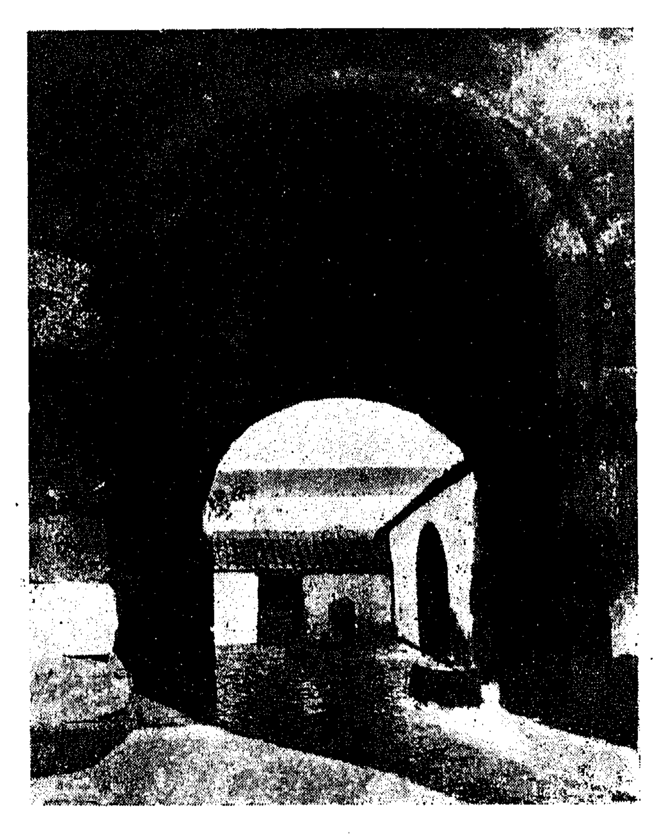
وفى مقدمة هذه الآثار القنطرة الرومانية العظيمة التى سبقت الإشارة إليها ، والتى تقوم فوقها أعمدة الجسر المائى Acueducto ، التى كانت تحمل قنوات الماء



ماردة . القنطرة الرومانية



ماردة . منظر عام للمسرح الرومانى



ماردة . العقد العربى داخل القصبة

إلى القصر . وتقع هذه القنطرة بجوار الأسوار الرومانية ، وهى أسوار عظيمة تضم فى داخلها أطلال ما يسمى بالقصبة أو القصر . وقد أشار صاحب الروض المعطار إلى قصر ماردة هذا ، وإلى القنطرة ذات العمد التى كانت تحمل إليه الماء[١] .

والقصبة هى أثر أندلسى بلا ريب ، وقد كانت قلعة رومانية وقوطية قديمة ، فأنشأ المسلمون على أنقاضها القصبة أو القصر ، وجددت هذه القصبة مراراً ، ولا سيما فى عهد عبد الرحمن بن الحكم ، فى أوائل القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) ، كما يدل على ذلك نص اللوحة الأندلسية ، المحفوظة بمتحف ماردة ، والتى نتحدث عنها فيما بعد .

---

(١) الروض المعطار ص ١٧٦ .

وأطلال القصبة خرائب متفرقة ، ولكنها تدلى ببوائكها ، وأطلال أبراجها المحاذية للنهر ، بما كانت عليه من منعة وحصانة ، وهى بلاريب بقية القلعة الأندلسية القديمة ، التى كانت تحمى القصر وتشرف على المدينة .

ويوجد على مقربة من هذه الأطلال ، المنحدر المعروف بالجب ، وهو منحدر عميق تسيل إليه مياه الأمطار ، وينزل إليه بسلمين فى كل زواق سلم .

وثانى الآثار الرومانية بعد القنطرة ،المسرح الرومانى ، وهو مسرح حجرى عظيم كامل تقريباً ، يقع خارج المدينة من ناحية الشمال الشرقى . وما زالت به صفوف من المقاعد الحجرية المتدرجة ، وأمامها المسرح ، وهو يشمل مساحة كبيرة ، ويقابله من الناحية الأخرى الأثر المسمى « بالأمفتياترو» وهو أيضاً ساحة عظيمة ، تقوم حولها المقاعد المدرجة فى نصف دائرة كالمسرح ، وتفضى إليها مداخل كثيرة ذات عقود .

ويوجد فى وسط المدينة أثر رومانى آخر ، هو عبارة عن عقد رومانى عظيم شاهق يبلغ ارتفاعه ثلاثة عشر متراً ، وهو معقود من الحجارة الكبيرة الصلدة ويسمى « عقد تراچان » Arco de Trajano .

وأما فيما يتعلق بالكنائس، فإن كنيسة ماردة العظمى تسمى سانتا ماريا ، وهى صغيرة الحجم ذات عقود قوطية ، وهى قديمة أيضاً ، وربما كانت تحتل موقع الجامع . بيد أن أقدم كنائس مارده هى كنيسة « سانتا أولاليا » ، وهى ترجع إلى عصر قديم جداً ، والمعروف أنها كانت قائمة أيام المسلمين ، وصرحها الحالى هو صرحها المجدد بعد سقوط المدينة فى يد النصارى ، وهو ذو عقود قوطية خفيضة. والقديسة أولاليا هى حامية المدينة.

هذا ومن الصعب إزاء غموض مواقع كنائس ماردة القديمة ، وعدم التحقق من أن كنيستها العظمى ، تحتل بالفعل موقع الجامع ، أن نحدد معالم المدينة الأندلسية بصفة واضحة ، بيد أنه يمكن من جهة أخرى ، أن نسترشد فى ذلك بموقع القصبة وأطلالها الباقية ، فنقول إن المدينة الإسلامية كانت تتجه من القصبة نحو النهر ، ويؤيد ذلك أن أحياء ماردة القديمة تقع فى هذه الرقعة . أما امتداد المدينة الحديثة فإنه يبدأ من خارج الأسوار .

نقوش أندلسيـــة

وإذا كانت ماردة تخلو من الصروح الأندلسية الهامة ، فهى من الناحية الأخرى تحتفظ فى متحفها بلوحة من أهم وأقدم اللوحات الأندلسية .

ومتحف ماردة متحف صغير ، ولكنه غنى بالآثار والتماثيل الرومانية ، التى استخرجت من حفريات ماردة ، وبه مجموعة من النقود الأندلسية الصغيرة من دراهم وأمثالها .

أما اللوحة الأندلسية المشار إليها ، فهى لوحة رخامية كبيرة طولها نحو مترين ، وعرضها نحو ثمانين سنتيمتراً . وقد وجدت فى سنة ١٩٠٢ فى قصبة ماردة . وهى ملقاة فى ركن مهمل من المتحف ، وكان يغمرها التراب والمهملات ، فرجونا حارس المتحف أن ينظفها ويجلوها ، وعدنا إلى المتحف عصراً ، وعكفنا على قراءة نقوشها الكوفية وهذا نصها :

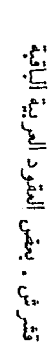
« بسم الله الرحمن الرحيم بركة من الله وعصمته لأهل طاعته . أمر ببناء هذا الحصن وبإعادته معقلا لأهل الطاعة الأمير عبد الرحمن بن الحكم أعزه الله على يدى عامله عبد الله بن كليب بن ثعلبة[1] وجفار بن مكسر وشعيب بن موسى حاجب الساد فى شهر ربيع الأول سنة عشرين ومائتين » .

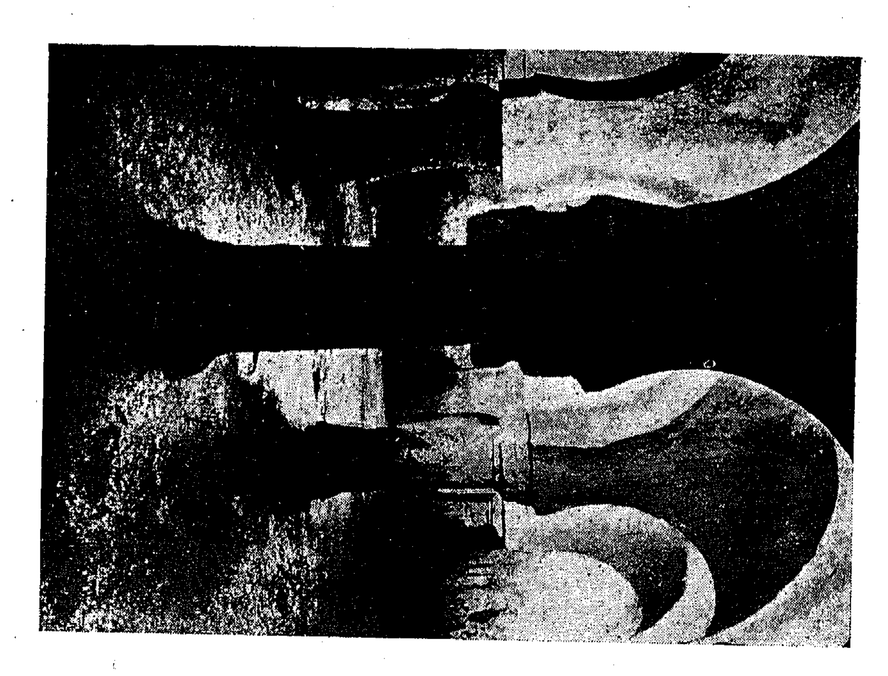
وهذه اللوحة الأثرية تشير إلى حادث تاريخى هام . فقد كانت ماردة من المدن الثائرة على عبد الرحمن بن الحكم أمير الأندلس ، وكان يتزعم ثورتها سليمان ابن مرتين زعيم البربر ، فسار الأمير عبد الرحمن بنفسه إلى ماردة وحاصرها بشدة . وحدث أثناء الحصار أن قتل الثائر فى سقطة مميتة عن جواده ، فانهارت الثورة ، وانفضت جموع الثائرين ، ودخل عبد الرحمن المدينة وأمر بتجديد قصبتها ، لتكون ملاذاً لأولى الأمر من أوليائه ، والمدافعين عن سلطانه ، وكان ذلك سنة ٢٢٠ هـ (٨٣٥ م) وهى السنة التى سجلت فى اللوحة المذكورة .

ويوجد فى الدار الأثرية التى يحتلها اليوم الفندق الوطنى Parador Naciónal ، فناء ذو عقود وأعمدة عربية ، ومنها عمودان أو ثلاثة عليها كتابات عربية ، ولكن

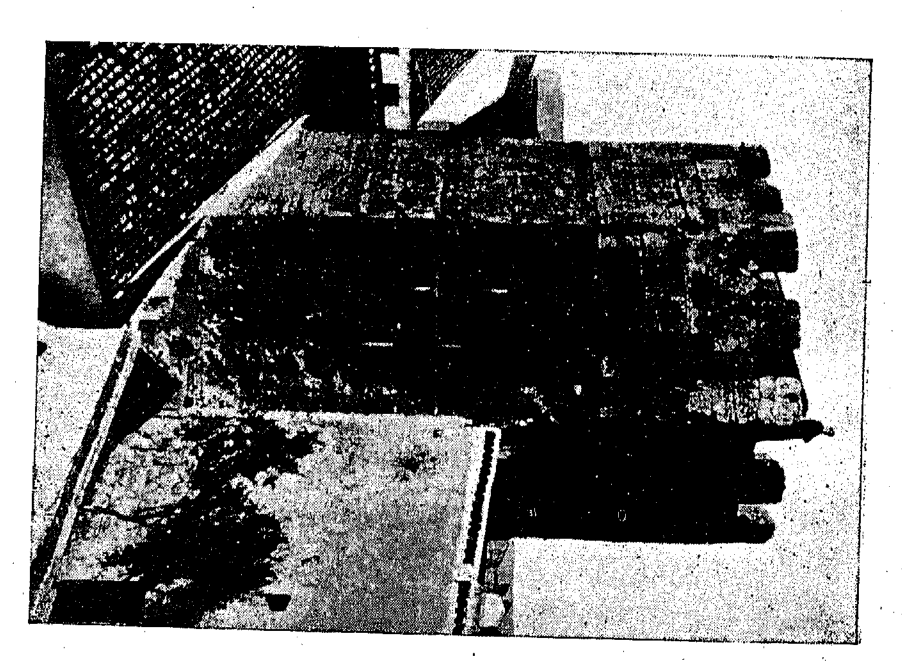
---

(١) فى الروض المعطار عبد الملك بن كليب بن ثعلبة (ص ١٧٧) .





قرقش . بعض العقود العربية الباقية



قرقش . البرج الكبير

ليس بالنقوش البارزة أوالحفر ، وإنما فقط بالكحت البسيط ، وهى أدعية وتحيات لا أهمية لها ، وربما كانت من صنع بعض الزوار المغاربة فى القرن الماضى .

* * *

هذا ولابد لنا بهذه المناسبة أن نشير إلى ظاهرة أثرية لها دلالتها التاريخية الهامة. فقد رأيت مما تقدم ، أن مدينة ماردة تغص بالآثار الرومانية الهامة ، وقد كانت هذه الآثار كلها قائمة على حالها فى عهدها الإسلامى ، حسبما يشير إلى ذلك صاحب الروض المعطار[١] ، وبالرغم من كونها تعتبر فى نظر المسلمين آثاراً وهياكل وثنية ، فإن المسلمين قد أبقوا عليها طيلة حكمهم للمدينة ، وهو أمد استطال أكثر من أربعة قرون . ولئن دلت هذه الظاهرة على شىء ، فهو أن الأمة الأندلسية المسلمة ، كانت ترتفع فى تقدير القيمة الفنية والأثرية لتراث العصور الماضية ، إلى مرتبة تسمو على الإعتبارات القومية والدينية ، وهذا ما أشرنا إليه فى مقدمة هذا الكتاب .

* * *

هذا ، وتوجد فى هذه المنطقة من الأندلس الغربية الشمالية ، بعض آثار أندلسية أخرى ، نذكر منها ما يلى :

أولا — توجد فى مدينة تُرْجالُه Trujillo ، الواقعة فى شمال ماردة على مقربة من جنوبى نهر التاجه أطلال حصن أندلسى ، وبقية أسوار أندلسية ، وتوجد بهذا الحصن لوحة عربية هى شاهد قبر ، وقد سقطت ترجاله فى أيدى النصارى فى سنة ١٢٣٢ م (٦٣٠ هـ)[٢] .

ثانيا — توجد بمدينة قشرش Cáceres ، الواقعة غربى ترجاله ، وشمالى بطليوس برج أندلسى ، وعقود عربية . ومازالت قشرش تحتفظ بطابع العصور الوسطى ، وبها أسوار وقصور وأبواب قديمة ، وتحتل كنيستها القديمة « سان ماتيو » موقع الجامع القديم .

---

(١) الروض المعطار ص ١٧٦ .

(٢) الروض المعطار ص ٦٣ .

٣ – ولبـــة

Huelva

الآن ننتقل من أرض الفرنتيره وولاية بطليوس ، إلى منطقة الغرب أوغربى الأندلس ، وهى المنطقة التى حرف اسمها العربى اليوم إلى كلمة Algarve الأوربية .

إن هذه المنطقة التى تمتد غربى مدينة إشبيلية على ساحل المحيط ، حتى جنوبى البرتغال ، ويخترقها نهر وادى يانة (وادى أنة) العظيم ، من أخصب المناطق فى شبه الجزيرة الإسبانية ، وهى مما يلى جنوب غربى إشبيلية ، عبارة عن بسائط خضراء تمتد إلى مرمى البصر ، وتزرع بها مختلف المحاصيل ، ويتخللها قليل من التلال ، وبها مراع طيبة للماشية . وأكثر ما شاهدناه بها مزارع القمح والكروم وغابات الزيتون . ومما لفت نظرنا أن القطن يزرع فيها فى رقاع قليلة ، ولكن شجيراته صغيرة ضئيلة .

وتمتد هذه البسائط بعد ذلك غرباً فى اتجاه نهر وادى يانة ، وافرة الخصب منوعة المحاصيل حتى حدود البرتغال ، بيد أنها قبيل مدينة ولبة تكثر بها التلال ، وتكثر غابات الزيتون .

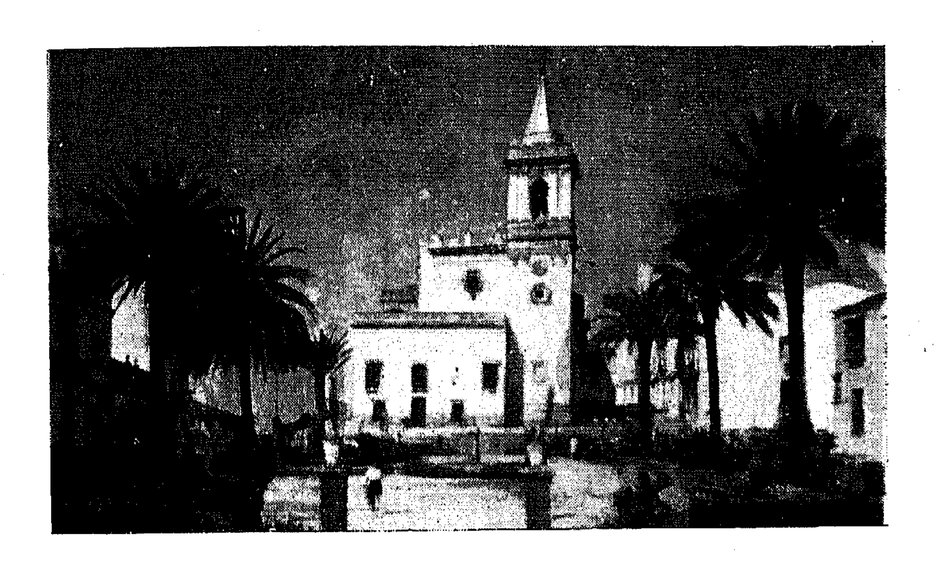
ومدينة « ولبة » هى ثغر بحرى كبير ، يقع على شاطىء المحيط الأطلنطى عند مصب نهر « أوديل » ، ويبلغ سكانها نحو سبعين ألفاً ، وهى بيضاوية الرقعة ذات شوارع طويلة . ويزدان شارعها الرئيسى الطويل الذى يخترقها مما يلى البحر بصفين من النخيل Alameda ، وكذلك تزدان به بعض الميادين ، ولكن شوارعها الجانبية من الناحية الأخرى ضيقة .

وهى عتيقة الطراز والمظهر . بيد أنها لاتحمل أية مسحة أندلسية . وأقدم معالمها الأثرية كنيسة « سان پيدرو » وتقع فى وسط المدينة ، وقد بنيت أولا عقب سقوط المدينة فى يد النصارى مكان المسجد الجامع ، ثم جددت بعد ذلك فى القرن الخامس عشر ، وما زال طراز الجامع ظاهراً فى قبتها التى على يمين الداخل ، ثم فى عقودها الوسطى . ومما يلفت النظر أنه توجد فى كل من جانبيها الشرقى والغربى ،

نافذة مستديرة عملت على هيئة نوافذ الجامع ، وأن بابها يقع فى الجنوب ، مما يدل على أنه عمل مكان محراب الجامع .

أما كنيستها العظمى « الكتدرائية » وهى المسماة بكنيسة الرحمة La Merced ، فهى قديمة أيضاً ، وترجع إلى القرن الخامس عشر ، ويبدو كذلك أثر الطراز الإسلامى ، فى عقودها وفى قبتها التى تحاكى قبة المسجد .

وفى ولبة بقية قنطرة رومانية قديمة ، وتمثال ضخم لكريستوف كولومبوس مكتشف أمريكا .



ولبة . ميدان وكنيسة سان پيدور

والأثر الأندلسى الوحيد الذى رأيناه فى مدينة ولبة ، هو نافذة أثرية ذات عقدين أندلسيين ، بهما زخارف عربية ، وتقع هذه النافذة فى واجهة منزل عادى يقع فى شارع « الميناء » C. del Puerto

وهناك أثر أندلسى آخر فى متحف ولبة الإقليمى هو لوحة من الفخار ، بيضاوية الشكل ، وهى عبارة عن شاهد قبر نقش على وجهه بالخط النسخ ما يأتى :

« الحمد لله وحده . توفى الشاب الطالب المرحوم أبو عبد الله محمد بن الشيخ الفقيه الأجل أبو عبد الله محمد بن سعيد بن على الجبلى رحمه الله وبرد ثراه عند

الزوال من يوم الإثنين الرابع عشر لذى قعدة عام أحد عشر وثمانى مائة » .

ونقش فى ذيلها « اليمن والإقبال ، اليمن والإقبال » .

ونقش على وجهها الآخر زخارف حول شجرة الحياة .

وتشتهر ولبة بنوع خاص بإتقان فنون الرقص الأندلسى ، وهى فى ذلك فى مقدمة المدن الأندلسية .

وقد سقطت مدينة ولبة فى يد القشتاليين فى سنة ٦٥٥ هـ (١٢٥٧م)، بعد سقوط إشبيلية بأعوام قلائل ، وكان الأمير الموحدى السيد أبو عبد الله ، الذى سقطت على يده إشبيلية ، قد اشترط أن يعوض عنها بولبة ولبلة وشلوقة (سان لوقار) وحصن القصر ، وهى كلها تقع غربى إشبيلية ، ثم عاد النصارى ، فاستولوا على هذه البلاد جميعاً خلال بضعة أعوام

ومما هو جدير بالذكر أن مدينة ولبة ، هى مدينة أونبة القديمة ، وبهذا الإسم كانت تسمى فى العصر الإسلامى .



ولبة . الشباك العربى ذو العقدين

٤ — لَبلة

Niebla

إن أهم ما تمتاز به مدينة لبلة من الناحية الأثرية ، هى أنها المدينة الوحيدة ، التى مازالت تحتفظ بأسوارها الأندلسية كاملة .

وتقع لبلة غربى مدينة إشبيلية على قيد سبعين كيلومتراً منها ، على الضفة اليمنى للنهر الأحمر Rio Tinto ، وهى من أعمال ولاية ولبة ، وتبعد نحو ثلاثين كيلومتراً إلى شرقها ، وكانت أيام الرومان تسمى Llipla ، ومنها اشتق اسمها العربى لبلة ، وتعرف أيضاً فى الجغرافية العربية « بلبلة الحمراء »(١) .

والمنطقة الممتدة من إشبيلية غرباً إلى لبلة ، ولاسيما فى مرحلتها الأولى هى من أخصب المناطق وأغناها بحدائق البرتقال ، وغابات الزيتون ، وحقول القمح اليانعة ، وتتكون على الأغلب من رقاع خضراء منبسطة ، والوعر بها قليل .

وكانت لبلة أيام الدولة الإسلامية ، قاعدة هامة من قواعد غربى الأندلس ، واشتهرت أيام الإمارة والخلافة ، بثوراتها العديدة ضد حكومة قرطبة ، وبمن ظهر فيها من الزعماء والخوارج . وفى أيام الطوائف ، قامت فى لبلة إمارة مستقلة تحت حكم بنى اليحصبى ، واستمرت على استقلالها نحو ثلاثين عاما ، حتى تغلب عليها المعتضد بن عباد ، وضمها إلى مملكة إشبيلية ، وذلك فى سنة ٤٤٣ هـ (١٠٥١ م).

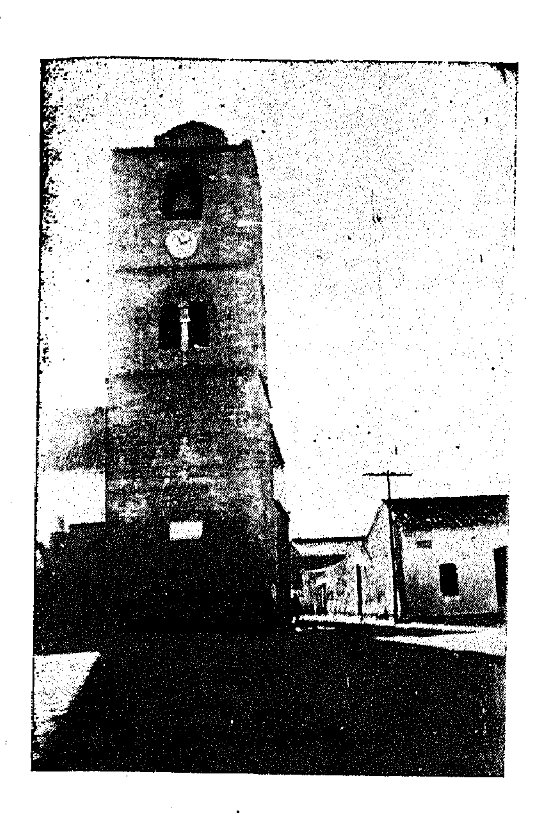
واستمرت لبلة فى يد المسلمين حتى النصف الأول من القرن الثالث عشر ، فى أواخر أيام حكم الموحدين لإسبانيا المسلمة ، وقامت بها فى ذلك الحين إمارة مستقلة أخرى تحت حكم ابن محفوظ . وحاول القشتاليون فى تلك الأثناء افتتاحها غير مرة ، وحاصروها فى سنة ١١٨٧ م ، واستولى عليها أسقف طليطلة خمنيس دى رادا فى سنة ١٢٣١ م لمدى قصير ، ثم عادت إلى المسلمين ، وأخيراً حاصرها ألفونسو العاشر ملك قشتالة (العالم) ، وانتهى بالاستيلاء عليها بعد حصار دام تسعة أشهر . ومما هو جدير بالذكر أن الموحدين استعملوا فى هذا الحصار لمدافعة النصارى ، آلات تشبه المدافع ، تقذف حجارة ومواد ملتهبة يصحبها دوى

---

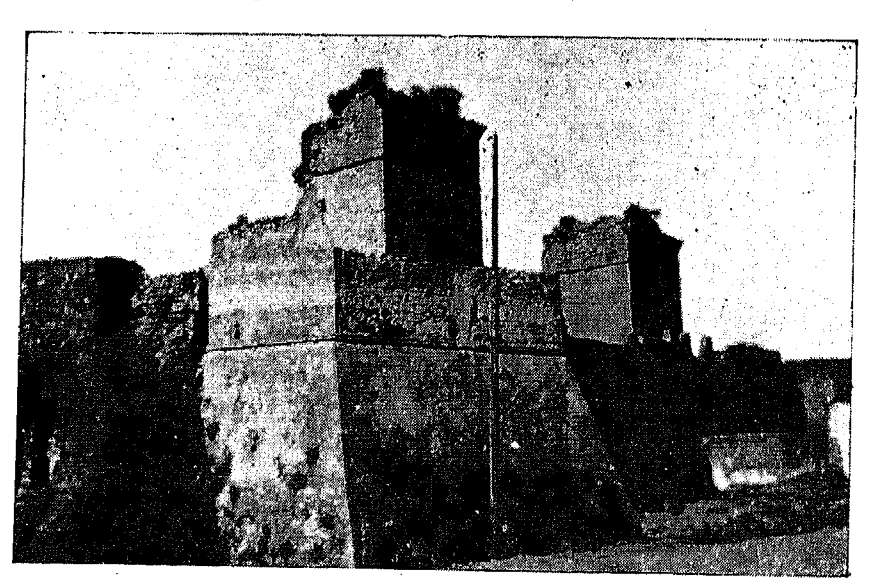
(١) معجم البلدان لياقوت تحت كلمة لبلة . والروض المعطار ، صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٦٨ .



لبلة . واجهة القصر الأندلسى القديم



لبلة . برج الكنيسة وهو منارة الجامع القديم



لبلة . بعض أطلال القصر الأندلسى

كالرعد ، مما يحمل على الاعتقاد ، بأنهم ربما كانوا قد وقفوا على سر البارود في هذا العصر المبكر.

وأول ما يلفت النظر في لبلة ، هو منظر أسوارها القديمة العالية التي تحيط بها إحاطة تامة إلا من جهة النهر ، وهذه الأسوار التي تدور حول المدينة الأندلسية القديمة — وهي تقع فوق ربوة عالية ، مستديرة تقريبا — هي أسوارها الأندلسية ، وهي مازالت على حالها منذ جددها الموحدون في أواخر القرن الثاني عشر ، ويبلغ ارتفاعها في المتوسط نحو اثني عشر مترا ، ويبلغ محيطها نحو كيلو مترين .

والمدينة القديمة القائمة داخل الأسوار ، هي لبلة الأندلسية ، وهي ما زالت تحتفظ بخططها الأندلسية القديمة ، دون تعديلات تذكر ، ومازالت شوارعها ودروبها تحمل الطابع الأندلسي الواضح . وقد احتلت كنيستاها ، « سانتا ماريا » و« سان مرتين » موقعي المسجدين القديمين ، الشرقي والغربي ، وقد اندثرت الكنيسة الأخيرة ، وبقيت الكنيسة الأولى وحدها ، وهي تحتل موقع الجامع حسبما يجيء .

ويقع خارج الأسوار ، شارع لبلة الرئيسي الممتد غرباً بجنوب نحو ولبة ، وقد أقيم على جانبه ، المواجه للأسوار ، صف طويل من المنازل الحديثة يبلغ طوله نحو كيلو متر .

ولبلة على العموم بلد هادىء ، لايعدو سكانه بضعة آلاف ، وليست بها أية حركة عمرانية ظاهرة .

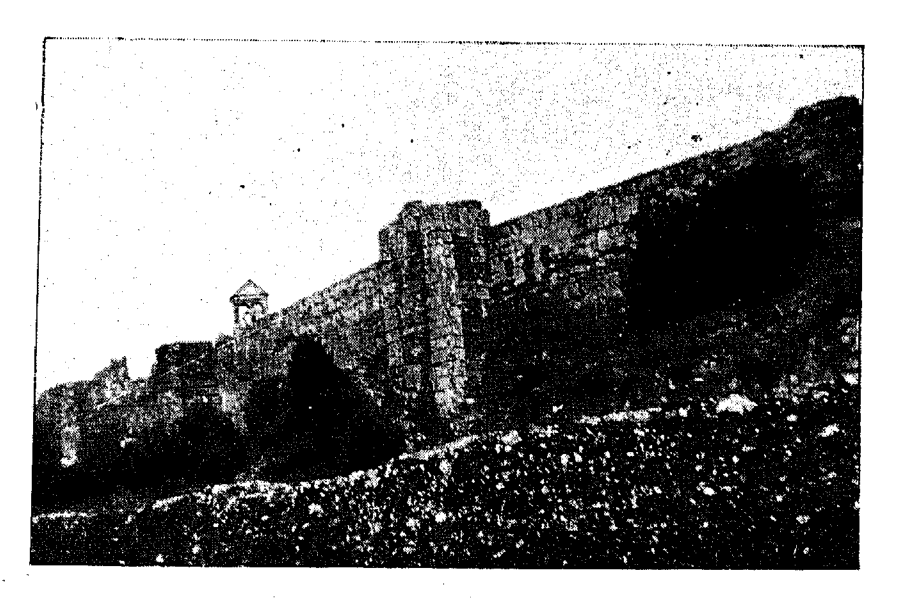
المعـــالم الأثرية

وأعظم معالم لبلة الأثرية ، هو بلا ريب أسوارها الضخمة ، التي تمثل منعتها القديمة ، وموقعها الحصين فوق الربوة العالية ، وهو منظر رائع حقاً ، لايدانيه في روعته ومنعته ، سوى أسوار آبلة الرومانية العربية .

وتتخلل أسوار لبلة بوائك عديدة ، هي بوائك الأبراج القديمة ، وتتخللها كذلك خمسة أبواب قديمة معقودة ، أهمها الباب المتجه نحو الشرق ، ويسمى باب إشبيلية ، وتنتهي الأسوار من ناحيتها الشرقية إلى « النهر الأحمر » ، وهي من هذه الناحية بالية متهدمة .



لبلة . باب إشبيلية المتجه شرقا نحو طريق إشبيلية



لبلة . جانب من الأسوار الموحدية الكبرى

الكنيسة الرئيسية : هى كنيسة « سانتا ماريا » المتقدمة الذكر ، وهى كنيسة صغيرة متواضعة ، وهى قديمة وتحتل موقع المسجد القديم ، وما زالت بها عدة من معالم المسجد ، فبرجها حسبما هو ظاهر ، هو منارة المسجد القديم ، وهى مربعة موحدية الطراز ، قليلة الارتفاع ، ومازالت تحتفظ بكواتها العربية ، وكذلك يبدو أن صحن الكنيسة ، إنما هو صحن المسجد القديم ،وما زال فى جانبيه عقدان قديمان ، قد سدا بالبناء .

أطلال الحصن أو القصر : وهى بقية كبيرة من أطلال بناء ضخم ، مفرقة حول فنائه الشاسع ، ومنها قطعة كبيرة ذات ضلعين ، وله واجهة كبيرة مخربة من الداخل ، ويسكن هذه الخرائب أقوام من الفقراء ، وهو كثير الرثاثة تعافه النفس .

وقد كان هذا موقع القصبة الأندلسية أو قصر لبلة القديم Alcázar ، ولما سقطت لبلة فى يد القشتاليين فى سنة ١٢٥٧ م ، وقعت بهذا الصرح الأندلسى تغييرات وإضافات كثيرة ، وفى سنة ١٣٦٩ منح هنرى (إنريكى) الثانى ملك قشتالة ، مدينة لبلة ، مهراً لإحدى أميرات البيت المالك ، ومنح زوجها لقب « الكونتية » ، وغدت لبلة من ذلك الحين «كونتية » (إمارة) ، وتعاقب أصحابها الجدد على حصنها الأندلسى القديم بالتعديل والتجديد ، حتى غاضت معالمه الأندلسية ، وانتهى بأن خربته الزلازل فى سنة ١٧٥٥ م ، وبقى على حاله من الخراب والعفاء حتى يومنا .

الآثار الأندلسية الباقية

فى البرتغال

تمهيد

كانت شبه الجزيرة الإسبانية حينما افتتحها العرب ، وحدة جغرافية وسياسية واحدة ، وكانت المنطقة الواقعة بين نهر منهو فى الشمال والمحيط فى الجنوب ،وبين نهر وادى يانة شرقاً والمحيط غرباً ، وهى التى يطلق عليها اليوم « البرتغال »داخلة فى نطاق الأندلس المسلمة ، ومقسمة إلى عدة ولايات ، ولم توضع أسس البرتغال الحديثة قبل أواخر القرن الحادى عشر الميلادى .

وقد بدأت قواعد هذه المنطقة الغربية من الأندلس تسقط فى أيدى النصارى فى عصر مبكر ، فسقطت مدينة بورتو (برتقال) فى يدهم سنة ٧٦٥ م ، مع بعض القواعد الشمالية الأخرى ، وامتنع المسلمون فى قواعدهم جنوبى نهر دويرة ، (الدورو) ، واستمروا يحكمون هذه المنطقة فى ظل النظام الإقطاعى ، حتى أواخر عهد المرابطين ، وعندئذ بدأ سلطانهم فى الانحلال ، وأخذت هذه القواعد الغربية تسقط تباعاً فى أيدى النصارى . وقويت الجيوش النصرانية الغازية ، بما كان يفد يومئذ على شواطىء البرتغال ، من الجماعات الدينية والصليبية المتطوعة لقتال المسلمين ،وكانت مدينة قُلُمرية Coimbra أول قاعدة فقدها المسلمون إذ سقطت فى يد فرناندو الأول ملك قشتالة فى سنة ٤٥٦ هـ (١٠٦٤ م) . ثم تلتها أشبونة (لشبونة) وشنترين ، ثم قصر أبى دانس ، ثم يابرة ، ثم شلب وباجة وشنتمرية الغرب . وكان سقوط هذه القواعد الأندلسية فى النصف الأخير من القرن الثانى عشر ، والنصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادى ، وذلك حين اضطربت شئون الأندلس أيما اضطراب ، ودبت إليها عوامل الفتنة الشاملة ، وانهارت قواها الدفاعية ، فى أواخر عهد الموحدين .

* * *

وقد رأينا استكمالا لعناصر هذا البحث الذى نعنى فيه بتقصى الآثار الأندلسية الباقية ، فى سائر قواعد الأندلس الذاهبة ، أن نعبر إلى البرتغال ، وأن نجوس

خلال قواعدها الأندلسية القديمة ، فزرنا منها سبعة هى : أشبونة العاصمة ، وشنترة ، وشنترين ، ويابرة ، وباجة ، وشلب ، وفارو أو شنتمرية الغرب .

وكان عبورنا إلى البرتغال من جنوب غربى إسبانيا ، عن طريق ولبة وأيامونتى ، وذلك لكى نخترق ولاية الغرب الأندلسية القديمة Algarve ، ونتعرف خواصها وطبيعتها .

وتمتد من ولبة نحو الغرب منطقة تكثر فيها التلال ، وتقل البسائط ، ومع ذلك فمعظمها خضراء ، تغطيها غابات الزيتون والصفصاف ، وحدائق الفاكهة ولاسيما التين ، فإنه يكثر فى هذه المنطقة كثرة هائلة ، وأشجاره ضخمة تغمرها الثمار .

وقد لفت نظرنا أنه توجد قبيل الحدود البرتغالية بلدتان تحمل كلتاهما اسما عربياً ظاهراً ، أولاهما بلدة La Mezquita أى «المسجد» ، والثانية بلدة «الخرق» Aljarque .

وعلى مقربة من حدود البرتغال تكثر البقاع القفراء ، تغطيها غابات هزيلة من أشجار التين والزيتون ، وتتخللها بعض حقول القطن والبقول ، وترى فيها الآبار بكثرة ، تستعمل للرى ، ثم تليها حتى حدود البرتغال ، منطقة كبيرة من المستنقعات والملاحات .

وتقع بلدة الحدود الإسبانية ، وهى ثغر أيامونتى الصغير ، على الضفة اليمنى لمصب نهر وادى يانة فى المحيط الأطلنطى ، وهو ثغر متواضع يعبر منه إلى الضفة الأخرى ، إلى بلدة « ڤيلا ريال » البرتغالية ، فى مراكب بخارية ساذجة ، تقطع مصب النهر العريض فى نحو عشرين دقيقة ، وڤيلا ريال هى أيضاً بلدة صغيرة ولكن نظيفة مشرقة .

١ — فارو

أو شنتمريّة الغرب

Faro-Sta. Maria de Algarve

كانت « فارو» أول مدينة برتغالية قصدتها ، وقد قطعت إليها طريق « الغرب » بالسيارة . ولا يكاد يختلف هذا الجزء من ولاية الغرب Algarve ، فى طبيعته العامة عن نظيره الإسبانى ، ولكن اليد العاملة قد أسبغت على المنطقة البرتغالية تنوعاً وخضرة ورواء لا توجد فى المنطقة الإسبانية . وعلى مثل القسم الإسبانى ، تكثر فى هذا القسم أشجار الزيتون والفاكهة ، وبعض المحاصيل ولاسيما الذرة .

وتقع بلدة فارو على شاطىء المحيط الأطلنطى ، على خليج يتخذ شكل نصف دائرة ، وهذا الاسم الحديث للبلدة الأندلسية القديمة ، لايثير اهتمامك إلا حين تعرف أن فارو ، ليست إلا مدينة « شنتمرية الغرب » الأندلسية ، التى كانت بها أيام الطوائف دولة صغيرة مستقلة ، هى دولة بنى هرون ، الذين حكموها من سنة ١٠٢٦ إلى سنة ١٠٥٢ م . ثم حكمها بعد ذلك بنو عباد أمراء إشبيلية ، واستمرت بعد ذلك تحت حكم المسلمين أيام المرابطين ثم الموحدين . ثم سقطت فى يد ألفونسو الثالث ملك البرتغال سنة ١٢٤٩ م (٦٤٧ هـ) بعد أن حكمها المسلمون أكثر من خمسة قرون .

وإليك ما أورده فى وصفها صاحب الروض المعطار : « وشنتمرية على معظم البحر الأعظم ، سورها يصعد ماء البحر فيه إذا كان فيه المد ، وهى مدينة متوسطة القدر ، حسنة التربة ، بها مسجد جامع ومنبر وجماعة ، وبها المراكب واردة وصادرة ، وهى كثيرة التين والأعناب ، وبينها وبين شلب ثمانية وعشرون ميلا »[1] .

وفارو مدينة صغيرة أنيقة مشرقة ، طيبة الهواء ، حديثة المظهر ، تخترقها

---

(١) الروض المعطار ، صفة جزيرة الأندلس ، ص ١١٥ .

شوارع طويلة ضيقة إلا شارعها الكبير الواقع خارجها ، وبها ميادين حسنة مثل ميدان فرنسسكو كومس الواقع على البحر ، وميدان الكتدرائية . وليس فى أحيائها الخارجية شىء من المظاهر الأندلسية ، لأن مدينة شنتمرية القديمة ، كانت حسبما ورد فى وصفها السابق تقع لصق البحر ، وقد دثرت اليوم ، وإن كانت تدل عليها سلسلة من العقود ، والأطلال الواقعة على مقربة من البحر.

وأهم هذه العقود العقد المسمى « عقد الحراسة » Arco da Vila ، وهو عقد كبير مزدوج ، يفصل بين قوسية ، قبو طوله نحو عشرة أمتار ، ويطل على ميـــدان كومس ، وقد ذكر فى لوحة ثبتت فى داخله ، أنه شيد فوق موقع أحد أبواب المدينة القديمة . وفوقه بناء صغير يعلوه صليب وأجراس تحتها ساعة دقاقة .



فارو . عقد الحراسة

ومن هذا العقد نجور إلى ميدان الكتدرائية ، وهنالك يوجد عقــد آخر عربى الطراز ، وعلى بعد نحو مائة وخمسين متراً منه ، يوجد عقد ثالث منخفض نوعاً ، وكلاهما فيما يرجح ، من أبواب المدينة القديمة .

ويوجد عقد رابع ، عدل قوسه إلى مربع بشكل ظاهر ، وعلى جانبيه بقية كبيرة من أسوار المدينة القديمة .

وتقع هذه العقود كلها على مقربة من الكتدرائية ، فى شبه سلسلة متصلة الخطط ، وعلى مقربة من البحر ، مما يدل على أنها كانت جميعاً أبواباً فى أسوار المدينة الإسلامية .



فارو . الكنيسة العظمى



فارو . أحد أبواب المدينة الأندلسية



شلب . واجهة الحصن الخارجية

وتقع الكتدرائية (الكنيسة العظمى) فى شمال المدينة ، فى ميدان يفضى إليه « عقد الحراسة » ، وهى كنيسة صغيرة ، ترجع إلى القرن الخامس عشر ، قوطية الطراز ، ذات واجهة حجرية ساذجة ، تقوم فوق عقد عربى منخفض ، وصحنها الداخلى جميل ، وقد عملت عقودها الوسطى والجانبية على طراز عقود الجامع ، وزينت عقودها الجانبية بزخارف أنيقة مدببة وبالفسيفساء الأندلسية .

ويدل موقع الكتدرائية فى وسط القسم القديم من المدينة ، وهو الذى تحمل دروبه ومنازله ملامح الطراز الأندلسى ، على أنها تحتل موقع الجامع الذى أشار إليه صاحب الروض المعطار فى وصفه المتقدم .

وفى متحف فارو الأركيولوجى ، وهو يقع خارجها فى نهاية شارعها الكبير الظليل Alameda فى كنيسة سان أنتونيو ، ثلاث لوحات عليها نقوش عربية وجدت كلها بمدينة شلب ، أولها وأهمها لوحة رخامية انشائية طولها ٩٦ سنتيمتراً ، وعرضها ٣٤ سنتيمتراً ، وقد كتب عليها بالخط النسخ عشرة أسطر هذا نصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم وصلى ال على محمد وآله أمر ببناء هذا البرج الوحيد من . . أمير المؤمنين عبد الواحد . . [ابن] الخليفة أمير المؤمنين أبى يعقوب ابن الخليفة أمير المؤمنين أبى محمد عبد المؤمن ابن على تقبل الله حسابه وتجاوز مُرْسَل ربه أرائكه فى شهر رمضان المعظم عام أربعة وعشرين وستمائة » .

والظاهر أن البرج الذى تشير اللوحة إلى إنشائه هو من أبراج حصن شلب ، وأن مؤسسه ، وهو من أمراء الموحدين ، كان والياً لشلب فى هذه الفترة .

وأما اللوحتان الأخريان فهما من شواهد القبور العادية .

كذلك يوجد فى متحف فارو بعض آنية وقطع من الفخار الأندلسى .

وميناء فارو قليل العمق ، وهو لذلك لايصلح إلا لإيواء السفن الصغيرة ، ومعظمها من سفن الصيد ، والصيد هو أهم صناعات فارو ، وبها حى عظيم للصيادين يقع شمال الميناء .

وتضم فارو من السكان اثنين وعشرين ألفاً .

٢ – شلب

Silves

ان المنطقة التى تمتد من فارو أو شنتمرية الغرب إلى مدينة شِلْب ، وهى أقصى مناطق ولاية الغرب البرتغالية ، هى منطقة متباينة الطبيعة ، تختلف بين البسائط والتلال ، ولكن تغلب عليها الخضرة ، وتغطيها أشجار الزيتون بكثرة . ويبدو هذا القسم من ولاية الغرب أكثر نضرة وخصباً ، من أى قسم آخر فيه ، وتكثر فيه الحدائق والحقول اليانعة ، وتبدو فيه آثار العناية الفائقة بخدمة الأرض وتنسيقها ، وحسن استغلالها .

دلفت إلى مدينة شِلْب فى ضحى النهار ،واخترقت أحياءها البسيطة الساحرة ، ومخيلتى تضطرم بذكريات بعيدة . أجل إن شلب هذه هى بلدة الشاعر الكبير أبى بكر بن عمار وزير المعتمد على الله العبّادى ،وقد ولد بقرية من أرباضها تسمى « شنبوس »[١] ، ثم كان بعد ذلك حاكمها من قبل المعتمد . وكان المعتمد أيام شبابه ، فى عهد والده المعتضد ، حاكماً لشلب (٤٥٥ هـ – ١٠٦٣ م) ، وكان يعاونه فى حكمها يومئذ أمينه أبو بكر بن عمّار ، وهو مثله فتى فى عنفوانه . وقد تركت حياة المعتمد فى شلب ، وما تقلب فيه فى ربوعها الجميلة من مجالى اللهو والأنس ، فى نفسه ذكريات عميقة ، تصورها لنا تلك الأبيات التى نظمها المعتمد مخاطباً لصديقه ورفيق صباه ابن عمار ، حين وجهه إلى شلب ليتفقد أعمالها :

ألا حىّ أوطانى بشلب أبا بكر ... وسلهن هل عهد الوصال كما أدرى

وسلّم على قصر الشراجيب من فتى ... له أبداً شوق إلى ذلك القصر

منازل آساد وبيض نواعم ... فناهيك من غيل وناهيك من خدر

فكم ليلة قد بت أنعم جنحها ... بمخصبة الأرداف مجدبة الخصر

وبيض وسمر فاعلات بمهجتى ... فعال الصفاح البيض والأسُل السمر

---

(١) وهى اليوم قرية Estombar البرتغالية .

وليل يسد النهر ليلا قطعته بذات سوار مثل منعطف البدر
نضت بردها عن غصن بانٍ منعم نضيرٍ كما انشق الكمام عن الزهر

ويصف لنا صاحب القلائد ، قصر الشراجيب هذا وروعته وبهاءه ، وما كان ينعم به المعتمد فيه أيام شبابه ، من ضروب اللهو والسعادة ، ثم يقول مشيراً إلى شلب :

« وكان يعتدها مجنى آماله ، ومنتهى أعماله ، يميل إلى بهجة جنباتها ، وطيب نفحاتها وهباتها ، والتفاف خمائلها ، وتقلدها بنهرها مكان حمائلها »[1] .

ويفيض صاحب الروض المعطار فى ذكر شلب وسقوطها فى يد النصارى ، واسترداد المسلمين لها ، ويصفها بقوله :

« وعليها سور حصين ، ولها غلات وجنات ، وشرب أهلها من واديها الجارى إليها من جهة جنوبها ، وعليه أرجاء البلد ، والبحر منها فى الغرب على ثلاثة أميال ، والمدينة ذاتها حسنة البناء مرتبة الأسواق ، وأهلها وسكان قراها عرب من اليمن وغيرها »[2] .

تلك هى شلب الأندلس التى ملأت ذكرياتها ذهنى ، حينما جزت إليها أتقصى ملامحها الأندلسية .

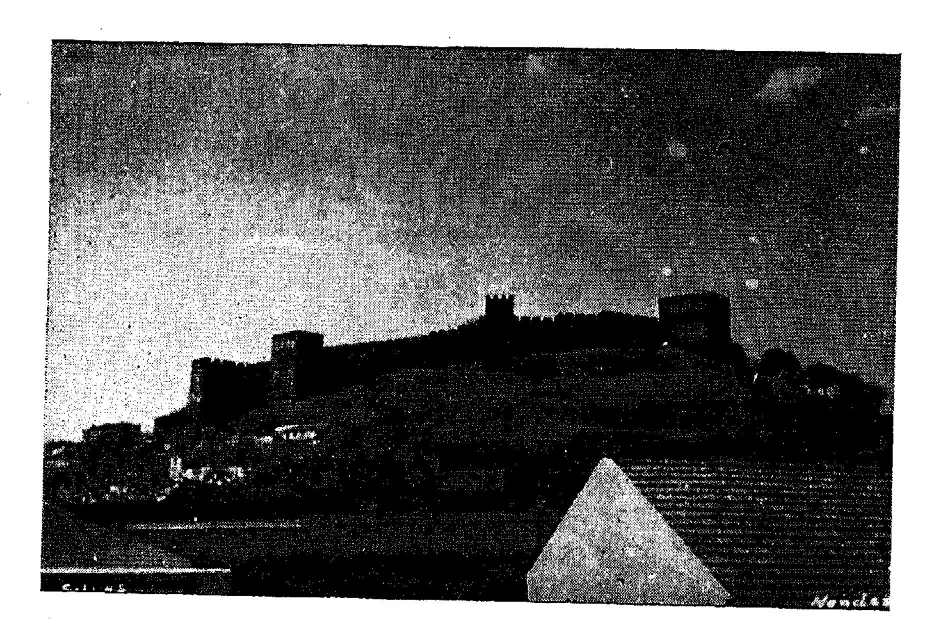
وكانت شلب أيام عهدها الإسلامى قاعدة ولاية الغرب ، وقد قامت بها أيام الطوائف دولة مستقلة فى ظل بنى مزين (١٠٤٨ — ١٠٦٣م) ثم استولى عليها بنو عباد ، وأصبحت جزءاً من مملكة إشبيلية . وفى عهد المرابطين قامت بها ولاية مستقلة ، ثم استولى عليها الموحدون ، وبقيت تحت حكمهم حتى انتزعها النصارى منهم سنة ١١٨٩م ، ثم استردها الموحدون فى العام التالى ، واستمرت فى أيديهم حتى افتتحها النصارى من يد المنصور آخر ولاتها من الموحدين فى سنة ١٢٤٢ م (٦٤٠ هـ) ، وذلك فى الوقت الذى فقد فيه المسلمون جنوبى البرتغال كله .

وشلب — وهى تنطق بالبرتغالية « سلفش » Silves — مدينة صغيرة تقع فى أقصى جنوبى البرتغال ، على مقربة من المحيط فوق ربوة متدرجة ، تشرف على نهر أراد Arade الذى يصب فى المحيط ، قرب ثغر بورتمـــاو الصغير .

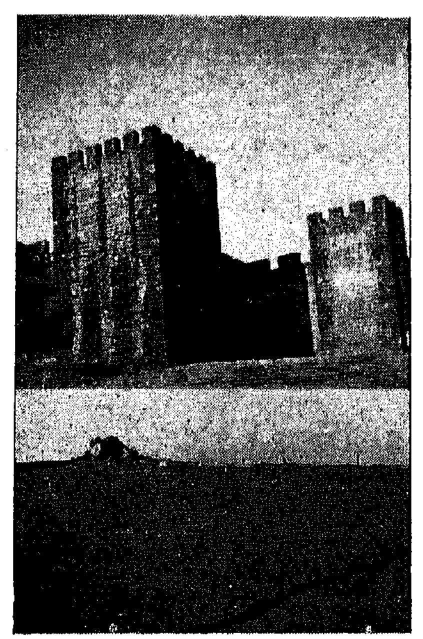
---

(١) قلائد العقيان ص ٣٢ .

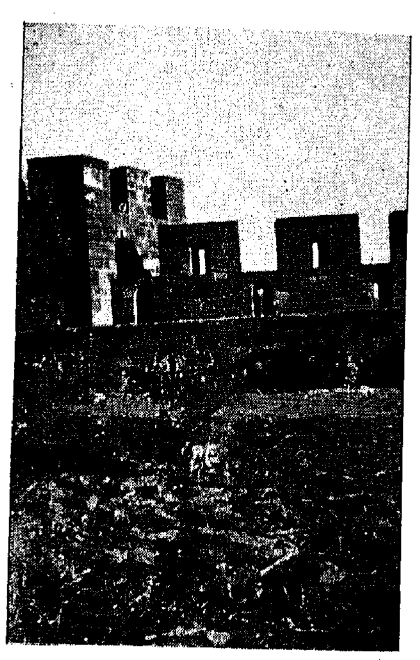
(٢) الروض المعطار ، صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٠٦ .



شلب . منظر عام للحصن الأندلسى



شلب . بعض أبراج الحصن الداخلية



شلب . أحد جوانب الحصن

وتبدأ الربوة صاعدة من الوادى الذى يخترقه النهر ، حتى تستوى مع الحصن ، ودروبها قصيرة ملتوية ، وأحياؤها غير منسقة ولكن جميلة مؤثرة ، ولها طابع خاص يغلب عليه القدم ، ومظاهر العصور الوسطى ، ومنازلها كثيرة الألوان ذات طابقين أو ثلاثة ، وتحيط التلال العالية بالمدينة ، إلا من ناحية مدخلها فوق النهر ، حيث تقوم القنطرة العربية القديمة ، وهى قنطرة حجرية ذات أربعة عقود ، تصل المدينة بالطريق الكبرى . وهنا على جانبى المدينة تمتد البسائط الخضراء والحقول اليانعة .

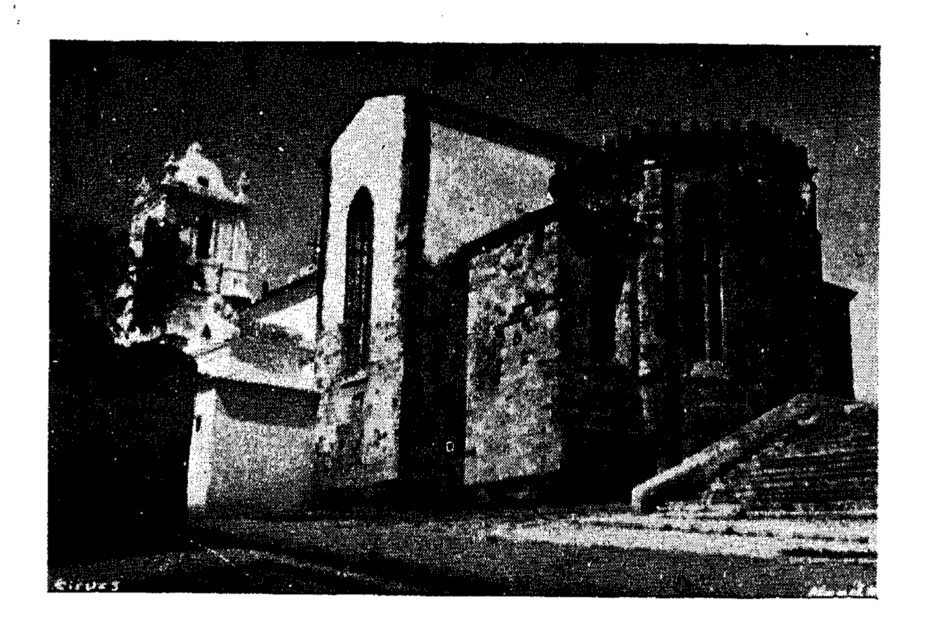
وفى شلب أثر أندلسى هام ، هو حصنها القديم المنيع ، وهو حصن كبير يشغل رقعة شاسعة ، تدور حولها أسواره وأبراجه العديدة ، فى شبه دائرة . وتوجد من أبراجه ستة كاملة وعدة أخرى غير كاملة ، وله مدخل ضخم معقود يفضى إلى ساحة كبيرة سقفها مقبى ، وبرجه الكبير فوق المدخل ذو سقف معقود ، وفى نهايته برج مسقوف آخر ، وهو ظاهر المناعة ، يقوم فوق صخرة عالية تشرف على المدينة كلها . والظاهر أنه كان يمتد إلى مسافة كبيرة أخرى ، إذ يوجد على مقربة منه فى طرف المدينة برجان آخران ، وعقد كبير ، وبقية أسوار ، وهى كلها من نفس الطراز ، ومن نفس الحجارة . والظاهر أيضاً أن الحصن (أو القصبة) كان يضم بين أسواره فى نفس الوقت قصر شلب ، الذى كان يقيم فيه الأمير أو الحاكم .

فهل تكون ثمة علاقة بين هذا الأثر ، وبين قصر الشراجيب الذى تغنى به ابن عباد فى شعره المتقدم ؟ وهل يكون موقع الحصن متضمناً لموقع القصر المذكور ؟ ربما

ويدل موقع الحصن وأسواره السفلى ، ومظاهره كلها ، على ماكانت تتمتع به مدينة شلب فى العصور الوسطى من المنعة ، وقد كانت فى الواقع من أقوى وأمنع المدن الأندلسية النائية ، ولها أسوار وقلاع عظيمة .

وقد كان هذا الحصن الأندلسى يستعمل فى العصر الحديث سجناً .

وتقع الكنيسة العظمى فى مواجهة الحصن ، على نفس الربوة من ناحية المدينة ، وهى كنيسة صغيرة عتيقة ذات مدخل وعقود قوطية ، وقد كانت من قبل كتدرائية ، وشيدت فوق موقع جامع شلب منذ سقوط المدينة لأول مرة فى يد النصارى فى سنة ١١٨٩ م .



شلب. الكنيسة العظمى

ويوجد فى وسط المدينة طلل قديم ، هو عبارة عن ثلاثة عقود متصلة عالية ، يتلوها فى طريق الحصن عقد خفيض ، وتتصل بهذه العقود أجزاء من سور قديم هو فيما يرجح سور المدينة الأندلسية القديمة . والظاهر من تجمع أحياء شلب الحديثة بين النهر وبين أسفل الربوة ، ومن مظاهر دروبها الصخرية الصاعدة نحو الحصن أو القصبة ، أنها تحتل مواقع المدينة الأندلسية دون تغيير كبير .

وشلب مدينة كثيرة الحركة والنشاط بالرغم من صغرها ، وتضم من السكان نحو اثنى عشر ألفاً .

٣ – باجـــة

Beja

تقع باجـــة فى النصف الجنوبى لولاية « ألنتيجو » Alentejo ، جنوب شرقى لشبونة . وتمتاز هذه المنطقة بتباين الطبيعة فيها ، فنى جنوب ولاية «ألنتيجو» مما يتصل منها بولاية الغرب ، تكثر التلال والرقاع الجرداء ، ولكن يلاحظ دائماً أن أثر اليد العاملة هنا ، وفى سائر بقاع البرتغال ، أكثر ظهوراً منها فى البقاع الإسبانية المماثلة ، سواء فى البسائط أو فى المرتفعات ، حيث تنمو الأشجار دائماً ، والمحاصيل أحياناً فوق التلال المتدرجة . وفى جنوبى باجة مباشرة تكثر البسائط الخضراء . ويلاحظ أن التربة هنا سوداء ، والأشجار قليلة ، ومعظم الرقاع حقول يانعة تغطيها المحاصيل المختلفة .

وباجة مدينة قديمة جداً ، وقد كانت فى العصر الرومانى تسمى Pax Julia ، ومن ثم كان الاسم الذى اختاره لها الفاتحون المسلمون . وتعرف الرواية الإسلامية هذه الحقيقة ، وتعرف معنى اسمها الرومانى ، فقد ذكر لنا صاحب الروض المعطار فى كلامه عن باجة ما يأتى :

« ومدينة باجة أقدم مدن الأندلس بنياناً ، وأولها اختطاطاً ، وإليها انتهى يوليش القيصر ، وهو الذى سماها « باجة » . وتفسير « باجة » فى كلام العجم «الصلح» . وحوز باجة وخطتها واسعة ، ولها معاقل موصوفة بالمنعة والحصانة»(١).

وقد ذكرت حينما وصلت إلى باجة اسمين شهيرين يتصلان بتاريخها ، وينتسبان إليها ، أولها عاش صاحبه فى عصر الفتح الإسلامى ، هو الحبر العلامة إيزيدور «الباجى» ، وهو الذى ترك لنا باللاتينية رواية ضافية عن حوادث الفتح وما تلاه حتى سنة ٧٥٤م ، م وثانيهما العلامة الأندلسى الإمام القاضى أبو الوليد الباجى ، سليمان بن خلف شارح كتاب «الموطأ» ، والمتوفى سنة ٤٧٤هـ (١٠٨١م).

وقد سقطت باجة فى يد النصارى سنة ٥٥٦ هـ (١١٦١ م) ، فى الوقت الذى هاجم فيه البرتغاليون ، بقيادة ملكهم ألفونسو هنريكيز ، مدينة بطليوس لأول

---

(١) الروض المعطار ، صفة جزيرة الأندلس ، ص ٣٦ .

مرة ، فاستولوا عليها ، ثم استردها المسلمون منهم على الفور ، واحتفظ النصارى بمدينة باجة ، وافتتحوا فى نفس الوقت مدن البرتغال الوسطى ، وفى مقدمتها مدينة لشبونة (أشبونة) .

وباجة مدينة كبيرة تبدو غابرة عابسة قوية ، وتقع فوق ربوة صخرية مرتفعة وهى من الداخل حديثة المظهر ، بها شوارع وميادين شاسعة جميلة ، وبها كذلك طائفة من الدروب القديمة الضيقة ، ولكنها أنظف من أمثالها من دروب المدن الإسبانية الأندلسية وأوسع ، وهى قليلة الحركة قليلة المتاجر والمقاهى ،وشوارعها صاعدة ، وناحيتها الشمالية منحدرة نحو الوادى ، ومصعدة نحو داخل المدينة ، وربوة الحصن . وفى باجة من السكان نحو ثلاثين ألفاً

* * *

والحديث عن الآثار الأندلسية فى باجة ذو مجال ضيق . والواقع أن باجة لاتضم كثيراً من الآثار القديمة .

هنالك من هذه الآثار عقدان قديمان وبقية أسوار . فأما الأول فهو العقد المسمى الباب الأندلسى Porta Moura ، وهو قوس ضخم يقع شمال المدينة عند مخرجها نحو الوادى ، يبلغ ارتفاعه نحو عشرة أمتار ، وعرضه نحو ستة ، وسمكه نحو مترين ،وهو مبنى من الحجارة الصلدة القوية ، وإلى يساره بقية من سور قديم ، ويبدو من اسم هذا العقد ومن طرازه ، أنه من أبواب المدينة الأندلسية القديمة ، وأن ما يتصل به من الأسوار ، إنما هو بقية من أسوارها .



باجة . عقد « يابرة »

والثانى هو العقد المسمى « عقد يابرة » Arco da Évora ، وهو عقد صخرى قديم ، يقع تجاه برج الحصن الكبير ، الذى نتحدث عنه بعد ، والمرجح فى شأنه أنه يرجع إلى أصل رومانى.

وقد رأيت فى باجة عقدين آخرين أحدهما عقد عريض مزدوج ، يقع على مقربة من دير «كونسيسوا» ، ويبدو من طرازه العربى ، أنه من أبواب المدينة الأندلسية ، والثانى يقع على مقربة من دار البلدية ويبدو أنه حديث نوعاً ، كما يوجد عقد ثالث فى نهاية المدينة من الجنوب ، يبدو كذلك أنه يرجع إلى العصر النصرانى.

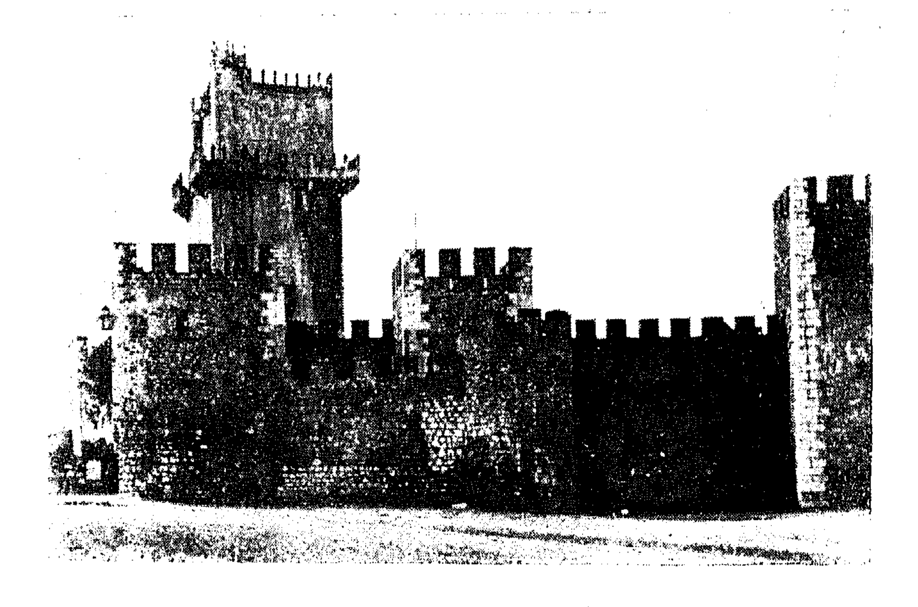
وأهم صروح باجة الأثرية هو بلاريب حصنها الواقع فى طرفها الغربى ، على ربوة عالية تشرف على الوادى المجاور . وهو حصن متوسط الحجم أسس سنة ١٣٠٢ م ، فى عصر الملك دنيس ، على أنقاض حصن رومانى سابق ، وربما أيضاً على أنقاض حصن أندلسى ، سبق تشييده على أنقاض سلفه الرومانى ، ويبدو عليه طابع الحصون النصرانية ، وله برج كبير يرسو على الأرض يبلغ ارتفاعه واحداً وأربعين متراً ، وقد عملت فى وسطه نوافذ معقودة فوق عقد كل منها فراغ فى شكل الصليب ، وقبل نهايته بنحو خمسة أمتار توجد مشرفية تدور حوله ، ومنها ترى المدينة فى أروع مناظرها .

ويقال إن قسم الحصن الواقع فى ناحيته اليمنى ، والمواجه لكنيسة سنتياجو القريبة ، يرجع إلى العصر الأندلسى ، وفيه برج كامل يليه برج آخر ، وله فناء ذو مدخل معقود .

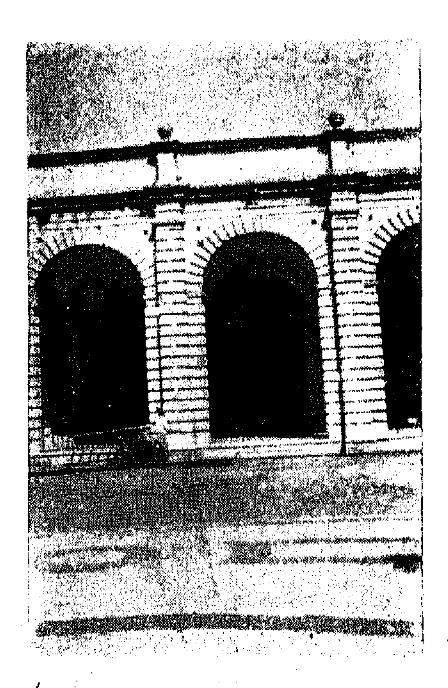
وتبدو باجة من أعلى البرج الكبير ، مدينة ضخمة مستديرة الرقعة ، عالية المبانى ، واقعة فوق ربوة قليلة الإرتفاع ، ومن حولها بسائط شاسعة ، تغطيها المحاصيل ، ويرى النخيل ظاهراً فى بعض أماكنها الداخلية ، وتبدو كنيستها القديمة المسماة سانتاماريا فى طرفها الشرقى ، مقابل الحصن الذى يقع بعيداً فى طرفها الغربى .

وكنيسة سانتا ماريا هذه هى أقدم كنائس باجة ، وهى كنيستها العظمى ، وهى صغيرة الحجم ، ولكن فخمة ذات عقود قوطية عالية وزخارف جميلة ، وتقع فى منخفض قريب من السوق ، ومن دير «كونسيسوا» الذى نتحدث عنه بعد .

وتوجد ثمة عدة كنائس أثرية أخرى ، منها كنيسة سان أندريس وهى صومعة ذات طراز رومانى وأعمدة خارجية ، وتقع فى طرف المدينة بعد الحصن ، وكنيسة سانتياجو ، وهى حديثة وتقع بجوار الحصن ؛ وكنيسة الرحمة «مسركورديا» ، وهى عبارة عن مربع معقود فى كل ضلع من أضلاعه ثلاثة عقود مسجدية الطراز ، وليس لها صحن ولا برج أجراس ، وتقع فى ميدان البلدية .



باجة . منظر عام للحصن



باجة . كنيسة الرحمة ذات العقود العربية



باجة . عقد داخل المدينة

وتوجد فى متحف باجة طائفة من التحف الأندلسية . ويقع هذا المتحف فى الدير المسمى دير « كونسيسوا » Concepción ، وهو دير قديم له صحن مربع على الطراز القوطى ، وقد زينت جدرانه بالزليخ الموريسكى المجلوب من إشبيلية ، وفى داخله مصلى مستطيل زينت جوانبه بزخارف وتماثيل مذهبة ، ترجع إلى عصر الإحياء .

وقد رأينا بين معروضات هذا المتحف عدة قطع أندلسية ، منها فى الطابق الأسفل :

(١) قطعة حجرية هى جزء من شاهد قبر ، عليه كلمات عربية مبتورة .

(٢) لوحتين أخريين من شواهد القبور ، أولاهما شاهد قبر امرأة توفيت سنة ٤٤٠ هـ ، وثانيهما شاهد قبر لرجل توفى فى سنة ٥٦١ هـ ، وهى لوحة غير كاملة ومكتوبة بأحرف كوفية .

(٣) بضع قطع من الفخار الأندلسى ، وبضع لوحات من الموزايك الموريسكى .

ورأينا فى بهو الدير الأعلى أربع لوحات خشبية عليها كتابات عربية ، ثلاثة منها سطرت عليها آيات قرآنية ، والرابعة كتبت عليها بعض أدعية إسلامية .

ومجموعة من الآنية الخزفية اللامعة ذات الزخارف البديعة ، وهى ترجع إلى عصر الموريسكيين .

٤ — يابــــرة

Evora

يابُرة هى عاصمة ولاية « ألنتيجو » ، وهى مثل باجة ترجع إلى العصر الرومانى حيث كانت تسمى Ebora، ومازالت تقوم بهابعض الآثار الرومانية الهامة .

وتقع يابرة ، شمالى باجة ، وجنوب شرقى لشبونة ، على مقربة من مدينة بطليوس ، وبينها وبين باجة منطقة شاسعة من البسائط الخصبة ، تغطيها المحاصيل المختلفة ، وغابات الزيتون .

وقد كانت يابرة أيام الطوائف ، من أعمال مملكة بطليوس ، التى حكمها بنو الأفطس حيناً ، حتى سقطت دولتهم بسقوط بطليوس فى أيدى المرابطين سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) ، وقتل المرابطون آخر ملوكها عمر المتوكل وولديه ، وكانت مأساة مروعة نظم فى رثائها الشاعر الكبير ، عبد المجيد بن عبدون المتوفى سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) قصيدته الشهيرة التى مطلعها :

الدهر يفجع بعد العين بالأثر   فما البكاء على الأشباح والصور

أنهاك أنهاك لا آلوك موعظة   عن نومة بين ناب الليث والظفر

وابن عبدون هو من أهل يابرة ، وما زال اسمه يقرن باسمها ، فى كتب التاريخ والأدب البرتغالية .

وقد سقطت يابرة فى يد النصارى سنة ١١٦٥ م (٥٦١ هـ) ، استولى عليها بطريق المباغتة الفارس جيرالدو سمبافور (الباسل) ، فى جماعة كبيرة من المتطوعين النصارى والمستعمرين والمغامرين ، ثم سلمها بعد ذلك للملك ألفونسو هنريكيز ، فصارت جزءاً من مملكة البرتغال الناشئة . وحاول الموحدون استعادتها بعد ذلك ، بقيادة السلطان يعقوب المنصور ، فامتنعت عليهم وبقيت فى حوزة النصارى .

* * *

ويابرة مدينة كبيرة جميلة منسقة الشوارع ، فسيحة الميادين غنية بالمنشآت الأثرية ، من كنائس وقصور وعقود وغيرها ، ويوصل إليها خلال شارع طويل تظلله الأشجار ، وتتفرع منه شوارع جانبية ظليلة أيضاً ، وعلى جانبيه عند مدخل المدينة حدائق غناء . وشوارعها على العموم طويلة مشرقة ، والدروب فى أحيائها

الشعبية ضيقة ، ولكن نظيفة . وأكبر وأجمل ميادينها ميدان جبرالدو ، وهواسم فاتحها ، وميدان الكتدرائية . وبها متنزه عظيم أسفل القصر الملكى السابق . ومما يلفت النظر أنها تضم عدة شوارع ذات جوانب معقودة متصلة . وهذا الطراز من الشوارع يسبغ عليها طابعاً خاصاً ، كذلك يوجد بها كثير من الشوارع الصاعدة ، التى تذكرنا بالدروب الأندلسية القديمة فى المدن الإسبانية ، واللون الأبيض غالب على أبنيتها .

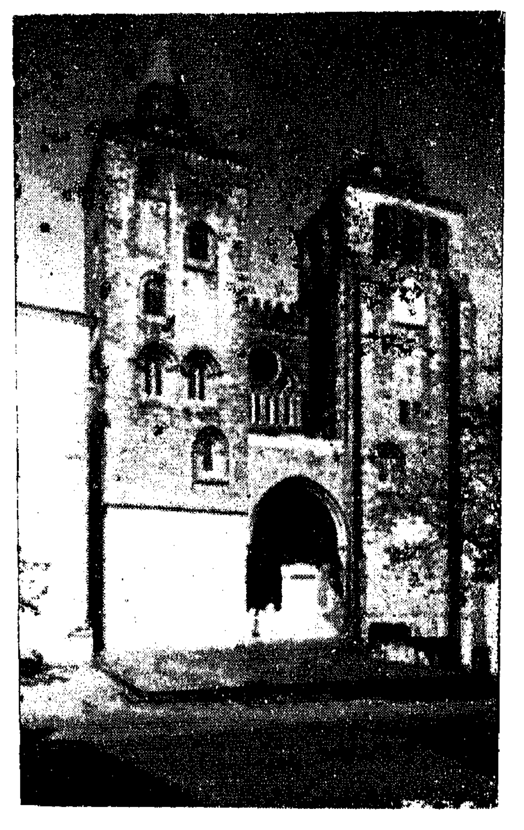
وتشغل يابرة رقعة كبيرة من الأرض مستديرة تقريباً ، ومعظمها قائم على بسيط مستو ، إلا بعض أحياء قليلة منها ، مثل الحى الصاعد الذى يتجه نحو الكتدرائية . والحركة فى شوارعها هادئة ، منتظمة ، ويبلغ سكانها زهاء خمسة وثلاثين ألفاً .

ويوجد فى يابرة طائفة من الآثار الرومانية الهامة ، أولها معبد رومانى يرجع إلى القرن الثالث الميلادى ، وهو عبارة عن مربع تقوم فيه ثلاثة صفوف من الأعمدة الرخامية الجميلة ، ويسمى « معبد ديانا » وهو اسم حديث نوعاً ، والمعبد فى مجموعه بديع المنظر ، ويعتبر من أروع الآثار الرومانية فى شبه الجزيرة الإسبانية وأكثرها سلامة وجدة ، وهو يقع فوق بقعة مرتفعة على مقربة من الكتدرائية .

وثانيها القنطرة الرومانية لجلب الماء وسط المدينة ، وقد بقيت منها عقود كثيرة فى صفين ، ولكن معظمها قد أدخل فى الأبنية المجاورة ولم يبق مفتوحاً منها سوى ثلاثة عقود ، اثنان منها فى إتجاه ، وواحد فى اتجاه آخر . وتقع هذه القنطرة قرب دار البريد .

وثالثها العقد الرومانى الواقع بجوار دار البريد من الناحية الأخرى ، وهو المسمى عقد دونيا إيزابيل ، وهو عقد صخرى منيع منخفض ، يبلغ عرضه أربعة أمتار وارتفاعه أربعة ونصف ، وهو مثلث الأقواس ، وفوقه بقية ضئيلة من أسوار قديمة . والمقول إنه من أبواب الأسوار الرومانية القوطية التى كانت تحيط بالمدينة ، والتى أصلحها المسلمون واستخدموها فيما بعد . أما اسمه الحالى وهو عقد « دونيا إيزابيل » ، فيرجع إلى مجاورته لدار كانت لصاحبة هذا الاسم .

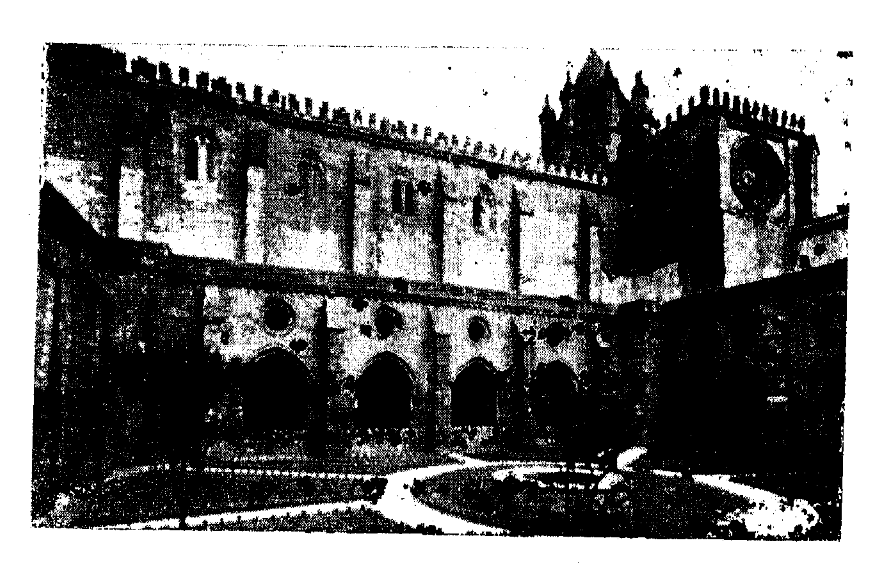
وأما عن أسوار يابرة القديمة ، فإنه يوجد منها جزء صغير داخل المدينة ، على مقربة من مؤخرة الكتدرائية ، وبها عقد . وقد تعذر علينا البت فى أمرها نظراً لأنها قد غطيت بالبياض ، ولكننا نرجح أنها من الأسوار التى كانت قائمة فى العهد الإسلامى ، سواء أكانت فى الأصل رومانية أوقوطية .



يابرة . واجهة الكنيسة العظمى



يابرة . عقود القنطرة الرومانية



يابرة . الصحن الملاصق للكنيسة العظمى ذو العقود والمشارف العربية

وترجع كنيسة يابرة العظمى (الكتدرائية) La Se ، إلى أواخر القرن الثانى عشر . والظاهر أنها أقيمت فى البداية على موقع المسجد الجامع عقب افتتاح النصارى للمدينة ، يدل على ذلك موقعها وسط المدينة ، فوق مرتفع من الأرض ، وفى قلب الأحياء القديمة .

ثم قامت مكانها الكتدرائية الحالية منذ القرن الثالث عشر ، وهى كنيسة عظيمة فخمة ذات عقود قوطية عالية ، كثيرة الزخارف الذهبية ، وقد لفت نظرنا أن رواقها الأعلى الدائر حول عقودها ، قد زين بالشرفات العربية الجميلة ، وكذلك زينت أروقة الجانبين عن يمين الهيكل ويساره بمثل هذه الشرفات ، وهو ما يدل على أن الفن الأندلسى أو بعبارة أصح الفن المدجّنى ، كان ما يزال قوى التأثير فى العمارة النصرانية .

وثانى كنائس يابرة فى الأهمية والقدم هى كنيسة سان فرنسسكو ، وهى ترجع إلى أواخر القرن الخامس عشر ، وقد بنيت على طراز خاص فأقيمت عقودها فى الجانبين على مثل عقود الجامع ، وعملت فى جوانب العقود الكبيرة عقود صغيرة ، وصحنها عبارة عن بهو قوطى طويل ، يمتد من الباب حتى الهيكل ، وهى بادية الروعة والفخامة .

وتوجد ثمة عدة كنائس وأديرة أثرية أخرى ، منها دير وكنيسة « لاجراسا » La Graça ، وهو صرح يرجع إلى أوائل القرن السادس عشر ، وقد خربت الكنيسة وحول الدير إلى ثكنة عسكرية ، وله صحن أندلسى جميل ذو عقود عربية وأعمدة رشيقة . وكنيسة سان براس ، وهى ترجع إلى القرن الخامس عشر ، وهى عبارة عن معبد ، يبدو بعقوده وجنباته المستديرة على شكل قلعة ، ويقع خارج يابرة ، فى طريقها الكبير الظليل .

وفى يابرة جامعة قديمة يرجع إنشاؤها إلى القرن السادس عشر ، وهى عبارة عن كلية واحدة للآداب ، ولها فناء جميل ذو جوانب معقودة على الطراز الأندلسى .

ومتحف يابرة الإقليمى غنى بالآثار الرومانية من تماثيل ولوحات ونواويس وغيرها ، وبه كذلك طائفة حسنة من آثار عصر الإحياء . وقد رأينا فيه من الآثار الأندلسية ثلاث لوحات من الرخام ، عليها كتابة وزخارف عربية من آيات قرآنية وغيرها ، كما رأينا رأس عمود صغير ذى زخارف عربية .

٥ — أشبـــونة

Lisboa

إن مدينة أُشبونة أو لشبونة (بالبرتغالية لشبوا) عاصمة البرتغال ، هى بلا ريب من أجمل وأحدث العواصم الأوربية .

والتحدث عن العاصمة البرتغالية ، وعن ضواحيها ومظاهرها العمرانية الحديثة ، وعن تنسيق خططها ، وضخامة أحيائها وميادينها ، يقتضى إفاضة لايتسع لها موضوع هذا الكتاب ، الذى نحاول أن نتقصى فيه الآثار الأندلسية الباقية ، وأن نؤثرها بالتعيين والوصف ، ومن ثم فإنا نكتفى بأن نتحدث عن العاصمة البرتغالية الحديثة حديثاً سريعاً عابراً .

وتتمتع لشبونة بموقع طبيعى بديع على مصب نهر التاجُه ، فى المحيط الأطلنطى ، وتشغل سلسلة من التلال المتدرجة التى تقع غربى هذا المصب. ومن الغريب المدهش أن هذه العاصمة العصرية الجميلة ، لاتصل إليها الخطوط الحديدية الممتدة من الجنوب والشرق (من اسبانيا) مباشرة ، بل يجب أن تعبر إليها مصب النهر فى سفينة بخارية . وقد آنست مرارة هذه المفاجأة ، حينما وصلت إلى لشبونة فى المساء المتأخر ، قادماً من باجة ويابرة ، وعجبت كيف تقصر البرتغال — هذه البلاد الغنية ذات الإمبراطورية الإستعمارية الضخمة العاتية[1] — عن أن تقيم لعاصمتها جسراً حديثاً على مصب النهر ، يربطها بالجنوب والشرق .

وتنقسم لشبونة إلى قسمين عظيمين ، لشبونة الشرقية وتسمى « ألفاما » Alfama وهى المدينة القديمة ، ولشبونة الغربية وهى المدينة الحديثة .

ولشبونة مدينة عظيمة حقاً ، وافرة الروعة والبهاء ، ذات شوارع فسيحة وميادين ضخمة ، وأحياء عصرية جميلة ، تغص بالصروح العالية الفخمة من أحدث طراز . وهى تضم عدة من الشوارع المديدة الضخمة ، قلما يجتمع مثلها فى عاصمة أوربية متوسطة ، مثل شارع « الأميرال ريس » و« شارع الجمهورية » و« شارع الهند » و« شارع ٢٤ يولية » وغيرها . بيد أن أشهر شوارعها وأجملها ،

---

(١) شهدت وأنا بالهند (ديسمبر ١٩٦١) انهيار أول حجر فى صرح إمبراطورية البرتغال الإستعمارية ، وذلك باستيلاء الهند على مستعمرة « جوا » البرتغالية القديمة .

هو بلاريب شارع الحرية Avenida da Liberdade الذى يخترق قسمها الحيوى ، ممتداً من ميدان المركيز دى پومبال ، وهو من أعظم وأبدع ميادينها ، حتى ميدان رسيو Rassio ، ويمتاز شارع الحرية بسعته وجمال تنسيقه ، وما يتوسطه من المتنزهات الظليلة الجميلة من أوله إلى آخره . وتجتمع أحياء الأعمال والتجارة على جانبى هذا الشارع الفخم ، وحول ميدان رسيو ، والميدان الذى يليه وهو ميدان «رستورادورس» . وتجتمع فى هذه المنطقة أعظم المتاجر والمقاهى والمنتديات

ويرى النخيل فى مدينة لشبونة ، فى الميادين والشوارع والمتنزهات ،وأحياناً فى المنازل على نمط ما هو حادث فى المدن الإسبانية الجنوبية .

ويبلغ سكان هذه العاصمة الضخمة أكثر من سبعمائة ألف نسمة .

تلك هى مدينة لشبونة الحديثة . ومن بعد هذين الميدانين العظيمين رسيو ورستورادورس ، تتجه المدينة شرقاً نحو النهر . ويخترقها فى هذا القسم عدة من الدروب والأحياء التاريخية القديمة . وهذا القسم من لشبونة هو الذى يسمى « ألفاما » حسبما تقدم وهو الذى يهمنا هنا .

* * *

والواقع أن لشبونة مدينة قديمة ترجع إلى العصر الرومانى ،وكانت عندئذ تسمى « أليسيبو» Olisipo . فلما افتتحها المسلمون عقب فتح اسبانيا بقليل ، سموها « الأشبونة » أو « أشبونة »[1] . وكانت أيام الدولة الإسلامية تابعة لكورة باجة . وحكمها المسلمون زهاء أربعة قرون ونصف . ثم استولى عليها البرتغاليون بقيادة ملكهم ألفونسو هنريكيز فى سنة ١١٤٧ م (٥٤٢ هـ) ، بعد حصار دام بضعة أشهر ،وكان يعاونه عندئذ فى قتال المسلمين جماعات من المتطوعة الصليبيين من الإنجليز والهولنديين ، الذين كانوا فى طريقهم إلى الشام . وفى سنة ١١٨٤ م (٥٨٠ هـ) حاول الموحدون بقيادة السلطان يعقوب المنصور استعادتها ، فلم يفلحوا .

ومما هو جدير بالذكر أن أشبونة ، كانت أيام المسلمين ، هى الميناء الذى خرج منه الأخوة المغرّرون فى مركبهم لاستكشاف بحر الظلمات (المحيط الأطلنطى) . وتتلخص قصة هذه المغامرة البحرية الشهيرة ، التى ينفرد الشريف الإدريسى بذكرها فى معجمه الجغرافى ، فى أن ثمانية أخوة أو أبناء عم ، خرجوا

(١) الروض المعطار ص ١٦ .

من ثغر أشبونة ، فى مركب كبير مشحون بالزاد والماء يكفى لأشهر ، وساروا فى « بحر الظلمات » فى اتجاه الغرب أحد عشر يوماً ، ثم ساروا جنوباً مدى إثنى عشر يوماً أخرى ، فى بحر كدر عالى الأمواج ، حتى وصلوا إلى جزيرة بها أغنام كثيرة ، لاتؤكل لحومها لمرارتها ، فتركوها واستمروا فى المسير نحو الجنوب ، مدى إثنى عشر يوماً أخرى ، حتى لاحت لهم جزيرة ، رأوا بها رجالا عمالقة ، ونساء فائقات فى الحسن ، فاعتقلهم ملك هذه الجزيرة أياماً ، حتى جرت الريح الشرقية ، فوضعهم فى سفينة معصوبى الأعين ، وسارت بهم أياماً حتى رست فى مكان تبين أنه من شواطىء المغرب الجنوبى . ويبدو من تفاصيل هذه الرحلة ، أن أولئك المغامرين الأندلسيين ، قد اكتشفوا بعض جزر الكنارى ، أو جزر الرأس الأخضر الواقعة غربى السنغال ؛ ويمكن كذلك إذا توسعنا فى تقدير المدى الذى وصل إليه الأخوة المغرّرون فى رحلتهم نحو الجنوب ، وإذا تركنا جانباً ما تدلى به قصة جزيرة العمالقة ، أن نفترض أن الإخوة المغرّرين ، ربما وصلوا فى رحلتهم جنوباً حتى مياه أمريكا الجنوبية الشرقية[1] .

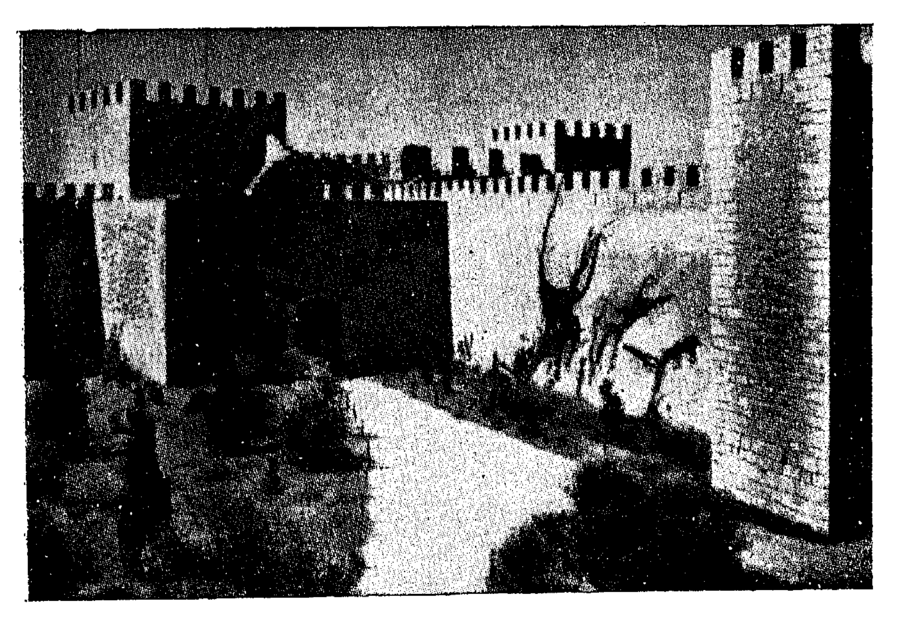
ولايوجد اليوم فى لشبونة (أشبونة) ما يذكرنا بماضيها الأندلسى ، سوى بعض أطلال دوارس ، تجتمع فوق الربوة العالية التى تتوسط قسمها الشرق « ألفاما » ، وبعض عقود قديمة تعين لنا موضع أسوارها الإسلامية . ولن يفوت الباحث المتجول فى هذا القسم من لشبونة ، أن يستشف من خواصه ودروبه الصاعدة ملامح المدينة الأندلسية .

فأما هذه الأطلال الدوارس التى تجتمع فوق الربوة العالية فى « ألفاما » ، فهى أطلال القصبة الأندلسية القديمة ، وهى التى تسمى اليوم بحصن القديس چورج Çastelo da St. Jorge ، وهى أطلال مازالت تحمل بالرغم ما توالى عليها من التغيير والتعديل ، ملامح طرازها العربى .

وتشرف هذه الربوة على المدينة القديمة كلها ، وتشرف على مصب نهر التاجُه . وتقع أطلال الحصن فى طرفها المشرف على النهر ، وهى عبارة عن مجموعة كبيرة مفرقة من العقود والأبراج والأسوار ، ومدخل الحصن عقد عربى ، وكذلك

---

(٢) راجع تفاصيل ذلك فى نزهة المشتاق للشريف الإدريسى ، المختصر (طبع رومة) ص ١٨٢ — ١٨٥ ، وراجع مقالا لى فى ذلك الموضوع نشر فى مجلة الهلال فى عدد يوليه سنة ١٩٣٤ .



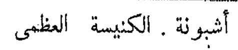
أشبونة . أطلال القصبة الأندلسية المسماة حصن القديس جورج

عقد مدخل الفناء الداخلى ، الذى تحيط به أبراج الحصن . ويوجد ثمة بعد هذا الفناء الأول ، فناء آخر يوصل اليه عقد ثالث . وأقدم أجزاء الحصن فيما يبدو ، هو الجزء الواقع على يمين برجه الرئيسى — برج المدخل — وهو الذى يبدو طرازه العربى واضحاً . وقد بقيت صفوف من سارياته الداخلية على حالها القديم ، وأصلح البعض الآخر ، وأضيفت إليه أبراج من صنع متأخر . وفيه صف من الغرف العليا . والسفلية التى تحتها من ناحية واجهة المدخل ، بيدو أنها كانت تستعمل سجناً فى بعض العصور . وتوجد حول الحصن أطلال كثيرة مبعثرة هنا وهنالك ، مما يدل على أنه كان يشغل مساحة أكثر من تلك التى يشغلها الآن . وتقع خارج الحصن بقية سور قديم ، يبدو أنه جزء من سور الحصن الخارجى ، وأمامه عقد مجدد ، ولكن الجزء الذى فوقه من السور يدل على قدمه ، كما يدل على أنه كان مدخل الحصن من ناحية المدينة .

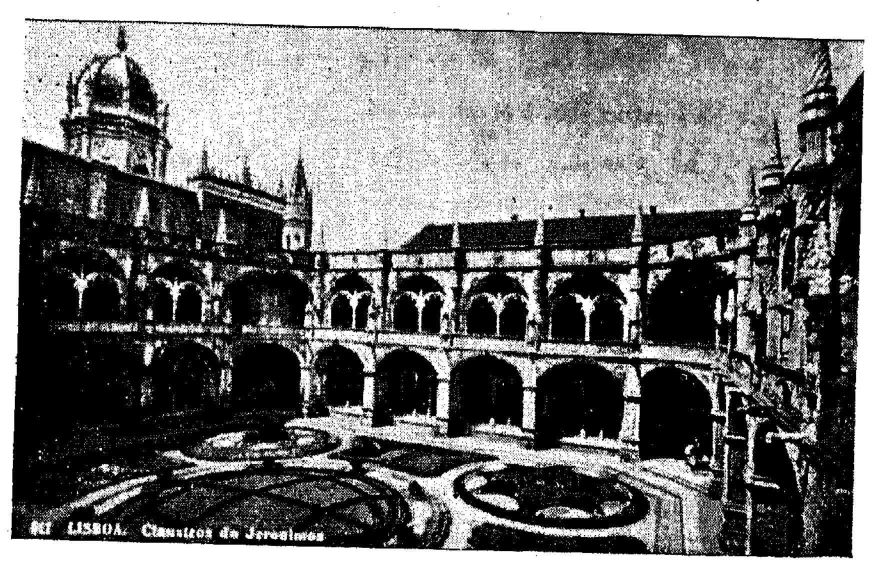
وتقدم مشارف الحصن من علٍ ، منظراً رائعاً لمدينة لشبونة ، مطلة على نهر التاجُه ومصبه ذى اللسان الداخلى ، ويعتبر هذا الأثر اليوم أثراً قومياً ، وتحيط به حديقة غناء .



عقد أبواب البحر أحد الأبواب الأندلسية



أشبونة . الكنيسة العظمى



أشبونة . كنيسة سان چيرونمو

وتقع كتدرائية لشبونة أو كنيستها العظمى La Se ، على مقربة من ربوة الحصن وعلى مقربة من النهر . والمعروف بوجه التحقيق أنها تحتل موقع جامع لشبونة القديم . وكان الملك ألفونسو هنريكيز ، قد حول الجامع عقب فتح المدينة ، إلى كنيسة كاثوليكية فى سنة ١١٥٠ م ، ثم أقيمت الكتدرائية فوق أنقاض الجامع ، ولكن هذه الكتدرائية الأولى هدمتها الزلازل ، فجددت فى أواخر القرن الرابع عشر. وهى كنيسة ضخمة قوطية الطراز ذات مدخل فخم ، وقد عملت لأروقتها الوسطى القائمة فوق عقودها السفلى ، عقود عربية على مثل عقود كنيسة يابرة ، وفى داخلها قبر القديس ڤنسنت حامى مدينة لشبونة .

ويربط بين الكتدرائية وبين حصن سان چورج الواقع فوق الربوة ممر سرى ، هو الذى كان يوصل بين الجامع والقصبة الأندلسية .

وموقع الكتدرائية مكان الجامع فى وسط لشبونة الشرقية (ألفاما) ، وهى التى مازالت تحتفظ بدروبها القديمة الصاعدة ، يدل دلالة واضحة على أن خطط المدينة الأندلسية ، كانت تشغل هذه الرقعة من المدينة الحديثة .

ويحدد نهاية المدينة الأندلسية إلى اليوم ، عدة عقود قديمة تقع على مقربة من النهر فى خط متصل ، مما يدل على أنها كانت من أبواب المدينة الإسلامية . وهذه العقود هى :

(١) العقد المسمى « بالعقد المظلم » Arco Escuro وهو يقع فى نهاية المدينة على النهر ، وهو قوس عتيق عمقه نحو أربعة أمتار.

(٢) عقد أبواب البحر Arco das Portas do Mar وهو يقع على مقربة من العقد الأول ، وفى صفه على استقامته ، وهو يضارعه فى الطراز ، ولكنه أعمق منه قليلا .

(٣) عقد يسوع Arco da Jesus ، وهو يبعد عن العقد الثانى بنحو مائتى متر ، وهو أوسع من قرينيه وأعمق منهما ، يبلغ عمقه نحو ثمانية أمتار ، ومن ورائه ربوة عليها دروب ومسالك عتيقة ضيقة .

ويقع الحصن أو القصبة على بعد من هذه العقود فى اتجاه الغرب .

ويحتفظ متحف لشبونة الأركيولوچى ، بمجموعة من النقد الإسلامى الأندلسى .

ومعالم لشبونة الأثرية الأخرى من دينية وغيرها لاتقع تحت حصر ، وليس

هنا مكان التحدث عنها . ونكتفى بأن نختتم هذه الإلمامة الموجزة ، بالإشارة إلى كنيسة « سان چيرونمو » الواقعة خارج المدينة الحديثة ، وهى من أعظم وأروع الكنائس التى شهدناها ، وقد بنيت على الطراز القوطى ، وزينت بأجمل زخارف عصر الإحياء ، ولها واجهة عظيمة من أروع ما ترى العين . وفى داخلها فناء جميل شاسع ذو عقود قوطية ، وهو القسم الذى كان مخصصاً للدير ، وبها مقابر طائفة من عظماء البرتغال ، مثل الرحالة ڤاسكو داجاما ، والشاعر كموئيس وغيرهما .

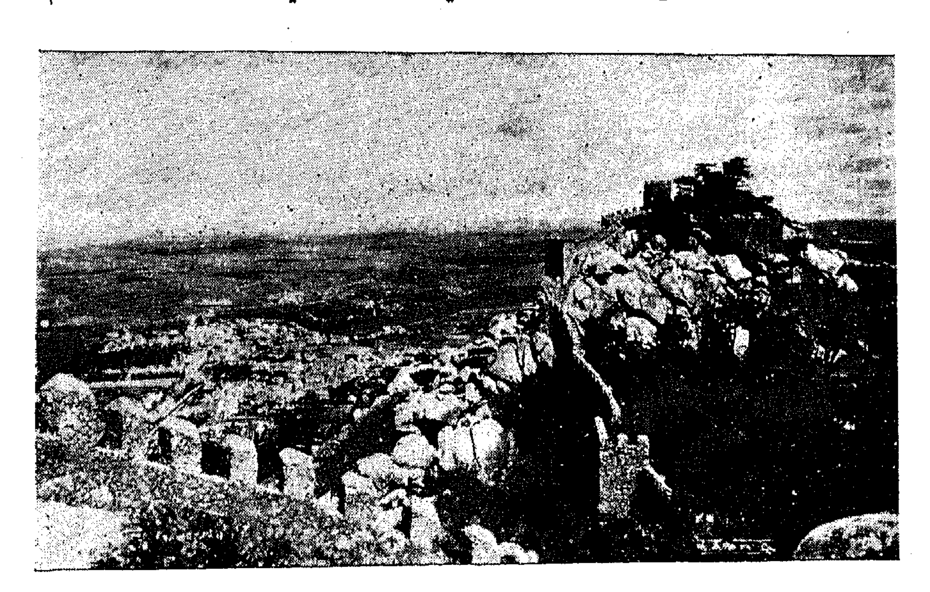
ونختتم أخيراً بالإشارة إلى متحف الركائب الملكية ، وهو فى الواقع فريد فى نوعه ، يضم طائفة كبيرة من العربات الملكية المذهبة ، من كل طراز ، ومن كل عصر .

٦ — شـــــنترة

Cintra

هى مدينة صغيرة تقع غربى لشبونة ، على قيد خمسة وعشرين كيلومتر منها ، وتعتبر من ضواحيها .

وتقع شِنْترة فى سفح جبل عال ، فى بسيط رائع تغطيه الخضرة اليانعة ، والحدائق الغناء ، وتتمتع بموقع طبيعى ساحر . وقد جعلت منها مناظرها الطبيعية الجميلة ، وجوها البديع ، مقصد المتنزهين ، والمنتجعين للراحة والاستجمام .

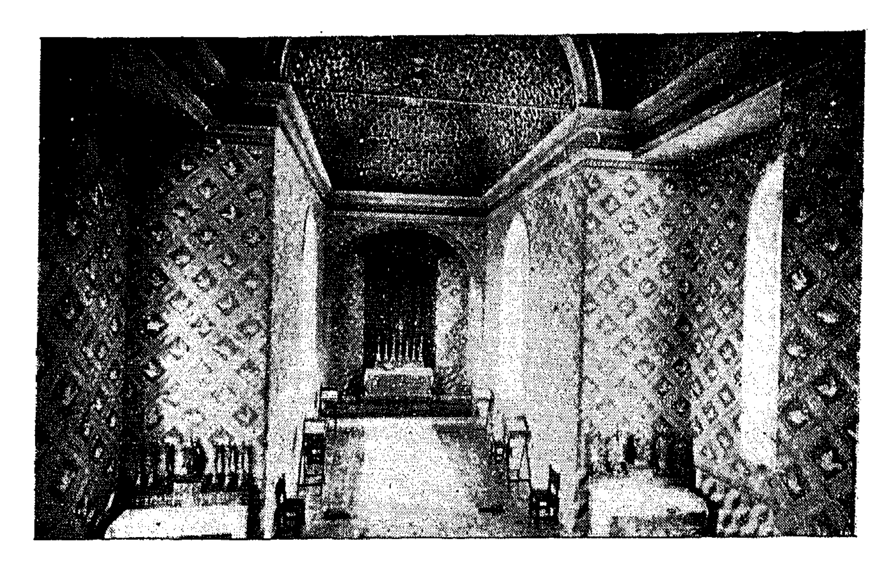


شنترة . منظر عام للحصن الأندلسى فى أعلى الربوة

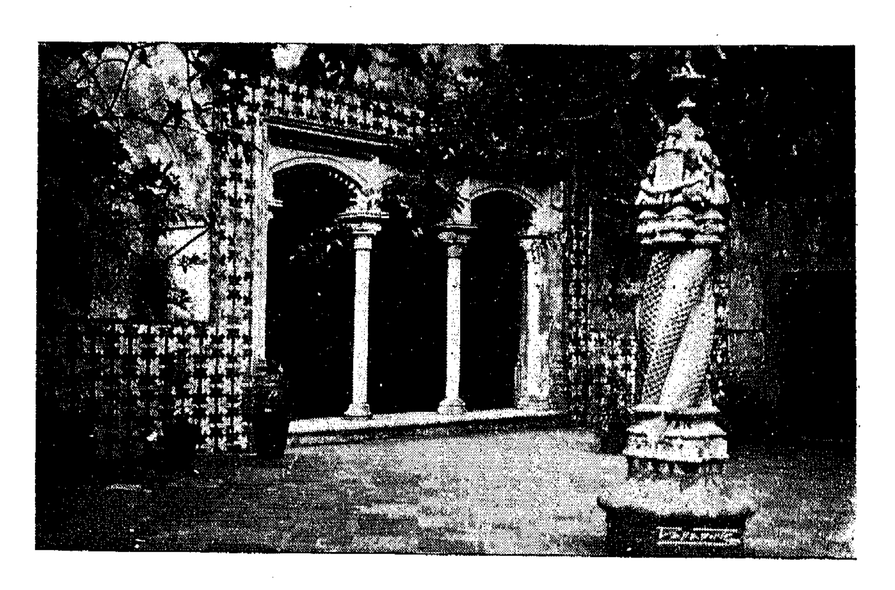
والظاهر أنها كانت تتمتع على كر العصور ، بهذه الخواص الطبيعية الجذابة . فقد جاء فى وصفها فى الروض المعطار ما يأتى :

« من مدائن الأشبونة بالأندلس على مقربة من البحر ، ويغشاها ضباب دائم لاينقطع ، وهى صحيحة الهوى تطول أعمار أهلها ، ولها حصنان فى غاية المناعة »(١).

(١) الروض المعطار ص ١١٢ .



شنترة . مصلى قصر الحراسة ، وكان مسجداً قديماً



شنترة . عقود الحمامات بقصر الحراسة

وتغنى بجمالها شعراء العصر الحديث ، وفى مقدمتهم كموئيس شاعر البرتغال الأكبر ، ولورد بيرون وغيرهما

وكانت شنترة فى العهد الإسلامى كما هى اليوم ضاحية أشبونة الجميلة ، وقد لبثت فى أيدى المسلمين أكثر من أربعة قرون ، ثم سقطت فى يد النصارى، فيما يرجح فى نفس الوقت الذى سقطت فيه أشبونة أعنى فى سنة ١١٤٧ م (٥٤٢هـ).

ومازالت شنترة تضم بعض المعالم الأندلسية الأثرية ، وأهمها الحصن الأندلسى Castelo de Mouros ، وهو يقع فى أعلى الجبل الذى تقع المدينة فى سفحه ، ويشرف عليها من ارتفاع شاهق ، على نمط القصبة الأندلسية ، وما زالت أسواره وأبراجه الخارجية فى حالة جيدة . ولكنه مهدم من الداخل ، وفيه بقية مسجد خرب .

ويقع إلى يمين الحصن فوق الجبل قصر « بينا » ، وهو حديث النشأة ، يرجع إلى أوائل القرن التاسع عشر ، وكان مقاماً للبرنس فون كوبورج.

ويقع فى أسفل الجبل فى السفح الذى يطل عليه الحصن ، أجمل صرح أثرى فى شنترة ، وهو وإن لم يكن أندلسى النشأة ، إلا أنه قد بنى على طراز أندلسى فائق ، ويطلق على هذا الصرح اسم «قصر الحراسة الوطنى» P. Naçioral de Vila ويرجع بناؤه إلى القرن الرابع عشر .

ويضم هذا القصر عدة أبهاء وغرف أندلسية الطراز ، منها قاعة الطعام ، وقد زينت جدرانها بالزليج « القيشانى » الأندلسى الجميل ، وفى وسطها نافورة ، وبها زلعة عربية ، وسقفها مزين بالمقرنصات الخشبية العربية . ومنها بهو الاستقبال الكبير ، وقد زين عرشه بمقرنصات عربية ، وله مشرقية جميلة ذات عقود عربية تطل على المدينة .

ويوجد فى وسط القصر مصلى كبير مسقف بالخشب المقرنص ، وفى صدره عقد ، وقيل لنا إنه كان مسجداً خاصاً ، فحول إلى مصلى نصرانى ، وقد يبدو من هيئته وطرازه ما يؤيد ذلك القول .

وفى فناء القصر توجد نافورة وحمام على الطراز العربى ، ذو ثلاثة عقود رخامية جميلة .

ويبدو قصر شنترة على وجه العموم ، إسلامى الطراز فى سائر جنباته ومظاهره ، وهو يدل على ما كان للفن الأندلسى ، من عظيم الوحى والتأثير فى تلك العصور .

٧ – شنترين
Santarem

ذكرت ، وأنا أسير وئيداً فى الطريق الجبلى الصاعد إلى مدينة شنترين ، ابنها الكاتب الأندلسى الأشهر ، ابن بسّام الشنتريني صاحب كتاب « الذخيرة » ، الذى وضع مصنفه التاريخى والأدبى الرائق ، قبل سقوط شنترين فى أيدى النصارى بأعوام قلائل ، وغادرها حسبما يحدثنا فى مقدمة « الذخيرة » إلى إشبيلية ، مضطرب الأحوال ، كسير الفؤاد ، قبل أن تقع الطامة ، وتسقط المدينة فى أيدى القوى المتربصة بها[١] .

وشنترين مدينة قديمة ترجع إلى العهد الرومانى ، وهى من مدن ولاية إسترمادوره البرتغالية ، تقع فى شمال شرقى أشبونة على قيد خمسين كيلومتراً منها ، على الضفة اليسرى لنهر التاجُه . وكانت أيام المسلمين نظراً لحصانة موقعها فى منعطف النهر ، من المراكز الأمامية للمعارك المستمرة بين المسلمين والنصارى ، ولها فى ميدان الجهاد تاريخ مؤثر . فقد سقطت فى يد النصارى الأول مرة فى سنة ٤٨٦ هـ (١٠٩٣ م) ، حينما استولى عليها ألفونسو السادس ملك قشتالة ، ولكن المسلمين استردوها ، واستمر سلطانهم بها عصراً آخر . ولما اشتد ساعد مملكة البرتغال الناشئة ، وأخذ ملكها ألفونسو هنريكيز ، يغير على المدن الإسلامية المجاورة ، كانت شنترين من المدن التى استولى عليها ، وكان سقوطها فى يد النصارى للمرة الثانية سنة ١١٤٧ م (٥٤٢ هـ) . وفى سنة ١١٨٤ م (٥٨٠ هـ) حاول الموحدون استردادها بقيادة الخليفة أبى يعقوب يوسف ، ففشلت المحاولة وقتل أبو يعقوب تحت أسوارها ، أو توفى بعد ذلك بأيام قلائل من الجراح التى أصابته فى الموقعة .

وتحتل شنترين ربوة عالية تطل على بسائط خضراء يانعة ، تغطيها المحاصيل والحدائق وغابات الزيتون ، وهى مدينة متوسطة الحجم مشرقة الطالع ، بها شوارع وميادين حسنة ، وشوارعها الجانبية ضيقة ، ومنازلها منخفضة ذات طابق أو اثنين وأحياناً ثلاثة ، وهى هادئة الحركة ، جافة الهواء . ويبلغ ارتفاعها فوق سطح

---

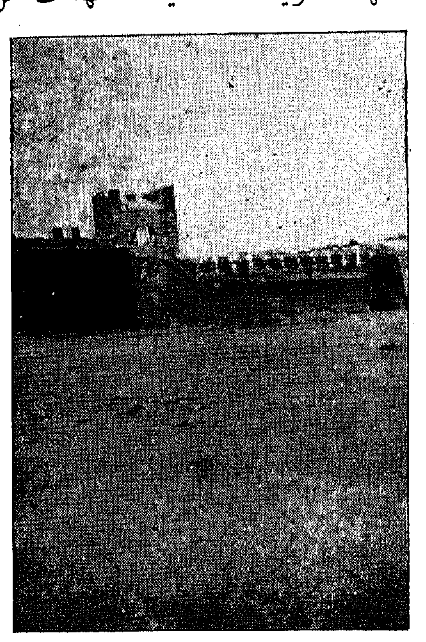
(١) مقدمة الذخيرة (طبعة جامعة القاهرة) ص ٨ .

الوادى نحو ثلاثمائة متر ، ويبلغ سكانها حسبما علمت أربعة عشر ألف نسمة .

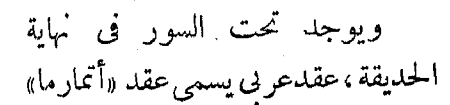
ويقع قسم من المدينة على ربوة مقابلة أخرى ، أقل ارتفاعاً من الربوة الرئيسية ، وتقع بعض أحيائها على السفح المنحدر نحو السهل .

وتبدو شنترين على وجه العموم ذات طابع خاص ، وترتسم على دروبها الضيقة الرطبة الآخذة من شارعها الرئيسى ، ملامح المدينة الأندلسية بالرغم من ثوبها النصرانى ، وإنه ليخالجك هذا الشعور بنوع خاص ، حين تنحدر إلى أزقتها الصاعدة الضيقة وتتأمل طراز منازلها القديم ، وأكثر ما يبدو هذا الطابع قوة فى الأحياء الواقعة على الربوة الصغرى .

وما زالت شنترين تحتفظ ببعض معالمها الأثرية الأندلسية ، فهنالك من أسوارها القديمة ، قطعة كبيرة فى حالة جيدة تتكون من زاويتين ، وتقع فى طرف المدينة الشمالى ، وراء الكنيسة العظمى ، وعلى مقربة منها توجد قطعة أخرى ، تحد الآن متنزه المدينة الواقع خارجها ، ولكن ما بقى منها لايتعدى ارتفاعه نحو مترين ولايتعدى طوله مائة متر . وتشرف الربوة التى يحيط بها السور والتى يتوسطها المتنزه الكبير ، على نهر التاجُه قبالتها ، وهو يجرى تحتها وينحنى عندها .



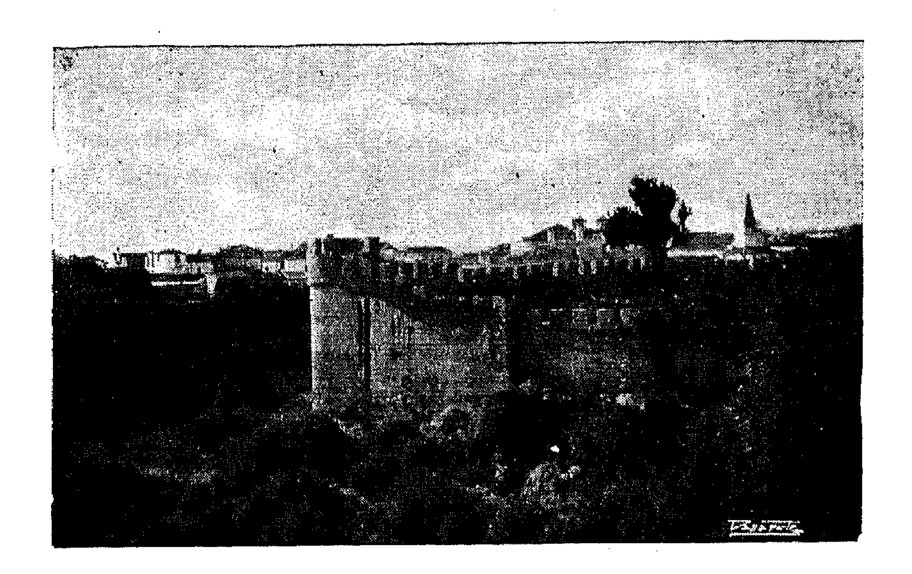
شنترين . بقية من الأسوار الأندلسية



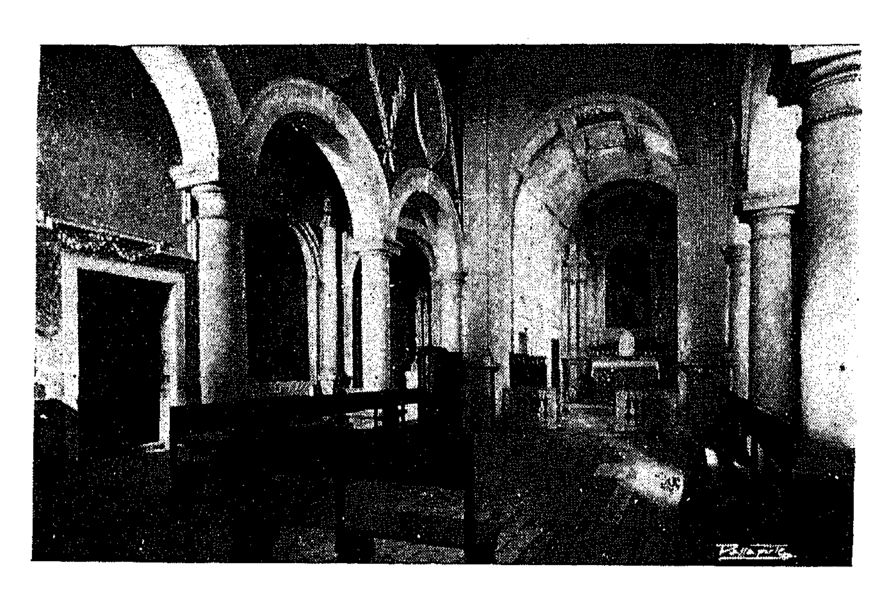
ويوجد تحت السور فى نهاية الحديقة ، عقد عربى يسمى عقد «أتمارما» Arco d'Atamrma ، ويقال إنه هو الباب الذى دخل منه الملك ألفونسو هنريكيز المدينة ، عقب سقوطها فى يد النصارى .

كذلك توجد قطعة ثالثة من الأسوار القديمة ، فى طرف المدينة عند مدخلها ، وهو مما يحدد موقعها القديم .

أما بالنسبة الكنائس فإن شنترين تضم عدة كنائس أثرية ، منها الكنيسة العظمى



شنترين . أطلال القصبة الأندلسية خارج المدينة ، وهى المسماة اليوم « أبواب الشمس »



شنترين . كنيسة الكسوڤا من الداخل

المسماة كنيسة سان فرنسسكو ، وهى كنيسة كبيرة ذات عقود عالية قوطية الطراز ، وهى قديمة ترجع إلى القرن الثالث عشر ، وقد جددت كلها ، ولكن إفريز مدخلها قديم جداً ، والظاهر من موقعها فى طرف المدينة على مقربة من الأسوار الأندلسية ، أنها بنيت فوق موقع جامع القصبة ، التى كانت تحتل هذه البقعة .

ومنها كنيسة « ألكسوڤا » Alcaçovas وهى أقدم كنائسها ، وقد أنشأها فرسان المعبد (الداوية) منـــذ عصر الفتح النصرانى ، أى فى منتصف القرن الثانى عشر ، وتقع فى طرف المدينة الشرقى ، وهى ذات عقود عربية .

ومنها أيضاً كنيسة القديس يوحنا Sao Joao ، وهى اليوم متحف ، ويدل برج أجراسها الذى هو منارة مسجد قديم ، على أنها بنيت فوق موقع هذا المسجد. وكنيسة « بيدادى » Piedade ، وهى صرح صغير ذو عقود عربية .

وثمة أثر آخر يقع خارج المدينة فى شمالها الشرقى ، على مقربة من الأسوار القديمة يسمى نافورة فجيراس Figueiras ، وهو عبارة عن بناء يتكون من ثلاثة عقود ، اثنان جانبيان والثالث فى الواجهة ، وعليه قبة قوطية ، وتحتها نافورة ماء ، وهو أثر نصرانى يرجع إلى القرن الثالث عشر .

خاتمـــــــــة

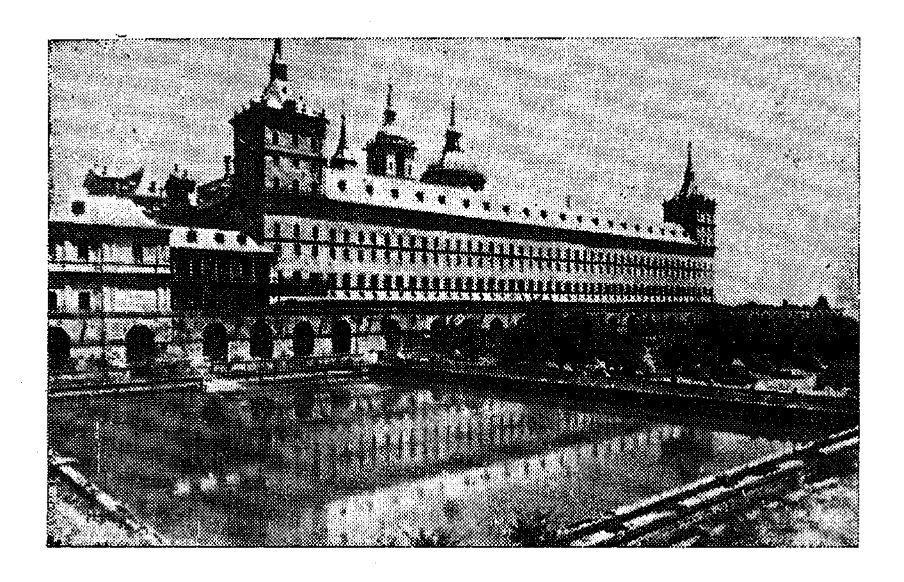
١ – تراث الأندلس الفكرى

لابد لنا ونحن نتحدث عن الآثار الأندلسية الباقية ، أن نتحدث عن تراث الاندلس الفكرى الذى أبقت عليه يد الزمن إلى يومنا ، كما أبقت على الصروح والآثار التى وصفناها فيما تقدم ، من فصول هذا الكتاب . ولسنا نعنى بتراث الأندلس الفكرى هنا ، ما حققه مسلمو الأندلس من ضروب التقدم فى ميدان العلوم والآداب والفنون ، فإن الكلام فى ذلك هو من صميم البحث فى نواحى الحضارة الأندلسية ، وإنما نقصد أن نشير إلى مجموعات الكتب ، التى ورثتها اسبانيا عن الأمة الأندلسية ، والتى مازالت إلى اليوم محفوظة بها .

ولا مراء فى أن أعظم مجموعة من هذا النوع ، هى مجموعة الكتب العربية بمكتبة الإسكوريال . ولهذه المجموعة الفريدة من تراث المكتبات الأندلسية ، قصة مؤثرة أيضاً . فإنه لما سقطت مدينة غرناطة آخر الحواضر الإسلامية فى يد الإسبان فى فاتحة سنة ١٤٩٢ ، م كانت ما تزال غاصة بالمكتبات والمجموعات الخاصة ، من نفائس التراث الأندلسى ، هذا عداما كان محفوظاً فى غيرها من المدن الإسلامية الأخرى ، التى افتتحها الإسبان فى هذا الوقت ، مثل وادى آش ومالقة وألمرية ورندة وغيرها . وفى سنة ١٤٩٩ أعنى بعد سقوط غرناطة بأعوام قلائل ، بدأت السياسة الإسبانية فى تنفيذ خطتها المبيتة فى تنصير المسلمين ، والقضاء على مقوماتهم الروحية والفكرية والاجتماعية ، فدعتهم إلى التنصير وتوسلت إلى فرضه عليهم بمختلف الوسائل . ورأى الكردينال خمنيس مطران طليطلة ، وبطل هذه السياسة الموضوعة ، أن يقرن هذه المحاولة بمحاولة القضاء على آثار التفكير الأندلسى ، لكى يحرم أبناء الأمة المغلوبة ، من قوتهم الروحى والعقلى ، فأمر بجمع آثار التفكير الأندلسى من أنحاء غرناطة وغيرها ، وجمعت الكتب الأندلسية أكداساً مكدسة فى ساحات غرناطة ، واحتفل بإحراقها فى حفل من أعمال الإيمان Auto-da-fe ولم يستثن منها سوى ثلاثمائة كتاب من كتب الطب والعلوم ، وهبت لجامعة ألكالا « القلعة » دى هنارس . وبلغ ما هلك من الكتب العربية فى تلك المحنة ، أكثر من مائة ألف كتاب ، وذلك وفقاً لأدق التقديرات وأكثرها اعتدالا .

ومن الغريب أن هذا العمل الذى يشين أى مجتمع متمدن ، والذى يندد به كثير من أقطاب التفكير الأوربى ، يجد بين العلماء الإسبان المحدثين ، من يؤيده ويشيد به وبنتائجه فى حماية سياسة التنصير الإسبانية . ويكفى أن نشير إلى رسالة المستشرق سيمونيت فى هذا الموضوع ، وإلى ما يبديه فيها من حماسة بالغة ، فى الدفاع عن تصرف الكردينال خمنيس[1] .

واستمرت إسبانيا النصرانية فى تعقبها للكتب العربية ومطاردتها ، ثم حظر استعمال اللغة العربية على الموريسكيين أو العرب المتنصرين ، وفرضت عليهم اللغة القشتالية فى الكتابة والتعامل ، وخمدت بذلك آخر جذوات التفكير الأندلسى ،



قصر الاسكوريال

ولم تبق يد التعصب والجهالة إلا على بقية يسيرة من الآثار العربية ، جمعت وحملت فيما بعد إلى قصر الإسكوريال ، لتودع فيه فى المكتبة الملكية ، لا كتراث عقلى ينتفع به ، ولكن كتحفة وغنيمة من غنائم النصر الإسبانى .

ويقع قصر الإسكوريال فى الضاحية المسماة باسمه ، وهى تقع على مقربة من مدريد فى واد عميق تحف به الجبال . وقد أنشأ الملك فيليب الثانى هذا القصر

(١) F. J. Simonet : El Cardinal Ximenez de Cisneros y los Manuscritos Arabigo - Granadinos.

سنة ١٥٥٧ م ، تخليداً لذكرى انتصاره على الفرنسيين فى موقعة سان كنتان ، وتنوبهاً بذكرى القديس لورنسو ، الذى استمد منه العون والنصر فى تلك الموقعة. ويعتبر قصر الإسكوريال من أعظم الصروح الملكية فى أوربا ، وهو يضم مقاماً ملكياً ، وكنيسة ، وديراً ، ومكتبة ومعهداً دينياً ، ومدفناً ملكياً ، وهى جميعاً آية فى الروعة والفخامة .

والذى يهمنا هنا من هذا الصرح العظيم ، هو مكتبته الشهيرة التى تثوى فى أقبيتها ، البقية الباقية من تراث الأندلس الفكرى . وهى تقع فى جناحه الأيمن ، وإلى جانبها يقع المعهد الدينى الذى يشرف عليه الآباء الأوغسطينيون ، وهم الذين يشرفون فى الوقت نفسه على المكتبة . وتضم المكتبة بهواً شاسعاً فخماً تعرض فيه طائفة من المخطوطات النفيسة النادرة التى تحتويها المكتبة ، ومنها مصحف ملكى كريم كان ملكاً للمنصور السعدى سلطان المغرب ، وقد زينت صفحاته بنقوش ذهبية رائعة .

ومكتبة الإسكوريال ليست غنية من الناحية الرقمية ، فهى تحوى ستين ألف مجلد فقط ، ولكنها غنية بالأخص بما تحتويه من نوادر المخطوطات العربية واللاتينية واليونانية والعبرية وغيرها ، وهى تبلغ نحو عشرة آلاف مخطوط . ويبلغ ماتحتويه اليوم من المخطوطات العربية ألفاً وتسعمائة وعشرين مجلداً .

وترجع هذه المكتبة التى تجذب اليوم محتوياتها ، جمهرة الباحثين من سائر أنحاء العالم ، إلى عصر فيليب الثانى ذاته ، وكانت فى بدايتها تتكون من المكتبة الملكية الصغيرة ، ومما كان يشتريه سفراء الملك من المخطوطات النادرة من مختلف الأقطار ، وضمت إليها منذ البداية بضعة ألوف من المخطوطات العربية التى جمعت بعد سقوط غرناطة ، من غرناطة نفسها ، ومن سائر القواعد الأندلسية المغلوبة . ثم زادت هذه المجموعة العربية زيادة كبيرة فى عصر فيليب الثالث ، حينما استولت السفن الإسبانية فى مياه المغرب ، فيما بين آسفى وأغادير فى سنة ١٦١٢ م ، على سفينة مغربية كانت تنقل مكتبة مولاى زيدان سلطان مراكش ، وقوامها ثلاثة آلاف مجلد فى مختلف العلوم والفنون ، وبذلك بلغت المجموعة العربية فى الإسكوريال ، فى أوائل القرن السابع عشر ، نحو عشرة آلاف مجلد .

ولبثت هذه الآلاف العشرة ، من المخطوطات الأندلسية والمغربية ، فى

قصر الإسكوريال زهاء نصف قرن ، وكانت أغنى وأنفس مجموعة من نوعها . ولكن محنة جديدة أصابت هذه البقية الباقية من تراث الأندلس الفكرى . ففى سنة ١٦٧١ ، شب فى القصر حريق التهم معظم هذا الكنز الفريد ، ولم ينقذ منه أكثر من ألفين ، هى التى تثوى اليوم فى أقبية الإسكوريال .

ومما هو جدير بالذكر ، أن سلاطين المغرب بذلوا أكثر من محاولة لاسترداد الكتب العربية من اسبانيا ، وكان يحدوهم فى ذلك شعور بأن هذا التراث الفكرى للأمة الأندلسية الشهيدة ، إنما هو تراثهم المشترك ، وأن المغرب هو الوارث الطبيعى لهذا التراث ، خصوصاً وقد كان بين محتوياته مكتبة مولاى زيدان الشهيرة ، ومن ثم فقد بعث مولاى اسماعيل عاهل المغرب الكبير ، فى سنة ١١٠٢ هـ (١٦٩١ م) ، وزيره الكاتب محمد بن عبد الوهاب الغسانى ، سفيراً إلى كارلوس الثانى ملك اسبانيا وكان من مهمته إلى جانب السعى فى تحرير الأسرى المغاربة الموجودين بإسبانيا ، أن يسعى فى استرداد الكتب العربية ، وقد نجح السفير فى تحقيق الشطر الأول من مهمته ، ولكنه لم ينجح فى تحقيق الشطر الثانى . وفى سنة ١١٧٩ هـ (١٧٦٥ م) ، أرسل مولاى محمد بن عبد الله سلطان المغرب ، كاتبه أحمد بن مهدى الغزّال ، سفيراً إلى كارلوس الثالث ملك اسبانيا ، ليضطلع بنفس المهمة المزدوجة ، أعنى العمل على تحرير الأسرى المغاربة ، واسترداد الكتب العربية ، ولكنه لم يحرز فى مهمته بشأن الكتب نجاحاً يذكر ، وإن كان قد استطاع أن يحصل من الإسبان على قدر من الكتب العربية ، ليس من بينها شىء من محتويات الإسكوريال[1] .

وكانت الحكومة الإسبانية خلال هذه العصور تحرص كل الحرص على إخفاء هذه الآثار العربية ، عن نظر كل باحث ومتطلع ، كأنما كانت تخشى أن تتسرب روح التفكير الإسلامى ، إلى تفكير اسبانيا النصرانية . وكان الكتاب الإسبان أنفسهم يعرضون عن كل بحث وتنقيب فى هذه المجموعة النفيسة ، ويؤثرون أن تكتب كتبهم من جانب واحد ، ومن ثم كانت كتبهم فى هذه العصور تفيض

(١) ترك لنا كل من هذين السفيرين كتاباً عن مهمته ، فكتب الأول محمد بن عبد الوهاب الغسانى كتابه المسمى « رحلة الوزير فى افتكاك الأسير » (تطوان سنة ١٩٣٩) ، وكتب الثانى كتابه المسمى « نتيجة الاجتهاد فى المهادنة والجهاد » (تطوان ١٩٤١) . وكل يقص فى كتابه ، سيرة رحلته ، وأحوال اسبانيا فى عصره ، وما حقق من نتائج مهمته . وقد سبق أن اقتبسنا فيما تقدم بعض فقرات من هذا الكتاب أو ذاك .

يالتحامل والتعصب ، فى كل ما يتعلق باسبانيا المسلمة وتاريخها وحضارتها .
وأخيراً تنبهت الحكومة الإسبانية إلى أهمية هذه المجموعة من الناحية العلمية والتاريخية ، فندبت لمراجعتها والتعريف بها عالماً شرقياً يجمع بين الثقافتين الشرقية والغربية ، هو ميخائيل الغزيرى اللبنانى ، الذى يعرف فى الغرب باسم «كازيرى» Casiri . فعكف على دراستها بضعة أعوام ، وانتهى بأن وضع عنها فهرسه الشهير باللاتينية المسمى «المكتبة العربية الإسبانية فى الإسكوريال» Bibliotheca Arabico - Hispana Escurialensis فى جزئين كبيرين ، ظهر أولها فى سنة ١٧٦٠ والثانى فى سنة ١٧٧٠ ، ودرس فيهما محتويات المجموعة العربية دراسة وافية ، مقرونة فى أحيان كثيرة بالشرح والتعليق والاقتباس المستفيض . ونحن نقتصر على ذكر أقسام هذه المجموعة حسبما وردت فى فهرس الغزيرى على النحو الآتى :

يبدأ الفهرس بذكر كتب اللغة العربية وعلومها ، وهى تشمل من المخطوط رقم ١ حتى رقم ١٥٩ . ثم يليها الشعر وأبوابه وعلومه ، ويشمل هذا القسم من رقم ١٦٨ إلى ٤٨٨ . ثم الفلسفة ، وما يتعلق بها ، وتشمل من رقم ٤٨٩ إلى ٧٠٥ ثم الأخلاق والسياسة ، وتشمل من رقم ٧٠٦ إلى ٧٨٤ . ثم الطب والتاريخ الطبيعى وتشمل من رقم ٨٧٥ آلى ٩٠١ ، ثم الرياضة والهندسة والفلك ، وتشمل من رقم ٩٠٢ إلى ٩٨٥ ، ثم كتب الفقه وعلوم الدين والقرآن ، وتشمل من رقم ٩٨٦ إلى ١٦١٧ . ثم الآثار النصرانية ، وتشمل من رقم ١٦١٨ إلى ١٦٢٨ ، وهذه هى محتويات الجزء الأول من الفهرس . ويحتوى الجزء الثانى على كتب الجغرافيا ، وتشمل من رقم ١٦٢٩ إلى ١٦٣٥ . ثم التاريخ وتشمل من رقم ١٦٣٦ إلى ١٨٥١ . وهذا الرقم هو نهاية فهرس الغزيرى .

وفى أواخر القرن الماضى قام المستشرق الفرنسى هارتفج ديرنبور بمجهود جديد ، لدراسة المجموعة العربية فى الإسكوريال ، وبدأ وضع فهرس جديد بالفرنسية عنوانه «المخطوطات العربية فى الإسكوريال» Les Manuscrits Arabes de l'Escurial ، وقد اتبع فيه تقريباً طريقة الغزيرى وترقيمه ، واستطاع أن يعثر خلال دراسته على نحو مائة مخطوط عربى جديد ، لم يتناولها سلفه ، إذ يصل فى تعداده إلى الرقم ١٩٥٥ . بيد أنه لم يصدر من هذا الفهرس الجديد سوى الجزء الأول ، محتوياً على كتب اللغة والبلاغة والشعر والأدب والفلسفة ، وذلك من رقم ١ حتى رقم ٧٠٨ ، وقسماً صغيراً من الجزء الثانى محتوياً على كتب الأخلاق والسياسة.

ثم توفى مؤلفه دون إتمامه ، وأصدر من بعد ذلك الأستاذ ليڤى بروڤنسال جزءاً جديداً ، يحتوى على كتب علوم الدين والجغرافيا والتاريخ ، (من رقم ١٢٥٦ إلى ١٨٥٢) .

على أن فهرس الغزيرى ما زال بالرغم من قدمه ، ومما وجه إليه من المآخذ ، هو المعول عليه ، وهو دائماً مرجع الباحثين[١] .

وقد أتيح لنا خلال رحلاتنا الإسبانية المتوالية ، أن نتردد على مكتبة الإسكوريال مراراً وتكراراً ، وأن ندرس فيها طائفة كبيرة من المخطوطات الأندلسية ، ولا سيما ما يتعلق منها بتاريخ اسبانيا المسلمة ونظمها .

* * *

هذا وتوجد أيضاً مخطوطات أندلسية قليلة ، فى بعض المكتبات الإسبانية الأخرى مثل مكتبة مدريد الوطنية ، ومكتبة أكاديمية التاريخ الملكية ، ومكتبة دير ساكرومونتى بغرناطة ، وكذلك فى بعض المكتبات الخاصة .

ومما هو جدير بالذكر ، أن كثيراً من المخطوطات الأندلسية قد تسرب عقب سقوط غرناطة ، وحواضر الأندلس الأخرى ، إلى المغرب ، مع من هاجر إليه من أبناء الأمة المغلوبة ، ومازال البحث الحديث إلى يومنا ، يظفر من آن لآخر فى مدن المغرب ، وفى بواديه ، بالعثور على بعض الكتب الأندلسية ، التى ظن أنها دثرت وبادت .

وإلى جانب هذه المجموعة العربية الباقية من آثار التفكير الأندلسى ، توجد بقية مؤثرة أخرى من تراث الأمة الأندلسية ، يرجع إلى عصر استشهادها ، بعد أن نُصرت ، وغدت طائفة الموريسكيين أو العرب المتنصرين . فقد اضطر أولئك العرب المتنصرون بعد أن أرغموا على ترك لغتهم العربية ، وألزموا باستعمال اللغة القشتالية فى الكتابة والتعامل ، أن يلجأوا إلى استعمال وسيلة جديدة للكتابة العربية ، يحافظون بها على تراث دينهم الذى لبثوا يعتنقونه خفية فى أعماق سرائرهم ، فكانوا يكتبون القشتالية سراً بأحرف عربية ، ويترجمون إليها كثيراً من أحكام الإسلام والآيات القرآنية ، والحديث والفقه ، والصلوات والأدعية النبوية . وتسمى هذه الكتابة « بالألخميادو » Aljamiado أعنى « الأعجمية » . ويوجد الكثير من هذه الكتب الموريسكية ، فى مكتبة مدريد الوطنية ، وبعض المكتبات الإسبانية الأخرى . وقد شهدنا منها الكثير خلال بحوثنا فى مدريد ، ونقلنا منها نماذج عديدة .

---

(١) لخصنا معظم ما ورد فى هذا الفصل من بحث أتم وأوفى ، يتضمنه الفصل الثانى والعشرون من كتابنا « مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام » (الطبعة الثالثة) ص ٢٥٩ — ٢٦٨ .

٢ — الآثار المعنوية

حكم المسلمون معظم أنحاء شبه الجزيرة الإسبانية قروناً ، واستطال حكمهم فى الجنوب ، حيث قامت مملكة غرناطة ، زهاء ثمانية قرون . وكانت نظم الحكومة الإسلامية ، وتقاليد الحياة الاجتماعية الإسلامية ، وكل ما هنالك من مظاهر الحضارة الأندلسية فى التفكير وفى الفنون ، وفى سائر مقومات الحياة العامة والخاصة ، كانت كلها تحدث أثرها فى شبه الجزيرة الإسبانية ، فى الممالك النصرانية المجاورة ، التى كانت تتصل خلال الحرب والسلم بجاراتها المسلمة أوثق اتصال .

وكان النصارى الإسبان ، الذين يعيشون فى ظل الحكومات الإسلامية ، وهم المستعربون أو النصارى المعاهدون من جهة ، والمسلمون الذين يعيشون فى ظل الحكومات النصرانية وهم المدجّنون[١] من جهة أخرى ، كانت هاتان الطائفتان ، اللتان لعبتا فى تاريخ الأندلس أعظم دور ، حلقة الاتصال الوثيق ، فى نقل المؤثرات الحضارية ، من فريق إلى آخر ، وإن كان من المحقق أن هذه المؤثرات ، كانت أعمق وأشد انطباعاً ، فى اسبانيا النصرانية منها فى اسبانيا المسلمة ، إذ كانت الحضارة الأندلسية يومئذ ، أرقى من نظائرها وأشد تفوقاً وازدهاراً .

ولم ينقطع هذا التأثير القوى للحضارة الإسلامية ، فى حضارة اسبانيا النصرانية ، حتى فى العصر الذى أخذ فيه نجم الدولة الإسلامية فى الأفول ، وتضاءلت رقعة الأندلس المسلمة ، حتى انحصرت فى حدود مملكة غرناطة الصغيرة . ذلك أن هذه المملكة الإسلامية الصغيرة ، كانت بالرغم من تضاؤل سلطانها الإقليمي والحربى ، تتمتع بحضارة رفيعة ، وكانت علومها وفنونها ، وأوضاع حياتها الاجتماعية ، مازالت تحدث أثرها فى جيرانها النصارى الإسبان ، وكان المهندسون والعرفاء الغرناطيون ، يشتركون مع زملائهم النصارى ، فى إنشاء القصور والصروح القشتالية ، وفى تجميلها وزخرفتها ، وأحيانا فى زخرفة الكنائس النصرانية ذاتها . ولما سقطت غرناطة ، وانتهت بذلك دولة الإسلام فى الأندلس ، لبثت آثار الحضارة الأندلسية المحتضرة عصراً ، تتسرب إلى اسبانيا النصرانية ، ولبثت

---

(١) المستعربون هم بالإسبانية Los Mozarabes ، والمدجنون هم Los Mudéjares .

الفنون والصناعات الإسلامية مستقى خصباً لمجتمع السادة الجدد للشعب المغلوب ، وظهرت آثار الهندسة والزخارف الأندلسية ، فى كثير من الصروح والكنائس الإسبانية ، التى أقيمت فى القرنين السادس عشر والسابع عشر. وكان الموريسكيون أو العرب المتنصرون عندئذ ، يحملون ما تبقى من تراث آبائهم وأجدادهم المسلمين ، فى مختلف الفنون والصناعات ، ويحتفظون بكثير من تفوقهم وبراعتهم الفنية والزخرفية . وتبدو آثار هذه البراعة ، فى زخارف كثير من كنائس القرن السادس عشر ، وفى زخارف الآنية الخزفية الموريسكية الرائعة ، التى تحتفظ المتاحف الإسبانية بكثير منها .

ولم يغمط البحث الإسبانى المستنير فى عصرنا ، الحضارة الأندلسية حقها ، ولم يحاول أن يغض من أهمية آثارها ، فى تكوين حضارة اسبانيا النصرانية.وفيما يلى بعض ما ورد فى بحث قيم ، للعلامة المستشرق الإسبانى جونثالث پالنثيا ، عن « آثار الحضارة الأندلسية » :

« إن العمارة المدنية والدينية فى بعض نواحيها ، والفنون الرفيعة،والحياةالمرفهة بين النصارى الإسبان ، كانت تقوم على تراث المسلم الأندلسى ، وكان الزليخ الأندلسى يزين الأبراج المدجنية فى بلاد أراجوان ، وكان عريف مسلم ، هو الذى أشرف على زخرفة مصليات الدير الملكى فى برغش ، الذى أنشأه ألفونسو الثامن ، وكذلك المصلى الملكى فى قرطبة ، الذى أنشأه هنرى الثانى .

« ولقد كان المنزل القشتالى ، يعكس نفس تكوين المنزل الأندلسى ، وحتى القصور الملكية ، كانت صورة من القصور الأندلسية ، مثل قصر إشبيلية الفخم ، الذى أمر بإنشائه پيدرو الأول سنة ١٣٦٤ م ، وهو قصر نصف إسلامى ، عمل فيه عرفاء طليطليون وغرناطيون وإشبيليون .

« ثم إن الفن المدجَّنى ، قد تسرب إلى كل منشآت شبه الجزيرة ، فكنيسة « سان خوان التوبة » فى طليطلة ، والكنيسة العظمى (La Seo) فى سرقسطة ، وكتدرائية ترويل ، هى أمثلة واضحة من آلاف الأمثلة ، التى يمكن ذكرها .

« والواقع أنه لامجال للدهشة ، من تكدس هذه المؤثرات الحضارية العربية الأندلسية ، فى الحضارة المسيحية لشبه الجزيرة الإسبانية . ذلك أن الحياة المشتركة مدى قرون عديدة للحضارتين ، كان لابد لها أن تحدث أثرها . على أن هذا الأثر

لم يقف عند شبه الجزيرة الإسبانية ، بل لقد ترك فى أوربا بأسرها ، آثاراً يمكن تقصيها »[١] .

ولقد تحدثت خلال وجودى فى مدريد ، مع صـــديقى العلامة المؤرخ الإسبانى الأستاذ مننديث پيدال Menéndez Pidal ، وهو من أعظم المفكرين والنقدة المعاصرين ، فيما خلفته الأمة الأندلسية من الآثار الباقية ، فى حضارة اسبانيا النصرانية وفى حياتها وتقاليدها ، وفيما يراه من مظاهر هذه الآثار ، فأدلى إلى بما يأتى ، وقد سجلته أثناء حديثى معه :

« أجل ، لقد تركت الأمة الأندلسية آثاراً واضحة فى الحضارة الإسبانية ، وفى الحياة الإسبانية العامة ،وفى تقاليد اسبانيا وعاداتها . وإذا تركنا الآثاروالصروح المادية جانباً ، فإن مظاهر هذه الآثار المعنوية كثيرة . ودعك من الآثار اللغوية فإن هذه معروفة ، وهى ماثلة فى كثير من نظمنا ، ويكفى أن نذكر كلمات : Alférez, Almojarife, Alguacil, Alcaide, Alcalde وغيرها ، للتعبير عن بعض المناصب العسكرية والقضائية . وفى تقاليد الملوكية الإسبانية ، يبدو أثر التقاليد الملوكية الأندلسية ، فمثلا يقرن ذكر الملك بعبارة حفظه الله Que Dios guarda وهو اصطلاح عربى . ويبدو هذا الأثر فى كثير من العادات والتقاليد الإسبانية فى التعامل والأسواق ، وفيما ينادى به الباعة على سلعهم ، وهى نداءات مسجعة ، ترجع إلى أصول أندلسية ، وفى الدعوات الجنائزية ، حيث يقال عن المتوفى (رحمه الله) ، وفى مظاهرالتحية . وفى قصة « السيد » El Cid « أن التحية تكون بتقبيل الكتف » ، وهى عبارة أندلسية . وهكذا نجد أثر التقاليد والعادات الأندلسية ماثلا فى كثير من مظاهر الحياة الإسبانية » .

والواقع أننا شهدنا خلال رحلاتنا المتعددة إلى اسبانيا ، وتجوالنا فى سائر نواحيها ومدنها الأندلسية والنصرانية ، من أحوال الأمة الإسبانية ،ومن مظاهر حياتها المادية والأدبية ، ومن تقاليدها وعاداتها ، كثيراً مما يشير إليه هذا العلامة الكبير فى أقواله الموجزة ، وأدركنا بالمشاهدة والملاحظة ، عمق هذه الآثار التى خلفتها الأمة الأندلسية ، فى وريثة أرضها وحضارتها ، الأمة الإسبانية .

وأشد ما تبدو هذه الآثار فى جنوبى اسبانيا ، أعنى فى منطقة الأندلس

---

(١) A. Gonzalez Palencia : Infuencia de la Civilización Arabe. (Madrid 1931) p. 14 & 15.

الحقيقية ، وهى التى تتكون من ولايات ألمرية، ومالقة ، وغرناطة ، وإشبيلية .
ولقد شعرنا حين التجوال فى هذه المنطقة ، أننا نجوس خلال أمة شرقية ، أكثر منها غربية ، وأن العادات والتقاليد الأوربية المحضة تكاد تختفى ، تحت أكداس من العادات والتقاليد الشرقية . ولا غرو فإن مملكة غرناطة الإسلامية ، لبثت تحتل معظم أراضى هذه الرقعة ، حتى أواخر القرن الخامس عشر ، ولبث الموريسكون أو العرب المتنصرون بعد ذلك ، يعيشون فيها جماعات كبيرة زهاء قرن آخر ، ومن ثم كانت ولايات الأندلس ، آخر مستودع لتراث الحضارة والتقاليد الأندلسية ، وكانت آثار هذه الحضارة والتقاليد ، أرسخ فيها وأبقى من أى جزء آخر من اسبانيا .

ولقد عشنا أوقاتاً فى أنحاء هذا المجتمع الإسبانى ، الذى يحمل الكثير من مظاهر الأمة الأندلسية الذاهبة وتقاليدها ، فماذا رأينا ؟ رأينا أولا من الناحية العنصرية أن سكان هذه المنطقة ، ملامحهم شرقية عربية أكثر منها أوربية ، فقدودهم متوسطة ، وعيونهم وشعورهم فى الأغلب سوداء ، وألوانهم مشربة بالسمرة . وأشد ما تبدو هذه الملامح الشرقية العربية فى أهل غرناطة وما إليها ، فهنالك يشعر الإنسان حقاً بأنه يعيش فى مجتمع يمت بأوثق الصلات العنصرية ، إلى الأمة الأندلسية الذاهبة ، فالوجوه عربية سمراء ، والملامح دقيقة ، والشعور فاحمة ، والعيون سوداء ، ونساء غرناطة هن هن اللائى وصفهن ابن الخطيب فى عصره أعنى فى القرن الرابع عشر الميلادى ، مازلن يبدين نفس أوصافه ، فهو يشير إليهن بقوله :

« وحريمهم حريم جميل موصوف بالحسن ، وتنعم الجسوم ، واسترسال الشعور ، ونقاء الثغور ، وطيب النشر ، وخفة الحركات ، ونبل الكلام ، وحسن المحاورة ، إلا أن الطول يندر فيهن »[1] .

وهذا ما ينطبق حتى اليوم على نساء غرناطة أشد الانطباق .

وهذه الخواص العنصرية الأندلسية ، التى تنطبع أشد الانطباع ، على ملامح سكان اسبانيا الجنوبية ، وولايات الأندلس بنوع خاص ، يجب ألا تدهش أحداً . فإن كثيراً من أولئك الإسبان بالرغم من نصرانيتهم ، تجرى فى عروقهم دماء أسلافهم مسلمى الأندلس . ومن الخطأ أن يقال إن اسبانيا النصرانية ، استطاعت

(١) الإحاطة فى أخبار غرناطة (القاهرة فى سنة ١٩٥٦) ج ١ ص ١٤٤ و ١٤٥ .

بأساليب القمع الذريع ، الذى فرضته على الأمة الشهيدة ، أن تقضى على السلالة العربية الأندلسية . ذلك أن كثيراً من المدجّنين كانوا قبل سقوط الأندلس النهائى ، قد اندمجوا فى المجتمعات الإسبانية التى يعيشون فيها ، وكان الزواج المختلط بين المسلمين والإسبان أمراً ذائعاً ، ولاسيما فى عصور الانحلال الأخيرة . ولما فرضت اسبانيا التنصير على الأمة الأندلسية المغلوبة ، تسرب كثير من العرب المتنصرين إلى المجتمع الإسبانى الأصيل ، واندمجوا فيه . وكان من هؤلاء العرب المتنصرين بعض الفروع الملوكية ، من سلالة بنى نصر ملوك غرناطة ، إذ تنصر عقب سقوط الحاضرة الإسلامية الأخيرة ، ولدا السلطان أبى الحسن من زوجه النصرانية نصر وسعد ، وأسبغ عليهما لقب الدوقات ، وتنصر بعض الزعماء من القادة والوزراء مثل بنى الثغرى زعماء غمارة ، وبنى يحيى النيار بطل بسطة والمرية الشهير بسيدى يحيى ، وأسرة بنّيغش الوزراء . وقد اشتهرت الأسرة الأخيرة بالأخص فى تاريخ اسبانيا فيما بعد ، ونبغ منها عدد من القادة والأحبار ، وعرفت باسم **Los Venegas** وحذا حذو هؤلاء الزعماء فى التنصير ، كثير من الأعيان والأكابر ، واندمجوا فى علية المجتمع القشتالى . ولما قضت اسبانيا بنفى الموريسكيين (العرب المتنصرين) نهائياً من أراضيها ، تسربت ألوف وألوف منهم ، إلى داخل الأراضى الإسبانية ، وكان كثير من السادة الإقطاعيين الإسبان ، يخفون عمالهم ومزارعيهم من الموريسكيين ويحمونهم من النفى ، ضناً بعونهم وبراعتهم فى فلاحة الأرض . وهكذا استطاعت جماعات كبيرة من الأندلسيين المسلمين والمدجنين ، منذ القرن الثالث عشر الميلادى ، ومن بعدهم جماعات كبيرة من العرب المتنصرين ، خلال القرن السادس عشر ، أن تندمج اندماجاً تاما فى المجتمع النصرانى ، وكانت بعض الأسر الإسبانية العريقة تفخر بأرومتها الأندلسية ، ولاسيما فى القرنين السابع عشر والثامن عشر حينما بدأ انحلال اسبانيا[1] . ولن يدهشك اليوم أن تسمع مثل هذا الاعتزاز بالأرومة الأندلسية من بعض الإسبان ، فى بلاد أندلسية عريقة مثل إشبيلية وغرناطة .

وإلى جانب هذه الخواص العنصرية والمادية ، توجد ثمة طائفة من الخواص

---

(١) يقص علينا الوزير محمد بن عبد الوهاب الغسانى سفير ملك المغرب إلى كارلوس الثانى ملك اسبانيا سنة ١٦٩١ م فى رحلته ، بعض الأخبار المتعلقة بذلك (راجع «رحلة الوزير فى افتكاك الأسير» السالفة الذكر ص ١٣) .

الأدبية ، التى تبدو فى كثير من الصفات الأخلاقية والتقاليد والعادات . فقد ورث الإسبان كثيراً من صفات أسلافهم وتقاليدهم ؛ فهم أهل بشاشة و تواضع وطيبة، وهم يميلون إلى الدعة ، ويعشقون ألوان المرح ، ويكثرون من الغناء والرقص ، وينسبون كثيراً من ألوان مرحهم وأغانيهم إلى أصول أندلسية ، وهم يبالغون فى التحية والحفاوة ، ويبتدرونك بقولهم « أولا» Ola (أهلا) على الطريقة الشرقية ، ويتبادل الأقرباء منهم والأخصاء القبلات حتى فى الطرقات ، وفيهم أحياناً نزق وسرعة انفعال وغضب ، ولكن تزول لأقل ترضية ، ولهم بعض عادات ذات مسحة شرقية وإسلامية أحياناً ، فهم مثلا يغسلون أيديهم قبل تناول الطعام وبعد تناوله ، وفى كثير من الفنادق الفخمة ، ترى المغسل قائماً فى قاعة الطعام ، وهى عادة شرقية إسلامية محضة .

وتتسرب هذه الآثار المعنوية ، التى ورثتها اسبانيا النصرانية عن الأمة الأندلسية ، إلى اللغة الإسبانية بقوة . فاللغة الإسبانية هى اللغة اللاتينية الوحيدة التى توجد بين حروفها (الخاء) J, ge, gi (والثاء) Z, ce ci, ، وتمثل فى كلماتها بكثرة . وفى اللغة الإسبانية كلمات كثيرة جداً ، ترجع إلى أصول عربية ومن القواعد المسلم بها أن كل كلمة إسبانية تبدأ « بأل » Al هى عربية الأصل ، تبدأ بأداة التعريف العربية . ونحن نكتفى هنا بأن نورد نماذج قليلة من الكلمات الإسبانية ذات الأصول العربية الواضحة :

منها فى التعابير النظامية :

الوزير (والآن المحضر)	Alguacil
الحاكم . القائد (محافظ السجن)	Alcaide
القاضى . العمدة (رئيس البلدية)	Alcalde
المشرف	Almojarife
الفارس حامل العلم (والآن ملازم ثان)	Alférez
الأمين (المحتسب)	Alamin
العريف	Alarife

المغاورون[1] Almogávares

ومنها فى أسماء الأزهار :

السوسن Azucenas

اليـــاسمين Jazmines

الريحـــان Arrayán

الزهـــر Azahar

ومنها فى أسماء المحاصيل :

البرقوق (المشمش) Albaricoque

الخرشوف Alcachofa

الكافور Alcanfor

الفستق Alfóncigo

الزيتون Aceituna

الزيت Aceite

الأرز Arroz

السكر Azucar

ومنها فى شئون الرى :

البحيرة Albufera
Albuhera

القنطرة Alcántra

الصهريج Zafareche

الســـد Azuda

المســـتى Acequia

السانية (الساقية) Aceña

البركة Alberca

الجب Aljibe

ومنها فى الحرف :

البنـــاء Albañil

---

(١) وهم الجنود الفدائيون أو المجاهدون .

البيطار	Albeitar
الحجام	Alfájeme
الفخّار	Alfarero

ومنها كلمات أخرى متنوعة :

القرية	Alqueria
الربض أو الضاحية	Arrabal
الضيعة	Aldea
المخزن	Almacén
الخزانة	Alacena
الفندق	Funda - Alhóndiga
القصر	Alcázar
القيسرية	Alcaiceria
المسجد	Mezquita
القصبة أو القلعة	Alcazba
الضبة	Aldaba
القنديل	Candil
الشرفة	Axarfe
الجماعة	Aljama
الزمر	Zambra
الشراب	Axarabe
المسك	Almizcle
الجوهر	Aljofar
القفص	Alcahaz
الجص	Aljez
الجبة	Aljuba
المخدة	Almohada
الوصية	Albacea
العافية	Alafia

هذه نماذج قليلة من الكلمات الإسبانية ذات الأصول العربية الواضحة . واللغة الإسبانية مليئة بعدد لاحصر له من هذه الكلمات ، وقد ألفت فى ذلك معاجم خاصة ، لتبيان الكلمات الإسبانية ذات الأصول العربية(١) .

والخلاصة أن الأمة الإسبانية ، تمت إلى الأمة الأندلسية الذاهبة ، بكثير من الظواهر العنصرية والحضارية والاجتماعية ، وتمثل هذه الظواهر بنوع خاص فى أهل الولايات الجنوبية ، الذين كان اتصالهم بالمسلمين أشد وأطول مدى. وقد استطاعت السياسة الإسبانية فى عصور التزمت والتحامل ، بوسائلها العنيفة المغرقة ، ومن ورائها الكنيسة تضطرم بغضاً للأمة الشهيدة ودينها وحضارتها ، أن تسحق تراثها المادى ، وأن تقضى على معظم الصروح والآثار الأندلسية ، ولكنها لم تستطع ، وماكان لها أن تستطيع ، أن تقضى على تراثها المعنوى والحضارى ، فهذا التراث ما يزال إلى يومنا متغلغلا فى روحها وطبائعها ، وفى كثير من مناحى حياتها العامة والخاصة ، سنة الأجيال وقانون الطبيعة الخالد .

---

(١) منها معجم من تأليف العلامة Dozy عنوانه : Glossaire des Mots Espagnol et Portugais derivés de l'Arabe ، وآخر من تأليف المستشرق الإسبانى L.de Eguilaz y Yanguaz عنوانه Glossario de las Palabras Espanolas de Origin Oriental

جـــدول تاريخى

يبين تواريخ سقوط القواعد والمدن الأندلسية
فى أيدى الإسبان والبرتغاليين

أبّدة : سقطت فى أيدى القشتاليين سنة ٦٠٩ هـ — ١٢١٢ م .
آبلة : سقطت نحو سنة ١٤٥ هـ — ٧٦٣ م .
أرشدونة : سقطت فى أيدى القشتاليين سنة ٨٩٢ هـ — ١٤٨٧ م .
أركش : سقطت فى أيدى القشتاليين سنة ٦٤٧ هـ — ١٢٤٩ م .
إستجة : سقطت فى أيدى القشتاليين سنة ٦٣٥ هـ — ١٢٣٧ م .
أسترقة : سقطت فى سنة ١٣٦ هـ — ٧٥٣ م .
أشبونة : استولى عليها البرتغاليون فى سنة ٥٤٢ هـ — ١١٤٧ م .
إشبيلية : استولى عليها فرناندو الثالث سنة ٦٤٦ هـ — ١٢٤٨ م .
الجزيرة الخضراء : سقطت فى أيدى القشتاليين سنة ٧٤٢ هـ — ١٣٤٢ م .
الحامة : سقطت فى يد الملكين الكاثوليكيين سنة ٨٨٧ هـ — ١٤٨٢ م .
ألش : استولى عليها الأرجونيون سنة ٦٤٦ هـ — ١٢٤٨ م .
ألمرية : سقطت فى يد الملكين الكاثوليكيين سنة ٨٩٥ هـ — ١٤٩٠ م .
أوريولة : استولى عليها الأرجونيون سنة ٦٦١ هـ — ١٢٦٢ م .
باجة : سقطت فى أيدى البرتغاليين سنة ٥٥٦ هـ — ١١٦١ م .
بسطة : سقطت فى يد الملكين الكاثوليكيين سنة ٨٩٥ هـ — ١٤٨٩ م .
بطليوس : سقطت فى أيدى القشتاليين سنة ٦٢٦ هـ — ١٢٢٧ م .
بلد الوليد : سقطت فى أوائل القرن العاشر الميلادى .
بلش مالقة : سقطت فى يد الملكين الكاثوليكيين سنة ٨٩٢ هـ — ١٤٨٧ م .
بلنسية : استولى عليها الأرجونيون سنة ٦٣٦ هـ — ١٢٣٨ م .
بياسة : سقطت فى أيدى القشتاليين سنة ٦٢٥ هـ — ١٢٢٧ م .
تطيلة : استولى عليها الأرجونيون سنة ٥١١ هـ — ١١١٧ م .
جبل طارق : سقطت فى أيدى القشتاليين سنة ٨٦٧ هـ — ١٤٦٢ م .

جيّان : استولى عليها القشتاليون سنة ٦٤٤ هـ — ١٢٤٦ م .

دانية : استولى عليها الأرجونيون سنة ٦٥١هـ — ١٢٥٣ م .

رندة : سقطت في يد الملكين الكاثوليكيين سنة ٨٩٠ هـ — ١٤٨٥ م .

روطة : استولى عليها ألفونسو ريموندیس ملك قشتالة سنة ٥٣٤ هـ — ١١٣٩م

سرقسطة : استولى عليها الأرجونيون سنة ٥١٢ هـ — ١١١٨ م .

سمورة : سقطت في سنة ١٣٠ هـ — ٧٥٧ م .

شاطبة : استولى عليها الأرجونيون سنة ٦٤٧ هـ — ١٢٤٩ م .

شريش الفرنتيره : سقطت في يد ألفونسو العالم سنة ٦٦٣ هـ — ١٢٦٤ م .

شقوبية : سقطت في سنة ١٣٠ هـ — ٧٥٧ م .

شلب : سقطت في أيدى البرتغاليين سنة ٦٤٠ هـ — ١٢٤٢ م .

شلمنقة : سقطت في سنة ١٣٠ هـ — ٧٥٧ م .

شلوبانية : سقطت في يد الملكين الكاثوليكيين سنة ٨٩٥ هـ — ١٤٨٩ م .

شنترة : استولى عليها البرتغاليون سنة ٥٤٢ هـ — ١١٤٧ م .

شنترين : استولى عليها البرتغاليون سنة ٥٤٢ هـ — ١١٤٧ م .

شنتمرية الغرب : استولى عليها البرتغاليون سنة ٦٤٧ هـ — ١٢٤٩ م .

شنت منكش : سقطت في منتصف القرن العاشر الميلادى .

طرطوشة : استولى عليها الأرجونيون سنة ٥٤٣ هـ — ١١٤٨ م .

طرّكونة : سقطت في أيدى القطلان سنة ٤٧٢ هـ — ١٠٨٠ م .

طريف : سقطت في أيدى القشتاليين سنة ٦٩١ هـ — ١٢٩٢ م .

طليطلة : استولى عليها ألفونسو السادس سنة ٤٧٩ هـ — ١٠٨٦ م .

غرناطة : سلّمت للملكين في ربيع الأول ٨٩٧ هـ — يناير ١٤٩٢ م .

قادس : استولى عليها ألفونسو العالم سنة ٦٦١ هـ — ١٢٦٢ م .

قرطبة : سقطت في أيدى القشتاليين سنة ٦٣٣ هـ — ١٢٣٦ م .

قرطاجنة : سقطت في أيدى القشتاليين سنة ٦٤٠ هـ — ١٢٤٣ م .

قرمونة : سقطت في أيدى القشتاليين سنة ٦٤٥ هـ — ١٢٤٧ م .

قسطلونة : سقطت في أوائل القرن الثالث عشر .

قلعة جابر : سقطت في أيدى القشتاليين سنة ٦٤٥ هـ — ١٢٤٧ م

قلمرية : استولى عليها فرناندو الأول سنة ٤٥٦ هـ — ١٠٦٤ م .
لاردة : استولى عليها القطلان سنة ٥٤٤ هـ — ١١٤٩ م .
لبلة : استولى عليها ألفونسو العالم سنة ٦٥٥ هـ — ١٢٥٧ م .
لقنت : استولى عليها الأرجونيون سنة ٦٤٦ هـ — ١٢٤٨ م .
لُك : سقطت فى سنة ١٣٧ هـ — ٧٥٤ م .
لورقة : سقطت فى أيدى الأرجونيين نحو سنة ٦٤٥ هـ — ١٢٤٨ م .
لوشة : سقطت فى يد الملكين الكاثوليكيين سنة ٨٩١ هـ — ١٤٨٦ م .
ماردة : استولى عليها القشتاليون سنة ٦٢٨ هـ — ١٢٢٩ م .
مالقة : سقطت فى يد الملكين الكاثوليكيين سنة ٨٩٢ هـ — ١٤٨٧ م .
مترِيل : سقطت فى يد الملكين الكاثوليكيين سنة ٨٩٥ هـ — ١٤٨٩ م .
مجريط : سقطت فى يد ألفونسو السادس سنة ٤٧٦ هـ — ١٠٨٣ م .
مربلة : سقطت فى يد الملكين الكاثوليكيين سنة ٨٩٣ هـ — ١٤٨٨ م .
مربيطر : استولى عليها الأرجونيون سنة ٦٣٦ هـ — ١٢٣٨ م .
مرسية : استولى عليها الأرجونيون سنة ٦٤١ هـ — ١٢٤٣ م .
مكلين ، حصن : سقط فى أيدى القشتاليين سنة ٨٩١ هـ — ١٤٨٦ م .
المنكّب : سقطت فى أيدى الملكين الكاثوليكيين سنة ٨٩٥ هـ — ١٤٨١ م .
ميورقة (والجزائر الشرقية) : افتتحها الأرجونيون سنة ٦٣٠ هـ — ١٢٣٢ م .
وادى آش : سقطت فى أيدى الملكين الكاثوليكيين سنة ٨٩٥ هـ — ١٤٩٠ م
وادى الحجارة : سقطت فى أيدى القشتاليين سنة ٤٧٤ هـ — ١٠٨١ م .
وشقة : استولى عليها الأرجونيون سنة ٤٨٩ هـ — ١٠٩٦ م .
ولبة : سقطت فى أيدى القشتاليين سنة ٦٥٥ هـ — ١٢٥٧ م .
يابرة : استولى عليها البرتغاليون سنة ٥٦١ هـ — ١١٦٥ م .

فهرســـت الموضوعات

الكتاب الرابع

ناقار وقشتالة القديمة

فهرســـت الصور والخرائط

مجموعة الحمراء : ... أمام ص ٢٠٨

مجموعة الكتاب الرابع : أمام ص ٣٢٠

الخــرائط :

فهرست القبائل والطوائف والدول

فهرست البلدان والأماكن

ب ـ ث

ج — خ

د — ز

س — غ

ف — ق

— ك —

ل — م

فهرست الأعـــــلام

ب — ث

ج — ز

س — ع

LOS MONUMENTOS MOROS

EN ESPANA Y PORTUGAL

Estudio Histórico y Arqueológico

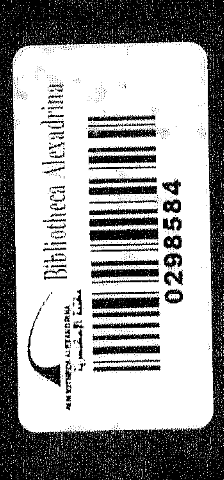
POR

MOHAMED ABDULLA ENAN

Segunda Edición

Imprenta Lagnat ul Talif
El Cairo, 1962

العدد السعر


Bibliotheca Alexandrina
0298584